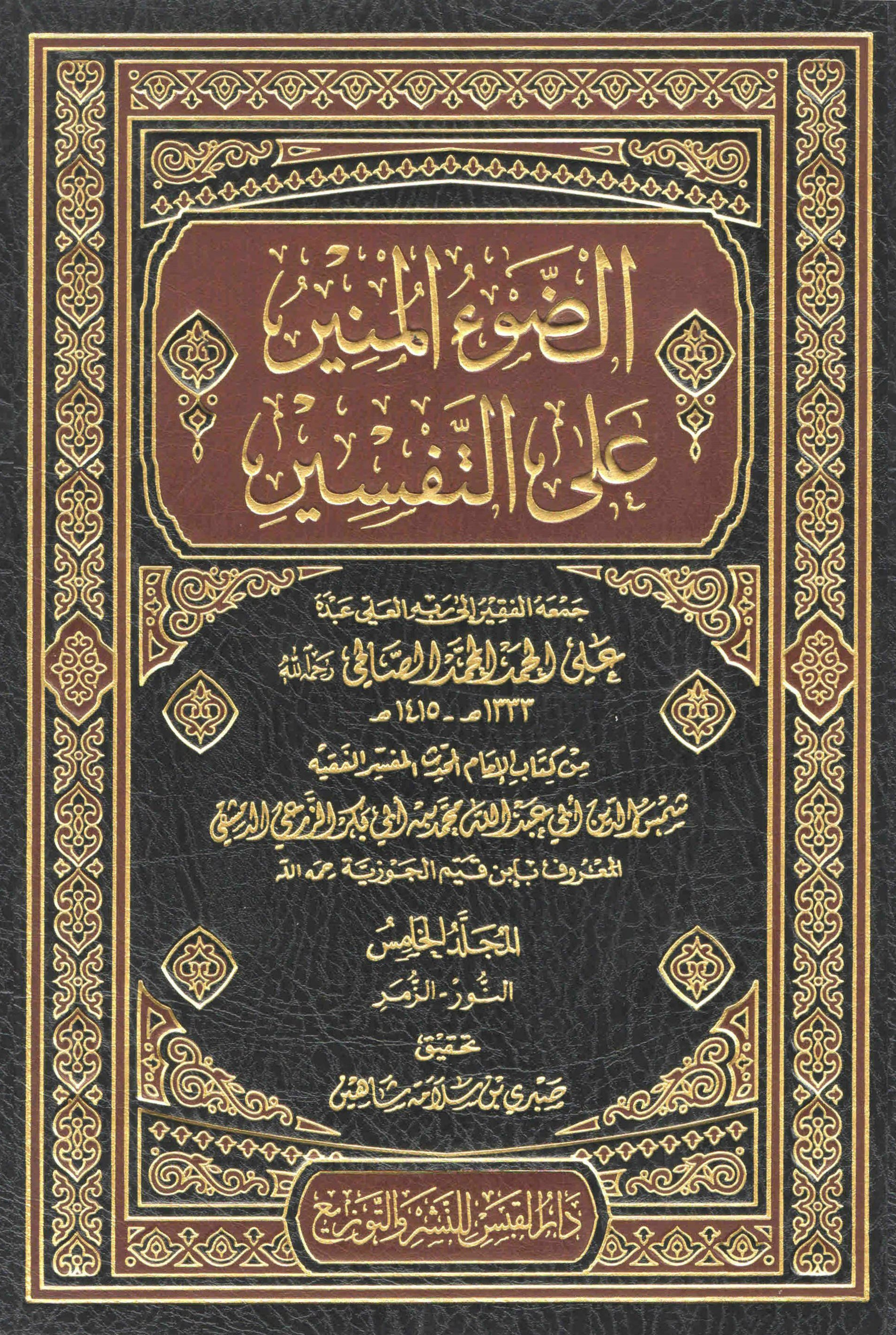
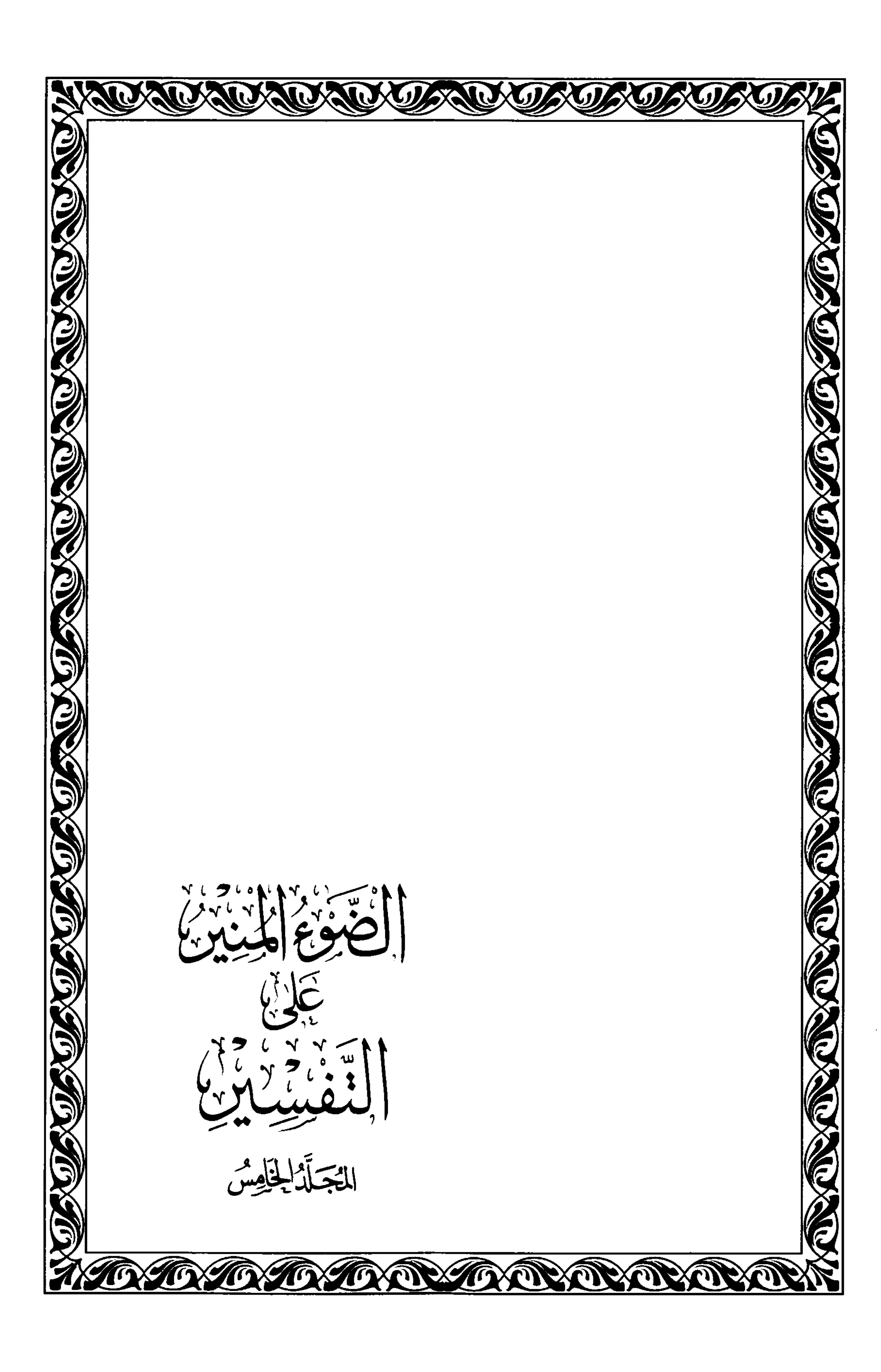
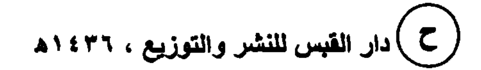


الضوء المنير
على التفسير
جمعه الفقير إلى ربه العلي عبده
علي الحمد المحمد الصالحي رحمه الله
١٣٣٣هـ - ١٤١٥هـ
من كتاب الإمام المحدث المفسر الفقيه
شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي
المعروف بابن قيم الجوزية رحمه الله
المجلد الخامس
النور - الزمر
تحقيق
صبري بن سلامة شاهين
دار القبس للنشر والتوزيع



الضوء المنير
على
التفسير
المجلد الخامس



فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الصالحي، علي الحمد

الضوء المنير على التفسير./علي الحمد الصالحي- ط٢- الرياض، ١٤٣٦هـ

ردمك ٣-٠-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)

٧-٢-٩٠٦١٤-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١-القرآن - تفسير　　أ- شاهين، صبري سلامة (محقق)　　ب- العنوان

ديوي ٢٢٧،٣　　رقم الإيداع ١٤٣٦/١٥

طَبْعَة جَدِيدَة مُصَحَّحَة وَمُحَقَّقَة

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

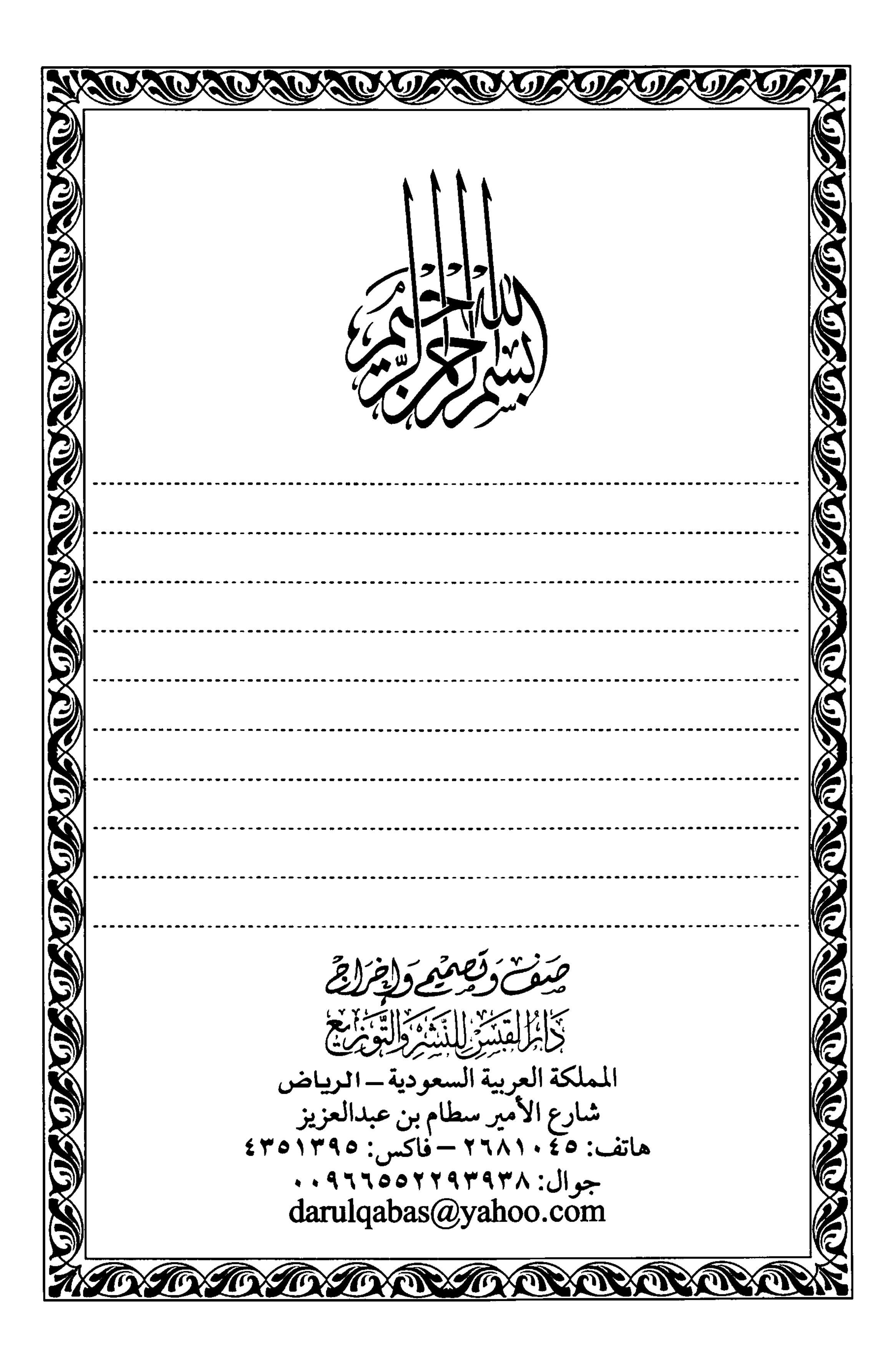
الموقع الرسمي للمؤلف: www.assalehi.com - البريد الإلكتروني: assalehi@hotmail.com

هاتف: ٩٦٦١١٤١١٨٨٩٨+ ، ٩٦٦١١٤١١٨٨٧٤+ ؛ فاكس: ٩٦٦١١٤١٣١٤٧٤+

جوال: ٩٦٦٥٠٥٤٦٥١٩٣+

العنوان البريدي: المملكة العربية السعودية ص.ب: ٢١١٧٠ الرياض: ١١٤٧٥

إنَّ الوَفاء وبذل المعروف من العمل الصَّالح، وإنَّ الله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً. أخي الحبيب، وإن كان لديك معلومات أو وثائق عن والدنا: الشيخ علي الحمد المحمَّد الصَّالحي رحمه الله، نرجو التكرم والتفضل بالاتصال علينا على العنوان أعلاه. نسأل الله للجميع التَّوفيق والسَّداد؛ لما يحبُّه ويرضاه من الأقوال والأعمال، وأن يجعلَ لنا ولكم لسانَ صدق في الآخرين، والحمد لله ربِّ العالمين.



صف وتصميم وإخراج
دار القبس للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية – الرياض
شارع الأمير سطام بن عبدالعزيز
هاتف: ٢٦٨١٠٤٥ – فاكس: ٤٣٥١٣٩٥
جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٢٩٣٩٣٨
darulqabas@yahoo.com



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

...[1] في الصحيحين عن أنس بن مالك أنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكموه أحد بعدي، سمعته من النبي ﷺ، يقول: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقل الرجال، وتكثر النساء، حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»[2].

وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله ﷻ، ويشتد غضبه، فلابد أن يؤثر غضبه في الأرض عقوبة.

قال عبد الله بن مسعود: «ما ظهر الربا والزنا في قرية إلاّ أذن الله بإهلاكها»[3].

ورأى بعض أحبار بني إسرائيل ابنًا له يغامز امرأة فقال: مهلًا يا بني، فصرع الأب عن سريره فانقطع نخاعه وأسقطت امرأته، وقيل له: «هكذا غضبك لي؟ لا يكون في جنسك خير أبدًا»[4].

وخص سبحانه حد الزنا من بين سائر الحدود بثلاث خصائص:

أحدها: القتل فيه بأشنع القتلات وحيث خففه فجمع فيه بين العقوبة على البدن

---

(١) ٢٢٠ الجواب الكافي.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨١) ومسلم (رقم ٢٦٧١) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٣٠) وشرح النووي (١٦/ ٢٢١).

(٣) ذكره الذهبي في الكبائر (ص ٦٣) وابن الجوزي في صفة الصفوة (١/ ٤٢٠) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ١١١ رقم ٢٩٣).

(٤) أخرجه بنحوه أحمد في الزهد (ص ١٠٣) وفي الورع (ص ١١٥) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٣٧٢) وانظر: صفة الصفوة (٣/ ٢٧٥).

بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم، فإنه سبحانه من رأفته بهم ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم بكم منكم بهم، ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره.

وهذا وإن كان عامًّا في سائر الحدود، ولكن ذكر في حد الزنا خاصة لشدة الحاجة إلى ذكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، فقلوبهم ترحم الزاني أكثر مما ترحم من أرباب الجرائم والوقائع، والواقع شاهد بذلك، فنهوا أن تأخذهم هذه الرأفة، وتحملهم على تعطيل حد الله ﷻ.

وسبب هذه الرحمة: أن هذا ذنب يقع من الأشراف والأوساط والأراذل، وفي النفوس أقوى الدواعي إليه، والمشارك فيه كثير، وأكثر أسبابه العشق، والقلوب مجبولة على رحمة العاشق، وكثير من الناس يعد مساعدته طاعة وقربة، وإن كانت الصورة المعشوقة محرمة عليه، ولا يستنكر هذا الأمر: فهو مستقر عند من شاء الله من أشباه الأنعام، ولقد حكى لنا من ذلك شيء كثير أكثره عن ناقصي العقول كالخدام والنساء.

وأيضًا فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين، فلا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما تنفر النفوس منه، وفيها شهوة غالبة له، فتصور ذلك لنفسها، فتقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد، وهذا كله من ضعف الإيمان.

وكمال الإيمان أن تقوم به قوة يقيم أمر الله، ورحمة يرحم بها المحدود، فيكون موافقا لربه سبحانه في أمره ورحمته.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون في خلوة حيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر.

وحد الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله تعالىٰ لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لاشتراك الزنا واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره.

فإن في اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد، ولأن يقتل المفعول به خير له من أن يؤتي، فإنه يفسد فسادا لا يرجىٰ له بعده صلاح أبدًا، ويذهب خيره كله، وتمص الأرض ماء الحياء من وجهه، فلا يستحي بعد ذلك لا من الله ولا من خلقه، وتعمل في قلبه وروحه نطفة الفاعل ما يعمل السم في البدن.

فليس[1] في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في تبعيد القلب من الله، فإنهما من أعظم الخبائث، فإذا انصبغ القلب بهما بعد ممن هو طيب، لا يصعد إليه إلا طيب، وكلما ازداد خبثًا ازداد من الله بعدًا.

ولهذا قال المسيح فيما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد: «لا يكون البطالون من الحكماء، ولا يلج الزناة ملكوت السماء»[2].

ولما كانت هذا حال الزنا كان قريبًا للشرك في كتاب الله تعالىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣].

والصواب: القول بأن هذه الآية محكمة يعمل بها لم ينسخها شيء، وهي مشتملة علىٰ خبر وتحريم، ولم يأت من ادعىٰ نسخها بحجة البتة.

والذي أشكل منها علىٰ كثير من الناس واضح بحمد الله تعالىٰ، فإنهم أشكل عليهم قوله: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ هل هو خبر أو نهي، أو إباحة؟

---

(١) ٦٥ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه أبو خيثمة زهير بن حرب في كتاب العلم (رقم ١٢٧) من قول وهب رحمه الله، وكذا أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٣/ ٣٩١).

فإن كان خبرًا فقد رأينا كثيرًا من الزناة ينكح عفيفة.

وإن كان نهيًا فيكون قد نهى الزاني أن يتزوج إلا بزانية أو مشركة، فيكون نهياً له عن نكاح المؤمنات العفائف، وإباحة له في نكاح المشركات والزواني، والله سبحانه لم يرد ذلك قطعاً، فلما أشكل عليهم ذلك طلبوا للآية وجهًا يصح حملها عليه.

فقال بعضهم: المراد من النكاح الوطء والزنا، فكأنه قال: الزاني لا يزني إلا بزانية أو مشركة. وهذا فاسد، فإنه لا فائدة فيه، ويصان كلام الله تعالى عن حمله على مثل ذلك، فإنه من المعلوم أن الزاني لا يزني إلا بزانية، فأي فائدة في الإخبار بذلك؟ ولما رأى الجمهور فساد هذا التأويل أعرضوا عنه.

ثم قالت طائفة: هذا عام اللفظ خاص المعنى، والمراد به رجل واحد وامرأة واحدة، وهى عناق البَغِي وصاحبها فإنه أسلم، واستأذن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم في نكاحها فنزلت هذه الآية[1].

وهذا أيضاً فاسد، فإن هذه الصورة المعينة وإن كانت سبب النزول فالقرآن لا يقتصر به على محال أسبابه، ولو كان كذلك لبطل الاستدلال به على غيرها.

وقالت طائفة: بل الآية منسوخة بقوله: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢].

وهذا أفسد من الكل، فإنه لا تعارض بين هاتين الآيتين، ولا تناقض إحداهما الأخرى، بل أمر سبحانه بإنكاح الأيامى، وحرم نكاح الزانية، كما حرم نكاح المعتدة والمحرمة، وذوات المحارم، فأين الناسخ والمنسوخ في هذا؟.

فإن قيل: فما وجه الآية؟.

قيل: وجهها ـ والله أعلم ـ أن المتزوج أمر أن يتزوج المحصنة العفيفة، وإنما أبيح له نكاح المرأة بهذا الشرط، كما ذكر ذلك سبحانه في سورتى النساء والمائدة،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٧١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢/ ٣٩٨ رقم ٢١٠٠) والحاكم (٢/ ١٨٠ رقم ٢٧٠١) والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٦٩ رقم ٥٣٣٨) وأبو داود (رقم ٢٠٥١) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٥٣ رقم ١٣٦٣٩) والترمذي (رقم ٣١٧٧) وحسنه.

والحكم المعلق على الشرط ينتفي عند انتفائه، والإباحة قد علقت على شرط الإحصان، فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه الذى شرعه على لسان رسوله، أو لا يلتزمه، فإن لم يلتزمه فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله، وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه، لم يصح النكاح، فيكون زانيا، فظهر معنى قوله: ﴿ لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ [النور: ٣]. وتبين غاية البيان وكذلك حكم المرأة.

وكما أن هذا الحكم هو موجب القرآن وصريحه فهو موجب الفطرة. ومقتضى العقل، فإن الله سبحانه حرم على عبده أن يكون قَرْنانًا(١) دَيُّوثا زوج بغى، فإن الله تعالى فطر الناس على استقباح ذلك واستهجانه، ولهذا إذا بالغوا في سب الرجل قالوا زوج قحبة، فحرم الله على المسلم أن يكون كذلك.

فظهرت حكمة التحريم وبان معنى الآية، والله الموفق.

ومما يوضح التحريم، وأنه هو الذي يليق بهذه الشريعة الكاملة: أن هذه الجناية من المرأة تعود بفساد فراش الزوج وفساد النسب، الذي جعله الله تعالى بين الناس لتمام مصالحهم، وعده من جملة نعمه عليهم، فالزنا يفضي إلى اختلاط المياه، واشتباه الأنساب، فمن محاسن الشريعة: تحريم نكاح الزانية، حتى تتوب وتستبرأ.

وأيضاً فإن الزانية خبيثة، كما تقدم بيانه، والله سبحانه جعل النكاح سببا للمودة والرحمة. والمودة خالص الحب، فكيف تكون الخبيثة مودودة للطيب، زوجا له، والزوج سمى زوجا من الازدواج وهو الاشتباه، فالزوجان الاثنان المتشابهان، والمنافرة ثابتة بين الطيب والخبيث شرعاً وقَدَرًا، فلا يحصل معها الازدواج والتراحم والتواد، فلقد أحسن كل الإحسان من ذهب إلى هذا المذهب، ومنع الرجل

(١) القَرْنَان: نعت سوء في الرجل الذي لا غيرة له، الديوث المشارك في قرينته لزوجته، انظر: اللسان (١٣/ ٣٣٨)، والمغني (٩/ ٨١).

أن يكون زوج قحبة.

فأين هذا من قول من جوز أن يتزوجها ويطأها الليلة، وقد وطئها الزاني البارحة، وقال: ماء الزاني لا حرمة له، فهب أن الأمر كذلك، فماء الزوج له حرمة، فكيف يجوز اجتماعه مع ماء الزاني في رحم واحد؟

والمقصود: أن الله سبحانه سمى الزواني والزناة خبيثين وخبيثات، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة، وإن كان حلالًا، وسمى فاعله جنبًا، لبعده عن قراءة القرآن، وعن الصلاة، وعن المساجد، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء. فكذلك إذا كان حراما يبعد القلب عن الله تعالى، وعن الدار الآخرة، بل يحول بينه وبين الإيمان، حتى يحدث طهرًا كاملًا بالتوبة، وطهرًا لبدنه بالماء. وقول اللوطية: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩].

وهكذا المشرك إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد، وأنه لا يشوبه بالإشراك.

وهكذا المبتدع: إنما ينقم على السني تجريده متابعة الرسول، وأنه لم يشبها بآراء الرجال، ولا بشيء مما خالفها. فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة خير له وأنفع، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله عليه من موافقة أهل الشرك والبدعة.

إِذَا لَمْ يَكُنْ بُد مِنَ الصَّبْرِ فَاصْطَبِرْ ... عَلَى الحقِّ ذَاكَ الصَّبْرُ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ[1]

[2]أما نكاح الزانية فقد صرح الله ﷻ بتحريمه في سورة النور، وأخبر أن من نكحها

(١) لم أقف عليه.

(٢) ١٣ زاد المعاد جـ٤.

فهو إما زانٍ أو مشرك، فإنه إما أن يلتزم حكمه سبحانه، ويعتقد وجوبه عليه أو لا، فإن لم يلتزمه ولم يعتقده فهو مشرك، وإن التزمه واعتقد وجوبه وخالفه فهو زانٍ، ثم صرح بتحريمه فقال: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

ولا يخفى أن دعوى النسخ للآية بقوله: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ من أضعف ما يقال، وأضعف منه: حمل النكاح على الزنا، إذ يصير معنى الآية: الزاني لا يزني إلى بزانية أو مشركة، والزانية لا يزني بها إلا زانٍ أو مشرك، وكلام الله ينبغي أن يصان عن مثل هذا.

وكذلك حمل الآية على امرأة بغي مشركة: في غاية البعد عن لفظها وسياقها، كيف وهو سبحانه إنما أباح نكاح الحرائر والإماء بشرط الإحصان، وهو العفة، فقال: ﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَـٰتٍ غَيْرَ مُسَـٰفِحَـٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

فإنما أباح نكاحها في هذه الحالة دون غيرها، وليس هذا من باب دلالة المفهوم؛ فإن الأبضاع في الأصل على التحريم، فيقتصر في إباحتها على ما ورد به الشرع. وما عداه فعلى أصل التحريم.

وأيضًا: فإنه سبحانه قال: ﴿ٱلْخَبِيثَـٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَـٰتِ﴾ [النور: ٢٦] والخبيثات: الزواني، وبهذا يقتضي أن من تزوج بهن فهو خبيث مثلهن.

وأيضًا: فمن أقبح القبائح: أن يكون الرجل زوج بغي، وقبح هذا مستقر في فطر الخلق، وهو عندهم غاية المسبة.

وأيضًا: فإن البغي لا يؤمن أن تفسد على الرجل فراشه، وتعلق عليه أولادًا من غيره، والتحريم يثبت بدون هذا.

وأيضًا: فإن النبي ﷺ فرق بين الرجل وبين المرأة التي وجدها حبلى من الزنا.

وأيضًا: فإن مَرْثَد بن أبي مرثد الغنوي استأذن النبي ﷺ أن يتزوج عناق ـ وكانت

بغيًّا ـ فقرأ عليه رسول الله ﷺ آية النور، وقال: «**لا تنكحها**»[١].

وسأله ﷺ رجل آخر عن نكاح امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح، فقرأ عليه رسول الله ﷺ الآية، ذكره أحمد[٢].

...[٣]وأفتى ﷺ بأن الزاني المجلود لا ينكح إلا مثله، فأخذ بهذه الفتاوى التي لا معارض لها الإمام أحمد ومَنْ وافقه، وهي من محاسن مذهبه رحمة الله عليه؛ فإنه لم يجوز أن يكون الرجل زوج قحبة، ويعضد مذهبه بضعة وعشرون دليلًا قد ذكرناها في موضع آخر.

[٤]الصحيح من القولين: إن توبة القاذف إكذابه نفسه؛ لأنه ضد الذنب الذي ارتكبه، وهتك به عرض المسلم المحصن، فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه؛ لينتفي عن المقذوف العار الذي ألحقه به بالقذف، وهو مقصود التوبة.

وأما من قال: إن توبته أن يقول: «أستغفر الله» من القذف، ويعترف بتحريمه، فقول ضعيف؛ لأن هذا لا مصلحة فيه للمقذوف، ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به، فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب، فإن فيه حقين:

حقًّا لله، وهو تحريم القذف، فتوبته منه: باستغفاره، واعترافه بتحريم القذف، وندمه عليه، وعزمه على أن لا يعود. وحقًّا للعبد، وهو إلحاق العار به، فتوبته منه: بتكذيبه نفسه، فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين.

فإن قيل: إذا كان صادقًا قد عاين الزنا، فأخبر به، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه

---

(١) تقدم قريبًا.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٧١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٤١٥ رقم ١١٣٥٩) والبيهقي في الكبرى (٧/ ١٥٣ رقم ١٣٦٣٧) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٢١ رقم ١٧٩٨) وأحمد (٢/ ١٥٨، ٢٢٥) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٧٣): رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط بنحوه ورجال أحمد ثقات. وانظر: فتح الباري (٩/ ١٨٥).

(٣) ٣٤٣ أعلام جـ٤.

(٤) ٣٦٣ مدارج جـ١.

وقذفها بالكذب، ويكون ذلك من تمام توبته؟

قيل: هذا هو الإشكال الذي قال صاحب هذا القول لأجله ما قال: إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه، وهو موضع يحتاج فيه إلىٰ بيان الكذب الذي حكم الله به علىٰ القاذف، وأخبر أنه كاذب عنده، ولو كان خبره مطابقًا للواقع، فنقول: الكذب يراد به أمران، أحدهما: الخبر غير المطابق لمخبره، وهو نوعان: كذب عمد، وكذب خطأ، فكذب العمد معروف، وكذب الخطأ ككذب أبي السنابل بن بعكك في فتواه للمتوفىٰ عنها إذا وضعت حملها: «أنها لا تحل حتىٰ تتم لها أربعة أشهر وعشرًا» فقال النبي ﷺ: «كذب أبو السنابل»[1] ومنه قوله : «كذب من قالها» لمن قال: «حبط عمل عامر، حيث قتل نفسه خطأ»[2] ومنه قول عبادة بن الصامت «كذب أبو محمد» حيث قال: «الوتر واجب»[3]، فهذا كله من كذب الخطأ، ومعناه «أخطأ» قائل ذلك.

والثاني من أقسام الكذب: الخبر الذي لا يجوز الإخبار به، وإن كان خبره مطابقًا لمخبره، كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا، والإخبار به؛ فإنه كاذب في حكم الله، وإن كان خبره مطابقًا لمخبره، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣] فحكم الله في مثل هذا: أن يعاقب عقوبة المفتري الكاذب، وإن كان خبره مطابقًا، وعلىٰ هذا فلا تتحقق توبته حتىٰ يعترف بأنه كاذب عند الله،

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٢٩ رقم ١٥٢٤٧) وسعيد بن منصور في سننه (رقم ١٥٠٦) والشافعي في مسنده (ص ٢٤٤) وفي الأم (٥/ ٢٢٤) وأحمد (١/ ٤٤٧) وعبدالرزاق (٦/ ٤٧٤ رقم ١١٧٢٣) قال الهيثمي في المجمع (٥/ ٣): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وأصل الحديث عند البخاري (رقم ٥٣١٨) ومسلم (رقم ١٤٨٤، ١٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٩١) ومسلم (رقم ١٨٠٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٦٧).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٨/ ٣٢٠ رقم ٣٨٥) وابن حبان (٥/ ٢٣ رقم ١٧٣٢) (٦/ ١٧٤ رقم ٢٤١٧) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ١٤٢ رقم ٣٢٢) وأبو داود (رقم ٤٢٥، ١٤٢٠) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٨ رقم ٢٠٥٨) والدارمي (رقم ١٥٧٧) ومالك في الموطأ (١/ ١٢٣ رقم ٢٦٨) والحميدي في المسند (١/ ١٩١ رقم ٣٨٨) وأحمد (٥/ ٣١٥).

كما أخبر الله تعالىٰ به عنه، فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبًا، فأي توبة له؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذي حكم به عليه؟

***

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

[(١)]ثبت في الصحيحين: من حديث سهل بن سعد «أن عُوَيْمِراً العجْلاني قال لِعَاصم بن عدي: أَرأَيتَ لو أنَّ رجلاً وَجَدَ مَعَ امرأتِهِ رجلاً أَيقتُلُه فتقتُلُونه، أم كيف يفعلُ؟ فسل لي رَسولَ اللهِ ﷺ، فسأَلَ رسولَ الله ﷺ، فكره رسولُ اللهِ ﷺ المَسَائِلَ وعَابَها، حتىٰ كَبُرَ علىٰ عاصمٍ مَا سَمِعَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ، ثم إن عويمراً سأل رسولَ اللهِ ﷺ عن ذلك؟ فقال: قَدْ نَزَلَ فيكَ وفي صاحِبَتِكَ، فاذْهَبْ، فَأْتِ بِهَا، فَتَلاَعَنَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا فَرَغَا قال: كذبتُ عَلَيْهَا يا رسولَ اللهِ إن أمسكتُها، فطلَّقها ثلاثاً قَبْلَ أَن يأمُرَهُ رسولُ اللهِ ﷺ». قال الزهريُّ: «فكانت تِلْكَ سنةَ بالمتلاعِنين»[(٢)].

قال سهل: «وكانت حَامِلاً، وكان ابنُهَا يُنْسَبُ إلىٰ أمه، ثم جرت السُّنةُ أَن يَرِثَها وتَرِثَ مِنْهُ ما فَرَضَ اللهُ لها»[(٣)]. وفي لفظ: فتلاعنا في المسجد، ففارقها عندَ النبيِّ ﷺ، فقال النبي ﷺ: «ذاكُم التَّفْرِيقُ بَيْنَ كُلِّ مُتَلاعِنَيْن»[(٤)].

وقولُ سهل: وكانت حاملاً إلىٰ آخره، هو عند البخاري مِن قول الزهري،

(١) ١٨٠ زاد المعاد جـ٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٠٨) ومسلم (رقم ١٤٩٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٢) وشرح النووي (١٠/ ١٢١-١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٦) ومسلم (رقم ١٤٩٢) وانظر: عمدة القاري (١٩/ ٧٤-٧٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٢) وانظر: شرح النووي (١٠/ ١٢٤-١٢٧).

وللبخاري: ثم قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «انْظُرُوا فَإِنْ جَاءتْ بِه أَسْحَمَ أَدْعَجَ العَيْنَيْنِ عَظِيمَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّجِ السَّاقَيْنِ فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِراً إِلاَّ قَدْ صَدَقَ عَلَيْهَا، وإِنْ جَاءتْ بِهِ أُحَيْمِرَ كَأَنَّهُ وحْرَةٌ فَلاَ أَحْسِبُ عُوَيْمِراً إِلاَّ قَدْ كَذَبَ عَلَيْهَا»، فجاءت به على النَّعْتِ الذي نعت به رسولُ اللهِ ﷺ من تصديق عويمر[1].

وفي لفظ: «وكانت حَامِلاً، فأنكر حملَها»[2].

وفي صحيح مسلم: من حديث ابن عمر «أن فلانَ بنَ فلان، قال: يا رسولَ اللَّهِ، أرأيتَ لو وجد أحدُنا امرأتَه على فاحِشةٍ، كيف يصنعُ؟ إن تكلم، تكلَّم بأمر عظيم، وإن سكت، سَكَتَ على مِثْلِ ذلِكَ؟ فسكت النبيُّ ﷺ، فلم يُجِبْهُ، فلما كان بعدَ ذلك، أتاه فقال: إنَّ الَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ قَدِ ابتُلِيتُ بِهِ، فأنزلَ اللهُ ﷻ هؤلاءِ الآيات في سُورَةِ النُّورِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾، فتلاهن عليه ووعظَه، وذكَّره وأخبره أن عذابَ الدنيا أهونُ مِن عذابِ الآخرة، قال: لا والَّذِي بَعَثَك بِالحَقِّ ما كذبتُ عليها، ثم دعاها فوعظَهَا، وذكرها، وأخبرها أن عذابَ الدنيا أهونُ مِن عذابِ الآخرة، قالَت: لا والَّذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ إنه لكاذِبٌ، فبدأ بالرَّجُلِ فَشَهِدَ أربعَ شهادَاتٍ باللهِ إنه لمن الصادقين، والخامسة أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إن كان مِن الكَاذِبِينَ، ثم ثنَّى بالمرأةِ، فشَهِدَتْ أربعَ شهادَاتٍ باللهِ إنَّه لمن الكاذبينَ، والخامسة أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إن كان من الصَّادِقِينَ، ثم فرَّق بينهُمَا»[3].

وفي الصحيحين عنه، قال رسولُ اللهِ ﷺ للمتُلاعنين: «حِسَابُكُمَا عَلَى اللهِ أَحَدُكُمَا كَاذِبٌ، لا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْهَا»، قال: يا رسولَ اللهِ، مالي؟ قال: «لاَ مَالَ لَكَ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا، فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِن فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا، فَهُوَ أَبْعَدُ لَكَ مِنْهَا»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٥) ومسلم (رقم١٤٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٦) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٣١٢) ومسلم (رقم ١٤٩٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٢-٤٥٨) وشرح النووي (١٠/ ١٢٦).

وفي لفظ لهما: فرَّق رسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَ المُتَلاعِنَيْنِ، وقال: «واللهِ إن أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تائِبٌ؟»[1]. وفيهما عنه: «أن رجلاً لاعَنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ففرَّق رسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمَا، وألحق الولد بأمِّه»[2].

وفي صحيح مسلم: من حديث ابن مسعود رضي الله عنه في قِصةِ المتلاعنين: «فشهد الرجلُ أربعَ شهادات باللهِ: إنَّهُ لَمِنَ الصادقين، ثم لعن الخامسةَ: أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إن كانَ مِنَ الكَاذِبينَ، فذهبتْ لتلعنَ، فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «مَهْ» فَأَبَتْ، فَلَعَنَتْ، فلما أدبرت، قال: «لَعَلَّهَا أَنْ تَجِيءَ بِهِ أَسْوَدَ جَعْدًا»، فجاءتْ بِهِ أَسْوَدَ جَعْداً»[3].

وفي صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك، أن هِلالَ بن أمية قذف امرأته بِشَرِيك ابْنِ سَحْمَاء، وكان أخا البَرَاءِ بنِ مالك لأمِّه، وكان أوَّلَ رجلٍ لاعن في الإسلام، فقال النبيُّ ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فإنْ جَاءتْ بِهِ أَبْيَضَ سَبطاً قضيءَ العَيْنَيْنِ، فَهُوَ لهلال بْنِ أُمَيَّة، وَإِنْ جَاءتْ بِهِ أَكْحَلَ جَعْداً حَمْشَ السَّاقَيْنِ، فَهُوَ لِشَرِيكِ بن سَحْمَاء، قال: فأُنبئتُ أَنها جاءت به أكحلَ جعداً حَمْش السَّاقين»[4].

وفي الصحيحين: من حديث ابن عباس نحوُ هذه القصة، «فقال له، رجل: أهي المرأةُ التي قال رسولُ الله ﷺ: «لَوْ رَجَمْتُ أَحَداً بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ لَرَجَمْتُ هذِهِ»، فقال ابنُ عباس: لا، تِلْكَ امرأَة كانت تُظْهِرُ في الإسْلامِ السُّوءَ»[5]. ولأبي داود في هذا الحديث عن ابن عباس: «ففرَّق رسولُ اللهِ ﷺ بَيْنَهُمَا وقضى أن لا يُدعى ولدُها لأب، ولا تُرمى، ولا يُرمى ولدُها ومَنْ رماها، أو رمى ولدها، فعليه الحدُّ، وقضَى ألاَّ بَيْتَ لها عليه، ولا قوت من أجل أنهما يتفرَّقان مِن غير طلاق، ولا متوفى عنها». وفي القصة:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٣١٢) ومسلم (رقم ١٤٩٣) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٧-٤٥٨).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٣١٥) ومسلم (رقم ١٤٩٤).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٥) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦٣).
(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٦) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٥٠) وشرح النووي (١٠/ ١٢٨-١٢٩).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٣١٠) ومسلم (رقم ١٤٩٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦١).

قال عكرمة: «فكان بعد ذلك أميراً على مصر وما يُدعى لأب»[١].

وذكر البخاري: أن هلالَ بن أمية قذف امرأتهُ عند رسولِ اللهِ ﷺ بشريكِ بن سَحْمَاء، فقال النبي ﷺ: «البَيِّنَةُ أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: يا رسولَ اللهِ: إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجلاً ينطلِقُ يلتمِسُ البينة؟ فجعل رسولُ اللهِ ﷺ يقول: «البَيِّنَةُ وإلاَّ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»، فقال: والذي بعثك بالحق إني لصَادِق، ولَيُنْزِلَنَّ اللهُ ما يُبرِّئُ ظَهْرِي مِن الحَدِّ، فنزلَ جبريلُ ﷺ، وأنزل عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ الآية، فانصرفَ النبي ﷺ إليها، فجاء هِلال، فشهِدَ والنبيُّ ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ»؟ فَشَهِدَت، فلما كانت عند الخامِسة وقَّفُوهَا، وقالوا: إنها مُوجِبَة، قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: فتلكَّأَت ونَكَصَتْ حتَّى ظَنَنَّا أنها تَرْجعُ، ثم قالت: لا أَفْضحُ قَوْمِي سَائِرَ اليوم، فَمَضَتْ، فقال النبيُّ ﷺ: «أَبْصِرُوهَا فَإِنْ جَاءتْ بِهِ أَكْحَلَ العَيْنَيْنِ، سَابغَ الأَلْيَتَيْنِ، خَدَلَّج السَّاقَيْن، فَهُوَ لَشَرِيكِ بن سَحْمَاء»، فجاءت به كذلكَ، فقال النبي ﷺ: «لَوْلاَ مَا مَضَى مِنْ كِتَابِ اللهِ كَانَ لِي وَلَهَا شَأْنٌ»[٢].

وفي الصحيحين: أن سعدَ بنَ عُبادة، قال: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ الرَّجُلَ يَجِدُ مع امرأتِهِ رجلاً أيقتلُه؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا»، فقال سَعْدٌ: بلَى والَّذِي بعثك بالحقِّ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «اسْمَعُوا إِلَى مَا يَقُولُ سَيِّدُكُم»[٣].

وفي لفظٍ آخَرَ: «يا رسولَ اللهِ، إن وجدتُ مع امرأتي رجلاً أُمْهِلُه حتى آتي بأربعة شهداء؟ قال: «نعم»[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٢٥٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٤٠٩ رقم ١٥١٣٢) وأبو يعلى (٥/ ١٢٤-١٢٦ رقم ٢٧٤٠) وأحمد (١/ ٢٣٨) وانظر: عمدة القاري (١٣/ ٢٥٠-٢٥١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٧) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٤٥-٤٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٥٠) (٩/ ٤٥٤) وشرح النووي (١٠/ ١٢١-١٣١).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٨) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٧٤).

وفي لفظ آخر: «لو وجَدْتُ مع أَهْلِي رجلاً لم أهجْهُ حتَّى آتيَ بأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ؟ قال رسولُ اللهِ ﷺ: «نعم». قال: كلاً والَّذِي بَعَثَكَ بالحَقِّ نَبيًّا إنْ كُنْتُ لأُعاجلُهُ بالسَّيْفِ قَبْلَ ذلِكَ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اسْمَعوا إلى ما يقُولُ سَيِّدُكُم، إِنَّه لَغَيُورٌ، وأَنَا أغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي»[1].

وفي لَفْظٍ: «لو رأيتُ مَعَ امرأتي رجلاً لضربتُه بالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ، فقال النبي ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، ومِنْ أَجْلِ ذلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ومَا بَطَنَ، ولا شَخْصَ أَغيَرُ مِنَ اللهِ، ولا شَخْصَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ بَعَثَ اللهُ المُرْسَلِينَ مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ، ولا شخص أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ وَعَدَ اللهُ الجَنَّةَ»[2].

استُفِيدَ من هذا الحكم النبويِّ عدَةُ أحكام: الحكم الأول: أن اللعانَ يَصِحُّ من كل زوجين، سواءً كانا مسلمين أو كافريْنِ، عدلين فاسقَيْنِ، محدودين في قذف، أو غير محدودين، أو أحدهما كذلك.

قال الإمام أحمد في رواية إسحاق بن منصور: جميعُ الأزواج يلتعِنُونَ، الحُر من الحرة والأمة إذا كانت زوجة، والعبد من الحرة والأمة إذا كانت زوجة، والمسلم من اليهودية والنصرانية، وهذا قول مالك وإسحاق وقولُ سعيد بن المسيب، والحسن، وربيعة، وسليمان بن يسار.

وذهب أهلُ الرأي، والأوزاعي، والثوري، وجماعة إلى أن اللِّعان لا يكون إلا بينَ زوجينِ مسلمين عدلين حرين غير محدودين في قذف، وهو روايةٌ عن أحمد.

ومأخذ القولين: أن اللعان يجمع وصفين، اليمينَ والشهادةَ، وقد سماه الله سبحانه شهادةً، وسماه رسولُ اللهِ ﷺ يمينًا، حيث يقول: «لَوْلاَ الأيمَانُ، لَكَانَ لي وَلَهَا

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٤٩٨) وانظر: التمهيد (٢١/ ٢٥٤-٢٥٥) وشرح الزرقاني (٤/ ٢٠).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤١٦) ومسلم (رقم ١٤٩٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ٣٢١).

شَأْنٌ»[1]، فمن غلَّب عليه حُكم الأيمان قال: يَصِحُّ مِن كل من يصح يمينه.

قالوا: ولعموم قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ ﴾ قالوا: وقد سمَّاه رسول الله ﷺ يميناً.

قالوا: ولأنه مفتقِر إلىٰ اسم الله، وإلىٰ ذكر القسم المؤكد وجوابه. قالوا: ولأنه يستوىٰ فيه الذكرُ والأنثىٰ، بخلاف الشهادة.

قالوا: ولو كان شهادة، لما تكرَّر لفظُه، بخلاف اليمين، فإنه قد يشرع فيها التكرار، كأيمان القسامة.

قالوا: ولأن حاجة الزوج التي لا تَصِحُّ منه الشهادة إلىٰ اللعان ونفي الولد، كحاجة من تصِحُّ شهادته سواء، والأمر الذي نزل به مما يدعو إلىٰ اللعان، كالذي ينزلُ بالعدل الحر، والشريعة لا ترفع ضررَ أحدِ النوعين، وتجعلُ له فرجاً ومخرجاً مما نزل به، وتدعُ النوع الآخر في الآصار والأغلال، لا فرج له مما نزل به، ولا مخرج، بل يستغيثُ فلا يُغاث، ويستجيرُ فلا يُجار، إن تكلَّمَ تكلَّم بأمر عظيم، وإن سكت سكت علىٰ مثله، قد ضاقت عنه الرحمةُ التي وسعت من تَصِحُّ شهادته، وهذا تأباه الشريعةُ الواسعة الحنيفية السمحةُ.

قال الآخرون: قال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ﴾ [النور: ٦]، وفي الآية دليل من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه سبحانه استثنىٰ أنفسَهم مِن الشهادة، وهذا استثناءُ متَّصِلٌ قطعاً، ولهذا جاء مرفوعاً.

والثاني: أنه صرح بأن التعانَهم شهادة، ثم زاد سبحانه هذا بياناً، فقال: ﴿ وَيَدْرَؤُاْ

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٤٠٨ رقم ١٥١٢٨) وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦١-٤٦٣) وشرح النووي (١٢/ ٥).

عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [النور: ٨].

والثالث: أنه جعله بدلاً من الشهود، وقائماً مقامَهم عند عدمهم.

قالوا: وقد روى عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أن النبي ﷺ قال: «لاَ لِعَانَ بَيْنَ مَمْلُوكَيْنِ وَلاَ كَافِرَيْنِ»، ذكره أبو عمر بن عبد البر في التمهيد[١].

وذكر الدارقطني من حديثه أيضاً، عن أبيه، عن جده مرفوعاً: «أَرْبَعَةٌ لَيْسَ بَيْنَهُمْ لِعَانٌ: لَيْسَ بَيْنَ الحُرِّ والأمةِ لِعَانٌ، وَلَيْسَ بَيْنَ الحُرَّةِ والعَبْدِ لِعَانٌ، ولَيْسَ بَيْنَ المُسْلِمِ وَاليَهُودِيَّةِ لِعَانٌ، وَلَيْسَ بَيْنَ المُسْلِمِ والنَّصْرَانِيَّةِ لِعَانٌ»[٢].

وذكر عبد الرزاق في مصنفه، عن ابن شهاب، قال: من وصية النبي ﷺ لِعتَّاب بن أَسِيد: أن لا لِعان بين أربع، فذكر معناه[٣].

قالوا: ولأن اللِّعانَ جُعِلَ بدلَ الشهادة، وقائماً مقامَها عند عدمها، فَلا يَصِحُّ إلا ممن تصح منه، ولهذا تُحدُّ المرأة بِلعان الزَّوج، ونُكولها تنزيلاً لِلعانه منزلةَ أربعةِ شهود.

قالُوا: وأما الحديثُ: «لولا مَا مَضَىٰ مِنَ الأَيْمَانِ، لَكَانَ لي وَلَهَا شَأْنٌ»، فالمحفوظ فيه: «لولا ما مضىٰ من كتاب الله»[٤]، هذا لفظ البخاري في صحيحه. وأما قوله: «لَوْلاَ مَا مَضَىٰ مِنَ الأَيْمَانِ»، فمن رواية عباد بن منصور، وقد تكلم فيه غير واحد. قال يحيىٰ ابن معين: ليس بشيء. وقال علي بن الحسين بن الجنيد الرازي: متروك قدري. وقال النسائي: ضعيف.

وقد استقرت قاعدة الشريعة أن البينةَ على المدَّعي، واليمينَ على المدَّعَىٰ عليه،

---

(١) التمهيد (٦/ ١٩٢).

(٢) أخرجه الدارقطني (٣/ ١٦٢ رقم ٢٣٩) والبيهقي في الكبرىٰ (٧/ ٣٩٦ رقم ١٥٠٧٦) قال الدارقطني: عثمان بن عبد الرحمن هو الوقاصي متروك الحديث. وانظر: نصب الراية (٣/ ٢٤٨).

(٣) أخرجه عبدالرزاق (٧/ ١٢٧ رقم ١٢٤٩٨) وانظر: نصب الراية (٣/ ٢٤٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٤٧): وانظر: فتح الباري (٩/ ٤٦١-٤٦٣) وشرح النووي (١٢/ ٥).

والزوج ها هنا مُدَّعٍ، فلِعانُه شهادة، ولو كان يميناً لم تُشرع في جانبه.قال الأولون: أما تسميتُه شهادةً، فلِقول الملتعِنِ في يمينه: أشهد باللّه، فسمي بذلك شهادة، وإن كان يميناً اعتباراً بلفظها. قالوا: وكيف وهو مصرَّح فيه بالقسم وجوابه، وكذلك لو قال: أشهد بالله، انعقدت يمينُه فبذلك، سواء نوى اليمينَ أو أطلق، والعربُ تَعُدُّ ذلك يميناً في لغتها واستعمالها. قال قيس:

فَأَشْهَدُ عِنْدَ اللهِ أَنِّي أُحِبُّهَا   فَهذَا لَهَا عِنْدِي فَمَا عِنْدَهَا لِيَا[1]

وفي هذا حجة لمن قال: إن قوله: «أشهد» تنعقِد به اليمين، ولو لم يقُلْ: «بالله»، كما هو إحدى الروايتين عن أحمد.

والثانية، لا يكون يميناً إلا بالنيةِ، وهو قولُ الأكثرين. كما أن قوله: أشهد بالله يمين عند الأكثرين بمطلقه.

قالوا: وأما استثناؤُه سبحانه «أنفسَهم» مِن الشهداء، فيقال أولاً: «إلا» هاهنا: صفة بمعنى (غير)، والمعنى: ولم يكن لهم شهداء غيرُ أنفسهم، فإن «غير»، و«وإلاَّ» يتعاوضان الوصفية والاستثناء، فيُستثنى بغير حملاً على إلاَّ، ويُوصف بإلاَّ حملاً على «غير».

ويقال ثانياً: إن «أنفسهم» مستثنى من الشهداء، ولكن يجوز أن يكون منقطعاً على لغة بني تميم، فإنهم يُبدلون في الانقطاع، كما يُبْدِل أهلُ الحجاز وهم في الاتصال.

ويقال ثالثاً: إنما استثنى «أنفسهم» من الشهداء، لأنه نزَّلهم منزلتهم في قبول قولهم، وهذا قوي جداً على قول من يرجم المرأة بالتعان الزوج إذا نكلت، وهو الصحيح، كما يأتي تقريره إن شاء الله تعالى.

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وقائله مجنون ليلى: قيس بن الملوح العامري، شاعر الغزل المشهور لم يكن مجنونًا، ولكنه لقب بذلك لهيامه في حب ليلى بنت سعد التي نشأ معها إلى أن كبرت وحجبها أبوها، مات سنة ٦٨.

ذكر البيت أبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (١/ ٤١٩) والمرزوقي في آماليه (ص ٣٥٢) والزرقاني في شرحه على موطأ مالك (٣/ ٢٤٧).

والصحيح: أن لعانهم يجمع الوصفين، اليمين والشهادة، فهو شهادة مؤكَّدة بالقسم والتكرار، ويمين مغلَّظة بلفظ الشهادة والتكرار، لاقتضاء الحال تأكيد الأمر. ولهذا اعتبر فيه من التأكيد عشرة أنواع.

أحدها: ذكر لفظ الشهادة.

الثاني: ذكر القسم بأحد أسماءِ الربّ سبحانه، وأجمعها لمعاني أسمائه الحسنى، وهو اسم الله جَلَّ ذِكرُه.

الثالث: تأكيدُ الجواب بِما يُؤكَّد به المقسم عليه، من «إن، واللام»، وإتيانه باسم الفاعل الذي هو صادق وكاذب دون الفعل الذي هو صدق وكذب.

الرابع: تكرارُ ذلك أربع مرات.

الخامس: دعاؤه على نفسه في الخامسة بلعنة الله إن كان من الكاذبين.

السادس: إخبارُه عند الخامسة أنها الموجِبةُ لعذاب الله، وأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة.

السابع: جعل لعانه مقتضٍ لحصول العذاب عليها، وهو إما الحدُّ أو الحبسُ، وجعل لعانها دارئاً للعذاب عنها.

الثامن: أن هذا اللعان يُوجب العذاب على أحدهما: إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

التاسع: التفريقُ بين المتلاعنين، وخرابُ بيتها، وكسرها بالفراق.

العاشرُ: تأبيد تلك الفرقة ودوام التحريم بينهما.

فلما كان شأنُ هذا اللعانِ هذا الشأن، جُعِلَ يميناً مقروناً بالشهادة، وشهادة مقرونة باليمين، وجعل الملتعن لقبول قوله كالشاهد، فإن نكلت المرأةُ، مضت شهادته وحُدِّتْ، وأفادت شهادتُه ويمينهُ شيئين: سقوط الحد عنه، ووجوبه عليها. وإن التعنت المرأة وعارضت لعانه بلعان آخر منها، أفاد لعانُه سقوطَ الحد عنه دون وجوبه عليها، فكان شهادة ويميناً بالنسبة إليه دونها، لأنه إن كان يميناً محضة فهي لا تحدُّ بمجرد حلفه، وإن كان شهادة فلا تحدُّ بمجرد شهادته عليها وحده. فإذا انضم

إلىٰ ذلك نكولُها، قويَ جانبُ الشهادة واليمين في حقِّه بتأكُّدِهِ ونكولها، فكان دليلاً ظاهراً علىٰ صدقه، فأسقط الحد عنه، وأوجبه عليها، وهذا أحسنُ ما يكون من الحكم، ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقد ظهر بهذا أنه يمين فيها معنىٰ الشهادة، وشهادةٌ فيها معنىٰ اليمين...

(١)وأما قوله «جعل للقاذف إسقاط الحد باللعان في الزوجة دون الأجنبية، وكلاهما قد ألحق بهما العار» فهذا من أعظم محاسن الشريعة؛ فإن قاذف الأجنبية مستغنٍ عن قذفها، لا حاجة له إليه البتة، فإن زناها لا يضره شيئًا، ولا يفسد عليه فراشه، ولا يعلق عليه أولادًا من غيره، وقذفها عدوان محض، وأذىٰ لمحصنة غافلة مؤمنة، فترتب عليه الحد زجرًا له وعقوبة، وأما الزوجة فإنه يلحقه بزناها من العار والمسبة وإفساد الفراش وإلحاق ولد غيره به، وانصراف قلبها عنه إلىٰ غيره؛ فهو محتاج إلىٰ قذفها،ونفي النسب الفاسد عنه، وتخلصه من المسبة والعار؛ لكونه زوج بغي فاجرة، ولا يمكن إقامة البينة علىٰ زناها في الغالب،وهي لا تقر به، وقول الزوج عليها غير مقبول، فلم يبق سوىٰ تحالفهما بأغلظ الأيمان، وتأكيدها بدعائه علىٰ نفسه باللعنة، ودعائها علىٰ نفسها بالغضب إن كانا كاذبين، ثم يفسخ النكاح بينهما؛ إذ لا يمكن أحدهما أن يصفو للآخر أبدًا، فهذا أحسن حكم يفصل به بينهما في الدنيا، وليس بعده أعدل منه، ولا أحكم، ولا أصلح، ولو جمعت عقول العالمين لم يهتدوا إليه، فتبارك من أبان ربوبيته ووحدانيته وحكمته وعلمه في شرعه وخلقه.

(٢)وقد جعل الله سبحانه أيمان اللعان من جانب الزوج أولًا، فإذا نكلت المرأة عن معارضة أيمانه بأيمانها وجب عليها العذاب بالحد، وهو العذاب المذكور في قولـه: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢] فإن المدعي لما ترجح

---

(١) ١١٠ أعلام جـ٢.

(٢) ١٠١ أعلام جـ١.

جانبه بالشاهد الواحد شرعت اليمين من جهته، وكذلك أولياء الدم ترجح جانبهم باللوث فشُرعت اليمين من جهتهم، وأكدت بالعدد تعظيمًا لخطر النفس. وكذلك الزوج في اللعان جانبه أرجح من جانب المرأة قطعًا، فإن إقدامه علىٰ إتلاف فراشه، ورميها بالفاحشة علىٰ رؤوس الأشهاد، وتعريض نفسه لعقوبة الدنيا والآخرة، وفضيحة أهله ونفسه علىٰ رؤوس الأشهاد، مما يأباه طباع العقلاء، وتنفر عنه نفوسهم، لولا أن الزوجة اضطرته بما رآه وتيقنه منها إلىٰ ذلك، فجانبه أقوىٰ من جانب المرأة قطعًا فشرعت اليمين من جانبه...

[(١)]قالوا: ولهذا لم يحكم علىٰ المرأة في اللعان بمجرد نكولها دون يمين الزوج، فإذا حلف الزوج، ونكلت عن اليمين، حكم عليها.

إما بالحبس حتىٰ تقر أو تلاعن، كما يقول أحمد وأبو حنيفة.

وإما بالحد، كما يقول الشافعي ومالك، وهو الراجح؛ لأن الله ﷻ إنما درأ عنها العذاب بشهادتها أربع شهادات، والعذاب المدروء عنها بالتعانها هو العذاب المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وهو عذاب الحدود، ولهذا ذكره معرفًا بلام العهد، فعلم أن العذاب هو العذاب المعهود ذكره أولًا، ولهذا بدأ أولًا بأيمان الزوج لقوة جانبه، ومُكنت المرأة من أن تعارض أيمانه بأيمانها،فإذا نكلت لم يكن لأيمانه ما يعارضها، فعملت عملها، وقواها نكول المرأة، فحكم عليها بأيمانه ونكولها.

فإن قيل: فكان من الممكن أن يبدأ بأيمانها، فإن نكلت حلف الزوج حُدَّت، كما إذا ادعىٰ عليه حقًّا فنكل عن اليمين فإنها ترد علىٰ المدعي، ويقضي له، فهلا شرع اللعان كذلك والمرأة هي المدعىٰ عليها؟ بل شرع اليمين في جانب المدعي أولًا، وهذا لا نظير له في الدعاوىٰ.

---

(١) ١١٧ الطرق الحكمية.

قيل: لما كان الزوج قاذفًا لها كان موجب قذفه أن يحد لها، فمكن أن يدفع الحد عن نفسه بالتعانه، ثم طولبت هي بعد ذلك بأن تقر أو تلاعن، فإن أقرت حدت، وإن أنكرت والتعنت درأت عنها الحد بلعانها، كما له أن يدرأ الحد عن نفسه بلعانه، وكانت البداءة به أولى لأنه مدع، وأيمانه قائمة مقام البينة، ولكن لما كانت دون الشهود الأربع في القوة مكنت المرأة من دفعها بأيمانها، فإذا أبت أن تدفعها ترجح جانبه، فوجب عليها الحد، فلم تحد بمجرد التعانه، ولا بمجرد نكولها، بل بمجموع الأمرين، وأكدت الأيمان بكونها أربعًا، كما أكدت أيمان المدعين في القسامة بكونها خمسين، ولتقوم الأيمان مقام الشهود...

[(١)]قال ابن سعد: وفي هذه الغزوة[(٢)] سقط عِقد لعائشة رضي الله عنها، فاحتبسوا على طلبه، فنزلت آية التيمم[(٣)].

وذكر الطبراني في معجمه من حديث محمد بن إسحاق: عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: «لما كان من أمر عقدي ما كان، قال أهل الإفك ما قالوا: فخرجت مع النبي ﷺ في غزوة أخرى، فسقط أيضًا عقدي، حتى حبس التماسه الناس، ولقيت من أبي بكر ما شاء الله، وقال لي: يا بُنَيَّة، في كل سفر تكونين عناء وبلاء، وليس مع الناس ماء، فأنزل الله الرخصة في التيمم»[(٤)].

وهذا يدل على أن قصة العقد التي نزل التيمم لأجلها بعد هذه الغزوة، وهو الظاهر، ولكن فيها: كانت قصة الإفك بسبب فقد العقد والتماسه، فالتبس على

---

(١) ٢٨٠ زاد المعاد جـ٢.

(٢) أي غزوة المريسيع. وهي غزوة بني المصطلق.

(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٢/ ٦٥) وابن ماجه (رقم ٥٦٥) وعبدالرزاق (١/ ٢٢٧ رقم ٨٧٩) والطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٩ رقم ١٣٠) والشاشي (٢/ ٤٣٣ رقم ١٠٤١) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٣٤).

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ١٢١ رقم ١٥٩) وابن شبة في أخبار المدينة (١/ ٢٠٣ رقم ٧٠٥) وانظر: فتح الباري (١/ ٤٣٥).

بعضهم إحدىٰ القصتين بالأخرىٰ، ونحن نشير إلىٰ قصة الإفك.

وذلك: أن عائشة رضي الله عنها كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه الغزوة بقرعة أصابتها ـ وكانت تلك عادته مع نسائه ـ فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها من جذع ظفار، كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه، فالتمسته حتىٰ وجدته، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها، فظنوها فيه، فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفَّته، لأنها رضي الله عنها كانت فتيَّة السن، لم يغشها اللحم الذي كان يثقلها.

وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا علىٰ حمل الهودج لم ينكروا خفته، ولو كان الذي حمله واحد، أو اثنان، لم يخف عليهما الحال.

فرجعت عائشة إلىٰ منازلهم وقد أصابت العقد، فإذا ليس بها داع ولا مجيب، فاضطجعت في المنزل متلففة بجلبابها، وظنت أنهم سيفقدونها، فيرجعون في طلبها ـ والله غالب علىٰ أمره، يدبر الأمر من فوق عرشه كما يشاء ـ فغلبتها عيناها فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٦] زوج رسول الله ﷺ؟ وكان صفوان قد عرس في أخريات الجيش؛ لأنه كان كثير النوم ـ كما جاء عنه في صحيح أبي حاتم بن حبان، وفي السنن ـ فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع، وأناخ راحلته، فقربها إليها فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها، حتىٰ قدم بها ـ وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة ـ فلما رأىٰ ذلك الناس تكلم كل منهم علىٰ شاكلته وما يليق به، ووجد الخبيث عدو الله ابن أبي متنفسًا، فتنفس من كرب النفاق والحسد الذي بين ضلوعه، فجعل يستحكي الإفك ويستوشيه، ويشيعه ويذيعه، ويجمعه ويفرقه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم، ثم استشار أصحابه في فراقها، فأشار عليه عليّ: أن يفارقها ويأخذ غيرها ـ تلويحًا لا تصريحًا ـ وأشار عليه أسامة وغيره بإمساكها، وأن

لا يلتفت إلى كلام الأعداء[١].

فعلي لما رأى أن ما قيل مشكوك فيه: أشار بترك الشك والريبة إلى اليقين؛ ليتخلص رسول الله ﷺ من الهم والغم الذي لحقه من كلام الناس، فأشار بحسم الداء.

وأسامة: لما علم حبَّ رسول الله ﷺ لها ولأبيها وعلم من عفتها وبراءتها وحصانتها وديانتها ما هي فوق ذلك وأعظم منه، وعرف من كرامة رسول الله ﷺ على ربه، ومنزلته عنده، ودفاعه عنه: أنه لا يجعل ربة بيته وحبيبته من النساء، وبنت صديقه بالمنزلة التي أنزلها بها أرباب الإفك، وأن رسول الله ﷺ أكرم على ربه وأعز عليه من أن يجعل تحته امرأة بغيًّا، وعلم أن الصديقة حبيبة رسول الله ﷺ أرم على ربها من أن يبتليها بالفاحشة، وهي تحت رسوله...[٢]

[٣]ومن خصائصها أن الله سبحانه برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحيًا يتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها بأنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأخبر سبحانه أن ما قيل فيها من الإفك كان خيرًا لها، ولم يكن ذلك الذي قيل فيها شرًّا لها ولا خافضًا من شأنها، بل رفعها الله بذلك، وأعلى قدرها، وأعظم شأنها، وصار لها ذكرًا بالطيب والبراءة بين أهل الأرض والسماء، فيا لها من منقبة ما أجلها.

وتأمل هذا التشريف والإكرام الناشئ عن فرط تواضعها واستصغارها لنفسها حيث قالت: «ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم فيَّ بوحي يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ، رؤيًا يبرئني الله بها»[٤] فهذه صديقة الأمة وأم المؤمنين، وحب رسول الله ﷺ وهي تعلم أنها بريئة منه مظلومة، وأن قاذفيها ظالمون مفترون

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٦٦١) ومسلم (رقم ٢٧٦٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٤٦١-٤٦٢) وشرح النووي (١٧/ ١٠٥).

(٢) ذكر ابن القيم بقية القصة في عدة صحائف.

(٣) ١٣٤ جلاء الأفهام.

(٤) انظر: المراجع السابقة.

عليها، قد بلغ أذاهم إلى أبويها وإلى رسول الله ﷺ، وهذا كان احتقارها لنفسها وتصغيرها لشأنها، فما ظنك بمن صام يومًا أو يومين أو شهرًا أو شهرين، وقام ليلة أو ليتين، وظهر عليه شيء من الأحوال، ولاحظوا أنفسهم بعين استحقاق الكرامات والمكاشفات، والمخاطبات والمنازلات، وإجابة الدعوات، وأنهم ممن يتبرك بلقائهم، ويغتنم صالح دعائهم، وأنهم يحب على الناس احترامهم، وتعظيمهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم؛ فيتمسح بأثوابهم، ويقبل ثرى أعتابهم، وأنهم من الله بالمكانة التي ينتقم لهم لأجلها ممن تنقصهم في الحال، وأن يؤخذ من أساء الأدب عليهم من غير إمهال، وأن الإساءة عليهم ذنب لا يكفره شيء إلا رضاهم، ولو كان هذا من وراء كفاية لهان،ولكن من وراء تخلف، وهذه الحماقات والرعونات نتائج الجهل الصميم والعقل الغير المستقيم؛ فإن ذلك إنما يصدر من جاهل معجب بنفسه غافل عن جرمه وذنوبه، مغتر بإمهال الله له عن أخذه بما هو فيه من الكبر والإزراء على من لعله عند الله خير منه، نسأل الله تعالى العافية في الدنيا والآخرة، وينبغي للعبد أن يستعيذ بالله أن يكون عند نفسه عظيمًا وهو عند ا لله حقيرًا...

***

﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

[1] قد فسرت الآية بأن الكلمات الخبيثات للخبيثين، والكلمات الطيبات للطيبين.

وفسرت بأن النساء الطيبات للرجال الطيبين، والنساء الخبيثات للرجال الخبيثين، وهي تعم ذلك وغيره؛ فالكلمات والأعمال والنساء الطيبات لمناسبها من الطيبين، والكلمات والأعمال والنساء الخبيثة لمناسبها من الخبيثين.

والله ﷻ جعل الطيب بحذافيره في الجنة، وجعل الخبيث بحذافيره في النار. فجعل الدور ثلاثة: دارًا أخلصت للطيبين، وهي حرام على غير الطيبين، وقد جمعت كل

(١) ٢٤ زاد المعاد جـ١.

طيب، وهي الجنة، ودارًا امتزج فيها الطيب والخبيث وخلط بينهما، وهي هذه الدار.

ولهذا وقع الابتلاء والمحنة بسبب هذا الامتزاج والاختلاط، وذلك بموجب الحكمة الإلهية، فإذا كان يوم معاد الخليقة ميز الله الخبيث من الطيب، فجعل الطيب وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، وجعل الخبيث وأهله في دار على حدة لا يخالطهم غيرهم، فعاد الأمر إلى دارين فقط: الجنة وهي دار الطيبين، والنار وهي دار الخبيثين، وأنشأ الله تعالى من أعمال الفريقين ثوابهم وعقابهم، فجعل طيبات أقوال هؤلاء وأعمالهم وأخلاقهم هي عين نعيمهم ولذاتهم، أنشأ لهم منها أكمل أسباب النعيم والسرور، وجعل خبيثات أقوال الآخرين وأعمالهم وأخلاقهم هي عين عذابهم وآلامهم، فأنشأ لهم منها أعظم أسباب العقاب والآلام، حكمة بالغة، وعزة باهرة قاهرة، ليرى عباده كمال ربوبيته، وكمال حكمته وعلمه، وعدله ورحمته، وليعلم أعداؤه أنهم كانوا هم المفترين الكذابين، لا رسله البررة الصادقون، قال الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٨، ٣٩].

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ ﴾.

...[1] سئل عن الاستئناس في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ ﴾ [النور: ٢٧] قال: «يتكلم الرجل بتسبيحة وتكبيرة وتحميدة، ويتنحنح ويؤذن أهل البيت» ذكره ابن ماجة[2].

***

(١) ٤١٤ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٧٠٧).

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ ﴾.

[(1)] جعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد، عظيمة الخطر جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذته، التي هي أحلى وأطيب وألذ مما صرف بصره عنه وتركه لله تعالى، فإن من ترك شيئا لله عوضه الله ﷻ خيرا منه، والنفس مولعة بحب النظر إلى الصور الجميلة، والعين رائد القلب. فيبعث رائده لنظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله، تحرك اشتياقا إليه، وكثيرا ما يتعب ويتعب رسوله ورائده، كما قيل:

وَكُنْتَ مَتَى أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا ... لِقلبكَ يَـوْماً أَتْعَبَتْكَ المـنَاظِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لا كُلُّهُ أَنْتَ قَـادِرٌ ... عَلَيْه وَلا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَـابِرُ [(2)]

فإذا كف الرائد عن الكشف والمطالعة استراح القلب من كلفة الطلب والإرادة،

---

(١) ٤٧ إغاثة جـ١.

(٢) البيتان من بحر الطويل، ولم أقف على قائلهما، وذكرهما المناوي في فيض القدير (٢/ ٢٤٧) والشنقيطي في أضواء البيان (٥/ ٥١٠)، وأبو بكر محمد بن داود الأصبهاني في الزهرة (١/ ٤٥).

فمن أطلق لحظاته دامت حسراته، فإن النظر يولد المحبة. فتبدأ علاقة يتعلق بها القلب بالمنظور إليه. ثم تقوىٰ فتصير صبابة. ينصب إليه القلب بكليته. ثم تقوىٰ فتصير غراما يلزم القلب، كلزوم الغريم الذي لا يفارق غريمه. ثم يقوىٰ فيصير عشقًا. وهو الحب المفرط. ثم يقوىٰ فيصير شغفا. وهو الحب الذي قد وصل إلىٰ شَغاف القلب وداخله. ثم يقوىٰ فيصير تتيمًا. والتتيم التعبد ومنه تيمه الحب إذا عَبَّده. وتيم الله عبد الله. فيصير القلب عبدا لمن لا يصلح أن يكون هو عبدا له. وهذا كله جناية النظر فحينئذ يقع القلب في الأسر. فيصير أسيرًا بعد أن كان ملكا، ومسجونًا بعد أن كان مطلقا. يتظلم من الطرْف ويشكوه. والطرْف يقول: أنا رائدك ورسولك، وأنت بعثتني. وهذا إنما تبتلىٰ به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإن القلب لابد له من التعلق بمحبوب. فمن لم يكن الله وحده محبوبه وإلهه ومعبوده فلابد أن يتعبد قلبه لغيره. قال تعالىٰ عن يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤].

فامرأة العزيز لما كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف عليه السلام لما كان مخلصًا لله تعالىٰ نجا من ذلك مع كونه شابًّا عزَبًا غريبًا مملوكًا.

الفائدة الثانية في غض البصر: نور القلب وصحة الفراسة.

قال شاه بن شجاع الكرماني: «من عمر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكف نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطئ له فراسة»(١).

وقد ذكر الله سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به، ثم قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥]. وهم المتفرسون الذين سلموا من النظر المحرم

(١) ذكر هذا القول ابن تيمية في مجموع الفتاوىٰ (٢١/ ٢٥٧) وابن الجوزي في صفة الصفوة (٤/ ٦٧) والسيوطي في مفتاح الجنة (ص ٧٢) والقاسمي في قواعد التحديث (ص ١٦٦).

والفاحشة، وقال تعالىٰ عقيب أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

وسر هذا: أن الجزاء من جنس العمل. فمن غض بصره عما حرم الله ﷻ عليه عوَّضه الله تعالىٰ من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأىٰ به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالىٰ، وهذا أمر يحسه الإنسان من نفسه. فإن القلب كالمرآة، والهوىٰ كالصدأ فيها. فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صورة الحقائق كما هي عليه. وإذا صدئت لم تنطبع فيها صورة المعلومات. فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله تعالىٰ بقوته سلطان النصرة، كما أعطاه بنوره سلطان الحجة، فيجمع له بين السلطانين، ويهرب الشيطان منه، كما في الأثر: «إِنَّ الَّذِي يُخَالِفُ هَوَاهُ يَفْرَقُ الشَّيْطَانُ مِنْ ظِلِّهِ»(١).

ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإنه سبحانه جعل العز لمن أطاعه والذل لمن عصاه. قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله: بالكلم الطيب، والعمل الصالح. وقال بعض السلف: «الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله».

---

(١) أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٣٣) عن عمرو بن مالك قال: قرأت في التوراة: إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفزع الشيطان من ظله، وانظر: فيض القدير (٥/ ٤٦٤) وأخرج أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٦٥) عن مالك بن دينار أنه قال: من غلب شهوة الحياة الدنيا فذلك الذي يفرق الشيطان من ظله، وأخرجه أيضًا (٤/ ٦٠) عن وهب بن منبه أنه قال: من جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظله، وانظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٢١/ ٢٥٨).

وقال الحسن: «وإن هَمْلَجَتْ بهم البراذين، وطقطقت بهم البغال: إن ذل المعصية لفي قلوبهم، أبى الله ﷻ إلا أن يُذِلَّ من عصاه»[1]، وذلك أن من أطاع الله تعالى فقد والاه، ولا يذل من والاه الله، كما في دعاء القنوت: «إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ»[2][3].

والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة، قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١]. وذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدل على أن التزكي هو باجتناب ذلك. وكذلك قوله تعالى في الاستئذان على أهل البيوت: ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٨]. فإنهم إذا أمروا بالرجوع لئلا يطلعوا على عورة لم يحب صاحب المنزل أن يطَّلع عليها كان ذلك أزكى لهم، كما أن رد البصر وغضه أزكى لصاحبه، وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴾ [الأعلى: ١٤- ١٥]. وقال تعالى عن موسى ﷺ في خطابه لفرعون: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ [النازعات: ١٨] وقال تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [فصلت: ٦- ٧]. قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله إلا الله[4]، والإيمان

---

(١) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢١/ ٢٥٨) والبداية والنهاية (٩/ ٢٧٣) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (٢/ ١٥١ رقم ١٠٩٥) وابن حبان (٣/ ٢٢٥ رقم ٩٤٥) وأبو داود (رقم ١٤٢٥) والنسائي في الكبرى (١/ ٤٥١ رقم ١٤٤٢) والبيهقي في الكبرى (٢/ ٢٠٩ رقم ٢٩٥٧) والترمذي (رقم ٤٦٤) وحسنه. وقال ابن الملقن في خلاصة البدر المنير (١/ ١٢٨ رقم ٤٢١): رواه الأربعة بإسناد على شرط الصحيح.

(٣) ذكر ابن القيم في الجواب الكافي ما هو بمعنى ما تقدم. (ج).

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٩٣) وفتح الباري (٨/ ٣١٦) وعمدة القاري (١٨/ ٢٥٩).

الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه؛ وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة – فإنه إنما يحصل بإزالة الشر. فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعًا. فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح. هو التوحيد: والتزكية جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه، كما يقال: عدَّلته وفسَّقته، إذا جعلته كذلك في الخارج، أو في الاعتقاد والخبر. وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ [النجم: ٣٢] هو على غير معنى ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩]. أن لا تخبروا بزكاتها وتقولوا: نحن زاكون صالحون متقون، ولهذا قال عقيب ذلك: ﴿ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٢]. وكان اسم «زينب» «برة» فقال: «تُزَكِّي نَفْسهَا؟» فسماها رسول الله ﷺ «زينب» وقال: «اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ»[1].

[2]أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه. قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ۝ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

فلما كان غض البصر أصلًا لحفظ الفرج بدأ بذكره، ولما كان تحريمه تحريم الوسائل فيباح للمصلحة الراجحة، ويحرم إذا خيف منه الفساد ولم يعارضه مصلحة أرجح من تلك المفسدة لم يأمر سبحانه بغضه مطلقا بل أمر بالغض منه.

وأما حفظ الفرج فواجب بكل حال لا يباح إلا بحقه، فلذلك عم الأمر بحفظه.

وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رديف رسول الله ﷺ يوم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦١٩٢) ومسلم (رقم ٢١٤١، ٢١٤٢) وانظر: عمدة القاري (٢٢/ ٢٠٩).

(٢) ١٠١ روضة.

النحر من مزدلفة إلى منى، فمرت ظعن يجرين فطفق الفضل ينظر إليهن، فحول رسول الله ﷺ رأسه إلى الشق الآخر[1] وهذا منع وإنكار بالفعل، فلو كان النظر جائزًا لأقره عليه.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله ﷻ كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فالعين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه النطق، والرجل تزني وزناها الخطى، واليد تزني وزناها البطش، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[2] فبدأ بزنا العين لأنه أصل زنا اليد والرجل والقلب والفرج. ونبه بزنا اللسان بالكلام على زنا الفم بالقبل، وجعل الفرج مصدقًا لذلك إن حقق الفعل أو مكذبًا له إن لم يحققه.

وهذا الحديث من أبين الأشياء على أن العين تعصي بالنظر وأن ذلك زناها، ففيه رد على من أباح النظر مطلقًا، وثبت عنه ﷺ أنه قال: «**يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الثانية**»[3].

ووقعت مسألة: ما تقول السادة العلماء في رجل نظر إلى امرأة [نظرة] فعلق حبها بقلبه واشتد عليه الأمر. فقالت له نفسه: هذا كله من أول نظرة، فلو أعدت النظر إليها لرأيتها دون ما في نفسك فسلوت عنها، فهل يجوز له تعمد النظر ثانيًا لهذا المعنى؟

فكان الجواب: الحمد لله، لا يجوز هذا لعشرة أوجه: أحدها: أن الله سبحانه أمر بغض البصر، ولم يجعل شفاء القلب فيما حرمه على العبد.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٢٨) ومسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: فتح الباري (٤/ ٦٨) وشرح النووي (٨/ ١٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٤٣) ومسلم (رقم ٢٦٥٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٤).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ١٠٨ رقم ٤٨٢) وابن حبان (١٢/ ٣٨١ رقم ٥٥٧٠) وأبو داود (رقم ٢١٤٩) والترمذي (رقم ٢٧٧٧) والدارمي (رقم ٢٧٠٩) وأحمد (١/ ١٥٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٦٤ رقم ٥٤٢١) وحسنه الترمذي وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٢٧٧): رواه البزار والطبراني في الأوسط وزاد: وليست لك الآخرة. ورجال الطبراني ثقات.

الثاني: أن النبي ﷺ سئل عن نظر الفجأة، وقد علم أنه يؤثر في القلب، فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر.

الثالث: أنه صرح بأن الأولىٰ له وليست له الثانية، ومحال أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له.

الرابع: أن الظاهر قوة الأمر بالنظرة الثانية لا تناقصه، والتجربة شاهدة به، والظاهر أن الأمر كما رآه أول مرة، فلا تحسن المخاطرة بالإعادة.

الخامس: أنه ربما رأىٰ ما هو فوق الذي في نفسه، فزاد عذابه.

السادس: أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم في ركائبه، فيزين له ما ليس بحسن لتتم البلية.

السابع: أنه لا يعان علىٰ بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع، وتداوىٰ بما حرمه عليه، بل هو جدير أن تتخلف عنه المعونة.

الثامن: أن النظرة الأولىٰ سهم مسموم من سهام إبليس، ومعلوم أن الثانية أشد سمًّا، فكيف يتداوىٰ من السم بالسم؟

التاسع: أن صاحب هذا المقام في مقام معاملة الحق ﷻ في ترك محبوب كما زعم، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبين حال المنظور إليه، فإن لم يكن مرضيًّا تركه، فإذا يكون تركه لأنه لا يلائم غرضه لا لله تعالىٰ، فأين معاملة الله سبحانه بترك المحبوب لأجله.

العاشر: يتبين بضرب مثل مطابق للحال، وهو أنك إذا ركبت فرسًا جديدًا فمالت بك إلىٰ درب ضيق لا ينفذ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج، فإذا همت بالدخول فيه فاكبحها لئلا تدخل، فإذا دخلت خطوة أو خطوتين فصح بها وردها إلىٰ وراء عاجلا، قبل أن يتمكن دخولها، فإن رددتها إلىٰ ورائها سهل الأمر، وإن توانيت حتىٰ ولجت وسقتها داخلا، ثم قمت تجذبها بذنبها عسر عليك أو تعذر خروجها. فهل يقول عاقل: إن طريق تخليصها سوقها إلىٰ داخل؟ فكذلك النظرة إذا أثرت في القلب فإن عجل الحازم وحسم المادة من أولها سهل علاجه، وإن كرر النظر ونقب عن محاسن

الصورة ونقلها إلى قلب فارغ فنقشها فيه تمكنت المحبة، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقي الشجرة، فلا تزال [شجرة الحب] تنمى حتى يفسد القلب، ويعرض عن الفكر فيما أمر به، فيخرج صاحبه إلى المحن، ويوجب ارتكاب المحظورات [والفتن]، ويلقي القلب في التلف، والسبب في هذا أن الناظر التذت عينه بأول نظرة، فطلبت المعاودة كأكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة، ولو أنه غض أولا لاستراح قلبه وسلم، وتأمل قول النبي ﷺ: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس»(١). فإن السهم شأنه أن يسري في القلب، فيعمل فيه عمل السم الذي يسقاه المسموم، فإن بادر استفرغه وإلا قتله ولا بد.

قال المروذي: قلت لأحمد: الرجل ينظر إلى المملوكة. قال: أخاف عليه الفتنة، كم نظرة قد ألقت في قلب صاحبها البلابل.

وقال ابن عباس الشيطان من الرجل في ثلاثة: في نظره وقلبه وذكره. وهو من المرأة في ثلاثة في بصرها وقلبها وعَجُزِها(٢).

ولما كان النظر من أقرب الوسائل إلى المحرم اقتضت الشريعة تحريمه، وأباحته في موضع الحاجة، وهذا شأن كل ما حرم تحريم الوسائل، فإنه يباح للمصلحة الراجحة كما حرمت الصلاة في أوقات النهي، لئلا تكون وسيلة إلى التشبه بالكفار في سجودهم للشمس، أبيحت للمصلحة الراجحة: كقضاء الفوائت، وصلاة الجنازة، وفعل ذوات الأسباب على الصحيح.

وفي مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبي ﷺ أنه قال: «**النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غض بصره عن محاسن امرأة أورث الله قلبه حلاوة يجدها إلى يوم**

---

(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٩٦ رقم ٢٩٣) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ٦٣) رواه الطبراني وفيه عبد الله بن إسحاق الواسطي وهو ضعيف.

(٢) أخرجه هناد في الزهد (٢/ ٦٥١ رقم ١٤٢٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ١٧٧) إلى ابن المنذر.

يلقاه»[(١)] أو كما قال.

وقال جرير بن عبد الله رضي الله عنهما: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فأمرني أن أصرف بصري[(٢)]. ونظرة الفجأة هي النظرة الأولىٰ التي تقع بغير قصد من الناظر، فما لم يتعمده القلب لا يعاقب عليه، فإذا نظر الثانية تعمدا أثم، فأمره النبي ﷺ عند نظرة الفجأة أن يصرف بصره ولا يستديم النظر، فإن استدامته كتكريره، وأرشد من ابتلي بنظرة الفجأة أن يداويه بإتيان امرأته، وقال: «**إن معها مثل الذي معها**»[(٣)]. فإن في ذلك التسلي عن المطلوب بجنسه، والثاني: أن النظر يثير قوة الشهوة، فأمره بتنقيصها بإتيان أهله، ففتنة النظر أصل كل فتنة.

كما ثبت في الصحيحين من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «**ما تركت بعدي فتنةً أضرَّ علىٰ الرجال من النساء**»[(٤)].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ: «**اتقوا الدنيا، واتقوا النساء**»[(٥)].

وفي مسند محمد بن إسحاق السراج من حديث علي بن أبي طالب ﷺ عن النبي

---

(١) أخرجه بلفظ قريب الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٩٨) والواسطي في تاريخ واسط (ص ١٢٩) وذكره العجلوني في كشف الخفاء (٢/ ٤٣٧ رقم ٢٨٦٤) وقال: رواه الحاكم وصححه وأقره العراقي وضعفه المنذري.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢١٥٩) وانظر: شرح النووي (١٤/ ١٣٩).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٢/ ٣٨٤ رقم ٥٥٧٢) والترمذي (رقم (١١٥٨) والدرامي (رقم ٢٢١٥) والبيهقي في الشعب (٤/ ٣٦٧-٣٦٨ رقم ٥٤٣٦) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب. وأصل الحديث في صحيح مسلم (رقم ١٤٠٣) بلفظ: «إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه» وانظر: فتح الباري (٩/ ١٠٩) وشرح النووي (٩/ ١٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٩٦) ومسلم (رقم ٢٧٤٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٣٨) (١١/ ٢٥٨).

(٥) أخرجه مسلم (رقم ٢٧٤٢) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٣٨) وشرح النووي (١٧/ ٥٥).

ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي النساء والخمر»[(١)].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قبل النساء، وكفر من بقي من قبل النساء[(٢)].

وفي غض البصر عدة فوائد: أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته، فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه، ولا صبر له عنه، ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه...

[(٣)]وقد روى هشام بن الغاز عن محكول وسليمان بن موسى: أن عمر كتب إلى أهل الشام: امنعوا نساءهم أن يدخلن مع نسائكم الحمامات[(٤)].

وقال أحمد بن حنبل: أكره أن تطلع أهل الذمة على عورات المسلمين.

قال أبو القاسم: وهذا صحيح، إن نساء أهل الذمة لسن بثقات على شيء من أمور المسلمين فلا يؤمن الفساد، وقد نهى رسول الله ﷺ أن تباشر المرأة قشعتها لزوجها حتى كأنه ينظر إليها، يعني: فيفضي ذلك إلى وصف الذمية المسلمة لزوجها الذمي حتى كأنه يشاهدها، فكره أحمد لهذا المعنى، قال: وقد رويت كراهته عن عبد الله بن بشر، وهو من أعلى التابعين من أهل الشام، ثم ساق من طريق عيسى بن يونس عن أبي إسحاق عن هشام بن الغاز أن عبد الله بن بشر كره أن تقبل النصرانية وأن ترى عورتها، قلت: أحمد احتج بقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] إلى أن قال: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ فخص نساء المسلمات بجواز إبداء الزينة لهن دون الكوافر...

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس (٤/ ٩٤ رقم ٦٢٩٣) والمحاملي في آماليه (رقم ١٤٨)، والخطيب في تاريخه (١٤/ ٧٩) وقال أبو زرعة: هذا حديث منكر. انظر: علل الحديث (١/ ٤٣٦ رقم ١٣١١).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٣٦).

(٣) ٧٦٥ أحكام أهل الذمة جـ٢.

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٩٥ رقم ١٣٣٢٠) والطبري في تفسيره (١٨/ ١٢١) وعبد الرزاق (١/ ٢٩٥ رقم ١١٣٤).

[(١)]وأما تحريم النظر إلى العجوز الحرة الشوهاء القبيحة وإباحته إلى الأمة البارعة الجمال فكذب على الشارع، فأين حرم الله هذا وأباح هذا؟

والله سبحانه إنما قال: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠]. ولم يطلق الله ورسوله للأعين النظر إلى الإماء البارعات الجمال، وإذا خشي الفتنة بالنظر إلى الأمة حرم عليه بلا ريب.

وإنما نشأت الشبهة أن الشارع شرع للحرائر أن يسترن وجوههن عن الأجانب.

وأما الإماء فلم يوجب عليهن ذلك، لكن هذا في إماء الاستخدام والابتذال، وأما إماء التسري اللاتي جرت العادة بصونهن وحجبهن فأين أباح الله ورسوله لهن أن يكشفن وجوههن في الأسواق والطرقات ومجامع الناس، وأذن للرجال في التمتع بالنظر إليهن؟ فهذا غلط محض على الشريعة، وأكد هذا الغلط أن بعض الفقهاء سمع قولهم: إن الحرة كلها عورة إلا وجهها وكفيها، وعورة الأمة ما لا يظهر غالبًا كالبطن والظهر والساق؛ فظن أن ما يظهر غالبًا حكمه حكم وجه الرجل، وهذا إنما هو في الصلاة لا في النظر، فإن العورة عورتان: عورة في النظر، وعورة في الصلاة؛ فالحرة له أن تصلي مكشوفة الوجه والكفين، وليس لها أن تخرج في الأسواق ومجامع الناس كذلك، والله أعلم.

[(٢)]وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١] فمنعهن من الضرب بالأرجل وإن كان جائزًا في نفسه، لئلا يكون سببًا إلى سمع الرجال صوت الخلخال، فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهنَّ.

[(٣)]ومنزل «التوبة» أول المنازل، وأوسطها، وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به، واستصحبه معه ونزل به،

---

(١) ٧٦٥ أحكام أهل الذمة جـ٢.
(٢) ١٤٩ أعلام جـ٣.
(٣) ١٧٨ مدارج جـ١.

فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في النهاية ضرورية، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[النور: ٣١] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتىٰ بأداة «لعل» المشعرة بالترجي، إيذانًا بأنكم إذا تبتم كنتم علىٰ رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون، جعلنا الله منهم.

[(١)]وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم علىٰ أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي: فلابد من أمر رابع: وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمىٰ «التوبة» بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله ورسوله ـ كما تتضمن ذلك ـ تتضمن العزم علىٰ فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبا، حتىٰ يوجد منه العزم الجازم علىٰ فعل المأمور، والإتيان به. هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين، وهي كلفظة «التقوىٰ» التي تقتضىٰ عند إفرادها فعل ما أمر الله به، وترك ما نهىٰ الله عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة «التوبة» الرجوع إلىٰ الله بالتزام فعل ما يحب وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلىٰ محبوب، فالرجوع إلىٰ المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر، ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق علىٰ فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك ما نهىٰ عنه، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ

---

(١) ٣٠٥ مدارج جـ١.

يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١] وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين. فالناس قسمان: تائب وظالم ليس إلا، فالتائبون هم: ﴿ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأَمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١١٢] فحفظ حدود الله: جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائبًا: لرجوعه إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته، كما تقدم.

فإذا «التوبة» هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى «التوبة»، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإنما يحب الله من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذا «التوبة» هي الرجوع مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها الإسلام والإيمان والإحسان، وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن وبداية الأمر وخاتمته كما تقدم وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر «التوبة» ولا حقيقتها، فضلا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالا، ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن «التوبة» اسم جامع لشرائع الإسلام وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها.

***

﴿ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ

مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

(١)إن قيل: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٢].

وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النور: ٣٣] أمرهم بالاستعفاف إلىٰ وقت الغنى، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر، وأخبر أنه تعالىٰ يغنيهم، فما محمل كل من الآيتين؟

فالجواب: أن قوله: ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ في حق الأحرار أمرهم الله تعالىٰ أن يستعفوا حتىٰ يغنيهم الله من فضله، فإنهم إن تزوجوا مع الفقر التزموا حقوقا لم يقدروا عليها، وليس لهم من يقوم بها عنهم.

وأما قوله: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ﴾ فإنه سبحانه أمرهم فيها [أن ينكحوا] الأيامىٰ وهن النساء اللواتي لا أزواج لهن، هذا هو المشهور من لفظ الأيم عند الإطلاق وإن استعمل في حق الرجل بالتقييد، كما أن العزب عند الإطلاق للرجل وإن استعمل في حق المرأة.

ثم أمرهم سبحانه أن يزوجوا عبيدهم وإماءهم إذا صلحوا للنكاح، فالآية الأولىٰ في حكم تزوجهم لأنفسهم، والثانية في حكم تزويجهم لغيرهم.

وقوله في هذا القسم: ﴿ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ ﴾ يعم الأنواع الثلاثة التي ذكرت فيه فإن الأيم تستغني بنفقة زوجها وكذلك الأمة، وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده فهو فقير ما دام رقيقًا، فلا يمكن أن يجعل لنكاحه غاية، وهي غناه ما دام عبدًا،

---

(١) ٣٤٠ روضة.

بل غناه إنما يكون إذا عتق واستغنى بهذا العتق، والحاجة تدعوه إلى النكاح في الرق، فأمر سبحانه بإنكاحه، وأخبر أنه يغنيه من فضله: إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه، وعلى امرأته، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذي ينتظر بنكاح الحر، والله أعلم.

وفي المسند وغيره مرفوعًا: «**ثلاثة حق على الله عونهم: المتزوج يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء**»(١) وذكر الثالث.

***

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

(٢)قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥] ومن أسمائه النور.

وقال المعطلة: ذلك مجاز، معناه منور السموات والأرض بالنور المخلوق.

قالوا: ويتعين المجاز؛ لأن كل عاقل يعلم بالضرورة أن الله تعالى ليس هو هذا النور المنبسط على الجدران، ولا هو النور الفائض من جرم الشمس والقمر والنار، فإما أن يكون مجازه منور السموات، أو هادي أهلها،وبطلان هذا يتبين بوجوه:

الأول: أن النور جاء في أسمائه تعالى، وهذا الاسم مما تلقته الأمة بالقبول، وأثبتوه في أسمائه الحسنى، وهو في حديث أبي هريرة الذي رواه الوليد بن مسلم ومن طريقه رواه الترمذي والناس، ولم ينكره أحد من السلف، ولا أحد من أئمة أهل السنة، ومحال أن يسمي نفسه نورًا وليس له نور ولا صفة النور ثابتة له، كما أن من

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٣/ ١٩٤ رقم ٥٠١٤) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨ رقم ١٣٢٣٤) والترمذي (رقم ١٦٥٥) وقال: حديث حسن. وانظر: تحفة الأحوذي (٥/ ٢٤٢).

(٢) ١٨٨ مختصر الصواعق جـ٢.

المستحيل أن يكون عليمًا قديرًا سميعًا بصيرًا ولا علم له ولا قدرة، بل صحة هذه الأسماء عليه مستلزمة لثبوت معانيها له، وانتفاء حقائقها عنه مستلزم لنفيها عنه. والثاني: باطل قطعًا فتعين الأول.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ لما سأله أبو ذر: هل رأيت ربك؟ قال: **«نور أنى أراه»**(١) رواه مسلم في صحيحه.

وفي الحديث قولان: (أحدهما): أن معناه ثم نور، أي فهناك نور منعني رؤيته.

ويدل على هذا المعنى شيئان: (أحدهما): قوله في اللفظ الآخر في الحديث «رأيت نورًا»(٢). فهذا النور الذي رآه هو الذي حال بينه وبين رؤية الذات. (الثاني) قوله في حديث أبي موسى: «**إن الله لا ينام و لا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه**»(٣) رواه مسلم في صحيحه...

(٤)والله ﷻ سمى نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ورسوله ﷺ نورًا ودينه نورًا. واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ. قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] وقد فسر قوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بكونه منور السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٠٨) وشرح النووي (٣/ ١٢).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٩) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٦) وشرح النووي (٣/ ١٣).

(٤) ٩ اجتماع الجيوش.

أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشتق له اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى.

والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله، فالأول كقوله ﷻ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ [الزمر: ٦٩] فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء. ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور: «**أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني لا إله إلا أنت**»[١]. وفي الأثر الآخر: «**أعوذ بوجهك أو بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات**»[٢]. فأخبر أن الظلمات أشرقت لنور وجه الله؛ كما أخبر تعالى أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.

وفي معجم الطبراني والسنة له وكتاب عثمان الدارمي وغيرها عن ابن مسعود ﷺ قال: ليس عند ربكم ليل ولا نهار، نور السماوات والأرض من نور وجهه[٣].

وهذا الذي قاله ابن مسعود ﷺ أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادي أهل السماوات والأرض.

وأما من فسرها بأنه منور السماوات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود، والحق أنه نور السماوات والأرض بهذه الاعتبارات كلها.

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام فينا رسول

---

(١) أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت والجن والإنس يموتون**» (رقم ٢٧١٧).

(٢) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٩/ ١٧٩-١٨٠ رقم ١٦٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٦٦-٦٧ رقم ٢٩٥٢١) (٦/ ٦٩ رقم ٢٩٥٣٩) وعبد الرزاق (٥/ ١٥٦ رقم ٩٢٣٤) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٣٦) وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ٣٥): رواه الطبراني وفيه ابن إسحاق وهو مدلس ثقة، وبقية رجاله ثقات. بينما ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ٢٩٣٣).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ١٧٩ رقم ٨٨٨٦) وأبو الشيخ في العظمة (١/ ٤٠٥-٤٠٦ رقم ١١١) (٢/ ٤٧٧ رقم ٣١) وأبو نعيم في الحلية (١/ ١٣٧) وانظر: الدر المنثور (٧/ ٣٣٩) وتفسير ابن كثير (٣/ ٢٥٤، ٢٩١) والوابل الصيب (ص ٧٣).

الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنّى أراه»، فسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معناه كان ثَم نور، وحال دون رؤيته نور فأنّى أراه. قال: ويدل عليه أن في بعض الألفاظ الصحيحة: هل رأيت ربك؟ فقال: «رأيت نورًا» وقد أعضل أمر هذا الحديث على كثير من الناس حتى صحفه بعضهم، فقال (نوراني أراه) على أنها ياء النسب، والكلمة كلمة واحدة، وهذا خطأ لفظا ومعنى، وإنما أوجب لهم هذا الإشكال والخطأ أنهم لما اعتقدوا أن رسول الله ﷺ رأى ربه وكان قوله: «أنّى أراه» كالإنكار للرؤية حاروا في الحديث؛ ورده بعضهم باضطراب لفظه، وكل هذا عدول عن موجب الدليل.

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرؤية له: إجماع الصحابة على أنه لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس فيمن قال ذلك.

وشيخنا يقول: ليس ذلك بخلاف في الحقيقة، فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه. وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين، حيث قال: إنه ﷺ رآه ﷻ ولم يقل بعيني رأسه. ولفظ أحمد لفظ ابن عباس ﷺ، ويدل على صحة ما قال شيخنا في معنى حديث أبي ذر ﷺ قوله ﷺ في الحديث الآخر: «حجابه النور»، فهذا النور هو والله أعلم النور المذكور في حديث أبي ذر ﷺ: «رأيت نورًا».

وقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥] هذا مثل لنوره في قلب عبده المؤمن، كما قال أبي بن كعب وغيره، وقد اختلف في مفسر الضمير في ﴿ نُورِهِۦ ﴾ فقيل: هو النبي ﷺ أي مثل نور محمد ﷺ.

---

(١) تقدم تخريجه قبل قليل.

وقيل: مفسره المؤمن أي مثل نور المؤمن، والصحيح أنه يعود على الله ﷻ، والمعنى مثل نور الله ﷻ في قلب عبده، وأعظم عباده نصيبًا من هذا النور رسوله ﷺ، فهذا مع ما تضمنه عود الضمير المذكور، وهو وجه الكلام يتضمن التقادير الثلاثة، وهو أتم لفظًا ومعنى.

وهذا النور يضاف إلى الله تعالى، إذ هو معطيه لعبده وواهبه إياه، ويضاف إلى العبد إذ هو محله وقابله، فيضاف إلى الفاعل والقابل، ولهذا النور فاعل وقابل ومحل وحامل ومادة، وقد تضمنت الآية ذكر هذه الأمور كلها على وجه التفصيل.

فالفاعل هو الله تعالى مفيض الأنوار الهادي لنوره من يشاء.

والقابل العبد المؤمن، والمحل قلبه، والحامل همته وعزيمته وإرادته، والمادة قوله وعمله، وهذا التشبيه العجيب الذي تضمنته الآية فيه من الأسرار والمعاني وإظهار تمام نعمته على عبده المؤمن بما أناله من نوره ما تقر به عيون أهله وتبتهج به قلوبهم. وفي هذا التشبيه لأهل المعاني طريقتان:

إحداهما: طريقة التشبيه المركب، وهي أقرب مأخذًا، وأسلم من التكلف، وهي أن تشبه الجملة برمتها بنور المؤمن من غير تعرض لتفصيل كل جزء من أجزاء المشبه، ومقابلته بجزء من المشبه به، وعلى هذا عامة أمثال القرآن، فتأمل صفة المشكاة، وهي كوة تنفذ لتكون أجمع للضوء قد وضع فيها المصباح، وذلك المصباح داخل زجاجة تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها، ومادته من أصفى الأدهان وأتمها وقودًا، من زيت شجرة في وسط القراح لا شرقية ولا غربية، بحيث تصيبها الشمس في إحدى طرفي النهار، بل هي في وسط القراح محمية بأطرافه، تصيبها الشمس أعدل إصابة، والآفات إلى الأطراف دونها، فمن شدة إضاءة زيتها وصفائها وحسنها يكاد يضيء من غير أن تمسه نار، فهذا المجموع المركب هو مثل نور الله تعالى الذي وضعه في قلب عبده المؤمن وخصه به.

والطريقة الثانية: طريقة التشبيه المفصل، فقيل: المشكاة صدر المؤمن والزجاجة

قلبه، شبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة، فهو يرحم ويحسن ويتحنن، ويشفق على الخلق برقته.

وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء.

وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى، ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى.

وقد جعل الله تعالى، القلوب كالآنية، كما قال بعض السلف: «القلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها»[1].

والمصباح هو نور الإيمان في قلبه، والشجرة المباركة هي شجرة الوحي، المتضمنة للهدى ودين الحق، وهي مادة المصباح التي يتقد منها.

والنور على النور، نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فيضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نورًا على نور، ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة، بل يتصادقان ويتوافقان.

فهذا علامة النور على النور عكس من تلاطمت في قلبه أمواج الشبه الباطلة والخيالات الفاسدة من الظنون الجهليات، التي يسميها أهلها القواطع العقليات، فهي في صدره ﴿كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٤/ ١٠٠) عن سهل بن سعد ﷺ مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ ولفظه: «إن لله تعالى في الأرض أواني، ألا وهي القلوب: فأحبها إلى الله أرقها وأصفاها وأصلبها. أرقها للإخوان، وأصفاها من الذنوب، وأصلبها في ذات الله».

لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فانظر كيف انتظمت هذه الآيات طرائق بني آدم أتم انتظام، واشتملت عليه أكمل اشتمال، فإن الناس قسمان:

أهل الهدىٰ والبصائر الذين عرفوا أن الحق، فيما جاء به الرسول ﷺ عن الله ﷻ، وأن كل ما عارضه فشبهات يشتبه علىٰ من قل نصيبه من العقل والسمع أمرها، فيظنها شيئا له حاصل ينتفع به، وهي: ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩، ٤٠] وهؤلاء هم أهل الهدىٰ ودين الحق أصحاب العلم النافع والعمل الصالح، الذين صدقوا الرسول ﷺ في أخباره، ولم يعارضوها بالشبهات، وأطاعوه في أوامره ولم يضيعوها بالشهوات، فلا هم في عملهم من أهل الخوض الخراصين، الذين هم في غمرة ساهون، ولا هم في عملهم من المستمتعين بخلاقهم، الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون. أضاء لهم نور الوحي المبين فرأوا في نوره أهل الظلمات في ظلمات آرائهم يعمهون، وفي ضلالتهم يتهوكون، وفي ريبهم يترددون، مغترين بظاهر السراب، ممحلين مجدبين مما بعث الله تعالىٰ به رسوله ﷺ من الحكمة وفصل الخطاب، إن عندهم إلا نخالة الأفكار وزبالة الأذهان، التي قد رضوا بها واطمأنوا إليها، وقدموها علىٰ السنة والقرآن ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦] أوجبه لهم اتباع الهوىٰ ونخوة الشيطان، وهم لأجله يجادلون في آيات الله بغير سلطان.

القسم الأول: أهل الجهل والظلم الذين جمعوا بين الجهل بما جاء به والظلم بإتباع أهوائهم، الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ

جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٣].

وهؤلاء قسمان: أحدهما: الذين يحسبون أنهم على علم وهدى، وهم أهل الجهل والضلال، فهؤلاء أهل الجهل المركب، الذين يجهلون الحق ويعادونه ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالون أهله، وهم يحسبون أنهم على شيء، ألا إنهم هم الكاذبون، فهم لاعتقادهم الشيء على خلاف ما هو عليه بمنزلة رائي السراب الذي يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، وهكذا هؤلاء أعمالهم وعلومهم بمنزلة السراب الذي يخون صاحبه أحوج ما هو إليه.

ولم يقتصر على مجرد الخيبة والحرمان كما هو حال من أم السراب فلم يجده ماء، بل انضاف إلى ذلك أنه وجد عنده أحكم الحاكمين وأعدل العادلين ﷻ، فحسب له ما عنده من العلم والعمل فوفاه إياه بمثاقيل الذر، وقدم إلى ما عمل من عمل يرجو نفعه، فجعله هباء منثورا، إذ لم يكن خالصا لوجهه ولا على سنة رسوله ﷺ، وصارت تلك الشبهات الباطلة التي كان يظنها علوما نافعة كذلك هباء منثور، فصارت أعماله وعلومه حسرات عليه.

والسراب ما يرى في الفلاة المنبسطة من ضوء الشمس وقت الظهيرة يسرب على وجه الأرض، كأنه ماء يجري، والقيعة والقاع هو المنبسط من الأرض الذي لا جبل فيه ولا فيه واد، فشبه علوم من لم يأخذ علومه وأعماله من الوحي بسراب يراه المسافر في شدة الحر، فيؤمه فيخيب ظنه ويجده نارًا تلظى، فهكذا علوم أهل الباطل وأعمالهم إذا حشر الناس، واشتد بهم العطش بدت لهم كالسراب فيحسبونه ماء، فإذا أتوه وجدوا الله عنده فأخذتهم زبانية العذاب، فعتلوهم إلى نار الجحيم، فسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم، وذلك الماء الذي سقوه هو تلك العلوم التي لا تنفع، والأعمال التي كانت لغير الله تعالى، صيَّرها الله تعالى حميمًا سقاهم إياه، كما أن طعامهم من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع، وهو تلك العلوم والأعمال الباطلة، التي كانت في الدنيا كذلك لا يسمن ولا يغني من جوع.

وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] وهم الذين عنى بقوله: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]. وهم الذين عنى بقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧].

والقسم الثاني من هذا الصنف: أصحاب الظلمات، وهم المنغمسون في الجهل، بحيث قد أحاط بهم من كل وجه، فهم بمنزلة الأنعام بل هم أضل سبيلًا؛ فهؤلاء أعمالهم التي عملوها على غير بصيرة، بل بمجرد التقليد واتباع الآباء من غير نور من الله تعالى كظلمات جمع ظلمة، وهي ظلمة الجهل، وظلمة الكفر، وظلمة الظلم، واتباع الهوى، وظلمة الشك والريب، وظلمة الإعراض عن الحق الذي بعث الله تعالى به رسله صلوات الله وسلامه عليهم، والنور الذي أنزله معهم ليخرجوا به الناس من الظلمات إلى النور، فإن المعرض عما بعث الله تعالى به محمدًا ﷺ من الهدى ودين الحق يتقلب في خمس ظلمات: قوله ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه ظلمة، ومصيره إلى الظلمة، وقلبه مظلم، ووجهه مظلم، وكلامه مظلم، وحاله مظلم؛ وإذا قابلت بصيرته الخفاشية ما بعث الله به محمدًا ﷺ من النور جد في الهرب منه، وكاد نوره يخطف بصره، فهرب إلى ظلمات الآراء التي هي به أنسب وأولى، كما قيل:

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ووافقها قطع من الليل مظلم[1]

فإذا جاء إلى زبالة الأفكار ونخالة الأذهان، جال ومال وأبدى وأعاد وقعقع وفرقع،

---

(١) هذا بيت من بحر الطويل، قائله ابن الرومي: علي بن العباس بن جريج شاعر كبير من طبقة بشار والمتنبي، ولد ونشأ ومات ببغداد، سنة ٢٨٣، وانتحل البيت أحمد بن علي بن مشرف الوهيبي التميمي، من أهل الإحساء، وتولى قضاءها مدة. وله ديوان ابن مشرف والبيت عندهما فيه: غيهب بدل مظلم. وذكر البيت الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ٥٠٣) والمنتحل (ص ٢٧٠) والشنقيطي في أضواء البيان (١/ ١٦) (٧/ ٢٦٣).

فإذا طلع نور الوحي وشمس الرسالة انحجز في حجرة الحشرات.

وقوله: ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ اللجي العميق منسوب إلىٰ لجة البحر وهو معظمه، وقوله تعالىٰ: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ تصوير لحال هذا المعرض عن وحيه، فشبه تلاطم أمواج الشبه والباطل في صدره بتلاطم أمواج ذلك البحر، وأنها أمواج بعضها فوق بعض، والضمير الأول في قوله: ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ راجع إلىٰ البحر، والضمير الثاني في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ عائد إلىٰ الموج، ثم إن تلك الأمواج مغشاة بسحاب فهنها ظلمات: ظلمة البحر اللجي، وظلمة الموج الذي فوقه، وظلمة السحاب الذي فوق ذلك كله، إذا أخرج من هذا البحر يده لم يكد يراها.

...[1]قال تعالىٰ: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] وفي الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كلوا الزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة»[2].

وللبيهقي وابن ماجه أيضًا عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «ائتدموا بالزيت، وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة»[3].

الزيت: حار رطب في الأولىٰ، وغلط من قال: يابس، والزيت بحسب زيتونه، فالعنصر من النضيج: أعدله وأجوده، ومن الفجِّ: فيه برودة ويبوسة، ومن الزيتون الأحمر: متوسط بين الزيتين، ومن ا لأسود: يسخن ويرطب باعتدال. وينفع من

---

(١) ٣٥٢ زاد المعاد جـ٣.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٨٥١) وابن ماجه (رقم ٣٣٢٠) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ١٦٣ رقم ٦٧٠٢) والحاكم (٢/ ٤٣٢ رقم ٣٥٠٤) والدارمي (رقم ٢٠٢٥) والطبراني في الأوسط (٩/ ٨٤ رقم ٩١٩٦) وفي الكبير (١٩/ ٣٦٩ رقم ٥٩٦) وأحمد (٣/ ٤٩٧).

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (١/ ١٧٤-١٧٥ رقم ٨٢) والحاكم (٤/ ١٣٥ رقم ٧١٤٢) وابن ماجه (رقم ٣٣١٩) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٢٢ رقم ١٩٥٦٨) والبزار (١/ ٣٩٧ رقم ٢٧٥) وعبد بن حميد (رقم ١٣) والبيهقي في الشعب (٥/ ١٠٠ رقم ٥٩٣٩) وصححه الحاكم.

السموم، ويطلق البطن، ويخرج الدود، والعتيق منه أشد تسخينًا وتحليلًا، وما استخرج منه بالماء فهو أقل حرارة، وألطف وأبلغ في النفع، وجميع أصنافه ملينة للبشرة، وتبطئ الشيب، وماء الزيتون المالح يمنع من تنفط حرق النار، ويشد اللثة، وورقه ينفع من الحمرة والنملة، والقروح الوسخة، والشرى ويمنع العرق، ومنافعه أضعاف ما ذكرنا.

[1]قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾ وقال تعالى في وصف المغترين: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤] وهؤلاء إذا انكشف الغطاء وثبتت حقائق الأمور علموا أنهم لم يكونوا على شيء ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] وفي أثر معروف: إذا رأيت الله سبحانه يزيدك من نعمه وأنت مقيم على معصيته فاحذره، فإنما هو استدراج يستدرجك به، وشاهد هذا في القرآن في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وهذا من أعظم الغرة تراه يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على ما يكره، فالشيطان موكل بالغرور، وطبع النفس الأمارة الاغترار، فإذا اجتمع الرأي والبغي والرأي المحاج والشيطان الغرور والنفس المغترة لم يقع هناك خلاف، فالشياطين غروا المغترين بالله، و أطمعوهم مع إقامتهم على ما يسخط الله ويغضبه في عفوه وتجاوزه، وحدثوهم بالتوبة لتسكن قلوبهم، ثم دافعوهم بالتسويف حتى هجم الأجل، فأخذوا على أسوأ أحوالهم، وقال تعالى: ﴿ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [الحديد: ١٤] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾

(١) ٢٩٧ الروح.

[فاطر: ٥] وأعظم الناس غرورًا بربه من إذا مسه الله برحمة منه وفضل، قال: ﴿هَٰذَا لِي﴾ أي أنا أهله وجدير به ومستحق له ثم قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٢٦] فظن أنه أهل لما أولاه من النعم مع كفره بالله، ثم زاد في غروره، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠] يعني الجنة والكرامة فهكذا تكون الغرة بالله، فالمغتر بالشيطان مغتر بوعوده وأمانيه، وقد ساعده اغتراره بدنياه ونفسه، فلا يزال كذلك حتى يتردى في آبار الهلاك.

والفرق بين الرجاء والتمني: أن الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز. (والتمني) حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه...[1]

***

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

[2]ذكر سبحانه للكافرين مثلين: مثلًا بالسراب، ومثلًا بالظلمات المتراكمة، وذلك لأن المعرضين على الهدى والحق نوعان:

أحدهما: من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أهل الجهل وأهل البدع والأهواء، الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي

---

(١) بقية البحث تقدم في سورة البقرة (ج).

(٢) ١٥٥ أعلام جـ١.

ترتبت عليها كانت كسراب بقيعة يرىٰ في عين الناظر ماء ولا حقيقة له، وهكذا الأعمال التي لغير الله وعلىٰ غير أمره، يحسبها العامل نافعة له، وليست كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله ﷻ فيها ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وتأمل جعل الله سبحانه السراب بالقيعة وهي الأرض القفر الخالية من البناء والشجر والنبات والعالم ـ فمحل السراب أرض قفر لا شيء بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدىٰ.

وتأمل ما تحت قوله: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ والظمآن الذي قد اشتد عطشه، فرأىٰ السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئًا، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم علىٰ غير طاعة الرسول ولغير الله جعلت كالسراب، فرفعت لهم أظمأ ما كانوا، وأحوج ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئا، ووجدوا الله سبحانه، ثم فجازاهم بأعمالهم ووفاهم حسابهم.

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في حديث التجلي يوم القيامة: «ثم يؤتىٰ بجهنم تعرض كأنها السراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزير ابن الله فيقال: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم، ثم يقال للنصارىٰ: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله. فيقال لهم: كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا. فيقال لهم: اشربوا فيتساقطون»[1] وذكر الحديث، وهذه حال كل صاحب باطل، فإنه يخونه باطله أحوج ما كان إليه، فإن الباطل لا حقيقة له، وهو كاسمه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حق كان متعلقه باطلًا.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٩) ومسلم (رقم ١٨٣).

وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله أو على غير أمره بطل العمل ببطلان غايته، وتضرر عامله ببطلانه، وبحصول ضد ما كان يؤمله، فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه، بل صار معذبا بفوات نفعه، وبحصول ضد النفع، فلهذا قال تعالى: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى.

النوع الثاني: أصحاب مثل الظلمات المتراكمة، وهم الذين عرفوا الحق والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، فتراكمت عليهم ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل، حيث لم يعملوا بعلمهم فصاروا جاهلين وظلمة، أتباع الغي والهوى، فحالهم كحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقد غشيه موج ومن فوق ذلك الموج موج، ومن فوقه سحاب مظلم، فهو في ظلمة البحر وظلمة الموج وظلمة السحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان.

وهذان المثلان بالسراب الذي ظنه مادة الحياة وهو الماء، والظلمات المضادة للنور نظير المثلين الذين ضربهما الله للمنافقين والمؤمنين، وهو المثل المائي والمثل الناري، وجعل حظ المؤمنين منهما الحياة والإشراق، وحظ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت المضاد للحياة.

فكذلك الكفار في هذين المثلين حظهم من الماء السراب الذي يغر الناظر ولا حقيقة له، وحظهم الظلمات المتراكمة، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي، فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد.

ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار، وأن أصحاب المثل الأول هم الذين عملوا على غير علم ولا بصيرة، بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وأصحاب المثل الثاني هم الذين استحبوا الضلالة على الهدى، وآثروا الباطل على

الحق، وعموا عنه بعد أن أبصروه، وجحدوه بعد أن عرفوه، فهذا حال المغضوب عليهم، والأول حال الضالين، وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم عليهم المذكورين في قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٥- ٣٨] فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة: المنعم عليهم وهم أهل النور، والضالين هم أصحاب السراب، والمغضوب عليهم وهم أهل الظلمات المتراكمة، والله أعلم.

فالمثل الأول من المثلين لأصحاب العمل الباطل الذي لا ينفع، والمثل الثاني لأصحاب العلم الذي لا ينفع والاعتقادات الباطلة، وكلاهما مضاد للهدىٰ ودين الحق. ولهذا مثل حال الفريق الثاني في تلاطم أمواج الشكوك والشبهات والعلوم الفاسدة في قلوبهم بتلاطم أمواج البحر فيه، وأنها أمواج متراكمة من فوقها سحاب مظلم، وهكذا أمواج الشكوك والشبه في قلوبهم المظلمة، التي قد تراكمت عليها سحب الغي والهوىٰ والباطل، فليتدبر اللبيب أحوال الفريقين، وليطابق بينهما وبين المثلين يعرف عظمة القرآن وجلالته، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

وأخبر سبحانه أن الموجب لذلك أنه لم يجعل لهم نورا، بل تركهم علىٰ الظلمة التي خلقوا، فيها فلم يخرجهم منها إلىٰ النور، فإنه سبحانه ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلىٰ النور.

وفي المسند من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال: «**إن الله خلق خلقه في ظلمة، وألقىٰ عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدىٰ، ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم علىٰ علم الله**»[1].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦) وابن حبان (١٤/ ٤٣ رقم ٦١٦٩) وفي الموارد (رقم ١٨١٢) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ٤ رقم ١٧٤٨٨) وابن أبي عاصم (١/ ١٠٧-١٠٨ رقم ٢٤٣) والهروي في الأربعين في =

فالله سبحانه خلق الخلق في ظلمة، فمن أراد هدايته جعل له نورا وجوديا، يحيى به قلبه وروحه، كما يحيى بدنه بالروح التي ينفخها فيه، فهما حياتان: حياة البدن بالروح، وحياة الروح والقلب بالنور، ولهذا سمى سبحانه الوحي روحا، لتوقف الحياة الحقيقية عليه.

كما قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢] وقال ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ١٥] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

فجعل وحيه روحا ونورا، فمن لم يحيه بهذا الروح فهو ميت، ومن لم يجعل له نورا منه فهو في الظلمات ما له من نور.

***

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

[(١)] إنه غير ممتنع أن ترد الروح إلى المصلوب والغريق والمحرق، ونحن لا نشعر بها، لأن ذلك الرد نوع آخر غير المعهود، فهذا المغمى عليه والمسكوت والمبهوت أحياء، وأرواحهم معهم، ولا تشعر بحياتهم، ومن تفرقت أجزاؤه لا يمتنع على من هو على كل شيء قدير أن يجعل للروح اتصالا بتلك الأجزاء، على تباعد ما بينها وقربه، ويكون في تلك الأجزاء شعور بنوع من الألم واللذة.

وإذا كان الله ﷻ قد جعل في الجمادات شعورًا وإدراكًا تسبح ربها به، وتسقط

= دلائل التوحيد (ص ٨٩) والترمذي (رقم ٢٦٤٢) وحسنه. وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٩٣-١٩٤): رواه أحمد بإسنادين والبزار والطبراني ورجال أحد إسنادي أحمد ثقات.

(١) ٨٨ الروح.

الحجارة من خشيته، وتسجد له الجبال والشجر، وتسبحه الحصى والمياه والنبات، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو كان التسبيح هو مجرد دلالتها على صانعها لم يقل: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ فإن كل عاقل يفقه دلالتها على صانعها، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ [ص: ١٨]، والدلالة على الصانع لا تختص بهذين الوقتين، وكذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ ﴾ [سبأ: ١٠] والدلالة لا تختص معيته وحده، وكذب على الله من قال: التأويب رجع الصدى، فإن هذا يكون لكل مصوت، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الحج: ١٨] والدلالة على الصانع لا تختص بكثير من الناس، وقد قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ﴾ [النور: ٤١] فهذه صلاة وتسبيح حقيقة يعلمها الله، وإن جحدها الجاهلون المكذبون.

وقد أخبر تعالى عن الحجارة أن بعضها يزول عن مكانه ويسقط من خشيته، وقد أخبر عن الأرض والسماء أنهما يأذنان له، وقولهما ذلك أي يستعمان كلامه، وأنه خاطبهما فسمعا خطابه وأحسنا جوابه، فقال لهما: ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١].

وقد كان الصحابة يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل، وسمعوا حنين الجذع اليابس في المسجد، فإذا كانت هذه الأجسام فيها الإحساس والشعور فالأجسام التي كانت فيها الروح والحياة أولى بذلك، وقد أشهد الله سبحانه عباده في هذه الدار إعادة حياة كاملة إلى بدن قد فارقته الروح، فتكلم ومشى، وأكل وشرب، وتزوج وولد له: كالذين ﴿ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٣] ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ

يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وكقتيل بني إسرائيل أو كالذين قالوا لموسى: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة: ٥٥] فأماتهم الله ثم بعثهم من بعد موتهم، وكأصحاب الكهف وقصة إبراهيم في الطيور الأربعة، فإذا أعاد الحياة التامة إلى هذه الأجساد بعد ما بردت بالموت، فكيف يمتنع على قدرته الباهرة أن يعيد إليها بعد موتها حياة ما غير مستقرة، يقضي بها ما أمره فيها، ويستنطقها بها ويعذبها أو ينعمها بأعمالها؟ وهل إنكار ذلك إلا مجرد تكذيب وعناد وجحود، وبالله التوفيق.

***

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

(1)تأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكهما في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، فنبه على الاشتراك والاختلاف، فيشير إلى يسير منه، فالطير كلها تشترك في الريش والجناح، وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت.

واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل، وتفاوتها فيما وراء ذلك.

واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف، وتفاوتها في غير ذلك.

واشتراك ذوات القرون فيها، وتفاوتها في الخلق والمنافع والأشكال.

واشتراك حيوانات الماء في كونها سابحة تأوي فيها وتتكون فيها، وتفاوتها أعظم تفاوت، عجز البشر إلى الآن عن حصره.

واشتراك الوحوش في البعد عن الناس، والتفاوت عنهم وعن مساكنهم، وتفاوتها

---

(١) ٢٣١ شفاء.

في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت، يعجز البشر عن حصره.

واشتراك الماشي منها على بطنه في ذلك، وتفاوت نوعه.

واشتراك الماشي على رجلين في ذلك، وتفاوت نوعه أعظم تفاوت، وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحيل على جلب مصالحه ودفع مضاره، يعجز كثير منها نوع الإنسان.

فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله، بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته، وذلك أدل شيء على قوته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل.

***

﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

[(1)]التحقق بـ ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ علمًا ومعرفة وعملًا وحالًا: يتضمن الشفاء من مرض فساد القلب والقصد، فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل، فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدا، وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته من المشركين ومتبعي الشهوات الذين لا غاية لهم وراءها وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأي طريق كان من حق أو باطل، فإذا جاء الحق معارضا في طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم، فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل، فإن عجزوا عن ذلك حبسوه في الطريق، وحادوا عنه إلى طريق أخرى، وهم

---

(١) ٥٢ مدارج جـ١.

مستعدون لدفعه بحسب الإمكان، فإذا لم يجدوا منه بدا أعطوه السكة والخطبة. وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ، وإن جاء الحق ناصرًا لهم وكان لهم صالوا به وجالوا، وأتوا إليه مذعنين، لا لأنه حق، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم وانتصارهم به ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ۝ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ۝ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[النور: ٤٨-٥٠].

والمقصود: أن قصد هؤلاء فاسد في غاياتهم ووسائلهم، وهؤلاء إذا بطلت الغايات التي طلبوها واضمحلت وفنيت حصلوا على أعظم الخسران والحسرات، وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا إذا حق الحق وبطل الباطل، وتقطعت بهم أسباب الوصل التي كانت بينهم، وتيقنوا انقطاعهم عن ركب الفلاح والسعادة، وهذا يظهر كثيرًا في الدنيا، ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله، ويشتد ظهوره وتحققه في البرزخ، وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء إذا حقت الحقائق، وفاز المحقون وخسر المبطلون، وعلموا أنهم كانوا كاذبين، وكانوا مخدوعين مغرورين، فياله هناك من علم لا ينفع عالمه، ويقين لا ينجي مستيقنه....[1].

***

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝ ﴾.

[2]أخبر سبحانه أن الهداية في طاعة الرسول لا في غيرها، فإنه معلق بالشرط فينتفي بانتقائه، وليس هذا من باب دلالة المفهوم، كما يغلط فيه كثير من الناس، ويظن أنه محتاج في تقريره الدلالة منه لا تقرير كون المفهوم حجة، بل هذا من الأحكام التي ترتبت على شروط وعلقت، فلا وجود لها بدون شروطها، إذ ما علق على الشرط فهو

---

(١) تقدم كامل البحث في تفسير سورة الفاتحة (ج).

(٢) ٢٨ الرسالة التبوكية.

عدم عند عدمه، وإلا لم يكن شرطًا له.

إذا ثبت هذا فالآية نص على انتفاء الهداية عند عدم طاعته.

وفي إعادة الفعل في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ دون الاكتفاء بالفعل الأول سر لطيف وفائدة جليلة. سنذكرها عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ [النور: ٥٤] الفعل للمخاطبين، وأصله: فإن تتلوا، فحذفت إحدى التائين تخفيفًا، والمعنى: أنه قد حمل أداء الرسالة وتبليغها، وحملتم طاعته والانقياد له والتسليم، كما ذكره البخاري في صحيحه عن الزهري قال: «من الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم» فإن تركتم أنتم ما حملتوه من الإيمان والطاعة فعليكم لا عليه، فإنه لم يحمل إيمانكم، وإنما حمل تبليغكم، وإنما حمل أداء الرسالة إليكم ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤] ليس لعيه هداهم وتوفيقهم.

[(١)] قال تعالى: ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وهذا يتضمن بلاغ المعنى، وأنه في أعلى درجات البيان، فمن قال إنه لم يبلغ الأمة معاني كلامه وكلام ربه بلاغًا مبينًا، بل بلغهم ألفاظه وأحالهم في فهم معانيه على ما يذكره هؤلاء لم يكن قد شهد له بالبلاغ.

وهذا هو حقيقة قولهم، حتى إن منهم من يصرح به، ويقول: إن المصلحة كانت: في كتمان معاني هذه الألفاظ وعدم تبليغها للأمة.

إما لمصلحة الجمهور لكونهم لا يفهمون المعاني إلا في قوالب الحسيات وضرب الأمثال. وإما لينال الكادحون ثواب كدحهم في استنباط معانيها واستخراج تأويلاتها من وحشي اللغات وغرائب الأشعار، ويغوصون بأفكارهم الدقيقة على صرفها عن حقائقها ما أمكنهم.

وأما أهل العلم والإيمان فيشهدون له بما شهد الله به، وشهدت به ملائكته، وخيار

---

(١) ٣٣٨ مختصر الصواعق جـ٢.

القرون، أنه بلغ البلاغ المبين، القاطع للعذر، المقيم للحجة، الموجب للعلم واليقين لفظًا ومعنى.

والجزم بتبليغه معاني القرآن والسنة: كالجزم بتبليغه الألفاظ، بل أعظم من ذلك؛ لأن ألفاظ القرآن والسنة إنما يحفظها خواص أمته، وأما المعاني التي بلغها فإنه يشترك في العلم بها العامة والخاصة.

ولما كان بالجمع الأعظم الذي لم يجمع لأحد مثله قبله ولا بعده في اليوم الأعظم في المكان الأعظم، قال لهم: «**أنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون**» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، ورفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعًا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلًا: «**اللهم اشهد**»[1] فكأنا شهدنا تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم، وهو يقول: «**اللهم اشهد**» ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، وكشف لهم طرائق الهدى، وأوضح لهم معالم الدين، وتركهم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، فلا يحتاج مع كشفه وبيانه إلى تنطع المتنطعين، فالحمد لله الذي أغنانا بوحيه ورسوله عن تكلفات المتكلفين.

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٢-١٨٤).

[(١)]أمر تعالىٰ مماليك المؤمنين ومن لم يبلغ منهم الحلم أن يستأذنوا عليهم في هذه الأوقات الثلاثة، لئلا يكون دخولهم هجمًا بغير استئذان فيها ذريعة إلىٰ اطلاعهم علىٰ عوراتهم وقت إلقاء ثيابهم عند القائلة والنوم واليقظة، ولم يأمرهم بالاستئذان في غيرها، وإن أمكن في تركه هذه الفسدة لندورها وقلة الإفضاء إليها، فجعلت كالمقدمة.

[(٢)]ثم بعد العشر إلىٰ سن البلوغ يسمىٰ مراهقًا ومناهزًا للاحتلام. فإذا بلغ خمس عشرة سنة عرض له حال آخر، يحصل معها الاحتلام ونبات الشعر الخشن حول القبل، وغلظ الصوت، وانفراق أرنبة الأنف.

والذي اعتبره الشارع من ذلك أمران: الاحتلام والإنبات.

أما الاحتلام فقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ﴾ ثم قال: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

وقال النبي ﷺ: «**رفع القلم عن ثلاثة: عن الصبي حتىٰ يحتلم، وعن المجنون حتىٰ يفيق، وعن النائم حتىٰ يستيقظ**»[(٣)] وقال لمعاذ: «**خذ من كل حالم دينارًا**»[(٤)] رواهما أحمد وأبو داود، وليس لوقت الاحتلام سن معتاد، بل من الصبيان من يحتلم لاثنتي

(١) ١٤٩ أعلام جـ٣.

(٢) ١٨٠ تحفة المودود.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٤١ رقم ٤١٥) وابن الجارود (رقم ١٤٨) وابن حبان (١/ ٣٥٥ رقم ١٤٢) وابن خزيمة (٤/ ٣٤٨ رقم ٣٠٤٨) والنسائي في الكبرىٰ (٣/ ٣٦٠ رقم ٢٦٢٥) وأبو داود (رقم ٤٣٩٨) وابن ماجه (رقم ٢٠٤١) والبيهقي في الكبرىٰ (٤/ ٣٢٥ رقم ٨٣٩٥) والترمذي (رقم ١٤٢٣) وقال: حسن غريب. وا لحاكم (٢/ ٦٧ رقم ٢٣٥٠) وقال: هذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه. وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٢١).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٢/ ١١ رقم ٢٢٣٠) وفي الصغرىٰ (رقم ٢٤٥٠) وأبو داود (رقم ٣٠٣٨) والبيهقي في الكبرىٰ (٩/ ١٨٧ رقم ١٨٤٢٣) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٢٨ رقم ٣٢٦٣٥) وعبد الرزاق (٦/ ٨٩ رقم ١٠٠٩٩) وأحمد (٥/ ٢٣٣) والطيالسي (رقم ٥٦٧) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٢٩ رقم ٢٦٢) ونقل الحافظ ابن حجر تصحيح الترمذي والحاكم في الفتح (٦/ ٢٦٠).

عشرة، ومنهم من يأتي عليه خمس عشرة، وست عشرة، وأكثر من ذلك ـ ولا يحتلم.

واختلف الفقهاء في السن الذي يبلغ به مثل هذا.

فقال الأوزاعي وأحمد والشافعي وأبو يوسف ومحمد: متى كمل خمس عشرة سنة حكم ببلوغه. ولأصحاب مالك ثلاثة أقوال ـ أحدها: سبع عشرة، والثاني: ثماني عشرة، والثالث: خمس عشرة، وهو المحكي عن مالك. وعن أبي حنيفة روايتان: إحداهما: سبع عشرة والثانية: ثماني عشرة، والجارية عنده سبع عشرة.

***

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾.

[(١)] من الأدب معه: أن لا يجعل دعاءه كدعاء غيره، قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣] وفيه قولان للمفسرين.

أحدهما: أنكم لا تدعونه باسمه، كما يدعو بعضكم بعضًا، بل قولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى المفعول أي دعاءكم الرسول.

الثاني: أن المعنى لا تجعلوا دعاءه لكم بمنزلة دعاء بعضكم بعضًا: إن شاء أجاب، وإن شاء ترك، بل إذا دعاكم لم يكن لكم بد من أجابته، ولم يسعكم التخلف عنها البتة، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي دعاؤه إياكم.

ومن الأدب معه: أنهم إذا كانوا معه على أمر جامع ـ من خطبة أو جهاد أو رباط لم

---

(١) ٢٨٩ مدارج جـ٢.

يذهب أحد منهم مذهبا في حاجته حتى يستأذنه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾ [النور: ٦٢] فإذا كان هذا مذهبًا مقيدًا بحاجة عارضة لم يوسع لهم فيه إلا بإذنه، فكيف بمذهب مطلق في تفاصيل الدين: أصوله وفروعه، دقيقه وجلبله، هل يشرع الذهاب إليه بدون استئذانه ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] ومن الأدب معه: أن لا يستشكل قوله بل تستشكل الآراء لقوله، ولا يعارض نصه بقياس، بل تهدر الأقيسة وتلقى لنصوصه، ولا يحرف كلامه عن حقيقته لخيال يسميه أصحابه معقولًا، نعم هو مجهول، وعن الصواب معزول، ولا يوقف قبول ما جاء به على موافقة أحد، فكل هذا من قلة الأدب معه، وهو عين الجرأة.

وأما الأدب مع الخلق: فهو معاملتهم على اختلاف مراتبهم بما يليق بهم، فلكل مرتبة أدب، والمراتب فيها أدب خاص، فمع الوالدين: أدب خاص وللأب منهما: أدب هو أخص به، ومع العالم: أدب آخر، ومع السلطان أدب يليق به. وله مع الأقران أدب يليق بهم، ومع الأجانب أدب غير أدبه مع أصحابه وذوي أنسه، ومع الضيف أدب غير أدبه مع أهل بيته.

ولكل حال أدب: فللأكل آداب، وللشرب آداب، وللركوب والدخول والخروج والسفر والإقامة والنوم آداب، وللبول آداب، وللكلام آداب، وللسكوت والاستماع آداب.

[(١)] قوله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره ﷺ، إلى يوم القيامة ولو كان ما بلغه لم يفده علمًا لما كان متعرضًا بمخالفة ما لا يفيد علمًا للفتنة والعذاب الأليم، فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة، التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذر.

(١) ٣٩٩ مختصر الصواعق جـ٢.

[1]وقال أبو العالية في قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] قال: أخلصوا لله الدين والعمل والدعوة: أن جردوا الدعوة إليه، وإلىٰ كتابه وسنة رسوله ﷺ فقط، لا إلىٰ رأي فلان وقول فلان، وقال سفيان في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ قال: يطبع علىٰ قلوبهم، وقال الإمام أحمد، إنما هي الكفر.

ولقي عبد الله بن عمر جابر بن زيد في الطواف، فقال له: يا أبا الشعثاء إنك من فقهاء البصرة فلا تفت إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت[2].

وقال ابن خزيمة: قلت لأحمد بن نصر وحدث بخبر عن رسول الله ﷺ: أما تأخذ به؟ فقال: أترىٰ علىٰ وسطي زنارًا؟! لا تقل لخبر النبي ﷺ أتأخذ به؟! وقل: أصحيح هو ذا؟ فإذا صح الخبر عن رسول الله ﷺ، قلت به شئت أم أبيت. وقال أفلح مولىٰ أم سلمة، إنها كانت تحدث أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول علىٰ المنبر وهي تمتشط: «أيها الناس» فقالت لماشطتها: كفي رأسي. قالت: فديتك، إنما يقول أيها الناس! قالت: ويحك أولسنا من الناس، فكفت رأسها، وقامت في حجرتها، فسمعته يقول: «يا أيها الناس بينا أنا علىٰ حوضي إذ مر بكم زمرًا فتفرقت بكم الطرق، فناديتكم: ألا هلم إلىٰ الطريق، فينادي منادٍ: إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: ألا سحقًا سحقًا»[3]. وهذه الطرق التي تفرقت بهم هي الطرق والمذاهب التي ذهبوا إليها، وأعرضوا عن طريقه ومذهبه ﷺ، فلا يجوزون علىٰ الطريق، التي هو عليها يوم القيامة كما لم يسلكوا الطريق التي كان عليها هو وأصحابه.

---

(١) ٣٥٤ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه الدارمي (رقم ١٦٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٨٦) وذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ (١/ ٧٢) والسيوطي في مفتاح الجنة (ص ٦٠) والقاسمي في قواعد التحديث (ص ٣٣٦).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٩٥) وانظر: شرح النووي (٣/ ١٣٦-١٤٠).

وقال عكرمة عن ابن عباس: إياكم والرأي، فإن الله رد على الملائكة الرأي، وقال: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال لنبيه ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [النساء: ١٠٥] ولم يقل: بما رأيت.

وقال بعض العلماء: ما أخرج آدم من الجنة إلا بتقديم الرأي على النص، وما لعن إبليس وغضب عليه إلا بتقديم الرأي على النص، ولا هلكت أمة من الأمم إلا بتقديم آرائها على الوحي، ولا تفرقت الأمة فرقًا وكانوا شيعًا إلا بتقديم آرائهم على النصوص.

وقد قال عمر بن الخطاب ﷺ: يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأي اجتهادًا، والله ما آلو عن الحق، وذلك يوم أبي جندل، والكتاب بين يدي رسول الله ﷺ وبين أهل مكة، فقال رسول الله ﷺ: «**اكتب بسم الله الرحمن الرحيم**» فقال: بل تكتب كما نكتب: باسمك اللهم. فرضي رسول الله ﷺ، وأبيت عليه، حتى قال رسول الله ﷺ: «**تراني أرضى وتأبى**»[(١)] وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ ﴾ [الحجرات: ١] قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة[(٢)].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النور
والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٨١، ٣١٨٢، ٤١٨٩) ومسلم (رقم ١٧٨٥) والطبراني في الكبير (١/ ٧٢ رقم ٨٢) وانظر: فتح الباري (٥/ ٣٤٦) (١٣/ ٢٨٨-٢٨٩).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٦/ ١١٦) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٠٢ رقم ١٨٦٠٤) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٩٨) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين (٣/ ٣١٩ رقم ٣٨٤) والمروزي في تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٦١ رقم ٧١٥).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ﴾.

[1]أما البركة: فكذلك نوعان:

أحدهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة على تارة، وبأداة في تارة، والمفعول منها: مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو سبحانه المبارك وعبده ورسوله المبارك، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ [مريم: ٣١]، فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك، وأما صفته تبارك فمختصة به تعالى، كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [الملك: ١] ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤] ﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٥] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ﴾ [الفرقان: ١٠] ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة: كتعالى وتعاظم ونحوهما، فجاء بناء تبارك على بناء تعالى، الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها.

وهذا معنى قوله من قال من السلف: تبارك تعاظم.

---

(١) ١٨٥ بدائع جـ٢.

وقال آخر: معناه أن تجيء البركات من قبله، فالبركة كلها منه.

وقال غيره: كثر خيره وإحسانه إلى خلقه.

وقيل: اتسعت رأفته ورحمته بهم.

وقيل: تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه في صفاته وأفعاله.

ومن هنا قيل: معناه تعالى وتعاظم.

وقيل: تبارك تقدس، والقدس الطهارة.

وقيل: تبارك أي باسمه يبارك في كل شيء.

وقيل: تبارك ارتفع، والمبارك المرتفع، ذكره البغوي.

وقيل: تبارك أي البركة تكتسب وتنال بذكره.

وقال ابن عباس: جاء بكل بركة.

وقيل: معناه ثبت ودام بما لم يزل ولا يزال، ذكره البغوي أيضًا.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفًا مواضع من كتابه أو خمسة.

وتفسير السلف يدور على هذين المعنيين، وهما متلازمان، لكن الأليق باللفظة معنى الوصف لا الفعل، فإنه فعل لازم مثل تعالى وتقدس وتعاظم، ومثل هذه الألفاظ ليس معناها أنه جعل غيره عاليًا ولا قدوسًا ولا عظيمًا، هذا مما لا يحتمله اللفظ بوجه، وإنما معناها في نفس من نسبت إليه، فهو المتعالي المتقدس، فكذلك تبارك لا يصح أن يكون معناها بارك في غيره، وأين أحدهما من الآخر لفظًا ومعنًى، هذا لازم وهذا متعد، فعلمت أن من فسر تبارك بمعنى ألقى البركة وبارك في غيره لم يصب معناها وإن كان هذا من لوازم كونه متباركا فتبارك من باب مجد، والمجد كثرة صفات الجلال والسعة والفضل، وبارك من باب أعطى وأنعم.

ولما كان المتعدي في ذلك يستلزم اللازم من غير عكس، فسر من فسر من السلف اللفظة بالمتعدي، لينتظم المعنيين، فقال: مجيء البركة كلها من عنده أو البركة كلها

من قبله، وهذا فرع على تبارك في نفسه، وقد أشبعنا القول في هذا في كتاب الفتح المكي، وبينا هناك: أن البركة كلها له تعالى ومنه، فهو المبارك، ومن ألقى عليه بركته فهو المبارك، ولهذا كان كتابه مباركًا، ورسوله مباركًا، وبيته مباركًا، والأزمنة والأمكنة التي شرفها واختصها عن غيرها مباركة، فليلة القدر مباركة، وما حول الأقصى مبارك، وأرض الشام وصفها بالبركة في أربعة وفعلًا منه تبارك وتعالى.

وتدبر قول النبي ﷺ في حديث ثوبان الذي رواه مسلم في صحيحه عند انصرافه من الصلاة: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**»(١)

فتأمل هذه الألفاظ الكريمة، كيف جمعت نوعي الثناء، أعني ثناء التنزيه والتسبيح، وثناء الحمد والتمجيد، بأبلغ لفظ وأوجزه وأتمه معنى، فأخبر أنه السلام، ومنه السلام، فالسلام له وصفًا وملكًا.

وقد تقدم بيان هذا في وصفه تعالى بالسلام، وأن صفات كماله ونعوت جلاله وأفعاله وأسمائه كلها سلام، وكذا الحمد كله له وصفا وملكا، فهو المحمود في ذاته، وهو الذي يجعل من يشاء من عباده محمودا، فيهبه حمدا من عنده، وكذلك العزة كلها له وصفا وملكا، وهو العزيز الذي لا شيء أعز منه، ومن عز من عباده فبإعزازه له، وكذلك الرحمة كلها له وصفا وملكا، وكذلك البركة فهو المتبارك في ذاته، الذي يبارك فيمن شاء من خلقه، وعليه فيصير بذلك مباركًا ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤] ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥] وهذا بساط وإنما غاية معارف العلماء الدنو من أول حواشيه وأطرافه، وأما ما وراء ذلك، فكما قال أعلم الخلق بالله، وأقربهم إلى الله، وأعظمهم عنده جاها: «لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(٢). وقال

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥٩١) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٣٦) (١١/ ١٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٤) وشرح النووي (٤/ ٢٠٤).

في حديث الشفاعة الطويل: «فأخر ساجدًا لربي، فيفتح عليَّ من محامده، بما لا أحسنه الآن»[١] وفي دعاء الهم والغم: «أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»[٢] فدل على أن لله ﷻ أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده دون خلقه، لا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، وحسبنا الإقرار بالعجز، والوقوف عند ما أذن لنا فيه من ذلك، فلا نغلوا فيه ولا نجفوا عنه، وبالله التوفيق.

***

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾.

...[٣]الصواب هو الجواب الثالث، وهو جواب صاحب الكشاف وغيره: أن المسحور على بابه، وهو من سحر حتى جن، فقالوا: مسحور مثل مجنون زائل العقل، لا يعقل ما يقول. فإن المسحور الذي لا يتبع هو الذي فسد عقله، بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون، ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتباعه، وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان وإنما قذفوهم بما يحذرون به سفهاءهم من أتباعهم، وهو أنهم قد سحروا حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين.

ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩] مثلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٢) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٦).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٥٣ رقم ٩٧٢) وفي الموارد (رقم ٢٣٧٢) وأحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢) والحاكم (١/ ٦٩٠ رقم ١٨٧٧) وابن أبي شيبة (٦/ ٤٠ رقم ٢٩٣١٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٦٩ رقم ١٠٣٥٢) وصححه الحاكم وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٣٦): رواه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان.

(٣) ٢٢٦ بدائع جـ٤.

فضلوا في جميع ذلك ضلال من يطلب في تيهه وتحيره طريقًا يسلكه فلا يقدر عليه، فإنه أي طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة، فهو متحير في أمره لا يهتدي سبيلًا، ولا يقدر على سلوكها.

فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه، حتى ضربوا له أمثالًا برأه الله منها، وهو أبعد خلق الله منها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم، فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم يبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم، ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء صبروا ورضوا وتأسوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار، فيستوجبون ما أعد لهم من النكال العاجل والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعداوتهم فيعجل تطهير الأرض منهم.

فهذا من بعض حكمته تعالى في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم، وله الحكمة البالغة والنعمة السابغة، لا إله غيره ولا رب سواه.

***

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

(١) يسأله إياه عباده المؤمنون، ويسأله إياه ملائكته لهم.

فالجنة تسأل ربها أهلها، وأهلها يسألونه إياها، والملائكة تسألها لهم، والرسل يسألونه إياها لهم ولأتباعهم ويوم القيامة يقيمهم سبحانه بين يديه يشفعون فيها لعباده المؤمنين.

وفي هذا من تمام ملكه وإظهار رحمته وإحسانه وجوده وكرمه وإعطائه ما سئل ما

(١) ٦٩ حادي الأرواح.

هو من لوازم أسمائه وصفاته واقتضائها لآثارها ومتعلقاتها، فلا يجوز تعطيلها عن آثارها وأحكامها، فالرب تعالى جواد له الجود كله، يحب أن يسئل ويطلب منه، ويرغب إليه، فخلق من يسأله، وألهمه سؤاله، وخلق له ما يسأله إياه، فهو خالق السائل وسؤاله ومسئوله، وذلك لمحبته سؤال عباده له، ورغبتهم إليه، وطلبهم منه، وهو يغضب إذا لم يسئل:

الله يغضب إن تركت سؤاله   وبني آدم حين يُسأل يغضب[١]

وأحب خلقه إليه أكثرهم وأفضلهم له سؤالا، وهو يحب الملحين في الدعاء، وكلما ألح العبد عليه في السؤال أحبه وقربه وأعطاه.

وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[٢] فلا إله إلا هو، أي جناية جنت القواعد الفاسدة على الإيمان، وحالت بين القلوب وبين معرفة ربها وأسمائه وصفات كماله ونعوت جلاله، والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

قال أبو نعيم الفضل حدثنا يونس هو ابن أبي إسحاق حدثنا يزيد بن أبي مرثد قال قال أنس بن مالك قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلم يسأل الله الجنة ثلاثًا، إلا قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة. ومن استجار من النار بالله ثلاثًا، قالت النار: اللهم أجره من النار**»[٣] رواه الترمذي والنسائي وابن ماجه عن هناد بن السري عن أبي الأحوص عن

---

(١) ذكر البيت ابن كثير في تفسيره (١/ ٢١) (٤/ ٨٦) والقرطبي في تفسيره (١/ ١٠٦) (٥/ ١٦٤) والمناوي في فيض القدير (٢/ ٣٤١) (٣/ ١٢) والشربيني في الإقناع (١/ ١٩٥) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٨٧) والخطابي في العزلة (ص ٦٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٣) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٥٨) وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (رقم ٢٦٥٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٧٢) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣٣ رقم ٩٩٣٨) وابن ماجه (رقم ٤٣٤٠) وأحمد (٣/ ١٥٥) وأبو يعلى (٦/ ٣٥٦ رقم ٣٦٨٣) والطيالسي (رقم ٢٥٧٩) وهناد في الزهد (١/ ١٣٣ رقم ١٧٣) والضياء في المختارة (٤/ ٣٨٨ رقم ١٥٥٧) وابن حبان (٣/ ٢٩٣ رقم ١٠١٤) وفي الموارد (رقم ٢٤٣٣) والحاكم (١/ ٧١٧ رقم ١٩٦٠) وصححه. وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦٣٠) وفي صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٣٦٥٤).

أبي إسحاق عن يزيد به.

وقال الحسن بن سفيان: حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن ليث عن يونس بن حبان عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما سأل الله عبد الجنة في يوم سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلانًا يسألني فأدخلنيه**»(١).

وقال أبو يعلى الموصلي: حدثنا أبو خيثمة زهير بن حرب حدثنا جرير عن يونس عن أبي حازم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما استجار عبد من النار سبع مرات إلا قالت النار: إن عبدك فلانا استجار مني فأجره. ولا يسأل عبد الجنة سبع مرات إلا قالت الجنة: يا رب إن عبدك فلانا سألني فأدخله الجنة**»(٢) وإسناده على شرط الصحيحين.

***

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾.

(٣)قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الفرقان: ١٧] عام في كل عابد ومن عبده من دون الله.

وأما قوله: ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه (١/ ٢٤٩ رقم ٢١٣).

(٢) أخرجه أبو يعلى (١١/ ٥٤ رقم ٦١٩٢) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٢٤٣ رقم ٥٥٢١): رواه أبو يعلى بإسناد على شرط البخاري ومسلم. وانظر: التخويف من النار (ص ٤٤) وفيض القدير (٦/ ١٤٥).

(٣) ٢٣٩ إغاثة جـ٢.

فقال مجاهد فيما رواه ورقاء عن ابن أبي نجيح عنه قال: «هذا خطاب لعيسى وعزير، والملائكة»، وروى عنه ابن جريج نحوه.

وأما عكرمة والضحاك والكلبي، فقالوا: هو عام في الأوثان وعبدتها.

ثم يأذن سبحانه لها في الكلام، فيقول: ﴿ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ قال مقاتل: يقول سبحانه: «أأنتم أمرتموهم بعبادتكم، أم هم ضلوا السبيل؟ أي: أم هم أخطأوا الطريق؟» فأجاب المعبودون بما حكى الله عنهم من قولهم: ﴿ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الفرقان: ١٨].

وهذا الجواب إنما يحسن من الملائكة والمسيح وعزير، ومن عبدهم المشركون من أولياء الله.

ولهذا قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة وعيسى الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله [تنزيهًا لك يا ربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون]. ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ نواليهم، بل أنت ولينا من دونهم[١].

وقال ابن عباس ومقاتل: «نزهوا الله وعظموه أن يكون معه إله».

وفيها قراءتان: أشهرهما (نَتَّخِذ) بفتح النون وكسر الخاء، على البناء للفاعل. وهي قراءة السبعة. والثانية (نُتَّخَذ) بضم النون وفتح الخاء، على البناء للمفعول، وهي قراءة الحسن ويزيد بن القعقاع. وعلى كل واحدة من القراءتين إشكال.

فأما قراءة الجمهور، فإن الله سبحانه إنما سألهم: هل أضلوا المشركين بأمرهم إياهم بعبادتهم، أم هم ضلوا السبيل باختيارهم وأهوائهم؟ وكيف يكون هذا الجواب مطابقا للسؤال؟ فإنه لم يسألهم: هل اتخذتم من دوني من أولياء؟ حتى يقولوا: ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ وإنما سألهم هل أمرتم عبادي هؤلاء

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (١٨/ ١٩٠).

بالشرك، أم هم أشركوا من قبل أنفسهم؟ فالجواب المطابق أن يقولوا: لم نأمرهم بالشرك، وإنما هم آثروه وارتضوه أو لم نأمرهم بعبادتنا، كما قال في الآية الأخرىٰ عنهم: ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾[القصص: ٦٣].

فلما رأىٰ أصحاب القراءة الأخرىٰ ذلك فروا إلىٰ بناء الفعل للمفعول. وقالوا: الجواب يصح علىٰ ذلك، ويطابق. إذ المعنىٰ: ليس يصلح لنا أن نعبد ونتخذ آلهة، فكيف نأمرهم بما لا يصلح لنا، ولا يحسن منا؟.

ولكن لزم هؤلاء من الإشكال أمر آخر، وهو قوله: ﴿ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ فإن زيادة «من» لا يحسن إلا مع قصد العموم، كما تقول: ما قام من رجل. وما ضربت من رجل. فأما إذا كان النفي واردًا علىٰ شيء مخصوص فإنه لا يحسن زيادة «من» فيه، وهم إنما نفوا عن أنفسهم ما نسب إليهم من دعوىٰ المشركين: أنهم أمروهم بالشرك. فنفوا عن أنفسهم ذلك بأنه لا تحسن منهم، ولا يليق بهم أن يعبدوا، فكيف ندعوا عبادك إلىٰ أن يعبدونا؟ فكان الواجب علىٰ هذا: أن تقرأ: (مَا كانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِكَ) أو (مِنْ دُونِكَ أَوْلِيَاءَ).

فأجاب أصحاب القراءة الأولىٰ بوجوه:

أحدها: أن المعنىٰ: ما كان ينبغي لنا أن نعبد غيرك، ونتخذ غيرك وليًّا ومعبودًا. فكيف ندعو أحدًا إلىٰ عبادتنا؟ أي إذا كنا نحن لا نعبد غيرك، فكيف ندعو أحدًا إلىٰ أن يعبدنا؟ والمعنىٰ: أنهم إذا كانوا لا يرون لأنفسهم عبادة الله تعالىٰ، فكيف يدعون غيرهم إلىٰ عبادتهم؟ وهذا جواب الفراء.

وقال الجرجاني: هذا بالتدريج يصير جوابًا للسؤال الظاهر، وهو أن من عبد شيئًا فقد تولاه، وإذا تولاه العابد صار المعبود وليًّا للعابد، يدل علىٰ هذا قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾[سبأ: ٤٠، ٤١]. فدل علىٰ أن العابد يصير وليًّا للمعبود.

ويصير المعنى كأنهم قالوا: ما كان ينبغي لنا أن نأمر غيرنا باتخاذنا أولياء، وأن نتخذ من دونك وليا يعبدنا. وهذا بسط لقول ابن عباس في هذه الآية.

قال: يقولون: ما توليناهم، ولا أحببنا عبادتهم. قال: ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ أن يريدوا معشر العبيد، لا أنفسهم: أي نحن وهم عبيدك، ولا ينبغي لعبيدك أن يتخذوا من دونك أولياء، ولكنهم أضافوا ذلك إلى أنفسهم تواضعا منهم. كما يقول الرجل لمن أتى منكرًا: ما كان ينبغي لي أن أفعل مثل هذا، أي أنت مثلي عبد محاسب، فإذا لم يحسن من مثلي أن يفعل هذا لم يحسن منك أيضًا.

قال: ولهذا الإشكال قرأ من قرأ (نُتَّخذَ) بضم النون. وهذه القراءة أقرب في التأويل. لكن قال الزّجّاج: هذه القراءة خطأ، لأنك تقول: ما اتخذت من أحد وليًا، ولا يجوز ما اتخذت أحدا من ولي، لأن «من» إنما دخلت لأنها تنفي واحدًا من معنى جميع، تقول: ما من أحد قائمًا، وما من رجل محبا لما يضره، ولا يجوز: ما رجل من محب لما يضره.

قال: ولا وجه عندنا لهذا البتة، ولو جاز هذا لجاز في: ﴿ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٧] ما أحد عنه من حاجزين. فلو لم تدخل «من» لصحت هذه القراءة.

قال صاحب النظم: العِلة في سقوط هذه القراءة: أن «من» لا تدخل إلا على مفعول لا مفعول دونه: فإذا كان قبل المفعول مفعول سواه لم يحسن دخول «من» كقوله: ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ [مريم: ٣٥]. فقوله «من ولد» لا مفعول دونه سواه، ولو قال: ما كان لله أن يتخذ أحدًا من ولد، لم يحسن فيه دخول «من» لأن فعل الاتخاذ مشغول بأحد.

وصحح آخرون هذه القراءة لفظا ومعنى، وأجروها على قواعد العربية.

قالوا: وقد قرأ بها من لا يرتاب في فصاحته. فقرأ بها زيد بن ثابت، وأبو الدرداء

وأبو جعفر، ومجاهد، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وأبو رجاء، والحسن، وحفص بن حُميد، ومحمد بن علي، على خلاف عن بعض هؤلاء، ذكر ذلك أبو الفتح ابن جنِّي. ثم وجهها بأن يكون ﴿ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ في موضع الحال: أي ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك أولياء. ودخلت «من» زائدة لمكان النفي. كقولك: اتخذت زيدًا وكيلًا، فإذا نفيت قلت: ما اتخذت زيدًا من وكيل. وكذلك أعطيته درهما. وما أعطيته من درهم. وهذا في المفعول فيه.

قلت: يعني أن زيادتها مع الحال، كزيادتها مع المفعول. ونظير ذلك أن تقول: ما ينبغي لي أن أخدمك متثاقلا، فإذا أكدت، قلت: من متثاقل.

فإن قيل: فقد صحت القراءتان لفظا ومعنى، فأيهما أحسن؟

قلت: قراءة الجمهور أحسن وأبلغ في المعنى المقصود. والبراءة مما لا يليق بهم، فإنهم على قراءة الضم: يكونون قد نفوا حسن اتخاذ المشركين لهم أولياء، وعلى قراءة الجمهور: يكونون قد أخبروا أنهم لا يليق بهم، ولا يحسن منهم أن يتخذوا وليا من دونه، بل أنت وحدك ولينا ومعبودنا، فإذا لم يحسن بنا أن نشرك بك شيئا، فكيف يليق بنا أن ندعو عبادك إلى أن يعبدونا من دونك؟ وهذا المعنى أجل من الأول وأكبر، فتأمله.

والمقصود: أنه على القراءتين: فهذا الجواب من الملائكة ومن عبد من دون الله من أوليائه. وأما كونه من الأصنام فليس بظاهر.

وقد يقال: إن الله سبحانه أنطقها بذلك، تكذيبا لهم، وردا عليهم، وبراءة منهم كقوله: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ [البقرة: ١٦٦]. وفي الآية الأخرى ﴿ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص: ٦٣].

ثم ذكر المعبودون سبب ترك العابدين الإيمان بالله تعالى: بقولهم: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان: ١٨]. قال ابن عباس:

«أطلت لهم العمر، وأفضلت عليهم، ووسعت لهم في الرزق».

وقال الفراء: ولكنك متعتهم بالأموال والأولاد، حتى نسوا ذكرك، وكانوا قومًا بورًا: أي هلكى فاسدين، قد غلب عليهم الشقاء والخذلان. والبوار: الهلاك والفساد، يقال: بارت السلعة، وبارت المرأة، إذا كسدت ولم يحصل لها من يتزوجها.

قال قتادة: والله ما نسي قوم ذكر الله ﷻ إلا باروا وفسدوا(١).

والمعنى: ما أضللناهم ولكنهم ضلوا.

قال الله تعالى: ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾ [الفرقان: ١٩]. أي كذبكم المعبودون بقولكم فيهم: إنهم آلهة، وإنهم شركاء، أو بما تقولون: إنهم أمروكم بعبادتهم، ودعوكم إليها.

وقيل: الخطاب للمؤمنين في الدنيا: أي فقد كذبكم أيها المؤمنون هؤلاء المشركون بما تقولونه، مما جاء به محمد صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عن الله من التوحيد والإيمان، والأول أظهر، وعليه يدل السياق.

ومن قرأها بالياء - آخر الحروف - فالمعنى، فقد كذبوكم بقولهم، ثم قال: ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾ [الفرقان: ١٩]. إخبارًا عن حالهم يومئذ، وأنهم لا يستطيعون صرف العذاب عن أنفسهم، ولا نصرها من الله.

قال ابن زيد: ينادي مناد يوم القيامة، حين يجتمع جميع الخلائق: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات: ٢٥] يقول: من عُبد من دون الله، لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلهه ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾(٢) [الصافات: ٢٦]. فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فوا سوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين إذا سمعوا النداء ﴿ وَٱمْتَٰزُوا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٧٣ رقم ١٥٠٣٧) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٤٢) إلى عبد بن حميد.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١٩٣) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٦٧٤ رقم ١٥٠٤٢).

ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾[يس: ٥٩ - ٦٢].

***

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

(1) قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً ﴾ [الفرقان: ٢٠] وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض.

فامتحن الرسل بالمرسل إليهم، ودعوتهم إلىٰ الحق، والصبر علىٰ أذاهم، وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم.

وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟

وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون علىٰ تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟

وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟

وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك.

وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء.

وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع والأتباع بالسادة.

وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به.

وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به.

---

(١) ١٦٠ إغاثة جـ٢.

وامتحن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار والكفار بالمؤمنين.

وامتحن الآمرين بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾[الأحقاف: ١١] هؤلاء.

وقالوا لنوح ؑ: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١].

قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]. فإذا رأىٰ الشريفُ الرئيسُ المسكينَ الذليلَ قد سبقه إلىٰ الإيمان ومتابعة الرسول حمي وأنف أن يسلم، فيكون مثله، وقال: أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع علىٰ حد سواء؟.

...[1]قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ فهو سبحانه جعل أولياءه فتنة لأعدائه، وأعداءه فتنة لأوليائه، والملوك فتنة للرعية، والرعية فتنة لهم، والرجال فتنة للنساء، وهن فتنة لهم، والأغنياء فتنة للفقراء، والفقراء فتنة لهم، وابتلىٰ كل أحد بضد جعله متقابلًا، فما استقرت أقدام الأبوين علىٰ الأرض إلا وضدهما مقابلهما، واستمر الأمر في الذرية كذلك إلىٰ أن يطوي الله الدنيا ومن عليها.

وكم له سبحانه في مثل هذا الابتلاء والامتحان من حكمة بالغة، ونعمة سابغة، وحكم نافذ، و أمر ونهي، وتصريف دال علىٰ ربوبيته وإلهيته وملكه وحمده.

وكذلك ابتلاء عباده بالخير والشر في هذه الدار هو من كمال حكمته ومقتضىٰ حمده التام.

إنه لولا هذا الابتلاء والامتحان لما ظهر فضل الصبر والرضا، والتوكل والجهاد، والعفة والشجاعة، والحلم والعفو والصفح.

---

(١) ٢٤٤ شفاء.

والله سبحانه يحب أن يكرم أولياءه بهذه الكمالات، ويحب ظهورها عليهم ليثني بها عليهم هو ملائكته، وينالوا باتصافهم بها غاية الكرامة واللذة والسرور، وإن كانت مرة المبادئ فلا أحلى من عواقبها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

وقد أجرى الله سبحانه حكمته بأن كمال الغايات تابعة لقوة أسبابها وكمالها، ونقصانها لنقصانها، فمن كمل أسباب النعيم واللذة كملت له غاياتها، ومن حرمها حرمها، ومن نقصها نقص له من غاياتها، وعلى هذا قام الجزاء بالقسط والثواب والعقاب، وكفى بهذا العالم شاهدًا لذلك، فرب الدنيا والآخرة واحد، وحكمته مطردة فيهما، وله الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

***

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

...[1]المقصود: أن الله سبحانه يقطع يوم القيامة الأسباب والعلق والوصلات التي كانت بين الخلق في الدنيا كلها، ولا يبقى إلا السبب والوصلة التي بين العبد وبين الله فقط، وهو سبب العبودية المحضة التي لا وجود لها ولا تحقيق إلا بتجريد متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال: تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] فهذه هي أعماله التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباء منثورًا، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلًا، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه كله ضائعًا لم ينتفع منه بشيء، وهو أحوج ما كان العامل إلى عمله، وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. اهـ.

[2]وأعظم الحظوظ وأجداها ما نفع العبد ودام نفعه له، وليس هذا إلا حظه من

---

(١) ٤١ الرسالة التبوكية.

(٢) ٦٧ مفتاح جـ١.

العلم والدين، فهو الحظ الدائم النافع الذي إذا انقطعت الحظوظ لأربابها فهو موصول له أبد الآبدين، وذلك لأنه موصول بالحي الذي لا يموت، فلذلك لا ينقطع ولا يفوت، وسائر الحظوظ تعدم وتتلاشى بتلاشي متعلقاتها، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ فإن الغاية لما كانت منقطعة زائلة تبعتها أعمالهم فانقطعت عنهم أحوج ما يكون العامل إلى عمله، وهذه هي المصيبة التي لا تجبر، عياذًا بالله واستعانة به وافتقارًا وتوكلًا عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

***

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾.

[(١)] كل من اتخذ غير الرسول يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول ﷺ، فإنه قائل هذه المقالة لا محالة. ولهذا هذا الخليل كنى عنه باسم فلان؛ إذ لكل متبع أولياء من دون الله فلان وفلان، فهذا حال الخليلين المتخالين على خلاف طاعة الرسول ﷺ، ومآل تلك الخلة إلى العداوة واللعنة، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧] وقد ذكر حال هؤلاء الأتباع وحال من تبعوهم في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨] تمنى القوم طاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم ذلك، واعتذروا بأنهم أطاعوا كبراءهم ورؤساءهم، واعترفوا بأنهم لا عذر لهم في ذلك، وأنهم أطاعوا السادات والكبراء وعصوا الرسول، وآلت تلك

(١) ٣٥ تبوكية.

الطاعة والموالاة إلىٰ قولهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ وفي بعض هذا عبرة للعاقل وموعظة شافية، وبالله التوفيق.

...[1]قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩]. وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]. وقال خليله إبراهيم لقومه: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وهذا شأن كل مشتركين في غرض، يتوادون ما داموا متساعدين علىٰ حصوله، فإذا انقطع ذلك الغرض أعقب ندامة وحزنًا وألمًا، وانقلبت تلك المودة بغضًا ولعنة وذمًّا من بعضهم لبعض، لما انقلب ذلك الغرض حزنًا وعذابًا، كما يشاهد في هذه الدار من أحوال المشتركين في خزي إذا أخذوا وعوقبوا، فكل متساعدين علىٰ باطل متوادين عليه: لابد أن تنقلب مودتهما بغضا وعداوة.

والضابط النافع في أمر الخلطة: أن يخالط الناس في الخير ـ كالجمعة والجماعة، والأعياد والحج، وتعلم العلم، والجهاد والنصيحة ـ ويعتزلهم في الشر وفضول المباحات، فإذا دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم في الشر ولم يمكنه اعتزالهم: فالحذر الحذر أن يوافقهم، وليصبر علىٰ أ ذاهم، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر،ولكن أذىٰ يعقبه عز ومحبة له وتعظيم، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين، وموافقتهم يعقبها ذلٌّ وبغض له، ومقت، وذم منهم، ومن المؤمنين، ومن رب ا لعالمين.

فالصبر علىٰ أذاهم خير وأحسن عاقبة، وأحمد مآلًا، وإن دعت الحاجة إلىٰ خلطتهم

(١) ٤٤٥ مدارج جـ١.

في فضول المباحات فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله، إن أمكنه، ويشجع نفسه ويقوي قلبه، ولا يلتفت إلىٰ الوارد الشيطاني القاطع له عن ذلك، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك، ونحو ذلك، فليحاربه، وليستغن بالله، ويؤثر فيهم من الخير ما أمكنه.

فإن أعجزته المقادير عن ذلك، فليسل قلبه من بينهم كسل الشعرة من العجين، وليكن فيهم حاضرًا غائبًا، قريبًا بعيدًا، نائمًا يقظانًا، ينظر إليهم ولا يبصرهم، ويسمع كلامهم ولا يعيه، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم، ورقىٰ به إلىٰ الملأ الأعلىٰ، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية، وما أصعب هذا وأشقه علىٰ النفوس، وإنه ليسير علىٰ من يسره الله عليه، فبين العبد وبينه وأن يصدق الله تبارك وتعالىٰ، ويديم اللجأ إليه، ويلقي نفسه علىٰ بابه طريحًا ذليلًا، ولا يعين علىٰ هذا إلا محبة صادقة، والذكر الدائم بالقلب واللسان، وتجنب المفسدات الأربع الباقية الآتي ذكرها، ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله ﷻ، وعزيمة صادقة، وفراغ من التعلق بغير الله تعالىٰ، والله تعالىٰ أعلم[1].

***

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝﴾.

[2]هجر القرآن أنواع:

أحدها: هجر سماعه والإيمان به والإصغاء إليه.

والثاني: هجر العمل به والوقوف عند حلاله وحرامه، وإن قرأه وآمن به.

والثالث: هجر تحكيمه،والتحاكم إليه في أصول الدين وفروعه، واعتقاد أنه لا يفيد اليقين، وأن أدلته لفظية لا تحصل العلم.

---

(١) شرح المؤلف بقية مفسدات القلب تركناها اختصارًا. (ج).

(٢) ٨١ فوائد.

والرابع: هجر تدبره وتفهمه، ومعرفة ما أراد المتكلم به منه.

والخامس: هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وأدوائها، فيطلب شفاء دائه من غيره، ويهجر التداوي به، وكل هذا داخل في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠] وإن كان بعض الهجر أهون من بعض[١].

[٢]وأما التأمل في القرآن: فهو تحديق ناظر القلب إلىٰ معانيه. وجمع الفكر علىٰ تدبره وتعقله، وهو المقصود بإنزاله، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر.

قال الله تعالىٰ: ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

وقال الحسن: نزل القرآن ليتدبر ويعمل به، فاتخذوا تلاوته عملًا.

فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلىٰ نجاته: من تدبر القرآن وإطالة التأمل وجمع منه الفكر علىٰ معاني آياته، فإنها تطلع العبد علىٰ معالم الخير والشر بحذافيرهما وعلىٰ طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما وتُتَلّ في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه، وتوطد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها

(١) تقدم بقية البحث في سورة الأعراف (ج).
(٢) ٤٥١ مدارج جـ١.

ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفترقون فيه.

وبالجملة: تعرفه الرب المدعو إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه. وتعرفه في مقابل ذلك ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصلة إليه وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه ستة أمور ضرورية للعبد معرفتها ومشاهدتها ومطالعتها، فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما اختلف فيه العالم، فتريه الحق حقًّا والباطل باطلًا، وتعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهدى والضلال والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه وحياة وسعة وانشراحا وبهجة وسرورًا، فيصير في شأن والناس في شأن آخر.

فإن معاني القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه، والعلم بالله وما له من أوصاف الكمال، وما ينزه عنه من سمات النقص، وعلى الإيمان بالرسل وذكر براهين صدقهم، وأدلة صحة نبوتهم، والتعريف بحقوقهم وحقوق مرسلهم، وعلى الإيمان بملائكته وهم رسله في خلقه وأمره، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوي والسفلي، وما يختص بالنوع الإنساني منهم، من حين يستقر في رحم أمه إلى يوم يوافي ربه ويقدم عليه، وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعد الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق، التي لا يشعرون فيها بألم ولا نكد ولا تنغيص، وما أعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل، التي لا يخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح، وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه، وعلى تفاصيل الأمر والنهي، والشرع والقدر، والحلال والحرام، والمواعظ والعبر والقصص والأمثال، والأسباب والحكم، والمبادئ والغايات في خلقه وأمره.

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من

العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل، وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل، وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل، وتبصره بحدود الحلال والحرام، وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع في العناء الطويل، وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل، وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل، وتناديه كلما فترت عزماته، وونى في سيره: تقدم الركب وفاتك الدليل، فاللحاق اللحاق والرحيل الرحيل، وتحدو به، وتسير أمامه سير الدليل، وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو، أو قاطع من قطاع الطريق، نادته: الحذر الحذر! فاعتصم بالله، واستعن به، وقل: حسبي الله ونعم الوكيل.

وفي تأمل القرآن وتدبره وتفهمه، أضعاف أضعاف ما ذكرنا من الحكم والفوائد.

***

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾.

[(1)] أنزل الله الكتاب شفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، ولذلك كانت معانيه أشرف المعاني، وألفاظه أفصح الألفاظ، وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٣] فالحق هو المعنى والمدلول الذي تضمنه الكتاب، والتفسير الأحسن هو الألفاظ الدالة على ذلك الحق، فهو تفسيره وبيانه.

والتفسير أصله من البيان والظهور، ويلاقيه في الاشتقاق الأكبر الإسفار، ومنه أسفر الفجر إذا أضاء ووضح، ومنه السفر لبروز المسافر من البيوت، ومنه السفر الذي يتضمن إظهار ما فيه من العلم، فلابد أن يكون التفسير مطابقًا للمفسر مفهمًا له، ولا تجد كلامًا أحسن تقديرًا ولا أتم بيانًا من كلام الله سبحانه، ولهذا سماه الله بيانًا وأخبر

---

(١) ٥٩ مختصر الصواعق جـ١.

أنه يسره للذكر، ويسر ألفاظه للحفظ، ومعانيه للفهم، وأوامره ونواهيه للامتثال.

ومعلوم أنه لو كان بألفاظ لا يفهمها المخاطب لم يكن ميسرًا له بل كان معسرًا عليه، وإذا أريد من المخاطب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدل عليه من المعاني أو يدل على خلافه فهذا من أشد التعسير...

***

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾.

[1]شبه أكثر الناس بالأنعام، والجامع بين النوعين التساوي في عدم قبول الهدى والانقياد له، وجعل الأكثرين أضل سبيلًا من الأنعام، لأن البهيمة يهديها سائقها فتهتدي وتتبع الطريق، فلا تحيد عنها يمينًا ولا شمالاً، والأكثرون يدعوهم الرسل ويهدونهم السبل فلا يستجيبون، ولا يفرقون بين ما يضرهم وبين ما ينفعهم، والأنعام تفرق بين ما يضرها من النبات والطريق فتجتنبه وما ينفعها فتؤثره.

والله تعالى لم يخلق للأنعام قلوبًا تعقل بها، ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء، ثم لم يتنفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار، فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشد وإلى الطريق مع الدليل إليه أضل وأسوأ حالًا ممن لا يهتدي حيث لا دليل معه.

...[2]إذا عرف هذا. فهذه الحواس الخمس لها أشباح وأرواح، وأرواحها حظ القلب ونصيبه منها.

فمن الناس: من ليس لقلبه منها نصيب إلا كنصيب الحيوانات البهيمية منها، فهو بمنزلتها وبينه وبينها أول درجة الإنسانية، ولهذا شبه الله سبحانه أولئك بالأنعام، بل

---

(١) ١٥٩ إعلام جـ١.

(٢) ٤١٠ مدارج جـ٢.

جعلهم أضل، فقال تعالىٰ: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] ولهذا نفى الله عن الكفار السمع والبصر والعقول: إما لعدم انتفاعهم بها، فُنزِّلت منزلة المعدوم، وإما لأن النفي توجه إلىٰ أسماع قلوبهم وأبصارها وإدراكها، ولهذا يظهر لهم ذلك عند انكشاف حقائق الأمور، كقول أصحاب السعير: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

ومنه في أحد التأويلين قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨] فإنهم كانوا ينظرون إلىٰ صورة النبي ﷺ بالحواس الظاهرة، ولا يبصرون صورة نبوته ومعناها بالحاسة الباطنة، التي هي بصر القلب. والقول الثاني: إن الضمير عائد علىٰ الأصنام، ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه علىٰ التشبيه أي كأنهم ينظرون إليك، ولا أبصار لهم يرونك بها.

والثاني: المراد به المقابلة، تقول العرب: داري تنظر دارك، أي تقابلها.

وكذلك السمع ثابت لهم، وبه قامت الحجة عليهم، ومنتف عنهم وهو سمع القلب، فإنهم كانوا يسمعون القرآن من حيث السمع الحسي المشترك: كالغنم التي لا تسمع إلا نعيق الراعي بها دعاء ونداء، ولم يسمعوه بالروح الحقيقي، الذي هو روح حاسة السمع، التي هي حظ القلب، فلو سمعوه من هذه الجهة: لحصلت لهم الحياة الطيبة، التي منشؤها من السماع المتصل أثره بالقلب، ولزال عنهم الصمم والبكم، ولأنقذوا نفوسهم من السعير بمفارقة من عدم السمع والعقل.

فحصول السمع الحقيقي: مبدأ لظهور آثار الحياة الطيبة، التي هي أكمل أنواع الحياة في هذا العالم، فإن بها يحصل غذاء القلب، ويعتدل فتتم قوته وحياته وسروره ونعيمه وبهجته، وإذا فقد غذاءه الصالح: احتاج إلىٰ أن يعتاض عنه بغذاء قبيح خبيث، وإذا فسد غذاؤه: وخبث ونقص من حياته وقوته وسروره ونعيمه بحسب ما فسد من غذائه كالبدن إذا فسد غذاؤه نقص.

***

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾.

[1]أخبر تعالىٰ: أنه بسط الظل ومده، وأنه جعله متحركًا تبعًا لحركة الشمس، ولو شاء لجعله ساكنًا لا يتحرك: إما بسكون المظهر له، والدليل عليه، وإما بسبب آخر.

ثم أخبر: أنه قبضه ـ بعد بسطه ـ قبضًا يسيرًا، وهو شيء بعد شيء، لم يقبضه جملة.

فهذا من أعظم آياته الدالة علىٰ عظيم قدرته، وكمال حكمته، فندب الرب سبحانه عباده إلىٰ رؤية صنعته وقدرته، وحكمته في هذا الفرد من مخلوقاته، ولو شاء لجعله لاصقًا بأصل ما هو ظل له من جبل وبناء وشجر وغيره، فلم ينتفع به أحد.

فإن كان الانتفاع به تابعًا لمده وبسطه، وتحوله من مكان إلىٰ مكان، ففي مده وبسطه، ثم قبضه شيئًا فشيئًا: من الصالح والنافع ما لا يخفىٰ ولا يحصىٰ، فلو كان ساكنًا دائمًا، أو قبض دفعة واحدة: لتعطلت مرافق العالم ومصالحه به وبالشمس، فمد الظل وقبضه شيئًا فشيئًا لازم لحركة الشمس، علىٰ ما قدرت عليه من مصالح العالم.

وفي دلالة الشمس علىٰ الظلال ما تعرف به أوقات الصلوات، وما مضىٰ من اليوم، وما بقي منه، وفي تحركه وانتقاله ما يبرد به ما أصابه من حر الشمس.

وينفع الحيوانات والشجر والنبات، فهو من آيات الله الدالة عليه.

وفي الآية وجه آخر، وهو: أنه سبحانه مدَّ الظل حين بنىٰ السماء كالقبة المضروبة، ودحىٰ الأرض تحتها، فألقت القبة ظلها عليها، فلو شاء سبحانه لجعله ساكنًا مستقرًّا في تلك الحال، ثم خلق الشمس ونصبها دليلًا علىٰ ذلك الظل، فهو يتبعها في حركتها، يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص، فهو تابع لها تبعية المدلول لدليله.

وفيها وجه آخر، وهو: أن يكون المراد قبضه عند قيام الساعة بقبض أسبابه، وهي الأجرام التي تلقي الظلال، فيكون قد ذكر إعدامه بإعدام أسبابه، كما ذكر إنشاءه

---

(١) ٢٩٣ مدارج جـ٣.

بإنشاء أسبابه. وقوله تعالى: ﴿قَبَضْنَـٰهُ إِلَيْنَا﴾ كأنه يشعر بذلك، وقوله: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يشبه قوله: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] وقوله: ﴿قَبَضْنَـٰهُ﴾ بصيغة الماضي لا ينافي ذلك كقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] والوجه في الآية هو الأول.

(١)ومعنى الآية التنبيه على هذه الدلالة الباهرة على قدرة الرب سبحانه، وعجائب مخلوقاته الدالة عليه، والمعنى: انظر كيف بسط ربك الظل، والظل ما قبل الزوال، والفيء بعده، فمده سبحانه وبسطه عند طلوع الشمس، فإنه يكون مديدًا أطول ما يكون، وجعل الشمس دليلًا عليه، فإنها هي التي تظهره وتبينه، ثم كلما ارتفعت الشمس شيئًا انقبض من الظل جزء، فلا يزال ينقص يسيرًا حتى ينتهي إلى غايته، فإذا أخذت الشمس في الجانب الغربي انبسط بعد انقباضه شيئًا فشيئًا حتى يصير كهيئته عند طلوعها، ولهذا كان الزوال يعرف بانتهاء الظل في قصره، فإذا أخذ في الزيادة بعد تناهي قصره فقد تحقق الزوال، ولو شاء الله لجعله ساكنًا دائمًا على حالة واحدة، فلا يتحرك بالزيادة والنقصان، فالظل أحد الأدلة الدالة على الخالق سبحانه.

***

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾.

(٢)لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرفعة في الدنيا، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة، كان رسول الله ﷺ، في الذروة العليا منه، واستولى على أنواعه كلها، فجاهد في الله حق جهاده، بالقلب والجنان والدعوة والبيان والسيف والسنان، وكانت ساعاته موقوفة على الجهاد بقلبه ولسانه ويده، ولهذا كان أرفع العالمين ذكرًا، وأعظمهم عند الله قدرًا، وأمره الله تعالى

---

(١) ٣٤٥ طريق الهجرتين.

(٢) ١٠٢ زاد جـ٢.

بالجهاد من حين بعثه، فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ۝ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢] فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحُجة، والبيان، وتبليغِ القرآن، وكذلكَ جهادُ المنافِقينَ، إنما هو بتبليغ الحُجَّة، وإلا فهم تحت قهر أهلِ الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهادُ المنافقين أصعبُ مِن جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة، وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ في العالَم، والمشارِكُون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هُم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً.

ولما كان مِن أفضل الجهاد قولُ الحقِّ مع شدة المُعارِضِ، مثلَ أن تتكلم به عند مَن تُخاف سَطوتهُ وأذاه، كان للِرسلِ صلواتُ الله عليهم وسلامُهُ مِن ذلك الحظُّ الأوفَرُ، وكان لنبينا صلواتُ الله وسلامُه عليه من ذلك أكملُ الجهاد وأتمُّه.

ولما كان جهاد أعداءِ الله في الخارج فرعاً علىٰ جهادِ العبد نفسه في ذاتِ الله، كما قال النبي ﷺ: «**المجاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ في طَاعَةِ الله**»[1]، «**والمُهاجِرُ مَنْ هَجَرَ ما نَهَىٰ الله عنه**»[2]. كان جهادُ النفس مُقَدَّماً علىٰ جِهَادِ العدوِّ في الخارج، وأصلاً له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أوَّلاً لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا في الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه في الخارج، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذي بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه في الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلىٰ عدوِّه، حتىٰ يُجاهِدَ نفسَه علىٰ الخروج.

فهذان عدوَّانِ قد امْتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا

---

(١) أخرجه ابن حبان (١١/ ٥ رقم ٤٧٠٦) وفي الموارد (رقم ٢٥١٩) والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٠٩ رقم ٧٩٧) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٤٠ رقم ١٨٤) والديلمي في مسند الفردوس (٤/ ٢٠٦ رقم ٦٦٢٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب (رقم ١٢١٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٩) وعمدة القاري (١/ ١٣٠).

بجهاده، وهو واقف بينهما يُثَبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما في جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظوظ، وفوتِ اللذاتِ، والمشتهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهِدَ ذَيْنِكَ العدوينِ إلا بجهاده، فكان جهادُه هو الأصلَ لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدواً تنبيه علىٰ استفراغ الوُسع في مُحاربته ومجاهدته، كأَنَّهُ عدو لا يَفْتُر، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد علىٰ عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمِرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلي العبد بمحاربتها في هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه امتحاناً من الله له وابتلاءً، فأعطىٰ اللَّهُ العبدَ مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسلاحاً لهذا الجِهَادِ، وأعطىٰ أعداءه مدداً وعُدَّةً وأعواناً وسِلاحاً، وبَلَىٰ أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضَهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم، ويمتحِنَ من يَتولاَّه، ويتولَّىٰ رسُلَهُ ممن يتولَّىٰ الشيطانَ وحِزبه، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد: ٣١]. فأعطىٰ عباده الأسماعَ والأبصارَ، والعُقول والقُوَىٰ، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأرسلَ إليهم رسُلَه، وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الأنفال: ١٢]، وأمرهم من أمره بما هو مِن أعظم العونِ لهم علىٰ حرب عدوهم، وأخبرهم أَنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا منصورين علىٰ عدوه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتركهم بعضَ ما أُمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يُؤْيسهُم، ولم يُقنِّطْهُمْ، بل أمرهم أن يسْتَقْبِلُوا أمرهم، ويُداووا جِرَاحَهُم، ويَعُودوا إلىٰ مُناهضةِ عدوهم فينصَرهم عليهم، ويُظفرَهم به، فأخبرهم أنه ﴿ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] و﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨]، و﴿ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، و﴿ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأنفال: ١٩]، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوِّهم، ولولا دفاعُه عنهم، لتخطّفهم عدوُّهم، واجتاحهم. وهذه المدافعةُ عنهم بحسب إيمانِهم، وعلى قَدْرِهِ، فإن قَوِيَ الإيمانُ، قويتِ المُدافعة، فمَن وجد خيراً، فليحمَدِ الله، ومَن وجد غيرَ ذلِكَ، فلا يلومنَّ إلا نفسه[1].

[2]ما رواه الترمذي من حديث أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع**»[3] قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب رواه بعضهم فلم يرفعه.

وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله، لأن به قوام الإسلام، كما أن قوامه بالجهاد، فقوام الدين بالعلم والجهاد، ولهذا كان الجهاد نوعين: جهاد باليد والسنان، وهذا المشارك فيه كثير، والثاني: الجهاد بالحجة والبيان، وهذا جهاد الخاصة من أتباع الرسل، وهو جهاد الأئمة، وهو أفضل الجهادين؛ لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة أعدائه.

قال تعالى في سورة الفرقان، وهي مكية: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥١-٥٢] فهذا جهاد لهم بالقرآن، وهو أكبر الجهادين، وهو جهاد المنافقين أيضًا، فإن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين، بل كانوا معهم في الظاهر، وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣] ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن.

---

(١) ذكر هنا بحثًا ممتعًا فمن أراده فليرجع إليه. (ج).

(٢) ٧٠ مفتاح جـ١.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦٤٧) والضياء المقدسي في المختارة (٦/ ١٢٤ رقم ٢١١٩) والطبراني في الصغير (رقم ٣٨٠) وحسنه الترمذي ومحقق المختارة. وحسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب (رقم ٨٨).

والمقصود أن سبيل الله هي الجهاد وطلب العلم ودعوة الخلق به إلى الله. ولهذا قال معاذ ﷺ: عليكم بطلب العلم فإن تعلمه لله خشية، ومدارسته عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد[(١)].

ولهذا قرن سبحانه بين الكتاب المنزل والحديد الناصر. كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

فذكر الكتاب والحديد، إذ بهما قوام الدين، كما قيل:

فما هو إلا الوحي أو حَدٌّ مرهف   تميل ظباه أخدعَي كل مائل
فهذا شفاء الداء من كل عاقل   وهذا دواء الداء من كل جاهل[(٢)]

ولما كان كل من الجهاد بالسيف والحجة يسمى سبيل الله فسر الصحابة قول الله تعالى: ﴿ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] بالأمراء والعلماء، فإنهم المجاهدون في سبيل الله، هؤلاء بأيديهم، وهؤلاء بألسنتهم، فطلب العلم من أعظم سبيل الله ﷻ.

***

(١) ذكره المنذري في الترغيب (١/ ٥٢ رقم ١٠٧) مرفوعًا إلى رسول الله ﷺ عن معاذ في حديث طويل وقال في آخره: رواه ابن عبد البر النمري في كتاب العلم من رواية موسى بن محمد بن عطاء القرشي، حدثنا عبد الرحيم بن زيد العمي عن أبيه عن الحسن عنه. وقال: وهو حديث حسن، ولكن ليس له إسناد قوي، وقد رويناه من طرق شتى موقوفًا. كذا قال رحمه الله، ورفعه غريب جدًّا. وقال السيوطي في تدريب الراوي (١/ ١٦٢): فأراد بالحسن حسن اللفظ، لأنه من رواية موسى البلقاوي وهو كذاب نسب إلى الوضع عن عبد الرحيم العمي وهو متروك. وانظر: فتح المغيث للسخاوي (١/ ٩١).

(٢) هذان البيتان من بحر الطويل، وينسبان إلى أبي تمام: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أحد أمراء البيان، كان فصيحًا حلو الكلام، في شعره قوة وجزالة، كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة من أراجيز العرب غير القصائد والمقاطيع.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾﴾.

[١]قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥] هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، وأن المؤمن دائمًا مع الله على نفسه وهواه وشيطانه وعدو ربه؛ وهذا معنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، فهو مع الله على عدوه الداخل فيه والخارج عنه، يحاربهم ويعاديهم ويغضبهم له سبحانه، كما يكون خواص الملك معه على حرب أعدائه، والبعيدون منه فارغون من ذلك غير مهتمين به، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه، وعبارات السلف على هذا تدور.

ذكر ابن أبي حاتم، عن عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، قال: عونًا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك[٢].

وقال ليث، عن مجاهد، قال: يظاهر الشيطان على معصية الله، يعينه عليها[٣].

وقال زيد بن أسلم: ظهيرًا، أي: مواليًا، والمعنى أنه يوالي عدوه على معصيته والشرك به، فيكون مع عدوه معينًا له على مساخط ربه.

فالمعية الخاصة التي للمؤمن مع ربه وإلهه، قد صارت لهذا الكافر والفاجر مع الشيطان ومع نفسه وهواه وقرنائه، ولهذا صدر الآية بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥] وهذه العبادة هي الموالاة والمحبة والرضا بمعبوديهم، المتضمنة لمعيتهم الخاصة، فظاهروا أعداء الله على معاداته ومخالفته ومساخطه، بخلاف وليه سبحانه، فإنه معه على نفسه وشيطانه وهواه، وهذا المعنى من كنوز القرآن، لمن فهمه وعقله، وبالله التوفيق.

---

(١) ٧٨ فوائد.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧١١ رقم ١٥٢٨١) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٣) وتفسير السيوطي (٦/ ٢٦٧).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٢٦) وابن أبي حاتم (٨/ ٢٧١١ رقم ١٥٢٨٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٣).

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾.

[١]ذكر تعالىٰ خلق الليل والنهار وأنهما خلفة، أي يخلف أحدهما الآخر لا يجتمع معه، ولو اجتمع معه لفاتت المصلحة بتعاقبهما واختلافهما.

وهذا هو المراد باختلاف الليل والنهار كون كل واحد منهما يخلف الآخر، لا يجامعه، ولا يحاذيه، بل يغشىٰ أحدهما صاحبه، فيطلبه حثيثًا حتىٰ يزيله عن سلطانه، ثم يجيء الآخر عقيبه فيطلبه حثيثًا حتىٰ يهزمه ويزيله عن سلطانه، فهما دائمًا يتطالبان، ولا يدرك أحدهما صاحبه.

[٢]قال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ قال ابن عباس والحسن وقتادة: عوضًا وخلفًا، يقوم أحدهما مقام صاحبه، فمن فاته عمل في أحدهما قضاه في الآخر[٣]، وقال قتادة: فأروا الله من أعمالكم خيرًا في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تحملان الناس إلىٰ آجالهم، ويقربان كل بعيد، ويبليان كل جديد، ويجيئان بكل موعود إلىٰ يوم القيامة[٤]. وقال شقيق: جاء رجل إلىٰ عمر بن الخطاب ﷺ فقال: فاتتني الصلاة الليلة، فقال: «أدرك ما فاتك من ليلتك في نهارك، فإن الله ﷻ جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا»[٥].

***

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾.

---

(١) ٢٠٨ مفتاح جـ١.
(٢) ١٩٤ زاد جـ١.
(٣) ذكره العيني في عمدة القاري (١٩/ ٩٣).
(٤) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٧١) إلىٰ عبد بن حميد.
(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٣٠).

[(١)]أما الخطوات فحفظها بأن لا ينقل قدمه إلا فيما يرجو ثوابه عند الله تعالى، فإن لم يكن في خطاه مزيد ثواب فالقعود عنه خير له، ويمكنه أن يستخرج من كل مباح يخطو إليه قربة يتقرب بها وينويها لله، فتقع خطاه قربة، وتنقلب عادته عبادة ومباحاته طاعات.

ولما كانت العثرة عثرتين: عثرة الرجل، وعثرة اللسان، جاءت إحداهما قرينة الأخرى في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]. فوصفهم بالاستقامة في لفظاتهم وخطواتهم، كما جمع بين اللحظات والخطرات في قوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

[(٢)]قال الله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي سكينة ووقارًا متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين، ولا متكبرين، قال الحسن: علماء حلماء[(٣)]، وقال محمد ابن الحنفية: أصحاب وقار وعفة لا يسفهون. وإن سُفه عليهم حلموا.

و«الهَون» بالفتح في اللغة: الرفق واللين، و«الهُون» بالضم: الهوان. فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان، والمضموم: صفة أهل الكفران. وجزاؤهم من الله النيران.

[(٤)]هديه ﷺ في مشيه وحده، ومع أصحابه: كان إذا مشى تكفَّا تكفؤًا[(٥)]، وكان أسرع

---

(١) ٢١٧ الجواب.
(٢) ٣٢٧ مدارج جـ٢.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٣٤).
(٤) ٨٧ زاد جـ١.
(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٦٦٢ رقم ٤١٩٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. والترمذي (رقم ٣٦٣٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأخرجه أيضًا أحمد (١/ ٩٦) والطيالسي (رقم ١٧١) وانظر: شرح النووي (١٥/ ٨٦).

الناس مشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنما الأرض تطوىٰ له، وإنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث»[١] وقال علي بن أبي طالب ﷺ: «كان رسول الله ﷺ إذا مشىٰ تكفأ تكفؤًا، كأنما ينحط من صبب»[٢]، وقال مرة: «وإذا مشىٰ تقلَّع»[٣].

قلت: والتقلع: الارتفاع من الأرض بجملته، كحال المنحط من الصبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أعدل المشيات وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهرج والمهانة والتماوت، فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه، ويمشي قطعة واحدة، كأنه خشبة محمولة، وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضًا، وهي دالة علىٰ خفة عقل صاحبها، ولاسيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينًا وشمالًا، وإما أن يمشي هوْنًا وهي مشية عباد الرحمن، كما وصفهم بها في كتابه، فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار، من غير تكبر ولا تماوت، وهي مشية رسول الله ﷺ، فإنه مع هذه المشية كان كأنما ينحط من صبب، وكأنما الأرض تطوىٰ

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٤/ ٢١٥ رقم ٦٣٠٩) وفي الموارد (رقم ٢١١٨) وأحمد (٢/ ٣٨٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ٨٣٨) والترمذي في الشمائل (رقم ١٢٤) وابن سعد في الطبقات (١/ ٣٧٩) وضعفه الألباني في مختصر الشمائل (رقم ١٠٠).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٣٦٧-٣٦٨ رقم ٧٥٠) والحاكم (٢/ ٦٦٢ رقم ٤١٩٤) والترمذي (رقم ٣٦٣٧) وأبو يعلىٰ (١/ ٣٠٤ رقم ٣٧٠) وأحمد (١/ ١١٧) والبزار (٢/ ١١٨-١١٩ رقم ٤٧٤) والطيالسي (رقم ١٧١) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٤٩ رقم ١٤١٤) وقال الترمذي: حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح الترمذي وفي مختصر الشمائل (رقم ٤).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٦٣٨) وفي الشمائل (رقم ٧، ١٢٥) وابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٣٣١) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٢٨ رقم ٣١٨٠٥) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٤٩ رقم ١٤١٥) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٢٤٥) وصححه الألباني في إصلاح المساجد (ص ١٧٩).

له، حتى كان الماشي معه يجهد نفسه ورسول الله ﷺ غير مكترث.

وهذا يدل على أمرين: أن مشيته لم تكن مشية بتماوت، ولا بمهانة، بل مشية أعدل المشيات. والمشيات عشرة أنواع، هذه الثلاثة منها.

والرابع: السعي.

والخامس: الرمل، وهو أسرع المشي مع تقارب الخطى، ويسمى الخبب[١]. وفي الصحيح من حديث ابن عمر «أن النبي ﷺ خبَّ في طوافه ثلاثًا، ومشى أربعًا»[٢].

والسادس: النسلان، وهو العدو الخفيف الذي لا يزعج الماشي ويُكربه[٣]، وفي بعض المسانيد: «أن المشاة شكوا إلى رسول الله ﷺ من المشي في حجة الوداع، فقال: «استعينوا بالنسلان»»[٤].

والسابع: الخوزلي، وهي مشية التمايل، وهي مشية يقال: إن فيها تكسرًا وتخنثًا[٥].

والثامن: القهقري، وهي المشية إلى وراء[٦].

---

(١) انظر: لسان العرب (١/ ٣٤١-٣٤٣) وغريب الحديث لابن سلام (٣/ ١٧٨) والنهاية في غريب الحديث (٤/ ٣٥٧) ومشارق الأنوار (١/ ٢٢٨) ومقدمة فتح الباري (ص ١١٠).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٦٤٤) ومسلم (رقم ١٢٢٧، ١٢٦١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٠٣) وشرح النووي (٩/ ٦-٧).

(٣) انظر: لسان العرب (٦/ ٣٦١) (١١/ ٦٦١) وغريب الحديث لابن قتيبة (١/ ٥١٧) وغريب الحديث للخطابي (٢/ ٣٧٠-٣٧١) ومشارق الأنوار (٢/ ٢١٧) وعمدة القاري (١٩/ ١٣٥، ٢٠٥) وفتح الباري (٨/ ٥٤٣، ٦١٦).

(٤) أخرجه ابن خزيمة (٤/ ١٤٠ رقم ٢٥٣٧) والبيهقي في سننه الكبرى (٥/ ٢٥٦ رقم ١٠١٢٦) والحاكم (١/ ٦١٠ رقم ١٦١٩) وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وكذا في (٢/ ١١١) وقال مثل ما قال في الموضع الأول. الطبراني في الأوسط (٨/ ١٠٣ رقم ٨١٠٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٤٦٥).

(٥) انظر: لسان العرب (٤/ ٢٣٧) (١١/ ٢٠٣).

(٦) انظر: لسان العرب (٥/ ١٢١) وغريب الحديث لابن الجوزي (٢/ ٢٧٣) وغريب الحديث للحربي (٢/ ٤٤٦) وغريب الحديث لابن قتيبة (٢/ ٣٤٣-٣٤٥) والنهاية لابن الأثير (٤/ ١٢٩).

والتاسع: الجمزي، وهي مشية يثب فيها الماشي وثبًا[١].

والعاشر: مشية التبختر، وهي مشية أولي العجب والتكبر، وهي التي خسف الله سبحانه بصاحبها لما نظر في عطفيه، وأعجبته نفسه، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة، وأعدل هذه المشيات: مشية الهون والتكفؤ.

وأما مشيه ﷺ مع أصحابه: فكانوا يمشون بين يديه وهو خلفهم، ويقول: «دعوا ظهري للملائكة»[٢] ولهذا جاء في الحديث: «وكان يسوق أصحابه»[٣]. وكان يمشي حافيًا ومنتعلًا، وكان يماشي أصحابه فُرادىٰ وجماعة، ومشىٰ في بعض غزواته مرة، فانقطعت إصبعه وسال منها الدم، فقال:

هـل أنـت إلا أصـبع دميـت   وفي سـبيل الله مـا لقيـت[٤]

وكان في السفر ساقة أصحابه: يزجي الضعيف ويردفه، ويدعو لهم، ذكره أبو داود[٥].

[٦]والسر في نصب سلام ضيف إبراهيم الملائكة، ورفع سلامه: فالجواب أنك قد عرفت قول النحاة فيه: أن سلام الملائكة تضمن جملة فعلية، لأن نصب السلام يدل

---

(١) انظر: لسان لاعرب (٥/ ٣٢٣) ومختار الصحاح (ص٤٦) والنهاية لابن الأثير (١/ ٢٩٤) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٨) والدارمي (رقم ٤٥) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١١٧) وقال الكناني في مصباح الزجاجة (١/ ٣٦): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ١٥٤-١٥٥ رقم ١٤٣٠) والترمذي في الشمائل (رقم ٨) والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٥٥-١٥٦ رقم ٤١٤) وقال الحافظ ابن حجر في الامتاع بالأربعين المتباينة السماع (ص ٥٥): ضعيف جدًّا. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٤٤٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٠٢) ومسلم (رقم ١٧٩٦) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٤١) وشرح النووي (١٢/ ١١٩، ١٥٥).

(٥) أخرجه أبو داود (رقم ٢٦٣٩) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٢٥٧ رقم ١٠١٣٢) والحاكم (٢/ ١٢٦ رقم ٢٥٤١) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه. وحسنه النووي في رياض الصالحين (ص٢٤٤).

(٦) ١٥٨ بدائع جـ٢.

على سلمنا عليك سلامًا. وسلام إبراهيم تضمن جملة اسمية لأن رفعه يدل على أن المعنى: سلام عليكم، والجملة الاسمية تدل على الثبوت والتقرر. والفعلية تدل على الحدوث والتجدد، فكان سلامه عليهم أكمل من سلامهم عليه، وكان له من مقامات الرد ما يليق بمنصبه ﷺ، وهو مقام الفضل، إذ حياهم بأحسن من تحيتهم، هذا تقرير ما قالوه.

وعندي فيه جواب أحسن من هذا: وهو أنه لم يقصد حكاية سلام الملائكة، فنصب قوله سلامًا مفعول القول المفرد، كأنه قيل: قالوا قولًا سلامًا، وقالوا: سدادًا وصوابًا، ونحو ذلك، فإن القول إنما تحكي به الجمل، وأما المفرد فلا يكون محكيًّا به، بل منصوب به انتصاب المفعول به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] ليس المراد أنهم قالوا هذا اللفظ المفرد المنصوب، وإنما معناه قالوا قولًا سلامًا، مثل سدادًا وصوابًا، وسمي القول سلاما لأنه يؤدي معنى السلام ويتضمنه من رفع الوحشة وحصول الاستئناس، وحكي عن إبراهيم لفظ سلامه، فأتى به على لفظه مرفوعا بالابتداء محكيا بالقول، ولولا قصد الحكاية لقال سلاما بالنصب، لأن ما بعد القول إذا كان مرفوعًا فعلى الحكاية ليس إلا، فحصل من الفرق بين الكلامين في حكاية سلام إبراهيم ورفعه، ونصب ذلك إشارة إلى معنى لطيف جدا، وهو أن قوله سلام عليكم من دين الإسلام المتلقى عن إمام الحنفاء وأبي الأنبياء، وأنه من ملة إبراهيم، التي أمر الله بها وباتباعها، فحكى لنا قوله ليحصل الاقتداء به والاتباع له، ولم يحك قول أضيافه، وإنما أخبر به على الجملة دون التفصيل، والله أعلم، فزن هذا الجواب والذي قبله بميزان غير جائر، يظهر لك أقواهما، وبالله التوفيق.

وأما نصب السلام من قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَـٰمًا ﴾ ورفعه في قوله حكاية عن مؤمني أهل الكتاب ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] فالجواب عنه: أن الله سبحانه مدح عباده الذين ذكرهم في هذه الآيات بأحسن

أوصافهم وأعمالهم، فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] فسلامًا هنا صفة لمصدر محذوف، هو القول نفسه، أي قالوا قولًا سلاماً، أي سدادًا وصوابًا وسليمًا من الفحش والخنا، ليس مثل قول الجاهلين الذين يخاطبونهم بالجهل، فلو رفع السلام هنا لم يكن فيه المدح المذكور، بل كان يتضمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون سلموا عليهم، وليس هذا معنى الآية، ولا مدح فيه، وإنما المدح في الإخبار عنهم بأنهم لا يقابلون الجهل بجهل مثله، بل يقابلونه بالقول السلام، فهو من باب دفع السيئة بالتي هي أحسن التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم، وتفسير السلف وألفاظهم صريحة بهذا المعنى.

وتأمل كيف جمعت الآية وصفهم في حركتي الأرجل والألسن بأحسنها وألطفها، وأحكمها وأوقرها، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي بسكينة ووقار، والهون بفتح الهاء من الشيء الهين، وهو مصدر هان هونًا أي سهل، ومنه قولهم: يمشي على هينته. ولا أحسبها إلا مولدة، ومع هذا فهي قياس اللفظة فإنها على بناء الحالة والهيئة، فهي فعلة من الهون، وأصلها هونة، فقلبت واوها ياء لانكسار ما قبلها، فاللفظة صحيحة المادة والتصريف.

وأما الهون بالضم فهو الهون، فأعطوا حركة الضم القوية للمعنى الشديد وهو الهوان، وأعطوا حركة الفتح السهلة للمعنى السهل وهو الهون، فوصف مشيهم بأنهم مشي حلم ووقار وسكينة، لا مشي جهل وعنف وتبختر، ووصف نطقهم بأنه سلام فهو نطق حلم وسكينة ووقار، لا نطق جهل وفحش وخناء وغلظة، فلهذا جمع بين المشي والنطق في الآية، فلا يليق بهذا المعنى الشريف العظيم الخطير أن يكون المراد منه سلام عليكم، فتأمله.

وأما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] فإنها وصف لطائفة من مؤمني أهل الكتاب قدموا على رسول الله ﷺ مكة فآمنوا به فعيرهم المشركون وقالوا: قبحتم من

وفد، بعثكم قومكم لتعلموا خبر الرجل، ففارقتم دينكم وتبعتموه ورغبتم عن دين قومكم، فأخبر عنهم بأنهم خاطبوهم خطاب متاركة وإعراض وهجر جميل، فقالوا: ﴿ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ وكان رفع السلام متعينا، لأنه حكاية ما قد وقع ونصب السلام في آية الفرقان متعينًا، لأنه تعليم وإرشاد، لما هو الأكمل والأولى للمؤمن أن يعتمده إذا خاطبه الجاهل، فتأمل هذه الأسرار التي أدناها يساوي رحلة، والله تعالى المحمود وحده على ما من به وأنعم.

وهي المواهب من رب العباد فما   يقال لولا ولا هلا ولا فلما

***

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

[1]قال في الصحاح: والغرام الولوع، وقد أغرم بالشيء أي أولع به، والغريم الذي عليه الدين، يقال: خذ من غريم السوء ما سنح، ويكون الغريم أيضًا الذي له الدين[2]، قال كثير عزة:

قضى كل ذي دين فوفى غريمه   وعزة ممطول مُعنًّى غريمها[3]

ومن المادة قوله تعالى في جهنم: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥] والغرام الشر الدائم اللازم والعذاب، قال بشر:

ويوم النسار ويوم الجفا   رِ كانا عذابًا وكانا غراما[4]

---

(١) ٥٧ روضة.

(٢) انظر: القاموس المحيط (ص ١٤٧٥) ولسان العرب (١٢/ ٤٣٧).

(٣) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٤٣٦) وابن الجوزي في المنتظم (٧/ ١٠٦) وابن العماد في شذرات الذهب (١/ ١٣٢) والرازي في مختار الصحاح (ص ١٩٨) والبعلي في المطلع على أبواب المقنع (ص ١٠١) والشنقيطي في أضواء البيان (٩/ ٨٨).

(٤) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٤٣٧) والحموي في معجم البلدان (٢/ ١٤٤) (٥/ ٢٨٣) والسيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٧٤) والحربي في غريب الحديث (٣/ ١٠٧٥).

وقال الأعشى:

إن يعاقبْ يكن غرامًا يُعـ ـطِ جزيلًا فإنه لا يبالي[١]

وقال أبو عبيدة: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ كان هلاكًا ولزامًا لهم. وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ الغرام، وإن لهج به المتأخرون.

***

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾.

[٢]ومنه سمي عذاب النار غرامًا للزومه لأهله، وعدم مفارقته لهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.

[٣]وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] وقوله: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير الناس النمط الأوسط، الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلو المعتدين، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطًا، وهي الخيار العدل، لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل هو الوسط بين طرفي الجور والتفريط، والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية بأطرافها، فخيار الأمور أوساطها، قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفًا[٤]

[٥]وأما الفرق بين الاقتصاد والشح أن الاقتصاد خلق محمود يتولد من خلقين عدل وحكمة، فبالعدل يعتدل في المنع والبذل، وبالحكمة يضع كل واحد منهما

(١) ذكره ابن منظور في اللسان (١٢/ ٤٣٧) والحربي في غريب الحديث (٣/ ١٠٧٥) والطبري في تفسيره (٢٧/ ١٩٩).

(٢) ٢٨ مدارج جـ٣.

(٣) ١٨٢ إغاثة جـ١.

(٤) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ١٨٨).

(٥) ٢٨٩ الروح.

موضعه الذي يليق به، فيتولد من بينهما الاقتصاد، وهو وسط بين طرفين مذمومين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧] وقال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وأما الشح فهو خلق ذميم يتولد من سوء الظن وضعف النفس، ويمده وعد الشيطان حتى يصير هلعًا، والهلع شدة الحرص على الشيء والشره به، فيتولد عنه المنع لبذله، والجزع لفقده، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩-٢١].

***

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

(١)الفرق بين الاقتصاد والتقصير أن الاقتصاد هو التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وله طرفان هما ضدان له: تقصير ومجاوزة، فالمقتصد قد أخذ بالوسط وعدل عن الطرفين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾.

والدين كله بين هذين الطرفين، بل الإسلام قصد بين الملل، والسنة قصد بين البدع، ودين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وكذلك الاجتهاد هو بذل الجهد في موافقة الأمر، والغلو مجاوزته وتعديه.

---

(١) ٣١٣ الروح.

وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: فإما إلى غلو ومجاوزة، وإما إلى تفريط وتقصير، وهما آفتان لا يخلص منهما في الاعتقاد والقصد والعمل إلا من مشى خلف رسول الله ﷺ وترك أقوال الناس وآراءهم لما جاء به، لا من ترك ما جاء به لأقوالهم وآرائهم.

وهذان المرضان الخطران قد استوليا على أكثر بني آدم، ولهذا حذر ا لسلف منهما أشد التحذير، وخوفوا من بُلي بأحدهما بالهلاك، وقد يجتمعان في الشخص الواحد، كما هو حال أكثر الخلق، يكون مقصرًا مفرطًا في بعض دينه غاليًا متجاوزًا في بعضه، والمهدي من هداه الله.

[(١)]أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها ثلاثة: تعليق القلب بغير الله، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية؛ وهي: الشرك، والظلم، والفواحش.

فغاية التعلق بغير الله الشرك، وأن يدعى معه إله آخر.

وغاية طاعة القوة الغضبية القتل، وغاية طاعة القوة الشهوانية الزنا.

ولهذا جمع الله سبحانه بين الثلاثة في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٨].

وهذه الثلاثة يدعو بعضها إلى بعض، فالشرك يدعو إلى الظلم والفواحش، كما أن الإخلاص والتوحيد يصرفهما عن صاحبه، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] فالسوء: العشق، والفحشاء: الزنا.

وكذلك الظلم يدعو إلى الشرك والفاحشة، فإن الشرك أظلم الظلم، كما أن أعدل العدل التوحيد، فالعدل قرين التوحيد، والظلم قرين الشرك، ولهذا يجمع سبحانه بينهما.

---

(١) ٨٠ فوائد.

أما الأول ففي قوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨] وأما الثاني فكقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] والفاحشة تدعو إلىٰ الشرك، والظلم ـ ولاسيما ـ إذا قويت إرادتها، ولم تحصل إلا بنوع من الظلم، والاستعانة بالسحر والشيطان، وقد جمع سبحانه بين الزنا والشرك في قوله: ﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣] فهذه الثلاثة يجر بعضها إلىٰ بعض، ويأمر بعضها ببعض، ولهذا كلما كان القلب أضعف توحيدًا، وأعظم شركًا، كان أكثر فاحشة، وأعظم تعلقًا بالصور وعشقًا لها[١].

[٢]وروي في الصحيح عنه ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الإشراك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[٣]، وفي الصحيح عنه ﷺ أنه سئل: أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك» قيل: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك» قيل: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك» فأنزل الله تعالىٰ تصديقها: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾[٤] الآية [الفرقان: ٦٨] واختلف الناس في الكبائر، هل لها عدد يحصرها؟ علىٰ قولين. ثم الذين قالوا يحصرها اختلفوا في عددها، فقال عبد الله بن مسعود: هي أربعة، وقال عبد الله بن

---

(١) تكملة البحث في سورة الشورىٰ. (ج).

(٢) ١٦٨ الجواب.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٦٦) ومسلم (رقم ٨٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٦٢) (١٢/ ١٨٢) وشرح النووي (٢/ ٨٣).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٦١) ومسلم (رقم ٨٦) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٩١) وشرح النووي (٢/ ٨٠).

عمر: هي سبعة، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: هي تسعة، وقال غيره: هي إحدىٰ عشرة، وقال آخر: هي سبعون.

وقال أبو طالب المكي: جمعتها من أقوال الصحابة فوجدتها أربعة في القلب: وهي الشرك بالله، والإصرار علىٰ المعصية، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وأربعة في اللسان: وهي شهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر. وثلاثة في البطن: شرب الخمر، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، واثنتان في الفرج: وهما الزنا، واللواطة، واثنتان في اليدين وهما: القتل، والسرقة، وواحدة في الرجلين: وهي الفرار من الزحف. وواحدة تتعلق بجميع الجسد: وهي عقوق الوالدين، والذين لم يحصروها بعدد منهم من قال: كل ما نهىٰ الله عنه في القرآن فهو كبيرة، وما نهىٰ عنه الرسول ﷺ فهو صغيرة، وقالت طائفة: ما اقترن بالنهي عنه وعيد من لعن أو غضب أو عقوبة فهو كبيرة، وما لم يقرن به من ذلك شيء فهو صغيرة.

وقيل: كل ما رتب عليه حد في الدنيا أو وعيد في الآخرة فهو كبيرة، وما لم يرتب عليه لا هذا ولا هذا فهو صغيرة.

وقيل: كل ما اتفقت الشرائع علىٰ تحريمه فهو من الكبائر، وما كان تحريمه في شريعة دون شريعة فهو صغيرة.

وقيل: كل ما لعن الله أو رسوله فاعله فهو كبيرة.

وقيل: كل ما ذكر من أول سورة النساء إلىٰ قوله: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

والذين لم يقسموها إلىٰ كبائر وصغائر قالوا: الذنوب كلها بالنسبة إلىٰ الجراءة علىٰ الله سبحانه معصية ومخالفة أمره كبائر، فانظر إلىٰ من عصي أمره وانتهكت محارمه، فوجب أن تكون الذنوب كلها كبائر، وهي مستوية في هذه المفسدة.

قالوا: ويوضح هذا أن الله سبحانه لا تضره الذنوب ولا يتأثر بها، فلا يكون بعضها بالنسبة إليه أكبر من بعض، فلم يبق إلا مجرد معصيته ومخالفته، ولا فرق في ذلك بين

ذنب وذنب.

قالوا: ويدل عليه أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب على حق الرب تبارك وتعالى، ولهذا لو شرب رجل خمرًا أو وطئ فرجًا حرامًا وهو لا يعتقد تحريمه لكان قد جمع بين الجهل وبين مفسدة ارتكاب الحرام، ولو فعل ذلك من يعتقد تحريمه لكان أتى بإحدى المفسدتين، وهو الذي يستحق العقوبة دون الأول، فدل على أن مفسدة الذنب تابعة للجراءة والتوثب.

قالوا: ويدل على هذا أن المعصية تتضمن الاستهانة بأمره المطاع ونهيه وانتهاك حرمته، وهذا لا فرق فيه بين ذنب وذنب...

[١]وفي جامع الترمذي عن نافع قال: نظر عبد الله بن عمر يومًا إلى الكعبة فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمؤمن عند الله أعظم حرمة منك[٢]. قال الترمذي: هذا حديث حسن. وفي صحيح البخاري أيضًا عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا»[٣].

وذكر البخاري أيضا عن عمر قال: «من ورطا ت الأمور التي لا مخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حله»[٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة يرفعه: «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر»[٥].

---

(١) ٢٠١ الجواب.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٠٣٢) والبيهقي في ا لشعب (٣/ ٤٤٤ رقم ٤٠١٤) وابن حبان كما في موارد الظمآن (رقم ١٤٩٤) وابن ماجه (رقم ٣٩٣٢) والطبراني في الكبير (١١/ ٣٧ رقم ١٠٩٦٦) وفي مسند الشاميين (٢/ ٣٩٦ رقم ١٥٦٨) وحسنه الترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي. وحسنه أيضًا في غاية المرام (رقم ٤٣٥).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٦٢) وانظر: عمدة القاري (٢٤/ ٣١).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٦٣) وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٨، ٢٦٣).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٨) ومسلم (رقم ٦٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥١٢) (١٣/ ٢٧) وشرح النووي (٢/ ٥٣-٥٤) (١٦/ ١٤١).

وفيهما أيضًا عنه ﷺ: «**لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض**»(١) وفي صحيح البخاري عنه ﷺ: «**من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عامًا**»(٢). هذه عقوبة قاتل عدو الله إذا كان معاهدًا في عهده وأمانه، فكيف بعقوبة قاتل عبده المؤمن؟ وإذا كانت امرأة قد دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت جوعًا وعطشًا، فرآها النبي ﷺ في النار والهرة تخدشها في وجهها وصدرها(٣)، فكيف عقوبة من حبس مؤمنًا حتى مات بغير جرم، وفي بعض السنن عنه ﷺ: «**لزوال الدنيا أهون على الله من قتل مؤمن بغير حق**»(٤).

ولما كانت مفسدة الزنا من أ عظم المفاسد وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس من أفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها الله سبحانه بها في كتابه ورسوله ﷺ في سنته كما تقدم.

قال الإمام أحمد: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئًا أعظم من الزنا، وقد أكد سبحانه حرمته بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] فقرن الزنا بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢١) ومسلم (رقم ٦٥) وانظر: فتح الباري (١/ ١١٣) (١٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٦٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٢٣٦٥) ومسلم (رقم ٢٢٤٢) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٧٢) وعمدة القاري (٢/ ٧٣) (٣/ ٤٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٦١٩) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٢ رقم ١٥٦٤٥) وفي شعب الإيمان (٤/ ٣٤٥ رقم ٥٣٤٤) والترمذي (رقم ١٣٩٥) والبزار (٦/ ٣٧٥ رقم ٢٣٩٣) وحسنه المنذري في الترغيب (٣/ ٢٠١ رقم ٣٦٧٥) وقال الكتاني في مصباح الزجاجة (٣/ ١٢١-١٢٢): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. وانظر: فتح الباري (١٢/ ١٨٩).

ذلك الخلود في النار في العذاب المضاعف المهين، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح.

***

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾.

[1]هذا من أعظم البشارة التائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾[2] [الفتح: ١]».

واختلفوا في صفة هذا التبديل وهل هو في الدنيا أو في الآخرة؟ على قولين.

فقال ابن عباس وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانا، وبالزنا عفة وإحصانا، وبالكذب صدقا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة وأعمالهم السيئة بدلوا عوضها صفات جميلة وأعمالا صالحة، كما يبدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

وقال سعيد بن المسيب وغيره من التابعين: هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة.

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيامة فيقال:

---

(١) ٣٠١ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل (٥/ ٢٠٠) والشيباني في الديات (ص ٥٦) وانظر: الدر المنثور (٦/ ٢٧٩).

اعرضوا عليه صغار ذنوبه ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، فيقول: إن لي ذنوبا ما أراها ههنا» قال أبو ذر: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[١].

فهذا حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول نظر، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطي مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه، وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات، إذ ولو كان كذلك لما عوقب عليها، كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته، فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه، لكن للسلف غور ودقة فهم، لا يدركها كثير من المتأخرين. فالاستدلال به صحيح بعد تمهيد قاعدة إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته، وهي أن الذنب لابد له من أثر وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة، وكذلك إذا اشتد أثره ولم تقو تلك الأمور على محوه، فلا بد إذا من دخول النار، لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كير الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه، فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب. وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار، فإذا تطهر بالنار وزال أثر

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠) والترمذي (رقم ٢٥٩٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٢).

الوسخ والخبث عنه أعطي مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار وأحب إلى الله وإزالة النار بدل منها، وهي الأصل، فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول يوضحه:

الوجه التاسع: وهو أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة، إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التي حلت محله، وهي حسنة، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها، وقد تكون فوقها، وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها يوضحه:

الوجه العاشر: أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر وأعظم نفعا وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية وإنابة وندم وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه. ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب: كندامة فاعله على ارتكابه، لكن شتان ما بين الندمين، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك وحصول محبوب الله تعالى من التوبة وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا: ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] ولم يقل: مكان كل واحدة واحدة، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

وأما في الحديث: فإن الذي عُذِّب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا بحسنات من التوبة

النصوح وتوابعها، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات، فأعطي مكان كل سيئة حسنة واحدة، وسكت النبي ﷺ عن كبار ذنوبه ولما انتهى إليها ضحك ولم يبين ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة، ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين.

أحدهما: قوله: «أخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها وطمع في تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعا عنده من تبديل الصغائر، وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يقر به على نفسه من الذنوب، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين وأجود الأجودين وأكرم الأكرمين البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

...[1]وجرت هذه المسألة بحضرة شيخ الإسلام ابن تيمية، فسمعته يحكي هذه الأقوال الثلاثة حكاية مجردة، فإما سألته وإما سئل عن الصواب منها، فقال: الصواب أن من التائبين من يعود إلى مثل حاله، ومنهم من يعود إلى أكمل منها، ومنهم من يعود إلى أنقص مما كان. فإن كان بعد التوبة خيراً مما كان قبل الخطيئة وأشد حذراً وأعظم تشميراً وأعظم ذلاً وخشية وإنابة عاد إلى أرفع مما كان، وإن كان قبل الخطيئة أكمل في هذه الأمور ولم يعد بعد التوبة إليها عاد إلى أنقص مما كان عليه، وإن كان بعد التوبة مثل ما كان قبل الخطيئة رجع إلى مثل منزلته. هذا معنى كلامه.

قلت: وهاهنا مسألة هذا الموضع أخص المواضع ببيانها، وهي أن التائب إذا تاب

(١) ٢٤٥ الهجرتين.

إلىٰ الله توبة نصوحاً، فهل تمحىٰ تلك السيئات ويذهب لا له ولا عليه، أو إذا محيت أثبت له مكان كل سيئة حسنة؟ هذا مما اختلف الناس فيه من المفسرين وغيرهم قديماً وحديثاً. فقال الزجاج: ليس بجعل مكان السيئة الحسنة، لكن بجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة(١).

قال ابن عطية: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأُولىٰ طاعة، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله إياهم، قاله ابن عباس وابن جبير وابن زيد والحسن، ورد علىٰ من قال هو في يوم القيامة، قال: وقد ورد حديث في كتاب مسلم من طريق أبي ذر يقتضي أن الله سبحانه يوم القيامة يجعل لمن يريد المغفرة له من الموحدين بدل سيئاته حسنات، وذكره الترمذي والطبري، وهذا تأْويل سعيد بن المسيب في هذه الآية. قال ابن عطية: وهو معنىٰ كرم العفو، هذا آخر كلامه. قلت: سيأتي إن شاء الله ذكر الحديث بلفظه والكلام عليه. قال المهدوي: وروي معنىٰ هذا القول عن سلمان الفارسي وسعيد بن جبير وغيرهما. وقال الثعلبي: قال ابن عباس وابن جريج والضحاك وابن زيد: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠] يبدلهم الله بقبيح أعمالهم في الشرك محاسن الأعمال في الإسلام، فيبدلهم بالشرك إيماناً وبقتل المؤمنين قتل المشركين، وبالزنا عفة وإحصاناً. وقال آخرون: يعني يبدل الله سيئاتهم التي عملوها في حال إسلامهم حسنات يوم القيامة.

وأصل القولين أن هذا التبديل هل هو في الدنيا أو يوم القيامة؟ فمن قال: إنه في الدنيا قال: هو تبديل الأعمال القبيحة والإرادات الفاسدة بأضدادها، وهي حسنات، وهذا تبديل حقيقة...

...(٢)واحتجت الطائفة الأخرىٰ التي قالت: هو تبديل السيئة بالحسنة حقيقة يوم

---

(١) ذكر هذا القول عن الزجاج رحمه الله القرطبي في تفسيره (١٣/ ٧٨).

(٢) ٢٤٧ الهجرتين.

القيامة بأن قالت: حقيقة التبديل إثبات الحسنة مكان السيئة. وهذا إنما يكون في السيئة المحققة، وهي التي قد فعلت ووقعت، فإذا بدلت حسنة كان معناه أنها محيت، وأُثبت مكانها حسنة.

قالوا: ولهذا قال تعالى: ﴿ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۢ﴾، فأضاف السيئات إليهم لكونهم باشروها واكتسبوها، ونكر الحسنات ولم يضفها إليهم، لأنها من غير صنعهم وكسبهم، بل هي مجرد فضل الله وكرمه.

قالوا: وأيضاً فالتبديل في الآية إنما هو فعل الله لا فعلهم، فإنه أخبر أنه هو يبدل سيئاتهم حسنات، ولو كان المراد ما ذكرتم لأضاف التبديل إليهم، فإنهم هم الذين يبدلون سيئاتهم حسنات، والأعمال إنما تضاف إلى فاعلها وكاسبها، كما قال الله تعالى: ﴿ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] وأما ما كان من غير الفاعل فإنه يجعله من تبديله هو، كما قال الله تعالى: ﴿ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]، فلما أخبر سبحانه أنه هو الذي يبدل سيئاتهم حسنات دل على أنه شيء فعله هو سبحانه بسيئاتهم، لا أنهم فعلوه من تلقاءَ أنفسهم، وإن كان سببه منهم، وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح.

قالوا: ويدل عليه ما رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن المعرور ابن سُويد عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل الْجَنَّة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً منها: رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه، فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة، فيقول: رب قد عملت أشياءَ لا أراها هاهنا»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1].

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٢).

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتىٰ بالرجل يوم القيامة فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، قال: فتعرض عليه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا؟ وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من الكبار، فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة، قال: فيقول: إن لي ذنوباً ما أراها**»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتىٰ بدت نواجذه[1].

قالوا: وأيضاً فروىٰ أبو حفص المستملي عن محمد بن عبد العزيز بن أبي رزمة، حدثنا الفضل بن موسىٰ القطيعي عن أبي العنبس عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات**»، قيل: من هم؟ قال: «**الذين بدل سيئاتهم حسنات**»[2]. قالوا: وهؤلاء هم الأبدال في الحقيقة، فإنهم إنما سموا أبدالاً لأنهم بدلوا أعمالهم السيئة بالأعمال الحسنة، فبدل الله سيئاتهم التي عملوها حسنات.

قالوا: وأيضاً فالجزاءُ من جنس العمل، فكما بدلوا أَعمالهم السيئة بالحسنة بدلها الله من صحف الحفظة حسنات جزاءً وفاقاً...

***

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

[3]«التوبة» لها مبدأ ومنتهىٰ، فمبدؤها: الرجوع إلىٰ الله بسلوك صراطه المستقيم، الذي نصبه لعباده، موصلًا إلىٰ رضوانه، وأمرهم بسلوكه بقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٧) وهناد في الزهد (١/ ١٥٥ رقم ٢١١) وابن حبان (١٦/ ٣٧٥ رقم ٧٣٧٥) والبيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ١٩٠ رقم رقم ٢٠٥٦١) والترمذي (رقم ٢٥٩٦) والبزار (٩/ ٣٩٧ رقم ٣٩٨٧) وابن منده في الإيمان (٢/ ٨٢٢ رقم ٨٤٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٠٢) وجامع العلوم والحكم (١/ ١١٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٨١ رقم ٧٦٤٣) والديلمي في الفردوس (٣/ ٤٤٢ رقم ٥٣٥٥) وانظر: جامع العلوم والحكم (١/ ١١٨) وفيض القدير (٥/ ٣٥١).

(٣) ٢١٤ مدارج جـ١.

صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وبقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣] وبقوله: ﴿ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٤].

ونهايتها: الرجوع إليه في المعاد، وسلوك صراطه الذي نصبه موصلًا إلىٰ جنته، فمن رجع إلىٰ الله في هذه الدار بالتوبة: رجع إليه في المعاد بالثواب، وهذا هو أحد التأويلات في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان: ٧١] قال البغوي وغيره: «يتوب إلىٰ الله متابا: يعود إليه بعد الموت متابا حسنا يفضل علىٰ غيره»، فالتوبة الأولىٰ وهي قوله: «ومن تاب» رجوع عن الشرك. والثانية: رجوع إلىٰ الله للجزاء والمكافأة.

والتأويل الثاني: أن الجزاء متضمن معنىٰ الأوامر، والمعنىٰ: ومن عزم علىٰ التوبة وأرادها، فليجعل توبته إلىٰ الله وحده، ولوجهه خالصا، لا لغيره.

التأويل الثالث: أن المراد لازم هذا المعنىٰ، وهو إشعار التائب وإعلامه بمن تاب إليه ورجع إليه، والمعنىٰ: فليعلم توبته إلىٰ من؟ ورجوعه إلىٰ من؟ فإنها إلىٰ الله لا إلىٰ غيره.

ونظير هذا علىٰ أحد التأويلين قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: اعلم ما يترتب علىٰ من عصىٰ أوامره، ولم يبلغ رسالته.

والتأويل الرابع: أن التوبة تكون أولا بالقصد والعزم علىٰ فعلها، ثم إذا قوي العزم وصار جازمًا: وجد به فعل التوبة، فالتوبة الأولىٰ: بالعزم والقصد لفعلها. والثانية: بنفس إيقاع التوبة وإيجادها. والمعنىٰ: فمن تاب إلىٰ الله قصدًا ونية وعزمًا، فتوبته إلىٰ الله عملًا وفعلًا، وهذا نظير قوله ﷺ: **«فمن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»**(١).

(١) أخرجه البخاري (رقم ١) ومسلم (رقم ١٩٠٧) وانظر: فتح الباري (١/ ١٥) وشرح النووي (١٣/ ٥٣).

فالتوبة الصحيحة لها علامات:

منها: أن يكون بعد التوبة خيرا مما كان قبلها.

ومنها: أنه لا يزال الخوف مصاحبا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠] فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه، وتقطعه ندما وخوفا، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] قال: تقطعها بالتوبة ـ ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه، وهذا هو تقطعه، وهذا حقيقة التوبة، لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه، وخوفا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق، وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلا بد من تقطع القلب: إما في الدنيا، وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كله، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا: كحال عبد جان آبق من سيده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدا، ولا عنه غناء، ولا منه مهربا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقر به بها من سيده!! فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له.

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾.

[(١)] قال محمد ابن الحنفية: «الزور ههنا الغناء» وقاله ليث عن مجاهد، وقال الكلبي: لا يحضرون مجالس الباطل.

واللغو في اللغة: كل ما يُلغَى ويُطرَح، والمعنى: لا يحضرون مجالس الباطل، وإذا مروا بكل ما يلغى من قول وعمل أكرموا أنفسهم أن يقفوا عليه، أو يميلوا إليه، ويدخل في هذا: أعياد المشركين، كما فسرها به السلف، والغناء، وأنواع الباطل كلها.

قال الزجاج: «ولا يجالسون أهل المعاصي، ولا يمالئونهم عليها، ومروا مر الكرام الذين لا يرضون باللغو، لأنهم يكرمون أنفسهم عن الدخول فيه، والاختلاط بأهله».

وقد رُوي أن عبد الله بن مسعود ﷺ: مر بلهو فأعرض عنه، فقال رسول الله ﷺ: «إن أصبح ابنُ مسعودٍ لكريمًا»[(٢)].

وقد أثنى الله سبحانه على من أعرض عن اللغو إذا سمعه بقوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ [القصص: ٥٥]. وهذه الآية، وإن كان سبب نزولها خاصًا، فمعناها عامٌّ، متناول لكل من سمع لغوًا فأعرض عنه، وقال بلسانه أو بقلبه لأصحابه ﴿ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ ولم يقل: بالزور؛ لأن «يشهدون» بمعنى: يحضرون، فمدحهم على ترك حضور مجالس الزور، فكيف بالتكلم به، وفعله؟ والغناء من أعظم الزور.

والزور: يقال على الكلام الباطل، وعلى العمل الباطل، وعلى العين نفسها، كما في حديث معاوية لما أخذ قُصَّة من شعر يؤصل به، فقال: «هذا الزور»[(٣)] فالزور: القول،

---

(١) ٢٤١ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٥٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣٣/ ١٢٨)، وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٠).

(٣) أصل الحديث أخرجه البخاري (رقم ٣٤٦٨) ومسلم (رقم ٢١٢٧).

والفعل والمحل.

وأصل اللفظة من الميل، ومنه الزور، بالفتح، ومنه: زُرت فلانًا، إذا مِلْتُ إليه، وعدلتُ إليه، فالزور: ميلٌ عن الحق الثابت إلى الباطل الذي لا حقيقة له قولًا وفعلًا. اهـ.

[١] ...وأما الشعانين[٢] فهي أعياد لهم أيضًا، والفرق بينها وبين الباعوث[٣] أنه اليوم والوقت الذي ينبعثون فيه على الاجتماع والاحتشاد، وقولهم: «ولا نرفع أصواتنا مع موتانا»[٤] لما فيه من إظهار شعار الكفر، فهذا يعم رفع أصواتهم بقراءتهم وبالنوح وغيره، وكذلك إظهار النيران معهم: إما بالشمع أو السرج أو المشاعل ونحوها.

فأما إذا أوقدوا النار في منازلهم وكنائسهم ولم يظهروها لم يتعرض لهم فيها. الشعانين: عيد مسيحى يقع يوم الأحد السابق لعيد الفصح يحتفل فيه المسيحيون بذكرى دخول السيد المسيح بيت القدس وعيد الصفح عيد ذكرى قيامة السيد المسيح في اعتقاد النصارى. وقد سمى الله سبحانه أعيادهم زورًا، والزور لا يجوز إظهاره، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال عبدالرحمن بن أبي حاتم في «تفسيره»: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد الخراز. حدثنا حسين بن عقيل عن الضحاك ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ عيد المشركين[٥].

وقال سعيد بن جبير: الشعانين، وكذلك قال ابن عباس: «الزور عيد المشركين».

---

(١) ٧٢١ أحكام جـ٢.

(٢) أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧٣٧ رقم ١٥٤٥٥) عن ابن سيرين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ قال: هو الشعانين. وأخرج الخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ قال: أعياد المشركين. يعني لا يشهدون الشعانين.

(٣) قال ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث (١/ ١٣٩): الباعوث للنصارى كالاستسقاء للمسلمين، وهو اسم سرياني، وقيل: هو بالغين المعجمة والتاء فوقها نقطتان. وانظر: لسان العرب (٢/ ١١٨).

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق (٢/ ١٢١، ١٧٦ - ١٧٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٩).

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٧٣٧ رقم ١٥٤٥٤).

وكما أنهم لا يجوز لهم إظهاره فلا يجوز للمسلمين ممالأتهم عليه، ولا مساعدتهم، ولا الحضور معهم باتفاق أهل العلم الذين هم أهله. وقد صرح به الفقهاء من أتباع الأئمة الأربعة في كتبهم. فقال أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن منصور الطبري الفقيه الشافعي: ولا يجوز للمسلمين أن يحضروا أعيادهم، لأنهم على منكر وزور، وإذا خالط أهل المعروف أهل المنكر بغير الإنكار عليهم كانوا كالراضين به المؤثرين له، فنخشى من نزول سخط الله على جماعتهم، فيعم الجميع، نعوذ بالله من سخطه...

***

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾﴾.

[1]قال مقاتل: إذا وعظوا بالقرآن لم يقعوا عليه صمًّا لم يسمعوه، وعميانًا لم يبصروه، ولكنهم سمعوا وأبصروا وأيقنوا به، وقال ابن عباس: لم يكونوا عليها صمًّا وعميانًا، بل كانوا خائفين خاشعين، وقال الكلبي: يخرون عليها سمعًا وبصرًا، وقال الفراء: وإذا تلي عليهم القرآن لم يقعدوا على حالهم الأولى، كأنهم لم يسمعوه فذلك الخرور.

وسمعت العرب تقول: قعد يشتمني، كقولك: قام يشتمني، وأقبل يشتمني، والمعنى على ما ذكر: لم يصيروا عندها صمًّا وعميانًا.

وقال الزجاج: المعنى إذا تليت عليهم خروا سجدًا وبكيًّا، سامعين مبصرين، كما أمروا به، وقال ابن قتيبة: أي لم يتغافلوا عنها، كأنهم صم لم يسمعوها، وعمي لم يروها[2].

قلت: ههنا أمران، ذكر الخرور، وتسليط النفي عليه، وهل هو خرور القلب، أو خرور البدن للسجود، وله لمعنى خرورهم، عن صمم وعمه، فلهم عليها خرور بالقلب خضوعًا أو بالبدن سجودًا، أو ليس هناك خرور، وعبر به عن القعود.

***

(١) ٧٩ فوائد.

(٢) انظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٣/ ١٤٨).

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾.

[١]قال سعيد بن منصور: حدثنا حزم قال سمعت الحسن وسأله كثير بن زياد عن قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤] فقال: يا أبا سعيد ما هذه القرة الأعين أفي الدنيا أم في الآخرة؟ قال: لا بل والله في الدنيا، قال: وما هي؟ قال: والله أن يري الله العبد من زوجته، من أخيه، من حميمه طاعة الله، لا والله ما شيء أحب إلى المرء المسلم من أن يرى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مطيعًا لله ﷻ[٢].

وقد روى البخاري في صحيحه من حديث نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: **«كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير راعٍ على الناس وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وامرأة الرجل راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راعٍ، وكلكم مسئول عن رعيته»**[٣].

[٤]قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤] وإمام بمعنى قدوة، وهو يصلح للواحد والجمع، كالأمة والأسوة، وقد قيل: هو جمع آمم، كصاحب وصحاب، وراجل ورجال، وتاجر وتجار، وقيل: هو مصدر كقتال وضِراب، أي ذوي إمام، والصواب الوجه الأول، فكل من كان من المتقين وجب عليه أن يأتم بهم،و التقوى واجبة،

---

(١) ١٣٤ تحفة.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٦/ ٤٠٢ رقم ٨٦٦٨) وانظر: الدر المنثور (٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٨٩٣) ومسلم (رقم ١٨٢٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٨١) وشرح النووي (١٢/ ٢١٣).

(٤) ١٣٥ إعلام جـ٤.

والائتمام بهم واجب، ومخالفتهم فيما أفتوا به مخالف للائتمام بهم، وإن قيل: «نحن نأتم بهم في الاستدلال وأصول الدين» فقد تقدم من جواب هذا ما فيه كفاية.

[١]والفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله هو الفرق بين تعظيم أمر الله والنصح له، وتعظيم النفس والسعي في حظها، فإن الناصح لله المعظم له المحب له يحب أن يطاع ربه فلا يعصى، وأن تكون كلمته هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، وأن يكون العباد ممتثلين أوامره مجتنبين نواهيه، فقد ناصح الله في عبوديته، وناصح خلقه في الدعوة إلى الله، فهو يحب الإمامة في الدين، بل يسأل ربه أن يجعله للمتقين إمامًا يقتدي به المتقون، كما اقتدى هو بالمتقين.

فإذا أحب هذا العبد الداعي إلى الله أن يكون في أعينهم جليلًا، وفي قلوبهم مهيبًا، وإليهم حبيبًا، وأن يكون فيهم مطاعًا، لكي يأتموا به، ويقتفوا أثر الرسول على يده لم يضره ذلك، بل يحمد عليه، لأنه داع إلى الله، يحب أن يطاع ويعبد ويوحد، فهو يحب ما يكون عونًا على ذلك موصلًا إليه.

ولهذا ذكر سبحانه عباده الذين اختصهم لنفسه، وأثنى عليهم في تنزيله، وأحسن جزاءهم يوم لقائه، فذكرهم بأحسن أعمالهم وأوصافهم، ثم قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ فسألوه أن يقر أعينهم بطاعة أزواجهم وذرياتهم له سبحانه، وأن يسر قلوبهم باتباع المتقين لهم على طاعته وعبوديته، فإن الإمام والمؤتم متعاونان على الطاعة، فإنما سألوه وما يعاونون به المتقين على مرضاته وطاعته، وهو دعوتهم إلى الله بالإمامة في الدين، التي أساسها الصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وسؤالهم أن يجعلهم أئمة للمتقين هو سؤال أن يهديهم ويوفقهم ويمن عليهم

---

(١) ٣٠٧ الروح.

بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة ظاهرًا وباطنًا، التي لا تتم الإمامة إلا بها.

وتأمل كيف نسبهم في هذه الآيات إلى اسمه الرحمن جلا جلاله، ليعلم خلقه أن هذا إنما نالوه بفضل رحمته ومحض جوده ومنته.

وتأمل كيف جعل جزاءهم في هذه السورة الغرف، وهي المنازل العالية في الجنة. لما كانت الإمامة في الدين من الرتب العالية، بل من أعلى مرتبة يعطاها العبد في الدين، كان جزاؤه عليها الغرفة العالية في الجنة.

وهذا بخلاف طلب الرياسة، فإن طلابها يسعون في تحصيلها لينالوا بها أغراضهم من العلو في الأرض، وتعبد القلوب لهم وميلها إليهم، ومساعدتهم لهم على جميع أغراضهم مع كونهم عالين عليهم قاهرين لهم، فترتب على هذا المطلب من المفاسد ما لا يعلمه إلا الله من البغي والحسد والطغيان والحقد والظلم والفتنة والحمية للنفس دون حق الله، وتعظيم من حقره الله، واحتقار من أكرمه الله، ولا تتم الرياسة الدنيوية إلا بذلك، ولا تنال إلا به وبأضعافه من المفاسد. والرؤساء في عمى عن هذا، فإذا كشف الغطاء تبين لهم فساد ما كانوا عليه، ولاسيما إذا حشروا في صور الذر يطؤهم أهل الموقف بأرجلهم إهانة لهم وتحقيرًا وتصغيرًا، كما صغروا أمر الله وحقروا عباده.

***

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾.

(1) قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ [الزمر: ٣٠] فأخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل، وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفًا مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض، حتى كأنها ينظر إليها عيانًا، ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها.

---

(١) ١٠٢ حادي.

وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الفرقان: ٧٥] والغرفة جنس كالجنة، وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله، الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧] وقال تعالى: ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ ﴾ [الصف: ١٢].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الفرقان

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ ﴾.

(١)هو سبحانه يذكر في سورة الشعراء ما أوقع بالمشركين من أنواع العقوبات، ويذكر إنجاءه لأهل التوحيد، ثم يقول: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٨، ٩] فيذكر شرك هؤلاء الذين استحقوا به الهلاك، وتوحيد هؤلاء الذين استحقوا به النجاة، ثم يخبر أن في ذلك آية وبرهانًا للمؤمنين، ثم يذكر مصدر ذلك كله، وأنه عن أسمائه وصفاته، فصدور هذا الإهلاك عن عزته، وذلك الإنجاء عن رحمته، ثم يقرر في آخر السورة نبوة رسوله بالأدلة العقلية أحسن تقرير، ويجيب عن شبه المكذبين له أحسن جواب، وكذلك تقريره للمعاد بالأدلة العقلية والحسية، فضرب الأمثال والأقيسة، فدلالة القرآن: سمعية وعقلية.

***

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾.

(٢)إذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله، كما إن أصل الأقوال الدينية تصديق الله ورسوله، وكل إرادة تمنع كمال حب الله ورسوله، وتزاحم هذه المحبة فإنها تمنع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفرًا وشركًا أكبر، وإن لم تعارضه قدحت في كماله، وأثرت فيه ضعفًا وفتورًا في

(١) ٤٩٢ مدارج جـ٣.

(٢) ٢٦٤ الجواب.

العزيمة والطلب، وهي تحجب الواصل، وتقطع الطالب، وتنكي الراغب، فلا تصلح الموالاة إلاّ بالمعاداة، كما قال تعالىٰ: عن إمام الحنفاء المحبين، أنه قال لقومه: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٧٥-٧٧] فلم تصلح لخليل الله هذه الموالاة والخلة إلاّ بتحقيق هذه المعاداة، فإن ولاية الله لا تصح إلاّ بالبراءة من كل معبود سواه.

قال تعالىٰ: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٨]. أي: جعل هذه الموالاة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه، يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض، وهي كلمة: لا إله إلاّ الله.

وهي التي ورثها إمام الحنفاء لأتباعه إلىٰ يوم القيامة.

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، وعليها أسست الملة، ونصبت القبلة، وجردت سيوف الجهاد.

وهي محض حق الله علي جميع العباد، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار.

وهي المنشور الذي لا تدخل الجنة إلاّ به، والحبل الذي لا يصل إلىٰ الله من لم يتعلق بسببه.

وهي كلمة الإسلام ومفتاح دار السلام، وبها انقسم الناس إلىٰ شقي وسعيد ومقبول وطريد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإسلام، وتميزت دار النعيم من دار

الشقاء والهوان. وهي العمود الحامل للفرض والسنة. «**ومن كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله دخل الجنة**»[(١)].

وروح هذه الكلمة وسرها: إفراد الرب ـ جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالىٰ جده، ولا إله غيره ـ بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء، وتوابع ذلك: من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة، فلا يحب سواه، بل كل ما كان يحب غيره، فإنما هو تبعا لمحبته وكونه وسيلة إلىٰ زيادة محبته، ولا يخاف سواه، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلاّ عليه، ولا يرغب إلاّ إليه، ولا يرهب إلاّ منه، ولا يحلف إلاّ باسمه، ولا ينذر إلاّ له، ولا يتاب إلاّ إليه، ولا يطاع إلاّ أمره، ولا يحتسب إلاّ به، ولا يستعان في الشدائد إلاّ به، ولا يلتجئ إلاّ إليه، ولا يسجد إلاّ له، ولا يذبح إلا له وباسمه، يجتمع ذلك في حرف واحد، وهو: أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة، هذا هو تحقيق شهادة إن لا إله إلاّ الله...

***

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾.

[(٢)]نسب إلىٰ ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلىٰ نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة، وهذا كثير في القرآن الكريم، ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب الفوائد المكية، وبينا هناك السر في مجيء: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿ ٱلَّذِينَ

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣١١٦) والحاكم (١/ ٥٠٣ رقم ١٢٩٩) وقال: هـذا حـديث صـحيح الإسـناد وابن أبي شيبة (٢/ ٤٤٦ رقم ١٠٨٦٦) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١١٢ رقم ٢٢١) وأحـمـد (٥/ ٢٤٧) والبزار (٧/ ٧٧ رقم ٢٦٢٦) والبيهقي في الشعب (١/ ١٠٨ رقم ٩٤) وفي الاعتقاد (ص ٣٧) وانظـر: فتح الباري (٣/ ١٠٩) وشرح النووي (١/ ٢١٩).

(٢) ٣١٥ بدائع جـ٣.

أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ [البقرة: ١٤٥] والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعا في سياق المدح، وحيث حذفه كان من أوتيه واقعًا في سياق الذم أو منقسمًا، وذلك من أسرار القرآن الكريم ومثله: ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢] وقال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾ [الشورى: ١٤] ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] وبالجملة فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

***

﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ۝٨٩﴾.

...[1] أثنى الله على خليله ﷺ بسلامة القلب، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ٨٣]، وقال حاكيًا عنه أنه قال: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] والقلب السليم هو الذي سلم من الشرك والغل والحقد والحسد والشح والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطعه عن الله، فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي جنة يوم المعاد.

ولا تتم له سلامته مطلقاً حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهو يناقض التجريد. والإخلاص يعم.

وهذه الخمسة حجب عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة، تتضمن أفراداً لا تحصر، ولذلك اشتدت حاجة العبد، بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه

---

(١) ١٦٣ الجواب.

الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج إلى شيء منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها، فان الصراط المستقيم يتضمن علوماً وإرادات وأعمالاً وتروكًا ظاهرة وباطنة، تجري عليه كل وقت، فتفاصيل الصراط المستقيم قد يعلمها العبد، وقد لا يعلمها، وقد يكون ما لا يعلمه أكثر مما يعلمه، وما يعلمه قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه، وهو من الصراط المستقيم وإن عجز عنه، وما يقدر عليه قد لا تريده نفسه، وقد لا تريده، كسلًا وتهاونًا، أو لقيام مانع وغير ذلك، وما تريده قد يفعله وقد لا يفعله، وما يفعله قد يقوم بشروط الإخلاص وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بشروط الإخلاص قد يقوم فيه بكمال المتابعة وقد لا يقوم، وما يقوم فيه بالمتابعة قد يثبت عليه وقد يصرف قلبه عنه، وهذا كله واقع سار في الخلق، فمستقل ومستكثر.

[(١)]والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا، فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره، فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله، فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة، تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه.

ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغي، وسليم من الباطل، وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره، فذلك يتضمنها.

وحقيقته: أنه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه: حياء وخوفًا وطمعًا ورجاءً، ففني بحبه عن حب ما سواه، وبخوفه عن خوف ما سواه، وبرجائه عن رجاء ما سواه، وسلم لأمره ولرسوله تصديقا وطاعة كما تقدم، واستسلم لقضائه وقدره، فلم يتهمه، ولم ينازعه، ولم يتسخط لأقداره، فأسلم لربه انقيادًا وخضوعًا وذلا وعبودية، وسلم

(١) ٤١ مفتاح جـ١.

جميع أحواله وأقواله وأعماله وأذواقه ومواجيده ظاهرًا وباطنًا من مشكاة رسوله، وعرض ما جاء من سواها عليها فما وافقها قبله وما خالفها رده، وما لم يتبين له فيه موافقة ولا مخالفة وقف أمره وأرجأه إلىٰ أن يتبين له، وسالم أولياءه وحزبه المفلحين، الذابين عن دينه وسنة نبيه، القائمين بها. وعادىٰ أعداءه المخالفين لكتابه وسنة نبيه، الخارجين عنهما، الداعين إلىٰ خلافهما.

[(١)]...لما لكان القلب يوصف بالحياة وضدها، انقسم بحسب ذلك إلىٰ هذه الأحوال الثلاثة. فالقلب الصحيح: هو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتىٰ الله به، كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]. والسليم هو السالم، وجاء علىٰ هذا المثال لأنه للصفات، كالطويل والقصير والظريف؛ فالسليم القلب الذي قد صارت السلامة صفة ثابتة له، كالعليم والقدير، وأيضا فإنه ضد المريض، والسقيم، والعليل.

وقد اختلفت عبارات الناس في معنىٰ القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره. فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله. فسلم في محبة غير الله معه ومن خوفه ورجائه والتوكل عليه، والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال والتباعد من سخطه بكل طريق. وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله تعالىٰ: إرادة ومحبة، وتوكلا، وإنابة، وإخباتا، وخشية، ورجاء. وخلص عمله لله، فإن أحب أَحَبَّ في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطىٰ أعطىٰ لله، وإن منع منع لله ولا يكفيه هذا حتىٰ يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله صلىٰ الله تعالىٰ عليه وآله وسلم، فيعقد قلبه معه عقدا محكما علىٰ الائتمام

---

(١) ٧ إغاثة جـ١.

والاقتداء به وحده، دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب، وهي العقائد، وأقوال اللسان؛ وهي الخبر عما في القلب. وأعمال القلب، وهي الإرادة والمحبة والكراهة وتوابعها، وأعمال الجوارح. فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجله هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل.

[1]والقلب الثاني: ضد هذا، وهو القلب الميت الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته؛ ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضا ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله: حبا، وخوفا، ورجاء، ورضا، وسخطا، وتعظيما؛ وذلا. إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه. فهواه آثر عنده وأحب إليه من رضا مولاه. فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سائقه، والغفلة مركبه. فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمور، وبسكرة الهوى وحب العاجلة مخمور. ينادى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب للناصح، ويتبع كل شيطان مريد. الدنيا تسخطه وترضيه. والهوى يصمه عما سوى الباطل ويعميه. فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عَدُو لِمَنْ عَادَتْ، وَسِلمٌ لأَهْلِهَا وَمَنْ قَرَّبَتْ لَيْلَى أَحَبَّ وَأَقْرَبا

فمخالطة صاحب هذا القلب سقم، ومعاشرته سم، ومجالسته هلاك.

والقلب الثالث: قلب له حياة وبه علة؛ فله مادتان، تمده هذه مرة، وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب؛ وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة: ما

(١) ٩ إغاثة جـ١.

هو مادة هلاكه وعطبه، وهو ممتحن بين داعيين: داع يدعوه إلىٰ الله ورسوله والدار الآخرة، وداع يدعوه إلىٰ العاجلة. وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب الأول، حي مخبت لين واع، والثاني يابس ميت، والثالث مريض، فإما إلىٰ السلامة أدنىٰ، وإما إلىٰ العطب أدنىٰ.

وقد جمع الله سبحانه بين هذه القلوب الثلاثة في قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢].

(١)والفرق بين سلامة القلب والبله والتغفل: أن سلامة القلب تكون من عدم إرادة الشر بعد معرفته، فيسلم قلبه من إرادته وقصده، لا من معرفته والعلم به، وهذا بخلاف البله والغفلة فإنها جهل وقلة معرفة، وهذا لا يحمد إذ هو نقص، وإنما يحمد الناس من هو كذلك لسلامتهم منه، والكمال أن يكون القلب عارفا بتفاصيل الشر سليمًا من إرادته. قال عمر بن الخطاب ﵁: لست بخب، ولا يخدعني الخب(٢) وكان عمر أعقل من أن يُخْدَع، وأورع من أن يَخْدَع.

وقال تعالىٰ: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة، التي توجب اتباع الظن ومرض الشهوة، التي توجب إتباع ما تهوىٰ الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا.

***

(١)٢٩٧ الروح.

(٢)أخرجه المزي في تهذيب الكمال من قول إياس بن معاوية (٣/ ٤١٨) وكذا ابن عساكر في تاريخ دمشق (١٠/ ١٩).

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

(١)أما الشرك فهو نوعان: أكبر وأصغر، فالأكبر: لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندًّا يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨] مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة، كما هو حال أكثر مشركي العالم، بل كلهم يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله، وكثير منهم بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله، ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده، ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم ـ من المشايخ ـ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين، وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث إذا حرد، وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئًا رضوا عنه، ولم تتنكر له قلوبهم، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة، وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه ديدنا له إن قام وإن قعد وإن عثر وإن مرض وإن استوحش، فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه، وهو لا ينكر، ذلك ويزعم أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه...

(٢)ولما كانت كثرة ذكر الشيء موجبة لدوام محبته، ونسيانه سببًا لزوال محبته أو ضعفها، وكان الله سبحانه هو المستحق من عباده نهاية الحب مع نهاية التعظيم.

بل الشرك الذي لا يغفره الله تعالى هو أن يشرك به في الحب والتعظيم، فيحب

---

(١) ٣٣٩ مدارج جـ١.

(٢) ٢٦٦ جلاء.

غيره، ويعظم من المخلوقات غيره، كما يحب الله تعالى ويعظمه، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فأخبر سبحانه أن المشرك يحب الند كما يحب الله تعالى، وأن المؤمن أشد حباً لله من كل شيء.

وقال أهل النار في النار: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]. ومن المعلوم أنهم إنما سووهم به سبحانه في الحب والتأله والعبادة، وإلا فلم يقل أحد قط إن الصنم أو غيره من الأنداد مساو لرب العالمين في صفاته، وفي أفعاله، وفي خلق السماوات والأرض، وفي خلق عباده أيضاً، وإنما كانت التسوية في المحبة والعبادة.

وأضل من هؤلاء وأسوأ حالاً من سوى كل شيء بالله سبحانه في الوجود، وجعله وجود كل موجود كامل أو ناقص، فإذا كان الله قد حكم بالضلال والشقاء لمن سوى بينه وبين الأصنام في الحب، مع اعتقاد تفاوت ما بين الله وبين خلقه في الذات والصفات والأفعال، فكيف بمن سوى الله بالموجودات في جميع ذلك، وزعم أنه ما عبد غير الله في كل معبود.

***

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾.

[(١)]قال: «وإنما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: بقصر الأمل. والتأمل في القرآن. وقلة الخلطة، والتمني، والتعلق بغير الله، والشبع والمنام». يعني: أن في منزل «التذكر» تجتنى ثمرة «الفكرة» لأنه أعلى منها، وكل مقام تجتنى ثمرته في الذي هو أعلى منه، ولاسيما على ما قرره في خطبة كتابه «أن كل مقام يصحح ما قبله».

---

(١) ٤٤٩ مدارج جـ١.

ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنى بثلاثة أشياء أحدها: قصر الأمل والثاني: تدبر القرآن والثالث: تجنب مفسدات القلب الخمسة.

فأما قصر الأمل: فهو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معافصة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعة قصر الأمل شاهد من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء، يتصابها صاحبها، وأنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا.

ويكفي في قصر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: ٤٦] وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٣، ١١٤] وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٣، ١٠٤] وخطب النبي ﷺ أصحابه يوما والشمس على رءوس الجبال، فقال: «إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها، إلا كما بقي

من يومكم هذا فيما مضى منه»[١] ومرَّ رسول الله ﷺ ببعض أصحابه وهم يعالجون خُصًّا لهم قد وهى وهم يصلحونه، فقال: «ما هذا؟» قالوا: خص لنا قد وهى، فنحن نعالجه، فقال: «ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا»[٢].

وقصر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين، ويؤثر أولاهما بالإيثار.

***

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾.

[٣]نفى فعله وابتغاءه منهم وقدرتهم عليه، وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين وأحوال الرسل يعلم علمًا لا يمارى فيه ولا يشك، بل علمًا ضروريًّا كسائر الضروريات منافاة أحدهما للآخر ومضادته له، كمنافاة أحد الضدين لصاحبه، بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر، ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦] قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه: أن تبين للسامع الحق، ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠] وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] فالأمر

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢١٩١) والطيالسي (رقم ٢١٥٦) وابن أبي عاصم في الزهد (رقم ١٨٩) وحسنه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١٧٠) وقال في موضع آخر (ص ١٩٩): هذا حديث حسن رجاله موثقون. وهي متابعة جيدة لعلي بن زيد. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٢٦٣ رقم ٢٩٩٧) وأبو داود (رقم ٥٢٣٦) وابن ماجه (رقم ٤١٦٠) والترمذي (رقم ٢٣٣٥) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٥ رقم ٣٤٣٠٥) وأحمد (٢/ ١٦١) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣٨٩ رقم ١٠٧٠٣) وهناد في الزهد (١/ ٢٩٤ رقم ٥١٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) ٧٩ التبيان.

منحصر في الحق والباطل والهدىٰ والضلال، فإذا عدلتم عن الهدىٰ والحق فأين العدول وأين المذهب؟

ونظير هذا قوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] أي إن أعرضتم عن الإيمان بالقرآن والرسول وطاعته فليس إلا الفساد في الأرض والشرك والمعاصي وقطيعة الرحم، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ [ق: ٥] لما تركوا الحق وعدلوا عنه مرج عليهم أمرهم والتبس، فلا يدرون ما يقولون وما يفعلون، بل لا يقولون شيئًا إلا كان باطلًا، ولا يفعلون شيئًا إلا كان ضائعًا غير نافع لهم، وهذا شأن كل من خرج عن الطريق الموصل إلىٰ المقصود، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠] وقد كشف هذا المعنىٰ كل الكشف بقوله ﷻ: ﴿ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

...[1] وأنت إذا تأملت قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٩] وجدت الآية من أظهر الأدلة علىٰ نبوة النبي ﷺ، وأن هذا القرآن جاء من عند الله، وأن الذي جاء به روح مطهر، فما للأرواح الخبيثة عليه سبيل، ووجدت الآية أخت قوله: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، ووجدتها دالة بأحسن الدلالة علىٰ أنه لا يمس المصحف إلا طاهر، ووجدتها دالة أيضًا بألطف الدلالة علىٰ أنه لا يجد حلاوته وطعمه إلا من آمن به وعمل به، كما فهمه البخاري من الآية، فقال في صحيحه في باب ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا ﴾ [آل عمران: ٩٣] «لا يمسه» لا يجد طعمه ولا نفعه إلا من آمن بالقرآن، ولا يحمله بحقه إلا المؤمن؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ

---

(١) ٢٦٦ إعلام جـ١.

ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾ [الجمعة: ٥] وتجد تحته أيضا أنه لا ينال معانيه ويفهمه كما ينبغي إلا القلوب الطاهرة، وأن القلوب النجسة ممنوعة من فهمه مصروفة عنه، فتأمل هذا النسب القريب وعقد هذه الأخوة بين هذه المعاني وبين المعنى الظاهر من الآية، واستنباط هذه المعاني كلها من الآية بأحسن وجه وأبينه فهذا من الفهم الذي أشار إليه علي ﷺ.

***

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

(1) لما أعرض الناس عن تحكيم الكتاب والسنة والمحاكمة إليهما، واعتقدوا عدم الاكتفاء بهما، وعدلوا إلى الآراء والقياس والاستحسان وأقوال الشيوخ، عرض لهم من ذلك فساد في فطرهم، وظلمة في قلوبهم، وكدر في أفهامهم، ومحق في عقولهم. وعمتهم هذه الأمور وغلبت عليهم، حتى ربي فيها الصغير، وهرم عليها الكبير، فلم يروها منكرًا. فجاءتهم دولة أخرى قامت فيها البدع مقام السنن، والنفس مقام العقل، والهوى مقام الرشد، والضلال مقام الهدى، والمنكر مقام المعروف، والجهل مقام العلم، والرياء مقام الإخلاص، والباطل مقام الحق، والكذب مقام الصدق، والمداهنة مقام النصيحة، والظلم مقام العدل. فصارت الدولة والغلبة لهذه الأمور، وأهلها هم المشار إليهم، وكانت قبل ذلك لأضدادها، وكان أهلها هم المشار إليهم.

فإذا رأيت دولة هذه الأمور قد أقبلت، وراياتها قد نصبت، وجيوشها قد ركبت، فبطن الأرض والله خير من ظهرها، وقلل الجبال خير من السهول، ومخالطة الوحش أسلم من مخالطة الناس.

اقشعرّت الأرض وأظلمت السماء، وظهر الفساد في البر والبحر من ظلم الفجرة، وذهبت البركات، وقلّت الخيرات، وهزلت الوحوش، وتكدرت الحياة من فسق

(١) ٤٨ فوائد.

الظلمة، وبكى ضوء النهار وظلمة الليل من الأعمال الخبيثة والأفعال الفظيعة، وشكا الكرام الكاتبون والمعقبات إلى ربهم من كثرة الفواحش وغلبة المنكرات والقبائح. وهذا والله منذر بسيل عذاب قد انعقد غمامه، ومؤذن بليل بلاء قد ادلهمّ ظلامه. فاعزلوا عن طريق هذا السبيل بتوبة نصوح ما دامت التوبة ممكنة وبابها مفتوح. وكأنكم بالباب وقد أغلق، وبالرهن وقد غلق، وبالجناح وقد علق ﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الشعراء

والحمد لله رب العالمين





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦ ﴾.

(١)أخبر أن مصدر التلقي عن علم المتكلم وحكمته، وما كان كذلك كان صدقًا وعدلًا، وهدًى وإرشادًا.

(٢)إخباره عن صدور الخلق والأمر عن حكمته وعلمه، فذكر هذين الاسمين عند ذكر مصدر خلقه وشرعه، تنبيها على أنهما إنما صدرا عن حكمة مقصودة، مقارنة للعلم المحيط التام لقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾، وقوله: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١].

فذكره العزة المتضمنة لكمال القدرة والتصرف، والحكمة المتضمنة لكمال الحمد والعلم.

وقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨].

وسمع بعض الأعراب قارئًا يقرأها (والله غفور رحيم) فقال: ليس هذا كلام الله. فقال: أتكذب بالقرآن؟! فقال: لا، ولكن لا يحسن هذا. فرجع القارئ إلى خطئه، فقال: ﴿ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ فقال: صدقت.

وإذا تأملت ختم الآيات بالأسماء والصفات وجدت كلامه مختتما بذكر الصفة التي يقتضيها ذلك المقام، حتى كأنها ذكرت دليلا عليه وموجبة له، وهذا كقوله: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] أي فإن

(١) ١٦٢ بدائع جـ٤.
(٢) ٢٠٠ شفاء.

مغفرتك لهم مصدر عن عزة، هي كمال القدرة، لا عن عجز وجهل.

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨] في عدة مواضع من القرآن يذكر ذلك عقيب ذكره الأجرام العلوية، وما تضمنه من فلق الإصباح، وجعل الليل مسكنًا، وإجراء الشمس والقمر بحساب لا يعدوانه، وتزيين السماء الدنيا بالنجوم وحراستها، وأخبر أن هذا التقدير المحكم المتقن صادر عن عزته وعلمه، ليس أمرًا اتفاقيًا، لا يمدح به فاعله، ولا يثنى عليه به كسائر الأمور الاتفاقية.

ومن هذا ختمه سبحانه قصص الأنبياء وأممهم في سورة الشعراء عقيب كل قصة: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ٩] فإن ما حكم به لرسله وأتباعهم ولأعدائهم صادر عن عزة ورحمة، فوضع الرحمة في محلها، وانتقم من أعدائه بعزته، ونجى رسله وأتباعهم برحمته، والحكمة الحاصلة من ذلك أمر مطلوب مقصود، وهي غاية الفعل، لا أنها أمر اتفاقي.

***

﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾.

[(١)] أخبر سبحانه أن تكذيبهم وكفرهم كان عن يقين - وهو أقوى العلم - ظلمًا منهم علوًا لا جهلًا.

...[(٢)] لا يكون الجحد إلا بعد الاعتراف بالقلب واللسان.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ﴾ [النمل: ١٤]. ومنه: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] عقيب قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾. ومنه: ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا

(١) ٩١ مفتاح جـ١.
(٢) ١١٨ بدائع جـ٤.

ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وعلى هذا لا يحسن استعمال الفقهاء لفظ الجحود في مطلق الإنكار في باب الدعاوى وغيرها، لأن المنكر قد يكون محقًّا فلا يسمى جاحدًا.

***

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.

[1]قوله تعالى: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل: ١٦] فهو ميراث العلم والنبوة لا غير، وهذا باتفاق أهل العلم من المفسرين وغيرهم، وهذا لأن دواد ﷺ كان له أولاد كثيرة سوى سليمان، فلو كان الموروث هو المال لم يكن سليمان مختصًا به.

وأيضًا: فإن كلام الله يصان عن الإخبار بمثل هذا؛ فإنه بمنزلة أن يقال: مات فلان وورثه ابنه، ومن المعلوم أن كل أحد يرثه ابنه، وليس في الإخبار بمثل هذا فائدة.

وأيضًا فإن ما قبل الآية وما بعدها يبين أن المراد بهذه الوراثة وراثة العلم والنبوة، لا وراثة المال، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ﴾ [النمل: ١٥، ١٦]. وإنما سيق هذا البيان فضل سليمان وما خصه الله به من كرامته وميراثه ما كان لأبيه من أعلى المواهب، وهو العلم والنبوة ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل: ١٦].

***

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) ٦٧ مفتاح جـ١.

[(١)] هذه النمل من أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب شيء، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قوتها وإن بعدت عليها لطريق، فإذا ظفرت به حملته وساقته في طرق معوجة بعيدة، ذات صعود وهبوط في غاية من التوعر، حتى تصل إلى بيوتها، فتخزن فيها أقواتها في وقت الإمكان، فإذا خزنتها عمدت إلى ما ينبت منها ففلقته فلقتين، لئلا ينبت، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته بأربعة، فإذا أصابه بلل وخافت عليه العفن والفساد انتظرت به يوما ذا شمس، فخرجت به فنشرته على أبواب بيوتها، ثم أعادته إليها، ولا تتغذى منها نملة مما جمعه غيرها.

ويكفي في هداية النمل ما حكاه الله سبحانه في القرآن عن النملة التي سمع سليمان كلامها وخطابها لأصحابها بقولها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل: ١٨].

فاستفتحت خطابها بالنداء الذي يسمعه من خاطبته، ثم أتت بالاسم المبهم، ثم أتبعته بما يثبته من اسم الجنس إرادة للعموم، ثم أمرتهم بأن يدخلوا مساكنهم، فيتحصنون من العسكر، ثم أخبرت عن سبب هذا الدخول، وهو خشية أن يصيبهم معرة الجيش، فيحطمهم سليمان وجنوده، ثم اعتذرت عن نبي الله وجنوده بأنهم لا يشعرون بذلك، وهذا من أعجب الهداية.

وتأمل كيف عظم الله سبحانه شأن النمل بقوله: ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ١٧] ثم قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ [النمل: ١٨] فأخبر أنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي، ودل على أن ذلك الوادي معروفا بالنمل كوادي السباع ونحوه.

ثم أخبر بما دل على شدة فطنة هذه النملة ودقة معرفتها، حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم، فقد عرفت هي والنمل: أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل

---

(١) ٦٨ شفاء.

عليهم فيه سواهم، ثم قالت: ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ فجمعت بين اسمه وعينه، وعرفته بهما، وعرفت جنوده وقائدها، ثم قالت: ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فكأنها جمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش بكونهم لا يشعرون، وبين لوم أمة النمل، حيث لم يأخذوا حذرهم، ويدخلوا مساكنهم، ولذلك تبسم نبي الله ضاحكا من قولها، وأنه لموضع تعجب وتبسم. وقد روى الزهري عن عبد الله بن عبد الله بن عيينة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: «**نهى عن قتل النمل والنحلة والهدهد والصرد**»[1].

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فقرصته نملة، فأمر بجهازه فأخرج، وأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أمن أجل أن قرصتك نملة أحرقت أمة من الأمم تسبح، فهلا نملة واحدة**»[2].

وذكر هشام بن حسان: أن أهل الأحنف بن قيس لقوا من النمل شدة، فأمر الأحنف بكرسي فوضع عند تنورين، فجلس عليه ثم تشهد، ثم قال: لتنتهن أو ليحرقن عليكن، ونفعل ونفعل. قال: فذهبن.

وروى عوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال قال أبو موسى الأشعري: إن لكل شيء سادة، حتى للنمل سادة[3].

ومن عجيب هدايتها أنها تعرف ربها بأنه فوق سماواته على عرشه، كما رواه الإمام أحمد في كتاب الزهد من حديث أبي هريرة يرفعه قال: «**خرج نبي من الأنبياء بالناس**

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥٢٦٧) والبيهقي في الكبرى (٥/ ٢١٤ رقم ٩٨٥٠) والدارمي (رقم ١٩٩٩) والطبراني في الكبير (٦/ ١٢٧ رقم ٥٧٢٨) وابن المبارك في مسنده (رقم ١٩٦) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود وفي صحيح الترغيب والترهيب (رقم ٢٩٩٠) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٥٨) وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٤/ ٢٣٩): رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٠١٩، ٣٣١٩) ومسلم (رقم ٢٢٤١) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٥٤، ٣٥٨) وشرح النووي (١٤/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه يحيى بن معين في الفوائد (رقم ١٠٠) والحارث بن أبي أسامة في مسنده (٢/ ٧٩٢ رقم ٧٩٩).

يستسقون فإذا هم بنملة رافعة قوائمها إلىٰ السماء تدعو، مستلقية علىٰ ظهرها، فقال: ارجعوا، فقد كفيتم أو سقيتم بغيركم»[1] ولهذا الأثر عدة طرق، ورواه الطحاوي في التهذيب وغيره، وقال الإمام أحمد حدثنا... قال: «خرج سليمان بن داؤد يستسقي فرأىٰ نملة مستلقية علىٰ ظهرها، رافعة قوائمها إلىٰ السماء، وهي تقول: اللهم إنا خلق من خلقك، ليس بنا غِنىً عن سقياك ورزقك، فإما أن تسقينا وترزقنا وإما أن تهلكنا. فقال: ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم»[2]، ولقد حدثني: أن نملة خرجت من بيتها، فصادفت شق جرادة، فحاولت أن تحمله فلم تطق، فذهبت وجاءت معها بأعوان يحملنه معها، قال: فرفعت ذلك من الأرض، فطافت في مكانه فلم تجده، فانصرفوا وتركوها، قال: فوضعته فعادت تحاول حمله فلم تقدر، فذهبت وجاءت بهم فرفعته، فطافت فلم تجده، فانصرفوا قال: فعلت ذلك مرارًا، فلما كان في المرة الأخرىٰ استدار النمل حلقة ووضعوها في وسطها، وقطعوها عضوًا عضوًا.

قال شيخنا: وقد حكيت له هذه الحكاية، فقال: هذه النمل فطرها الله سبحانه علىٰ قبح الكذب وعقوبة الكذاب[3]، والنمل من أحرص الحيوان، ويضرب بحرصه المثل.

ويذكر أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما رأىٰ حرص النملة وشدة ادخارها للغذاء، استحضر نملة وسألها: كم تأكل النملة من الطعام كل سنة؟ قالت: ثلاث

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٨٥٨ رقم ١٦٢٠٣) وأحمد في الزهد (ص ٨٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٦٢ رقم ٢٩٤٨٧) (٧/ ٧١ رقم ٣٤٢٧٣) وأبو الشيخ في العظمة (٥/ ١٧٥٢ رقم ٧١) والطبراني في الدعاء (رقم ٩٦٨) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٠١) وقال الصنعاني في سبل السلام (٢/ ٨٣) رواه أحمد وصححه الحاكم.

(٣) لما وقفت علىٰ ذلك منذ سنين عديدة، استهوتني هذه الحكاية، فصغت منها قصة طريفة للأطفال، تحت عنوان: «حتىٰ النمل يكره الكذب» وهي من منشورات دار القاسم بالرياض، والحمد لله فقد لاقت قبولًا شديدًا من الأطفال وأولياء الأمور والمربين. سائلًا الله تعالىٰ أن ينفع بكل أعمالي وكتاباتي، وأن يدخر لي الأجر الجزيل والثواب الجميل في دار كرامته مع أوليائه وأحبته، اللهم آمين.

حبات من الحنطة. فأمر بإلقائها في قارورة، وسد فم القارورة، وجعل معها ثلاث حبات حنطة، وتركها سنة بعد ما قالت، ثم أمر بفتح القارورة عند فراغ السنة فوجد حبة ونصف حبة، فقال: أين زعمك أنت زعمت أن قوتك كل سنة ثلاث حبات؟! فقالت: نعم، ولكن لما رأيتك مشغولا بمصالح أبناء جنسك، حسبت الذي بقي من عمري، فوجدته أكثر من المدة المضروبة، فاقتصرت على نصف القوت، واستبقيت نصفه استبقاء لنفسي. فعجب سليمان من شدة حرصها، وهذا من أعجب الهداية والفطنة.

ومن حرصها أنها تكد طوال الصيف، وتجمع للشتاء علما منها بإعواز الطلب في الشتاء، وتعذر الكسب فيه، وهي على ضعفها شديدة القوى، فإنها تحمل أضعاف أضعاف وزنها، وتجره إلى بيتها.

ومن عجيب أمرها أنك إذا أخذت عضو كزبرة يابس فأدنيته إلى أنفك لم تشم له رائحة، فإذا وضعته على الأرض أقبلت النملة من مكان بعيد إليه، فإن عجزت عن حمله ذهبت وأتت معها بصف من النمل يحتملونه، فكيف وجدت رائحة ذلك من جوف بيتها، حتى أقبلت بسرعة إليه. فهي تدرك بالشم من البعد ما يدركه غيرها بالبصر أو بالسمع، فتأتي من مكان بعيد إلى موضع أكل فيه الإنسان، وبقي فيه فتات من الخبز أو غيره، فتحلمه وتذهب به، وإن كان أكبر منها فإن عجزت عن حمله ذهبت إلى حجرها وجاءت معها بطائفة من أصحابها، فجاءوا كخيط أسود، يتبع بعضهم بعضا، حتى يتساعدوا على حمله ونقله؟ وهي تأتي إلى السنبلة فتشمها، فإن وجدتها حنطة قطعتها ومزقتها وحملتها، وإن وجدتها شعيرا فلا. ولها صدق الشم، وبعد الهمة، وشدة الحرص، والجرأة على محاولة نقل ما هو أضعاف أضعاف وزنها، وليس للنمل قائد ورئيس يدبرها كما يكون للنحل، إلا أن لها رائدا يطلب الرزق، فإذا وقف عليه أخبر أصحابه، فيخرجن مجتمعات، وكل نملة تجتهد في صلاح العامة منها، غير مختلسة من الحب شيئا لنفسها دون صواحباتها.

ومن عجيب أمرها أن الرجل إذا أراد أن يحترز من النمل لا يسقط في عسل أو نحوه، فإنه يحفر حفيرة، ويجعل حولها ماء، أو يتخذ إناء كبيرا، ويملأه ماء، ثم يضع فيه ذلك الشيء، فيأتي الذي يطيف به، فلا يقدر عليه، فيتسلق في الحائط، ويمشي على السقف إلى أن يحاذي ذلك الشيء، فتلقي نفسها عليه، وجربنا نحن ذلك.

وأحمى صانع مرة طوقًا بالنار ورماه على الأرض ليبرد، واتفق أن اشتمل الطوق على نمل فتوجه في الجهات ليخرج فلحقه وهج النار، فلزم المركز ووسط الطوق، وكان ذلك مركزًا له، وهو أبعد مكان من المحيط.

***

﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

هذا الهدهد من أهدى الحيوان وأبصره بمواضع الماء تحت الأرض، لا يراه غيره.

ومن هدايته ما حكاه الله عنه في كتابه أن قال لنبي الله سليمان وقد فقده وتوعده، فلما جاءه بدره بالعذر قبل أن ينذره سليمان بالعقوبة، وخاطبه خطابا هيجه به على الإصغاء إليه والقبول منه، فقال: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ ﴾ [النمل: ٢٢].

وفي ضمن هذا أني أتيتك بأمر قد عرفته حق المعرفة بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل: ٢٢] والنبأ هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبأ يقين لا شك فيه

ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله بذلك النبأ، استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجبت له التشوف التام إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال وخطاب التهييج.

ثم كشف عن حقيقة الخبر كشفًا مؤكدًا بأدلة التأكيد، فقال: ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةً تَمۡلِكُهُمۡ ﴾ [النمل: ٢٣] ثم أخبر عن شأن تلك الملكة، وأنها من أجل الملوك بحيث ﴿ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ يصلح أن تؤتاه الملوك، ثم زاد في تعظيم شأنها بذكر عرشها التي تجلس عليه، وأنه عرش عظيم، ثم أخبره بما يدعوهم إلى قصدهم وغزوهم في عقر دارهم بعد دعوتهم إلى الله، فقال: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [النمل: ٢٤] وحذف أداة العطف من هذه الجملة، وأتى بها مستقلة غير معطوفة على ما قبلها إيذانا بأنها هي المقصودة وما قبلها توطئة لها.

ثم أخبر عن المغوي لهم الحامل لهم على ذلك، وهو تزيين الشيطان لهم أعمالهم، حتى صدهم عن السبيل المستقيم، وهو السجود لله وحده، ثم أخبر أن ذلك الصد حال بينهم وبين الهداية والسجود لله الذي لا ينبغي السجود إلا له.

ثم ذكر من أفعاله سبحانه إخراج الخبء في السماوات والأرض، وهو المخبوء فيهما من المطر والنبات والمعادن، وأنواع ما ينزل من السماء وما يخرج من الأرض، وفي ذكر الهدهد هذا الشأن من أفعال الرب تعالى بخصوصه، إشعار بما خصه الله به من إخراج الماء المخبوء تحت الأرض.

قال صاحب الكشاف: وفي إخراج الخبء أمارة على أنه من كلام الهدهد لهندسته ومعرفته الماء تحت الأرض، وذلك بإلهام من يخرج الخبء في السماوات والأرض، جلت قدرته ولطف علمه، ولا يكاد يخفى على ذي الفراسة الناظر بنور الله مخايل كل شخص بصناعة أو فن من العلم في روائه ومنطقه وشمائله، فما عمل آدمي عملًا إلا ألقى الله عليه رداء عمله.

...[1]إن سليمان لما توعد الهدهد بأن يعذبه عذابًا شديدًا أو يذبحه، إنما نجا منه بالعلم، وأقدم عليه في خطابه له بقوله: أحطت بما لم تحط به.

وهذا الخطاب إنما جرأه عليه العلم، وإلا فالهدهد مع ضعفه لا يتمكن من خطابه لسليمان مع قوته بمثل هذا الخطاب لولا سلطان العلم.

ومن هذا الحكاية المشهورة أن بعض أهل العلم سئل عن مسألة، فقال: لا أعلمها، فقال أحد تلاميذه: أنا أعلم هذه المسألة، فغضب الأستاذ وهم به، فقال له: أيها الأستاذ لستَ أعلم من سليمان بن داود، ولو بلغت في العلم ما بلغت، ولستُ أنا أجهل من الهدهد، وقد قال لسليمان: أحطت بما لم تحط به، فلم يعتب عليه ولم يعنفه.

...[2]من لوازم وربوبيته تعالىٰ وإلهيته إخراج الخبأ في السماوات والأرض من النبات والأقوات والحيوان والمعادن وغيرها، وخبأ السموات ما أودعها من أمره الذي يخرجه كل وقت بفعله وأمره، وهذا من تدبيره لملائكته وتصرفه في العالم العلوي والسفلي. فبإخراج هذا الخبأ تظهر قدرته ومشيئته وعلمه وحكمته.

وكذلك النفوس فيها خبأ كامن يعلمه سبحانه منها، فلابد أن يقيم أسبابًا يظهر بها خبأ النفوس، الذي كان كامنًا فيها، فإذا صار ظاهرًا عيانًا ترتب عليه أثره، إذ لم يكن يترتب علىٰ نفس العلم به دون أن يكون معلومًا واقعًا في الوجود.

قال تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧] فأخبر أنه خلق العالم العلوي والسفلي ليبلو عباده فيظهر من يطيعه ويحبه ويجله ويعظمه ممن يعصيه ويخالفه.

---

(١) ١٧٣ مفتاح جـ١.

(٢) ٣٤٠ مختصر الصواعق جـ١.

وهذا الابتلاء والامتحان يستلزم أسبابًا يحصل بها، فلابد من خلق أسبابه، ولهذا لما كان من أسبابه خلق الشهوات وما يدعو إليها وتزيينها فعل ذلك.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٧]، فهذه ثلاثة مواضع في القرآن تبين حكمته في خلق أسباب الابتلاء والاختبار.

فظهر أن من بعض الحكم في خلق عدو الله إخراج خبأ النفوس الخبيثة، التي شرها وخبثها كامن فيها، فأخرج خبأها بزناد دعوته، كما يخرج خبأ النار بقدح الزناد، وكما يخرج خبأ الأرض بإنزال الماء عليها، وكما يخرج خبأ الأنثى بلقاح الذكر لها، وكما يخرج خبأ القلوب الزاكية بإنزال وحيه وكلامه عليها.

فكم له سبحانه من حكمة بالغة، وآية ظاهرة في خلق عدوه إبليس؟ فإن من كمال الحكمة والقدرة إظهار شرف الأشياء الفاضلة بأضدادها.

فلولا الليل لم يظهر فضل النهار ونوره وقدره، ولولا الألم لم يعرف فضل اللذة وشرفها وقدرها، ولولا المرض لم يعرف فضل العافية، ولولا وجود قبح الصورة لم يظهر فضل الحسن والجمال.

ولهذا كان خلق النار وعذاب أهلها فيها أعظم لنعيم أهل الجنة وأبلغ في معرفة قدرها وخطرها، فكان خلق هذا القبيح الشنيع المنظر والمخبر الذي صورته أشنع من باطنه، وباطنه أقبح من صورته، مكملًا لحسن تلك الروح الزكية الفاضلة، التي كمل الله تعالى بصورتها جمال الظاهر والباطن، فلو كان الخلق كلهم على حسن يوسف مثلاً، فأي فضيلة وتمييز يكون له؟ ولو كانت الكواكب كلها شموسًا وأقمارًا، فأي مزية كانت تكون للنيرين؟

***

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

[(١)] سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وأهليته وقبوله للنعمة، بحيث لو وافته النعم لقال: هذا لي، وإنما أوتيته لأني أهله ومستحقه، كما قال تعالىٰ: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. أي على علم علمه الله عندي، أستحق به ذلك، وأستوجبه، وأستأهله. قال الفراء: أي على فضل عندي، إني كنت أهله، ومستحقًا له إذ أعطيته. وقال مقاتل: يقول على خير علمه الله عندي. وذكر عبد الله بن الحارث بن نوفل سليمان بن داود فيما أوتي من الملك، ثم قرأ قوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، ولم يقل: هذا من كرامتي. ثم ذكر قارون وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، يعني أن سليمان رأى ما أوتيته من فضل الله عليه ومنته، وأنه ابتلي به شكره. وقارون رأى ذلك من نفسه واستحقاقه، وكذلك قوله سبحانه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٥٠]، أي: أنا أهله وحقيق به، فاختصاصي به كاختصاص المالك بملكه. والمؤمن يرى ذلك ملكا لربه وفضلا منه، منّ به على عبده من غير استحقاق منه، بل صدقة تصدق بها على عبده، وله أن لا يتصدق بها، فلو منعه إياها لم يكن قد منعه شيئًا هو له يستحقه عليه، فإذا لم يشهد ذلك رأي فيه أهلا ومستحقًّا، فأعجبته نفسه، وطغت بالنعمة، وعلت بها، واستطالت على غيرها، فكان حظها منها الفرح والفخر، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ٩-١٠].

فذمه باليأس والكفر عند الامتحان بالبلاء، وبالفرج والفخر عند الابتلاء بالنعماء، واستبدل بحمد الله وشكره والثناء عليه إذا كشف عنه البلاء ـ قوله: (ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي) ولو أنه قال أذهب الله السيئات عني برحمته، ومنه لما ذم على ذلك، بل كان محمودًا عليه، ولكنه غفل عن المنعم بكشفها، ونسب الذهاب إليها وفرح

(١) ٢٠٥ فوائد.

وافتخر.فإذا علم الله سبحانه هذا من قلب عبد، فذلك من أعظم أسباب خذلانه وتخليه عنه، فإن محله لا تناسبه النعمة المطلقة التامة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣]، فأخبر سبحانه أن محلهم غير قابل لنعمته، ومع عدم القبول ففيهم مانع آخر يمنع وصولها إليهم، وهو توليهم وإعراضهم إذا عرفوها وتحققوها.

ومما ينبغي أن يعلم أن أسباب الخذلان من بقاء النفس على ما خلقت عليه في الأصل وإهمالها وتخليتها، فأسباب الخذلان منها وفيها، وأسباب التوفيق من جعل الله سبحانه لها قابلة للنعمة. فأسباب التوفيق منه ومن فضله، وهو الخالق لهذه وهذه، كما خلق أجزاء الأرض هذه قابلة للنبات، وهذه غير قابلة له، وخلق الشجر هذه تقبل الثمرة، وهذه لا تقبلها، وخلق النحلة قابلة لأن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه والزنبور غير قابل لذلك، وخلق الأرواح الطيبة قابلة لذكره وشكره وحجته وإجلاله وتعظيمه وتوحيده ونصيحة عباده، وخلق الأرواح الخبيثة غير قابلة، لذلك بل لضده وهو الحكيم العليم.

[(١)] **من علامات السعادة والفلاح**: أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته. وكلما زيد في عمله زيد في خوفه وحذره. وكلما زيد في عمره نقص من حرصه. وكلما زيد في ماله زيد في سخائه وبذله. وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه زيد في كبره

---

(١) ١٥٣ فوائد.

وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان، يبتلي بها عباده، فيسعد بها أقوام، ويشقى بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك والسلطان والمال. قال تعالىٰ عن نبيه سليمان لما رأىٰ عرش بلقيس عنده: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠].

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان، يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور.

كما أن المحن بلوىٰ منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب، قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]، أي ليس كل ما وسعت عليه وأكرمته ونعمته يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيّقت عليه رزقه وابتليته يكون ذلك إهانة له مني.

***

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝ ﴾.

[1]هل السلام من الله تعالىٰ فيكون المأمور به الحمد والوقف التام عليه، أو هو داخل في القول والأمر بهما جميعًا.

فالجواب عنه: أن الكلام يحتمل الأمرين، ويشهد لكل منهما ضرب من الترجيح، فيرجح كونه داخلا في جملة القول بأمور:

منها اتصاله به وعطفه عليه من غير فاصل، وهذا يقتضي أن يكون فعل القول واقعًا علىٰ كل واحد منهما، هذا هو الأصل ما لم يمنع منه مانع، ولهذا إذا قلت: الحمد لله

(١) ١٧٠ بدائع جـ٢.

وسبحان الله، فإن التسبيح هنا داخل في المقول.

ومنها: أنه إذا كان معطوفًا على المقول كان عطف خبر على خبر، وهو الأصل. ولو كان منقطعًا عنه كان عطفًا على جملة الطلب، وليس بالحسن عطف الخبر على الطلب.

ومنها: أن قوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ ظاهر في أن المسلم هو القائل الحمد لله، ولهذا أتى بالضمير بلفظ الغيبة ولم يقل: سلام على عبادي.

ويشهد لكون السلام من الله تعالى أمور:

أحدها: مطابقته لنظائره في القرآن من سلامه تعالى بنفسه على عباده الذين اصطفى كقوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾.

ومنها: أن عباده الذين اصطفى هم المرسلون، والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم، وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم.

أما الأول فقال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١] وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله، ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن، يتضمن الرد على كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيها مطلقا، كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاءوا به التوحيد ومعرفة الله ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم، وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وما خالفه هو الباطل والكذب المحال، وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت

الكمال، وأوصاف الجلال، والأفعال الحميدة، والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل، فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله تعالى: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ [الأنبياء: ١١٢] وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨] وقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩] ونظائره كثيرة جدًّا. وفصل الخطاب في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعًا، وتنتظمهما انتظامًا واحدًا، فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس فيه إلا البلاغ، والكلام كلام الرب تبارك وتعالى، فهو الذي حمد نفسه، وسلم على عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك، فإذا قال الرسول الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، كان قد حمد الله وسلم على عباده بما حمد به نفسه وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغا، ومن العباد اقتداء وطاعة، فنحن نقول كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾.

[1]إن تفضيل الرب تعالى على شيء من خلقه لا يذكر في شيء من القرآن إلا ردًّا على من اتخذ ذلك الشيء ندًّا لله تعالى، فبين سبحانه أنه خير من ذلك الند، كقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾. وقوله تعالى حاكيًا عن السحرة: ﴿ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا

(١) ١٤١ مختصر الصواعق جـ٢.

خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٢-٧٣] وقوله تعالىٰ: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

فأما أن يفضل نفسه علىٰ شيء معين من خلقه ابتداء، فهذا لم يقع في كلام الله، ولا هو مما يقصد بالإخبار؛ لأن قول القائل ابتداءً: الله خير من ابن آدم، وخير من السماء، وخير من العرش، من جنس قول: السماء فوق الأرض، والثلج بارد والنار حارة، وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح...

...[(1)]قوله تعالىٰ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ إلىٰ آخر الآيات [النمل: ٥٩، ٦٠].

يحتج عليهم بأن من فعل لهم هذا وحده فهو الإله لهم وحده، فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكن معه رب فعل هذا، فكيف تجعلون معه إلها آخر؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية: «أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ فعل هذا»؟ حتىٰ يتم الدليل، فلا بد من الجواب بلا. فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله، فكيف تعبدون آلهة أخرىٰ سواه؟ فعلم أن إلهية ما سواه باطلة، كما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم وشهادتكم.

ومن قال: المعنىٰ «هل مع الله إله آخر»؟ من غير أن يكون المعنىٰ «فعل هذا»، فقوله ضعيف لوجهين:

أحدهما: أنهم كانوا يقولون: مع الله آلهة أخرىٰ، ولا ينكرون ذلك.

الثاني: أنه لا يتم الدليل، ولا يحصل إفحامهم وإقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير، أي فإذا كنتم تقولون: إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله، فكيف تجعلون معه إلها آخر، لا يخلق شيئا وهو عاجز، وهذا كقوله: ﴿ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟

---

(١) ٤١٢ مدارج جـ١.

كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦] وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١].

[1]قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩] قال ابن عباس في رواية أبي مالك: هم أصحاب محمد ﷺ والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [فاطر: ٣٢] وحقيقة الاصطفاء افتعال من التصفية، فيكون قد صفاهم من الأكدار والخطأ من الأكدار، فيكونون مصفين منه، ولا ينتقض هذا بما إذا اختلفوا، لأن الحق لم يعدهم، فلا يكون قول بعضهم كدرًا، لأن مخالفته الكدر، وبيانه يزيل كونه كدرًا. بخلاف ما إذا قال بعضهم قولا، ولم يخالف فيه فلو كان باطلًا ولم يرده راد لكان حقيقة الكدر، وهذا لأن خلاف بعضهم لبعض بمنزلة متابعة النبي ﷺ في بعض أموره، فإنها لا تخرجه عن حقيقة الاصطفاء.

***

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

...[2]الله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية.

فأما التوكل والعبادة، فقد جمع بينهما في سبعة مواضع من كتابه[3].

أحدها: في سورة أُم القرآن، فقال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥].

والثاني: قوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨].

---

(١) ١٣١ أعلام جـ١.

(٢) ٢٥٥ طريق الهجرتين.

(٣) ذكرها في طريق الهجرتين (ص ٥٦) سبعة، وكذا في إغاثة اللهفان (١/ ٢٧) وعدها سبعة، وزاد فيها قول الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] فيكون العدد تقريبًا لا حصرًا. (ج).

الثالث: قوله حكاية عن أوليائه وعباده المؤمنين أنهم قالوا: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

الرابع: قوله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل:٨-٩].

الخامس: قوله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

السادس: قوله: ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٨].

السابع: قوله: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٠].

فهذه السبعة المواضع جمعت الأصلين: التوكل وهو الوسيلة، والإنابة وهي الغاية، فإن العبد لا بد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية، فأشرف غاياته التي لا غاية له أجل منها عبادة ربه، والإنابة إليه. وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها البتة التوكل على الله والاستعانة به، ولا سبيل له إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل.

وأما الجمع بين الإيمان والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، ونظيره قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢١].

وأما الجمع بين التوكل والإسلام ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤].

وأما الجمع بين التقوى والتوكل، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١ - ٣]، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢- ٣].

وأما الجمع بين التوكل والهداية ففي مثل قول الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم:١٢]، وقال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩]، فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل مصحح له مستدع لثبوته وتحققه، وهو قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾، فإن كون العبد علىٰ الحق يقتضي تحقيق مقام التوكل علىٰ الله، والاكتفاء به، والإيواءَ إلىٰ ركنه الشديد، فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق وناصره ومؤيده، وكافي من قام به، فما لصاحب الحق أن لا يتوكل عليه؟ وكيف يخاف وهو علىٰ الحق؟ كما قالت الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢]، فعجبوا من تركهم التوكل علىٰ الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبداً. وهذا دليل علىٰ أن الهداية والتوكل متلازمان: فصاحب الحق - لعلمه بالحق ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره - مضطر إلىٰ توكله علىٰ الله لا يجد بداً من توكله. فإن التوكل يجمع أصلين: علم القلب وعمله. أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. وأما عمله: فسكونه إلىٰ وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليمه أَمره إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه. فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جُماعه، وإن كان التوكل دخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب، ولكن لا بد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزءٌ من ماهيته.

والمقصود: أن القلب متىٰ كان علىٰ الحق كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل علىٰ ربه؟ وإذا كان علىٰ الباطل علماً وعملاً أو أحدهما لم يكن مطمئناً واثقاً بربه، فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده، فإن الله لا يتولىٰ الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه، فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه

سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله حق. ليس في أفعاله شيء باطل، بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أقواله كذلك، فلما كان الباطل لا يتعلق به، بل هو مقطوع البتة كان صاحبه كذلك. ومن لم يكن له تعلق بالله العظيم، وكان منقطعاً عن ربه لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله. فتدبر هذا السر العظيم في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدىٰ وارتباط أحدهما بالآخر، ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية. إلخ[1].

***

﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

[2]وقد أطلق سبحانه علىٰ فعله اسم الصنع، فقال: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨] وهو منصوب علىٰ المصدر، لأن قوله تعالىٰ: ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨] يدل علىٰ الصنعة، وقيل: هو نصب علىٰ المفعولية، أي انظروا صنع الله، فعلىٰ الأول يكون صنع الله مصدرًا بمعنىٰ الفعل، وعلىٰ الثاني يكون بمعنىٰ المصنوع المفعول؛ فإنه الذي يمكن وقوع النظر والرؤية عليه...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة النمل

والحمد لله رب العالمين



---

(١) البقية موجودة في سورة إبراهيم (ج).

(٢) ١٣٢ شفاء.

سُورَةُ القَصَصِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ۝ ﴾.

[1]هذا الجراد نثرة حوت من حيتان البحر ينثره من منخريه، وهو جند من جنود الله ضعيف الخلقة، عجيب التركيب، فيه خلق سبع حيوانات، فإذا رأيت عساكره قد أقبلت أبصرت جندا لا مرد له، ولا يحصى منه عدد ولا عدة، فلو جمع الملك خيله ورجله ودوابه وسلاحه ليصده عن بلاده لما أمكنه ذلك.

فانظر كيف ينساب على الأرض كالسيل، فيغشى السهل والجبل والبدو والحضر، حتى يستر نور الشمس بكثرته، ويسد وجه السماء بأجنحته، ويبلغ من الجو إلى حيث لا يبلغ طائر أكبر جناحين منه، فسل المعطل: من الذي بعث هذا الجند الضعيف الذي لا يستطيع أن يرد عن نفسه حيوانا رام أخذه بلية على العسكر أهل القوة والكثرة والعدد والحيلة؟ فلا يقدرون بأجمعهم على دفعه، بل ينظرون إليه يستبد بأقواتهم دونهم، ويمزقها كل ممزق، ويذر الأرض قفرًا منها، وهم لا يستطيعون أن يردوه، ولا يحولوا بينه وبينها.

وهذا من حكمته سبحانه أن يسلط الضعيف من خلقه الذي لا مؤنة له على القوى، فينتقم به منه، وينزل به ما كان يحذره منه، حتى لا يستطيع لذلك ردًا ولا صرفًا، قال الله تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴾ [القصص: ٦] فواحسرتاه على استقامة مع الله وإيثار

---

(١) ٢٥٢ المفتاح جـ١.

لمرضاته في كل حال، يمكن به الضعيف المستضعف حتى يرى من استضعفه أنه أولى بالله ورسوله منه، ولكن اقتضت حكمة الله العزيز الحكيم أن يأكل الظالم الباغي، ويتمتع في خفارة ذنوب المظلوم المبغي عليه، فذنوبه من أعظم أسباب الرحمة في حق ظالمه، كما أن المسئول إذا رد السائل فهو في خفارة كذبه، ولو صدق السائل لما أفلح من رده، وكذلك السارق وقاطع الطريق في خفارة منع أصحاب الأموال حقوق الله فيها، ولو أدوا ما لله عليهم فيها لحفظها الله عليهم.

وهذا أيضًا باب عظيم من حكمة الله يطلع الناظر فيه على أسرار من أسرار التقدير وتسليط العالم بعضهم على بعض وتمكين الجناة والبغاة فسبحان من له في كل شيء حكمة بالغة وآية باهرة حتى أن الحيوانات العادية على الناس في أموالهم وأرزاقهم وأبدانهم تعيش في خفارة ما كسبت أيديهم ولولا ذلك لم يسلط عليهم منها شيء.

ولعل هذا الفصل الاستطرادي أنفع لمتأمله من كثير من الفصول المتقدمة، فإنه إذا أعطاه حقه من النظر والفكر عظم انتفاعه به جدًّا، والله الموفق. ويحكى أن بعض أصحاب الماشية كان يشوب اللبن ويبيعه على أنه خالص، فأرسل الله عليه سيلًا فذهب بالغنم، فجعل يعجب، فأُتِيَ في منامه، فقيل له: أتعجب من أخذ السيل غنمك؟! إنه تلك القطرات التي شبت بها البن اجتمعت وصارت سيلا، فقس على هذه الحكاية ما تراه في نفسك وفي غيرك، تعلم حينئذ أن الله قائم بالقسط، وأنه قائم على كل نفس بما كسبت، وأنه لا يظلم مثقال ذرة.

والأثر الإسرائيلي معروف: أن رجلًا كان يشوب الخمر ويبيعه على أنه خالص، فجمع من ذلك كيس ذهب وسافر به، فركب البحر ومعه قرد له، فلما نام أخذ القرد الكيس، وصعد به إلى أعلى المركب، ثم فتحه، فجعل يلقيه دينارا في الماء، ودينارا في المركب[1]. كأنه يقول له بلسان الحال. ثمن الماء صار إلى الماء ولم يظلمك.

---

(١) أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: إن رجلًا كان يبيع الخمر في سفينة، ومعه في السفينة قرد، فكان يشوب الخمر بالماء. قال: فأخذ القرد الكيس، ثم صعد به فوق الدقل. قال: فجعل
=

وتأمل حكمة الله ﷻ في حبس الغيث عن عباده، وابتلائهم بالقحط إذا منعوا الزكاة وحرموا المساكين، كيف جُوزوا على منع ما للمساكين قبلهم من القوت بمنع الله مادة القوت والرزق، وحبسها عنهم، فقال لهم بلسان الحال: منعتم الحق فمنعتم الغيث، فهلا استنزلتموه ببذل ما لله قبلكم.

وتأمل حكمة الله تعالى في صرفه الهدى والإيمان عن قلوب الذين يصرفون الناس عنه، فصدهم عنه كما صدوا عباده، صدًّا بصدٍّ ومنعًا بمنعٍ.

وتأمل حكمته تعالى في محق أموال المرابين وتسليط المتلفات عليها، كما فعلوا بأموال الناس، ومحقوها عليهم، وأتلفوها بالربا، جوزوا إتلافًا بإتلاف، فقل أن ترى مرابيا إلا وآخرته إلى محق وقلة وحاجة.

وتأمل حكمته تعالى في تسليط العدو على العباد إذا جار قويهم على ضعيفهم، ولم يؤخذ للمظلوم حقه من ظالمه، كيف يسلط عليهم من يفعل بهم كفعلهم برعاياهم وضعفائهم سواء، وهذه سنة الله تعالى منذ قامت الدنيا إلى أن تطوى الأرض، ويعيدها كما بدأها.

وتأمل حكمته تعالى في أن جعل ملوك العباد وأمراءهم وولاتهم من جنس أعمالهم، بل كأن أعمالهم ظهرت في صور ولاتهم وملوكهم، فإن استقاموا استقامت ملوكهم، وإن عدلوا عدلت عليهم، وإن جاروا جارت ملوكهم وولاتهم، وإن ظهر فيهم المكر والخديعة فولاتهم كذلك، وإن منعوا حقوق الله لديهم وبخلوا بها منعت

= يطرح دينارًا في البحر ودينارًا في السفينة، حتى قسمه. أخرجه أحمد (٢/ ٤٠٧) وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وأخرجه أيضًا الحارث بن أبي أسامة (رقم ٤٢٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٨٢٦ رقم ٢٨٤٤).

ولما قرأت هذا الحديث منذ سنين طويلة، استوحيت منه قصة طريفة للأطفال، سميتها: «حتى القرود تكره الغش» وهي من منشورات دار المسلم بالرياض، ولله الحمد والمنة فقد حازت إعجاب الكثير من الأطفال وأولياء أمورهم وكثير من التربويين، وانتفع بها كل من قرأها أو وقف عليها، أسأل الله أن يصلح ذريتي وذرية جميع المسلمين.

ملوكهم وولاتهم ما لهم عندهم من الحق، وبخلوا بها عليهم، وإن أخذوا ممن يستضعفونه مالا يستحقونه في معاملتهم، أخذت منهم الملوك مالا يستحقونه، وضربت عليهم المكوس والوظائف، وكل ما يستخرجونه من الضعيف يستخرجه الملوك منهم بالقوة، فعمالهم ظهرت في صور أعمالهم، وليس في الحكمة الإلهية أن يولى على الأشرار الفجار إلا من يكون من جنسهم.

ولما كان الصدر الأول خيار القرون وأبرها كانت ولاتهم كذلك، فلما شابوا شيب لهم الولاة، فحكمة الله تأبى أن يولي علينا في مثل هذه الأزمان مثل معاوية وعمر بن عبد العزيز، فضلًا عن مثل أبي بكر وعمر، بل ولاتنا على قدرنا، وولاة من قبلنا على قدرهم، وكل من الأمرين موجب الحكمة ومقتضاها، ومن له فطنة إذا سافر بفكره في هذا الباب رأى الحكمة الإلهية سائرة في القضاء والقدر: ظاهرة وباطنة فيه، كما في الخلق والأمر سواء، فإياك أن تظن بظنك الفاسد أن شيئًا من أقضيته وأقداره عار عن الحكمة البالغة، بل جميع أقضيته تعالى وأقداره واقعة على أتم وجوه الحكمة والصواب، ولكن العقول الضعيفة محجوبة بضعفها عن إدراكها، كما أن الأبصار الخفاشية محجوبة بضعفها عن ضوء الشمس، وهذه العقول الضعاف إذا صادفها الباطل جالت فيه وصالت، ونطقت وقالت، كما أن الخفاش إذا صادفه ظلام الليل طار وسار.

خفافيش أعشاها النهار بضوئه... ولازمها قطع من الليل مظلم[1]

وتأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن﴾ مَّسَٰكِنِهِمْ إلى قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨-٤٠].

وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك

(١) هذا البيت من بحر الطويل ذكره الشنقيطي في أضواء البيان (١/ ٦١) (٧/ ٢٦٣).

الجرائم، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها، اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها، لتتم المناسبة ويكمل الشبه وهذا غاية الحكمة، واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير، كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم، كيف تراها بادية عليها، وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق، الذين لا عقول لهم، بل هم أخف الناس عقولا وأعظمهم مكرًا وخداعًا وفسقًا، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين، واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم، ولاسيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة، يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه، فإن الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعًا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعة فيبادر إليه، فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة، كيف تجده منطبقا عليهم، فإنهم عمدوا إلى أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم من النصارى واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان على حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم، فأي شبه ومناسبة أولى بهذا الضرب من الخنازير، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين.

وأما الأخبار التي تكاد تبلغ حد التواتر بمسخ من مسخ منهم عند الموت خنزيرا، فأكثر من أن تذكر هاهنا، وقد أفرد لها الحافظ ابن عبد الواحد المقدسي كتابا، وتأمل حكمته تعالى في عذاب الأمم السالفة بعذاب الاستئصال لما كانوا أطول أعمارًا، وأعظم قوى، وأعتى على الله وعلى رسوله، فلما تقاصرت الأعمار وضعفت القوى رفع عذاب الاستئصال، وجعل عذابهم بأيدي المؤمنين، فكانت الحكمة في كل واحد

من الأمرين ما اقتضته في وقته.

وتأمل حكمته تبارك وتعالىٰ في إرسال الرسل في الأمم واحدًا بعد واحد، كلما مات واحد خلفه آخر لحاجتها إلىٰ تتابع الرسل والأنبياء، لضعف عقولها وعدم اكتفائها بآثار شريعة الرسول السابق، فلما انتهت النبوة إلىٰ محمد بن عبد الله رسول الله ونبيه أرسله إلىٰ أكمل الأمم عقولا ومعارف، وأصحها أذهانًا، وأغزرها علومًا، وبعثه بأكمل شريعة ظهرت في الأرض منذ قامت الدنيا إلىٰ حين مبعثه، فأغنىٰ الله لأمة بكمال رسولها، وكمال شريعته، وكمال عقولها، وصحة أذهانها عن رسول يأتي بعده، أقام له من أمته ورثة يحفظون شريعته، ووكلهم بها حتىٰ يؤدوها إلىٰ نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، فلم يحتاجوا معه إلىٰ رسول آخر ولا نبي ولا محدث. ولهذا قال ﷺ: «إنه قد كان قبلكم في الأمم محدثون، فإن يكن في أمتي أحد فعمر»[1]. فجزم بوجود المحدثين في الأمم، وعلق وجوده في أمته بحرف الشرط، وليس هذا بنقصان في الأمة علىٰ من قبلهم، بل هذا من كمال أمته علىٰ من قبلها، فإنها لكمالها وكمال نبيها وكمال شريعته لا تحتاج إلىٰ محدث، بل إن وجد فهو صالح للمتابعة والاستشهاد، لا أنه عمدة، لأنها في غنية بما بعث الله به نبيها عن كل منام أو مكاشفة أو الهام أو تحديث، وأما من قبلها فللحاجة إلىٰ ذلك جعل فيهم المحدثون.

ولا تظن أن تخصيص عمر ﷺ بهذا تفضيل له علىٰ أبي بكر الصديق، بل هذا من أقوىٰ مناقب الصديق، فإنه لكمال مشربه من حوض النبوة وتمام رضاعه من ثدي الرسالة، استغنىٰ بذلك عما تلقاه من تحديث أو غيره، فالذي يتلقاه من مشكاة النبوة أتم من الذي يتلقاه عمر من التحديث، فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه من المعرفة،

---

(١) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٣١٧ رقم ٦٨٩٤) والترمذي (رقم ٣٦٩٣) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٤٧٩ رقم ١٠٥٨) وأحمد (٦/ ٥٥) والبيهقي في الشعب (٥/ ٤٨ رقم ٥٧٣٤) وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٨٨) وقال الترمذي: هذا حديث صحيح. وصححه الحاكم (٣/ ٩٢ رقم ٤٤٩٩).
والحديث أصله في الصحيحين، عند البخاري (رقم ٣٤٦٩، ٣٦٨٩) ومسلم (رقم ٢٣٩٨).

وتأمل ما فيه من الحكمة البالغة الشاهدة لله بأنه الحكيم الخبير، وأن رسول الله ﷺ أكمل خلقه وأكملهم شريعة، وأن أمته أكمل الأمم، وهذا فصل معترض وهو أنفع فصول الكتاب، ولولا الإطالة لوسعنا فيه المقال، وأكثرنا فيه من الشواهد والأمثال، ولقد فتح الله الكريم فيه الباب، وأرشد فيه إلى الصواب، وهو المرجو لتمام نعمته، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

***

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ ﴾.

[1]فهو تعليل لقضاء الله سبحانه بالتقاطه وتقديره له، فإن التقاطهم له إنما كان بقضائه وقدره، فهو سبحانه قدر ذلك وقضى به، ليكون لهم عدوا وحزنا، وذكر فعلهم دون قضائه، لأنه أبلغ في كونه حزنا لهم وحسرة عليهم، فإن من اختار أخذ ما يكون هلاكه على يديه إذا أصيب به كان أعظم لحزنه وغمه وحسرته من أن لا يكون فيه صنع ولا اختيار، فإنه سبحانه أراد أن يظهر لفرعون وقومه، ولغيرهم من خلقه كمال قدرته وعلمه وحكمته الباهرة، وأن هذا الذي يذبح فرعون الأبناء في طلبه هو الذي يتولى تربيته في حجره وبيته باختياره وإرادته، ويكون في قبضته وتحت تصرفه، فذكر فعلهم به في هذا أبلغ وأعجب من أن يذكر القضاء والقدر، وقد أعلمنا سبحانه أن أفعال عباده كلها واقعة بقضائه وقدره.

***

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

[2]أي فارغًا من كل شيء إلا من موسى، لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به.

---

(١) ١٩١ شفاء.

(٢) ٣١٩ الزاد جـ٣.

...[١]فتأمل قصة موسى وما لطف له من إخراجه في وقت ذبح فرعون للأطفال، ووحيه إلى أمه أن تلقيه في اليم، وسوقه بلطفه إلى دار عدوه، الذي قدر هلاكه على يديه، وهو يذبح الأطفال في طلبه، فرماه في بيته وحجره على فراشه، ثم قدر له سببا أخرجه من مصر، وأوصله به إلى موضع لا حكم لفرعون عليه، ثم قدر له سببا أوصله به إلى النكاح والغنى بعد العزوبة والعيلة، ثم ساقه إلى بلد عدوه، فأقام عليه به حجته، ثم أخرجه وقومه في صورة الهاربين الفارين منه، وكان ذلك عين نصرتهم على أعدائهم وإهلاكهم، وهم ينظرون، وهذا كله مما يبين أنه سبحانه يفعل ما يفعله لما يريده من العواقب الحميدة والحكم العظيمة، التي لا تدركها عقول الخلق مع ما في ضمنها من الرحمة التامة والنعمة السابغة والتعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته.

فكم في أكل آدم من الشجرة التي نُهِيَ عنها، وإخراجه بسببها من الجنة من حكمة بالغة، لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها. وكذلك ما قدره لسيد ولده من الأمور التي أوصله بها إلى أشرف غاياته، وأوصله بالطرق الخفية فيها إلى أحمد العواقب. وكذلك فعله بعباده وأوليائه يوصل إليهم نعمه، ويسوقهم إلى كمالهم وسعادتهم في الطرق الخفية، التي لا يهتدون إلى معرفتها، إلا إذا لاحت لهم عواقبها، وهذا أمر يضيق الجنان عن معرفة تفاصيله، ويحصر اللسان عن التعبير عنه.

وأعرف خلق الله به أنبياؤه ورسله، وأعرفهم به خاتمهم وأفضلهم، وأمته في العلم به على مراتبهم ودرجاتهم ومنازلهم من العلم بالله وبأسمائه وصفاته، وهو سبحانه قد أحاط علما بذلك كله قبل السماوات والأرض، وقدره وكتبه عنده، ثم يأمر ملائكته بكتابه ذلك من الكتاب الأول قبل خلق العبد، فيطابق حاله وشأنه لما كتب في الكتاب، ولما كتبته الملائكة، لا يزيد شيئا ولا ينقص مما كتبه سبحانه وأثبته عنده، كان في علمه قبل أن يكتبه ثم كتبه، كما في علمه، ثم وجد كما كتبه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ

---

(١) ٣٥ شفاء.

تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

والله سبحانه قد علم قبل أن يوجد عباده أحوالهم، وما هم عاملون، وما هم إليه صائرون، ثم أخرجهم إلىٰ هذه الدار، ليظهر معلومه الذي علمه فيهم كما علمه، وابتلاهم من الأمر والنهي والخير والشر بما أظهر معلومه، فاستحقوا المدح والذم والثواب والعقاب بما قام بهم من الأفعال والصفات المطابقة للعلم السابق، ولم يكونوا يستحقون ذلك، وهي في علمه قبل أن يعملوها، فأرسل رسله وأنزل كتبه، وشرع شرائعه إعذارا إليهم وإقامة للحجة عليهم، لئلا يقولوا: كيف تعاقبنا علىٰ علمك فينا؟ وهذا لا يدخل تحت كسبنا وقدرتنا! فلما ظهر علمه فيهم بأفعالهم حصل العقاب علىٰ معلومه الذي أظهره الابتلاء والاختبار، وكما ابتلاهم بأمره ونهيه ابتلاهم بما زين لهم من الدنيا، وبما ركب فيهم من الشهوات، فذلك ابتلاه بشرعه وأمره، وهذا ابتلاء بقضائه وقدره.

***

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾.

[1]قد أخبر سبحانه أنه هو الذي جعل أئمة الخير يدعون إلىٰ الهدىٰ، وأئمة الشر يدعون إلىٰ النار، فتلك الإمامة والدعوة بجعله، فهي مجعولة له وفعل لهم، قال تعالىٰ عن آل فرعون: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١] وقال عن أئمة الهدىٰ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] فأخبر أن هذا وهذا بجعله مع كونه كسبا وفعلا للأئمة، ونظير ذلك قول الخليل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فأخبر الخليل أنه سبحانه هو الذي يجعل المسلم مسلما، وعند القدرية هو الذي جعل نفسه مسلمًا.

---

(١) ٥٥ شفاء.

لا أن الله جعله مسلمًا، ولا جعله إماما يهدي بأمره، ولا جعل الآخر إمامًا يدعو إلى النار على الحقيقة، بل هم الجاعلون لأنفسهم كذلك حقيقة، ونسبة هذا الجعل إلى الله مجاز، بمعنى التسمية أي سمنا مسلمين لك، وكذلك جعلناهم أئمة أي سميناهم كذلك، وهم جعلوا أنفسهم أئمة رشد وضلال، فمنهم الحقيقة، ومنه المجاز والتعبير.

***

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

[(١)] أخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة، وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا، ولم ينزل عليهم كتابا، فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة، بحيث استحقوا أن يصابوا بها المصيبة، ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل، وهذا هو فصل الخطاب.

وتحقيق القول في هذا الأصل العظيم: أن القبح ثابت للفعل في نفسه، وأنه لا يعذب الله عليه إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، وهذه النكتة هي التي فاتت المعتزلة والكلابية كليهما، فاستطالت كل طائفة منهما على الأخرى، لعدم جمعهما بين هذين الأمرين، فاستطالت الكلابية على المعتزلة بإثباتهم العذاب قبل إرسال الرسل وترتيبهم العقاب على مجرد القبح العقلي، وأحسنوا في رد ذلك عليهم. واستطالت المعتزلة عليهم في إنكارهم الحسن والقبح العقليين جملة، وجعلهم انتفاء العذاب قبل البعثة دليلا على انتفاء القبح، واستواء الأفعال في أنفسها، وأحسنوا في رد هذا عليهم، فكل طائفة استطالت على الأخرى بسبب إنكارها الصواب، وأما من سلك هذا

---

(١) ٧ المفتاح جـ٢.

المسلك الذي سلكناه فلا سبيل لواحدة من الطائفتين إلى رد قوله ولا الظفر عليه أصلا، فإنه موافق لكل طائفة على ما معها من الحق مقرر له، مخالف في باطلها منكر له، وليس مع النفاة قط دليل واحد صحيح على نفي الحسن والقبح العقليين، وأن الأفعال المتضادة كلها في نفس الأمر سواء لا فرق بينها إلا بالأمر والنهي وكل أدلتهم على هذا باطلة كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى، وليس مع المعتزلة دليل واحد صحيح قط يدل على إثبات العذاب على مجرد القبح العقلي قبل بعثة الرسل، وأدلتهم على ذلك كلها باطلة، كما سنذكرها ونذكر بطلانها إن شاء الله تعالى، ومما يدل على ذلك أيضا أنه سبحانه يحتج على فساد مذهب من عبد غيره بالأدلة العقلية، التي تقبلها الفطر والعقول، ويجعل ما ركبه في العقول من حسن عبادة الخالق وحده، وقبح عبادة غيره من أعظم الأدلة على ذلك، وهذا في القرآن أكثر من أن يذكر ههنا، ولولا أنه مستقر في العقول والفطر حسن عبادته وشكره وقبح عبادة غيره وترك شكره، لما احتج عليهم بذلك أصلا، وإنما كانت الحجة في مجرد الأمر، وطريقة القرآن صريحة في هذا.

[1]وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧].

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم سبب لإصابة المصيبة إياهم، وأنه سبحانه أرسل رسوله وأنزل كتابه، لئلا يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾! فدلت الآية على بطلان قول الطائفتين جميعًا، الذين يقولون إن أعمالهم قبل البعثة ليست قبيحة لذاتها، بل إنما قبحت بالنهي فقط.

والذين يقولون إنها قبيحة ويستحقون عليها العقوبة عقلا بدون البعثة، فنظمت الآية بطلان قول الطائفتين، ودلت على القول الوسط الذي اخترناه ونصرناه أنها قبيحة

---

(١) ١١٣ المفتاح جـ٢.

في نفسها، ولا يستحقون العقاب إلا بعد إقامة الحجة بالرسالة، فلا تلازم بين ثبوت الحسن والقبح العقليين وبين استحقاق الثواب والعقاب فالأدلة إنما اقتضت ارتباط الثواب والعقاب بالرسالة وتوقفهما عليها، ولم تقتض توقف الحسن والقبح بكل اعتبار عليها، وفرق بين الأمرين.

***

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

[(١)] قسم الأمر إلى أمرين لا ثلاث لهما، إما الاستجابة لله والرسول وما جاء به، وإما اتباع الهوى، فكل ما لم يأت به الرسول فهو من الهوى.

وقال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦] فقسَّم سبحانه طريق الحكم بين الناس إلى الحقِّ، وهو الوحي الذي أنزله الله على رسوله، وإلى الهوى وهو ما خالفه.

وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩] فقسم الأمر بين الشريعة التي جعله هو سبحانه عليها، وأوحى إليه العمل بها، وأمر الأمة بها، وبين اتباع أهواء الذين لا يعلمون، فأمر بالأول، ونهى عن الثاني.

...[(٢)] وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هدى من الله أنه أظلم الظالمين، فقال الله ﷻ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ

---

(١) ٤٧ الإعلام جـ١.

(٢) ٤٣٠ الروضة.

بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠] وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدي من اتبع هواه، وجعل ﷺ المتبع قسمين لا ثالث لهما: إما ما جاء به الرسول ﷺ وإما الهوى، فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر، والشيطان يطيف بالعبد من أين يدخل عليه، فلا يجد عليه مدخلًا، ولا إليه طريقًا إلا من هواه، فلذلك كان الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله، وإنما تطاق مخالفة الهوى بالرغبة في الله وثوابه، والخشية من حجابه وعذابه، ووجد حلاوة الشفاء في مخالفة الهوى، فإن متابعته الداء الأكبر ومخالفته الشفاء الأعظم. وقيل لأبي القاسم الجنيد: متى تنال النفوس مناها؟ فقال: إذا صار داؤها دواها. فقيل له: ومتى يصير داؤها دواها؟ فقال: إذا خالفت هواها[1]. ومعنى قوله يصير داؤها دواها: أن داءها هو الهوى، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته.

وقيل: إنما سمي هوى لأنه يهوى بصاحبه إلى أسفل السافلين، والهوى ثلاثة أرباع الهوان، وهو شارع النار الأكبر، كما أن مخالفته شارع الجنة الأعظم.

...[2]الخامس عشر: أن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى، فإنه ما أطاع أحد هواه قط إلا وجد في نفسه ذلا، ولا يغتر بصولة أتباع الهوى وكبرهم، فهم أذل الناس بواطن، قد أجمعوا بين فصيلتي الكبر والذل.

السادس عشر: أن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه، ونيل اللذة المطلوبة، فإنه لا يجد بينهما نسبة البتة، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا.

السابع عشر: أن يأنف لنفسه أن يكون تحت قهر عدوه، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمة وهمة وميلًا إلى هواه طمع فيه وصرعه، وألجمه بلجام الهوى، وساقه حيث أراد، ومتى أحس منه بقوة عزم وشرف نفس وعلو همة لم يطمع فيه إلا

---

(١) أخرجه بنحوه البيهقي في الزهد الكبير (رقم ٣٢٤).
(٢) ٥٠٦ الروضة.

اختلاسًا وسرقة.

الثامن عشر: أن يعلم أن الهوىٰ ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلىٰ البدعة والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلىٰ الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلىٰ الظلم وصده عن الحق وإن وقع في القسمة خرجت عن قسمة العدل إلىٰ قسمة الجور، وإن وقع في الولاية والعزل أخرج صاحبه إلىٰ خيانة الله والمسلمين، حيث يولي بهواه، ويعزل بهواه وإن وقع في العبادة خرجت عن أن تكون طاعة وقربة، فما قارن شيئًا إلا أفسده.

التاسع عشر: أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخل علىٰ ابن آدم إلا من باب هواه، فإنه يطيف به من أين يدخل عليه حتىٰ يفسد عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلا إلا من باب الهوىٰ، فيسري معه سريان السم في الأعضاء.

العشرون: أن الله ﷻ جعل الهوىٰ مضادا لما أنزله علىٰ رسوله، وجعل اتباعه مقابلًا لمتابعة رسله، وقسم الناس إلىٰ قسمين: أتباع الوحي وأتباع الهوىٰ، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠] ونظائره.

الحادي والعشرون: أن الله ﷻ شبه أتباع الهوىٰ بأخس الحيوانات صورة ومعنىٰ، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦]، وبالحمر تارة كقوله تعالىٰ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١]، وقلَّب صورهم إلىٰ صورة القردة والخنازير تارة[1].

***

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ۝ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا

(١) ١٠٢ المفتاح جـ١.

صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

...[1]قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٤٦] ونظائرها نظر، فإن الله تعالى حيث قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ لم يكونوا إلا ممدوحين مؤمنين، وإذا أراد ذمهم والأخبار عنهم بالعناد وإيثار الضلال أتى بلفظ الذين أوتوا الكتاب مبنيًّا للمفعول، فالأول كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وكقوله تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤] فهذا في سياق مدحهم والاستشهاد بهم ليس في سياق ذمهم والإخبار بعنادهم وجحودهم، كما استشهدهم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٤٣] وفي قوله: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢١] واختلف في الضمير في ﴿ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ فقيل: هو ضمير الكتاب الذي أوتوه، قال ابن مسعود: يحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويقرؤنه كما أنزل، ولا يحرفونه عن مواضعه[2]، قالوا: وأنزلت في مؤمني أهل الكتاب.

وقيل: هذا وصف للمسلمين، والضمير في يتلونه للكتاب الذي هو القرآن، وهذا

---

(١) أوصلها المؤلف رحمه الله إلى خمسين، وبها ختم الكتاب (ج).

(٢) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (رقم ٣٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وكذا الحاكم (٢/ ٢٩٢ رقم ٣٠٥٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

بعيد إذا عرف أن القرآن يأباه، ولا يرد على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦] بل هذا حجة لنا أيضًا لما ذكرنا، فإنه أخبر في الأول عن معرفتهم برسوله ﷺ ودينه وقبلته، كما يعرفون أبناءهم استشهادًا بهم على من كفر وثناء عليهم، ولهذا ذكر المفسرون أنهم عبد الله بن سلام وأصحابه، وخص في آخر الآية بالذم طائفة منهم، فدل على أن الأولين غير مذمومين وكونهم دخلوا في جملة الأولين بلفظ المضمر لا يوجب أن يقال: آتيناهم الكتاب عند الإطلاق، فإنهم دخلوا في هذا اللفظ ضمنا وتبعا، فلا يلزم تناوله لهم قصدًا واختيارًا، وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ﴾ [الأنعام: ١٩، ٢٠].

قيل: الرسول وصدقه، وقيل: المذكور هو التوحيد، والقولان متلازمان إذ ذلك في معرض الاستشهاد والاحتجاج على المشركين، لا في معرض ذم الذين آتاهم الكتاب، فإن السورة مكية، والحجاج كان فيها مع أهل الشرك، والسياق يدل على الاحتجاج لا ذم المذكورين من أهل الكتاب. وأما الثاني فكقوله: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٦] فهذا شهادته سبحانه للذين أوتوا الكتاب، والأول شهادته للذين آتاهم الكتاب بأنهم يؤمنون.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ [النساء: ٤٧] وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وهذا خطاب لمن لم يسلم منهم، وإلا فلم يؤمر ﷺ أن يقول هذا لمن أسلم منهم وصدق به، ولهذا لا يذكر سبحانه الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب إلا بالذم أيضًا، كقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ

ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١] وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [النساء: ٤٤]. وقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣].

فالأقسام أربعة: الذين آتيناهم الكتاب، وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح، والذين أوتوا نصيبًا من الكتاب، لا يكون قط إلا في معرض الذم، والذين أوتوا الكتاب أعم منه، فإنه قد يتناولهما، ولكن لا يفرد به الممدوحون قط، ويا أهل الكتاب يعم الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم كقوله: ﴿ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ ﴾ [آل عمران: ١١٣، ١١٤]. وقال في الذم: ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ [البينة: ١].

وهذا الفصل ينتفع به جدا في أكبر مسائل أصول الإسلام، وهي مسألة الإيمان واختلاف أهل القبلة فيه، وقد ذكرنا فيه نكتًا حسانًا، يتضح بها الحق في المسألة، والله أعلم.

...[(١)]قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلموه، وقبالتهم رجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله، وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب؟! بعثكم من ورائكم من أهل دينكم

---

(١) ٢٦ هداية الحيارى.

ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال!، ما نعلم ركباً أحمق منكم أو كما قالوا، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل من أنفسنا خيراً. ويقال: إن النفر من النصارى من أهل نجران، ويقال: فيهم نزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ ﴾ إلى قوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥]. وقال الزهري: مازلت أسمع من علمائنا أنهن نزلن في النجاشي وأصحابه[١].

***

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝ ﴾.

...[٢]قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] فأثبت هداية الدعوة والبيان، ونفى هداية التوفيق والإلهام، وقال النبي ﷺ في تشهد الحاجة: «**من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له**»، وقال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾ [النحل: ٣٧] أي من يضله الله لا يهتدي أبدًا، وهذه الهداية الثالثة، هي الهداية الموجبة المستلزمة للاهتداء، وأما الثانية فشرط لا موجب، فلا يستحيل تخلف الهدى عنها بخلاف الثالثة، فإن تخلف الهدى عنها مستحيل. المرتبة الرابعة: الهداية في الآخرة إلى طريق الجنة والنار.

قال تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣] وأما قول أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٤٣] فيحتمل أن

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٥) والبداية والنهاية (٣/ ٨٢) وتفسير القرطبي (٦/ ٢٥٦).

(٢) ٨٥ المفتاح جـ١.

يكونوا أرادوا الهداية إلىٰ طريق الجنة وأن يكونوا أرادوا الهداية في الدنيا التي أوصلتهم إلىٰ دار النعيم ولو قيل: إن كلا الأمرين مراد لهم وأنهم حمدوا الله علىٰ هدايته لهم في الدنيا وهدايتهم إلىٰ طريق الجنة كان أحسن وابلغ وقد ضرب الله تعالىٰ لمن لم يحصل له العلم بالحق واتباعه مثلًا مطابقًا لحاله فقال تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

...[1]اعلم أن القلب إذا خلىٰ من الاهتمام بالدنيا والتعلق بما فيها من مال أو رياسة أو صورة، وتعلق بالآخرة والاهتمام بها من تحصيل العدة والتأهب للقدوم علىٰ الله ﷻ، فذلك أول فتوحه وتباشير فجره، فعند ذلك يتحرك قلبه لمعرفة ما يرضىٰ به ربه منه، فيفعله ويتقرب به إليه. وما يسخطه منه فيجتنبه، وهذا عنوان صدق إرادته، فإن كل من أيقن بلقاء الله، وأنه سائله عن كلمتين، يسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ لا بد أن يتنبه لطلب معرفة معبوده، والطريق الموصلة إليه، فإذا تمكن في ذلك فتح له باب الأنس بالخلوة والوحدة والأماكن الخالية، التي تهدأ فيها الأصوات والحركات، فلا شيء أشوق إليه من ذلك، فإنها تجمع عليه قوىٰ قلبه وإرادته، وتسد عليه الأبواب التي تفرق همه وتشتت قلبه، فيأنس بها ويستوحش من الخلق.

ثم يفتح له باب حلاوة العبادة بحيث لا يكاد يشبع منها، ويجد فيها من اللذة والراحة أضعاف ما كان يجده في لذة اللهو واللعب ونيل الشهوات، بحيث إنه إذا دخل في الصلاة ود أن لا يخرج منها، ثم يفتح له باب حلاوة استماع كلام الله. فلا يشبع منه، وإذا سمعه هدأ قلبه به، كما يهدأ الصبي إذا أعطي ما هو شديد المحبة له،

(١) ٣٧٩ المدارج جـ٣.

ثم يفتح له باب شهود عظمة الله المتكلم به وجلاله، وكمال نعوته وصفاته، وحكمته ومعاني خطابه، بحيث يستغرق قلبه في ذلك، حتى يغيب فيه، ويحس بقلبه وقد دخل في عالم آخر غير ما الناس فيه.

ثم يفتح له باب الحياء من الله، وهو أول شواهد المعرفة، وهو نور يقع في القلب، يريه ذلك النور أنه واقف بين يدي ربه ﷻ، فيستحي منه في خلواته وجلواته، ويرزق عند ذلك دوام المراقة للرقيب، ودوام التطلع إلى حضرة العلي الأعلى، حتى كأنه يراه ويشاهده فوق سمواته، مستويا على عرشه، ناظرا إلى خلقه، سامعا لأصواتهم، مشاهدا لبواطنهم، فإذا استولى عليه هذا الشاهد غطى عليه كثيرًا من الهموم بالدنيا وما فيها، فهو في وجود، والناس في وجود آخر، هو في وجود بين يدي ربه ووليه ناظرًا إليه بقلبه، والناس في حجاب عالم الشهادة في الدنيا، فهو يراهم وهم لا يرونه، ولا يرون منه إلا ما يناسب عالمهم ووجودهم.

ثم يفتح له باب الشعور بمشهد القيومية، فيرى سائر التقلبات الكونية وتصاريف الوجود بيده سبحانه وحده، فيشهده مالك الضر والنفع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة، فيتخذه وحده وكيلا، ويرضى به ربًّا ومدبرًا وكافيًا. وعند ذلك إذا وقع نظره على شيء من المخلوقات دله على خالقه وبارئه وصفات كماله ونعوت جلاله، فلا يحجبه خلقه عنه سبحانه، بل يناديه كل من المخلوقات بلسان حاله: اسمع شهادتي لمن أحسن كل شيء خلقه، فأنا صنع الله الذي أتقن كل شيء.

***

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

[1]أي سبحانه المتفرد بالخلق والاختيار مما خلق، وهو الاصطفاء والاجتباء.

---

(١) ٣١ شفاء.

ولهذا كان الوقف التام عند قوله: (ويختار) ثم نفى عنهم الاختيار الذي اقترحوه بإرادتهم، وأن ذلك ليس إليهم، بل إلى الخلاق العليم الذي هو أعلم بمحالّ الاختيار ومواضعه لا من قال: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، فأخبر سبحانه أنه لا يبعث الرسل باختيارهم، وأن البشر ليس لهم أن يختاروا على الله بل هو الذي يخلق ما يشاء ويختار، ثم نفى سبحانه أن تكون لهم الخيرة، كما ليس لهم الخلق.

ومن زعم أن ما مفعول يختار فقد غلط، إذ لو كان هذا هو المراد لكانت الخيرة منصوبة على أنها خبر كان، ولا يصح المعنى: ما كان لهم الخيرة فيه وحذف العائد، فإن العائد ههنا مجرور بحرف لم يجر الموصول بمثله، فلو حذف مع الحرف لم يكن عليه دليل، فلا يجوز حذفه، وكذلك لم يفهم معنى الآية من قال: إن الاختيار ههنا هو الإرادة، كما يقوله المتكلمون أنه سبحانه فاعل بالاختيار، فإن هذا الاصطلاح حادث منهم، لا يحمل عليه كلام الله، بل لفظ الاختيار في القرآن مطابق لمعناه في اللغة، وهو اختيار الشيء على غيره، وهو يقتضي ترجيح ذلك المختار وتخصيصه وتقديمه على غيره، وهذا أمر أخص من مطلق الإرادة والمشيئة.

قال في الصحاح: الخيرة الاسم من قولك خار الله لك في هذا الأمر، والخيرة أيضا يقول محمد خيرة الله من خلقه، وخيرة الله أيضًا بالتسكين. والاختيار الاصطفاء، وكذلك التخيير والاستخارة طلب الخيرة، يقال: استخر الله يخر لك. وخيرته بين الشيئين: فوَّضت إليه الاختيار، انتهى. فهذا هو الاختيار في اللغة، وهو أخص مما اصطلح عليه أهل الكلام، ومن هذا قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله تعالى: ﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي اختار منهم. وبهذا يحصل جواب السؤال الذي تورده القدرية يقولون في الكفر والمعاصي: هل هي واقعة باختيار الله أم بغير اختياره؟ فإن قلتم باختياره فكل مختار مرضي مصطفى محبوب،

فتكون مرضية محبوبة له، وإن قلتم بغير اختياره لم يكن بمشيئته واختياره.

وجوابه أن يقال: ما تعنون بالاختيار [أهو] العام في اصطلاح المتكلمين وهو المشيئة والإرادة. أم تعنون به الاختيار الخاص الواقع في القرآن والسنة وكلام العرب؟ وإن أردتم بالاختيار الأول فهي واقعة باختياره بهذا الاعتبار، لكن لا يجوز أن يطلق ذلك عليها لما في لفظ الاختيار من معنى الاصطفاء والمحبة، بل يقال: واقعة بمشيئته وقدرته، وإن أردتم بالاختيار معناه في القرآن ولغة العرب، فهي غير واقعة باختياره بهذا المعنى، وإن كانت واقعة بمشيئته، فإن قيل فهل تقولون: إنها واقعة بإرادته أم لا تطلقون ذلك. قيل: لفظ الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة كونية شاملة لجميع المخلوقات كقوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: ١٦] وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] ونظائر ذلك، وإرادة دينية أمرية لا يجب وقوع مرادها كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، فهي مرادة بالمعنى الأول، غير مرادة بالمعنى الثاني.

وكذلك إن قيل: هل هي واقعة بإذنه أم لا؟ والإذن أيضًا نوعان: كوني كقوله: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وديني أمري كقوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ [يونس: ٥٩] وقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]. ولفظ الاختيار مشتق من الخير المخالف للشر، ولما كان الأصل في الحي أنه يريد ما ينفعه، وما هو خير سميت الإرادة اختيارًا، وهذا يتضمن: أن الإرادة لا ترجح نوعا على نوع، إلا لمرجح رجح ذلك النوع عند الفاعل، والمقصود أنه يذكر العلم عند التخصيصات كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَـٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الدخان: ٣٢]، لا خلاف بين الناس أن المعنى على علم منا بأنهم أهل الاختيار، فالجملة في موضع نصب على الحال، أي اخترناهم عالمين بهم وبأحوالهم، وما يقتضي اختيارهم من

قبل خلقهم، ذكر سبحانه اختيارهم وحكمته في اختياره إياهم، وذكر علمه الدال على مواضع حكمته واختياره.

...[1] الله ﷻ هو المنفردُ بالخلق والاختيار من المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وليس المراد هاهنا بالاختيار الإرادة التي يُشير إليها المتكلمون بأنه الفاعل المختار، وهو سبحانه كذلك، ولكن ليس المرادُ بالاختيار هاهنا هذا المعنى، وهذا الاختيار داخل في قوله: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾، فإنه لا يخلُق إلا باختياره، وداخل في قوله تعالى: ﴿مَا يَشَآءُ﴾، فإن المشيئة هي الاختيارُ.

وإنما المرادُ بالاختيار هاهنا: الاجتباء والاصطفاء، فهو اختيارٌ بعدَ الخلق، والاختيارُ العام اختيارٌ قبل الخلق، فهو أعم وأسبق، وهذا أخصُّ، وهو متأخر، فهو اختيارٌ من الخلق، والأول اختيارٌ للخلق. وأصحُّ القولين أن الوقف التام على قوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ ويكون ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ نفياً، أي: ليس هذا الاختيار إليهم، بل هو إلى الخالق وحده، فكما أنه المنفرد بالخلق، فهو المنفرد بالاختيار منه، فليس لأحد أن يخلق، ولا أن يختار سواه، فإنه سبحانه أعلم بمواقع اختياره، وَمَحَالِّ رضاه، وما يصلُح للاختيار مما لا يصلح له، وغيرُه لا يُشاركه في ذلك بوجه.

وذهب بعض من لا تحقيق عنده، ولا تحصيل إلى أن ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ موصولة، وهي مفعول ﴿وَيَخْتَارُ﴾، أي: ويختار الذي لهم الخيرة، وهذا باطل من وجوه:

أحدُها: أن الصلة حينئذٍ تخلو من العائد، لأن ﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾ مرفوع لأنه اسم ﴿كَانَ﴾ والخبر ﴿لَهُمُ﴾، فيصير المعنى: ويختار الأمر الذي كان الخيرةُ لهم، وهذا التركيبُ محال من القول.

فإنْ قيل: يمكن تصحيحُه بأن يكون العائد محذوفاً، ويكون التقدير: ويختار الذي

---

(١) ٥ الزاد جـ١.

كان لهم الخِيرةُ فيه، أي: ويختار الأمرَ الذي كان لهم الخِيرةُ في اختياره.

قيل: هذا يفسُد من وجه آخر، وهو أن هذا ليس من المواضع التي يجوز فيها حذف العائد، فإنه إنما يحذف مجروراً إذا جُرَّ بحرف جُرَّ الموصولُ بمثله مع اتحاد المعنى، نحوُ قوله تعالى: ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ [المؤمنون: ٣٣]، ونظائره، ولا يجوز أن يقال: جاءني الذي مررتُ، ورأيت الذي رغبتُ، ونحوه.

الثّاني: أنه لو أُريد هذا المعنى لنصب ﴿ ٱلْخِيَرَةُ ﴾ وشُغِلَ فعل الصلة بضمير يعود على الموصول، فكأنه يقول: ويختارُ ما كان لهم الخيرة، أي: الذي كان هو عينَ الخيرة لهم، وهذا لم يقرأ به أحد البتَّة، مع أنه كان وجه الكلام على هذا التقدير.

الثّالث: أن الله سبحانه يَحكي عن الكفار اقتراحَهم في الاختيار، وإرادتهم أن تكون الخيرةُ لهم، ثم ينفي هذا سبحانه عنهم، ويبين تفـرُّدَه هو بالاختيار، كـما قال تعـالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣١-٣٢]، فأنكر عليهم سبحانَه تخيُّرهم عليه، وأخبر أن ذلك ليس إليهم، بل إلى الذي قَسَمَ بينهم معايشَهم المتضمنةَ لأرزاقهم، ومُدَدِ آجالهم، وكذلك هو الذي يَقسِم فضله بين أهل الفضل على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلُح له ممن لا يصلُح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم، ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهكذا هذه الآية بيّن فيها انفراده بالخلق والاختيار، وأنه سبحانَه أعلمُ بمواقع اختياره، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤] أي: الله أعلم بالمحل الذي يصلح لاصطفائه وكرامته، وتخصيصه بالرسالة والنبوة، دون غيره.

الرابع: أنه نزه نفسه سبحانه عما اقتضاه شركهم: من اقتراحهم واختيارهم، فقال:

﴿ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨] ولم يكن شركهم مقتضيًا لإثبات خالق سواه، حتى نزه نفسه عنه، فتأمله، فإنه في غاية اللطف.

الخامس: أن هذا نظير قوله تعالى في الحج: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ ثم قال: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الحج: ٧٣-٧٦] وهذا نظير قوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩] ونظير قوله: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فأخبر في ذلك كله عن علمه المتضمن لتخصيصه محال اختياره بما خصصها به، لعلمه بأنها تصلح له دون غيرها، فتدبر السياق في هذه الآيات تجده متضمنًا لهذا المعنى زائدًا عليه، والله أعلم.

السادس: أن هذه الآية مذكورة عقيب قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٧-٦٨] فكما خلقهم وحده سبحانه، اختار منهم من تاب وآمن وعمل صالحًا، فكانوا صفوته من عباده، وخيرته من خلقه، وكان هذا الاختيار راجعًا إلى حكمته وعلمه سبحانه لمن هو أهل له، لا إلى اختيار هؤلاء المشركين واقتراحهم، فسبحان الله وتعالى عما يشركون.

وإذا تأملت أحوالَ هذا الخلقِ، رأيتَ هذا الاختيار والتخصيص فيه دالاً على ربوبيته تعالى ووحدانيته، وكمالِ حكمته وعلمه وقدرته، وأنه اللَّهُ الذي لا إله إلا هو، فلا شريك له يخلُق كخلقه، ويختار كاختياره، ويدبِّر كتدبيره، فهذا الاختيارُ والتدبير، والتخصيص المشهود أثرُه في هذا العالم مِنْ أعظم آيات ربوبيته، وأكبرِ شواهد

وحدانيته، وصفات كماله، وصدقِ رسله.

فنشيرُ منه إلىٰ يسير يكونُ منبهاً علىٰ ما وراءه، دالاً علىٰ ما سواه. فخلق اللّه السماواتِ سبعاً، فاختار العُليا منها، فجعلها مستقر المقربين مِن ملائكته، واختصها بالقرب مِن كرسيه ومِن عرشه، وأسكنها مَن شاءَ مِن خلقه، فلها مزيةٌ وفضلٌ علىٰ سائر السماوات، ولو لم يكن إلا قربُها منه تبارك وتعالىٰ. وهذا التفضيلُ والتخصيصُ مع تساوي مادة السماوات مِن أبين الأدلة علىٰ كمال قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء ويختار.

وَمِن هذا: تفضيلُه سبحانه جنّةَ الفردوس علىٰ سائر الجنان، وتخصيصُها بأن جعل عرشه سقفَها، وفي بعض الآثار: «**إن الله سبحانه غرسها بيده**[1]**، واختارها لِخيرته مِن خلقه**».

وَمِن هذا اختيارُه مِن الملائكة المصطفيْنَ مِنهم علىٰ سائرهم، كجبريلَ، وميكائيلَ، وإسرافيلَ، وكان النبي ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّماوات وَالأرضِ، عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[2].

فذكر هؤلاء الثلاثة مِن الملائكة لكمال اختصاصهم، واصطفائهم، وقربهم من اللّه، وكم مِن مَلَك غيرهِم في السماوات، فلم يُسم إلا هؤلاء الثلاثة. فجبريل: صاحبُ الوحي الذي به حياةُ القلوب والأرواح، وميكائيلُ: صاحب القَطْرِ الذي به حياةُ الأرض والحيوان والنبات، وإسرافيل: صاحب الصُور الذي إذا نفخ فيه، أحيت نفختُه بإذن الله الأموات، وأخرجتهم مِن قبورهم.

وكذلك اختيارُه سبحانه للأنبياء مِن ولد آدم عليه وعليهم الصلاةُ والسلام ـ وهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٧).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٠).

مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ـ واختياره الرسل منهم، وهم ثَلاثُمائة وثلاثة عشر[١] ـ على ما في حديث أبي ذر الذي رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه ـ، واختيارُه أولي العزم منهم، وهم خمسة المذكورون في سورة الأحزاب والشورىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورىٰ: ١٣]، واختار منهم الخليلينِ: إبراهيمَ ومحمداً صلىٰ الله عليهما وسلم.

وَمِنْ هذا: اختيارُه سبحانه ولدَ إسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كِنانة مِن خُزيمة، ثم اختار مِن ولد كِنانة قُريشاً، ثم اختار مِن قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سَيِّدَ ولدِ آدم محمَّداً ﷺ[٢]. وكذلك اختار أصحابه مِن جملة العَالَمِينَ، واختار منهم السابقينَ الأولين، واختار منهم أهلَ بدر، وأهلَ بيعة الرِّضوان، واختار لهم مِن الدِّين أكملَه، ومِن الشرائع أفضلَها، ومن الأخلاق أزكَاها وأطيبها وأطهَرها. واختار أمته ﷺ علىٰ سائر الأمم، كما في مسند الإمام أحمد وغيره من حديث بهَزِ بن حكيم بن معاوية بن حيْدَةَ، عن أبيه، عن جدِّه قال: قال رسُولُ ﷺ: «**أَنْتمْ مُوفونَ سَبْعِينَ أُمَّة أَنْتم خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَىٰ الله**»[٣] قال علي بن المْديني وأحمد: حديثُ بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جدّه صحيح.

وظهر أثرُ هذا الاختيار في أعمالهم وأخلاقهم، وتوحيدِهم، ومنازلهم في الجنَّة، ومقاماتهم في الموقف، فإنهم أعلىٰ من النَّاس علىٰ تلٍّ فوقهم يشرفون عليهم، وفي

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥) والحاكم (٢/ ٦٥٢ رقم ٤١٦٦) والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٧ رقم ٧٨٧١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٦١): صححه ابن حبان.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٧٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٩).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٣) والحاكم (٤/ ٩٤ رقم ٦٩٨٨) والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٢٢ رقم ١٠٢٣) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٩٧): رواه أحمد ورجاله ثقات.

الترمذي من حديث بُريدة بن الحُصَيْبِ الأسلمي قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أَهلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمَائَةُ صفٍّ، ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الأُمَمِ»[١] قال الترمذي: هذا حديث حسن. والذي في الصحيح من حديث أبي سعيد الخُدري، عن النبي ﷺ في حديث بعث النار: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَده إِنِّي لأَطْمَعُ أَنْ تكُونُوا شَطرَ أَهْلِ الجَنَّةِ»[٢]، ولم يزد على ذلك. فَإِمَّا أن يقال: هذا أصح، وإمَّا أن يُقال: إن النبي ﷺ طمع أن تكون أمتُه شطرَ أهل الجنة، فأعلمه ربُّه فقال: «إنهم ثمانون صفاً من مائة وعشرين صفاً»، فلا تنافي بين الحديثين، والله أعلم.

[٣]قد اتخذ الرب وتعالى من الجنان دارا اصطفاها لنفسه وخصها بالقرب من عرشه، وغرسها بيده، فهي سيدة الجنان، والله ﷻ يختار من كل نوع أعلاه وأفضله، كما اختار من الملائكة جبريل، ومن البشر محمدًا ﷺ، ومن السموات العليا، ومن البلاد مكة، ومن الأشهر المحرم، ومن الليالي ليلة القدر، ومن الأيام يوم الجمعة، ومن الليل وسطه، ومن الأوقات أوقات الصلوات، إلى غير ذلك، فهو ﷻ: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

وقال الطبراني في معجمه: حدثنا مطلب بن شعيب الأزدي حدثنا عبد الله بن صالح حدثني الليث قال الطبراني في معجمه وحدثنا أبو الزنباع روح بن الفرج حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن زياد بن محمد الأنصاري عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «ينزل الله تعالى في آخر

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٤٦) وابن ماجه (رقم ٤٢٨٩) والدارمي (رقم ٢٨٣٥) وابن أبي شيبة (٦/ ٣١٥ رقم ٣١٧١٣) والحاكم (١/ ١٥٥ رقم ٢٧٣) والطبراني في الأوسط (٢/ ٧٧ رقم ١٣٠١) وفي الصغير (رقم ٨٢) وأحمد (٥/ ٣٤٧) وأبو يعلى في معجمه (رقم ٢١١) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٧٢) وابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله (رقم ٧٤) وصححه الحاكم وحسنه الترمذي وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٨، ٤١٢) وشرح النووي (٣/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٣٠) ومسلم (رقم ٢٢٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٨) وشرح النووي (٣/ ٩٨).

(٣) ٧٩ حادي.

ثلاث ساعات يبقين من الليل، فينظر الله في الساعة الأولىٰ منهن في الكتاب الذي لا ينظر فيه غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت، ثم ينظر في الساعة الثانية إلىٰ جنة عدن، وهي مسكنه الذي يسكن فيه، ولا يكون معه فيها أحد إلا الأنبياء والشهداء والصديقون، وفيها ما لم تره عين أحد، ولا خطر علىٰ قلب بشر، ثم يهبط آخر ساعة من الليل، فيقول: ألا مستغفر يستغفرني فأغفر له؟ ألا سائل يسألني فأعطيه ألا داع يدعوني فأستجيب له؟ حتىٰ يطلع الفجر» قال تعالىٰ: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٨] فيشهده تعالىٰ وملائكته(١)! قال الحسن بن سفيان حدثنا أبو الطاهر أحمد بن عمرو بن السرح قال: حدثني خالي عبد الرحمن بن عبد الحميد بن سالم حدثنا يحيىٰ بن أيوب عن داود بن أبي هند عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله بنىٰ الفردوس بيده، وحظرها علىٰ كل مشرك وكل مدمن خمر ومتكبر»(٢).

***

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

...(٣)تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨/ ٢٧٩ رقم ٨٦٣٥) وفي الدعاء (رقم ١٣٥) والديلمي في الفردوس (٥/ ٢٥٤ رقم ٨١٠٩) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٧٥٦) قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥٤-١٥٥): رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار بنحوه وفيه زيادة بن محمد الأنصاري وهو منكر الحديث. وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩٨) وساق الحديث الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ١٤٥) ثم قال: فهذه ألفاظ منكرة لم يأت بها غير زيادة.

(٢) أخرجه الديلمي في الفردوس (١/ ١٦٤ رقم ٦٠٣) والهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (رقم ٢٣) وتمام في فوائده (٢/ ٧٥ رقم ١١٨١) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٩٥) والبيهقي في شعب الإيمان (٥/ ١١ رقم ٥٥٩٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٣/ ٣٠٦).

(٣) ٢٠٧ المفتاح جـ١.

والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم، ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم، وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور، ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلىٰ السبات وجموم الحواس، وانبعاث القوىٰ الباطنة، وظهور سلطانها في النوم المعين علىٰ هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلىٰ الأعضاء، ثم لولا الغروب لكانت الأرض تحمىٰ بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتىٰ يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات، فصارت تطلع وقتا بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويهدؤا، وصار ضياء النهار مع ظلام الليل، وحر هذا مع برد هذا، مع تضادهما متعاونين متظاهرين، بهما تمام مصالح العالم، وقد أشار تعالىٰ إلىٰ هذا المعنىٰ، ونبه عباده عليه بقوله ﷻ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢] خص سبحانه النهار بذكر البصر، لأنه محله، وفيه سلطان البصر وتصرفه، وخص الليل بذكر السمع، لأن سلطان السمع يكون بالليل، وتسمع فيه الحيوانات مالا تسمع في النهار، لأنه وقت هدوء الأصوات وخمود الحركات، وقوة سلطان السمع وضعف سلطان البصر، والنهار بالعكس، فيه قوة سلطان البصر وضعف سلطان السمع، فقوله: ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ راجع إلىٰ قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ﴾ وقوله: ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ راجع إلىٰ قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾.

***

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

...[١] مما يدل على أن الفرح من أسباب الكر ما لم يقارنه خوف قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤] وقال قوم قارون له: ﴿ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ [القصص: ٧٦] فالفرح متى كان بالله، وبما منَّ الله به، مقارنًا للخوف والحذر: لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك: ضره ولابد.

...[٢] وليحذر كل الحذر من طغيان «أنا» و«لي» و«عندي»، فإن هذه الألفاظ الثلاثة ابتلي بها إبليس وفرعون وقارون فـ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ [الأعراف: ١٢] لإبليس و﴿ لِى مُلْكُ مِصْرَ ﴾ [الزخرف: ٥١] لفرعون، و﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨] لقارون.

وأحسن ما وضعت «أنا» في قول العبد، أنا العبد المذنب المخطئ، المستغفر المعترف ونحوه، و«لي» في قوله: «لي الذنب، ولي الجرم،ن ولي المسكنة، ولي الفقر والذل، و«عندي» في قوله: «**اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي**»[٣].

***

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

(١) ١٠٨ المدارج جـ١.
(٢) ١٠٢ الفوائد.
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٧١٩) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٤٠).

...[١]إنه سبحانه ذم متمني الدنيا والغنى والسعة فيها، ومدح من أنكر عليهم وخالفهم، فقال تعالى عن أغنى أهل زمانه ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] فأخبروا أن ما عند الله خير من الدنيا لمن آمن وعمل صالحًا، ولا يلقى هذه الوصية، وهي الكلمة التي تكلم بها الذين أوتوا العلم أو المثوبة والجنة، التي دل عليها قوله: ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾ والسيرة والطريقة التي دل عليها قوله: ﴿ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ﴾، وعلى كل حال لا يلقى ذلك إلا الصابرون على الفقر وعن الدنيا وشهواتها وما أترف فيه الأغنياء.

وقد شهد الله سبحانه لهم أنهم من أهل العلم دون الذين تمنوا الدنيا وزينتها.

إنه سبحانه أنكر على من ظن أن التفضيل يكون بالمال، الذي يحتاج إليه لإقامة الملك، فكيف بما هو زيادة وفضلة، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾ [البقرة: ٢٤٧] فرد الله سبحانه قولهم، وأخبر سبحانه أن الفضل ليس بالمال، كما توهموه، وأن الفضل بالعلم لا بالمال، وقال سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] ففضله ورحمته العلم والإيمان والقرآن، والذي يجمعونه هو المال وأسبابه، ومثله قوله تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

***

(١) ١٩٥ عدة الصابرين.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

...[1]النفوس ثلاثة: نفس سماوية علوية فمحبتها منصرفة إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل، وهي مشغوفة بما يقربها من الرفيق الأعلى، وذلك قوتها وغذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

ونفس سبعية غضبية فمحبتها منصرفة إلى القهر والبغي والعلو في الأرض والتكبر والرئاسة على الناس بالباطل، فلذتها في ذلك وشغفها به.

ونفس حيوانية شهوانية فمحبتها منصرفة إلى المأكل والمشرب والمنكح، وربما جمعت الأمرين فانصرفت محبتها إلى العلو في الأرض والفساد، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٤] وقال في آخر السورة: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] والحب في هذا العالم دائر بين هذه النفوس الثلاثة، فأي نفس منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه، ولم تصغ فيه لعاذل، ولم تأخذها فيه لومة لائم.

***

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

[2]أما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ فإنما أتيتم من عدم فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار، الآن نظير احتجاج

---

(١) ٢٧٨ الروضة.

(٢) ٤١ حادي.

إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما، فلا أنتم وفقتم لفهم معناها ولا إخوانكم، وإنما وفق لفهم معناها السلف وأئمة الإسلام، ونحن نذكر بعض كلامهم في الآية: قال البخاري في صحيحه: يقال: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ إلا ملكه، ويقال إلا ما أريد به وجهه[(١)]، وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبدالله: فأما السماء والأرض فقد زالتا لأن أهلهما صاروا إلى الجنة وإلى النار وأما العرش فلا يبيد ولا يذهب، لأنه سقف الجنة، والله ﷻ عليه، فلا يهلك ولا يبيد، وأما قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ فذلك أن الله ﷻ أنزل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر الله تعالى عن أهل السموات وأهل الأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ يعني ميت ﴿ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت[(٢)] انتهى كلامه.

وقال في رواية أبي العباس أحمد بن جعفر بن يعقوب الأصطخري ذكره أبو الحسين في كتاب الطبقات، قال: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل: هذه مذاهب أهل العلم، وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، والمقتدى بهم فيها، من لدن أصحاب نبينا ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركت من أدركت من علماء أهل الحجاز والشام وغيرهم عليها، فمن خالف شيئًا من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها، فهو مخالف مبتدع، خارج عن الجماعة، زائل عن منهج السنة وسبيل الحق، وساق أقوالهم إلى أن قال: وقد خلقت الجنة وما فيها، وخلقت النار وما فيها، خلقهما الله ﷻ وخلق الخلق لهما، ولا يفنيان، ولا يفنى ما فيهما أبدًا.

فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله ﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التفسير، سورة القصص (ص ٩٣٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٠٥) وعمدة القاري (١٩/ ١٠٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٧/ ١٦٥).

وبنحو هذا من متشابه القرآن، قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك، وهما من الآخرة لا من الدنيا، والحور العين لا يمتن عند قيام الساعة، ولا عند النفخة ولا أبدًا، لأن الله ﷻ خلقهن للبقاء لا للفناء، ولم يكتب عليهن الموت، فمن قال خلاف هذا فهو مبتدع، وقد ضل عن سواء السبيل، وخلق سبع سموات بعضها فوق بعض، وسبع أرضين بعضها أسفل من بعض، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا مسيرة خمسمائة عام، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة عام، والماء فوق السماء العليا السابعة، وعرش الرحمن ﷻ فوق الماء، وأن الله ﷻ على العرش، والكرسي موضع قدميه، وهو يعلم ما في السموات والأرضين السبع وما بينهما وما تحت الثرى، وما في قعر البحر، ومنبت كل شعرة وشجرة، وكل زرع وكل نبات، ومسقط كل ورقة، وعدد كل كلمة، وعدد الحصا والتراب والرمل ومثاقيل الجبال، وأعمال العباد وآثارهم وكلامهم وأنفاسهم، ويعلم كل شيء، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو على العرش فوق السماء السابعة، ودونه حجب من نار ونور وظلمة، وما هو أعلم بها.

فإن احتج مبتدع ومخالف بقول الله ﷻ: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] وقوله: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة: ٧] وقوله: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] ونحو هذا من متشابه القرآن.

فقل: إنما يعني بذلك العلم، لأن الله ﷻ على العرش فوق السماء السابعة العليا، يعلم ذلك كله وهو بائن من خلقه، لا يخلو من علمه مكان، وقال في رواية أبي جعفر الطائي محمد بن عوف بن سفيان الحمصي قال الخلال حافظ إمام في زمانه، معروف بالتقدم في العلم والمعرفة كان أحمد بن حنبل يعرف له ذلك، ويقبل منه ويسأله عن الرجال من أهل بلده، قال: أملى عليَّ أحمد بن حنبل، فذكر رسالة في السنة، ثم قال في أثنائها: وأن الجنة والنار مخلوقتان، قد خلقتا كما جاء الخبر، قال النبي ﷺ: «دخلت

الجنة فرأيت فيها قصرًا، ورأيت الكوثر، واطلعت في النار، فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا...» فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب برسول الله ﷺ وبالقرآن، كافر بالجنة والنار، يستتاب فإن تاب وإلا قتل. وقال في رواية عبدوس بن مالك العطار، وذكر رسالة في السنة، قال فيها: والجنة والنار مخلوقتان، قد خلقتا كما جاء عن رسول الله ﷺ: **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها كذا وكذا»** فمن زعم أنهما لم يخلقا فهو مكذب بالقرآن وأحاديث رسول الله، ولا أحسبه يؤمن بالجنة والنار[1]. فتأمل هذه الأبواب وما تضمنته من النقول والمباحث والنكت والفوائد، التي لا تظفر بها في غير هذا الكتاب البتة، ونحن اختصرنا الكلام في ذلك، ولو بسطناه لقام منه سفر ضخم، والله المستعان وعليه التكلان، وهو الموفق للصواب.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة القصص

والحمد لله رب العالمين



(١) انظر: أصول السنة لأحمد بن حنبل (ص ٥٩).

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٧ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠ ﴾ [العنكبوت: ١-١٠].

[(١)]فليتأملِ العبدُ سياقَ هذِهِ الآياتِ، وما تضمنَّته من العِبَرِ وكُنُوز الحِكَم، فإنَّ الناسَ إذَا أُرسِلَ إليهم الرُّسُلُ بين أمرين: إما أن يقولَ أحدهُم: آمنا، وإما ألا يقولَ ذلك، بل يستمرَّ على السيِّئاتِ والكُفر، فمَن قال: آمنا، امتحنه ربُّه، وابتلاه، وفتنه، والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبينَ الصادِقُ مِن الكاذِب، ومَن لم يقل: «آمنا»، فلا يَحْسَبْ أنه يُعْجِزُ اللهَ ويفوتُه ويَسبقُه، فإنه إنما يطوي المراحِلَ في يديه.

وكَيفَ يَفِرُّ المرْءُ عَنْهُ بِــذَنْبِهِ ... إِذَا كَانَ تُطْوى في يَدَيْهِ المرَاحِلُ

فمَن آمن بالرُّسُلِ وأطاعهم، عاداه أعداؤهم وآذوه، فابتُلِي بما يُؤلِمه، وإن لم يُؤمن بهم ولم يُطعهم، عُوقِبَ في الدنيا والآخرة، فَحَصَلَ له ما يُؤلمه، وكان هذا المؤلمُ له

(١) ١١٠ زاد المعاد جـ٢.

أعظَمَ ألماً وأدومَ مِن ألم اتِّباعهم، فلا بد من حصول الألم لكل نفسٍ آمنت أو رغبت عن الإيمان، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبةُ في الدنيا والآخرة، والمُعرِضُ عن الإيمان تحصلُ له اللَّذةُ ابتداءً، ثم يَصير إلى الألم الدائم.

وسئل الشافعي رحمه الله: أيُّما أفضلُ للرجل، أن يُمكَّن أو يُبتلى؟ فقال: لا يُمكَّن حتى يُبتلى. والله تعالى ابتلى أُولي العَزْمِ مِن الرسل، فلما صَبرُوا مكَّنهم، فلا يَظُنَّ أحد أنه يخلص من الألم البتة، وإنما يتفاوتُ أهلُ الآلام في العُقُول، فأعقلُهم مَنْ باع ألماً مستمِراً عظيماً، بألم منقطع يسير، وأشقاهُم مَنْ باع الألَمَ المنقطِعَ اليسير، بالألم العظيم المستمر.

فإن قيل: كيف يختار العاقلُ هذا؟ قيل: الحاملُ له على هذا النَّقْدُ والنَّسيئة. والنَّفْسُ مُوكلةٌ بِحُبِّ العَاجِلِ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]، ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]. وهذا يحصُل لكل أحد، فإن الإنسان مدني بالطَّبع، لا بُد له أن يعيشَ مع الناس، والناسُ لهم إرادات وتصورات، فيطلبُون منه أن يُوافِقهم عليها، فإن لم يوافقهم، آذوْه وعذَّبوه، وإن وافقهم حَصَلَ له الأذى والعذابُ، تارةً منهم، وتارةً مِن غيرهم، كمن عنده دِينٌ وتُقى حلَّ بين قوم فُجَّارٍ ظَلَمَةٍ، ولا يتمكنون مِن فجورهم وظُلمهم إلا بموافقته لهم، أو سكوته عنهم، فإن وافقهم، أو سكت عنْهم، سَلِمَ مِن شرهم في الابتداء، ثم يتسلَّطُونَ عليه بالإهانة والأذى أضعافَ ما كان يخافهُ ابتداء، لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سَلِمَ منهم، فلابد أن يُهان ويُعاقَب على يد غيرهم، فالحزمُ كُلُّ الحزم في الأخذ بما قالت عائشة أم المؤمنين لمعاوية: «مَنْ أَرْضَى اللهَ بِسَخَطِ النَّاسِ، كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ أَرْضَى النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ لم يُغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً»[1]. ومَنْ

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤١٤) وإسحاق بن راهويه (٢/ ٦٠٠ رقم ١١٧٥) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٧٨٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٩٩) وانظر: تحفة الأحوذي (٧/ ٨٢).

تأمل أحوالَ العالَم، رأىٰ هذا كثيراً فيمن يُعينُ الرؤساءَ علىٰ أغراضهم الفاسدة، وفيمن يُعينُ أهلَ البِدَعِ علىٰ بِدعهم هَرَباً من عُقوبتهم، فمَنْ هداه الله، وألهمه رُشده، ووقاه شرَّ نفسه، امتنع مِن الموافقة علىٰ فِعل المحرَّم، وصَبَرَ علىٰ عُدوانهم، ثم تكونُ له العاقبةُ في الدنيا والآخرة، كما كانت لِلرُّسل وأتباعِهم، كالمهاجرين، والأنصار، ومَن ابتُلِيَ مِن العلماء، والعُبَّاد، وصالحي الوُلاة، والتجار، وغيرهم.

ولما كان الألم لا محيص منه البتة، عزىٰ الله سبحانه من اختار الألم اليسير المنقطع علىٰ الألم العظيم المستمر بقوله: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥]. فضرب لمدة هذا الألم أجلا، لابد أن يأتي، وهو يوم لقائه، فيلتذ العبد أعظم اللذة بما تحمل من الألم من أجله، وفي مرضاته، وتكون لذته وسروره وابتهاجه بقدر ما تحمل من الألم في الله ولله، وأكد هذا العزاء والتسلية برجاء لقائه، ليحمل العبد اشتياقه إلىٰ لقاء ربه ووليه علىٰ تحمل مشقة الألم العاجل، بل ربما غيَّبه الشوق إلىٰ لقائه عن شهود الألم والإحساس به، ولهذا سأل النبي ﷺ ربه الشوق إلىٰ لقائه، فقال في الدعاء الذي روا أحمد وابن حبان: **«اللهم إني أسألك بعلمك الغيب وقدرتك علىٰ الخلق، أحيني إذا كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنىٰ، وأسألك نعيما لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلىٰ وجهك، وأسألك الشوق إلىٰ لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»**[1].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ١٩٧١) وفي الموارد (رقم ٥٠٩) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي المجتبىٰ (رقم ١٣٠٥) وعبد الرزاق في مصنفه (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والدارقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (٢/ ١٤٧-١٤٨ رقم ١٣٨٧).

فالشوق يحمل المشتاق على الجد في السير إلى محبوبه، ويطوي له الطريق، ويقرب عليه البعيد، ويهون عليه الآلام والمشاق، وهو من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، ولكن لهذه النعمة أقوال وأعمال، هما السبب الذي تنال به، والله سبحانه سميع لتلك الأقوال، عليم بتلك الأفعال، وهو عليم بمن يصلح لهذه النعمة، ويشكرها، ويعرف قدرها، ويحب المنعم عليه بها، فتصلح عنده هذه النعمة، ويصلح بها، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، فإذا فاتت العبد نعمة من نعم ربه، فليقرأ على نفسه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

ثمَّ عزَّاهم تعالى بعزاءٍ آخر، وهو أن جِهادهم فيه، إنما هو لأنفسهم، وثمرته عائدة عليهم، وأنه غني عن العالمين، ومصلحةُ هذا الجهاد ترجعُ إليهم، لا إليه سُبحانه، ثم أخبر أنَّه يُدخلهم بجهادهم وإيمانهم في زُمرة الصالحين. ثم أخبر عن حال الدَّاخل في الإيمان بلا بصيرة، وأنه إذا أُوذي في الله جعل فتنةَ الناسِ له كعذاب الله، وهي أذاهم له، ونيلُهم إياه بالمكروه والألم، الذي لا بد أن يناله الرسلُ وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منهم، وتركِهِ السبب الذي ناله، كعذابِ الله الذي فرَّ منه المؤمنون بالإيمان، فالمؤمنون لِكمال بصيرتهم فرُّوا مِن ألم عذاب الله إلى الإيمانِ، وتحمَّلُوا ما فيهِ من الألم الزائل المُفارق عن قريب، وهذا لضعف بصيرته، فرَّ من ألم عذاب أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففرَّ مِن ألمِ عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألمَ فتنة الناس في الفِرار منه، بمنزلة ألم عذاب الله، وغُبِنَ كُلَّ الغَبن إذ استجار مِن الرَّمضاء بالنار، وفرَّ مِن ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جُنده وأولياءه، قال: إني كنتُ معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدرُه من النفاق.

والمقصود: أن الله سبحانه اقتضت حكمتُهُ أنه لابد أن يمتحن النفوسَ ويبتَليها، فيظْهِرَ بالامتحان طيِّبها مِن خبيثها، ومَنْ يصلُح لموالاته وكراماته، ومَنْ لا يصلُح، وليُمحِّص النفوسَ التي تصلُح له ويُخلِّصها بِكِير الامتحان، كالذَّهب الذي لا يخلُص

ولا يصفو مِن غِشه، إلا بالامتحان، إذ النفسُ في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم مِن الخُبث ما يحتاجُ خروجه إلىٰ السَّبكِ والتصفية، فإن خرج في هذه الدار، وإلا ففي كِير جهنم، فإذا هُذِّب العبدُ ونُقِّيَ، أُذِنَ له في دخولِ الجنة.

ولما دعا ﷺ إلىٰ الله ﷻ، استجاب له عِبادُ الله مِن كل قبيلة، فكَانَ حائِزَ قصبِ سَبْقِهِم، صِدِّيقُ الأُمة، وأسبقُها إلىٰ الإسلام، أبو بكر ﷺ، فآزره في دين الله، ودعا معه إلىٰ الله علىٰ بصيرة، فاستجابَ لأبي بكر: عثمانُ بن عفان، وطلحةُ بن عُبيد الله، وسعدُ بنُ أبي وقاص. وبادر إلىٰ الاستجابة له ﷺ صِدِّيقَةُ النِّساءِ: خديجةُ بنت خُويلد، وقامت بأعباء الصِّدِّيقيَّةِ، وقال لها: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَىٰ نَفْسي». فَقَالَتْ لَهُ: «أَبْشِرْ فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أبَداً»[١]، ثم استَدَلَّت بما فيه من الصفات الفاضلة، والأخلاق الكريمة والشيم الشريفة، علىٰ أن مَنْ كان كذلك لا يُخزَىٰ أبَدَاً، فعلمت بكمال عقلها وسلامة فِطرتها، أن الأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والشِّيم الشريفة، تُناسِبُ أشكالها من كرامة الله، وتأييده، وإحسانه، ولا تُناسِبُ الخزي والخِذلان، وإنما يُناسبه أضدادُها، فمَن ركَّبه الله علىٰ أحسنِ الصفات وأحسن الأخلاق والأعمال إنما يليقُ به كرامتهُ وإتمامُ نعمته عليه، ومَنْ ركَّبه علىٰ أقبح الصفاتِ وأَسْوَإِ الأخلاق والأعمال إنما يليق به ما يناسبُها، وبهذا العقل والصدِّيقية استحقَّت أن يُرْسِلَ إِلَيْهَا رَبُّها بالسَّلاَمِ مِنْهُ مَعَ رَسُولَيْهِ جِبْرِيل وَمُحَمَّدٍ ﷺ.

[٢]كمال العبودية والمحبة والطاعة إنما يظهر عند المعارضة والدواعي إلىٰ الشهوات والإرادات المخالفة للعبودية، وكذلك الإيمان إنما تتبين حقيقته عند المعارضة والامتحان، وحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، قال الله تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣) ومسلم (رقم ١٦٠) وانظر: فتح الباري (٨/ ٧٢٠) وشرح النووي (٢/ ٢٠٠).

(٢) ٣٤٢ الصواعق جـ١.

فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣] وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فالجنة لا ينالها المكلفون إلا بالجهاد والصبر، فخلق الشياطين وأوليائهم وجندهم من أعظم النعم في حق المؤمنين؛ فإنهم بسبب وجودهم صاروا مجاهدين في سبيل الله، يحبون لله ويبغضون لله، ويوالون فيه، ويعادون فيه، ولا تكمل نفس العبد ولا يصلح لها الزكاء والفلاح إلا بذلك.

...[1]قال الله تعالىٰ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١١] وقال تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥].

وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين، ولذلك سلاهم الله تعالىٰ بإتيان أجل لقائه، وضرب لهم أجلًا يُسَكِّن نفوسهم ويطمئنها.

...[2]وفي أثر آخر «طال شوق الأبرار إلىٰ وجهك، وأنا إلىٰ لقائهم أشد شوقًا» وهذا هو المعنىٰ الذي عبر عنه ﷺ بقوله: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»[3] وقال بعض أهل البصائر في قوله تعالىٰ: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ﴾ لما علم سبحانه شدة شوق أوليائه إلىٰ لقائه، وأن قلوبهم لا تهتدي دون لقائه ضرب لهم أجلًا: موعدا للقائه تسكن نفوسهم به، وأطيب العيش وألذه علىٰ الإطلاق عيش المحبين المشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة ولا حياة للعبد أطيب

---

(١) ٥٤ مدارج جـ٢.

(٢) ٢٤٨ الجواب.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٨) ومسلم (رقم ٢٦٨٦) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٩).

ولا أنعم ولا أهنأ منها، فهي الحياة الطيبة المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

وليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار والأبرار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله علىٰ أوليائه في ذلك أضعافًا مضاعفة، وقد ضمن الله سبحانه لكل من عمل صالحًا أن يحييه حياة طيبة فهو صادق الوعد، الذي لا يخلف وعده، وأي حياة أطيب من حياة اجتمعت همومه كلها وصارت همًا واحدة في مرضات الله؟ ولم يتشعب قلبه، بل أقبل علىٰ الله واجتمعت إرادته وأفكاره التي كانت منقسمة بكل واد منها شعبة علىٰ الله، فصار ذكره محبوبه الأعلىٰ وحبه والشوق إلىٰ لقائه والأنس بقربه هو المستولي عليه، وعليه تدور همومه وإرادته وتصوره، بل خطرات قلبه، فإن سكت سكت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فبه يسمع، وإن أبصر فبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يتحرك، وبه يسكن، وبه يحيىٰ، وبه يموت، وبه يبعث كما في صحيح البخاري عنه ﷺ فيما يروي عن ربه تبارك وتعالىٰ أنه قال: «ما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه...»[1] الحديث.

[2]إن أفضل العطاء وأجله علىٰ الإطلاق الإيمان وجزاؤه، وهو لا يتحقق إلا بالامتحان والاختبار، قال تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٦].

فذكر سبحانه في هذه السورة أنه لا بد أن يمتحن خلقه ويفتنهم، ليتبين الصادق من

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٢) وانظر: شرح النووي (٧/ ٩٢).

(٢) ٢٤٥ شفاء.

الكاذب، والمؤمن من الكافر، ومن يشكره ويعبده ممن يكفره ويعرض عنه ويعبد غيره. وذكر أحوال الممتحنين في العاجل والآجل، وذكر أئمة الممتحنين في الدنيا وهم الرسل وأتباعهم، وعاقبة أمرهم، وما صاروا إليه، وافتتح بالإنكار على من يحسب أنه يتخلص من الامتحان والفتنة في هذه الدار إذا ادعى الإيمان، وأن حكمته سبحانه وشأنه في خلقه يأبى ذلك، وأخبر عن سر هذه الفتنة والمحنة، وهو تبيين الصادق من الكاذب والمؤمن من الكافر، وهو سبحانه كان يعلم ذلك قبل وقوعه، ولكن اقتضى عدله وحمده أنه لا يجزي العباد بمجرد علمه فيهم، بل بمعلومه إذا وجد وتحقق، والفتنة هي التي أظهرته وأخرجته إلى الوجود، فحينئذ حسن وقوع الجزاء عليه.

ثم أنكر سبحانه على من لم يلتزم الإيمان به ومتابعة رسله خوف الفتنة والمحنة، التي يمتحن بها رسله وأتباعهم ظنه وحسبانه أنه بإعراضه عن الإيمان وتصديق رسله يتخلص من الفتنة والمحنة، فإن بين يديه من الفتنة والمحنة والعذاب أعظم وأشق مما فر منه، فإن المكلفين بعد إرسال الرسل إليهم بين أمرين: إما أن يقول أحدهم آمنت، وإما أن لا يقول، بل يستمر على السيئات، فمن قال آمنا امتحنه الرب تعالى وابتلاه، لتتحقق بالإيمان حجة إيمانه وثباته عليه، وأنه ليس بإيمان عافية ورخاء فقط، بل إيمان ثابت في حالتي النعماء والبلاء، ومن لم يؤمن فلا يحسب أنه يعجز ربه تعالى ويفوته، بل هو في قبضته وناصيته بيده، فله من البلاء أعظم مما ابتلى به من قال آمنت، فمن آمن به وبرسله فلابد أن يبتلي من أعدائه و أعداء رسله بما يؤلمه ويشق عليه، ومن لم يؤمن به وبرسله فلا بد أن يعاقبه فيحصل له من الألم والمشقة أضعاف ألم المؤمنين، فلابد من حصول الألم لكل نفس مؤمنة أو كافرة، لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا أشد ثم ينقطع، ويعقبه أعظم اللذة. والكافر يحصل له اللذة والسرور ابتداء ثم ينقطع، ويعقبه أعظم الألم والمشقة، وهكذا حال الذين يتبعون الشهوات فيلتذون بها ابتداء ثم تعقبها الآلام بحسب ما نالوه منها، والذين يصبرون عنها ينالون بفقدها ابتداء، ثم يعقب ذلك الألم من اللذة والسرور بحسب ما صبروا عنه وتركوه

منها، فالألم واللذة أمر ضروري لكل إنسان، لكن الفرق بين العاجل المنقطع اليسير والآجل الدائم العظيم بون، ولهذا كان خاصة العقل النظر في العواقب والغايات، فمن ظن أنه يتخلص من الألم بحيث لا يصيبه البتة فظنه أكذب الحديث.

فإن الإنسان خلق عرضة للذة والألم والسرور والحزن والفرح والغم، وذلك من جهتين من جهة تركبه وطبيعته وهيئته، فإنه مركب من أخلاط متفاوتة متضادة يمتنع أو يعز اعتدالها من كل وجه، بل لابد أن يبغي بعضها على بعض، فيخرج عن حد الاعتدال، فيحصل الألم. ومن جهة بني جنسه فإنه مدني بالطبع، لا يمكنه أن يعيش وحده بل لا يعيش إلا معهم، وله ولهم لذاذات ومطالب متضادة ومتعارضة، لا يمكن الجمع بينها، بل إذا حصل منها شيء فات منها أشياء، فهو يريد منهم أن يوافقوه على مطالبه وإرادته، وهم يريدون منه ذلك، فإن وافقهم حصل له من الألم والمشقة بحسب ما فاته من إرادته، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه وسعوا في تعطيل مراداته، كما لم يوافقهم على مراداتهم، فيحصل له من الألم والتعذيب بحسب ذلك، فهو في ألم ومشقة وعناء وافقهم أو خالفهم، ولاسيما إذا كانت موافقتهم على أمور يعلم أنها عقائد باطلة وإرادات فاسدة وأعمال تضره في عواقبها، ففي موافقتهم أعظم الألم، وفي مخالفتهم حصول الألم.

فالعقل والدين والمروءة والعلم تأمره باحتمال أخف الألمين تخلصًا من أشدهما، وبإيثار المنقطع منهما لينجو من الدائم المستمر، فمن كان ظهيرًا للمجرمين من الظلمة على ظلمهم، ومن أهل الأهواء والبدع على أهوائهم وبدعهم، ومن أهل الفجور والشهوات على فجورهم وشهواتهم، ليتخلص بمظاهرتهم من ألم أذاهم أصابه من ألم الموافقة لهم عاجلًا وآجلًا أضعاف أضعاف ما فر منه، وسنة الله في خلقه أن يعذبهم بإنذار من إيمانهم وظاهرهم، وإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة، تزيد على لذة الموافقة بأضعاف مضاعفة، وسنة الله في خلقه أن يرفعه عليهم ويذلهم له بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه، وإذا كان لا من

الألم والعذاب فذلك في الله وفي مرضاته ومتابعة رسله أولى وأنفع منه في الناس ورضائهم وتحصيل مراداتهم.

ولما كان زمن التألم والعذاب قصيرة طويل، فأنفاسه ساعات، وساعاته أيام، وأيامه شهور وأعوام بلى سبحانه الممتحنين فيه بأن ذلك الابتلاء آجلًا، ثم ينقطع، وضرب لأهله أجلًا للقائه، يسليهم به ويشكر نفوسهم ويهون عليهم أثقاله، فقال: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]، فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه، وأجل لقاء المبتلى سبحانه وإثباته، هان عليه ما هو فيه وخف عليه حمله.

ثم لما كان ذلك لا يحصل إلا بمجاهدة للنفس وللشيطان ولبني جنسه، وكان العامل إذا علم أن ثمرة عمله وتعبه يعود عليه وحده، لا يشركه فيه غيره كان أتم اجتهادا وأوفر سعيًا، فقال تعالى: ﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

وأيضًا فلا يتوهم متوهم أن منفعة هذه المجاهدة والصبر والاحتمال يعود على الله سبحانه، فإنه غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به حاجة منه إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا منه عليهم، بل أمرهم بما يعود نفعه ومصلحته عليهم في معاشهم ومعادهم، ونهاهم عما يعود مضرته عليهم في معاشهم ومعادهم، فكانت ثمرة هذا الابتلاء والامتحان مختصة بهم، واقتضت حكمته أن نصب ذلك سببا مفضيا إلى تمييز الخبيث من الطيب، والشقي من الغوي، ومن يصلح له ممن لا يصلح، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩] فابتلاهم سبحانه بإرسال الرسل إليهم بأوامره ونواهيه واختياره، فامتاز برسله طيبهم من خبيثهم، وجيدهم من رديئهم، فوقع الثواب والعقاب على معلوم أظهره ذلك الابتلاء والامتحان.

ثم لما كان الممتحن لابد أن ينحرف عن طريق الصبر والمجاهدة لدواعي طبيعته وهواه وضعفه عن مقاومة ما ابتلي به وعده سبحانه أن يتجاوز له عن ذلك، ويكفره عنه، لأنه لما أمر به والتزم طاعته اقتضت رحمته أن كفر عنه سيئاته وجازاه بأحسن أعماله، ثم ذكر سبحانه ابتلاء العبد بأبويه، وما أمر به من طاعتهما وصبره على مجاهدتهما له على أن لا يشرك به، فيصبر على هذه المحنة والفتنة، ولا يطيعهما بل يصاحبهما على هذه الحال معروفًا، ويعرض عنهما إلى متابعة سبيل رسله، وفي الإعراض عنهما وعن سبيلهما والإقبال على من خالفهما وعلى سبيله من الامتحان والابتلاء ما فيه، ثم ذكر سبحانه حال من دخل في الإيمان على ضعف عزم وقلة صبر وعدم ثبات على المحنة والابتلاء وأنه إذا أوذي في الله كما جرت به سنة الله، واقتضت حكمته من ابتلاء أوليائه بأعدائه، وتسليطهم عليهم بأنواع المكاره والأذى، لم يصبر على ذلك وجزع منه، وفر منه ومن أسبابه، كما يفر من عذاب الله، فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وهذا يدل على عدم البصيرة، وأن الإيمان لم يدخل قلبه، ولا ذاق حلاوته حتى سوَّى بين عذاب الناس له على الإيمان بالله ورسوله وبين عذاب الله لمن لم يؤمن به وبرسله، وهذا حال من يعبد الله على حرف واحد، لم ترسخ قدمه في الإيمان وعبادة الله، فهو من المفتونين المعذبين، وإن فر من عذاب الناس له على الإيمان، ثم ذكر حال هذا عند نصرة المؤمنين، وأنهم إذا نصروا لجأ إليهم، وقال: كنت معكم، والله سبحانه يعلم من قلبه خلاف قوله.

ثم ذكر سبحانه ابتلاء نوح بقومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، وابتلاء قومه بطاعته فكذبوه، فابتلاهم بالغرق، ثم بعده بالحرق، ثم ذكر ابتلاء إبراهيم بقومه وما ردوا عليه، وابتلاهم بطاعته ومتابعته، ثم ذكر ابتلاء لوط بقومه، وابتلاءهم به وما صار إليه أمره وأمرهم، ثم ذكر ابتلاء شعيب بقومه وابتلاءهم به، وما انتهت إليه حالهم وحاله، ثم ذكر ما ابتلى به عادا وثمودا وقارون وفرعون وهامان وجنودهم من الإيمان به

وعبادته وحده، ثم ما ابتلاهم به من أنواع العقوبات.

ثم ذكر ابتلاء رسوله محمد ﷺ بأنواع الكفار من المشركين وأهل الكتاب، وأمره أن يجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن، ثم أمر عباده المبتلين بأعدائه أن يهاجروا من أرضهم إلىٰ أرضه الواسعة، فيعبدونه فيها، ثم نبههم بالنقلة الكبرىٰ من دار الدنيا إلىٰ دار الآخرة علىٰ نقلتهم الصغرىٰ من أرض إلىٰ أرض، وأخبرهم أن مرجعهم إليه، فلا قرار لهم في هذه الدار دون لقائه، ثم بين لهم حال الصابرين علىٰ الابتلاء فيه بأنه يبوؤهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، فسلاهم عن أرضهم ودارهم التي تركوها لأجله، وكانت مباء لهم بأن بوأهم دارًا أحسن منها، وأجمع لكل خير ولذة ونعيم مع خلود الأبد، وأن ذلك بصبرهم علىٰ الابتلاء وتوكلهم علىٰ ربهم، ثم أخبرهم بأنه ضامن لرزقهم في غير أرضهم، كما كان يرزقهم في أرضهم، فلا يهتموا بحمل الرزق فكم من دابة سافرت من مكان إلىٰ مكان لا تحمل رزقها.

ثم أخبرهم أن مدة الابتلاء والامتحان في هذه الدار قصيرة جدا بالنسبة إلىٰ دار الحيوان والبقاء، ثم ذكر سبحانه عاقبة أهل الابتلاء ممن لم يؤمن به، وأن مقامهم في هذه الدار تمتع، وسوف يعلمون عند النقلة منها ما فاتهم من النعيم المقيم، وما حصلوا عليه من العذاب الأليم، وذكر عاقبة أهل الابتلاء ممن آمن به وأطاع رسله وجاهد نفسه وعدوه في دار الابتلاء ما به هاديه وناصره، فأخبر سبحانه أن أجل عطاء وأفضله في الدنيا والآخرة هو لأهل الابتلاء الذين صبروا علىٰ ابتلائه وتوكلوا عليه، وأخبر أن أعظم عذابه وأشقه هو للذين لم يصبروا علىٰ ابتلائه وفروا منه، وآثروا النعيم العاجل عليه.

فمضمون هذه السورة هو سر الخلق والأمر، فإنها سورة الابتلاء والامتحان، وبيان حال أهل البلوىٰ في الدنيا والآخرة، ومن تأمل فاتحتها ووسطها وخاتمتها وجد في ضمنها أن أول الأمر ابتلاء وامتحان، ووسطه صبر وتوكل، وآخره هداية ونصر، والله المستعان.

***

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

[(١)] يقول تعالى: انظروا كيف بدأت الخلق؛ فاعتبروا الإعادة بالابتداء.

... [(٢)] وقال عن إمام الحنفاء أنه قال للمشركين: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥] ولما كان غاية صلاح العبد في عبادة الله وحده واستعانته وحده كان في عبادة غيره والاستعانة بغيره غاية مضرته.

ومما يوضح الأمر في ذلك ويبينه أن الله سبحانه غني حميد كريم رحيم، فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه سبحانه، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا وجودًا محضًا، فإنه رحيم لذاته، محسن لذاته، جواد لذاته، كريم لذاته، كما أنه غني لذاته، قادر لذاته، حي لذاته، فإحسانه وجوده وبره ورحمته من لوازم ذاته، لا يكون إلا كذلك، كما أن قدرته وغناه من لوازم ذاته، فلا يكون إلا كذلك، وأما العباد فلا يتصور أن يحسنوا إلا لحظوظهم...

---

(١) ١٤٧ الإعلام جـ١.

(٢) ٦١ الهجرتين.

...[١]وأهل المعاصي والفسوق، وإن كان بينهم نوع مودة وتحاب، فإنها تنقلب عداوة وبغضًا، وفي الغالب يتعجل لهم ذلك في الدنيا قبل الآخرة، وأما في الآخرة فـ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقال إمام الحنفاء: ﴿ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت: ٢٥]. فالمعاصي كلها توجب ذلك، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وذكر ذلك في الخمر الميسر - اللذين هما من أواخر المحرمات - تنبيه على ما في غيرهما من ذلك، مما حرم قبلهما، وهو أشد تحريما منهما، فإن ما يوقعه قتل النفوس، وسرقة الأموال، وارتكاب الفواحش من ذلك، وما يصد به عن ذكر الله وعن الصلاة أضعاف أضعاف ما يقتضيه الخمر والميسر، والواقع شاهد بذلك.

وكم وقع، وهو واقع بين الناس - بسبب عشق الصور - من العداوة والبغضاء، وزوال الألفة والمحبة، وانقلابها عداوة.

وأما صده عن ذكر الله، فقلب العاشق ليس فيه موضع لغير معشوقه، كما قيل:

مَا فِي الْفُؤَادِ لِغَيْرِ حُبِّكَ مَوْضِعٌ ... كَلاَّ، وَلا أَحَدٌ سِوَاكَ يَحُلُّهُ

وأما صده عن الصلاة، فهو إن لم يصد عن صورتها وأعمالها الظاهرة، فإنه يصد عن حقيقتها ومقاصدها الباطنة.

***

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا إِنَّا مُهْلِكُوٓا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

---

(١) ١٥٥ الإغاثة جـ٢.

...[1]سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩] قال: «كانوا يخذفون أهل الطريق، ويسخرون منهم، وذلك المنكر الذي كانوا يأتونه»[2] ذكره أحمد.

...[3]ثبت عنه ﷺ أنه قال: «لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم، لوط لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط، لعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط»[4] ولم تجئ عنه لعنة الزاني ثلاث مرات في حديث واحد، وقد لعن جماعة من أهل الكبائر، فلم يتجاوز بهم في اللعن مرة واحدة، وكرر لعن اللوطية، فأكده ثلاث مرات.

وأطبق أصحاب رسول الله ﷺ على قتله، لم يختلف منهم فيه رجلان، وإنما اختلفت أقوالهم في صفة قتله، فظن بعض الناس أن ذلك اختلافًا منهم في قتله، فحكاها مسألة نزاع بين الصحابة، وهي بينهم مسألة إجماع لا مسألة نزاع. قالوا: ومن تأمل قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]. وقوله في اللواط: ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠]. تبين له تفاوت ما بينهما، فإنه سبحانه نكَّر الفاحشة في الزنا، أي هو فاحشة من الفواحش، وعرفها في اللواط، وذلك يفيد أنه جامع لمعاني اسم الفاحشة، كما تقول زيد الرجل ونعم الرجل زيد، أي تأتون الخصلة التي استقر فحشها عند كل أحد، فهي

---

(١) ٣٩٩ الإعلام جـ٤.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٤١) وابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٥٤ رقم ١٧٢٧١) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤١٢ رقم ١٠٠٢) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٢٨٢) والحاكم (٤/ ٣١٦ رقم ٧٧٦١) وصححه والترمذي (رقم ٣١٩٠) وحسنه والطيالسي (رقم ١٦١٧).

(٣) ٢٣٠ الجواب.

(٤) أخرجه ابن حبان (١٠/ ٢٦٥ رقم ٤٤١٧) وفي الموارد (رقم ٥٣) والنسائي في الكبرى (٤/ ٣٢٢ رقم ٧٣٣٧) والبيهقي في الكبرى (٨/ ٢٣١ رقم ١٦٧٩٤) والحاكم (٤/ ٣٩٦ رقم ٨٠٥٣) والطبراني في الأوسط (٨/ ٢٣٤ رقم ٨٤٩٧) وفي الكبير (١١/ ٢١٨ رقم ١١٥٤٦) وأبو يعلى (٤/ ٤١٤ رقم ٢٥٣٩) وأحمد (١/ ٣٠٩) وصححه الحاكم.

لظهور فحشها وكماله غنية عن ذكرها بحيث لا ينصرف الاسم إلىٰ غيرها، وهذا نظير قول فرعون لموسىٰ: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ ﴾ [الشعراء: ١٩] أي الفعلة الشنعاء الظاهرة المعلومة لكل أحد.

ثم أكد سبحانه شأن فحشها بأنها لم يعملها أحد من العالمين قبلهم، فقال: ﴿ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ثم زاد في التأكيد بأن صرح بما تشمئز منه القلوب، وتنبو عنها الأسماع، وتنفر منه أشد النفور، وهو إتيان الرجل رجلا مثله، ينكحه كما ينكح الأنثىٰ، فقال: ﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ﴾ [الأعراف: ٨١]. ثم نبه علىٰ استغنائهم عن ذلك. وأن الحامل لهم عليه ليس إلاّ مجرد الشهوة لا الحاجة التي لأجلها مال الذكر إلىٰ الأنثىٰ من قضاء الوطر ولذة الاستمتاع وحصول المودة والرحمة التي تنسي المرأة لها أبويها وتذكر بعلها، وحصول النسل الذي هو حفظ هذا النوع الذي هو أشرف المخلوقات، وتحصين المرأة، وقضاء للوطر، وحصول علاقة المصاهرة التي هي أخت النسب، وقيام الرجال علىٰ النساء، وخروج أحب الخلق إلىٰ الله من جماعهن كالأنبياء والأولياء والمؤمنين، ومكاثرة النبي ﷺ الأنبياء بأمته إلىٰ غير ذلك من مصالح النكاح. والمفسدة التي في اللواط تقاوم ذلك كله وتربو عليه بما لا يمكن حصره وفساده، ولا يعلم تفصيله إلاّ الله ﷻ.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن اللوطية عكسوا فطرة الله التي فطر عليه الرجال، وقلبوا الطبيعة التي ركبها الله في الذكور، وهي شهوة النساء دون الذكور، فقلبوا الأمر، وعكسوا الفطرة والطبيعة، فأتوا الرجال شهوة من دون النساء، ولهذا قلب الله سبحانه عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وكذلك قلبوهم، ونكسوا في العذاب علىٰ رؤوسهم.

ثم أكد سبحانه قبح ذلك بأن حكم عليهم بالإسراف، وهو مجاوزة الحد، فقال: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨١] فتأمل هل جاء ذلك أو قريب منه في الزنا؟ وأكد سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]،

ثم أكد سبحانه عليهم الذم بوصفين في غاية القبح، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وسماهم مفسدين في قول نبيهم، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٠]، وسماهم ظالمين في قول الملائكة لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٣١].

***

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

...[1]تأمل حكمته تبارك وتعالى في عقوبات الأمم الخالية، وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وتأمل حكمته تعالى في مسخ من مسخ من الأمم في صور مختلفة مناسبة لتلك الجرائم، فإنها لما مسخت قلوبهم وصارت على قلوب تلك الحيوانات وطباعها، اقتضت الحكمة البالغة أن جعلت صورهم على صورها، لتتم المناسبة ويكمل الشبه، وهذا غاية الحكمة، واعتبر هذا بمن مسخوا قردة وخنازير، كيف غلبت عليهم صفات هذه الحيوانات وأخلاقها وأعمالها، ثم إن كنت من المتوسمين فاقرأ هذه النسخة من وجوه أشباههم ونظرائهم، كيف تراها بادية عليها، وإن كانت مستورة بصورة الإنسانية، فاقرأ نسخة القردة من صور أهل المكر والخديعة والفسق الذين لا عقول لهم، بل هم اخف الناس عقولا وأعظمهم مكرًا وخداعا وفسقا، فإن لم تقرأ نسخة القردة من وجوههم فلست من المتوسمين، واقرأ نسخة الخنازير من صور أشباههم ولاسيما أعداء خيار خلق الله بعد الرسل، وهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإن هذه النسخة ظاهرة على وجوه الرافضة، يقرأها كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وهي تظهر وتخفى بحسب خنزيرية القلب وخبثه، فإن

---

(١) ٢٥٤ المفتاح جـ١.

الخنزير أخبث الحيوانات وأردؤها طباعا، ومن خاصيته أنه يدع الطيبات فلا يأكلها، ويقوم الإنسان عن رجيعة فيبادر إليه، فتأمل مطابقة هذا الوصف لأعداء الصحابة كيف تجده منطبقًا عليهم، فإنهم عمدوا إلىٰ أطيب خلق الله وأطهرهم فعادوهم وتبرؤوا منهم، ثم والوا كل عدو لهم من النصارىٰ واليهود والمشركين، فاستعانوا في كل زمان علىٰ حرب المؤمنين الموالين لأصحاب رسول الله ﷺ بالمشركين والكفار، وصرحوا بأنهم خير منهم، فأي شبه ومناسبة أولىٰ بهذا الضرب من الخنازير، فإن لم تقرأ هذه النسخة من وجوههم فلست من المتوسمين.

...[1]وقال تعالىٰ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٣٨] وهذا يدل علىٰ أن قولهم: ﴿ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود: ٥٣] إما بهت منهم وجحود، وإما نفي لآيات الاقتراح والعنت، ولا يجب الإتيان بها.

وقد وصف سبحانه ثمود بأنها كفرت عن علم وبصيرة بالحق، ولهذا قال: ﴿ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ ﴾ [الإسراء: ٥٩] يعني بينة مضيئة، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ ﴾ أي مضيئة، وحقيقة اللفظ أنها تجعل من رآها مبصرا، فهي توجب له البصر فتبصره، أي تجعله ذا بصر، فهي موضحة مبينة، يقال: بصر به إذا رآه كقوله تعالىٰ: ﴿ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ ﴾ [القصص: ١١] وقوله: ﴿ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ ﴾ [طه: ٩٦]. وأما أبصره فله معنيان:

أحدهما: جعله باصرًا بالشيء أي ذا بصر به، كآية النهار وآية ثمود.

والثاني: بمعنىٰ رآه كقولك: أبصرت زيدًا. وفي حديث أبي شريح العدوي: أحدثك قولًا قال به رسول الله ﷺ يوم الفتح، فسمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين

(١) ٩٢ المفتاح جـ١.

تكلم به، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصافات: ١٧٤، ١٧٥] قيل: المعنىٰ أبصرهم وما يقضي عليهم من الأسر والقتل والعذاب في الآخرة، فسوف يبصرونك، وما يقضىٰ لك من النصر والتأييد وحسن العاقبة، والمراد تقريب المبصر من المخاطب، حتىٰ كأنه نصب عينيه ورأىٰ ناظريه.

والمقصود: أن الآية أوجبت لهم البصيرة، فآثروا الضلال والكفر عن علم ويقين، ولهذا والله أعلم ذكر قصتهم من بين قصص سائر الأمم في سورة والشمس وضحاها لأنه ذكر فيها انقسام النفوس إلىٰ الزكية الراشدة المهتدية والىٰ الفاجرة الضالة الغاوية، وذكر فيها الأصلين: القدر والشرع، فقال: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧] فهذا قدره وقضاؤه، ثم قال: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس: ٩، ١٠] فهذا أمره ودينه، وثمود هداهم فاستحبوا العمىٰ علىٰ الهدىٰ، فذكر قصتهم ليبين سوء عاقبة من آثر الفجور علىٰ التقوىٰ والتدسية علىٰ التزكية، والله أعلم بما أراد.

قالوا: ويكفي في هذا إخباره تعالىٰ عن الكفار أنهم يقولون بعد ما عاينوا العذاب ووردوا القيامة ورأوا ما أخبرت به الرسل: ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨] فأي علم أبين من علم من ورد القيامة ورأىٰ ما فيها، وذاق عذاب الآخرة، ثم ورد إلىٰ الدنيا لاختار الضلال علىٰ الهدىٰ ولم ينفعه ما قد عاينه ورآه.

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١١١] فهل بعد نزول الملائكة عيانًا، وتكليم الموتىٰ لهم، وشهادتهم للرسول بالصدق، وحشر كل شيء في الدنيا عليهم من بيان وإيضاح للحق وهدىٰ، ومع هذا فلا يؤمنون، ولا ينقادون للحق، ولا يصدقون الرسول...

***

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

(١) ذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا، وهو من أوهن البيوت وأضعفها، وتحت هذا المثل أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء، فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفًا.

كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢] وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥] وقال بعد أن ذكر إهلاك الأمم المشركين: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود: ١٠١].

فهذه أربعة مواضع في القرآن تدل على أن من اتخذ من دون الله وليًّا يتعزز به ويتكبر به ويستنصر به لم يحصل له به إلا ضد مقصوده، وفي القرآن أكثر من ذلك، وهذا من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك وخسارة صاحبه وحصوله على ضد مقصوده.

فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

فالجواب: أنه سبحانه لم ينف عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا، فلو علموا ذلك لما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزا وقدرة، فكان الأمر بخلاف ما ظنوه.

---

(١) ١٥٤ الإعلام جـ١.

...[1]ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس، وقد تأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر والله أعلم.

***

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ (٤٣) ﴾.

...[2]إنه سبحانه أخبر عن أمثاله التي يضربها لعباده يدلهم على صحة ما أخبر به: أن أهل العلم هم المنتفعون بها المختصون بعلمها، فقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي القرآن بضعة وأربعون مثلًا، وكان بعض السلف إذا مر بمثل لا يفهمه يبكي ويقول: لست من العالمين.

...[3]وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ أخبر تعالى أنه لا يعقل أمثاله إلا العالمون، والكفار لا يدخلون في مسمى العالمين، فهم لا يعقلونها وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ﴾ [البقرة: ١١٨] وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩] ولو كان الضلال بجامع العلم لكان الذين لا يعلمون أحسن حالًا من الذين يعلمون والنص بخلافه، والقرآن مملوء بسلب العلم والمعرفة عن الكفار، فتارة يصفهم بأنهم لا

---

(١) ٩ البدائع جـ٤.
(٢) ٥١ المفتاح جـ١.
(٣) ٨٨ المفتاح جـ١.

يعلمون، وتارة بأنهم لا يعقلون، وتارة بأنهم لا يشعرون، وتارة بأنهم لا يفقهون، وتارة بأنهم لا يسمعون. والمراد بالسمع المنفي سمع الفهم، وهو سمع القلب لا إدراك الصوت، وتارة بأنهم لا يبصرون، فدل ذلك كله على أن الكفر مستلزم للجهل مناف للعلم لا يجامعه، ولهذا يصف سبحانه الكفار بأنهم جاهلون، كقوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] وقوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

...[١]زين الله به ألسنة الذاكرين كما زين بالنور أبصار الناظرين، فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واليد الشلاء، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري رحمه الله: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر وقراءة القرآن، فإن وجدتموه فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها وإلا فاعلموا أن الباب مغلق[٢].

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان، قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب فإن دنا منه الشيطان صرعه، كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان، فيجتمع عليه الشياطين، فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي.

وهو روح الأعمال الصالحة، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه، والله أعلم.

وهو في القرآن على عشرة أوجه: الأول: الأمر به مطلقًا ومقيدًا. الثاني: النهي عن ضده

---

(١) ٤٢٤ جـ٢.

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧١) (١٠/ ١٤٦).

من الغفلة والنسيان. الثالث: تعليق الفلاح باستدامته وكثرته. الرابع: الثناء علىٰ أهله والإخبار بما أعد الله لهم من الجنة والمغفرة. الخامس: الإخبار عن خسران من لها عنه بغيره. السادس: أنه سبحانه جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له. السابع: الإخبار أنه أكبر من كل شيء. الثامن: أنه جعله خاتمة الأعمال الصالحة، كما كان مفتاحها. التاسع: الإخبار عن أهله بأنهم هم أهل الانتفاع بآياته، وأنهم أولو الألباب دون غيرهم. العاشر: أنه جعله قرين جميع الأعمال الصالحة وروحها، فمتىٰ عدمته كانت كالجسد بلا روح.

تفصيل ذلك: أما الأول: فكقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣] وقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وفيه قولان: أحدهما: في سرك وقلبك. والثاني: بلسانك بحيث تسمع نفسك، وأما النهي عن ضده: فكقوله: ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩].

وأما تعليق الفلاح بالإكثار منه: فكقوله: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥] وأما الثناء علىٰ أهله وحسن جزائهم: فكقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وأما خسران من لها عنه، فكقوله تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩] وأما جعل ذكره لهم جزاء لذكرهم له فكقوله: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

***

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ ﴾.

[1]فيها أربعة أقوال:

أحدها: أن ذكر الله أكبر من كل شيء، فهو أفضل الطاعات، لأن المقصود بالطاعات كلها: إقامة ذكره، فهو سر الطاعات وروحها.

الثاني: أن المعني: أنكم إذا ذكرتموه ذكركم، فكان ذكره لكم أكبر من ذكركم له، فعلى هذا: المصدر مضاف إلى الفاعل، وعلى الأول: مضاف إلى المذكور.

الثالث: أن المعنى: ولذكر الله أكبر من أن يبقى معه فاحشة ومنكر، بل إذا تم الذكر: محق كل خطيئة ومعصية، هذا ما ذكره المفسرون.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقول: معنى الآية: أن في الصلاة فائدتين عظيمتين: إحداهما: نهيها عن الفحشاء والمنكر، والثانية: اشتمالها على ذكر الله وتضمنها له، ولما تضمنته من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وأما ختم الأعمال الصالحة به: فكما ختم به عمل الصيام بقوله: ﴿ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وختم به الحج في قوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠] وختم به الصلاة كقوله: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء: ١٠٣].

...[2]إنه سبحانه مدح أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصة ومنقبة لهم دون غيرهم، فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ

(١) ٤٢٦ مدارج جـ٢.

(٢) ٢٠٥ المفتاح جـ١.

وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧-٤٩] وسواء كان المعنى: أن القرآن مستقر في صدور الذين أوتوا العلم ثابت فيها محفوظ، وهو في نفسه آيات بينات، فيكون أخبر عنه بخبرين:

أحدهما: أنه آيات بينات.

الثاني: أنه محفوظ مستقر ثابت في صدور الذين أوتوا العلم، أو كان المعنى أنه آيات بينات في صدورهم، أي كونه آيات بينات، معلوم لهم ثابت في صدورهم، والقولان متلازمان ليسا بمختلفين، وعلى التقديرين فهو مدح لهم وثناء عليهم في ضمنه الاستشهاد، بهم فتأمله.

***

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

...[(١)] روى أبو داود في مراسيله، عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة، فقال: «كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل على غير نبيهم»، فأنزل الله ﷻ تصديق ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[(٢)] [العنكبوت: ٥١]، فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ، فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟.

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا

---

(١) ٩٨ جلاء الأفهام.

(٢) أخرجه أبو داود في مراسيله (رقم ٤٥٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨).

أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهىٰ عنه، كما قال ﷺ: «**ما تركت من شيء يقربكم إلىٰ الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلىٰ النار إلا وقد نهيتكم عنه**»[١] قال أبو ذر: «لقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علماً»[٢].

وعرفهم حالهم بعد القدوم علىٰ ربهم أتم تعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلىٰ ربهم إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه وشرحه، حتىٰ هدىٰ الله به القلوب من ضلالها، وشفاهًا به من أسقامها، وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته أفضل الجزاء.

...[٣]وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلىٰ شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلىٰ شريعة وحقيقة، وكتقسيم آخرين الدين إلىٰ عقل ونقل، وكل ذلك تقسيم باطل، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل، كل ذلك ينقسم إلىٰ قسمين: صحيح وفاسد، فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها ، والباطل ضدها ومنافيها، وهذا الأصل من أهم الأصول وأنفعها، وهو مبني علىٰ حرف واحد، وهو عموم رسالته ﷺ بالنسبة إلىٰ كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، وأنه لم يحوج أمته إلىٰ أحد بعده، وإنما حاجتهم إلىٰ من يبلغهم عنه ما جاء به، فلرسالته عمومان محفوظان، لا يتطرق إليهما تخصيص: عموم بالنسبة إلىٰ المرسل إليهم، وعموم بالنسبة إلىٰ كل ما يحتاج من بعث إليه من أصول الدين وفروعه، فرسالته كافية شافية عامة، لا تحوج إلىٰ سواها، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا ، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ، ولا يخرج نوع من أنواع الحق الذي تحتاج

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ٢٩٩ رقم ١٠٣٧٦) وهناد في الزهد (١/ ٢٨١ رقم ٤٩٤) وابن أبي شيبة (٧/ ٧٩ رقم ٣٤٣٣٢).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٥٥ رقم ١٦٤٧) والصيداوي في معجم الشيوخ (ص ١٤٢) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٣/ ٢٣٨).

(٣) ٣٧٥ الإعلام جـ٤.

إليه الأمة في علومها وأعمالها عما جاء به.

وقد توفي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر للأمة منه علماً، وعلمهم كل شيء حتى آداب التخلي وآداب الجماع والنوم والقيام والقعود، والأكل والشرب، والركوب والنزول، والسفر والإقامة، والصمت والكلام، والعزلة والخلطة، والغنى والفقر، والصحة والمرض، وجميع أحكام الحياة والموت. ووصف لهم العرش والكرسي والملائكة والجن والنار والجنة ويوم القيامة وما فيه حتى كأنه رأي عين. وعرفهم معبودهم وإلههم أتم تعريف حتى كأنهم يرونه ويشاهدونه بأوصاف كماله ونعوت جلاله. وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرى لهم وما جرى عليهم معهم، حتى كأنهم كانوا بينهم ، وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله. عرفهم ﷺ من أحوال الموت وما يكون بعده في البرزخ وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن ما لم يعرف به نبي غيره. وكذلك عرفهم ﷺ من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد على جميع فرق أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه حاجة من بعده، اللهم إلا إلى من يبلغه إياه ويبينه ويوضح منه ما خفي عليه. وكذلك عرفهم ﷺ من مكائد الحروب ولقاء العدو، وطرق النصر والظفر ما لو علموه وعقلوه ورعوه حق رعايته لم يقم لهم عدو أبداً.

وكذلك عرفهم ﷺ من مكايد إبليس وطرقه التي يأتيهم منها وما يتحرزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه. وكذلك عرفهم ﷺ من أحوال نفوسهم وأوصافها ودسائسها وكمائنها ما لا حاجة لهم معه إلى سواه. وكذلك عرفهم ﷺ من أمور معايشهم ما لو علموه وعملوه لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة.

وبالجملة فجاءهم بخير الدنيا والآخرة برمته ، ولم يحوجهم الله إلى أحد سواه، فكيف يظن إن شريعته الكاملة التي ما طرق العالم شريعة أكمل منها ناقصة تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تكملها ، أو إلى قياس أو حقيقة أو معقول خارج عنها؟ ومن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلى رسول آخر بعده ، وسبب هذا كله خفاء ما

جاء به على من ظن ذلك، وقلة نصيبه من الفهم الذي وفق الله له أصحاب نبيه، الذين اكتفوا بما جاء به، واستغنوا به عما سواه، وفتحوا به القلوب والبلاد، وقالوا: هذا عهد نبينا إلينا وهو عهدنا إليكم، وقد كان عمر ﷺ يمنع من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية أن يشتغل الناس به عن القرآن، فكيف لو رأى اشتغال الناس بآرائهم وزبد أفكارهم وزبالة أذهانهم عن القرآن والحديث؟ فالله المستعان.

وقد قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي هو وما تبينه السنة بعشر معشار الشريعة ؟ أم كيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يستفاد منه اليقين في مسألة واحدة من مسائل معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله؟ أو عامتها ظواهر لفظية دلالتها موقوفة على انتفاء عشرة أمور لا يعلم انتفاؤها ، سبحانك هذا بهتان عظيم!.

ويا لله العجب! كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين التي أتى الله بنيانها من القواعد وقبل استخراج هذه الآراء والمقاييس والأوضاع؟ أهل كانوا مهتدين مكتفين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك؟ حتى جاء المتأخرون فكانوا أعلم منهم وأهدى وأضبط للشريعة منهم، وأعلم بالله وأسمائه وصفاته، وما يجب له وما يمتنع عليه منهم؟ فوالله لأن يلقى الله عبده بكل ذنب ما خلا الإشراك لخير من أن يلقاه بهذا الظن الفاسد والاعتقاد الباطل. اهـ.

...[1]فائدة: قال ابن عقيل: الجري في جواز العمل في السلطنة الشرعية بالسياسة

---

(١) ١٥٢ البدائع جـ٣.

هو الحزم فلا يخلو منه إمام، قال الشافعي: لا سياسة إلا ما وافق الشرع. قال ابن عقيل: السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول ولا نزل به وحي، فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح وإن أردت ما نطق به الشرع فغلط وتغليط للصحابة، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجحده عالم بالسنن، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأيا اعتمدوا فيه على مصلحة وتحريق علي في الأخاديد، وقال:

إني إذا شاهدت أمرًا منكرًا أجججت ناري ودعوت قنبرًا[(١)]

ونفى عمر نصر بن حجاج. (قلت): هذا موضع مزله أقدام، وهو مقام ضنك ومعترك صعب، فرط فيه طائفة، فعطلوا الحدود، وضيعوا الحقوق، وجرؤوا أهل الفجور على الفساد، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بها مصالح العباد، وسدوا على نفوسهم طرقا عديدة من طرق معرفة الحق من الباطل، بل عطلوها مع علمهم قطعا وعلم غيرهم بأنها أدلة حق ظنا منهم منافاتها لقواعد الشرع، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة الشريعة، فلما رأى ولاة الأمر ذلك، وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة، أحدثوا لهم قوانين سياسية، ينتظم بها أمر العالم، فتولد من تقصير أولئك في الشريعة، وإحداث ما أحدثوه من أوضاع سياستهم شر طويل وفساد عريض، وتفاقم الأمر وتعذر استدراكه.

وأفرطت طائفة أخرى فسوغت منه ما ينافي حكم الله ورسوله، وكلا الطائفتين أتت من تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله، فإن الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط، وهو العدل الذي به قامت السماوات والأرض، فإذا ظهرت

---

(١) انظر: التمهيد (٥/ ٣١٨) وفتح الباري (١٢/ ٢٧٠)، وميزان الاعتدال (٢/ ٤٠٤)، وشرح الزرقاني (٤/ ١٨) وتاريخ دمشق (٤٢/ ٤٧٦) وطبقات المحدثين (٢/ ٣٤٣) ونيل الأوطار (٨/ ٦) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: وهذا سند حسن.

أمارات العدل وتبين وجهه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه. والله تعالىٰ لم يحصر طرق العدل وأدلته وعلاماته في شيء ونفىٰ غيرها من الطرق التي هي مثلها أو أقوىٰ منها، بل بين ما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل وقيام الناس بالقسط، فأي طريق استخرج بها العدل والقسط، فهي من الدين (لا يقال): إنها مخالفة له، فلا تقول: إن السياسة العادلة مخالفة لما نطق به الشرع، بل موافقة لما جاء به، بل هي جزء من أجزائه، ونحن نسميها سياسة تبعا لمصطلحكم، وإنما هي شرع حق، فقد حبس رسول الله ﷺ في نميمة[1]، وعاقب في تهمة، لما ظهر أمارات الريبة علىٰ المتهم، فمن أطلق كل متهم وخلىٰ سبيله مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض ونقبه البيوت وكثرة سرقاته، وقال: لا آخذه إلا بشاهدي عدل، فقوله مخالف للسياسة الشرعية وكذلك منع النبي ﷺ الغال من سهمه من الغنيمة، وتحريق الخلفاء الراشدين متاعه، وكذلك أخذه شطر مال مانع الزكاة، وكذلك إضعافه الغرم علىٰ سارق ما لا يقطع فيه وعقوبته بالجلد.

وكذلك إضعافه الغرم علىٰ كاتم الضالة، وكذلك تحريق عمر حانوت الخمار، وتحريقه قريه خمر وتحريقه قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب فيه عن الرعية. وكذلك حلقه رأس نصر بن حجاج ونفيه، وكذلك ضربه صبيغًا، وكذلك مصادرته عماله، وكذلك إلزامه الصحابة أن يقلوا الحديث عن رسول الله ﷺ ليشتغل الناس بالقرآن، فلا يضيعوه، إلىٰ غير ذلك من السياسة التي ساس بها الأمة، فصارت سنة إلىٰ يوم القيامة، وإن خالفها من خالفها.

ومن هذا تحريق الصديق ﷺ للوطي، ومن هذا تحريق عثمان ﷺ للصحف المخالفة للسان قريش، ومن هذا اختيار عمر ﷺ للناس الإفراد بالحج، ليعتمروا في غير أشهره، فلا يزال البيت الحرام مقصودا، إلىٰ أضعاف أضعاف ذلك من سياسته

(١) كذا بالأصل، ولعلها: تهمة (ج).

التي ساسوا بها الأمة، وهي بتأويل القرآن وسننه. وتقسيم الناس الحكم إلىٰ شرعية وسياسية، كتقسيم من قسم الطريقة إلىٰ شريعة وحقيقة، وذلك تقسيم باطل، فالحقيقة نوعان: حقيقة: هي حق صحيح، فهي لب الشرعية لا قسيمتها، وحقيقة باطلة فهي مضادة للشريعة كمضادة الضلال للهدىٰ.

وكذلك السياسة نوعان: سياسة عادلة فهي جزء من الشريعة وقسم من أقسامها لا قسيمتها، وسياسة باطلة فهي مضادة للشريعة مضادة الظلم للعدل. ونظير هذا تقسيم بعض الناس الكلام في الدين إلىٰ الشرع والعقل هو تقسيم باطل، بل المعقول قسمان: قسم يوافق ما جاء به الرسول فهو معقول كلامه ونصوصه، لا قسيم ما جاء به، وقسم يخالفه فذلك ليس بمعقول وإنما هي خيلات وشبه باطلة لظن صاحبها أنها معقولات، وإنما هي خيالات وشبهات وكذلك القياس والشرع، فالقياس الصحيح هو معقول النصوص، والقياس الباطل المخالف للنصوص مضاد للشرع.

فهذا الفصل هو فرق ما بين ورثة الأنبياء وغيرهم، وأصله مبني علىٰ حرف واحد، وهو عموم رسالته بالسنة إلىٰ كل ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم، التي بها صلاحهم في معاشهم ومعادهم، وأنه لا حاجة إلىٰ أحد سواه البتة، وإنما حاجتنا إلىٰ من يبلغنا عنه ما جاء به، فمن لم يستقر هذا في قلبه لم يرسخ قدمه في الإيمان بالرسول.

بل يجب الإيمان بعموم رسالته في ذلك كما يجب الإيمان بعموم رسالته بالنسبة إلىٰ المكلفين، فكما لا يخرج أحد من الناس عن رسالته البتة، فكذلك لا يخرج حق من العلم به والعمل عما جاء به، فما جاء به هو الكافي الذي لا حاجة بالأمة إلىٰ سواه، وإنما يحتاج إلىٰ غيره من قل نصيبه من معرفته، وفهمه فبحسب قلة نصيبه من ذلك تكون حاجته، وإلا فقد توفي رسول الله ﷺ وما من طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وقد ذكر للأمة منه علما، وعلمهم كل شيء حتىٰ آداب التخلي والجماع والنوم والقعود والأكل والشرب والركوب والنزول ووصف لهم وآداب العرش والكرسي

والملائكة والجنة والنار ويوم القيامة وما فيه حتىٰ كأنه رأي عين عرفهم بربهم ومعبودهم أتم تعريف، حتىٰ كأنهم يرونه بما وصفه لهم به من صفات كماله ونعوت جلاله، وعرفهم الأنبياء وأممهم وما جرىٰ لهم معهم حتىٰ كأنهم كانوا بينهم.

وعرفهم من طرق الخير والشر دقيقها وجليلها ما لم يعرفه نبي لأمته قبله، وعرفهم من أحوال الموت، وما يكون بعده في البرزخ، وما يحصل فيه من النعيم والعذاب للروح والبدن، ما جلىٰ لهم ذلك حتىٰ كأنهم يعاينوه، وكذلك عرفهم من أدلة التوحيد والنبوة والمعاد والرد علىٰ جميع طوائف أهل الكفر والضلال ما ليس لمن عرفه إلىٰ كلام أحد من الناس البتة.

وكذلك عرفهم من مكايد الحروب ولقاء العدو وطرق الظفر به ما لو علموه وفعلوه لم يقم لهم عدو أبدًا، وكذلك عرفهم من مكائد إبليس طرقه التي يأتيهم منها، ويحترزون به من كيده ومكره، وما يدفعون به شره ما لا مزيد عليه. وبذلك أرشدهم في معاشهم إلىٰ ما لو فعلوه، لاستقامت لهم دنياهم أعظم استقامة، وبالجملة فقد جاءهم رسول الله بخير الدنيا والآخرة بحذافيره، ولم يجعل الله بهم حاجة إلىٰ أحد سواه، ولهذا ختم الله به ديوان النبوة، فلم يجعل بعده رسولا لاستغناء الأمة به عمن سواه، فكيف يظن أن شريعته الكاملة المكملة محتاجة إلىٰ سياسة خارجه عنها، أو إلىٰ حقيقة خارجه عنها، أو إلىٰ قياس خارج عنها، أو إلىٰ معقول خارج عنها، فمن ظن ذلك فهو كمن ظن أن بالناس حاجة إلىٰ رسول آخر بعده، وسبب هذا كله خفاء ما جاء به علىٰ من ظن ذلك.

قال تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥١] وقال تعالىٰ: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ

جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧] وكيف يشفي ما في الصدور كتاب لا يفي بعشر معشار ما الناس محتاجون إليه على زعمهم الباطل. ويا لله العجب كيف كان الصحابة والتابعون قبل وضع هذه القوانين واستخراج هذه الآراء والمقاييس والأقوال، أهل كانوا مهتدين بالنصوص أم كانوا على خلاف ذلك؟ حتى جاء المتأخرون أعلم منهم وأهدي منهم، هذا ما لا يظنه من به رمق من عقل أو حياء، نعوذ بالله من الخذلان، ولكن من أوتي فهما في الكتاب وأحاديث الرسول ﷺ استغنى بهما عن غيرهما بحسب ما أوتيه من الفهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. وهذا الفصل لو بسط كما ينبغي لقام منه عدة أسفار، ولكن هذه لفظات تشير إلى ما وراءها.

***

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

[(1)] الاسم السابع دار الحيوان، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] والمراد الجنة عند أهل التفسير، قالوا: وأن الآخرة يعني الجنة لهي الحيوان، لهي دار الحياة، التي لا موت فيها، فقال الكلبي: هي حياة لا موت فيها، وقال الزجاج: هي دار الحياة الدائمة. وأهل اللغة على أن الحيوان بمعنى الحياة. وقال أبو عبيدة وابن قتيبة: الحياة الحيوان. قال أبو عبيدة: الحياة والحيوان والحي بكسر الحاء واحد. قال أبو علي. يعني أنها مصادر، فالحياة فعلة كالجلبة، والحيوان كالنزوان والغليان، والحي كالعي. قال العجاج: كنا بها إذ الحياة حي، أي إذا الحياة حياة.

وأما أبو زيد فخالفهم وقال: الحيوان ما فيه روح، والموتان والموات ما لا روح فيه، والصواب أن الحيوان يقع على ضربين: (أحدهما) مصدر كما حكاه أبو عبيدة.

(١) ٧٤ حادي الأرواح.

(والثاني) وصف كما حكاه أبو زيد، وعلى قول أبي زيد الحيوان مثل الحي خلاف الميت، ورجح القول الأول بأن الفعلان بابه المصادر كالنزوان والغليان بخلاف الصفات، فإن بابها فعلان كسكران وغضبان، وأجاب من رجح القول الثاني بأن فعلان قد جاء في الصفات أيضا، قالوا رجل ضميان للسريع الخفيف، وزفيان قال في الصحاح: ناقة زفيان سريعة، وقوس زفيان سريعة الإرسال للسهم، فيحتمل قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ [العنكبوت: ٦٤] معنيين: (أحدهما): أن الحياة الآخرة هي الحياة لأنها لا تنغيص فيها ولا نفاد لها، أي لا يشوبها ما يشوب الحياة في هذه الدار، فيكون الحيوان مصدرا على هذا. (والثاني): أن يكون المعنى أنها الدار التي لا تفنى ولا تنقطع ولا تبيد، كما يفنى الأحياء في هذه الدنيا، فهي أحق بهذا الاسم من الحيوان الذي يفنى ويموت.

***

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

[1]التوحيد مفزع أعدائه وأوليائه: فأما أعداؤه فينجيهم من كرب الدنيا وشدائدها: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وأما أولياؤه فينجيهم من كربات الدنيا والآخرة وشدائدها. ولذلك فزع إليه يونس، فنجّاه الله من تلك الظلمات، وفزع إليه أتباع الرسل فنجوا به مما عذب به المشركون في الدنيا وما أعد لهم في الآخرة. ولما فزع إليه فرعون، عند معاينة الهلاك وإدراك الغرق، لم ينفعه، لأن الإيمان عند المعاينة لا يقبل. هذه سنة الله في عباده. فما دفعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد. ولذلك كان دعاء الكرب بالتوحيد، ودعوة ذي النون التي ما دعا بها مكروب إلا فرّج الله كربه بالتوحيد. فلا يلقى في

---

(١) ٥٩ فوائد.

الكرب العظام إلا الشرك، ولا ينجي منها إلا التوحيد، فهو مفزع الخليقة وملجؤها وحصنها وغياثها. وبالله التوفيق.

***

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

...[1]قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩] علق سبحانه الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد، فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد، قال الجنيد: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة لنهدينهم سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه.

...[2]ولترجيح المصالح رتب متفاوتة، فتارة تترجح بعموم النفع وتارة تترجح بزيادة الإيمان وتارة تترجح بمخالفة النفس وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن في غيرها. فهذه خمس جهات من الترجيح قل أن يعدم واحدة منها. فإن أعوزه ذلك كله تخلى عن الخواطر جملة وانتظر ما يحركه به محرك القدر وافتقر إلى ربه افتقار مستنزل ما يرضيه ويحبه فإذا جاءته الحركة استخار الله وافتقر إليه افتقارًا ثانيًا خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية لعدم العصمة في حقه واستمرار المحنة بعدوه ما دام في عالم الابتلاء والامتحان ثم أقدم على الفعل. فهذا نهاية ما في مقدور الصادقين.

ولأهل الجهاد في هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة ولهذا قال

---

(١) ٥٩ فوائد.

(٢) ٥١٠ مدارج جـ١.

الأوزاعي وابن المبارك: إذا اختلف الناس في شيء فانظروا ما عليه أهل الثغر يعني أهل الجهاد فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة العنكبوت

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الرُّومِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ﴾.

...[1]أما مراهنة الصديق للمشركين بعلمه وإذنه، فروى الترمذي في جامعه من حديث سفيان الثوري عن حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم: ١-٣] كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم، لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب، فذكروه لأبي بكر ﷺ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال: «أما إنهم سيغلبون» فذكروه لهم، فقالوا: اجعلوا بيننا وبينكم أجلًا، فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا، فجعل أجل خمس سنين، فلم يظهروا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «ألا جعلت إلى دون العشر» قال سعيد: والبضع ما دون العشر، قال: ثم ظهرت الروم بعد، قال: فذلك قوله: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ١-٥] قال سفيان: سمعت أنهم ظهروا عليهم[2] يوم بدر، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي جامعِهِ أيضًا عن نيار بن مكرم الأسلمي قال: لما نزلت ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ

---

(١) ٤ الفروسية.

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٢٦ رقم ١١٣٨٩) والترمذي (رقم ٣١٩٣).

﴿٣﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ وكانت فارس يوم نزلت هذه الآية قاهرين للروم وكان المسلمون يحبون ظهور الروم عليهم، لأنهم وإياهم أهل كتاب، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وكانت قريش تحب ظهور فارس لأنهم وإياهم ليسوا بأهل كتاب ولا إيمان ببعث، فلما أنزل الله هذه الآية خرج أبو بكر الصديق يصيح في نواحي مكة ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ فقال ناس من قريش لأبي بكر: فذلك بيننا وبينكم بزعم صاحبك أن الروم ستغلب فارس في بضع سنين أفلا نراهنك علىٰ ذلك؟ قال: بلىٰ، قال: وذلك قبل تحريم الرهان، فارتهن أبو بكر والمشركون، وتواضعوا الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم نجعل البضع، وهو ثلاث سنين إلىٰ تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطا ننتهي إليه. قال: فسموا بينهم ست سنين. قال: فمضت الست سنين قبل أن يظهروا فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم علىٰ فارس، فعاب المسلمون علىٰ أبي بكر تسميته ست سنين، لأن الله قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ قال: أسلم عند ذلك ناس كثير[1]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي الجامع أيضًا من حديث ابن عباس أن رسول الله قال لأبي بكر في مناحبته: «ألا أخفضت ـ وفي لفظ: ألا احتطت ـ فإن البضع ما بين الثلاث إلىٰ التسع»[2] من حديث الزهري عن عبيد الله بن عتبة عن ابن عباس، وقوله في الحديث «مناحبته» فالمناحبة المخاطرة وهي المراهنة، من النحب وهو النذر، وكلاهما مناحب هذا بالعقد وهذا بالنذر.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٩١) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١/ ٣٧٩).

وقوله: «ألا أخفضت» يجوز أن يكون من الخفض وهو الدعة، والمعنى: هلا نفست المدة فكنت في خفض من أمرك ودعة، ويجوز أن يكون من الخفض الذي هو من الانخفاض، أي هلا استنزلتم إلى أكثر مما اتفقتم عليه، وقوله في اللفظ الآخر: هلا «احتطت» هو من الاحتياط، أي هلا أخذت بالأحوط، وجعلت الأجل أقصى ما ينتهي إليه البضع، فإن النص لا يتعداه، وقوله: وذلك قبل تحريم الرهان. من كلام بعض الرواة، ليس من كلام أبي بكر، ولا من كلام النبي ﷺ.

وقد اختلف أهل العلم في إحكام هذا الحديث ونسخه على قولين، فادعت طائفة نسخه بنهي النبي ﷺ عن الغرر والقمار، قالوا: ففي الحديث دلالة على ذلك، وهو قوله وذلك قبل تحريم الرهان، قالوا: ويدل على نسخه ما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا سبق إلا في خف أو حافر أو نصل**»[1]. والسبق بفتح السين والباء، وهو الحظ الذي وقع عليه الرهان. وإلى هذا القول ذهب أصحاب مالك والشافعي وأحمد.

وادعت طائفة أنه محكم غير منسوخ، وأنه ليس مع مدعي نسخه حجة يتعين المصير إليها، قالوا: والرهان لم يحرم جملة، فإن النبي راهن في تسبيق الخيل كما تقدم، وإنما الرهان على المحرم الرهان على الباطل، الذي لا منفعة فيه في الدين، وأما الرهان على ما فيه ظهور أعلام الإسلام وأدلته وبراهينه، كما قد راهن عليه الصديق فهو من أحق الحق، وهو أولى بالجواز من الرهان على النضال وسباق الخيل والإبل أدنى، وأثر هذا في الدين أقوى، لأن الدين قام بالحجة والبرهان وبالسيف والسنان، والمقصد الأول إقامته بالحجة والسيف منفذ.

قالوا: وإذا كان الشارع قد أباح الرهان في الرمي والمسابقة بالخيل والإبل، لما في

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٧٤) وابن ماجه (رقم ٢٨٧٨) والنسائي (رقم ٣٥٨٩) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ١٦ رقم ١٩٥٣٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٢٨ رقم ٣٣٥٦٢) والطبراني في الصغير (رقم ٥٠) وفي الكبير (١٠/ ٣١٤ رقم ١٠٧٦٤).

ذلك من التحريض على تعلم الفروسية وإعداد القوة للجهاد، فجواز ذلك في المسابقة والمبادرة إلى العلم والحجة التي بها تفتح القلوب ويعز الإسلام وتظهر أعلامه أولى وأحرى. وإلى هذا ذهب أصحاب أبي حنيفة وشيخ الإسلام ابن تيمية. قال أرباب هذا القول: والقمار المحرم هو أكل المال بالباطل، فكيف يلحق به أكله بالحق؟ قالوا: والصديق لم يقامر قط في جاهلية ولا إسلام، ولا أقر رسول الله ﷺ على قمار فضلًا عن أن يأذن فيه، وهذا تقرير قول الفريقين[(١)].

***

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

...[(٢)]ذكر سماع الجنة وغناء الحور العين وما فيه من الطرب واللذة. قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤، ١٥] قال محمد بن جرير: حدثني محمد بن موسى الحرشي قال: حدثنا عامر بن نساف قال سألت يحيى بن أبي كثير عن قوله ﷻ: ﴿ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ قال: الحبرة اللذة والسماع، حدثنا عبد الله بن محمد الفريابي حدثنا ضمرة بن ربيعة عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير في قوله يحبرون قال السماع في الجنة.

ولا يخالف هذا قول ابن عباس: يكرمون، وقال مجاهد وقتادة: ينعمون، فلذة الأذن بالسماع من الحبرة والنعيم، وقال الترمذي حدثنا هناد وأحمد بن منيع قالا: حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق عن النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة لمجتمعًا للحور العين، يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلها، يقلن:

---

(١) تقدم في سورة المائدة بحث يحسن الرجوع إليه لزيادة الفائدة (ج).

(٢) ١٧٩ حادي الأرواح.

نحن الخالدات فلا نبيد، ونحن الناعمات فلا نيأس، ونحن الراضيات فلا نسخط، طوبىٰ لمن كان لنا وكنا له»...[١]

...[٢]فإن أردت سماع غنائهن فاسمع خبره الآن، ففي معجم الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن أزواج أهل الجنة ليغنين أزواجهن بأحسن أصواتٍ ما سمعها أحدٌ قطُّ، إن مما يغنين به: نحن الخيرات الحسان، أزواج قومٍ كرام، ينظرون بقرة أعيان، وإن مما يغنين به: نحن الخالدات فلا نمتنه، نحن الآمنات فلا نخفنه، نحن المقيمات فلا نظعنه»**[٣] وقد قيل في قوله تعالىٰ: ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ إنه السماع الطيب ولا ريب أنه من الحبرة.

***

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٦٤) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٠ رقم ٣٣٩٧١) وأبو يعلى (١/ ٣٣٨ رقم ٤٢٩) قال ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩٣٢): هذا حديث لا يصح.

(٢) ٢٦٥ الروضة.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٥/ ١٤٩-١٥٠ رقم ٤٩١٧) وفي الصغير (رقم ٧٣٤) قال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ٣٠٠ رقم ٥٧٢٣): رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورواتهما رواة الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٩): رواه الطبراني في الصغير والأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(١)نوّع سبحانه الآيات في هذه السور، فجعل خلق السموات والأرض واختلاف لغات الأمم وألوانهم آيات للعالمين كلهم، لاشتراكهم في العلم بذلك وظهوره ووضوح دلالته، وجعل خلق الأزواج التي تسكن إليها الرجال وإلقاء المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون، فإن سكون الرجل إلىٰ امرأته وما يكون بينهما من المودة والتعاطف والتراحم أمر باطن مشهود بعين الفكرة والبصيرة، فمتىٰ نظر بهذه العين إلىٰ الحكمة والرحمة والقدرة، التي صدر عنها ذلك دله فكره علىٰ أنه الإله الحق المبين، الذي أقرت الفطر بربوبيته وإلهيته وحكمته ورحمته.

وجعل المنام بالليل والنهار للتصرف في المعاش وابتغاء فضله آيات لقوم يسمعون، وهو سمع الفهم وتدبر هذه الآيات وارتباطها بما جعلت آية له مما أخبرت به الرسل من حياة العباد بعد موتهم وقيامهم من قبورهم، كما أحياهم سبحانه بعد موتهم، وأقامهم للتصرف في معاشهم، فهذه الآية إنما ينتفع بها من سمع ما جاءت به الرسل وأصغىٰ إليه، واستدل بهذه الآية عليه.

وجعل إراءتهم البرق وأنزل الماء من السماء وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون، فإن هذه أمور مرتبة بالأبصار مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل بها علىٰ وجود الرب تعالىٰ وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم، كما أحيا هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب وهو العقل، فإن الحس دل علىٰ الآية، والعقل دل علىٰ ما جعلت له آية، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر والمدلول عليه المشهود بالعقل، فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤] فتبارك الذي جعل كلامه حياة للقلوب وشفاء لما في الصدور...

---

(١) ١٨٦ المفتاح جـ١.

...[١]فمن المحبة النافعة: محبة الزوجة وما ملكت يمينُ الرجل، فإنها معينة على ما شرع الله سبحانه له من النكاح وملك اليمين، من إعفاف الرجل نفسه وأهله، فلا تطمع نفسه إلى سواها من الحرام، ويعفها، فلا تطمح نفسها إلى غيره، وكلما كانت المحبة بين الزوجين أتمَّ وأقوى كان هذا المقصود أتم وأكمل، قال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٩].

...[٢]وأما محبة النسوان فلا لوم على المحب فيها بل هي من كماله، وقد من الله سبحانه بها على عباده فقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم: ٢١] الآية، فجعل المرأة سكنًا للرجل يسكن إليها قلبه، وجعل بينهما خالص الحب وهو المودة المقترنة بالرحمة، وقد قال تعالى عقيب ذكره ما أحل لنا من النساء وما حرم منهن: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦-٢٨] وذكر سفيان الثوري في تفسيره عن ابن طاوس عن أبيه: كان إذا نظر إلى النساء لم يصبر عنهن.

***

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾ [الروم: ٢٨].

[٣]أي إذا كان أحدكم يأنف أن يكون مملوكه شريك له في رزقه، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء فيما أنا به متفرد به، وهو الإلهية، التي لا تنبغي لغيري، ولا تصح لسواي؟ فمن زعم ذلك فما قدرني حق قدري، ولا عظمني حق عظمتي، ولا أفردني

---

(١) ١٣٩ الإغاثة جـ٣.

(٢) ٣٢٤ الجواب.

(٣) ١٨٦ الجواب.

بما أنا منفرد به وحدي دون خلقي، فما قدر الله بحق قدره من عبد معه غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤] فما قدر الله حق قدره من عبد معه غيره من لا يقدر علىٰ خلق أضعف حيوان وأصغره، وإن سلبهم الذباب شيئا مما عليه لم يقدر علىٰ إنقاذه منه، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] الآية فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه، فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل.

...[1]قال الله تعالىٰ حاكيًا عنهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠] وكم يقول لهم في كتابه: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فينبههم علىٰ ما في عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح، ويحتج عليهم بها، ويخبر أنه أعطاهموها لينتفعوا بها، ويميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل.

وكم في القرآن من مثل عقلي وحسي ينبه به العقول علىٰ حسن ما أمر به وقبح ما نهىٰ عنه، فلو لم يكن في نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنىٰ، ولكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهي دون ضرب الأمثال، وتبيين جهة القبح المشهودة بالحسن والعقل.

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره كقوله تعالىٰ: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَـٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨] يحتج

(١) ٢٣٩ المدارج جـ١.

سبحانه عليهم لما في عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكًا له فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه، ولا يرضى بذلك، فكيف تجعلون لي من عبيدي شركاء تعبدونهم كعبادتي؟ وهذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر في العقول والفطر، والسمع نبه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك.

[(١)]قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] وهذا دليل قياس احتج الله سبحانه به على المشركين، حيث جعلوا له من عبيده وملكه شركاء، فأقام عليهم حجة يعرفون صحتها من نفوسهم، لا يحتاجون فيها إلى غيرهم، ومن أبلغ الحجاج أن يأخذ الإنسان من نفسه، ويحتج عليه بما هو في نفسه مقرر عندها معلوم لها، فقال: هل لكم مما ملكت أيمانكم من عبيدكم وإمائكم شركاء في المال والأهل؟ أي هل يشارككم عبيدكم في أموالكم وأهليكم فأنتم وهم في ذلك سواء، تخافون أن يقاسموكم أموالكم، ويشاطروكم إياها، ويستأثرون ببعضها عليكم، كما يخاف الشريك شريكه. وقال ابن عباس: تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضًا[(٢)]، والمعنى هل يرضى أحد منكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه، كما يخاف غيره من الشركاء والأحرار؟ فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي؟! فإن كان هذا الحكم باطلا في فطركم وعقولكم مع أنه جائز عليكم ممكن في حقكم إذ ليس عبيدكم ملكًا لكم حقيقة، وإنما هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، وأنتم

---

(١) ١٥٩ الإعلام جـ١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٣٩) والبخاري معلقًا في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الم غلبت الروم (ص ٩٣١) قبل حديث رقم (٤٧٧٤).

وهم عبيد لي فكيف تستجيزون مثل هذا الحكم في حقي مع أن من جعلتموهم لي شركاء عبيدي وملكي وخلقي؟ فهكذا يكون تفصيل الآيات لأولي العقول.

***

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

[1]في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما ينتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، حتى تكونوا أنتم تجدعونها» ثم قرأ أبو هريرة: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[2].

وفي لفظ آخر: «ما من مولود إلا يولد على هذه الملة»[3]. وقد اختلف في معنى هذه الفطرة والمراد بها، فقال القاضي أبو يعلي في معنى الفطرة: ههنا روايتان عن أحمد أحدهما: الإقرار بمعرفة الله تعالى، وهو العهد الذي أخذه الله عليهم في أصلاب آبائهم، حتى مسح ظهر آدم، فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم. ألست بربكم؟ قالوا: بلى، فليس أحد إلا وهو يقر بأن له صانعًا ومدبرًا، وإن سماه بغير اسمه، قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] فكل مولود يولد على ذلك الإقرار الأول، قال: وليس الفطرة هنا الإسلام لوجهين: أحدهما: أن معنى الفطرة ابتداء الخلقة، ومنه قوله تعالى: ﴿ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ١] أي مبتدئها، وإذا كانت الفطرة هي الابتداء وجب أن تكون تلك هي التي

---

(١) ٢٨٣ شفاء.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٣٥٨) ومسلم (رقم ٢٦٥٨) وانظر: شرح النووي (١٦/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٣) ذكره ابن كثير في تفسيره (٢/ ٤٤١) وعزاه إلى المسند والسنن.

وقعت لأول الخليقة، وجرت في فطرة المعقول، وهو استخراجهم ذرية، لأن تلك حالة ابتدائهم، ولأنها لو كانت الفطرة هنا الإسلام لوجب إذا ولد بين أبوين كافرين أن لا يرثهما ولا يرثانه ما دام طفلا، لأنه مسلم، واختلاف الدين يمنع الإرث، ولوجب أن لا يصح استرقاقه، ولا يحكم بإسلامه بإسلام أبيه لأنه مسلم، قال وهذا تأويل ابن قتيبة، وذكره ابن بطة في الإبانة، قال: وليس كل من تثبت له المعرفة حكم بإسلامه كالبالغين من الكفار، فإن المعرفة حاصلة وليسوا بمسلمين. قال: وقد أومأ أحمد إلى هذا التأويل في رواية الميموني، فقال: الفطرة الأولى التي فطر الناس عليها. فقال له الميموني: الفطرة الدين. قال: نعم قال القاضي: وأراد أحمد بالدين المعرفة التي ذكرناها[1].

[2]وأما احتجاج أحمد بقول أبي هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ فهذه الآية فيها قولان: أحدهما: أن معناها النهي كما تقدم عن ابن جرير أنه فسرها، فقال أي لا تبدلوا دين الله الذي فطر عليه عباده. وهذا قول غير واحد من المفسرين لم يذكروا غيره. والثاني ما قاله إسحاق: وهو أنها خبر على ظاهرها، وأن خلق الله لا يبدله أحد. وظاهر اللفظ خبر، فلا يجعل نهيا بغير حجة، وهذا أصح، وحينئذ فيكون المراد أن ما جبلهم عليه من الفطرة لا يبدل، فلا يجبلون على غير الفطرة، لا يقع هذا أصلا. والمعنى أن الخلق لا يتبدل فيخلقون على غير الفطرة، ولم يرد بذلك أن الفطرة لا تتغير بعد الخلق، بل نفس الحديث يبين أنها تتغير، ولهذا شبهها بالبهيمة التي تولد جمعاء ثم تجدع ولا تولد بهيمة مخصية ولا مجدوعة، وقد قال تعالى عن الشيطان: ﴿ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ١١٩] فالله

(١) تعرض المؤلف للخلاف مطولًا هنا، وطرق البحث بعضها في أحكام أهل الذمة. ونص كلامه: وقد استوفيناها في كتابنا: في أحكام أهل الملل بأدلتها. إلخ. والتسمية غير مطابقة لما ذكرنا من اسم الكتاب (ج).

(٢) ٢٩٤ شفاء.

أقدر الخلق على أن يغيروا ما خلقهم عليه بقدرته ومشيئته، وإنما تبديل الخلق بأن يخلقوا على غير تلك الفطرة، فهذا لا يقدر عليه إلا الله، والله لا يفعله، كما قال: ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ ولم يقل: لا تغيير، فإن تبديل الشيء يكون بذهابه وحصول بدله، ولكن إذا غير بعد وجوده لم يكن الخلق الموجود عند الولادة.

وأما قول القائل: لا تبديل للخلقة، التي جبل عليها بنو آدم كلهم من كفر وإيمان، فإن عني به ما سبق به القدر من الكفر والإيمان لا يقع خلافه، فهذا حق، ولكن ذلك لا يقتضي أن تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس ممتنع، ولا أنه غير مقدور، بل العبد قادر على ما أمره الله به من الإيمان، وعلى ترك ما نهاه عنه من الكفر، وعلى أن يبدل حسناته بالسيئات وسيئاته بالحسنات، كما قال الله: ﴿ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ ﴾ [النمل: ١١].

وهذا التبديل كله بقضاء الله وقدره، وهذا بخلاف ما فطروا عليه حين الولادة، فإن ذلك خلق الله الذي لا يقدر على تبديله غيره، وهو سبحانه لا يبدله بخلاف تبديل الكفر بالإيمان وبالعكس، فإنه يبدله كثيرًا، والعبد قادر على تبديله بإقدار الرب له على ذلك.

ومما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ٣٠] فهذه فطرة محمودة أمر الله بها نبيه، فكيف تنقسم إلى كفر وإيمان مع أمر الله تعالى بها، وقد تقدم تفسير السلف ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾ أي لدين الله أو النهي عن الخصا ونحوه، ولم يقل أحد منهم: إن المعني لا تبديل لأحوال العباد من كفر إلى إيمان وعكسه، فإن تبديل ذلك موجود ومهما وقع كان هو الذي سبق به القدر، والرب تعالى عالم بما سيكون، لا يقع خلاف معلومه، فإذا وقع التبديل كان هو الذي علمه.

[(١)] وأما تفسير قول النبي ﷺ: «**فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه**» أنه أراد به مجرد

---

(١) ٢٩٦ شفاء.

الإلحاق في أحكام الدنيا، دون أن يكون أراد أنهما يغيران الفطرة، فهذا خلاف ما يدل عليه الحديث، فإنه شبه تكفير الأطفال بجدع البهائم تشبيها للتغيير بالتغيير، وأيضًا فإنه ذكر هذا الحديث لما قتل أولاد المشركين، فنهاهم عن قتلهم، وقال: «أليس خياركم أولاد المشركين؟ كل مولود يولد على الفطرة»[1] فلو أراد أنه تابع لأبويه في الدنيا لكان هذا حجة لهم يقولون هم كفار كآبائهم، وكون الصغير يتبع أبواه في أحكام الدنيا هو لضرورة بقائه في الدنيا، فإنه لا بد له من مرب يربيه، وإنما يربيه أبواه، فكان تابعًا لهما ضرورة، ولهذا من سبي منفردًا عنهما صار تابعًا لسابيه عند جمهور العلماء كأبي حنيفة والشافعي وأحمد والأوزاعي وغيرهم، لكونه هو الذي يربيه، وإذا سبي منفردا عن أحدهما أو معهما ففيه نزاع بين العلماء، واحتجاج الفقهاء كأحمد وغيره بهذا الحديث على أنه متى سبي منفردًا عن أبويه يصير مسلمًا، إذ يستلزم أن يكون المراد بتكفير الأبوين لهما مجرد لحاقه لهما في الدين.

ولكن وجه الحجة أنه إذا ولد ولد على الملة فإنما ينقله عنه الأبوان اللذان يغيرانه عن الفطرة، فمتى سباه المسلمون منفردًا عنهما لم يكن هناك من يغير دينه، وهو مولود على الملة الحنيفية، فيصير مسلما بالمقتضى السالم عن المعارض، ولو كان الأبوان يجعلانه كافرًا في نفس الأمر بدون تعليم لكان الصبي المسبي بمنزلة البالغ الكافر، ومعلوم أن البالغ الكافر إذا سباه المسلمون لم يصر مسلما، لأنه صار كافرا حقيقة، فلو كان الصبي التابع لأبويه كافرا حقيقة لم ينتقل عن الكفر بالسباء، فعلم أنه كان يجري عليه حكم الكفر في الدنيا تبعا لأبويه لا أنه صار كافرا في نفس الأمر. تبين ذلك أنه لو سباه كفار ولم يكن معه أبواه لم يصر مسلما، فهو هنا كافر في حكم الدنيا، وإن لم يكن أبواه هوداه ونصراه، فعلم أن المراد بالحديث: أن الأبوين يلقناه الكفر ويعلمانه إياه.

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٣٤١ رقم ١٣٢) وفي موارد الظمآن (رقم ١٦٥٨) والطبراني في الأوسط (٢/ ٢٨٠ رقم ١٩٨٤) وفي الكبير (١/ ٢٨٣ رقم ٨٢٧) وصححه ابن عبدالبر في التمهيد (١٨/ ٦٨).

وذكر النبي ﷺ الأبوين لأنهما الأصل العام الغالب في تربية الأطفال، فإن كل طفل فلا بد له من أبوين، وهما اللذان يربيانه مع بقائهما وقدرتهما، ومما يبين ذلك قوله في الحديث الآخر: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه: فإما شاكرًا وإما كفورًا»[١]. فجعله على الفطرة إلى أن يعقل ويميز، فحينئذ يتبين له أحد الأمرين، ولو كان كافرا في الباطن بكفر الأبوين، لكان ذلك من حين يولد قبل أن يعرب عنه لسانه، وكذلك قوله في الحديث الصحيح: «إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا»[٢]. صريح في أنهم خلقوا على الحنيفية، وأن الشياطين اجتالتهم وحرمت عليهم الحلال وأمرتهم بالشرك، فلو كان الطفل كان يصير كافرًا في نفس الأمر من حين يولد لكونه يتبع أبويه في الدين قبل أن يعلمه أحد الكفر ويلقنه إياه لم تكن الشياطين هم الذين غيروهم عن الحنيفية وأمروهم بالشرك.

...[٣]قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] فبين سبحانه أن إقامة الوجه وهو إخلاص القصد، وبذل الوسع لدينه، المتضمن محبته وعبادته حنيفًا مقبلًا عليه، معرضًا عمَّا سواه، هو فطرته التي فطر عليها عباده، فلو خلوا ودواعي فطرهم لما رغبوا عن ذلك، ولا اختاروا سواه، ولكن غيرت الفطر وأفسدت، كما قال النبي ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتم تجدعونها» ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣) والديلمي في مسند الفردوس (٣/ ٢٤٨ رقم ٤٧٣١) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢١٨): رواه أحمد وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة، وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٦٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٨).
(٣) ٨٧ الروح.

ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١]. منيبين نصب على الحال من المفعول، أي فطرهم منيبين إليه، والإنابة إليه تتضمن الإقبال عليه بمحبته وحده والإعراض عما سواه.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال: «**إن الله أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني في مقامي هذا، أنه قال: كل مال نحلته عبدًا فهو له حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء، فأتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وحرمت عليهم ما أحللت لهم**». فأخبر سبحانه أنه إنما فطر عباده على الحنيفية المتضمنة لكمال حبه والخضوع له والذل له وكمال طاعته وحده دون غيره، وهذا من الحق الذي خلقت له، وبه قامت السموات والأرض وما بينهما، وعليه قام العالم ولأجله خلقت الجنة والنار، ولأجله أرسل رسله وأنزل كتبه، ولأجله أهلك القرون التي خرجت عنه وآثرت غيره، فكونه سبحانه أهلًا أن يعبد ويحب ويحمد ويُثنى عليه أمر ثابت له لذاته، فلا يكون إلا كذلك...

...[1]فصل قد علمت أن من نزل في منزل «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام، فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها، ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل، تبيينا لحقائقها وخواصها وشروطها.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة»، وقد أمر الله تعالى بها في كتابه، وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] وقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]، وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ إلى أن قال: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦-٨] وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ

---

(١) ٤٣٣ المدارج جـ١.

ٱلسَّمَآءِ رِزْقًاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالى: ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ [الروم: ٣١].

«فمنيبين» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته، أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه، نظيره قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالا من المفعول في قوله: ﴿فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أي فطرهم منيبين إليه، فلو خلُّوا وفطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تتحول وتتغير عما فطرت عليه، كما قال ﷺ: **«ما من مولود إلا يولد على الفطرة - وفي رواية: على الملة - حتى يعرب عنه لسانه»**(١) وقال عن نبيه داود: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ [ص: ٢٤]، وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة، فقال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [ق: ٣١-٣٤] وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧].

والإنابة إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع، وهذه (الإنابة) لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

والإنابة الثانية: إنابة أوليائه، وهي إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٣) وأبو يعلى (٢/ ٢٤٠ رقم ٩٤٢) والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٣ رقم ٨٢٨) وعبد الرزاق (١١/ ١٢٢ رقم ٢٠٠٩١).

أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك.

وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم و«المنيب» إلى الله: المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه. قال صاحب المنازل: «الإنابة في اللغة: الرجوع، وهي ههنا الرجوع إلى الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلى الحق إصلاحا كما رجع إليه اعتذارا، والرجوع إليه وفاء كما رجع إليه عهدا، والرجوع إليه حالا كما رجعت إليه إجابة».

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد والنصح في طاعته، كما قال: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ ﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة، فلابد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته وتحل بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك، فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولًا، فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانيًا، والدين كله: عهد ووفاء، فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته: فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو منه إلى الرسول بلا واسطة، كما كلم موسى، وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل، وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء، فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم، ومدح الموفين بعهده، وأخبرهم بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١] وقال: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة وعهودهم مع الخلق.

وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق: «**الغدر بعد العهد**». فما أناب إلى الله ﷻ من خان عهده وغدر به. كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده، فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به.

وقوله: «والرجوع إليه حالا كما رجعت إليه إجابة»، أي هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولًا، فلابد من الإجابة حالا تصدق به المقال، فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها، وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه إجابة بالحال.

***

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

...[1]اعلم: أن الله سبحانه أتقن كل شيء صنعه، وأحسن كل شيء خلقه، فهو عند مبدأ خلقه بريء من الآفات والعلل، تامُّ المنفعة لما هيئ وخُلِقَ له، وإنما تعرِضُ له الآفاتُ بعد ذلك بأُمور أُخَر من مجاورة، أو امتزاج واختلاط، أو أسباب أُخَر تقتضي فسادَه، فلو تُرِكَ على خِلقته الأصلية من غير تعلق أسباب الفساد به، لم يفسد.

ومَنْ له معرفة بأحوال العالَم ومبدئه يعرِف أنَّ جميع الفساد في جَوِّه ونباته وحيوانه وأحوالِ أهله، حادثٌ بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثَه، ولم تزل أعمالُ بني آدَم ومخالفتُهم للرُّسُل تُحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام، والأمراض، والأسقام، والطواعين، والقحوط، والجدوب، وسلب بركات الأرض، وثمارها، ونباتها، وسلب منافعها، أو نقصانها أُموراً متتابعة يتلو بعضُهَا بعضاً. فإن لم

(١) ٣٨٥ الزاد جـ٣.

يَتَّسِعْ علمك لهذا فاكتفِ بقوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ونَزِّل هذه الآية علىٰ أحوالِ العالَم، وطابِقْ بين الواقع وبينها، وأنت ترىٰ كيف تحدث الآفاتُ والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدُث من تلك الآفات آفاتٌ أُخَرُ متلازمة، بعضُها آخذ برقاب بعض، وكُلَّما أحدث الناسُ ظلماً وفجوراً، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالىٰ من الآفات: والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصُورهم وأشكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم. ولقد كانت الحبوب من الحِنطة وغيرها أكبرَ مما هي اليوم، كما كانت البركةُ فيها أعظَمَ. وقد روىٰ الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أميةَ صرة فيها حِنطةٌ أمثال نوىٰ التمر مكتوبٌ عليها: هذا كان ينبُت أيامَ العدل[١]. وهذه القصة، ذكرها في مسنده علىٰ أثر حديث رواه. وأكثرُ هذه الأمراض والآفات العامة بقيةُ عذاب عُذِّبتْ به الأُمَمُ السالفة، ثم بقيت منها بقية مُرصَدَةٌ لمن بقيت عليه بقيةٌ من أعمالهم، حكماً قسطاً، وقضاءً عدلاً، وقد أشار النبي ﷺ إلىٰ هذا بقوله في الطاعون: «إنَّه بقيةُ رجز أو عذاب أُرسِلَ علىٰ بني إسرائيلَ»[٢].

وكذلك سلَّط اللهُ ﷻ الريحَ علىٰ قومٍ سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام، ثم أبقَىٰ في العالَم منها بقيةً في تلك الأيام، وفي نظيرها عِظةً وعِبرة. وقد جعل اللهُ سبحانه أعمال البرِّ والفاجر مقتضياتٍ لآثارها في هذا العالَم اقتضاءً لابد منه، فجعل منعَ الإحسان والزكاة والصدقة سببًا لمنع الغَيْث من السماء، والقحطِ والجَدْبِ، وجعَلَ ظلمَ المساكين،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٦) وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه لمسند أحمد (١٣/ ٣٣١ رقم ٧٩٤٩): هذا خبر إسناده ضعيف لا يثبت، وليس هو بحديث، ولا ندري وجه وقوعه في مسند أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن حبان (٧/ ٢٢٠ رقم ٢٩٥٤) والنسائي في الكبرىٰ (٤/ ٣٦٢ رقم ٧٥٢٤) والترمذي (رقم ١٠٦٥) وقال: حديث حسن صحيح. وانظر: تحفة الأحوذي (٤/ ١٤٨).

والبخسَ في المكاييل والموازين، وتعدِّي القَوِيِّ على الضعيف سببًا لجَوْر الملوك والولاة، الذين لا يَرحمون إن اسْتُرْحِموا، ولا يَعْطِفُون إن استُعطِفُوا، وهم في الحقيقة أعمالُ الرعايا ظهرت في صور وُلاتهم[1]، فإنَّ اللهَ سبحانه بحكمته وعدله يُظهِرُ للناس أعمالَهم في قوالِب وصورٍ تناسبها، فتارةً بقحط وجدب، وتارة بعدوٍّ، وتارةً بولاة جائرين، وتارةً بأمراضٍ عامة، وتارةً بهُموم وآلام وغموم تحضُرها نفوسُهم لا ينفكُّونَ عنها، وتارةً بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارةً بتسليط الشياطين عليهم تَؤُزُّهم إلى أسباب العذاب أزًّا، لِتَحِقَّ عليهم الكلمة، وليصيرَ كل منهم إلى ما خُلِقَ له.

والعاقل يسير ببصيرته بين أقطار العالَم، فيُشاهدُه، وينظر مواقعَ عدل الله وحكمته، وحينئذ يَتَبيَّنُ له أنَّ الرُّسُلَ وأتباعَهُم خاصةً على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البَوار صائرون، والله بالغُ أمرِه، لا مُعقِّبَ لحكمه، ولا رادَ لأمره.. وبالله التوفيق.

...[2] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ﴾ [الأعراف: ٥٦] قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره، قال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ وقال عطية في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم، وقال غير واحد من السلف: إذا قحط المطر فإن الدواب تلعن عصاة بني آدم، وتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض وقحط المطر[3].

---

(١) تقدم في أول سورة القصص ما هو أبسط من هنا نقلًا عن الشفاء (ج).

(٢) ١٤ البدائع جـ٣.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٥٥) وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٢٧٠ رقم ١٤٤٨). وانظر: تذكير ذوي القلوب بخطر المعاصي والذنوب من تأليفي وهو من منشورات دار السلام بالرياض.

وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله، هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا أن يكون الله وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والأتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة، فإن الله أصلح الأرض برسوله ودينه وبالأمر بتوحيده، ونهى عن إفسادها بالشرك به وبمخالفة رسوله.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله. ومن تدبر هذا حق التدبر، وتأمل أحوال العالم منذ قام إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه، وفي حق غيره عموما وخصوصا ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

...[1]ومن آثار الذنوب والمعاصي أنها يحدث في الأرض أنواعًا من الفساد في المياه والهوى والزروع والثمار والمساكن قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] قال مجاهد: إذا ولي الظالم سعى بالظلم والفساد، فيحبس الله بذلك القطر، فيهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، ثم قرأ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ثم قال: أما والله ما هو بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء جار فهو بحر[2]. وقال عكرمة: ظهر الفساد في البر والبحر، أما إني لا أقول لكم: بحركم هذا، ولكن كل قرية على ماء[3]. وقال قتادة: أما

(١) ٨٣ الجواب.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/ ٣١٧) (٢١/ ٤٩) وابن أبي حاتم (٢/ ٣٦٧ رقم ١٩٣١).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٩).

البر فأهل العمود، وأما البحر فأهل القرىٰ والريف[١]. قلت: وقد سمىٰ الله تعالىٰ الماء العذب بحرًا، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢] وليس في العالم بحر حلو واقفًا، وإنما هي الأنهار الجارية، والبحر المالح هو الساكن، فتسمىٰ القرىٰ التي علىٰ المياه الجارية باسم تلك المياه، وقال ابن زيد: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال الذنوب[٢].

قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها فيكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ لام العاقبة والتعليل. وعلىٰ الأول: فالمراد بالفساد والنقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض بمعاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث الله لهم. كما قال بعض السلف: كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة[٣] والظاهر والله أعلم أن الفساد المراد به الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك علىٰ ظهرها من دابة، ومن تأثير المعاصي في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل ويمحق بركتها وقد مر رسول الله ﷺ علىٰ ديار ثمود فمنعهم من دخول ديارهم، إلا وهم باكون ومن شرب مياههم ومن الاستسقاء من أبارهم، حتىٰ أمر أن يعلف العجين الذي عجن بمياههم لنواضح الإبل، لتأثير شؤم المعصية في الماء، وكذلك تأثير شؤم الذنوب في نقص الثمار، وما ترىٰ به من الآفات، وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: وجدت في خزائن بعض بني أمية حبة حنطة الحبة بقدر نواة التمرة، وهي في صرة مكتوب عليها: هذا كان ينبت في زمن العدل[٤]، وكثير من

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٩).
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٤٩).
(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٤/ ٦١٨) إلىٰ أبي الشيخ عن مالك بن دينار رحمه الله.
(٤) سبق تخريج هذا قبل صفحات ثلاثة.

هذه الآفات أحدثها الله ﷻ بما أحدث العباد من الذنوب.

وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب. وأما تأثير الذنوب في الصور والخلق، فقد روى الترمذي في جامعه عن النبي ﷺ أنه قال: «**خلق الله آدم وطوله في السماء ستون ذراعًا، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن، فإذا أراد الله أن يطهر الأرض من الظلمة والفجرة والخونة يخرج عبدًا من عباده من أهل بيت نبيه ﷺ، فيملأ الأرض قسطا كما ملئت جورًا، ويقتل المسيح اليهود والنصارى، ويقيم الدين الذي بعث الله به رسوله، وتخرج الأرض بركتها، وتعود كما كانت حتى إن العصابة من الناس ليأكلون الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويكون العنقود من العنب وقر بعير، وأن اللقحة الواحدة لتكفي الفئام من الناس**»[1]. وهذا لأن الأرض لما طهرت من المعاصي ظهرت فيها آثار البركة من الله تعالى، التي محقتها الذنوب والكفر، ولا ريب أن العقوبات التي أنزلها الله في الأرض بقيت آثارها سارية في الأرض، تطلب ما يشاكلها من الذنوب التي هي آثار تلك الجرائم التي عذبت بها الأمم، فهذه الآثار في الأرض من آثار العقوبات، كما أن هذه المعاصي من آثار الجرائم، فتناسبت كلمة الله وحكمه الكوني أولًا وآخرًا، وكان العظيم من العقوبة للعظيم من الجناية، والأخف للأخف، وهكذا يحكم سبحانه بين خلقه في دار البرزخ ودار الجزاء.

وتأمل مقارنة الشيطان ومحله وداره، فإنه لما قارن العبد واستولى عليه نزعت البركة من عمره وعمله وقوله ورزقه، ولما أثرت طاعته في الأرض ما أثرت نزعت البركة من كل محل ظهرت فيه طاعته، وكذلك مسكنه لما كان الجحيم لم يكن هناك شيء من الروح والرحمة والبركة.

***

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٢٤٠) وأحمد (٤/ ١٨١) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٥٤-٣٥٦ رقم ٦١٤) وانظر: شرح النووي (١٨/ ٦٩) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

...[1]إنه سبحانه استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار، فقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

[2]فائدة عظيمة: أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، هو العلم والإيمان، ولهذا قرن الله سبحانه بينهما في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾ [الروم: ٥٦]. وقوله: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾ [المجادلة: ١١]، وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه، والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان، اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما. حتى أن كل طائفة تظن أن ما معها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنال السعادة، وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان، اللذين جاء بهما الرسول ﷺ، ودعا إليهما الأمة، وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم.

فكل طائفة اعتقدت أن العلم معها وفرحت به ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وأكثر ما عندهم كلام وآراء وخرص، والعلم وراء الكلام كما قال حمّاد بن زيد: قلت لأيوب: العلم اليوم أكثر أو فيما تقدّم؟

---

(١) ٥٩ المفتاح جـ١.

(٢) ١٠٢ فوائد.

فقال: الكلام اليوم أكثر، والعلم فيما تقدم أكثر!

ففرق هذا الراسخ بين العلم والكلام. فالكتب كثيرة جدا والكلام والجدال والمقدرات الذهنية كثيرة، والعلم بمعزل عن أكثرها، وهو ما جاء به الرسول عن الله: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٦١]، وقال: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال في القرآن: ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦]، أي وفيه علمه.

ولما بعد العهد بهذا العلم آل الأمر بكثير من الناس إلى أن اتخذوا هواجس الأفكار وسوانح الخواطر والآراء علما، ووضعوا فيها الكتب، وأنفقوا فيها الأنفاس، فضيعوا فيها الزمان، وملأوا بها الصحف مدادًا. والقلوب سوادًا.

***

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

(١)وجه استدلاله بالآية في غاية الظهور، وهو أن المتمكن لا يبالي بكثرة الشواغل ولا بمخالطة أصحاب الغفلات ولا بمعاشرة أهل البطالات، بل قد تمكن بصبره ويقينه عن استفزازهم إياه، واستخفافهم له، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [الروم: ٦٠] فمن وفى الصبر حقه، وتيقن أن وعد الله حق لم يستفزه المبطلون، ولم يستخفه الذين لا يوقنون، ومتى ضعف صبره ويقينه، أو كلاهما استفزه هؤلاء، واستخفه هؤلاء، فجذبوه إليهم بحسب ضعف قوة صبره ويقينه، فكلما ضعف ذلك منه قوي جذبهم له، وكلما قوي صبره ويقينه قوي انجذابه منهم وجذبه لهم.

...(٢)وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾

---

(١) ٢١٥ المدارج جـ٣.

(٢) ٥٥ التبيان.

[الروم: ٦٠] فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم، وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا، فمن قل يقينه قل صبره، ومن قل صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش، تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف، والله المستعان.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الروم

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

[١] قال الواحدي وغيره: أكثر المفسرين: على أن المراد بلهو الحديث: الغناء، قاله ابن عباس في رواية سعيد بن جبير ومقسم عنه، وقاله عبد الله بن مسعود، في رواية أبي الصهباء عنه، وهو قول مجاهد وعكرمة[٢].

وروى ثور بن أبي فاختة عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَشْتَرِي الْجَارِيَةَ تُغَنِّيهِ لَيْلاً وَنَهَارًا»[٣].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: «هو اشتراء المغني والمغنية بالمال الكثير، والاستماع إليه، وإلى مثله من الباطل» وهذا قول مكحول. وهذا اختيار أبي إسحاق أيضاً.

قال: أكثر ما جاء في التفسير: أن لهو الحديث هاهنا هو الغناء، لأنه يلهي عن ذكر الله تعالى.

قال الواحدي: قال أهل المعاني: ويدخل في هذا كل من اختار اللهو، والغناء والمزامير والمعازف على القرآن، وإن كان اللفظ قد ورد بالشراء، فلفظ الشراء يذكر في الاستبدال، والاختيار، وهو كثير في القرآن. قال: ويدل على هذا ما قاله قتادة في هذه

---

(١) ٢٣٨ الإغاثة جـ١.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره عن ابن مسعود وابن عباس (٢١/ ٦١-٦٣).
(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود (٤/ ٢٧٩ رقم ٥١٠٤) بينما ذكره العيني في عمدة القاري (٢٢/ ٢٧٤) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

الآية: «لعله أن لا يكون أنفق مالاً»، قال: «وبحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق».

قال الواحدي: وهذه الآية على هذا التفسير تدل على تحريم الغناء، ثم ذكر كلام الشافعي في رد الشهادة بإعلان الغناء. قال: وأما غناء القينات: فذلك أشد ما في الباب، وذلك لكثرة الوعيد الوارد فيه، وهو ما روي أن النبي ﷺ قال: «مَنِ اسْتَمَعَ إِلَى قَيْنَةٍ صُبَّ فِي أُذُنَيْهِ الآنُكُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1]. الآنك: الرصاص المذاب.

وقد جاء تفسير لهو الحديث بالغناء مرفوعاً إلى النبي ﷺ. ففي مسند الإمام أحمد، ومسند عبد الله بن الزبير الحميدي، وجامع الترمذي من حديث أبي أمامة، والسياق للترمذي: أن النبي ﷺ قال: «لا تَبِيعُوا الْقِينَاتِ، وَلا تَشْتَرُوهُنَّ، وَلا تُعَلِّمُوهُنَّ، وَلا خَيْرَ فِي تِجَارَةٍ فِيهِنَّ وَثَمَنُهُنَّ حَرَامٌ، في مثل هذا نزلت هذه الآية: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾»[2]. وهذا الحديث وإن كان مداره على عبيد الله بن زحر عن علي بن يزيد الإلهاني عن القاسم، فعبيد الله بن زحر ثقة، والقاسم ثقة، وعلي ضعيف، إلا أن للحديث شواهد ومتابعات، سنذكرها إن شاء الله، ويكفي تفسير الصحابة والتابعين للهو الحديث: بأنه الغناء، فقد صح ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود.

قال أبو الصهباء: «سألت ابن مسعود عن قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فقال: والله الذي لا إله غيره هو الغناء - يرددها ثلاث مرات»[3].

وصح عن ابن عمر رضي الله عنهما أيضاً «أنه الغناء». قال الحاكم أبو عبد الله في التفسير، من كتاب المستدرك: «ليعلم طالب هذا العلم أن تفسير الصحابي الذي

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٥١/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ١٢٨٢، ٣١٩٥).

(٣) أخرجه الطبري (٢١/ ٦١) والحاكم (٢/ ٤٤٥ رقم ٣٥٤٢) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٧٨ رقم ٥٠٩٦) وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٢-٤٤٣).

شهد الوحي والتنزيل عند الشيخين: حديث مسند»[(١)]. وقال في موضع آخر من كتابه: «هو عندنا في حكم المرفوع»[(٢)].

وهذا، وإن كان فيه نظر، فلا ريب أنه أولىٰ بالقبول من تفسير من بعدهم، فهم أعلم الأمة بمراد الله ﷻ من كتابه، فعليهم نزل، وهم أول من خوطب به من الأمة. وقد شاهدوا تفسيره من الرسول ﷺ علماً وعملاً، وهم العرب الفصحاء علىٰ الحقيقة، فلا يعدل عن تفسيرهم ما وجد إليه سبيل.

ولا تعارض بين تفسير «لهو الحديث» بالغناء، وتفسيره: بأخبار الأعاجم وملوكها، وملوك الروم، ونحو ذلك مما كان النضر بن الحارث يحدث به أهل مكة، يشغلهم به عن القرآن، فكلاهما لهو الحديث، ولهذا قال ابن عباس: «لهو الحديث: الباطل والغناء». فمن الصحابة من ذكر هذا، ومنهم من ذكر الآخر، ومنهم من جمعهما.

والغناء أشد لهوًا، وأعظم ضرراً من أحاديث الملوك وأخبارهم، فإنه رقية الزنا، ومنبت النفاق، وشرك الشيطان، وخمرة العقل، وصده عن القرآن أعظم من صد غيره من الكلام الباطل، لشدة ميل النفوس إليه، ورغبتها فيه.

إذا عرف هذا، فأهل الغناء ومستمعوه لهم نصيب من هذا الذم بحسب اشتغالهم بالغناء عن القرآن، وإن لم ينالوا جميعه، فإن الآيات تضمنت ذم من استبدل لهو الحديث بالقرآن، ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً، وإذا يُتْلَىٰ عليه القرآن ولىٰ مستكبرًا كأن لم يسمعه، كأن في أذنيه وقراً، وهو الثقل والصمم، وإذا علم منه شيئًا استهزأ به، فمجموع هذا لا يقع إلا من أعظم الناس كفرًا، وإن وقع بعضه للمغنين ومستمعيهم، فلهم حصة ونصيب من هذا الذم.

---

(١) ذكره الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين (٢/ ٢٨٣ رقم ٣٠٢١) والسيوطي عنه في تدريب الراوي (١/ ١٩٢).

(٢) انظر: فتح الباري (٥/ ١٥٠) (٩/ ٣١٤) وتفسير ابن كثير (١/ ٢٣٦) (٢/ ٩٢) (٣/ ٥١٤) وعمدة القاري (١٣/ ٨١) وحاشية ابن القيم علىٰ سنن أبي داود (٦/ ١٤١) (٩/ ٢٤٢).

يوضحه: أنك لا تجد أحدًا عُنِيَ بالغناء وسماع آلاته، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدىٰ، علماً وعملاً، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلىٰ استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عدل عن هذا إلىٰ ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال علىٰ أن يسكت القارئ ويستطيل قراءته، ويستزيد المغني ويستقصر نوبته، وأقل ما في هذا: أن يناله نصيب وافر من هذا الذم، إن لم يحظ به جميعه.

والكلام في هذا مع من في قلبه بعض حياة يحس بها. فأما من مات قلبه، وعظمت فتنته، فقد سد علىٰ نفسه طريق النصيحة: ﴿ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١].

...[١] قال ابن أبي الدنيا: حدثنا هارون بن عبيد الله، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا أشرس أبو شيبان الهذلي قال: قلت لفرقد السبخي: أخبرني يا أبا يعقوب، من تلك الغرائب التي قرأت في التوراة، فقال: «يا أبا شيبان، والله ما أكذب علىٰ ربي ـ مرتين أو ثلاثاً ـ لقد قرأت في التوراة: ليكونن مسخ وخسف وقذف في أمة محمد ﷺ في أهل القبلة، قال: قلت: يا أبا يعقوب ما أعمالهم؟ قال: باتخاذهم القينات، وضربهم بالدفوف، ولباسهم الحرير والذهب، ولئن بقيت حتىٰ ترىٰ أعمالاً ثلاثة، فاستيقن واستعد واحذر. قال: قلت: ما هي؟ قال: إذا تكافأ الرجال بالرجال، والنساء بالنساء، ورغبت العرب في آنية العجم، فعند ذلك. قلت له: العرب خاصة؟ قال: لا؛ بل أهل القبلة، ثم قال: والله ليقذفن رجال من السماء بحجارة يشدخون بها في طرقهم وقبائلهم. كما فُعل بقوم لوط، وليمسخن آخرون قردة وخنازير، كما فعل ببني إسرائيل وليخسفن بقوم كما خسف بقارون»[٢].

(١) ٢٦٥ الإغاثة جـ١.

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩١) إلىٰ ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي.

وقد تظاهرت الأخبار بوقوع المسخ في هذه الأمة، وهو مقيد في أكثر الأحاديث بأصحاب الغناء، وشاربي الخمر، وفي بعضها مطلق.

قال سالم بن أبي الجعد: «ليأتين على الناس زمان يجتمعون فيه على باب رجل ينتظرون أن يخرج إليهم، فيطلبون إليه حاجتهم، فيخرج إليهم وقد مسخ قردًا أو خنزيرًا، وليمرنَّ الرجل على الرجل في حانوته يبيع، فيرجع إليه وقد مسخ قردًا أو خنزيرًا»[١].

وقال أبو هريرة ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيمسخ أحدهما قرداً أو خنزيراً، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمضي إلى شأنه ذلك، حتى يقضي شهوته، وحتى يمشي الرجلان إلى الأمر يعملانه، فيخسف بأحدهما، فلا يمنع الذي نجا منهما ما رأى بصاحبه أن يمشي لشأنه ذلك، حتى يقضي شهوته منه»[٢].

وقال عبد الرحمن بن غنم: «سيكون حيان متجاورين، فيشق بينهما نهر، فيستقيان منه، قبسهم واحد، يقبس بعضهم من بعض، فيصبحان يوماً من الأيام قد خسف بأحدهما والآخر حي». وقال عبد الرحمن بن غنم أيضًا: «يوشك أن يقعد اثنان على رحا يطحنان، فيمسخ أحدهما والآخر ينظر»[٣].

وقال مالك بن دينار: «بلغني أن ريحا تكون في آخر الزمان وظُلَم، فيفزع الناس إلى علمائهم، فيجدونهم قد مسخوا»[٤].

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩١) إلى ابن أبي الدنيا. وانظر: عون المعبود (١١/ ٥٩) ونيل الأوطار (٢/ ٨٦).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩١-٤٩٢) إلى ابن أبي الدنيا. وانظر: عون المعبود (١١/ ٥٩) ونيل الأوطار (٢/ ٨٧).

(٣) أخرجه نعيم بن حماد المروزي في الفتن (١/ ٣٠٥ رقم ٨٨٧) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩٢) إلى ابن أبي الدنيا.

(٤) أخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٦١/ ٢٥٥) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٩٢) إلى ابن أبي الدنيا.

قال بعض أهل العلم: إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق، وانصبغ بذلك صبغاً تاما، صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك: من القردة، والخنازير، وغيرهما، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوًا خفيًّا، ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرًا على الوجه، ثم يقوى حتى يقلب الصورة الظاهرة، كما قلب الهيئة الباطنة، ومن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخا من صور الحيوانات، التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن، فقل أن ترى محتالاً مكارًا مخادعًا خَتَّارًا إلا وعلى وجهه مسخة قرد، وقل ترى رافضيًّا إلا وعلى وجهه مسخة خنزير، وقل أن ترى شرها نهما، نفسه نفس كلبية إلا وعلى وجهه مسخة كلب. فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط، فإذا استحكمت الصفات المذمومة في النفس قويت على قلب الصورة الظاهرة، ولهذا خوف النبي ﷺ من سابق الإمام في الصلاة بأن يجعل الله صورته صورة حمار[1]، لمشابهته للحمار في الباطن، فإنه لم يستفد بمسابقة الإمام إلا فساد صلاته، وبطلان أجره، فإنه لا يسلم قبله، فهو شبيه بالحمار في البلادة، وعدم الفطنة.

إذا عرف هذا فأحق الناس بالمسخ هؤلاء الذين ذكروا في هذه الأحاديث، فهم أسرع الناس مسخاً قردة وخنازير، لمشابهتهم لهم في الباطن، وعقوبات الرب تعالى، نعوذ بالله منها جارية على وفق حكمته وعدله.

وقد ذكرنا شبه المغنين والمفتونين بالسماع الشيطاني، ونقضناها نقضًا وإبطالًا في كتابنا الكبير في السماع، وذكرنا الفرق بين ما يحركه سماع الأبيات وما يحركه سماع الآيات، وذكرنا الشبه التي دخلت على كثير من العباد في حضوره، حتى عدوه من القرب، فمن أحب الوقوف على ذلك فهو مستوفى في ذلك الكتاب، وإنما أشرنا ههنا إلى نبذة يسيرة في كونه من مكايد الشيطان، وبالله التوفيق.

---

(١) فعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «أما يخشى أحدكم. أو: لا يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار أو يجعل الله صورته صورة حمار» أخرجه البخاري (رقم ٦٩١) ومسلم (رقم ٤٢٧) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٨٣) وشرح النووي (٤/ ١٥١-١٥٧).

...[١]ومن مكايد عدو الله ومصايده، التي كاد بها من قل نصيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين: سماع المكاء، والتصدية، والغناء بالآلات المحرمة، الذي يصد القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة علىٰ الفسوق والعصيان، فهو قرآن الشيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزنا، وبه ينال العاشق الفاسق من معشوقة غاية المنىٰ، كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسنه لها مكراً منه وغروراً، وأوحىٰ إليها الشبه الباطلة علىٰ حسنه، فقبلت وحيه واتخذت لأجله القرآن مهجوراً.

فلو رأيتهم عند ذيَّاك السماع وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟ ويحق لهم ذلك، وقد خالط خماره النفوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حُميَّا الكؤوس، فلغير الله، بل الشيطان، قلوب هناك تمزق، وأثواب تشقق، وأموال في غير طاعة الله تنفق، حتىٰ إذا عمل السكر فيهم عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليهم برجله وخيله، وخَزَ في صدورهم وخزاً. وأزَّهم إلىٰ ضرب الأرض بالأقدام أزًّا، فطورًا يجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وسُيط الديار. فيا رحمتا للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، وياشماتة أعداء الإسلام، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من استماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلىٰ آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثار فيه وجداً، ولا قدح فيه من لواعج الشوق إلىٰ الله زنداً، حتىٰ إذا تلي عليه قرآن الشيطان، وولج مزموره سمعه،

(١) ٢٢٤ الإغاثة جـ١.

تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.

فيا أيها الفاتن المفتون، والبائع حظه من الله بنصيبه من الشيطان صفقة خاسر مغبون، هلا كانت هذه الأشجان، عند سماع القرآن؟ وهذه الأذواق والمواجيد، عند قراءة القرآن المجيد؟ وهذه الأحوال السنيات، عند تلاوة السور والآيات؟ ولكن كل امرئ يصبو إلى ما يناسبه، ويميل إلى ما يشاكله، والجنسية علة الضم قدراً وشرعاً، والمشاكلة سبب الميل عقلاً وطبعاً، فمن أين هذا الإخاء والنسب؟ لولا التعلق من الشيطان بأقوى سبب، ومن أين هذه المصالحة التي أوقعت في عقد الإيمان وعهد الرحمن خللاً؟ ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

...(١)فصل في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف وسيأتي الأحاديث في ذلك.

عن عبد الرحمن بن غَنْم قال: حدثني أبو عامر، أو أبو مالك الأشعري رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي قَوْمٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَّ والْحَرِيرَ وَالْخمرَ وَالمَعَازِفَ» هذا حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه محتجاً به، وعلقه تعليقاً مجزوماً به، فقال: «باب ما جاء فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه»، وقال هشام بن عمار: حدثنا صدقة بن خالد حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، حدثنا عطية بن قيس الكلابي حدثني عبد الرحمن بن غنم الأشعري حدثني أبو عامر، أو أبو مالك الأشعري والله ما كذبني أنه سمع النبي ﷺ يقول: «لَيَكُونَنَّ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ والْحَرِيرَ وَالْخمرَ وَالمَعَازِفَ، وَلَيَنْزِلَنَّ أَقْوَامٌ

(١) ٢٥٨ الإغاثة جـ١.

إِلَى جَنْبِ عَلَمٍ، يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بِسَارِحَةٍ لَهُمْ، يأْتِيهِمْ لِحَاجَةٍ، فَيَقُولُوا أُرْجعْ إِلَيْنَا غَداً، فَيُبَيِّتُهُمُ اللهُ تَعَالَى وَيَضَعُ العَلَمَ، وَيَمْسَخُ آخَرِينَ قِرَدَةً وخنازير إِلَى يوْمِ الْقِيَامَةِ»[(١)].

ولم يصنع من قدح في صحة هذا الحديث شيئًا، كابن حزم، نصرة لمذهبه الباطل في إباحة الملاهي، وزعم أنه منقطع، لأن البخاري لم يصل سنده به. وجواب هذا الوهم من وجوه:...

[(٢)]ومن منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ منزلة «السماع».

وهو اسم مصدر كالنبات، وقد أمر الله به في كتابه، وأثنى على أهله، وأخبر أن البشرى لهم، فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾ [المائدة: ١٠٨] وقال: ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ [النساء: ٤٦] وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨] وقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾ [الأعراف: ٢٠٤] وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلا على علم الخير فيهم، وعدم ذلك دليلا على عدم الخير فيهم، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

وأخبر عن أعدائه: أنهم هجروا السماع ونهوا عنه، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه، وكم في القرآن من قوله: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٩٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٤).

(٢) ٤٨١ المدارج جـ١.

يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦].

فالسماع أصل العقل وأساس الإيمان الذي انبنى عليه، وهو رائده وجليسه ووزيره ولكن الشأن كل الشأن في المسموع، وفيه وقع خبط الناس واختلافهم، وغلط منهم من غلط.

وحقيقة «السماع» تنبيه القلب على معاني المسموع وتحريكه عنها: طلبًا وهربًا وحبًّا وبغضًا، فهو حاد يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه.

وأصحاب السماع منهم: من يسمع بطبعه ونفسه وهواه، فهذا حظه من مسموعه: ما وافق طبعه.

ومنهم: من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله، فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته.

ومنهم: من يسمع بالله لا يسمع بغيره، كما في الحديث الإلهي الصحيح: «فبي يسمع، وبي يبصر»، وهذا أعلى سماعًا، وأصح من كل أحد.

والكلام في «السماع» ـ مدحًا وذمًّا ـ يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع وحقيقته وسببه، والباعث عليه وثمرته وغايته، فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر «السماع» ويتميز النافع منه والضار، والحق والباطل، والممدوح والمذموم. فأما «المسموع»، فعلى ثلاثة أضرب:

أحدها: مسموع يحبه الله ويرضاه، وأمر به عباده، وأثنى على أهله، ورضي عنهم به.

الثاني: مسموع يبغضه ويكرهه، ونهى عنه، ومدح المعرضين عنه.

الثالث: مسموع مباح مأذون فيه، لا يحبه ولا يبغضه، ولا مدح صاحبه ولا ذمه، فحكمه حكم سائر المباحات: من المناظر والمشام والمطعومات والملبوسات المباحة، فمن حرم هذا النوع الثالث، فقد قال على الله ما لا يعلم، وحرَّم ما أحل الله، ومن جعله دينا وقربة يتقرب به إلى الله فقد كذب على الله، وشرع دينا لم يأذن به الله، وضاهأ بذلك المشركين.

فأما النوع الأول: فهو السماع الذي مدحه الله في كتابه وأمر به وأثنى على أصحابه، وذم المعرضين عنه ولعنهم، وجعلهم أضل من الأنعام سبيلًا، وهم القائلون في النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وهو سماع آياته المتلوة التي أنزلها على رسوله، فهذا السماع أساس الإيمان الذي يقوم عليه بناؤه، وهو على ثلاثة أنواع: سماع إدراك: بحاسة الأذن، وسماع فهم وعقل، وسماع منهم إجابة وقبول، والثلاثة في القرآن.

فأما سماع الإدراك: ففي قوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة.

وأما سماع الفهم: فهو المنفي عن أهل الإعراض والغفلة، بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [الروم: ٥٢] وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

فالتخصيص ههنا لإسماع الفهم والعقل، وإلا فالسمع العام الذي قامت به الحجة: لا تخصيص فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] أي لو علم الله في هؤلاء الكفار قبولًا وانقيادًا لأفهمهم، وإلا فهم قد سمعوا سمع الإدراك ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا، لأن في قلبهم من داعي التولي والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه.

وأما سماع القبول والإجابة: ففي قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين: أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١] فإن هذا سماع قبول وإجابة مثمر للطاعة.

والتحقيق: أنه متضمن للأنواع الثلاثة، وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه واستجابوا له.

ومن سمع القبول قوله تعالىٰ: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧] أي: قابلون منهم، مستجيبون لهم، هذا أصح القولين في الآية.

وأما قول من قال: عيون لهم وجواسيس، فضعيف، فإنه سبحانه أخبر عن حكمته في تثبيطهم عن الخروج: بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد، والسعي بين العسكر بالفتنة، وفي العسكر من يقبل منهم ويستجيب لهم، فكان في إقعادهم عنهم لطفا بهم ورحمة، حتىٰ لا يقعوا في عنت القبول منهم.

أما اشتمال العسكر علىٰ جواسيس وعيون لهم: فلا تعلق له بحكمة التثبيط والإقعاد، ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم، وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم، لئلا يسعوا بالفساد في العسكر، ولئلا يبغوهم الفتنة، وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم وإقعاد جواسيسهم وعيونهم.

وأيضًا فإن الجواسيس إنما تسمىٰ «عيونًا»، هذا المعروف في الاستعمال، لا تسمىٰ سماعين.

وأيضًا فإن هذا نظير قوله تعالىٰ في إخوانهم اليهود: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، أي قابلون له.

والمقصود: أن سماع خاصة الخاصة المقربين: هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا وتدبرًا وإجابة، وكل سماع في القرآن مدح الله أصحابه وأثنىٰ عليهم وأمر به أولياءه: فهو هذا السماع.

وهو سماع الآيات لا سماع الأبيات، وسماع القرآن لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء لا سماع قصائد الشعراء وسماع المراشد لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين لا سماع المغنين والمطربين.

فهذا السماع حاد يحدو القلوب إلىٰ جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلىٰ ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات إلىٰ أعلىٰ المقامات وأرفع الدرجات، ومنادٍ ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء

والصباح من قبل فالق الإصباح: «حي على الفلاح، حي على الفلاح».

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردا على ضلالة، وإرشادا من غي، وبصيرة من عمى، وأمرا بمصلحة، ونهيا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاءً، ودواءً وشفاءً، وعصمةً ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل.

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق في سماع الأبيات والقصائد؟ ونناشدهم بالذي أنزل القرآن هدى وشفاء ونورًا وحياة: هل وجدوا ذلك أو شيئًا منه في الدف والمزمار ونغمة الشادن ومطربات الألحان؟ والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق، الذي يشترك فيه محب الرحمن، ومحب الأوطان، ومحب الإخوان، ومحب العلم والعرفان، ومحب الأموال والأثمان، ومحب النسوان والمردان، ومحب الصلبان، فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشيء ساكنه، ويزعج قاطنه، فيثور وجده، ويبدو شوقه، فيتحرك على حسب ما في قلبه من الحب والشوق والوجد بذلك المحبوب كائنًا ما كان، ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقًا في السماع وحالًا ووجدًا وبكاءً.

ويالله العجب! أي إيمان ونور وبصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات، لعل أكثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، ويعاقب عليه: من غزل وتشبيب بمن لا يحل له من ذكر أو أنثى؟ فإن غالب التغزل والتشبيب: إنما هو في الصور المحرمة، ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه في امرأته وأمته وأم ولده، مع أن هذا واقع لكنه كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحياة قلب: أن يتقرب إلى الله، ويزداد إيمانا وقربا منه وكرامة عليه بالتذاذه بما هو بغيض إليه، مقيت عنده، يمقت قائله والراضي به، وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع وسنة نبيه ﷺ؟!

يالله! إن هذا القلب مخسوف به، ممكور به، منكوس، لم يصلح لحقائق القرآن،

وأذواق معانيه، ومطالعة أسراره، فبلاه بقرآن الشيطان، كما في معجم الطبراني وغيره مرفوعًا وموقوفًا: إن الشيطان، قال: يارب اجعل لي قرآنا قال: قرآنك الشعر قال: اجعل لي كتابا قال: كتابك الوشم قال: اجعل لي مؤذنًا قال: مؤذنك المزمار قال: اجعل لي بيتا قال: بيتك الحمام قال: اجعل لي مصائد قال: مصائدك النساء قال: اجعل لي طعامًا قال: «طعامك ما لم يذكر عليه اسمي»(١) والله ﷻ أعلم.

فصل: القسم الثاني من السماع ما يبغضه الله ويكرهه، ويمدح المعرض عنه، وهو سماع كل ما يضر العبد في قلبه ودينه، كسماع الباطل كله، إلا إذا تضمن رده وإبطاله والاعتبار به، وقصد أن يعلم به حسن ضده، فإن الضد يظهر حسنه الضد، كما قيل:

وإذا سمعت إلى حديثك زادني حبًّا له: سمعي حديث سواكا

وكسماع اللغو الذي مدح التاركين لسماعه والمعرضين عنه بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥] وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] قال محمد ابن الحنفية: هو الغناء، وقال الحسن أو غيره: أكرموا نفوسهم عن سماعه.

قال ابن مسعود: «الغناء ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء البقل»(٢). وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته، فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر، ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره في قلبه، فإنه ما اجتمع في قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى، وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه، وتبرمهم به وصياحهم بالقارئ إذا طول عليهم، وعدم انتفاع

---

(١) أخرجه الطبراني في معجم الكبير (٨/ ٢٠٧ رقم ٧٨٣٧) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١١٩): رواه الطبراني وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو ضعيف، وقد تقدم لهذا طرق في كتاب الإيمان. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٤٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٢٣ رقم ٢٠٧٩٦) وفي شعب الإيمان (٤/ ٢٧٩ رقم ٥١٠٠) وانظر: العلل ومعرفة الرجال (٢/ ٧٦ رقم ١٥٩٧) وعمدة القاري (٢٢/ ٢٧٤) وعون المعبود (١٣/ ١٨٣-١٨٤)، وفيض القدير (٤/ ٤١٣).

قلوبهم بما يقرأه، فلا تتحرك ولا تطرب ولا تهيج منها بواعث الطلب، فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله، كيف تخشع منهم الأصوات، وتهدأ الحركات، وتسكن القلوب، وتطمئن، ويقع البكاء والوجد والحركة الظاهرة والباطنة والسماحة بالأثمان والثياب، وطيب السهر، وتمني طول الليل، فإن لم يكن هذا نفاقًا، فهو آخية النفاق وأساسه.

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا ... والله ما رقصوا من أجل الله
دف ومزمار ونغمة شاهد ... فمتى شهدت عبادة بملاهي؟
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي
وعليهم خف الغنا لما رأوا ... إطلاقه في اللهو دون مناهي
يا فرقة ما ضر دين محمد ... وجنى عليه وملَّه إلا هي
سمعوا له رعدًا وبرقا إذ حوى ... زجرًا وتخويفا بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها يا ويحها المتناهي
وأتى السماع موافقًا أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه...[1]

***

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾.

[2]هذا أيضًا اسم جامع لجميع الجنات، لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول والمشروب والملبوس، والصور والرائحة الطيبة والمنظر البهيج، والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن.

***

(١) بقية البحث مع بقية هذه الأبيات في الأصل لمن أرادها. ٤٨٧ مدارج جـ١ (ج).
(٢) ٧٥ حادي الأرواح.

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾.

(١)لله ما أحلى هذا اللفظ وأوجزه وأدله على بطلان الشرك: فإنهم إن زعموا أن آلهتهم خلقت من شيء مع الله طولبوا بأن يُروه إياه، وإن اعترفت أنها أعجز وأضعف وأقل من ذلك كانت آلهتها باطلًا ومحالاً.

...(٢)تأمل خلق الأرض على ما هي عليه حين خلقها، واقفة ساكنة لتكون مهادًا ومستقرًّا للحيوان والنبات والأمتعة، ويتمكن الحيوان والناس من السعي عليها في مآربهم، والجلوس لراحاتهم، والنوم لهدوهم، والتمكن من أعمالهم، ولو كانت رجراجة متكفئة لم يستطيعوا على ظهرها قرارًا ولا هدوًّا، ولا ثبت لهم عليها بناء، ولا أمكنهم عليها صناعة ولا تجارة ولا حراثة ولا مصلحة، وكيف كانوا يتهنون بالعيش والأرض ترتج من تحتهم واعتبر ذلك بما يصيبهم من الزلازل على قلة مكثها، كيف تصيرهم إلى ترك منازلهم والهرب عنها، وقد نبه الله تعالى على ذلك بقوله: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل: ١٥] وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤] وقوله: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾ [الزخرف: ١٠] وفي القراءة الأخرى مهادًا.

وفي جامع الترمذي وغيره من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال عليها فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال، فقالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا رب هل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الريح. قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم، يتصدق صدقة بيمينه يخفيها عن شماله**»(٣).

---

(١) ٩٦ مختصر الصواعق جـ١.

(٢) ٢١٧ مفتاح جـ١.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٦٩) وأحمد (٣/ ١٢٤) وأبو يعلى (٧/ ٢٨٦ رقم ٤٣١٠) وعبد بن حميد (رقم
=

ثم تأمل الحكمة البالغة في ليونة الأرض مع يبسها، فإنها لو أفرطت في اللين كالطين لم يستقر عليها بناء ولا حيوان، ولا تمكنا من الانتفاع بها، ولو أفرطت في اليبس كالحجر لم يمكن حرثها ولا زرعها ولا شقها وفلحها ولا حفر عيونها ولا البناء عليها، فنقصت عن يبس الحجارة، وزادت علىٰ ليونة الطين، فجاءت بتقدير فاطرها علىٰ أحسن ما جاء عليه، مهاد للحيوان من الاعتدال بين اللين واليبوسة، فتهيأ عليها جميع المصالح.

ثم تأمل الحكمة البالغة في أن جعل مهب الشمال عليها ارفع من مهب الجنوب، وحكمة ذلك أن تتحدر المياه علىٰ وجه الأرض فتسقيها وترويها، ثم تفيض فتصب في البحر، فكما أن الباني إذا رفع سطحًا رفع أحد جانبيه وخفض الآخر، ليكون مصبًّا للماء، ولو جعله مستويًا لقام عليه الماء فأفسده، كذلك جعل مهب الشمال في كل بلد أرفع من مهب الجنوب، ولولا ذلك لبقي الماء واقفًا علىٰ وجه الأرض، فمنع الناس من العمل والانتفاع، وقطع الطرق والمسالك، وأضر بالخلق، أفيحسن عند من له مسكة من عقل أن يقول هذا كله اتفاق من غير تدبير العزيز الحكيم، الذي أتقن كل شيء.

***

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾.

...[1]الشأن هو الاشتغال بطاعة الله لا بالصوت الأحمق الفاجر، الذي هو

=

١٢١٥) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٤٤ رقم ٣٤٤١) والضياء المقدسي في المختارة (٦/ ١٥٣ رقم ٢١٤٩) وحسنه محققه الدكتور عبد الملك بن دهيش بينما ضعفه الترمذي بقوله: غريب. وكذا ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٤٧٧٠) وفي ضعيف سنن الترمذي. وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٨٥).

(١) ٥٠٠ المدارج جـ١.

للشيطان، وكذلك النوح ضد الصبر، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ في النائحة، وقد ضربها حتى بدا شعرها، وقال: «لا حرمة لها[1]. إنها تأمر بالجزع، وقد نهى الله عنه، وتنهى عن الصبر، وقد أمر الله به، وتفتن الحي، وتؤذي الميت، وتبيع عبرتها، وتبكي شجو غيرها».

ومعلوم عند الخاصة والعامة: أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير، والذي شاهدناه نحن وغيرنا، وعرفناه بالتجارب: أنه ما ظهرت المعازف وآلات اللهو في قوم وفشت فيهم واشتغلوا بها، إلا سلط الله عليهم العدو، وبلوا بالقحط والجدب وولاة السوء، والعاقل يتأمل أحوال العالم وينظر، والله المستعان.

وأما إنعام الرب تعالى على عبده: فإحسان إليه وتفضل عليه، ومجرد امتنان لا لحاجة منه إليه، ولا لمعاوضة ولا لاستعانة به، ولا ليتكثر به من قلة، ولا ليتعزز به من ذلة، ولا ليقوى به من ضعف، سبحانه وبحمده.

وأمره له بالشكر أيضًا: إنعام آخر عليه، وإحسان منه إليه، إذ منفعة الشكر ترجع إلى العبد دنيا وآخرة، لا إلى الله، والعبد هو الذي ينتفع بشكره، كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ﴾ [لقمان: ١٢] فشكر العبد إحسان منه إلى نفسه دنيا وأخرى، فلا يذم ما أتى به من ذلك، وإن كان لا يحسن مقابلة المنعم به، ولا يستطيع شكره، فإنه إنما هو محسن إلى نفسه بالشكر، لا أنه مكافئ به لنعم الرب.

فالرب تعالى لا يستطيع أحد أن يكافئ نعمه أبدًا ولا أقلها ولا أدنى نعمة من نعمه، فإنه تعالى هو المنعم المتفضل الخالق للشكر والشاكر وما يشكر عليه، فلا يستطيع أحد أن يحصي ثناء عليه، فإنه هو المحسن إلى عبده بنعمه، وأحسن إليه بأن أوزعه شكرها، فشكره نعمة من الله أنعم بها عليه، تحتاج إلى شكر آخر، وهلم جرًّا.

ومن تمام نعمته سبحانه وعظيم بره وكرمه وجوده: محبته له على هذا الشكر،

---

(١) أخرجه بنحوه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ٥٥٧ رقم ٦٦٨١).

ورضاه منه، به وثناؤه عليه به، ومنفعته وفائدته مختصة بالعبد، لا تعود منفعته على اللهو، هذا غاية الكرم الذي لا كرم فوقه، ينعم عليك، ثم يوزعك شكر النعمة، ويرضى عنك بذلك، ثم يعيد إليك منفعة شكرك، ويجعله سببًا لتوالي نعمه واتصالها إليك، والزيادة على ذلك منها.

***

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

...[1]من الاعتراض الذي هو في أعلى درجات الحسن قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان ١٤] فاعترض بذكر شأن حمله ووضعه بين الوصية والموصى به، توكيدًا لأمر الوصية بالوالدة التي هذا شأنها، وتذكيرًا لولدها بحقها، وما قاسته من حمله ووضعه مما لم يتكلفه الأب.

***

﴿يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

...[2]إنه سبحانه تعالى جعل الصبر على المصائب من عزم الأمور، أي مما يعزم من الأمور التي إنما يعزم على أجلها وأشرفها، فقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣] وقال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. **الخامس عشر**: إنه سبحانه وعد المؤمنين بالنصر والظفر، وهي كلمته التي سبقت لهم، وهي الكلمة الحسنى، وأخبر

---

(١) ١٤٠ التبيان.

(٢) ٧٦ عدة الصابرين.

أنه إنما أنالهم ذلك بالصبر، فقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. السادس عشر: إنه سبحانه علق محبته بالصبر، وجعلها لأهله، فقال: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٦]. السابع عشر: إنه سبحانه أخبر عن خصال الخير، أنه لا يلقاها إلا الصابرون في موضعين من كتابه في سورة القصص في قصة قارون، وأن الذين أوتوا العلم قالوا للذين تمنوا مثل ما أوتي: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص: ٨٠] وفي سورة حم السجدة، حيث أمر العبد أن يدفع بالتي هي أحسن، فإذا فعل ذلك صار الذي بينه وبينه عداوة، كأنه حبيب قريب، ثم قال: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥]. الثامن عشر: إنه سبحانه أخبر أنه إنما ينتفع بآياته ويتعظ بها الصبار الشكور، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [إبراهيم: ٥]، وقال تعالى في لقمان: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [لقمان: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣]، فهذه أربع مواضع في القرآن تدل على أن آيات الرب إنما ينتفع بها أهل الصبر والشكر.

...[1]الصبر منصور أبدًا، فإن كان صاحبه محقًا كان منصورًا له العاقبة، وإن كان مبطلًا لم يكن له عاقبة، وإذا قام العبد في الحق لله ولكن قام بنفسه وقوته ولم يقم بالله

(١) ١٥٩ الإعلام جـ٢.

مستعينًا به متوكلًا عليه مفوضًا إليه بريًا من الحول والقوة إلا به، فله من الخذلان وضعف النصرة بحسب ما قام به من ذلك، ونكتة المسألة أن تجريد التوحيد في أمر الله لا يقوم له شيء البتة، وصاحبه مؤيد منصور ولو توالت عليه زُمر الأعداء.

قال الإمام أحمد: حدثنا داود أنبأنا شعبة عن واقد بن محمد بن زيد عن ابن أبي مليكة عن القاسم بن محمد عن عائشة قالت: من أسخط الناس برضاء الله ﷻ كفاه الله الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله وكله إلى الناس[1].

...[2]مشهد «الجهاد» وهو أن يشهد تولد أذى الناس له من جهاده في سبيل الله، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وإقامة دين الله، وإعلاء كلماته، وصاحب هذا المقام: قد اشترى الله منه نفسه وماله وعرضه بأعظم الثمن، فإن أراد أن يسلم إليه الثمن فليسلم هو السلعة ليستحق ثمنها، فلا حق له على من آذاه، ولا شيء له قبله، إن كان قد رضي بعقد هذا التبايع، فإنه قد وجب أجره على الله.

وهذا ثابت بالنص وإجماع الصحابة رضي الله عنهم، ولهذا منع النبي ﷺ المهاجرين من سكنى مكة ـ أعزها الله ـ ولم يرد على أحد منهم داره ولا ماله الذي أخذه الكفار، ولم يضمنهم دية من قتلوه في سبيل الله.

ولما عزم الصديق ؓ تضمين أهل الردة ما أتلفوه من نفوس المسلمين وأموالهم، قال له عمر بن الخطاب ؓ بمشهد من الصحابة ؓ: «تلك دماء وأموال ذهبت في الله، وأجورها على الله، ولا دية لشهيد» فاتفق الصحابة على قول عمر، ووافقه عليه الصديق.

فمن قام لله حتى أوذي في الله: حرم الله عليه الانتقام، كما قال لقمان لابنه: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

***

(١) أخرجه ابن الجعد (رقم ١٥٩٣) وعبد بن حميد (رقم ١٥٢٤) والبيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٣٢ رقم ٨٩٠) وصححه الحافظ ابن حجر في الأمالي المطلقة (ص ١١٩).

(٢) ٣٢١ المدارج جـ٢.

﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

...[1]من قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، والمواقع اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحدًا أفردت، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩] فجمع الأصوات لتعدد النوع، وأفرد صوت الحمير لوحدته، فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه، وتعدد المواقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

***

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

...[2]الله سبحانه خلق عباده المؤمنين، وخلق كل شيء لأجلهم، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠] وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق.

...[3]كتب ابن السماك إلى محمد بن الحسن حين ولي القضاء بالرقة: أما بعد، فلتكن التقوى من بالك على كل حال، وخف الله من كل نعمة أنعم بها عليك من قلة الشكر عليها مع المعصية بها، فإن في النعم حجة، وفيها تبعة، فأما الحجة بها فالمعصية بها، وأما التبعة فيها فقلة الشكر عليها، فعفى الله عنك، كلما ضيعت من شكر، أو ركبت من ذنب، أو قصرت من حق[4]، ومر الربيع بن أبي راشد برجل به

---

(١) ١٣٨ التبيان.

(٢) ٢٤٠ الهجرتين.

(٣) ١٣٦ عدة الصابرين.

(٤) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١٤١ رقم ٤٥٩١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٨٩) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٠٥).

زمانةٌ فجلس يحمد الله ويبكي، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ذكرت أهل الجنة وأهل النار، فشبهت أهل الجنة بأهل العافية، وأهل النار بأهل البلاء، فذلك الذي أبكاني[١].

وقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي: «إذا أحب أحدكم أن يرى قدر نعمة الله عليه فلينظر إلى من تحته، ولا ينظر إلى من فوقه»[٢] قال عبد الله بن المبارك أخبرني يحيى ابن عبد الله قال: سمعت أبي هريرة فذكره، وقال ابن المبارك: حدثنا يزيد بن إبراهيم عن الحسن قال: قال أبو الدرداء: من لم يعرف نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قل عمله وحضر عذابه[٣]. قال ابن المبارك أخبرنا مالك بن أنس عن اسحق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس ﷺ قال: سمعت عمر بن الخطاب ﷺ سلم على رجل فرد ﷺ فقال عمر للرجل: كيف أنت؟ قال الرجل: أحمد إليك الله، قال عمر: هذا أردت منك[٤]، قال ابن المبارك: وأخبرنا مسعود عن علقمة بن مرقد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال :لعلنا نلتقي في اليوم مرارًا، يسأل بعضنا عن بعض، ولم يرد بذلك إلا ليحمد الله ﷻ[٥]. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَـٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ قال: لا إله إلا الله. وقال ابن عيينة: ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرفهم لا إله إلا الله، قال: وإن لا إله إلا الله لهم في الآخرة كالماء في الدنيا[٦].

***

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٠) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ٧٨).

(٢) أخرجه ابن المبارك في مسنده (رقم ٨٢) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩١).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٥٥١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٢) وأبو نعيم في الحلية (١/ ٢١٠) والبيهقي في الشعب (٤/ ١١٣ رقم ٤٤٦٧).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٣).

(٥) أخرجه ابن المبارك في ا لزهد (رقم ٢٠٧) والبيهقي في الشعب (٤/ ١١٠ رقم ٤٤٥١) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٤).

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٧/ ٢٧٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ١١٩ رقم ٤٥٠٠) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٩٦) وانظر: تهذيب الكمال (١١/ ١٩١) والدر المنثور (٥/ ٤٤).

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

...[1]قد دل القرآن والسنة والعقل الصريح على أن كلمات الله وأفعاله لا تتناهى، ولا تنقطع بآخر، ولا تجد بأول، قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان: ٢٧]، فأخبر عن عدم نفاد كلماته لعزته وحكمته، وهذان وصفان ذاتيان له ﷻ، لا يكون إلا كذلك، وذكر ابن أبي حاتم في تفسيره عن سليمان بن عامر قال: سمعت الربيع بن أنس يقول إن مثل علم العباد كلهم في علم الله ﷻ كقطرة من هذه البحور كلها.

وقد أنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ... ﴾ الآية، وقوله: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا ... ﴾ الآية يقول ﷻ: قل لو كان البحر مدادًا لكلمات الله والشجر كلها أقلام لانكسرت الأقلام، وفني ماء البحر، وكلمات الله تعالى باقية لا يفنيها شيء، لأن أحدًا لا يستطيع أن يقدر قدره ولا يثني عليه كما ينبغي، بل هو كما أثنى على نفسه: إن ربنا كما يقول وفوق ما يقول، ثم إن مثل نعيم الدنيا أوله وآخره في نعيم الآخرة: كحبة من خردل في خلال الأرض كلها.

...[2]وأما قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ فإن الآية سيقت لبيان أن أشجار الأرض لو كانت أقلامًا والبحار مدادًا فكتبت بها كلمات الله. لنفدت البحار والأقلام، ولم تنفد كلمات الله. فالآية سيقت لبيان الملازمة بين عدم نفاد كلماته وبين كون الأشجار أقلامًا والبحار مدادًا يكتب بها فإذا كانت الملازمة ثابتة

---

(١) ٢٥٣ حادي الأرواح.

(٢) ٥٧ البدائع جـ١.

علىٰ هذا التقدير، الذي هو أبلغ تقدير، يكون في نفاد المكتوب، فثبوتها علىٰ غيره من التقادير أولىٰ، ونوضح هذا بضرب مثل يرتقىٰ منه إلىٰ فهم مقصود الآية، إذا قلت لرجل لا يعطي أحدًا شيئًا: لو أن لك الدنيا بأسرها ما أعطيت أحدا منها شيئا. فإنك إذا قصدت أن عدم إعطائه ثابت علىٰ أعظم التقادير التي تقتضي الإعطاء، فلازمت بين عدم إعطائه أسباب الإعطاء، وهو كثرة ما يملكه، فدل هذا علىٰ أن عدم إعطائه ثابت علىٰ ما هو دون هذا التقدير، وأن عدم الإعطاء لازم لكل تقدير، فافهم نظير هذا المعنىٰ في الآية، وهو عدم نفاد كلمات الله تعالىٰ علىٰ تقدير أن الأشجار أقلام والبحار مداد يكتب بها، فإذا لم تنفد علىٰ هذا التقدير كان عدم نفادها لازما له، فكيف بما دونه من التقديرات، فافهم هذه النكتة التي لا يسمح بمثلها كل وقت، ولا تكاد تجدها في الكتب، وإنما هي من فتح الله وفضله، فله الحمد والمنة، ونسأله المزيد من فضله. فانظر كيف اتفقت القاعدة العقلية مع القاعدة النحوية، وجاءت النصوص بمقتضاهما معا من غير خروج عن موجب عقل ولا لغة، ولا تحريف لنص، ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذه الفائدة لساوت رحلة، فكيف وقد تضمن من غرر الفوائد ما لا يتفق إلا علىٰ تجارة، وأما من ليس هناك فإنه يظن الجوهرة زجاجة والزجاجة المستديرة المثقوبة جوهرة، ويزري علىٰ الجوهري، ويزعم أنه لا يفرق بينهما، والله المعين.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة لقمان

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ السَّجْدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

[1]قد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقر به. والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلب على المعبود، ويجعل له رباً يقصده، وصمداً يصمد إليه في حوائجه، وملجأً يلجأ إليه، فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه ويهرب إليه، ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه الباطن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلّصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقاً صحيحاً سليماً من أذواق أهل الانحراف. فمن رزق هذا فهم معنى اسمه الباطن، وصح له التعبد به.

وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، فاشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبوِّ الأفهام عنه،

---

(١) ٢١ الهجرتين.

وعزة تخلص الحق من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج إلا على من رزقه الله بصيرة في الحق، ونوراً يميز به بين الهدى والضلال، وفرقاناً يفرق به بين الحق والباطل، ورُزِقَ مع ذلك اطلاعاً على أَسباب الخطأ وتفرق الطرق ومثار الغلط، فكان له بصيرة في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيم.

[(١)]وتأمل ما في هذه الآيات من الرد على طوائف المعطلين والمشركين، فقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ يتضمن إبطال قول الملاحدة القائلين بقدم العالم وأنه لم يزل، وإن الله سبحانه لم يخلقه بقدرته ومشيئته، ومن أثبت منهم وجود الرب جعله لازما لذاته أزلًا وأبدًا غير مخلوق، كما هو قول ابن سينا والنصير الطوسي وأتباعهما من الملاحدة الجاحدين، لما اتفقت عليه الرسل عليهم الصلاة والسلام والكتب، وشهدت به العقول والفطر.

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ يتضمن إبطال قول المعطلة والجهمية الذين يقولون: ليس على العرش شيء سوى العدم، وأن الله ليس مستويا على عرشه، ولا ترفع إليه الأيدي، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا رفع المسيح عليه الصلاة والسلام إليه. ولا عرج برسوله محمد ﷺ، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا ينزل من عنده جبريل عليه الصلاة والسلام ولا غيره، ولا ينزل هو كل ليلة إلى السماء الدنيا ولا يخافه عباده من الملائكة وغيرهم من فوقهم. ولا يراه المؤمنون في الدار الآخرة عيانا بأبصارهم من فوقهم ولا تجوز الإشارة إليه بالأصابع إلى فوق، كما أشار إليه النبي ﷺ في أعظم مجامعه في حجة الوداع وجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس، ويقول: «اللهم اشهد»[(٢)].

---

(١) ٤٨ اجتماع الجيوش.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٤).

قال شيخ الإسلام: وهذا كتاب الله من أوله إلىٰ آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوء مما هو نص أو ظاهر في أن الله ﷻ فوق كل شيء، وإنه فوق العرش فوق السماوات مستو علىٰ عرشه، مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] وقوله تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقوله تعالىٰ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وقوله تعالىٰ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣، ٤] وقوله تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠] وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤، ٥٥].

***

﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۝﴾.

...[1] حديث ابن عباس رضي الله عنهما، نحن نسوقه ليتبين كم فيه من دليل علىٰ بطلان قول الملاحدة وأهل البدع في الروح، وقد ذكرنا إسناده فيما تقدم، قال: بينما رسول الله ذات يوم قاعدًا تلا هذه الآية: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣] الآية ثم قال: «**والذي نفس محمد بيده ما من نفس تفارق الدنيا، حتىٰ ترىٰ مقعدها من الجنة أو النار، فإذا كان عند ذلك صف له سماطان من الملائكة، ينتظمان ما بين الخافقين، كأن وجوههم الشمس، فينظر إليهم ما يرىٰ غيرهم ـ وإن كنتم ترون أنه ينظر إليكم ـ مع كل ملك منهم أكفان وحنوط، فإن كان مؤمنًا بشروه بالجنة، وقالوا:**

---

(١) ٢٢٨ الروح.

اخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله وجنته، فقد أعد الله لك من الكرامة ما هو خير لك من الدنيا وما فيها ـ فلا يزالون يبشرونه، فهم ألطف به وأرأف من الوالدة بولدها ـ ثم يسلون روحه من تحت كل ظفر ومفصل، يموت الأول فالأول، ويبرد كل عضو الأول فالأول، ويهون عليه ـ وإن كنتم ترونه شديدًا ـ حتى تبلغ ذقنه، فلهي أشد كراهية للخروج من الجسد من الولد حين يخرج من الرحم، فيبتدرونها كل ملك منهم أيهم يقبضها، فيتولى قبضها ملك الموت، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١] فيتلقاها بأكفان بيض، ثم يحتضنها إليه، فلهو أشد لزومًا من المرأة لولدها، ثم يفوح منها ريح أطيب من المسك، فيستنشقون ريحًا طيبًا، ويتباشرون بها، ويقولون: مرحبًا بالريح الطيبة والروح الطيب، اللهم صل عليه روحا، وصل على جسد خرجت منه. قال: فيصعدون بها، فتفوح لهم ريح أطيب من المسك، فيصلون عليها، ويتباشرون بها، وتفتح لهم أبواب السماء، ويصلى عليها كل ملك في كل سماء تمر بهم، حتى تنتهي بين يدي الجبار جل جلاله، فيقول الجبار عز وجل: مرحبًا بالنفس الطيبة، أدخلوها الجنة، وأروها مقعدها من الجنة، وأعرضوا عليها ما أعددت لها من الكرامة والنعيم، ثم اذهبوا بها إلى الأرض، فإني قضيت أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فوالذي نفس محمد بيده لهي أشد كراهية للخروج منها حين كانت تخرج من الجسد، وتقول: أين تذهبون بي؟ إلى ذلك الجسد الذي كنت فيه؟! فيقولون: إنا مأمورون بهذا، فلا بد لك منه، فيهبطون به على قدر فراغهم من غسله وأكفانه، فيدخلون ذلك الروح بين الجسد وأكفانه»[1] فتأمل كم في الحديث من موضع يشهد ببطلان قول المبطلين في الروح.

***

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٣١٨-٣١٩) إلى ابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

[(١)]تأمل كيف قابل ما أخفوه من قيام الليل بالجزاء الذي أخفاه لهم مما لا تعلمه نفس، وكيف قابل قلقهم وخوفهم واضطرابهم على مضاجعهم، حين يقوموا إلى صلاة الليل بقرة الأعين في الجنة.

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مصداق ذلك في كتاب الله**: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾»[(٢)] وفي لفظ آخر فيهما: «**يقول الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ذخرًا، بله ما أطلعتكم عليه**» ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[(٣)].

وفي صحيح مسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي قال: شهدت مع النبي ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال آخر حديثه: «**فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**» ثم قرأ هذه الآية: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[(٤)].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لقاب قوس أحدكم**

---

(١) ١٩٧ حادي.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٤٤) ومسلم (رقم ٢٨٢٤) انظر: فتح الباري (٨/ ٥١٦).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٨٠) ومسلم (رقم ٢٨٢٤) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥١٧) وشرح النووي (١٧/ ١٦٦).

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٢٥).

في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»[١] وقد تقدم حديث أبي أمامة عن النبي ﷺ: «ألا مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبد في دار سليمة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، ومحلة عالية بهية»[٢] ولو لم يكن من خطر الجنة وشرفها إلا أنه لا يسأل بوجه الله غيره لكفاها شرفًا وفضلًا...

...[٣]وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن أبي المثنى البزار: حدثنا محمد بن زياد الكلبي حدثنا بشير بن حسين عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله جنة عدن بيده: لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، بلاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشها الزعفران، ثم قال لها: أنطقي قالت: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فقال الله ﷻ: وعزتي وجلالي لا يجاورني فيك بخيل» ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[٤] [التغابن: ١٦].

وتأمل هذه العناية كيف جعل هذه الجنة التي غرسها بيده لمن خلقه بيده، ولأفضل ذريته اعتناء وتشريفا، وإظهارا لفضل ما خلقه وبيده شرفه، وميزه بذلك عن غيره، وبالله التوفيق، فهذه الجنة في الجنات كآدم في نوع الحيوان.

وقد روى مسلم في صحيحه عن المغيرة بن شعبة عن سعيد عن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٣) ومسلم (رقم ١٨٨٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ١٠٠).

(٢) أخرجه الضياء في المختارة (٤/ ١٣٢ رقم ١٣٤٣) وابن حبان (١٦/ ٣٨٩ رقم ٧٣٨١) وفي الموارد (رقم ٢٦٢٠) وابن ماجه (رقم ٤٣٣٢) والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢ رقم ٣٨٨) والبزار (٧/ ٤٣ رقم ٢٥٩١).

(٣) ٨٠ حادي.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥/ ٣٤٩ رقم ٥٥١٨) وفي الكبير (١٢/ ١٤٧ رقم ١٢٧٢٣) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٥٨ رقم ٣٩٤٢): رواه الطبراني في الكبير والأوسط بإسنادين أحدهما جيد. وكذا قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٩٧).

«سأل موسىٰ عليه السلام ربه: ما أدنىٰ أهل الجنة منزلة؟ قال: رجل يجيء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أترضىٰ أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت رب، فيقول له: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة: رضيت رب. قال: رب فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر علىٰ قلب بشر» ومصداقه من كتاب الله: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[1].

***

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠﴾.

[2]لما كان الكفار في سجن الكفر والشرك وضيقه، وكانوا كلما هموا بالخروج منه إلىٰ فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا علىٰ حوافرهم، كان عقوبتهم في الآخرة كذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠] وقال في موضع آخر: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢] فالكفر والمعاصي والفسوق كله غموم، وكلما عزم العبد أن يخرج منه أبت عليه نفسه وشيطانه ومألفه، فلا يزال في غم ذلك حتىٰ يموت، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة، وإن خرج من غمه وضيقه هاهنا خرج منه هناك، فما حبس العبد عن الله في هذه الدار حبسه عنه بعد الموت، وكان معذبًا به هناك، كما كان قلبه معذبًا به في الدنيا، فليس العشاق والفجرة والظلمة في لذة في هذه الدار، وإنما هم يعذبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٩) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥١٦) وشرح النووي (٣/ ٤٦).
(٢) ٢٨٣ حادي.

وبين الشعور بالألم، فإذا حيل بينهم وبين ما يشتهون أحضرت نفوسهم الألم الشديد، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى، والدود يأكل أجسامهم.

***

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

(١)من منازل: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ منزلة «اليقين». وهو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وبه تفاضل العارفون، وفيه تنافس المتنافسون، وإليه شمر العاملون، وعملُ القومِ إنما كان عليه، وإشاراتهم كلها إليه، وإذا تزوج الصبر باليقين: ولد بينهما حصول الإمامة في الدين، قال الله تعالى، وبقوله يهتدي المهتدون: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

وخص سبحانه أهل اليقين بالانتفاع بالآيات والبراهين، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠].

وخص أهل اليقين بالهدى والفلاح من بين العالمين، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٤-٥].

وأخبر عن أهل النار: بأنهم لم يكونوا من أهل اليقين، فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢] فـ«اليقين» روح أعمال القلوب، التي هي أرواح أعمال الجوارح، وهو حقيقة الصديقية، وهو قطب هذا الشأن، الذي عليه مداره.

وروى خالد بن يزيد عن السفيانين عن التيمي عن خيثمة عن عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ قال: «لا ترضين أحدًا بسخط الله، ولا تحمدنَّ أحدًا على فضل الله، ولا

---

(١) ٣٩٧ المدارج جـ٢.

تذمنَّ أحدًا على ما لم يؤتك الله، فإن رزق الله لا يسوقه إليك حرص حريص، ولا يرده عنك كراهية كاره، وإن الله بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»[١] واليقين قرين التوكل، ولهذا فسر التوكل بقوة اليقين.

[٢]والصواب: أن التوكل ثمرته ونتيجته، ولهذا حسن اقتران الهدى به، قال الله تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩] فالحق: هو اليقين، وقالت رسل الله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢].

ومتى وصل «اليقين» إلى القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفى عنه كل ريب وشك وسخط وهم وغم، فامتلأ محبة لله، وخوفًا منه، ورضى به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابة إليه...

[٣]قوله تعالى عن أصحاب موسى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] فأخبر تعالى أنه جعلهم أئمة يأتم بهم من بعدهم، لصبرهم ويقينهم، إذ بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين[٤]. فإن الداعي إلى الله تعالى لا يتم له أمره إلا بيقينه للحق، الذي يدعو إليه، وبصيرته به، وصبره على تنفيذ الدعوة إلى الله، باحتمال مشاق الدعوة، وكف النفس عما يوهن عزمه، ويضعف إرادته، فمن كان بهذه المثابة كان من الأئمة، الذين يهدون بأمره تعالى، ومن المعلوم

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٢٢١ رقم ٢٠٨) وفي الأربعين الصغرى (رقم ٥٠) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٢١) (٧/ ١٣٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢١٥ رقم ١٠٥١٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٩١ رقم ٩٤٧) وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٧١): رواه الطبراني في الكبير، وفيه خالد بن يزيد العمري واتهم بالوضع.

(٢) ٣٩٨ المدارج جـ٢.

(٣) ١٣٥ الإعلام جـ٤.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٦٤) وتفسير السعدي (ص ٦٥٦).

أن أصحاب محمد ﷺ أحق وأولى بهذا الوصف من أصحاب موسى، فهم أكمل يقينا، وأعظم صبرًا من جميع الأمم، فهم أولى بمنصب هذه الإمامة، وهذا أمر ثابت بلا شك بشهادة الله لهم وثنائه عليهم، وشهادة الرسول لهم بأنهم خير القرون، وأنهم خيرة الله وصفوته، ومن المحال على من هذا شأنهم أن يخطئوا كلهم الحق، ويظفر به المتأخرون، ولو كان هذا ممكنا لانقلبت الحقائق، وكان المتأخرون أئمة لهم يجب عليهم الرجوع إلى فتاويهم وأقوالهم، وهذا كما أنه محال حسًّا وعقلاً، فهو محال شرعا، وبالله التوفيق...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة السجدة

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

سُورَةُ الأَحْزَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

[1]كيف أمره بتقواه المتضمنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه: محبة له، وخشية، ورجاء، فإن التقوىٰ لا تتم إلا بذلك، واتباع ما أوحي إليه المتضمن لتركه ما سوىٰ ذلك واتباع المنزل خاصة، وبالتوكل عليه؛ وهو يتضمن اعتماد القلب [عليه] وحده، وثقته [به]، وسكونه إليه دون غيره، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤]، فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة، إذا مال بها إلىٰ جهة لم يمل إلىٰ غيرها، وليس للعبد قلبان: يطيع الله ويتبع أمره، ويتوكل عليه بأحدهما، والآخر لغيره، بل ليس إلا قلب واحد، فإن لم يفرد بالتوكل والمحبة التقوىٰ ربه وإلا انصرف ذلك إلىٰ غيره، ثم استطرد من ذلك إلىٰ أنه سبحانه لم يجعل زوجة الرجل أمه، واستطرد منه إلىٰ أنه لم يجعل دعيه ابنه، فانظر: ما أحسن هذا التأصيل وهذا الاستطراد، الذي تسجد له العقول والألباب، وله نظائر في القرآن عديدة، فمنها قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ

---

(١) ٣٠٨ روضة المحبين.

فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٩، ١٩٠]، فالنفس الواحدة وزوجها: آدم وحواء، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما: المشركون من أولادهما، ولا يلتفت إلىٰ غير ذلك، مما قيل: إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولد، فأتاهما إبليس، فقال: إن أحببتما أن يعيش لكما ولد فسمياه: عبد الحارث، ففعلا[١]، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه، فلم يكن ليشرك به بعد ذلك، ونظير هذا الاستطراد قوله: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، ثم قال: ﴿ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فإنهم كانوا يفعلون ذلك في الإحرام، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذي هو من فوائد الأهلة استطرد منه إلىٰ ذكر ما يفعلونه فيه، وهو كثير جدًّا.

***

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾.

[٢]إن التسمية حق للأب، لا للأم. هذا مما لا نزاع فيه بين الناس، وأن الأبوين إذا تنازعا في تسمية الولد، فهي للأب، والأحاديث المتقدمة كلها تدل علىٰ هذا، وهذا كما أنه يدعىٰ لأبيه لا لأمه، فيقال: فلان ابن فلان، قال تعالىٰ: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره موقوفًا علىٰ ابن عباس (٥/ ١٦٣٤ رقم ٨٦٥٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور إلىٰ سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم (٣/ ٦٢٤) وانظر: تاريخ مدينة دمشق (٦٩/ ١١١) وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٧٦).

(٢) ٧٩ تحفة المودود.

عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٥]، والولد يتبع أمه في الحرية والرق، ويتبع أباه في النسب، والتسمية: تعريف النسب والمنسوب، ويتبع في الدين خير أبويه ديناً، فالتعريف: كالتعليم والعقيقة، وذلك إلى الأب، لا إلى الأم، وقال النبي ﷺ: «**ولد لي الليلة مولود، فسميته باسم أبي إبراهيم**»[١]. وتسمية الرجل ابنه كتسمية غلامه.

[٢]كان النبي ﷺ أبًا للمؤمنين، كما في قراءة أبي: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب:٦]، وهو أب لهم، ولهذا تفرع على هذه الأبوة أن جعلت أزواجه أمهاتهم، فإن أرواحهم وقلوبهم ولدت به، ولادة أخرى غير ولادة الأمهات، فإنه أخرج أرواحهم وقلوبهم من ظلمات: الجهل، والضلال، والغي إلى نور العلم، والإيمان، وفضاء المعرفة، والتوحيد، فشاهدت حقائق أخر وأموراً لم يكن لها بها شعور قبله، قال تعالى: ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ [إبراهيم: ١] وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

[٣]وبادر زيد بن حارثة حِبُّ رسول الله ﷺ، وكان غلاماً لخديجة، فوهبته لرسول الله ﷺ لما تزوجها، وقدم أبوه وعمه في فدائه، فسألا عن النبي ﷺ؟ فقيل: هو في المسجد، فدخلا عليه، فقال: «يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ابننا عندك، فامنن علينا، وأحسن إلينا في فدائه. قال: «ومن هو؟» قالوا: زيد بن حارثة، فقال

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣١٥) وانظر: فتح الباري (٣/ ١٧٣) وشرح النووي (١٥/ ٧٤-٧٥).

(٢) ١٦ طريق الهجرتين.

(٣) ٢٠ زاد المعاد جـ٣. طبعة مؤسسة الرسالة بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط.

رسول الله ﷺ: «فهلّا غير ذلك». قالوا: ما هو؟ قال: «أدعوه فأخيِّره، فإن اختاركم فهو لكم، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على من أختارني أحداً». قالا: قد رددتنا على النَّصَف، وأحسنت، فدعاه، فقال: «تعرف هؤلاء؟» قال: نعم. قال: «من هذا؟» قال: هذا أبي، وهذا عمي. قال: «فأنا من قد علمت ورأيت، وعرفت صحبتي لك، فاخترني أو اخترهما». قال: ما أنا بالذي اختار عليك أحدًا أبداً، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا: ويحك يا زيد، أتختار العبودية على الحرية، وعلى أبيك وعمك، وعلى أهل بيتك؟ قال: نعم، قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبداً، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر، فقال: «أشهدكم أن زيداً ابني، يرثني وأرثه». فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما، فانصرفا، ودُعي زيد بن محمد، حتى جاء الله بالإسلام، فنزلت: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب:٥]، فدعي من يومئذ: «زيد بن حارثة». قال معمر في جامعه عن الزهري: «ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثه، وهو الذي أخبر الله عنه في كتابه: أنه أنعم عليه، وأنعم عليه رسوله، وسماه باسمه»(١).

(٢)قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهو دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أموراً.

منها: أن يكون أحب إلى العبد من نفسه، لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب له من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول أولى به منها وأحب إليه منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان.

ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمال الانقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٣/ ٤٠-٤٢) والاستيعاب (٢/ ٥٤٥) والإصابة (٢/ ٥٩٩-٦٠٠) وصفة الصفوة (١/ ٣٨٠-٣٨١) وتاريخ دمشق (١٩/ ٣٤٧-٣٤٨).

(٢) ٢١ الرسالة التبوكية.

لوازم المحبة، من الرضا بحكمه والتسليم لأمره وإيثاره على ما سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه تصرف قط، إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

فيا عجباً! كيف تحصل هذه الأولوية لعبد قد عزل ما جاء به الرسول ﷺ عن منصب التحكيم، ورضي بحكم غيره، واطمأن إليه أعظم من اطمئنانه إلى الرسول ﷺ، وزعم أن الهدى لا يتلقى من مشكاته، وإنما يتلقى من دلالة العقول، وأن الذي جاء به لا يفيد اليقين؟! إلى غير ذلك من الأقوال التي تتضمن الإعراض عنه، وعما جاء به، والحوالة في العلم النافع إلى غيره، ذلك هو الضلال البعيد.

ولا سبيل إلى ثبوت هذه الأولوية إلا بعزل كل ما سواه، وتوليته في كل شيء، وعرض ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به، فإن شهد له بالصحة قبله، وإن شهد له بالبطلان رده، وإن لم تتبين شهادته له لا بصحة ولا ببطلان جعله بمنزلة أحاديث أهل الكتاب ووقفه حتى يتبين أي الأمرين أولى به.

فمن سلك هذه الطريقة استقام له سفر الهجرة، واستقام له علمه وعمله، وأقبلت وجوه الحق إليه من كل جهة.

ومن العجب أن يدعي حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان: سعيه، واجتهاده، ونصبه في الاشتغال بأقوال غيره، وتقريرها، والغضب، والمحبة لها، والرضا بها، والتحاكم إليها، وعرض ما قاله الرسول عليها! فإن وافقها قبله، وإن خالفها التمس وجوه الحيل، وبالغ في رده ليًّا وإعراضاً، كما قال تعالى: ﴿ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء: ١٣٥].

(١) وأما الأزواج فجمع زوج، وقد يقال: زوجة، والأول أفصح وبها جاء القرآن،

---

(١) ١٢٩ جلاء الأفهام.

قال ـ تعالىٰ ـ لآدم: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥]، قال تعالىٰ في حق زكريا: ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ومن الثاني: قول ابن عباس رضي الله عنهما في عائشة رضي الله عنها: «إنها زوجة نبيكم في الدنيا والآخرة»[1].

وقال الفرزدق:

وإن الذي يسعىٰ ليفسد زوجتي كساع إلىٰ أسد الشرىٰ يستبينها[2]

وقد جمع علىٰ «زوجات» وهذا إنما هو جمع زوجة، وإلا فجمع زوج «أزواج».

قال تعالىٰ: ﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠]. وقد وقع في القرآن الإخبار عن أهل الإيمان بلفظ الزوج مفرداً وجمعاً كما تقدم.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ﴾ [الأحزاب: ٢٨].

والإخبار عن أهل الشرك بلفظ: «المرأة»، وقال تعالىٰ: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا ﴾ [المسد: ١-٥].

قال تعالىٰ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ [التحريم: ١٠] فلما كانتا مشركتين أوقع عليهما اسم «امرأة».

وقال في فرعون: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ ﴾ [التحريم: ١١]،

---

(١) أخرجه البخاري من قول عمار بن ياسر رضي الله عنهما (رقم ٧١٠١) وانظر: فتح الباري (٣/ ٢٥٨).

(٢) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلىٰ الفرزدق: همام بن غالب التميمي الدارمي من النبلاء وعظيم الأثر في اللغة، وكان شريفًا في قومه، عزيز الجانب، لقب بالفرزدق لجهامة وجهه وغلظه، قارب المئة توفي سنة ١١٠هـ. والبيت في ديوانه هكذا:

فإنَّ امرءًا يسعىٰ يُخَبِّب زوجتي كساعٍ إلىٰ أُسد الثرىٰ يستبيلها

ذكره ابن قتيبة الدينوري في أدب الكاتب (ص ٤٩٤) وابن السكيت في إصلاح المنطق (ص٥٤٤) وأبو علي القالي في الأمالي (١/ ٤٩) والزمخشري في ربيع الأبرار (١/ ٦١٢) والجواليقي في شرح أدب الكاتب (ص ٢٢٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢٥) ولسان العرب (١١/ ٧٤).

لما كان هو المشرك وهي مؤمنة لم يسمها زوجاً له.

وقال في حق آدم: ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [البقرة: ٣٥].

وقال للنبي ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقال في حق المؤمنين: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥].

فقالت طائفة منهم السهيلي وغيره: إنما لم يقل في حق هؤلاء الأزواج، لأنهن لسن بأزواج لرجالهم في الآخرة، ولأن التزويج حلية شرعية، وهو من أمر الدين فجرد الكافرة منه كما جرد منها امرأة نوح وامرأة لوط.

ثم أورد السهيلي على نفسه قول زكريا: ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا ﴾ [مريم: ٥]. وقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ [الذاريات: ٢٩].

وأجاب بأن ذكر المرأة أليق في هذه المواضع؛ لأنه في سياق ذكر الحمل والولادة، فذكر المرأة أولى به، لأن الصفة التي هي الأنوثة هي المقتضية للحمل والوضع، لا من حيث كانت زوجاً.

قلت: ولو قيل: إن السر في ذكر المؤمنين ونسائهم بلفظ الأزواج أن هذا اللفظ مشعر بالمشاكلة والمجانسة والاقتران، كما هو المفهوم من لفظه: فإن الزوجين هما: الشيئان المتشابهان المتشاكلان والمتساويان.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: «أزواجهم: أشباههم، ونظراؤهم». وقاله الإمام أحمد أيضاً.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧]. أي: قرن بين كل شكل وشكله في النعيم والعذاب، قال عمر بن الخطاب ﷺ في هذه الآية: «الصالح مع الصالح في الجنة، والفاجر مع الفاجر في النار»[1]، وقاله الحسن، وقتاده، والأكثرون.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ٣٥١) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٤٠٤ رقم ١٩١٤٦) وانظر: الدر المنثور (٨/ ٤٢٩).

وقيل: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين، وأنفس الكافرين بالشياطين، وهو راجع إلى القول الأول.

وقال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾. ثم فسرها: ﴿مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. ﴿وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] فجعل الزوجين هما: الفردان من نوع واحد، ومنه قولهم: «زوجا خف، وزوجا حمام»، ونحوه. ولا ريب أن الله سبحانه قطع المشابهة والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]. وقال ـ تعالى ـ في حق مؤمن أهل الكتاب وكافرهم: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ١١٣] الآية.

وقطع المقارنة سبحانه في أحكام الدنيا، فلا يتوارثان؛ ولا يتناكحان ولا يتولى أحدهما صاحبه، فكما انقطعت الوصلة بينهما في المعنى انقطعت في الاسم، فأضاف فيها: «المرأة» بلفظ الأنوثة المجرد، دون لفظ المشاكلة والمشابهة.

فتأمل هذا المعنى تجده أشد مطابقة لألفاظ القرآن ومعانيه، ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر، وعلى الكافرة امرأة المؤمن لفظ: «المرأة» دون «الزوجة» تحقيقاً لهذا المعنى، والله أعلم.

وهذا أولى من قول من قال: إنما سمى صاحبة أبي لهب: «امرأته»، ولم يقل لها زوجته، لأن أنكحة الكفار لا يثبت لها حكم الصحة بخلاف أنكحة أهل الإسلام، فإن هذا باطل بإطلاقه اسم «المرأة» على امرأة نوح وامرأة لوط، مع صحة ذلك النكاح، وتأمل هذا المعنى في آية المواريث وتعليقه ـ سبحانه ـ التوارث فيها بلفظ الزوجة دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢] إيذاناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية المقتضية للتشاكل والتناسب؛ والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما، ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين.

وهذا أليق المواضع بذكر أزواجه ﷺ.

وأولهن: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزىٰ بن قصي بن كلاب، وقد تزوجها ﷺ بمكة. وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلىٰ أن أكرمه الله برسالته، فآمنت به ونصرته، فكانت له وزير صدق، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين في الأصح. وقيل: بأربع وقيل: بخمس، ولها خصائص.

منها: أنه لم يتزوج عليها غيرها. ومنها: أن أولاده كلهم منها إلا إبراهيم ﷺ، فإنه من سريته مارية، ومنها: أنها خير نساء الأمة.

واختلف في تفضيلها علي عائشة ـ رضي الله عنها ـ علىٰ ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف، سألت شيخنا ابن تيمية فقال: اختص كل واحدة منهما بخاصة، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تسلي رسول الله ﷺ وتثبته وتسكنه، وتبذل دونه مالها، فأدركت غرة الإسلام واحتملت الأذىٰ في الله وفي رسوله، وكان نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة؛ فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها.

وعائشة ـ رضي الله عنها ـ تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من التفقه في الدين، وتبليغه إلىٰ الأمة، وانتفاع نبيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها، هذا معنىٰ كلامه.

قلت: ومن خصائصها أيضًا: أن الله سبحانه بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها النبي ﷺ ذلك. قال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا محمد بن فضيل، عن عمارة، عن أبي زرعة، عن أبي هريرة ﷺ قال: «أتىٰ جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب»[1]، وهذه لعمر الله ـ خاصة لم تكن لسواها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٢٠) ومسلم (رقم ٢٤٣٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٣٩) وشرح النووي (١٥/ ١٩٩).

وأما عائشة ـ رضي الله عنها ـ فإن جبرائيل سلم عليها على لسان النبي ﷺ. قال البخاري: حدثنا يحيى بن بكير، حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب، قال أبو سلمة: إن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ يوماً: «يا عائشة، هذا جبرائيل يقرئك السلام». فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته، ترى ما لا أرى، تريد رسول الله ﷺ[(١)].

ومن خواص خديجة ـ رضي الله عنها ـ: أنها لم تسؤه قط، ولم تغاضبه، ولم ينلها منه إيلاء، ولا عتب قط ولا هجر. وكفى بهذه منقبة وفضيلة.

ومن خواصها أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة[(٢)].

***

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

[(٣)] وأما إزاغة القلوب فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقال عن عبادة المؤمنين أنهم سألوه: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]، وأصل الزيغ: الميل؛ ومنه زاغت الشمس، إذا مالت. فإزاغة القلب: إمالته، وزيغه: ميله عن الهدى إلى الضلال.

والزيغ: يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢١٧) ومسلم (رقم ٢٤٤٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٤).

(٢) استمر المؤلف في ذكر خديجة وبقية زوجات النبي ﷺ قرابة كراسة لمن أراده. (ج).

(٣) ١٠٠ شفاء العليل.

﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]، وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقا، وهذا تقريب للمعنىٰ، فإن الشخوص غير الزيغ، وهو أن يفتح عينيه ينظر إلىٰ الشيء فلا يطرق، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلىٰ هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلىٰ شيء آخر، فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلىٰ الأحزاب، وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم، وقال الفراء: زاغت عن كل شيء، فلم تلتفت إلا إلىٰ عدوها، متحيرة تنظر إليه. قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوىٰ المخوف، فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله.

[1]وأما قوله: «وإنما نطق به التنزيل: لفائدة. وهو كونه يبرد حرارة الخوف»[2]، فيقال: بل لفوائد كثيرة أخر مشاهدة.

منها: إظهار العبودية والفاقة، والحاجة إلىٰ ما يرجوه من ربه، ويستشرفه من إحسانه، وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين.

ومنها: أنه ـ سبحانه ـ يحب من عباده أن يؤملوه، ويرجوه ويسألوه من فضله، لأنه الملك الحق الجواد، أجود من سئل، وأوسع من أعطىٰ، وأحب ما إلىٰ الجواد: أن يرجىٰ، ويؤمل، ويسأل. وفي الحديث: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[3]. والسائل راج وطالب. فمن لم يرج الله يغضب عليه.

فهذه فائدة أخرىٰ من فوائد الرجاء. وهي التخلص به من غضب الله.

ومنها: أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلىٰ الله. ويطيب له المسير. ويحثه عليه.

---

(١) ٥٠ مدارج جـ٢.

(٢) أول البحث ص ٤١ جـ٢ من الأصل في الرجاء، والضمير يعود على الرجاء، وقد ناقش الشيخ ابن القيم صاحب المنازل مناقشة حادة فيما تقدم لمن أراد الاطلاع. (ج).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٣) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٦٥٨) وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٤١٨) وحسنه في صحيح الترمذي (رقم ٣٣٧٣) وفي صحيح الأدب المفرد. وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٥) وتحفة الأحوذي (٩/ ٢٢١) وسبل السلام (٤/ ٢١٢).

ويبعثه على ملازمته. فلولا الرجاء لما سار أحد. فإن الخوف وحده لا يحرك العبد. وإنما يحركه الحب. ويزعجه الخوف. ويحدوه الرجاء.

ومنها: أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة. ويلقيه في دهليزها، فإنه كلما اشتد رجاؤه، وحصل له ما يرجوه ازداد حباً لله تعالى وشكراً له، ورضى به وعنه.

ومنها: أن يبعثه على أعلى المقامات. وهو مقام الشكر، الذي هو خلاصة العبودية، فإنه إذا حصل له مرجوه كان أدعى لشكره.

ومنها: أنه يوجب له المزيد من معرفة الله وأسمائه ومعانيها، والتعلق بها. فإن الراجي متعلق بأسمائه الحسنى، متعبد بها داع. بها. قال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠] فلا ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنى التي هي أعظم ما يدعو بها الداعي، فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء، وتعطيل للدعاء بها. ومنها أن المحبة لا تنفك عن الرجاء ـ كما تقدم ـ فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه.

ومنها: أن الخوف مستلزم للرجاء، والرجاء مستلزم للخوف، فكل راج خائف، وكل خائف راج، ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف. قال الله تعالى: ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾ [نوح: ١٣]، قال كثير من المفسرين: المعنى ما لكم لا تخافون لله عظمة؟ قالوا: والرجاء بمعنى الخوف.

والتحقيق: أنـه ملازم له. فكل راج خائف من فوات مرجوه. والخوف بلا رجاء يأس وقنوط. وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية: ١٤]، قالوا في تفسيرها: لا يخافون وقائع الله بهم، كوقائعه بمن قبلهم من الأمم.

ومنها: أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه، فأعطاه ما رجاه: كان ذلك ألطف موقعاً، وأحلى عند العبد، وأبلغ من حصول ما لم يرجه، وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار. فعل قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم اندفاع مخوفهم.

ومنها: أن الله ﷻ يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته: من الذل والانكسار، والتوكل والاستعانة، والخوف والرجاء والصبر والشكر، والرضىٰ والإنابة وغيرها، ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به، لتكمل مراتب عبوديته بالتوبة: التي هي من أحب عبوديات عبده إليه، فكذلك تكميلها بالرجاء والخوف.

ومنها: أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ـ ما يوجب تعلق القلب بذكره، ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته، وتنقل القلب في رياضها الأنيقة، وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة ـ كما تقدم بيانه ـ فإذا فنىٰ عن ذلك، وغاب عنه، فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات. إلىٰ فوائد أخرىٰ كثيرة، يطالعها من أحسن تأمله وتفكره في استخراجها، وبالله التوفيق.

والله يشكر لشيخ الإسلام سعيه، ويعلي درجته، ويجزيه أفضل جزائه، ويجمع بيننا وبينه في محل كرامته، فلو وجد مريده سعة وفسحة في ترك الاعتراض عليه واعتراض كلامه لما فعل، كيف وقد نفعه الله بكلامه؟ وجلس بين يديه مجلس التلميذ من أستاذه، وهو أحد من كان علىٰ يديه فتحه يقظة ومناماً؟

وهذا غاية جهد المقل في هذا الموضوع، فمن كان عنده فضل علم فليَجُدْ به، أو فليعذر، ولا يبادر إلىٰ الإنكار، فكم بين الهدهد ونبي الله سليمان؟ وهو يقول له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢] وليس شيخ الإسلام أعلم من نبي الله. ولا المعترض عليه بأجهل من هدهد، وبالله المستعان، وهو أعلم.

[(١)]وادع رسول الله ﷺ من بالمدينة من اليهود، وكتب بينه وبينهم كتاباً. وبادر حبرهم وعالمهم عبدالله بن سلام، فدخل في الإسلام، وأبي عامتهم إلا الكفر. وكانوا ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وحاربه الثلاثة، فمنَّ علىٰ بني قينقاع، وأجلىٰ بني النضير، وقتل بني قريظة، وسبىٰ ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في

---

(١) ١٤٧ زاد المعاد جـ٢.

بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قريظة.

[(١)] ولما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم، على أن لا يحاربوه ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة وقسم تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه.

ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره في الباطن، ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم من دخل معه في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون.

فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه ـ تبارك وتعالى ـ. فصالح يهود المدينة، وكتب بينه وبينهم كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة: بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، فحاربته بنو قينقاع بعد ذلك بعد بدر، وشَرَقوا بواقعة بدر، وأظهروا البغي والحسد، فصارت إليهم جنود الله، يقدمهم عبدالله ورسوله يوم السبت للنصف من شوال على رأس عشرين شهراً من مهاجره.

وكانوا حلفاء عبدالله بن أبي ابن سلول رئيس المنافقين. وكانوا أشجع يهود المدينة، وحامل لواء المسلمين يومئذ: حمزة بن عبدالمطلب، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر، فحاصرهم خمسة عشرة ليلة، إلى هلال ذي القعدة وهم أول من حارب من اليهود، وتحصنوا في حصونهم، فحاصرهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم ـ فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في: رقابهم، وأموالهم، ونسائهم، وذريتهم، فأمر بهم فكتفوا، وكلم عبد الله بن أبي فيهم رسولَ الله ﷺ وألح عليه، فوهبهم له، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة، ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات من أرض الشام، فقل أن لبثوا فيها حتى هلك أكثرهم، وكانوا صاغة وتجاراً، وكانوا نحو الستمائة مقاتل. وكانت دارهم في طرف المدينة، وقبض منهم أموالهم، فأخذ منها

---

(١) ١٨٤ زاد المعاد جـ٢.

رسول الله ﷺ؛ ثلاث قِسِيٍّ ودرعين، وثلاثة أسياف، وثلاثة رماح، وخَمَّس غنائمهم، وكان الذي تولى جمع الغنائم: محمد بن مسلمة[١]. والله أعلم.

ثم نقض العهدَ بنو النضير. قال البخاري: «وكان ذلك بعد بدر بستة أشهر»[٢] قاله عروة. وسبب ذلك: أنه ﷺ خرج إليهم في نفر من أصحابه، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ههنا حتى نقضي حاجتك، وخلا بعضهم ببعض، وسول لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتآمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحا ويصعد، فيلقيها على رأسه يشدخه؟ فقال أشقاهم عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليخبرن بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه ـ تبارك وتعالى ـ بما هموا به، فنهض مسرعاً، وتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك؟ فأخبرهم بما همت يهود به.

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: أن اخرجوا من المدينة، ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه، فأقاموا أياماً يتجهزون. وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن أبي: أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك، فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء، فلما انتهى إليهم قاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخانهم عبد الله بن أبي وحلفاؤهم من غطفان، ولهذا شبه الله ﷻ قصتهم وجعل مثلهم: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ﴾ [الحشر: ١٦]. فإن سورة الحشر هي سورة بني النضير، وفيها مبدأ قصتهم ونهايتها.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٨-٢٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٥) وفتح الباري (٧/ ٣٣٢) وعمدة القاري (٦/ ٢٥٥).

فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج عن المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا عنها بنفوسهم وذراريهم، وأن لهم ما حملت الإبل، إلا السلاح: وقبض النبي ﷺ الأموال والحلقة، وهي: السلاح، وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب. وخمس قريظة، قال مالك: «خمس رسول الله ﷺ قريظة، ولم يخمس بني النضير، لأن المسلمين لم يوجفوا بخيلهم ولا ركابهم على بني النضير، كما أوجفوا على قريظة»، وأجلاهم إلى خيبر، وفيهم حيي بن أخطب كبيرهم، وقبض السلاح، واستولى على أرضهم وديارهم وأموالهم، فوجد من السلاح خمسين درعاً وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، وقال: «هؤلاء في قومهم بمنزلة بني المغيرة في قريش». وكانت قصتهم في ربيع الأول من سنة أربع من الهجرة[1].

وأما قريظة فكانت أشد اليهود عداوة لرسول الله ﷺ، وأغلظهم كفراً، ولذلك جرى عليهم ما لم يجر على إخوانهم.

وكان سبب غزوهم: أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة الخندق، والقوم معه صلح: جاء حيي بن أخطب إلى بني قريظة في ديارهم، فقال: قد جئتكم بعز الدهر، جئتكم بقريش على سادتها، وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح، فهلم حتى نناجز محمداً ونفرغ منه، فقال له رئيسهم: بل جئتني والله بذل الدهر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه، فهو يرعد ويبرق، فلم يزل حيي يخادعه ويعده ويمنيه حتى أجابه، بشرط أن يدخل معهم، في حصنهم يصيبه ما أصابهم، ففعل ونقضوا عهد رسول الله ﷺ، وأظهروا سبه، فبلغ رسول الله ﷺ الخبر، فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبر وقال: «أبشروا يا معشر المسلمين». فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة لم يكن إلا أن وضع سلاحه، فجاءه جبريل، فقال: أوضعت

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٠٠ رقم ١٨٤٩١) وابن سعد في الطبقات (٢/ ٥٧-٥٨) وانظر: الاستذكار (٧/ ٣٧) والتمهيد (٦/ ٤٤٥-٤٤٩).

السلاح؟ والله إن الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض بمن معك إلى بني قريظة، فإني سائر أمامك أزلزل بهم حصونهم، وأقذف في قلوبهم الرعب، فسار جبريل في موكبه من الملائكة، ورسول الله ﷺ على أثره في موكبه من المهاجرين والأنصار[(١)]، وقال لأصحابه يومئذ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»[(٢)]، فبادروا إلى امتثال أمره، ونهضوا من فورهم، فأدركتهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصليها إلا في بني قريظة، كما أمرنا، فصلوها بعد عشاء الآخرة، وقال بعضهم: لم يرد منا ذلك، وإنما أراد: سرعة الخروج، فصلوها في الطريق، فلم يعنف واحدة من الطائفين.

واختلف الفقهاء: أيهما كان أصوب؟ فقالت طائفة: الذين أخروها هم المصيبون، ولو كنا معهم لآخرناها كما أخروها، ولما صليناها إلا في بني قريظة، امتثالاً لأمره، وتركاً للتأويل المخالف للظاهر.

وقالت طائفة أخرى: بل الذين صلوها في الطريق في وقتها حازوا قصب السبق، وكانوا أسعد بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلى امتثال أمره في الخروج، وبادروا إلى مرضاته في الصلاة في وقتها، ثم بادروا إلى اللحاق بالقوم، فحازوا فضيلة الجهاد، وفضيلة الصلاة في وقتها، وفهموا ما يراد منهم، وكانوا أفقه من الآخرين، ولاسيما تلك الصلاة، فإنها كانت صلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى بنص رسول الله ﷺ الصحيح الصريح الذي لا مدفع له ولا مطعن فيه، ومجيء السنة بالمحافظة عليها، والمبادرة إليها، والتبكير بها، وأن «من فاتته فقد وتر أهله وماله»[(٣)]، أو: «قد حبط عمله»[(٤)]،

---

(١) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٢٣٢ رقم ١٨٦٣٦) وانظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٣٠) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٨-٤٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٤٦) ومسلم (رقم ١٧٧٠) جاء عند مسلم «الظهر» بدل «العصر» وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٠٨-٤١٠) وشرح النووي (١٢/ ٩٧-٩٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٢) ومسلم (رقم ٦٢٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٠-٣١) وشرح النووي (٥/ ١٢٥).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٣) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣٢).

فالذي جاء فيها أمر لم يجئ مثله في غيرها.

وأما المؤخرون لها: فغايتهم أنهم معذورون، بل مأجورون أجراً واحداً، لتمسكهم بظاهر النص، وقصدهم امتثال الأمر، وأما أن يكونوا هم المصيبون في نفس الأمر، ومن بادر إلى الصلاة وإلى الجهاد مخطئاً: فحاشا وكلا. والذين صلوا في الطريق جمعوا بين الأدلة، وحصلوا الفضيلتين. فلهم أجران، والآخرون مأجورون أيضاً ﷺ.

فإن قيل: كان تأخير الصلاة للجهاد حينئذ جائزاً مشروعاً، ولهذا كان عقب تأخير النبي ﷺ العصر يوم الخندق إلى الليل، فتأخيرهم صلاة العصر إلى الليل كتأخيره ﷺ لها يوم الخندق إلى الليل سواء، ولاسيما أن ذلك كان قبل شرع صلاة الخوف؟ قيل: هذا سؤال قوي، وجوابه من وجهين:

أحدهما: أن يقال: لم يثبت أن تأخير الصلاة عن وقتها كان جائزاً بعد بيان المواقيت، ولا دليل علي ذلك، إلا قصة الخندق. فإنها هي التي استدل بها من قال ذلك، ولا حجة فيها، لأنه ليس فيها بيان أن التأخير من النبي ﷺ كان عن عمد، بل لعله كان نسياناً، وفي القصة ما يشعر بذلك، فإن عمر لما قال له: «يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب، قال رسول الله: **«والله ما صليتها، ثم قام فصلاها»**[1] وهذا مشعر بأنه ﷺ كان ناسياً بما هو فيه من الشغل والاهتمام بأمر العدو المحيط به، وعلى هذا يكون قد أخرها بعذر النسيان، كما أخرها بعذر النوم في سفره وصلاها بعد استيقاظه، وبعد ذكره لتتأسى أمته به.

والجواب الثاني: أن هذا ـ على تقدير ثبوته ـ إنما هو في حال الخوف والمسايفة عند الدهش عن تعقل أفعال الصلاة، والإتيان بها، والصحابة في مسيرهم إلى بني قريظة لم يكونوا كذلك، بل كان حكمهم حكم أسفارهم إلى العدو قبل ذلك وبعده،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٦) ومسلم (رقم ٦٣١) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤١٠) وعمدة القاري (٥/ ٨٩-٩٠).

ومعلوم أنهم لم يكونوا يؤخرون الصلاة عن وقتها، ولم تكن قريظة ممن يخاف فوتهم، فإنهم كانوا مقيمين بدارهم. فهذا منتهى أقدام الفريقين في الموضوع.

وأعطى رسول الله ﷺ الراية علي بن أبي طالب[1]، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم. ونازل حصون بني قريظة، وحصرهم خمسًا وعشرين ليلة، ولما اشتد عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال: إما أن يسلموا، ويدخلوا مع محمد في دينه، وإما أن يقتلوا ذراريهم، ويخرجوا إليه بالسيوف مصلتة يناجزونه حتى يظفروا به، أو يقتلوا عن آخرهم، وإما أن يهجموا على رسول الله ﷺ وأصحابه ويكبسوهم يوم السبت، لأنهم قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه، وأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهن، فبعثوا إليه: أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيره، فلما رأوه قاموا في وجهه يبكون، وقالوا: يا أبا لبابة، كيف ترى لنا أن ننزل على حكم محمد؟ فقال: نعم. وأشار بيده إلى حلقه ـ يقول: إنه الذبح ـ ثم علم من فوره أنه قد خان الله ورسوله، فمضى على وجهه، ولم يرجع إلى رسول الله ﷺ حتى أتى المسجد ـ مسجد المدينة ـ فربط نفسه بسارية المسجد، وحلف أن لا يحله إلا رسول الله ﷺ بيده، وأنه لا يدخل أرض بني قريظة أبدًا. فلما بلغ رسول الله ﷺ ذلك قال: «**دعوه حتى يتوب الله عليه**». ثم تاب عليه، وحله رسول الله ﷺ بيده، ثم إنهم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، قامت إليه الأوس، فقالوا: يا رسول الله، قد فعلت في بني قينقاع ما قد علمت، وهم حلفاء إخواننا الخزرج، وهؤلاء موالينا. فأحسن فيهم. فقال: «**ألا ترضون أن**

---

(١) فعن سهل بن سعد ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول يوم خيبر: «**لأعطين الراية رجلًا يفتح الله على يديه**» فقاموا يرجون لذلك: أيهم يُعطَى. فغدوا وكلهم يرجو أن يعطى، فقال: «**أين عليٌّ؟**» فقيل: يشتكي عينيه. فأمر فدعي له فبصق في عينيه فبرأ مكانه، حتى كأنه لم يكن به شيء، فقال: فقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «**على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم فوالله لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم**» أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٢) ومسلم (رقم ٢٤٠٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ١٢٧) وشرح النووي (١/ ١٤١).

يحكم فيهم رجل منكم؟» قالوا: بلى. قال: «فذاك إلى سعد بن معاذ». قالوا: قد رضينا. فأرسل إلى سعد بن معاذ، وكان في المدينة لم يخرج معهم، لجرح كان به فأركب حمارًا، وجاء إلى رسول الله ﷺ فجعلوا يقولون له ـ وهم كَنفَتَيْه ـ: يا سعد، أجمل إلى مواليك، فأحسن فيهم. فإن رسول الله ﷺ قد حكَّمك فيهم لتحسن فيهم، وهو ساكت لا يرجع إليهم شيئًا، فلما أكثروا عليه قال: «لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم»، فلما سمعوا ذلك منه رجع بعضهم إلى المدينة، فنعى إليهم القوم، فلما انتهى سعد إلى النبي ﷺ قال للصحابة: «قوموا إلى سيدكم»، فلما أنزلوه قالوا: يا سعد، إن هؤلاء القوم قد نزلوا على حكمك. قال: وحكمي نافذ عليهم؟ قالوا: نعم. قال: وعلى المسلمين؟ قالوا: نعم. قال: وعلى من ههنا؟ وأعرض بوجهه، وأشار إلى ناحية رسول الله ﷺ، إجلالاً له وتعظيمًا ـ قال: نعم، وعليَّ. قال: فإني أحكم فيهم: أن يقتل الرجال، وتسبى الذرية، وتقسم الأموال، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات». وأسلم منهم تلك نفر قبل النزول، وهرب عمرو بن سعد، فانطلق فلم يعلم أين ذهب؟ وكان قد أبى الدخول معهم في نقض العهد[1].

فلما حكم فيهم سعد بذلك أمر رسول الله ﷺ بقتل كل من جرت عليه الموسى منهم، ومن لم ينبت ألحق بالذرية، فحفرت لهم خنادق في سوق المدينة، وضربت أعناقهم. وكانوا ما بين الستمائة إلى السبعمائة، ولم يقتل من النساء أحد سوى امرأة واحدة، كانت طرحت على رأس خلاد بن سويد بن ثعلبة رحى فقتلته، وجعل يذهب بهم إلى الخنادق أرسالا أرسالاً، فقالوا: لرئيسهم كعب بن أسد: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ فقال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ أما ترون الداعي لا ينزع، والذاهب منكم لا

(١) أصل الحديث أخرجه البخاري (رقم ٤١٢١) ومسلم (رقم ١٧٦٨) والقصة أخرجها الطبري في تفسيره (٢١/ ١٥١-١٥٣) وابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/ ٧٤-٧٧) وانظر: فتح الباري (١/ ٣٢٠-٣٢١) (٧/ ٤١٢) وشرح النووي (١٢/ ٩٣).

يرجع؟ هو والله القتل[١].

قال مالك ـ في رواية ابن القاسم ـ قال عبدالله بن أبي لسعد بن معاذ في أمرهم: إنهم أحد جناحي، وهم ثلاثمائة دارع وستمائة حاسر. فقال: «قد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم»[٢].

ولما جيء بحيي بن أخطب إلى بين يديه ووقع بصره عليه، قال: أما والله ما لمت نفسي في معاداتك، ولكن من يغالب الله يُغْلَب، ثم قال: يا أيها الناس، لا بأس، قدر الله، وملحمة كتبت على بني إسرائيل، ثم حبس فضربت عنقه، واستوهب ثابت بن قيس الزبير بن باطا وأهله وماله من رسول الله، فوهبهم له. فقال ثابت بن قيس للزبير: قد وهبك لي رسول الله ﷺ. ووهب لي مالك وأهلك، فهم لك، فقال: سألتك بيدي عندك يا ثابت إلا ألحقتني بالأحبة، فضربت عنقه، وألحقه بالأحبة من اليهود[٣].

فهذا كله في يهود المدينة، وكانت غزوة كل طائفة منهم عقب كل غزوة من الغزوات الكبار، فغزوة بني قينقاع: عقب بدر. وغزوة بن النضير: عقب غزوة أحد. وغزوة بن قريظة: عقب الخندق.

***

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ١٥٣) وأخرج قتل كل من جرت عليه الموسى كل من النسائي في الكبرى (٣/ ٤٦٥ رقم ٥٩٣٩) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٦٣ رقم ١٧٧٩٧) والطحاوي في شرح معاني الآثار (٣/ ٢١٦) والحاكم (٢/ ١٣٤ رقم ٢٥٧٠) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤١٢) وعمدة القاري (١٧/ ١٩١).

(٢) انظر: تفسر الطبري (٢١/ ١٥٣) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٩) وثقات ابن حبان (١/ ٢٧٧).

(٣) أخرجه البيهقي في الكبرى (٩/ ٦٦ رقم ١٧٨١١).

[(١)]في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله سمى المدينة طيبة [طابة]**»[(٢)]، ويكره تسميتها يثرب، كراهة شديدة، وإنما حكى الله تعالى تسميتها: يثرب، عن المنافقين، فقال: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾ [الأحزاب: ١٢، ١٣]. وفي سنن النسائي من حديث مالك عن يحيى بن سعيد، أنه قال: سمعت أبا الحباب: سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون: يثرب، وهي: المدينة تنفي الناس، كما ينفي الكير خبث الحديد**»[(٣)].

[(٤)]كانت في سنة خمس من الهجرة في شوال، على أصح القولين، إذ لا خلاف أن أُحُدًا كانت في شوال سنة ثلاث، وواعد المشركون رسول الله ﷺ في العام المقبل، وهو سنة أربع. ثم أخلفوه لأجل جدب تلك السنة، فرجعوا، فلما كانت سنة خمس: جاءوا لحربه ـ هذا قول أهل السير والمغازي.

وخالفهم موسى بن عقبة، وقال: بل كانت سنة أربع. قال أبو محمد بن حزم: وهذا هو الصحيح الذي لا شك فيه، واحتج عليه بحديث ابن عمر في الصحيحين أنه: «عرض على النبي ﷺ يوم أحد، وهو ابن أربع عشرة سنة: فلم يجزه، ثم عرض عليه يوم الخندق، هو ابن خمس عشرة سنة، فأجازه»[(٥)] قال: فصح أنه لم يكن بينهما إلا سنة واحدة، وأجيب عن هذا بجوابين:

---

(١) ٧٨ تحفة المودود.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٣٨٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٨٨-٨٩) وشرح النووي (٩/ ١٥٦) (١٦/ ٣١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٨٧١) ومسلم (رقم ١٣٨٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ٨٧) وشرح النووي (٩/ ١٥٤).

(٤) ٢٨٨ زاد المعاد جـ٢.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٩٧) ومسلم (رقم ١٨٦٨) وانظر: فتح الباري (٥/ ٢٧٧-٢٧٩).

أحدهما: أن ابن عمر أخبر: أن النبي ﷺ رده لما استصغره عن القتال، وأجازه لما وصل إلىٰ السن التي رآه فيها مطيقاً. وليس في هذا ما ينفي تجاوزها بسنة أو نحوها.

والثاني: أنه لعله كان يوم أحد في أول الرابعة عشرة، ويوم الخندق في آخر الخامسة عشرة.

وكان سبب غزوة الخندق: أن اليهود لما رأوا انتصار المشركين علىٰ المسلمين يوم أحد، وعلموا بميعاد أبي سفيان لغزو المسلمين، وأنه خرج لذلك، ثم رجع للعام المقبل: خرج أشرافهم ـ كسلام بن أبي لحقيق، وسلام بن مشكم وكنانة بن الربيع، وغيرهم ـ إلىٰ قريش بمكة، يحرضونهم علىٰ غزو رسول الله ﷺ، ويوالونهم عليه، ووعدوهم من أنفسهم بالنصر لهم، فأجابتهم قريش، ثم خرجوا إلي غطفان، فدعوهم فاستجابوا لهم. ثم طافوا في قبائل العرب يدعونهم إلىٰ ذلك، فاستجاب لهم من استجاب، فخرجت قريش ـ وقائدهم أبو سفيان ـ في أربعة آلاف، ووافاهم بنو سليم بمر الظهران، وخرجت بنو أسد، وفزارة، وأشجع، وبنو مرة، وجاءت غطفان وقائدهم عيينة بن حصن، وكان من وافىٰ الخندق من الكفار عشرة آلاف[1].

فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم إليه استشار الصحابة، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر خندق يحول بين العدو وبين المدينة، فأمر به رسول الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعمل بنفسه فيه، وبادروا هجوم الكفار عليهم، وكان في حفره من آيات نبوته وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به. وكان حفر الخندق أمام سَلْع. وسَلْعُ: جبل خلف ظهور المسلمين، والخندق بينهم وبين الكفار. وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصن بالجبل من خلفه، وبالخندق من أمامه. وقال ابن إسحاق: خرج في سبعمائة. وهذا غلط من خروجه يوم أحد[2].

وأمر النبي ﷺ بالنساء والذراري، فجعلوا في آطام المدينة. واستخلف عليها ابن أم

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٤٧١).

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٣٩٣-٣٩٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧١).

مكتوم. وانطلق حيي بن أخطب إلى بني قريظة، فدنا من حصنهم، فأبي كعب بن أسد أن يفتح له. فلم يزل يكلمه حتى فتح له. فلما دخل عليه قال: لقد جئتك بعز الدهر. جئتك بقريش على قادتها وسادتها وغطفان وأسد على قادتها وسادتها لحرب محمد. قال كعب: جئتني والله بذل الدهر، وبجهام قد أراق ماءه فهو يرعد ويبرق. فلم يزل به حيي حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ. ودخل مع المشركين في محاربته، فسر بذلك المشركون. وشرط كعب على حيي: أنه إن لم يظفروا بمحمد: أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووفّى له به.

وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السعدين ـ سعد ابن معاذ، وسعد بن عبادة ـ وخوات بن جبير، وعبدالله بن رواحة، ليعرفوا: هل هم على عهدهم، أو قد نقضوه؟ فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالوا من رسول الله ﷺ، فانصرفوا عنهم ولحنوا إلى رسول الله ﷺ لحنا يخبرونه: أنهم قد نقضوا العهد وغدروا، فعظم ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «الله أكبر. أبشروا يا معشر المسلمين». واشتد البلاء، ونجم النفاق، واستأذن بعض بني حارثة رسول الله ﷺ في الذهاب إلى المدينة، وقالوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]. وهم بنو سلمة بالفشل. ثم ثبت الله الطائفتين[(١)].

وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً، ولم يكن بينهم قتال؛ لأجل ما حال الله به من الخندق بينهم وبين المسلمين، إلا أن فوارس من قريش ـ منهم عمرو ابن عبد ود وجماعة معه ـ أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا:: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق فاقتحموه، وجالت بهم خيلهم في السبخة بين الخندق وسلع، ودعوا إلى البراز فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب ﷺ، فبارزه فقتله الله على يدي عليّ، وكان من شجعان المشركين وأبطالهم،

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٣١).

وانهزم الباقون إلى أصحابهم، وكان شعار المسلمين يومئذ: حم لا ينصرون[1].

ولما طالت هذه الحال على المسلمين: أراد رسول الله ﷺ أن يصالح عيينة بن حصن، والحارث بن عوف، رئيسي غطفان، وعلى ثلث ثمار المدينة وينصرفا بقومهما، وجرت المراوضة على ذلك، فاستشار السعدين في ذلك، فقالا: «يا رسول الله، إن كان الله أمرك بهذا فسمعاً وطاعة، وإن كان شيء تصنعه لنا، فلا حاجة لنا فيه، لقد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعاً، فحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا؟ والله لا نعطيهم إلا السيف؛ فصوب رأيهما، وقال: «إنما هو شيء أصنعه لكم، لما رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة»[2].

ثم إن الله ﷻ وله الحمد ـ صنع أمراً من عنده خذل به العدو، وهزم جموعهم، وفل حدهم، فكان مما هيأ من ذلك: أن رجلًا من غطفان، يقال له: نعيم بن مسعود بن عامر ﷺ جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله، إني قد أسلمت، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة». فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة، وكان عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم، وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قريظة، إنكم قد حاربتم محمدًا، وإن قريشاً إن أصابوا فرصة انتهزوها، وإلا استمروا إلى بلادهم راجعين، وتركوكم ومحمدًا فانتقم منكم، قالوا: فما العمل يا نعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن. قالوا: لقد أشرت بالرأي. ثم مضى على وجهه إلى قريش، فقال لهم: تعلمون ودي لكم، ونصحي لكم؟ قالوا: نعم. قال: إن يهود قد ندموا على ما كان منهم من

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٩٧) والبيهقي في الكبرى (٦/ ٣٦٢ رقم ١٢٨٣٤) وأحمد (٤/ ٦٥) والطبراني في الدعاء (رقم ١٠٧٤) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم ٦١٥، ٦١٦) وانظر: تاريخ دمشق (٤٢/ ٧٨) والثقات (١/ ٢٦٨) والإصابة (٦/ ٣٨٧) والطبقات الكبرى (٢/ ٧٣).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٦/ ٢٨ رقم ٥٤٠٩) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٢/ ٤١٢).

نقض عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلوه، أنهم: يأخذون منكم رهائن، يدفعونها إليه، ثم يوالونه عليكم، فإن سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثم ذهب إلىٰ غطفان، فقال لهم مثل ذلك. فلما كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلىٰ يهود: إنا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتىٰ نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود، إن اليوم يوم السبت وقد علمتم ما أصاب من قبلنا حين أحدثوا فيه. ومع هذا: فإنا لا نقاتل معكم حتىٰ تبعثوا إلينا رهائن. فلما جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صدقكم والله نعيم. فبعثوا إلىٰ يهود: إنا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتىٰ نناجز محمداً، فقالت قريظة: صدقكم والله نعيم. فتخاذل الفريقان. وأرسل الله ﷻ علىٰ المشركين جنداً من الريح، فجعلت تقوض خيامهم، ولا تدع لهم قدراً إلا كفأتها، ولا طنبا إلا قلعته، ولا يقر لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويلقون في قلوبهم الرعب والخوف، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم علىٰ هذه الحال، وقد تهيؤوا للرحيل، فرجع إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبره برحيل القوم، فأصبح رسول الله ﷺ، وقد رد الله عدوه بغيظهم، لم ينالوا خيراً، وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده[1]، فدخل المدينة ووضع السلام، فجاءه جبريل وهو يغتسل في بيت أم سلمة، فقال: «**أوضعتم السلاح؟ إن الملائكة لم تضع بعد أسلحتها، انهض إلىٰ غزو هؤلاء**» ـ يعني: بني قريظة، فنادىٰ رسول الله ﷺ: «**من كان سامعاً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة**»[2]. فخرج المسلمون سراعاً، وكان من أمره وأمر بني قريظة ما قدمناه، واشتهد يوم الخندق ويوم قريظة نحوة عشرة من المسلمين.

***

(١) انظر: تفسير الطبري (٢١/ ١٢٨) وتفسير ابن كثير (٣/ ٤٧٢) والثقات (١/ ٢٧٠-٢٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٩٤٦) ومسلم (رقم ١٧٧٠) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٠٨-٤١٠) وشرح النووي (١٢/ ٩٧-٩٨).

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾.

[(١)]قد قدمنا أن أبا رافع ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يقتل مع بني قريظة، كما قتل صاحبه حيي بن أخطب، ورغبت الخزرج في قتله مساواة للأوس من قتل كعب بن الأشرف. وكان الله سبحانه قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنوه في قتله، فأذن لهم، فانتدب له رجال كلهم من بني سلمة، وهم: عبدالله بن عتيك ـ وهو أمير القوم ـ وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة، والحارث بن ربعي، ومسعود بن سنان، وخزاعي بن أسود. فساروا حتى أتوه في خيبر في دار له، فنزلوا عليه ليلاً فقتلوه، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، وكلهم ادعى قتله، فقال رسول الله ﷺ: **«أروني أسيافكم»**. فلما أروه، قال لسيف عبدالله بن أنيس: **«هذا الذي قتله، أرى فيه أثر الطعام»**[(٢)].

[(٣)]إن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام، فإنه إما أن يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحب، والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف، فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله. وأشد هذه الأقسام: المصيبة في النفس.

ومن المعلوم: أن الخلق كلهم يموتون، وغاية هذا المؤمن أن يستشهد في الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم. فمن عدّ مصيبة هذا القتل

---

(١) ٢٩٣ زاد المعاد جـ٢.

(٢) انظر: الثقات (١/ ٢٤٨).

(٣) ١٩٣ إغاثة جـ٢.

أعظم من مصيبة الموت على الفراش، فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الميتات وأفضلها، وأعلاها، ولكن الفار يظن أنه بفراره يطول عمره، فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن، حيث يقول: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٦]. فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع، فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلاً، إذ لابد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ما هو خير منه وأنفع، من حياة الشهيد عند ربه.

ثم قال: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧].

فأخبر سبحانه أن العبد لا يعصمه أحد من الله، إن أراد به سوءاً غير الموت الذي فر منه، فإنه فر من الموت لما كان يسوؤه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءاً غيره لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوؤه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوؤه مما هو أعظم منه.

وإذا كان هذا في مصيبة النفس، فالأمر هكذا في مصيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه، أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرته عاجلاً وآجلاً، وإن حبسه وادخره منعه التمتع به، ونقله إلى غيره، فيكون له مهنؤه وعلى مخلفه وزره، وكذلك من رفه بدنه وعرضه وآثر راحته على التعب لله وفي سبيله، أتعبه الله سبحانه أضعاف ذلك في غير سبيله ومرضاته، وهذا أمر يعرفه الناس بالتجارب. قال أبو حازم: «لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى».

واعتبر ذلك بحال إبليس: فإن امتنع من السجود لآدم فرارًا أن يخضع له ويذل، وطلب إعزاز نفسه، فصيَّره الله أذل الأذلين، وجعله خادماً لأهل الفسوق والفجور

من ذريته، فلم يرض بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنوه فساق ذريته، وكذلك عباد الأصنام: أنفوا أن يتبعوا رسولاً من البشر، وأن يعبدوا إلها واحداً ـ سبحانه ـ، ورضوا أن يعبدوا آلهة من الأحجار.

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه وبدنه في طاعته، لا بد أن يذل لمن لا يسوى، ويبذل له ماله، ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته، عقوبة له، كما قال بعض السلف: «من امتنع أن يمشي مع أخيه خطوات في حاجته أمشاه الله ـ تعالى ـ أكثر منها في غير طاعته».

***

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

[(١)]أما قوله: «الرجاء أضعف منازل المريدين» فليس كذلك، بل هو من أجل منازلهم، وأعلاها وأشرفها، وعليه وعلى الحب والخوف مدار السير إلى الله. وقد مدح الله تعالى أهله، وأثنى عليهم. فقال: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي الحديث الصحيح الإلهي عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه ﷻ: «يا ابن آدم ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي»[(٢)]. وروى الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظن عبدي بي،

---

(١) ٤١ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٤٠) والدارمي (رقم ٢٧٨٨) وأحمد (٥/ ١٦٧) والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٧ رقم ١٠٤٢) والطبراني في الدعاء (رقم ١٣) وفي الصغير (رقم ٨٢٠) وفي الأوسط (٥/ ٣٣٧-٣٣٨ رقم ٥٤٨٣) وفي الكبير (١٢/ ١٩ رقم ١٢٣٤٦) ونقل تحسين الترمذي للحديث كل من المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٣٤ رقم ٥١٢٤) وابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٣٩٠) والنووي في رياض الصالحين (ص ١٣٢).

وأنا معه، إذا ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إليَّ شبراً، اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إليَّ ذراعاً، اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة»[(١)] رواه مسلم.

وقد أخبر تعالى عن خواص عباده الذين كان المشركون يزعمون أنهم يتقربون بهم إلى الله تعالى: أنهم كانوا راجين له خائفين منه، فقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٦ ـ ٥٧].

يقول تعالى هؤلاء الذين تدعونهم من دوني: هم عبادي، يتقربون إليَّ بطاعتي، ويرجون رحمتي، ويخافون عذابي، فلماذا تدعونهم من دوني؟ فأثنى عليهم بأفضل أحوالهم ومقاماتهم: من الحب، والخوف والرجاء.

***

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ۝ ﴾.

[(٢)]أخرجا في الصحيحين من حديث أنس قال: «لم يشهد عمي مع رسول الله ﷺ بدراً، قال: فشق عليه، قال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه، فإن أراني الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع. قال: فهاب أن يقول غيرها، قال: فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، قال: فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له: أين؟ فقال: واها لريح الجنة! أجده دون أحد، قال: فقاتلهم حتى قتل، قال، فوجد في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٥-٣٨٦) وشرح النووي (١٧/ ٢).

(٢) ١١٥ حادي الأرواح.

جسده بضع وثمانون من بين ضربة وطعنة ورمية، فقالت أخته عمة الربيع بنت النضرك: فما عرفت أخي إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه»[١].

وريح الجنة نوعان: ريح يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحياناً لا تدركه العباد.

وريح يدرك بحاسة الشم للأبدان كما تشم روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قرب وبعد، وأما في الدنيا فقد يدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله، وهذا الذي وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من هذا القسم، وأن يكون من الأول، والله أعلم.

***

﴿ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

[٢]أما قوله: «وجعل حدّ الرقيق على النصف من حد الحر، وحاجتهما إلى الزجر واحدة» فلا ريب أن الشارع فرق بين الحر والعبد في أحكام، وسوى بينهما في أحكام؛ فسوى بينهما في: الإيمان، والإسلام ووجوب العبادات البدنية: كالطهارة، والصلاة، والصوم، لاستوائهما في سببهما، وفرق بينهما في العبادات المالية: كالحج، والزكاة، والتكفير بالمال لافتراقهما في سببهما، وأما الحدود فلما كان وقوع المعصية من الحر أقبح من وقوعها من العبد من جهة كمال نعمة الله ـ تعالى ـ عليه بالحرية، وأن جعله مالكاً لا مملوكاً، ولم يجعله تحت قهر غيره وتصرفه فيه، ومن جهة تمكنه بأسباب

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٠٥) ومسلم (رقم ١٩٠٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٢٣) وشرح النووي (١٣/ ٤٨).

(٢) ١٠٩ أعلام جـ٢.

القدرة من الاستغناء عن المعصية بما عوض الله عنها من المباحات، فقابل النعمة التامة بضدها، واستعمل القدرة في المعصية، فاستحق من العقوبة أكثر مما يستحقه من هو أخفض منه رتبة وأنقص منزلة؛ فإن الرجل كلما كانت نعمة الله عليه أتم كانت عقوبته إذا ارتكب الجرائم أتم؛ ولهذا قال تعالى في حق من أتم نعمته عليهن من النساء: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١]، وهذا على وفق قضايا العقول ومستحسناتها؛ فإن العبد كلما كملت نعمة الله عليه ينبغي له أن تكون طاعته له أكمل، شكره له أتم، ومعصيته له أقبح، وشدة العقوبة تابعة لقبح المعصية؛ ولهذا كان أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالماً لم ينفعه الله بعلمه، فإن نعمة الله عليه بالعلم أعظم من نعمته على الجاهل، وصدور المعصية منه أقبح من صدورها من الجاهل، ولا يستوي عند الملوك والرؤساء من عصاهم من خواصهم وحشمهم، ومن هو قريب منهم ومن عصاهم من الأطراف والبعداء؛ فجعل حد العبد أخف من حد الحر، جمعا بين حكمة الزجر وحكمة نقصه، ولهذا كان على النصف منه في: النكاح، والطلاق، والعدة إظهاراً لشرف الحرية وخطرها، وإعطاء لكل مرتبة حقها من الأمر كما أعطاها حقها من القدر، ولا تنتقض هذه الحكمة بإعطاء العبد في الآخرة أجرين، بل هذا محض الحكمة؛ فإن العبد كان عليه في الدنيا حقان: حق لله، وحق لسيده، فأعطي بإزاء قيامه بكل حق أجراً، فاتفقت حكمة الشرع والقدر والجزاء، والحمد لله رب العالمين.

[(1)]فإن قيل: فقواعد الشرع تقتضي أن يسامح الجاهل بما لا يسامح به العالم، وأنه

(١) ١٧٦ مفتاح جـ١.

يغفر له ما لا يغفر للعالم، فإن حجة الله عليه أقوم منها على الجاهل، وعلمه بقبح المعصية وبغض الله لها، وعقوبته عليه: أعظم من علم الجاهل، ونعمة الله عليه بما أودعه من العلم أعظم من نعمته على الجاهل.

وقد دلت الشريعة، وحكم الله على أن من حُبِيَ بالإنعام وخُصَّ بالفضل والإكرام، ثم أسام نفسه مع ميل الشهوات، فارتعها في مراتع الهلكات، وتجرأ على انتهاك الحرمات، واستخف بالتبعات والسيئات، أنه يقابل من الانتقام والعتب بما لا يقابل به من ليس في مرتبته، وعلى هذا جاء قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾، ولهذا كان حد الحر ضعف حد العبد في الزنا والقذف وشرب الخمر لكمال النعمة على الحر، ومما يدل على هذا الحديث المشهور الذي أثبته أبو نعيم وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[1]، قال بعض السلف: يغفر للجاهل سبعون ذنباً قبل أن يغفر للعالم ذنب[2]، وقال بعضهم أيضاً: إن الله يعافي الجهال ما لا يعافي العلماء.

فالجواب: إن هذا الذي ذكرتموه حق لا ريب فيه، ولكن من قواعد الشرع والحكمة أيضاً: أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر، فإنه يحتمل له ما لا يحتمل لغيره ويعفى عنه ما لا يعفى عن غيره؛ فإن المعصية خبث والماء إذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث، بخلاف الماء القليل فإنه يحمل أدنى خبث.

ومن هذا قول النبي ﷺ لعمر: «**وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال:**

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٨٤-٢٨٥ رقم ١٧٧٨) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٧١ رقم ١١٢٢) وابن عدي في الكامل (٣/ ٤٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٦/ ٣٠٧) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٣٩) وقواعد التحديث (ص ٣٩٦).

(٢) أخرجه أحمد بن حنبل في الورع (ص ١٦) عن فضيل رحمه الله. وفي العلل ومعرفة الرجال له أيضًا (٣/ ٨٥ رقم ٤٢٩٤) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٢٨٦) (٨/ ١٠٠) وذكره الذهبي في السير (٨/ ٤٣٥).

اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»(١)، وهذا هو المانع له ﷺ من قتل من جس عليه وعلى المسلمين وارتكب مثل ذلك الذنب العظيم، فأخبر ﷺ أنه شهد بدراً، فدل على أن مقتضى عقوبته قائم، لكن منع من ترتب أثره عليه ما له من المشهد العظيم، فوقعت تلك السقطة العظيمة مغتفرة في جنب ما له من الحسنات.

ولما حض النبي ﷺ على الصدقة فأخرج عثمان ﷺ تلك الصدقة العظيمة، قال: «ما ضر عثمان ما عمل بعدها»(٢). وقال لطلحة لما تطأطأ للنبي ﷺ حتى صعد على ظهره إلى الصخرة: «أوجب طلحة»(٣).

وهذا موسى كليم الرحمن ﷺ ألقى الألواح التي فيها كلام الله الذي كتبه له، ألقاها على الأرض حتى تكسرت ولطم عين ملك الموت ففقأها، وعاتب ربه ليلة الإسراء في النبي ﷺ، وقال: شاب بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي(٤). وأخذ بلحية هارون، وجره إليه، وهو نبي الله، وكل هذا لم ينقص من قدره شيئاً عند ربه، وربه تعالى يكرمه ويحبه، فإن الأمر الذي قام به موسى والعدو الذي برز له، والصبر الذي صبره، والأذى الذي أوذيه في الله، أمر لا تؤثر فيه أمثال هذه الأمور،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨٩٠) ومسلم (رقم ٢٤٩٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٥) (٨/ ٦٣٤-٦٣٥) وشرح النووي (١٦/ ٥٦-٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٠١) والحاكم (٣/ ١١٠ رقم ٤٥٥٣) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٥٨٧ رقم ١٢٧٩) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ٢٤٥ رقم ١٢٧٤) وحسنه الترمذي وصححه الحاكم وانظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ١٣٣).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٥/ ٤٣٦ رقم ٦٩٧٩) وفي موارد الظمآن (رقم ٢٢١٢) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٣/ ٥٧-٥٨ رقم ٨٦١) والحاكم (٣/ ٢٨ رقم ٤٣١٢) وصححه والترمذي (رقم ١٦٩٢) وحسنه. وأبو يعلى (٢/ ٣٣ رقم ٦٧٠) وأحمد (١/ ١٦٥) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٦٠) وتحفة الأحوذي (٥/ ٢٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٠٧) في حديث طويل وفيه: «فأتيت على موسى فسلمت عليه، فقال: مرحبًا بك من أخ ونبي. فلما جاوزت بكى، فقيل: ما أبكاك؟ قال: يا رب هذا الغلام الذي بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أفضل مما يدخل من أمتي...» وانظر: فتح الباري (٧/ ٢١١).

ولا تغير في وجهه، ولا تخفض منزلته، وهذا أمر معلوم عند الناس مستقر في فطرهم إن من له ألوف من الحسنات، فإنه يسامح بالسيئة والسيئتين ونحوها، حتى إنه ليختلج داعي عقوبته على إساءته، وداعي شكره على إحسانه، فيغلب داعي الشكر لداعي العقوبة، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع[1]

وقال آخر:

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً ... فأفعاله اللاتي سررن كثير[2]

والله سبحانه يوازن يوم القيامة بين حسنات العبد وسيئاته، فأيهما غلب كان التأثير له، فيفعل بأهل الحسنات الكثيرة الذين آثروا محابه ومراضيه، وغلبتهم دواعي طبعهم أحياناً من العفو والمسامحة ما لا يفعله مع غيرهم.

وأيضاً فإن العالم إذا زل فإنه يحسن إسراع الفيئة، وتدارك الفارط، ومداواة الجرح، فهو كالطبيب الحاذق البصير بالمرض وأسبابه وعلاجه، فإن زواله على يده أسرع من زواله على يد الجاهل. وأيضاً فإن معه من معرفته بأمر الله وتصديقه بوعده ووعيده وخشيته منه، وإزرائه على نفسه بارتكابه، وإيمانه بأن الله حرمه وأن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، إلى غير ذلك من الأمور المحبوبة للرب ما يغمر الذنب ويضعف اقتضائه، ويزيل أثره، بخلاف الجاهل بذلك أو أكثره، فإنه ليس معه إلا ظلمة الخطيئة وقبحها وآثارها المردية، فلا يستوي هذا وهذا. وهذا فصل الخطاب في هذا الموضع، وبه يتبين أن الأمرين حق وأنه لا منافاة بينهما، وأن كل واحد من العالم والجاهل إنما

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل للشاعر ابن نباتة المصري: محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي، ولد ومات في القاهرة ٦٨٦-٧٦٨هـ وكان صاحب سر السلطان الناصر حسن. ذكر البيت المباركفوري في تحفة الأحوذي (٩/ ١٤٢).

(٢) هذا البيت من بحر الكامل وينسب إلى المتنبي ولكنه ينتهي عنده بـ «سررن ألوف» بدل «سررن كثير» وينسب أيضًا إلى ابن نباتة المصري. ذكره أبو منصور الثعالبي في التمثيل والمحاضرة (ص ١٥٤).

زاد قبح الذنب منه على الآخر بسبب جهله وتجرد خطيئته عما يقاومها ويضعف تأثيرها، ويزيل أثرها، فعاد القبح في الموضعين إلى الجهل، وما يستلزمه وقلته وضعفه إلى العلم وما يستلزمه، وهذا دليل ظاهر على شرف العلم وفضله، وبالله التوفيق.

[(١)]فإن قيل: قد ذكرتم: أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره. ويعفى للولي عما لا يعفى لسواه، وكذلك العالم أيضاً، يغفر له ما لا يغفر للجاهل، كما روى الطبراني بإسناده جيد ـ مرفوعاً إلى النبي ﷺ: «**إن الله سبحانه إذا جمع الناس يوم القيامة في صعيد واحد، قال للعلماء: إني كنت أعبد بفتواكم،وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس، وإني لم أضع علمي فيكم وأنا أريد أن أعذبكم. اذهبوا فقد غفرت لكم**»[(٢)]. هذا معنى الحديث. وقد روي مسنداً ومرسلاً.

فهذا الذي ذكرتم صحيح، وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التي ورد التهديد بها في حق أولئك إن وقع منهم ما يكره؟ كقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠]، ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٤، ٧٥]. أي: لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشيء، ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات. أي: ضاعفنا لك العذاب في الدنيا والآخرة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، أي: لو أتى بشيء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه، وقطعنا

---

(١) ٣٣٣ مدارج جـ١.

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (رقم ٥٩١) والروياني في مسنده (رقم ٥٤٢) وابن عدي في الكامل (٤/ ١١١) والفسوي في المعرفة والتاريخ (٣/ ٣٨٣) قال ابن عدي: وهذا الحديث بهذا الإسناد باطل، وإن كان الراوي عنه صدقة بن عبد الله ضعيف وابن شابور ثقة. ونقل الذهبي قول ابن عدي في الميزان (٣/ ٤٦٤) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (ص ٣٤٤).

نياط قلبه وأهلكناه، وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه، ومن التقول عليه سبحانه وكم من راكن إلى أعدائه، ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به، كأرباب البدع كلهم، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه.

وما ذكرتم من قصة يونس: هو من هذا الباب، فإنه لم يسامح بغضبة. وسجن لأجلها في بطن الحوت، ويكفي حال أبي البشر حيث لم يسامح بلقمة، وكانت سبب إخراجه من الجنة.

فالجواب: أن هذا أيضاً حق، ولا تنافي بين الأمرين، فإن من كملت عليه نعمة الله، واختصه منها بما لم يختص به غيره: في إعطائه منها ما حرمة غيره، فحُبِيَ بالإنعام، وخُصَّ بالإكرام، وخص بمزيد التقريب، وجعل في منزلة الولي الحبيب، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص: بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع، فلشدة الاعتناء به، ومزيد تقريبه، واتخاذه لنفسه، واصطفائه على غيره، تكون حقوق وليه وسيده عليه أتم. ونعمه عليه أكمل. والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره، فهو إذا غفل وأخل بمقتضى مرتبته نُبِّه بما لم ينبه عليه البعيد البراني، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً، فيجتمع في حقه الأمران.

وإذا أردت معرفة اجتماعهما، وعدم تناقضهما، فالواقع شاهد به، فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس في منزلتهم، ويأخذهم، ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم، وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا، ولا تناقض بين الأمرين.

***

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ ﴾.

[1]أمرهن أن لا يلن في كلامهن، كما تلين المرأة المعطية الليَّان في منطقها، فيطمع

(١) ١٤ إغاثة جـ١.

الذي في قلبه مرض الشهوة، ومع ذلك فلا يخشن في القول بحيث يلتحق بالفحش، بل يقلن قولاً معروفاً.

...[١]قوله تعالى لنساء نبيه: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. فنهاهن عن الخضوع بالقول، فربما ذهب الوهم إلى الإذن في الإغلاظ في القول والتجاوز، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] لما أخبر سبحانه بإلحاق الذرية ولا عمل لهم بآبائهم في الدرجة، فربما توهم متوهم أن يحط الآباء إلى درجة الذرية، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور: ٢١] أي: ما نقصنا من الآباء شيئًا من أجور أعمالهم، بل رفعنا ذريتهم إلى درجتهم ولم نحطهم إلى درجتهم بنقص أجورهم...

[٢]إن القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموته بهما. وهما مرض الشهوات ومرض الشبهات، هذان أصل داء الخلق إلا من عافاه الله.

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ هذين المرضين في كتابه. أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله في حق المنافقين: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقوله: ﴿ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج: ٥٣]. فهذه ثلاثة مواضع، المراد بمرض القلب فيها: مرض الجهل والشبهة.

وأما مرض الشهوة ففي قوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ

---

(١) ١٦٠ أعلام جـ٤.

(٢) ١١٠ مفتاح جـ١.

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: لا تلن في الكلام؛ فيطمع الذي في قلبه: فجور وزناء. قالوا: والمرأة ينبغي لها إذا خاطبت الأجانب أن تغلظ كلامها، وتقويه، ولا تلينه وتكسره، فإن ذلك أبعد من الريبة والطمع فيها.

وللقلب أمراض أخر من الرياء والكبر والعجب والحسد والفخر والخيلاء وحب الرياسة والعلو في الأرض، وهذا المرض مركب من: مرض الشبهة والشهوة، فإنه لا بد فيه من تخيل فاسد، وإرادة باطلة: كالعجب، والفخر، والخيلاء، والكبر المركب من تخيل عظمته وفضله وإرادة تعظيم الخلق له، ومحمدتهم، فلا يخرج مرضه عن شهوة، أو شبهة، أو مركب منهما.

وهذه الأمراض كلها متولدة عن الجهل ودواؤها العلم، كما قال النبي ﷺ في حديث صاحب الشجة، الذي أفتوه بالغسل فمات: «**قتلوه، قتلهم الله! ألا سألوا إذ لم يعلموا؛ إنما شفاء العي السؤال**»[1] فجعل العي وهو عي القلب عن العلم، واللسان عن النطق به: مرضاً، وشفاؤه: سؤال العلماء.

فأمراض القلوب أصعب من أمراض الأبدان، لأن غاية مرض البدن أن يفضي بصاحبه إلى الموت، وأما مرض القلب فيفضي بصاحبه إلى الشقاء الأبدي، ولا شفاء لهذا المرض إلا بالعلم، ولهذا سمى الله ـ تعالى ـ كتابه شفاء لأمراض الصدور. وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

ولهذا السبب: نسبة العلماء إلى القلوب: كنسبة الأطباء إلى الأبدان، وما يقال للعلماء: أطباء القلوب، فهو لقدر ما جامع بينهما، وإلا فالأمر أعظم؛ فإن كثيراً من

---

(١) أخرجه النسائي في المجتبى (رقم ٢٤٠) وأبو داود (رقم ٣٣٦، ٣٣٧) وابن ماجه (رقم ٥٧٢) والبيهقي في الكبرى (١/ ٢٢٨ رقم ١٠١٨) والدارقطني (١/ ١٨٩ رقم ٣) والدارمي (رقم ٧٥٢) والطبراني في الكبير (١١/ ١٩٤ رقم ١١٤٧٢) وأبو يعلى (٤/ ٣٠٩ رقم ٢٤٢٠) وأحمد (١/ ٣٣٠) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٩١ رقم ١١٦٣).

الأمم يستغنون عن الأطباء، ولا يوجد الأطباء إلا في اليسير من البلاد، وقد يعيش الرجل عمره أو برهة منه لا يحتاج إلي طبيب.

وأما العلماء بالله وأمره فهم: حياة الوجود وروحه، ولا يستغني عنهم طرفة عين، فحاجة القلب إلى العلم ليست كالحاجة إلى التنفس في الهواء، بل أعظم.

وبالجملة فالعلم للقلب: مثل الماء للسمك، إذا فقده مات، فنسبة العلم إلى القلب: كنسبة ضوء العين إليها، وكنسبة سمع الأذن، وكنسبة كلام اللسان إليه، فإذا عدمه كان: كالعين العمياء، والأذن الصماء، واللسان الأخرس.

***

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

[(١)]إن الله سبحانه أنزل على نبيه الحكمة، كما أنزل عليه القرآن، وأمتن بذلك على المؤمنين، والحكمة هي: السنة، كما قال غير واحد من السلف، وهو كما قالوا، فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، فنوع المتلو إلى نوعين: آيات وهي: القرآن، وحكمة وهي السنة، والمراد بالسنة ما أخذ عن رسول الله ﷺ سوى القرآن، كما قال ﷺ: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا إنه مثل القرآن وأكثر**»[(٢)].

وقال الأوزاعي: عن حسان بن عطية: كان جبرائيل ينزل بالقرآن والسنة، ويعلمه إياها، كما يعلمه القرآن[(٣)]، فهذه الأخبار التي زعم هؤلاء: أنه لا يستفاد منها علم،

---

(١) ٣٤٠ مختصر الصواعق جـ٢.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٠٤) وأحمد (٤/ ١٣٠) والمروزي في السنة (رقم ٢٤٤، ٤٠٢) والطبراني في مسند الشاميين (٢/ ١٣٧ رقم ١٠٦١) وانظر: التمهيد (٢/ ١٥٦) وتأويل مختلف الحديث (ص ١٩٥).

(٣) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٩٩) والمروزي في السنة (رقم ١٠٢، ٤٠٣) وابن المبارك =

نزل بها جبرائيل من عند الله ﷻ كما نزل بالقرآن، وقال إسماعيل بن عبد الله: ينبغي لها أن تحفظ عن رسول الله ﷺ فإنها بمنزلة القرآن[1].

***

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

[2]دل هذا على أنه إذا ثبت لله ورسوله في أي مسألة من المسائل حكم طلبي أو خبري فإنه ليس لأحد أن يتخير لنفسه غير ذلك الحكم فيذهب إليه، وأن ذلك ليس لمؤمن ولا مؤمنة أصلاً، فدل على أن ذلك مناف للإيمان، وقد حكى الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد[3]، ولم يسترب أحد من أئمة الإسلام في صحة ما قاله الشافعي ﷺ، فإن الحجة الواجب اتباعها على الخلق كافة إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغة الاتباع لا واجبة الاتباع فضلاً عن أنه يعارض بها النصوص وتقدم عليها عياذاً بالله من الخذلان.

[4]قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقطع ﷻ التخيير بعد أمره وأمر رسوله. فليس لمؤمن أن يختار شيئاً بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر فأمره حتم، وإنما الخيرة في قول غيره إذا

=

في الزهد (رقم ٩١) وأبو داود في المراسيل (رقم ٥٣٦) وانظر: الكفاية في علم الرواية (ص ١٢) ومفتاح الجنة (ص ١٦) وقواعد التحديث (ص ٥٩).

(١) أخرجه المروزي في السنة (رقم ١٠١).

(٢) ٢٧ التبوكية.

(٣) ذكره جمال الدين القاسمي في قواعد التحديث (ص ٣٥٩).

(٤) ٥ زاد المعاد جـ١.

خفي أمره، وكان ذلك الغير من أهل العلم به وبسنته، فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع، لا واجب الاتباع، فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه، بل غايته: أنه يسوغ له اتباعه، ولو ترك الأخذ بقول غيره لم يكن عاصياً لله ورسوله، فأين هذا ممن يجب على جميع المكلفين اتباعه، ويحرم عليهم مخالفته، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟

فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه، وكل من سواه فإنما يجب اتباعه على قوله، إذا أمر بما أمر به، ونهى عما نهى عنه، فكان مبلغاً محضاً، ومخبراً لا منشئاً ومؤسساً، فمن أنشأ أقوالاً وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله: لم يجب على الأمة اتباعها، ولا التحاكم إليها، حتى تعرض على ما جاء به الرسول، فإن طابقته ووافقته وشهد لها بالصحة: قبلت حينئذ، وإن خالفته: وجب ردها وإطراحها، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين: جعلت موقوفة، وكان أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه، وأما أنه يجب ويتعين: فكلا...

[1]فاختيار الرب ـ تعالى ـ لعبده نوعان:

أحدهما: اختيار ديني شرعي، فالواجب على العبد أن لا يختار في هذا النوع غير ما اختاره له سيده، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فاختيار العبد خلاف ذلك مناف لإيمانه وتسليمه، ورضاه بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

النوع الثاني: اختيار كوني قدري، لا يسخطه الرب، كالمصائب التي يبتلي الله بها عبده، فهذا لا يضره فراره منها إلى القدر الذي يرفعها عنه، ويدفعها ويكشفها، وليس في ذلك منازعة للربوبية، وإن كان فيه منازعة للقدر بالقدر.

فهذا يكون تارة واجباً، وتارة يكون مستحباً، وتارة يكون مباحاً مستوى الطرفين،

---

(١) ١٨٨ مدارج جـ٢.

وتارة يكون مكروهاً، وتارة يكون حراماً. وأما القدر الذي لا يحبه ولا يرضاه ـ مثل قدر المعائب والذنوب ـ فالعبد مأمور بسخطها، ومنهي عن الرضى بها. وهذا هو التفصيل الواجب في الرضى بالقضاء...

[1]في تحريم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص، وسقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص، وذكر إجماع العلماء على ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

[2]وقد كان السلف الطيب يشتد نكيرهم وغضبهم على من عارض حديث رسول الله برأي أو قياس أو استحسان أو قول أحد من الناس كائناً من كان، ويهجرون فاعل ذلك، وينكرون على من يضرب له الأمثال، ولا يسوغون غير الانقياد له والتسليم والتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر بقلوبهم التوقف في قبوله حتى يشهد له عمل أو قياس أو يوافق قول فلان وفلان، بل كانوا عاملين بقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾. وبقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

---

(١) ٢٦٠ أعلام جـ٢.

(٢) ٢٤٤ أعلام جـ٤.

وبقوله تعالىٰ: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وأمثالها، فدفعنا إلىٰ زمان إذا قيل لأحدهم: «ثبت عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال كذا وكذا». يقول: من قال بهذا؟! ويجعل هذا دفعاً في صدر الحديث، أو يجعل جهله بالقائل [به] حجة له في مخالفته وترك العمل به، ولو نصح نفسه لعلم أن هذا الكلام من أعظم الباطل، وأنه لا يحل له دفع سنن رسول الله ﷺ بمثل هذا الجهل.

وأقبح من ذلك عذره في جهله؛ إذ يعتقد أن الإجماع منعقد علىٰ مخالفة تلك السنة، وهذا سوء ظن بجماعة المسلمين، إذ ينسبهم إلىٰ اتفاقهم علىٰ مخالفة سنة رسول الله ﷺ. وأقبح من ذلك عذره في دعوىٰ هذا الإجماع، وهو جهله وعدم علمه بمن قال بالحديث، فعاد الأمر إلىٰ تقديم جهله علىٰ السنة، والله المستعان.

ولا يعرف إمام من أئمة الإسلام البتة قال: لا نعمل بحديث رسول الله ﷺ حتىٰ نعرف من عمل به، فإن جهل من بلغه الحديث من عمل به لم يحل له أن يعمل به، كما يقول هذا القائل.

***

﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴿٣٧﴾﴾.

[1] تزوج ﷺ زينب بنت جحش من بني أسد بن خزيمة وهي ابنة عمته أميمة، وفيها نزل قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وبذلك كانت تفتخر علىٰ نساء النبي ﷺ وتقول: «زوجكن أهاليكن، وزجني الله من فوق سبع

---

(١) ٥٣ زاد المعاد جـ٢.

سموات»[١]. ومن خواصها: أن الله ﷻ كان هو وليها الذي زوجها للرسول ﷺ من فوق سمواته، وتوفيت في أول خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وكانت أولاً عند زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ تبناه، فلما طلقها زيد زوجه الله ـ تعالىٰ ـ إياها، لتتأسى به أمته في نكاح أزواج من تبنوه.

[٢]وأما قصة زينب بنت جحش: فزيد كان قد عزم على طلاقها ولم توافقه، وكان يستشير رسول الله ﷺ في فراقها، وهو يأمره بإمساكها، فعلم رسول الله ﷺ أن سيفارقها ولابد، فأخفىٰ في نفسه أن يتزوجها إذا فارقها زيد، وخشي مقالة الناس:إن رسول الله ﷺ تزوج زوجة ابنه، فإنه كان تبنىٰ زيداً قبل النبوة، والرب تعالىٰ يريد أن يشرع شرعاً عاماً فيه مصالح عباده، فلما طلقها زيد، وانقضت عدتها منه أرسله إليها يخطبها لنفسه، جاء زيد، واستدبر الباب بظهره، وعظمت في صدره لما ذكر رسول الله ﷺ فناداها من وراء الباب: يا زينب إن رسول الله ﷺ يخطبك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتىٰ أوامر ربي، وقامت إلىٰ محرابها فصلت[٣]، فتولى الله ﷻ نكاحها من رسول الله ﷺ بنفسه، وعقد النكاح له من فوق عرشه، وجاء الوحي بذلك: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ ، فقام رسول الله ﷺ لوقته فدخل عليها، فكانت تفخر علىٰ نساء النبي ﷺ بذلك، وتقول: أنتن زوجكن أهلوكن وزجني الله ﷻ من فوق سبع سموات.

فهذه قصة رسول الله ﷺ مع زينب، ولا ريب أن النبي ﷺ حبب إليه النساء، كما في الصحيح من حديث أنس ورواه النسائي في سننه، والطبراني في الأوسط عنه ﷺ قال: «حبب إليَّ من دنياكم: النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٤]. هذا لفظ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٠) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤١١).

(٢) ٣٢٥ الجواب الكافي.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٤٢٨) وانظر: شرح النووي (٩/ ٢٢٨).

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٠ رقم ٨٨٨٨) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٨ رقم ١٣٢٣٢) والضياء في المختارة (٥/ ١١٢-١١٣ رقم ١٧٣٦، ١٧٣٧) والحاكم (٢/ ١٧٤ رقم ٢٦٧٦) =

الحديث لاما يرويه بعضهم: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث»(١). زاد الإمام أحمد في كتاب الزهد في الحديث: «أصبر عن الطعام والشراب ولا أصبر عنهن»(٢).

وقد حسده أعداء الله اليهود على ذلك وقالوا: ما همه إلا النكاح، فرد الله ـ سبحانه ـ عن رسول الله ﷺ ونافح عنه، فقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥٤]، الآية. وهذا خليل الله إمام الحنفاء كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر، وتسرى بها، وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة، فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليلة على تسعين امرأة. وقد سئل رسول الله ﷺ عن أحب الناس إليه قال: «عائشة رضي الله عنها»(٣). وقال عن خديجة: «إني رزقت حبها»(٤)، فمحبة النساء من كمال الإنسان قال ابن عباس: «خير هذه الأمة أكثرهم نساء»(٥).

(٦)هديه ﷺ في علاج العشق: هذا مرض من أمراض القلب، مخالف لسائر الأمراض في ذاته وأسبابه وعلاجه، وإذا تمكن واستحكم عز على الأطباء دواؤه، وأعيا العليل داؤه وإنما حكاه الله ـ سبحانه ـ في كتابه عن طائفتين من الناس: من

والطبراني في الأوسط (٥/ ٢٤١ رقم ٥٢٠٣) وأبو يعلى (٦/ ١٩٩ رقم ٣٤٨٢) وأحمد (٣/ ١٢٨) وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ٣٤٥).

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٠٥رقم ١٠٨٩) وقال: وقال ابن القيم وغيره من رواه: «حبب إليَّ من دنياكم ثلاث» فقد وهم، بل هي عبادة محضة. نعم يصح أن تضاف إليها لكونها ظرفاً لوقوعها فيها. وكذا قال الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث الرافعي تبعاً لأصله والولي ابن العراقي في أماليه: إن لفظ ثلاث لم يقع في شيء من طرقه، بل هي مفسدة للمعنى.

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٣/ ٣٧١) (٦/ ٥٠) والعجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٠٦).

(٣) أخرجه ابن حبان (١٠/ ٤٠٤ رقم ٤٥٤٠) (١٦/ ٤٠ رقم ٧١٠٧) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٢٩٩ رقم ١٤٥٢٥) والترمذي (رقم ٣٨٨٦) وقال: حديث حسن غريب.

(٤) أخرجه مسلم (رقم ٢٤٣٥) وانظر: فتح الباري (٧/ ١٣٧) وشرح النووي (١٥/ ٢٠١).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٩) وانظر: فتح الباري (٩/ ١١٤) وعمدة القاري (٢٠/ ٧٠).

(٦) ٣١٧ زاد المعاد جـ٣.

النساء وعشاق الصبيان المردان، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسف، وحكاه عن قوم لوط. فقال ـ تعالىٰ ـ إخبارًا عنهم لما جاءت الملائكة لوطاً: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ۝ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ۝ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ۝ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ۝ لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الحجر: ٦٧، ٧٢]. وأما ما زعمه بعض من لم يقدر رسول الله ﷺ حق قدره: من أنه ابتلي به في شأن زينب بنت جحش، وأن رآها فقال: «سبحان مقلب القلوب!» فأخذت بقلبه، وجعل يقول لزيد بن حارثة: «أمسكها» حتىٰ أنزل الله عليه: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾[1] [الأحزاب: ٣٧] فظن هذا الزاعم: أن ذلك في شأن العشق، وصنف بعضهم كتاباً في العشق، وذكر فيه عشق الأنبياء وذكره هذه الواقعة، وهذا من جهل هذا القائل بالقرآن وبالرسل، وتحميله كلام الله ما لا يحتمله، ونسبته رسول الله ﷺ إلىٰ ما برأه الله منه، فإن زينب بنت جحش كانت تحت زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ قد تبناه، وكان يدعىٰ زيد بن محمد، وكانت زينب فيها شمم وترفع عليه، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها، فقال له رسول الله ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله»[2]. وأخفىٰ في نفسه أن يتزوجها إن طلقها زيد، وكان يخشىٰ من قالة الناس: إنه تزوج امرأة ابنه. لأن زيدًا كان يدعىٰ ابنه. فهذا هو الذي أخفاه في نفسه. وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له. ولهذا ذكر الله ـ سبحانه ـ هذه الآية، يعدد فيها نعمه عليه، لا يعاتبه فيها، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشىٰ الناس فيما أحل الله له، وأن الله أحق أن يخشاه، فلا يتحرج مما أحله له

---

(١) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٢/ ١٨٣-١٨٤) (٣/ ٢٩-٣٠).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢١٢) والدارقطني (٣/ ٣٠١ رقم ٢٠٦) وصححه الترمذي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩١): رواه الطبراني من طرق رجال بعضها رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٩/ ٥٢٣-٥٢٤).

لأجل قول الناس، ثم أخبره أنه ـ سبحانه ـ زوَّجه إياها بعد قضاء زيد وطره منها لتقتدي أمته به في ذلك. ويتزوج الرجل بامرأة ابنه من التبني، لا امرأة ابنه لصلبه، ولهذا قال آية التحريم: ﴿ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ ﴾ [النساء: ٢٣]، وقال في هذه السورة: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال في أولها: ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ ﴾ [الأحزاب:٤٠]، فتأمل هذا الذب عن رسول الله ﷺ، ودفع طعن الطاعنين عنه، وبالله التوفيق.

نعم كان رسول الله ﷺ يحب نساءه، وكان أحبهن إليه عائشة ـ رضي الله عنها ـ ولم تكن تبلغ محبته لها ولا لأحد ـ سوىٰ ربه ـ نهاية الحب. بل صح أنه قال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[(١)]. وفي لفظ: «وإن صاحبكم خليل الرحمن»[(٢)].

***

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

[(٣)]لما كان رسول الله ﷺ مشتملاً علىٰ ما يقتضي أن يحمد مرة بعد مرة سمي محمداً، وهو اسم موافق لمسماه، ولفظ مطابق لمعناه؛ والفرق بين «محمد» و«أحمد» من وجهين:

أحدهما: أن «محمدًا» هو المحمود حمداً بعد حمد، فهو دال على كثرة حمد الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه. وأحمد أفعل تفضيل من الحمد، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، فمحمد زيادة حمد في الكمية،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٦) ومسلم (رقم ٢٣٨٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣-٢٤) وشرح النووي (٥/ ٢٣٤).

(٢) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم ٤٤٢) وانظر: عمدة القاري (٤/ ٢٤٤).

(٣) ١٠٤ جلاء الأفهام.

و«أحمد» زيادة في الكيفية، فيحمد أكثر حمد وأفضل حمد حمده البشر.

الوجه الثاني: أن «محمدًا» هو المحمود حمداً متكرراً كما تقدم، و«أحمد» هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، فدل أحد الاسمين وهو «محمد» على كونه محموداً، ودل الاسم الثاني وهو: «أحمد» على كونه أحمد الحامدين لربه، وهذا هو القياس، فإن أفعل التفضيل والتعجب عند جماعة البصريين لا يبنيان إلا من فعل الفاعل، لا يبنيان من فعل المفعول، بناء منهم على أن أفعل التعجب والتفضيل إنما يصاغان من الفعل اللازم لا من المتعدي، ولهذا يقدرون نقله من فعل وفعل إلى بناء فعل بضم العين. قالوا: والدليل على هذا أنه تعدى بالهمزة إلى المفعول، فالهمزة التي فيه للتعدية، نحو ما أظرف زيداً، وأكرم عمرًا، وأصلهما ظرف وكرم...

[1]هذا الاسم هو أشهر أسمائه ﷺ، وهو اسم منقول من الحمد، وهو في الأصل اسم مفعول من الحمد، وهو يتضمن الثناء على المحمود ومحبته وإجلاله وتعظيمه، هذا هو حقيقة الحمد، وبني على زنة «مفعل» مثل معظم، ومحبب، ومسود، ومبجل ونظائرها، لأن هذا البناء موضوع للتكثير، فإن اشتق منه اسم فاعل فمعناه: من كثر صدور الفعل منه مرة بعد مرة: كمعلم، ومفهم، ومبين، ومخلص، ومفرج ونحوها، وإن اشتق منه اسم مفعول فمعناه: من كثر تكرر وقوع الفعل عليه مرة بعد أخرى: إما استحقاقاً، أو وقوعاً، فمحمد هو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرى، أو الذي يستحق أن يحمد مرة بعد أخرى.

ويقال: حمد فهو محمد كما يقال: علم فهو معلم، وهذا علم وصفة اجتمع فيه الأمران في حقه ﷺ وإن كان علماً مختصاً في حق كثير ممن تسمى به غيره.

وهذا شأن أسماء الرب ـ تعالى ـ وأسماء كتابه، وأسماء نبيه، هي أعلام دالة على معان هي بها أوصاف، فلا تضاد فيها العلمية الوصف، بخلاف غيرها من أسماء

---

(١) ٩٢ جلاء الأفهام.

المخلوقين، فهو: الله، الخالق، البارئ، المصور، القهار، فهذه أسماء له دالة على معان هي: صفاته، وكذلك القرآن، والفرقان والكتاب المبين، وغير ذلك من أسمائه.وكذلك أسماء النبي ﷺ: «محمد، وأحمد، والماحي، وفي حديث جبير بن معطم عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لي أسماء: أنا محمد وأنا أحمد، أنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر**»[(١)]. فذكر رسول الله ﷺ هذه الأسماء مبيناً ما خصه الله به من الفضل، وأشار إلى معانيها وإلا فلو كانت أعلاماً محضة لا معنى لها لم تدل على مدح، ولهذا قال حسان ﷺ:

وشـــق لـــه مـــن اســـمه ليجلـــه ... فذو العرش محمود وهـذا محمـد[(٢)]

[(٣)]إذا ثبت هذا فتسميته ﷺ بهذا الاسم لما اشتمل عليه من مسماه وهو الحمد، فإنه ﷺ محمود عند الله، ومحمود ملائكته، ومحمود عند إخوانه من المرسلين، ومحمود عند أهل الأرض كلهم، وإن كفر به بعضهم، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل، وإن كابر عقله: جحوداً، وعناداً، وجهلاً باتصافه بها، ولو علم اتصافه بها لحمده، فإنه يحمد من اتصف بصفات الكمال ويجهل وجودها فيه، فهو في الحقيقة حامد له، وهو ﷺ اختص من مسمى الحمد بما لم يجتمع لغيره، فإن اسمه محمد وأحمد، وأمته الحمادون: يحمدون الله في السراء والضراء، وصلاته وصلاة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٣٢) ومسلم (رقم ٢٣٥٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٥٧) وشرح النووي (١٥/ ١٠٤).

(٢) هذا بيت من البحر الطويل، ينسب إلى حسان بن ثابت الصحابي الجليل رضي الله عنه وينسب أيضاً إلى بجير بن زهير المزني وهو صحابي أيضاً توفي سنة ١١هـ وشارك في غزوة خيبر وفتح مكة. والبيت ذكره ابن كثير غير منسوب لأحد في تفسيره (٤/ ٥٢٦) وابن عبد البر في الاستذكار (٨/ ٦٦٢) غير منسوب لأحد. ونسبه إلى أبي طالب وكذا فعل الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٥٥) وفي الإصابة (٧/ ٢٣٥) والزرقاني في شرحه من موطأ مالك (٤/ ٥٥٧) وأخرجه البخاري في تاريخه الأوسط (رقم ٣١) وابن عدي في الكامل (٥/ ١٩٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٣/ ٣٢، ٣٣).

(٣) ٩٦ جلاء الأفهام.

أمته مفتتحة بالحمد، وخطبته مفتتحة بالحمد، وكتابه مفتتح بالحمد، هكذا كان عند الله في اللوح المحفوظ أن خلفاءه وأصحابه يكتبون المصحف مفتتحاً بالحمد، وبيده ﷺ لواء الحمد يوم القيامة، ولما يسجد بين يدي ربه ﷻ للشفاعة، ويؤذن له فيها، يحمد ربه بمحامد يفتحها عليها حينئذ، وهو صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

ومن أحب الوقوف على معنى المقام المحمود فليقف على ما ذكره سلف الأمة من: الصحابة، والتابعين فيه في تفسير هذه السورة كتفسير ابن أبي حاتم، وابن جرير، وعبد بن حميد. وغيرها من تفاسير السلف.

وإذا قام في ذلك المقام حمده حينئذ أهل الموقف كلهم: مسلمهم، وكافرهم: أولهم، وآخرهم، وهو محمود ﷺ بما يملأ به الأرض من: الهدى، والإيمان، والعلم النافع، والعمل الصالح، وفتح به القلوب، وكشف به الظلمة عن أهل الأرض، واستنقذهم من أسر الشياطين ومن الشرك بالله والكفر به والجهل به، حتى نال أتباعه شرف الدنيا والآخرة. فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عباد أوثان، وعباد صلبان، وعباد نيران، وعباد الكواكب، ومغضوب عليهم، قد باؤوا بغضب من الله، وحيران لا يعرف ربا يعبده، ولا بماذا يعبده، والناس يأكل بعضهم بضعاً، ومن استحسن شيئاً دعا إليه.

وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة، وقد نظر الله سبحانه إلى أهل الأرض، فمقتهم: عربهم، وعجمهم، إلا بقايا على آثار دين صحيح، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظلم، وأحيا به الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعلم به من الجهالة، وكثر بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، وفتح به أعينا عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً، فعرف الناس ربهم

ومعبودهم: غاية ما يمكن أن تناله قواهم من المعرفة، وأبدأ، وأعاد، واختصر، وأطنب في ذكر: أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه، حتى تجلت معرفته سبحانه في قلوب عباده المؤمنين، وانجابت سحائب الشك والريب عنها، كما ينجاب السحاب عن القمر ليلة إبداره، ولم يدع لأمته حاجة في هذا التعريف: لا إلى من قبله، ولا إلى من بعده، بل كفاهم وشفاهم وأغناهم عن كل من تكلم في هذا الباب: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

روى أبو داود في مراسيله عن النبي ﷺ أنه رأى بيد بعض أصحابه قطعة من التوراة، فقال: **«كفى بقوم ضلالة؛ أن يبتغوا كتاباً غير كتابهم، أنزل على غير نبيهم»**، فأنزل الله ﷻ تصديق ذلك: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]، فهذا حال من أخذ دينه عن كتاب منزل على غير النبي ﷺ فكيف بمن أخذه عن عقل فلان وفلان، وقدمه على كلام الله ورسوله؟!

وعرفهم الطريق الموصل لهم إلى ربهم ورضوانه ودار كرامته، ولم يدع حسناً إلا أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهى عنه، كما قال ﷺ: **«ما تركت من شيء يقربكم إلى الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا من شيء يقربكم إلى النار إلا وقد نهيتكم عنه»**[2]، قال أبو ذر: **«لقد توفى رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً»**. وعرفهم حالهم بعد القدوم على ربهم أتم التعريف، فكشف الأمر وأوضحه، ولم يدع باباً من العلم النافع للعباد المقرب لهم إلى ربهم؛ إلا فتحه، ولا مشكلاً إلا بينه

---

(١) أخرجه أبو داود في المراسل (رقم ٤٥٤) وانظر: فتح الباري (٩/ ٦٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٥ رقم ٢١٣٦) والبيهقي في الكبرى (٧/ ٧٦ رقم ١٣٢٢١) وهناد في الزهد (١/ ٢٨١ رقم ٤٩٤) وقال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية (٥/ ٥٧٦): فيه انقطاع.

وشرحه، حتىٰ هدىٰ الله به القلوب من ضلالها، وشفاها به من أسقامها وأغاثها به من جهلها، فأي بشر أحق بأن يحمد منه ﷺ وجزاه عن أمته أفضل الجزاء. وأصح القولين في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، أنه علىٰ عمومه، وفيه علىٰ هذا التقدير وجهان.

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته.

أما أتباعه: فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة.

وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عجل قتلهم وموتهم خير لهم من حياتهم؛ لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة، وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم من طول أعمارهم في الكفر.

وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت: ظله، وعهده، وذمته، وهم أقل شراً بذلك العهد من المحاربين له.

وأما المنافقون: فحصل لهم بإظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم، واحترامها، وجريان أحكام المسلمين عليهم في التوارث وغيرها؛ وأما الأمم النائية عنه، فإن الله ـ سبحانه ـ رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته.

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكنِ المؤمنون قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرىٰ. والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمة لهم، لكن لم يقبلوها، كما يقال: هذا دواء لهذا المرض، فإذا لم يستعمله لم يخرج عن أن يكون دواء لذلك المرض.

ومما يحمد عليه ﷺ ما جبله الله عليه من مكارم الأخلاق وكرائم الشيم، فإن من نظر في أخلاقه وشيمه ﷺ علم أنها خير أخلاق، فإنه ﷺ كان أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة وأصدقهم حديثاً، وأجودهم وأسخاهم، وأشدهم احتمالاً، وأعظمهم عفواً ومغفرة، وكان لا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً، كما روىٰ البخاري في صحيحه

عن عبدالله بن عمرو، أنه قال في صفة رسول الله ﷺ في التوارة: «**محمد عبدي ورسولي، سميته: المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو، ويغفر، ولن أقبضه حتي أقيم به الملة العوجاء، وأفتح به أعينًا عمياً، وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً، حتى يقولوا: لا إله إلا الله**». وأرحم الخلق وأرأفهم بهم وأعظم الخلق نفعاً لهم في دينهم ودنياهم...[1][2]

***

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾﴾.

[3]كان النبي ﷺ أكمل الخلق ذكراً لله ﷻ بل كان كلامه كله في ذكر الله، وما والاه، وكان أمره ونهيه وتشريعه للأمة: ذكراً منه لله، وإخباره عن أسماء الرب وصفاته، وأحكامه وأفعاله، ووعده ووعيده: ذكر منه له، وثناؤه عليه بآلائه، وتمجيده وحمده وتسبيحه: ذكراً منه له، وسؤاله ودعاؤه إياه، ورغبته ورهبته: ذكراً منه له، وسكوته وصمته: ذكراً منه له بقلبه، فكان ذاكراً لله في كل أحيانه، وعلى جميع أحواله، فكان ذكره لله يجري مع أنفاسه: قائماً وقاعداً، وعلى جنبه، وفي مشيه وركوبه، ومسيره ونزوله، وظعته وإقامته. وكان إذا استيقظ قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**»[4].

وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**كان إذا هبَّ من الليل: كبر الله عشراً، وحمد الله عشراً، وقال: سبحان الله وبحمده عشراً، سبحان الملك القدوس عشراً، وأستغفر الله عشراً، وهلل عشرا، ثم قال: اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة**

---

(١) البحث مطول من أراده فليرجع إليه (ج).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢١٢٥) وانظر: فتح الباري (٤/ ٣٤٣).

(٣) ٣٧ زاد المعاد جـ٢.

(٤) أخرجه البخاري عن حذيفة بن اليمان ﷺ (رقم ٦٣١٢) ومسلم عن البراء ﷺ (رقم ٢٧١١) وانظر: فتح الباري (١١/ ١١٤).

عشراً، ثم يستفتح الصلاة»[١].

وقالت أيضاً: «كان إذا استيقظ من الليل قال: لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»[٢]. ذكرهما أبو داود[٣].

[٤]الذكر: عبودية القلب واللسان، وهي غير مؤقتة.

وهو جلاء القلوب وصقالها ودواؤها إذا غشيها اعتلالها، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقاً ازداد المذكور محبة إلي لقائه واشتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه: نسي في جنب ذكره كل شيء. وحفظ الله عليه كل شيء. وكان له عوضاً من كل شيء. به يزول الوقر عن الأسماع، والبكم عن الألسن، وتنقشع الظلمة عن الأبصار. زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين. فاللسان الغافل: كالعين العمياء، والأذان الصماء، واليد الشلاء.

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة وفي الذكر. وقراءة القرآن. فإن وجدتم. وإلا فاعلموا أن الباب مغلق[٥].

وبالذكر: يصرع العبد الشيطان. كما يصرع الشيطان أهل الغفلة والنسيان. قال بعض السلف: إذا تمكن الذكر من القلب. فإن دنا منه الشيطان صرعه كما يصرع

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٦/ ٢١٨ رقم ١٠٧٠٧) وأبو داود (رقم ٥٠٨٥) وانظر: عون المعبود (١٣/ ٢٩١-٢٩٢) وقال الألباني في صحيح سنن أبي داود (٤/ ٣٢٢): حسن صحيح.

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٥٠٦١) والنسائي في الكبرى (٦/ ٢١٦ رقم ١٠٧٠١) وابن حبان (١٢/ ٣٤١ رقم ٥٥٣١) والحاكم (١/ ٧٢٤ رقم ١٩٨١) والطبراني في الدعاء (رقم ٧٦٢) وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٤/ ٣١٤) وفي ضعيف الترغيب (رقم ٤٥).

(٣) استمر في ذكر الاستيقاظ وغيره رحمه الله (ج).

(٤) ٤٢٣ مدارج جـ٢.

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/ ٤٤٧ رقم ٧٢٢٦) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٧١) (١٠/ ١٤٦).

الإنسان إذا دنا منه الشيطان. فيجتمع عليه الشياطين. فيقولون: ما لهذا؟ فيقال: قد مسه الإنسي. وهو روح الأعمال الصالحة. فإذا خلا العمل عن الذكر كان: كالجسد الذي لا روح فيه. والله أعلم.

(١)الذكر ثلاثة أنواع: ذكر الأسماء والصفات ومعانيها، والثناء على الله بها. وتوحيد الله بها. وذكر الأمر والنهي، والحلال والحرام. وذكر الآلاء والنعماء. والإحسان والأيادي وأنه ثلاثة أنواع أيضاً: ذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وهو أعلاها، وذكر بالقلب وحده. وهو في الدرجة الثانية: وذكر باللسان المجرد. وهو في الدرجة الثالثة.

(٢)...وذكر العبد لربه محفوف بذكرين من ربه له: ذكر قبله. به صار العبد ذاكراً له. وذكر بعده، به صار العبد مذكوراً. كما قال تعالى: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، قال ـ فيما يروي عنه نبيه ﷺ ـ: «من ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»(٣).

والذكر الذي ذكره الله به، بعد ذكره له: نوع غير الذكر الذي ذكره به قبل ذكره له، ومن كثف فهمه عن هذا فليجاوزه إلى غيره. فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع(٤)

---

(١) ٤٣٠ مدارج جـ٢.

(٢) ٤٣٣ مدارج جـ٢.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٠٥) ومسلم (رقم ٢٦٧٥) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٨٦) وشرح النووي (١٧/ ٢).

(٤) هذا البيت من بحر الوافر وينسب إلى عمرو بن معديكرب الزبيدي، أسلم في عهد النبي ﷺ ثم ارتد بعد وفاته ثم عاد إلى الإسلام مرة ثانية وشهد اليرموك والقادسية وله شعر جيد مات سنة ٢١هـ وينسب هذا البيت أيضًا إلى دريد بن الصمة، أدرك الإسلام ولم يسلم. مات سنة ٨ هجرية يوم حنين على دين المشركين، وينسب أيضاً إلى إبراهيم بن هرمة شاعر مخضرم من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، أنشد الشعر بين يدي الرشيد مات سنة ١٧٦هـ وينسب أيضًا إلى ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٣هـ وينسب أيضاً إلى ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد المتوفى سنة ٣٢٨هـ. ذكره الأصمعي في =

وسألت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يوماً. فقلت له: إذا كان، الرب ـ سبحانه ـ يرضى بطاعة العبد، ويفرح بتوبته، ويغضب من مخالفته، فهل يجوز أن يؤثر المحدث في القديم حباً وبغضاً وفرحاً وغير ذلك؟

فقال لي: الرب ـ سبحانه ـ هو الذي خلق أسباب الرضا والغضب والفرح، وإنما كانت بمشيئته وخلقه. فلم يكن ذلك التأثر من غيره، بل من نفسه بنفسه. والممتنع أن يؤثر غيره فيه. فهذا محال، وأما أن يخلق هو أسباباً ويشاءها ويقدرها تقتضي رضاه ومحبته، وفرحه وغضبه: فهذا ليس بمحال. فإن ذلك منه بدأ وإليه يعود. والله ـ سبحانه ـ أعلم.

[(١)] والمقصود: أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة، وكان الله ـ سبحانه ـ أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال، كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقاً هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته.

ولهذا أمر ـ سبحانه ـ بكثرة ذكره في القرآن، وجعله سبباً للفلاح، فقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤١]. وقال: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون: ٩].

وقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وقال النبي ﷺ: «**سبق المفردون**»، قالوا:

= الأصمعيات (ص١١١) والثعالبي في الإعجاز والإيجاز (ص ١٥٦) والتمثيل والمحاضرة (ص ٩٣) وابن قتيبة في الشعر والشعراء (١/ ٤٠٥) والزمخشري في القسطاس في علم العروض (ص ٥٣). وانظر: الإصابة (٤/ ٦٩٢) والاستيعاب (٣/ ١٢٠٤).

(١) ٢٦٦ جلاء الأفهام.

يا رسول الله! وما المفردون؟ قال: «**الذاكرون الله كثيراً**»[1] وفي الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ألا أدلكم على خير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**ذكر الله**». وهو في الموطأ موقوف علىٰ أبي الدرداء.

قال معاذ بن جبل: «**ما عمل آدمي عملاً أنجىٰ له من عذاب الله من ذكر الله**»[2] وذكر رسوله ﷺ تبع لذكره.

والمقصود: أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة. فالذكر للقلب: كالماء للزرع، بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به. وهو أنواع: ذكره بأسمائه وصفاته، والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر أهل العلم، بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.

ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]. فذكره هنا كلامه الذي أنزله علىٰ رسوله. وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]. ومن ذكره ـ سبحانه ـ: دعاؤه، واستغفاره والتضرع إليه، فهذه خمسة أنواع من الذكر.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٦) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٤).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٣٧٧) ومالك في الموطأ (١/ ٢١١ رقم ٤٩٢) وأحمد (٥/ ١٩٥) وابن ماجه (رقم ٣٧٩٠) والحاكم (١/ ٦٧٣ رقم ١٨٢٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وحسنه المنذري في الترغيب (٢/ ٢٥٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٥).

(١) قال تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد:٤]، قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق: ١٤] وقال تعالىٰ: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] إلىٰ غير ذلك من الآيات. وفي حديث جبريل ﷺ: أنه «سأل النبي ﷺ عن الإحسان؟ فقال له: **«أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**[٢].

«المراقبة» دوام علم العبد، وتيقنه باطلاع الحق ﷻ علىٰ ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي «المراقبة» وهي ثمرة علمه بأن الله ـ سبحانه ـ رقيب عليه ناظر إليه، سامع لقوله، وهو مطلع علىٰ عمله: كل وقت، وكل لحظة، وكل نَفَس، وكل طرفة عين، والغافل عن هذا بمعزل عن حال أهل البدايات، فكيف بحال المريدين؟ فكيف بحال العارفين؟

قال الجريري: من لم يُحَكِّم بينه وبين الله تعالىٰ التقوىٰ، والمراقبة: لم يصل إلىٰ الكشف والمشاهدة[٣]. وقيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه. وقيل لبعضهم: متىٰ يهش الراعي غنمه بعصاه عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيباً[٤]. وقال الجنيد: من تحقق في المراقبة خاف علىٰ فوات لحظه من ربه لا غيره. وقال ذو النون: علامة المراقبة إيثارها ما أنزل الله، وتعظيم ما عظَّم الله، وتصغير ما صغَّر الله[٥].

***

---

(١) ٦٥ مدارج جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠) ومسلم (رقم ٨، ٩) وانظر: فتح الباري (١/ ١٢٠) (٢/ ٢٢٦).

(٣) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٣٦ رقم ٩٠٦) وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٤٠٥).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (١/ ٥١٢ رقم ٨٨٠).

(٥) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٤٧ رقم ١٦٤٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٤١٤).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

[1]بيان معنى الصلاة على النبي ﷺ وأصل هذه اللفظة يرجع إلي معنيين: (أحدهما): الدعاء والتبريك. (الثاني): العبادة. فمن الأول قوله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ٨٤]، وقوله النبي ﷺ: «إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب؛ فإن كان صائماً فليصل»[2]. فسر بهما قيل: «فليدع لهم بالبركة»، وقيل: «يصلي عندهم» بدل أكله. وقيل: «إن الصلاة» في اللغة معناها الدعاء.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والعابد داع كما أن السائل داع، وبهما فسر قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

وقيل: أطيعوني أثبكم، وقيل: سلوني أعطكم، وفسر بهما قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

والصواب: أن الدعاء يعم النوعين، وهذا لفظ متواطئ لا اشتراك فيه فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]، والصحيح من القولين: لولا أنكم تدعونه وتعبدونه، أي: أي شيء يعبأ بكم لولا عبادتكم إياه. فيكون المصدر مضافاً إلى الفاعل. وقال تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى

(١) ٨١ جلاء الأفهام.
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١١٥٠).

ﱡﭐﭐٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًا ﱠ[الأعراف: ٥٥، ٥٦].

وقال ـ تعالىٰ ـ إخباراً عن أنبيائه ورسله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وهذه الطريقة أحسن من الطريقة الأولىٰ؛ ودعوىٰ الخلاف في مسمىٰ الدعاء، وبهذا تزول الإشكالات الواردة علىٰ اسم الصلاة الشرعية، هل هو منقول عن موضعه في اللغة فيكون حقيقة شرعية أو مجازاً شرعياً. فعلىٰ هذا تكون الصلاة باقية علىٰ مسماها في اللغة، وهو الدعاء، والدعاء: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والمصلي من حين تكبيره إلىٰ سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهو في صلاة حقيقة، لا مجازاً ولا منقولة، لكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة، والرأس، ونحوهما فهذه غاية تخصيص اللفظ وقصره علىٰ بعض موضوعه، ولهذا لا يوجب نقلاً ولا خروجاً عن موضوعه الأصلي، والله أعلم.

هذه الصلاة من الآدمي وأما صلاة الله ـ سبحانه ـ فنوعان: عامة، وخاصة:

أما العامة: فهي صلاته علىٰ عباده المؤمنين، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ومنه دعاء النبي: ﷺ بالصلاة علىٰ آحاد المؤمنين كقوله: «اللهم صل علىٰ آل أبي أوفىٰ»[١]، وفي حديث آخر: أن امرأة قالت له: «صل عليَّ وعلىٰ زوجي»، قال: «صلىٰ الله عليك وعلىٰ زوجك»[٢]، وسيأتي ذكر هذا الحديث وما شابهه إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٤٩٧) ومسلم (رقم ١٠٧٨) وانظر: فتح الباري (٧/ ٤٤٨) (٨/ ٥٣٤)، وشرح النووي (٤/ ١٢٧) (٧/ ١٨٤).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٩٧ رقم ٩١٦) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ١١٢ رقم ١٠٢٥٦) وأبو داود (رقم ١٥٣٣) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ١٥٢ رقم ٢٦٩٥) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٤ رقم ٨٧١٧) وأبو يعلىٰ (٤/ ٥٩ رقم ٢٠٧٧) وأحمد (٣/ ٣٠٣) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٩٨) (٨/ ٥٣٤) وقال الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ١٧٠): وصححه ابن حبان.

النوع الثاني: صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله خصوصاً على خاتمهم وخيرهم محمد ﷺ. فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال:

أحدها: أنها رحمته. قال إسماعيل: حدثنا نصر بن علي، حدثنا محمد بن سواء، عن جويبر، عن الضحاك قال: صلاة الله: رحمته، وصلاة الملائكة: الدعاء[(١)].

وقال المبرد: أصل الصلاة الرحمة، فهي من الله رحمة، ومن الملائكة رحمة واستدعاء الرحمة من الله[(٢)]. وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين.

والقول الثاني: أن صلاة الله مغفرته. قال إسماعيل ثنا محمد بن أبي بكر، ثنا محمد ابن سواء، عن جويبر عن الضحاك: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ ﴾، قال: صلاة الله مغفرته، وصلاة الملائكة الدعاء[(٣)]. وهذا القول هو من جنس الذي قبله، وهما ضعيفان لوجوه:

أحدها: أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته، فقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضى ذلك تغايرهما، هذا أصل العطف، وأما قولهم:

وألفى قولها كذبا ومينا[(٤)]

فهو شاذ نادر لا يحمل عليه أفصح الكلام مع أن المين أخص من الكذب.

---

(١) أخرجه إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في فضل الصلاة على النبي (رقم ٩٦) وضعفه الألباني في تحقيقه لهذه الرسالة (ص ٨٠) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٥٦).

(٢) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ١٥٦).

(٣) أخرجه إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في فضل الصلاة على النبي (رقم ٩٧) وقال الألباني في تحقيقه لهذه الرسالة (ص ٩٧): ضعيف جدًا. وانظر: فتح الباري (١١/ ١٥٦).

(٤) ذكر البيت أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل (صـ ٩٩) وصدره: وقددت الأديم الراهشية. وابن سلام الجحمي في طبقات فحول الشعراء (صـ ٦٢) وقدامة بن جعفر في نقد الشعر (صـ ١٩٩) ونسبوه إلى عدي بن زيد العتادي وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٩٤) ولسان العرب (١٣/ ٤٢٥).

الوجه الثاني: أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين، وأما رحمته فوسعت كل شيء، فليست الصلاة مرادفة للرحمة، لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها، فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها ومقصودها، وهذا كثيراً ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن والرسول ﷺ يفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك، والشك جزء مسمى الريب، وتفسير المغفرة بالستر؛ وهو جزء مسمى المغفرة،وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان، وهو لازم الرحمة، نظائر ذلك كثيرة، قد ذكرناها في أصول التفسير.

الوجه الثالث: أنه لا خلاف في جواز الرحمة على المؤمنين.

واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على غير الأنبياء على ثلاثة أقوال سنذكرها فيما بعد إن شاء الله ـ تعالى ـ، فعلم أنهما ليسا بمترادفين.

الوجه الرابع: أنه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال الأمر، وأسقطت الوجوب عند من أوجبها إذا قال: «اللهم ارحم محمداً وآل محمد» وليس الأمر كذلك.

الوجه الخامس: أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه أنه صلى عليه، ويقال: إنه قد رحمه.

الوجه السادس: أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه، فيجد في قلبه له رحمة ولا يصلي عليه.

الوجه السابع: أن الصلاة لابد فيها من كلام، فهي ثناء من المصلي على من يصلي عليه، وتنويه به، وإشارة لمحاسنة وما فيه، وذكره.

ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال: «صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة»[1]. وقال إسماعيل في كتابه: حدثنا نصر بن علي حدثنا خالد بن يزيد

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ =

عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وقال: صلاة الله ﷻ ثناؤه عليه، وصلاة الملائكة عليه الدعاء[١].

الوجه الثامن: أن الله سبحانه فرق بين صلاته وصلاة ملائكته، وجمعهما في فعل واحد، فقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة، وإنما هي ثناؤه سبحانه وثناء ملائكته عليه، ولا يقال: الصلاة لفظ مشترك، ويجوز أن يستعمل في معنييه معاً، لأن في ذلك محاذير متعددة:

أحدها: أن الاشتراك خلاف الأصل، بل لا يعلم أنه وقع في اللغة من واضع واحد، كما نص علي ذلك أئمة اللغة منهم المبرد، وغيره وإنما يقع وقوعاً عارضاً اتفاقياً بسبب تعدد الواضعين، ثم تختلط اللغة فيعرض الاشتراك.

الثاني: أن الأكثرين لا يجوزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز، وما حكي عن الشافعي ﷺ من تجويزه ذلك؛ فليس بصحيح عنه، وإنما أخذ من قوله: «إذا أوصى لمواليه وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم» فظن من ظن أن لفظ «المولى» مشترك بينهما، وأنه عند التجرد يحمل عليهما، وهذا ليس بصحيح؛ فإن لفظ «المولى» من الألفاظ المتواطئة، فالشافعي، وأحمد ـ رضي الله عنهما ـ في ظاهر مذهبهما يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ، وهو عندهما متواطيء لا مشترك.

وأما ما حكي عن الشافعي ﷺ أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله: ﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [المائدة: ٦]، وقد قيل له: قد يراد بالملامسة المجامعة، قال: «هي محمولة

= ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ (صـ ٩٣٧) وأخرجه بن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣١٥١ رقم ١٧٧٦٨) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٠٧) وفتح الباري (٨/ ٥٣٣).

(١) أخرجه إسماعيل الجهضمي في فضل الصلاة على النبي (رقم ٩٥) وصححه الألباني.

على الجس باليد حقيقة، وعلى الوقاع مجازاً» فهذا لا يصح عن الشافعي، ولا هو من جنس المألوف من كلامه، وإنما هذا كلام بعض الفقهاء المتأخرين، وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معاً بضعه عشر دليلاً في مسألة ـ القرء ـ من كتاب التعليق على الأحكام.

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به وإظهار شرفه وفضله وحرمته، كما هو المعروف من هذه اللفظة، لم يكن الصلاة في الآية مشتركاً محمولاً على معنييه، بل يكون مستعملاً في معنى واحد، وهذا هو الأصل في الألفاظ. وسنعود إلى هذه المسألة ـ إن شاء الله تعالى ـ في الكلام على تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾.

الوجه التاسع: أن الله ـ سبحانه ـ أمر بالصلاة عليه عقيب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه. والمعنى: أنه إذا كان الله وملائكته يصلون على رسوله، فصلوا أنتم أيضاً عليه، فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليماً؛ لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من خير شرف الدنيا والآخرة.

ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم. فينقض اللفظ والمعنى، فيصير التقدير إلى أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه، فادعوا أنتم له وسلموا، وهذا ليس مراد الآية قطعاً، بل الصلاة المأمور بها فيها هي: الطلب من الله، وما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته، وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه. فهي تتضمن الخبر والطلب، وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن: صلاة عليه، لوجهين:

أحدهما: أنه يتضمن ثناء المصلي عليه والإشارة بذكر شرفه، وفضله والإرادة والمحبة كذلك من الله ـ تعالى ـ فقد تضمنت: الخبر، والطلب.

والوجه الثاني: أن ذلك سمي منا: صلاة، لسؤالنا من الله أن يصلي عليه. فصلاة الله عليه: ثناؤه، وإرادته لرفع ذكره، وتقريبه. وصلاتنا نحن عليه: سؤالنا الله تعالى أن

يفعل ذلك به، وضد هذا في لعنه أعداءه الشانئين لما جاء به، فإنها تضاف إلى الله، وتضاف إلى العبد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]. فلعنة الله لهم تتضمن: مقته، وإبعاده، وبغضه لهم، ولعنة العبد تتضمن: سؤال الله تعالى أن يفعل ذلك بمن هو أهل اللعنة.

وإذا ثبت هذا فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي الرحمة لم يصح أن يقال لطالبها من الله: مصلياً، وإنما يقال له: مسترحماً، كما يقال لطالب المغفرة: مستغفراً له، ولطالب العطف: مستعطفاً، ونظائره، ولهذا لا يقال لمن سأل الله المغفرة لغيره، قد غفر له، فهو غافر، ولا لمن سأله العفو عنه قد عفا عنه. وهنا قد سمي العبد مصلياً، فلو كانت الصلاة هي الرحمة لكان العبد راحماً لمن صلى عليه، وكان يقال: قد رحمه برحمة، ومن رحم النبي ﷺ مرة رحمه الله بها عشرًا، وهذا معلوم البطلان. فإن قيل: ليس معنى صلاة العبد عليه ﷺ رحمته، وإنما معناها: طلب الرحمة من الله. قيل: هذا باطل من وجوه:

أحدها: أن طلب الرحمة مشروع لكل مسلم، وطلب الصلاة من الله يختص برسله - صلوات الله وسلامه عليهم - عند كثير من الناس، كما سنذكره إن شاء الله - تعالى -.

الثاني: أنه لوسمي طالب الرحمة: مصلياً، لسمى طالب المغفرة: غافراً، وطالب العفو: عافياً، وطالب الصفح: صافحاً، ونحوه.

فإن قيل: فأنتم قد سميتم طالب الصلاة من الله مصلياً.

قيل: إنما سمي مصلياً لوجود حقيقة الصلاة منه، فإن حقيقتها الثناء، وإرادة الإكرام والتقريب وإعلاء المنزلة، وهذا حاصل من صلاة العبد؛ لكن العبد يريد ذلك من الله ﷻ، والله - سبحانه - يريد ذلك من نفسه أن يفعله برسوله.

وأما على الوجه الثاني، وأنه سمي مصلياً لطلبه ذلك من الله فلأن الصلاة نوع من الكلام الطلبي والخبر والإرادة، وقد وجد ذلك من المصلي بخلاف الرحمة والمغفرة:

فإنها أفعال لا تحصل من الطالب، وإنما تحصل من المطلوب منه، والله أعلم.

الوجه العاشر: أنه قد ثبت عن النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم: «أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشراً»[١]، وأن الله سبحانه قال له: «من صلى عليك من أمتك مرة صليت عليه بها عشراً»، وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة: أن الجزاء من جنس العمل، فصلاة الله على المصلي على رسوله جزاء لصلاته هو عليه، ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ﷺ ليست هي رحمة من العبد، لتكون صلاة الله عليه من جنسها، وإنما هي ثناء على الرسول ﷺ وإرادة من الله أن يعلي ذكره، ويزيده تعظيماً وتشريفاً؛ والجزاء من جنس العمل، فمن أثنى على رسول الله ﷺ جزاه الله من جنس عمله بأن يثني عليه ويزيد تشريفه وتكريمه، فصح ارتباط الجزاء بالعمل ومشاكلته له ومناسبته له.

«من يسر على معسر يسر الله عليه حسابه ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه، ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة»[٢]، «ومن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»[٣]، «ومن صلى على النبي ﷺ مرة صلى الله عليه بها عشراً»، ونظائره كثيرة. يوضحه:

الوجه الحادي عشر: أن أحداً لو قال عن رسول الله ﷺ: «رحمه الله» أو قال: «رسول الله رحمه الله» بدل ﷺ لبادرت الأمة إلى الإنكار عليه وعدوه مبتدعاً غير موقر

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٣٨٤) وانظر: شرح النووي (٤/ ٨٥-٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٩) وانظر: شرح النووي (١٧/ ٢١).

(٣) أخرجه ابن حبان (١/ ٢٩٨ رقم ٩٦) وأبو داود (رقم ٣٦٥٨) وابن ماجه (رقم ٢٦٥) والطبراني في الأوسط (٧/ ٢٩٣ رقم ٧٥٣٢) وفي الكبير (١٠/ ١٢٨ رقم ١٠١٩٧) وأحمد (٢/ ٣٤٤) والبيهقي في الشعب (٢/ ٢٧٥ رقم ١٧٤٣) وانظر: شرح النووي (٣/ ١١١).

للنبي ﷺ ولا مصل عليه ولا مثن عليه بما يستحقه، ولا يستحق أن يُصلى عليه بذلك عشر صلوات، ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك.

الوجه الثاني عشر: أن الله ﷻ قال: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣]، فأمر ـ سبحانه ـ أن لا يدعى رسوله بما يدعو الناس بعضهم بعضاً، بل يقال: يا رسول الله، ولا يقال: يا محمد، وإنما كان يسميه باسمه وقت الخطاب الكفار، وأما المسلمون فكانوا يخاطبونه برسول الله، وإذا كان هذا في خطابه، فهكذا في مغيبه لا ينبغي أن يجعل ما يدعى به له من جنس ما يدعو به بعضناً لبعض، بل يدعو له بأشرف الدعاء، وهو الصلاة عليه. ومعلوم أن الرحمة يدعى بها لكل مسلم، بل ولغير الآدمي من الحيوانات، كما في دعاء الاستسقاء: «اللهم ارحم عبادك وبلادك وبهائمك»[1].

والوجه الثالث عشر: أن هذه اللفظة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنى الرحمة أصلاً، والمعروف عند العرب من معناها إنما هو الدعاء والتبريك والثناء قال:

وإن ذكرت صلى عليها وزمزما[2]

أي: برك عليها ومدحها، ولا تعرف العرب قط: «صلى عليه» بمعنى «رحمه» فالواجب حمل اللفظ على معناه المتعارف في اللغة.

الوجه الرابع عشر: أنه يسوغ بل يستحب لكل واحد أن يسأل الله أن يرحمه، فيقول: اللهم ارحمني كما علم النبي ﷺ الداعي أن يقول: «اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني»[3]، فلما حفظها قال: «أما هذا فقد ملأ يديه من الخير»[4].

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٤/ ٣١٩).

(٢) هذا عجز بيت للأعشى من بحر الطويل وصدره: لها حارس ما يبرح الدهر بيتها: ذكر البيت الطبري في تفسيره (١/ ١٠٤) وابن كثير في تفسيره (١/ ٤٣) وابن عبدالبر في التمهيد (١٩/ ٤١).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٩٧).

(٤) أخرجه الدارقطني (١/ ٣١٤ رقم ٢) وأحمد (٤/ ٣٥٣) وعبد بن حميد (رقم ٥٢٤) وعبد الرزاق (٢/ ١٢١-١٢٢ رقم ٢٧٤٧) والطبراني في الدعاء (رقم ١٧١١) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١١٣).

ومعلوم أنه لا يسوغ لأحد أن يقول: «اللهم صلِّ عليّ»، بل الداعي بهذا معتد في دعائه، والله لا يحب المعتدين، بخلاف سؤاله الرحمة، فإن الله يحب أن يسأله عبده: مغفرته ورحمته، فعلم أنه ليس معناهما واحداً.

الوجه الخامس عشر: أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة كقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله: «إن رحمتي سبقت غضبي»[١]، وقوله: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقوله: ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقوله: ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧]، وقول النبي ﷺ: «الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»[٢]. وقوله: «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[٣]، وقوله: «من لا يرحم لا يُرحَمُ»[٤]، قوله: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»[٥] وقوله: «والشاة إن رحمتها رحمك الله»[٦].

فمواضع استعمال الرحمة في حق الله وفي حق العباد لا يحسن أن تقع الصلاة في

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٢٢) ومسلم (رقم ٢٧٥١) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٤١) وشرح النووي (١٦/ ١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٩٩) ومسلم (رقم ٢٧٥٤) ولفظه عندهما: «الله أرحم بعباده من هذه بولدها».

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٤٩٤١) والترمذي (رقم ١٩٢٤) وقال: حديث حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٤٠).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٠١٣) ومسلم (رقم ٢٣١٩) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٤٢٩-٤٣٠) وشرح النووي (١٥/ ٧٧).

(٥) أخرجه ابن حبان (٢/ ٢١٣ رقم ٤٦٦) وأبو داود (رقم ٤٩٤٢) والترمذي (رقم ١٩٢٣) وقال: حديث حسن. وأبو يعلى (١٠/ ٥٢٦ رقم ٦١٤١) وأحمد (٢/ ٣٠١) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ٣٧٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٨٧).

(٦) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٦) والبزار (٨/ ٢٥٥ رقم ٣٣١٩) والبيهقي في الشعب (٧/ ٤٨١ رقم ١١٠٦٩) والحاكم (٣/ ٦٧٦ رقم ٦٤٨٢) (٤/ ٢٥٧ رقم ٧٥٦٢) والطبراني في الأوسط (٣/ ١٤٢ رقم ٢٧٣٦) وفي الكبير (١٩/ ٢٢ رقم ٤٤) وصححه الحاكم، وقال الهيثمي في المجمع (٤/ ٣٣): رجاله ثقات.

كثير منها، بل في أكثرها، فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة، والله أعلم.

[١] وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾، قال: يباركون عليه[٢]، وهذا لا ينافي تفسيرها بالثناء وإرادة التكريم والتعظيم، فإن التبريك من الله يتضمن ذلك، ولهذا قرن بين الصلاة عليه والتبريك عليه، وقالت الملائكة لإبراهيم: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، وقال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] قال غير واحد من السلف: معلماً للخير أينما كنت، هذا جزء المعنى، فالمبارك: كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليماً وإقداراً ونصحاً وإرادة واجتهاداً، ولهذا يكون العبد مباركًا، لأن الله بارك فيه وجعله كذلك، والله تعالى متبارك لأن البركة كلها منه، فعبده المبارك وهو المتبارك. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١]، وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى...

وقد رد طائفة من الناس تفسير الصلاة من الله بالرحمة بأن قال: معناها رقة الطبع، وهي مستحيلة في حق الله ـ سبحانه ـ كما أن الدعاء منه ـ سبحانه ـ مستحيل، وهذا الذي قاله هذا عرق جهمي ينض من قلبه على لسانه، وحقيقته إنكار رحمة الله جملة، وكان جهم يخرج إلى الجذمي ويقول: أرحم الراحمين يفعل هذا؟! إنكاراً لرحمته ـ سبحانه ـ.

[٣]وقال عبيد الله بن عمرو: حدثني بعض إخواني ممن أثق به قال: رأيت رجلاً من أهل الحديث في المنام فقلت: ماذ فعل الله بك؟ قال: رحمني، أو غفر لي. قلت: وبم

---

(١) ٩٠ جلاء الأفهام.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٣).

(٣) ٢٤٨ جلاء الأفهام.

ذاك؟ قال: إني كنت إذا أتيت على اسم النبي ﷺ كتبت ﷺ[١]. ذكرها محمد بن صالح عن ثوابة عن سعيد بن مروان عنه.

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه عن جماعة من أهل الحديث أنهم رؤوا بعد موتهم، وأخبروا أن الله غفر لهم بكتابتهم الصلاة على النبي ﷺ في كل حديث.

وقال ابن سنان: سمعت عباساً العنبري، وعلي بن المديني يقولان: ما تركنا الصلاة على النبي ﷺ في كل حديث سمعناه، وربما عجلنا فنبيض الكتاب في كل حديث حتى نرجع إليه[٢].

الموطن الثاني والعشرون من مواطن الصلاة عليه ﷺ عند تبليغ العلم إلى الناس عند التذكير والقصص، وإلقاء الدرس، وتعليم العلم، في أول ذلك وآخره. قال إسماعيل بن إسحاق في كتابه حدثنا أبوبكر بن أبي شيبة حدثنا حسين بن علي - وهو الجعفي - عن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبدالعزيز: «أما بعد: فإن أناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل صلاتهم على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا فمرهم أن تكون صلاتهم على النبيين ودعاؤهم للمسلمين عامة ويدعوا ما سوى ذلك[٣]، والصلاة على النبي ﷺ في هذا الموطن، لأنه موطن لتبليغ العلم الذي جاء به ونشره في أمته وإلقائه إليهم ودعوتهم إلى سنته وطريقته ﷺ. وهذا من أفضل الأعمال وأعظمها نفعاً للعبد في الدنيا والآخرة..

[٤]إنها متضمنة لذكر الله وشكره ومعرفة إنعامه على عبيده بإرساله، فالمصلي عليه

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في شرف أصحاب الحديث (صـ ٣٧).

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/ ٢٧٢ رقم ٥٦٨) وذكره السيوطي في تدريب الراوي (٢/ ٧٦).

(٣) أخرجه إسماعيل بن إسحاق الجهضمي في فضل الصلاة على النبي (رقم ٧٦) وابن أبي شيبة (٧/ ١٧٥ رقم ٣٥٠٩٣).

(٤) ٢٦٩ جلاء الأفهام.

ﷺ قد تضمنت صلاته عليه: ذكر الله، وذكر رسوله، وسؤاله أن يجزيه بصلاته عليه ما هو أهله، كما عرفنا ربنا وأسماءه وصفاته وهدانا إلى طريق مرضاته، وعرفنا ما لنا بعد الوصول إليه، والقدوم عليه، فهي متضمنة لكل الإيمان، بل هي متضمنة للإقرار بوجوب الرب المدعو وعلمه وسمعه وقدرته وإرادته وصفاته وكلامه، وإرسال رسوله وتصديقه في أخباره كلها وكمال محبته ولا ريب أن هذه هي أصول الإيمان، فالصلاة عليه ﷺ متضمنة لعلم العبد ذلك، وتصديقه به ومحبته له، فكانت من أفضل الأعمال.

إن الصلاة عليه ﷺ من العبد هي دعاء، ودعاء العبد وسؤاله من ربه نوعان: أحدهما: سؤاله حوائجه ومهماته وما ينوبه في الليل والنهار، فهذا دعاء وسؤال وإيثار لمحبوب العبد ومطلوبه.

والثاني: سؤاله أن يثني على خليله وحبيبه، ويزيد في تشريفه وتكريمه، وإثارة ذكره، ورفعه، ولا ريب أن الله تعالى يحب ذلك ورسوله يحبه، فالمصلي عليه ﷺ قد صرف سؤاله ورغبته وطلبه إلى محاب الله ورسوله، وأثر ذلك على طلبه حوائجه ومحابه هو، بل كان هذا المطلوب من أحب الأمور إليه، وآثر عنده فقد آثر ما يحبه الله ورسوله، فقد آثر الله ومحابه على ما سواه، والجزاء من جنس العمل، فمن آثر الله على غيره آثره الله على غيره، واعتبر هذا بما تجد الناس يعتمدونه عند ملوكهم ورؤسائهم إذا أرادوا التقرب والمنزلة عندهم، فإنهم يسألون المطاع أن ينعم على من يعلمونه أحب رعيته إليه، وكلما سألوه أن يزيد في حبائه وإكرامه وتشريفه علت منزلتهم عنده وازداد قربهم منه، وحظوا بهم لديه، لأنهم يعلمون منه إرادة الإنعام والتشريف والتكريم لمحبوبه، فأحبهم إليه: أشدهم له سؤالاً ورغبة أن يتم عليه إنعامه وإحسانه، هذا أمر مشاهد بالحس، ولا يكون منزلة هؤلاء ومنزلة من سأل المطاع حوائجه وهو وفارغ من سؤاله تشريف محبوبه والإنعام عليه واحدة، فكيف بأعظم محب وأجله الأكرم محبوب وأحقه بمحبة ربه له؟ ولو لم يكن من فوائد الصلاة عليه إلا هذا المطلوب

وحده لكفى المؤمن به شرفاً.

وههنا نكتة حسنة لمن علم أمته دينه، وما جاءهم به، ودعاهم إليه، وحضهم عليه، وصبر على ذلك، وهي أن النبي ﷺ له من الأجر الزائد على أجر عمله مثل أجور من اتبعه، فالداعي إلى سنته ودينه والمعلم الخير للأمة إذا قصد توفير هذا الحظ على رسول الله ﷺ وصرفه إليه، وكان مقصوده بدعاء الخلق إلى الله التقرب إليه بإرشاد عباد وتوفير أجور المطيعين له على رسول الله ﷺ مع توفيتهم أجورهم كاملة كان له من الأجر في دعوته وتعليمه بحسب هذه النية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

***

﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

[(١)]ما معنى السلام المطلوب عند التحية؟ «ففيه قولان مشهوران»: أحدهما: أن المعنى اسم السلام عليكم، والسلام هنا هو الله ﷻ. ومعنى الكلام: نزلت بركة اسمه عليكم وحلت عليكم، ونحو هذا، واختير في هذا المعنى من أسمائه ﷻ اسم السلام دون غيره من الأسماء، لما يأتي في جواب السؤال الذي بعده، واحتج أصحاب هذا القول بحجج منها: ما ثبت في الصحيح أنهم كانوا يقولون في الصلاة: «السلام على الله قبل عباده، السلام على جبريل، السلام على فلان، فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا السلام على الله، فإن الله هو: السلام، ولكن قولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[(٢)]. فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا السلام على الله، لأن السلام على المسلم عليه دعاء له، وطلب أن يسلم، والله ـ تعالى ـ هو المطلوب منه لا المطلوب له، وهو المدعو لا المدعو له، فيستحيل أن يسلم

---

(١) ١٤٠ بدائع جـ٢.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٥) ومسلم (رقم ٤٠٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣١١-٣١٢).

عليه، بل هو المسلم على عباده، كما سلم عليهم في كتابه، حيث يقول: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠، ١٨١]، وقوله: ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾، ﴿ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ ، [الصافات: ١٠٩، ٧٩، ١٣٠]، وقال في يحيى: ﴿ وَسَلَـٰمٌ عَلَيْهِ ﴾ [مريم: ١٥] وقال لنوح: ﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ ﴾ [هود: ٤٨].

ويسلم يوم القيامة على أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٧، ٥٨]، فقولاً منصوب على المصدر، وفعله ما تضمنه سلام من القول، لأن السلام قول.

وفي مسند الإمام أحمد وسنن ابن ماجه، من حديث محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور من فوقهم، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار ـ جل جلاله ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليكم، ثم قرأ: قوله: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾، ثم يتوارى عنهم فتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم»[(١)].

وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً: «أول من يسلم عليه الحق يوم القيامة عمر»[(٢)].

وقال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، فهذا تحيتهم يوم يلقونه ـ تبارك وتعالى ـ ومحال أن تكون هذه تحية منهم له، فإنهم أعرف به من أن يسلموا عليه، وقد نهوا عن ذلك في الدنيا، وإنما هذا تحية منهم لهم، والتحية هنا مضافة إلى المفعول، فهي التحية التي يحيون بها، لا التحية التي يحيونه هم بها، ولولا قوله ـ تعالى ـ في سورة يس: ﴿ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ لاحتمل أن تكون التحية لهم من

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٤) والديلمي في مسند الفردوس (٢/ ١٤ رقم ٢١٠٦)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٠٩) وابن عدي في الكامل (٦/ ١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٠٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٤٤/ ١٥٨).

الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] ولكن هذا سلام الملائكة إذا دخلوا عليهم، وهم في منازلهم من الجنة، يدخلون مسلمين عليهم. وأما التحية المذكورة في قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ﴾ فتلك تحية لهم وقت اللقاء، كما يحيي الحبيب حبيبه إذا لقيه، فماذا حرم المحجوبون عن ربهم يومئذ!!

يكفي الذي غاب عنك غيبته　　　فذاك ذنب عقابه فيه[1]

والمقصود أن الله تعالى يطلب منه السلام، فلا يمتنع في حقه أن يسلم على عباده ولا يطلب له، فلذلك لا يسلم عليه. وقوله ﷺ: «إن الله هو السلام» صريح في كون السلام اسماً من أسمائه، قالوا: فإذا قال السلم: سلام عليكم. كان معناه اسم السلام عليكم. ومن حججهم ما رواه أبو داود من حديث ابن عمر: «أن رجلاً سلم على النبي ﷺ فلم يرد عليه حتى استقبل الجدار، ثم تيمم ورد عليه، وقال: «إني كرهت أن أذكر الله إلا على طهر»[2]، قالوا: ففي هذا الحديث بيان أن السلام ذكر الله، وإنما يكون ذكراً إذا تضمن اسماً من أسمائه.

ومن حججهم أيضاً: أن الكفار من أهل الكتاب لا يبدءون بالسلام، فلا يقال لهم: سلام عليكم. ومعلوم أنه لا يكره أن يقال لأحدهم: سلمك الله. وما ذاك إلا أن السلام اسم من أسماء الله، فلا يسوغ أن يطلب للكافر حصول بركة ذلك الاسم عليه. فهذا حجج كما ترى قوية ظاهرة.

---

(١) هذا البيت من بحر المنسرح وينسب إلى ابن نباتة المصري محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي الفارقي المتوفى سنة ٧٦٨هـ ويروى أوله: أرضى لمن غاب. ذكره الحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، وابن العطار في تحفة الطالبين في ترجمة الإمام النووي (١٤٠).

(٢) أخرجه ابن حبان (٣/ ٨٢ رقم ٨٠٣) وابن خزيمة (١/ ١٠٣ رقم ٢٠٦) والحاكم (٣/ ٥٤٥ رقم ٦٠٢٦) وأبو داود (رقم ١٧) والبيهقي في الكبرى (١/ ٩٠ رقم ٤٣٠) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢/ ٩ رقم ٦٧٣) وأحمد (٤/ ٣٤٥) والطبراني في الكبير (٢٠/ ٣٢٩ رقم ٧٨١) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٣).

القول الثاني: إن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية.
ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يذكر، بلا ألف ولام، بل يقول المسلم: سلام عليكم، ولون كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك، بل كان يطلق عليه معرفاً، كما يطلق عليه سائر أسمائه الحسنى، فيقال: ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، فإن التنكير لا يصرف اللفظ إلى معين فضلاً عن أن يصرفه إلى الله وحده بخلاف المعرف، فإنه ينصرف إليه تعييناً إذا ذكرت أسماؤه الحسنى.
ومن حججهم أيضاً أن عطف الرحمة والبركة عليه في قوله: سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يدل على أن المراد به المصدر، ولهذا عطف عليه مصدرين مثله.
ومن حججهم أيضهاً أنه لو كان السلام هنا اسماً من أسماء الله لم يستقم الكلام إلا بإضمار وتقدير يكون به مقيداً ويكون المعنى بركة اسم السلام عليكم، فإن الاسم نفسه ليس عليهم ولو قلت اسم الله عليك كان معناه بركة هذا الاسم.
ونحو ذلك من التقدير، ومعلوم أن هذا التقدير خلاف الأصل ولا دليل عليه.
ومن حججهم أيضاً أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً ودعاء، وكما يأتي في جواب السؤال الذي بعد هذا، ولهذا كان السلام أماناً لتضمنه معنى السلامة وأمن كل واحد من المسلم والراد عليه من صاحبه. قالوا: فهذا كله يدل على أن السلام مصدر بمعنى: السلامة، وحذفت تاؤه لأن المطلوب هذا الجنس لا المرة الواحدة منه، والتاء تفيد التحديد كما تقدم.
وفصل الخطاب في هذه المسألة أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما تبين ذلك بقاعدة قد أشرنا إليها مراراً.
وهي أن من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب ويتوسل إليه بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى كأن الداعي مستشفع إليه متوسل إليه به، فإذا قال: «رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور»[1]. فقد سأله

(١) أخرجه ابن حبان (٣/ ٢٠٦ رقم ٩٢٧) وفي الموارد (رقم ٢٤٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣١ رقم =

أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه.

وكذلك قول النبي ﷺ لعائشة وقد سألته ما تدعو به إن وافقت ليلة القدر: «قولي: اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عني»[1].

وكذلك قوله للصديق وقد سأله أن يعلمه دعاء يدعو به: «اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، وإنه لايغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[2] وهذا كثيراً جدًّا فلا نطول بإيراد شواهده.

وإذا ثبت هذا فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم ما عند الرجل أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله وهو السلام الذي يطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أحدهما ذكر الله، كما في حديث ابن عمر، والثاني: طلب السلامة، وهو مقصود المسلم، فقد تضمن سلام عليكم اسماً من أسماء الله، وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة.

وقريب من هذا ما روي عن بعض السلف أنه قال في آمين: إنه اسم من أسماء الله ـ تعالىٰ ـ وأنكر كثير من الناس هذا القول، وقالوا: ليس في أسمائه آمين. ولم يفهموا معنىٰ كلامه، فإنه إنما أراد أن هذه الكلمة تتضمن اسمه ـ تبارك وتعالىٰ ـ فإن معناها: استجب، وأعط ما سألناك، فهي متضمنة لاسمه مع دلالتها علىٰ الطلب، وهذا التضمن في سلام عليكم أظهر، لأن السلام من أسمائه تعالىٰ فهذا كشف سر المسألة.

***

= ٩٩٣٢) (٦/ ١٩٩ رقم ١٠٢٩٢) وأبو داود (رقم ١٥١٦) وابن ماجه (رقم ٣٨١٤) وأحمد (٢/ ٢١) وابن أبي شيبة (٦/ ٥٧ رقم ٢٩٤٤٣) وعبد بن حميد (رقم ٧٨٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ١٠١).

(١) أخرجه النسائي في الكبرىٰ (٤/ ٤٠٧ رقم ٧٧١٢) والترمذي (رقم ٣٥١٣) وابن ماجه (رقم ٣٨٥٠) وإسحاق بن راهويه (٣/ ٧٤٨ رقم ١٣٦١) وأحمد (٦/ ١٧١) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ٣٣٥ رقم ١٤٧٤) وأبو يعلىٰ في معجمه (رقم ٤٣) وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٣٨ رقم ٥١٤١) ونقل تصحيح الترمذي والحاكم.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٤) ومسلم (رقم ٢٧٠٥) وانظر: الفتح (١١/ ١٣١-١٣٢).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

[1]ما الحكمة في تأكيد الأمر بالسلام على النبي ﷺ بالمصدر دون الصلاة عليه في قوله: ﴿ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]؟

فجوابه: أن التأكيد واقع على الصلاة والسلام، وإن اختلفت جهة التأكيد، فإنه ـ سبحانه ـ أخبر في أول الآية بصلاته عليه وصلاة ملائكته عليه، مؤكد لهذا الإخبار بحرف أن مخبراً عن الملائكة بصيغة الجمع المضاف إليه، وهذا يفيد العموم، والاستغراق، فإذا استشعرت النفوس أن شأنه ﷺ عند الله وعند ملائكته هذا الشأن بادرت إلى الصلاة عليه، وإن لم تؤمر بها، بل يكفي تنبيهها والإشارة إليها بأدنى إشارة، فإذا أمرت بها لم تحتج إلى تأكيد الأمر، بل إذا جاء مطلق الأمر بادرت وسارعت إلى موافقة الله وملائكته في الصلاة عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فلم يحتج إلى تأكيد الفعل بالمصدر، ولما خلا السلام عن هذا المعنى وجاء في حيز الأمر المجرد دون الخبر حسن تأكيده بالمصدر ليدل على تحقيق المعنى وتثبيته ويقوم تأكيد الفعل مقام تكريره، كما حصل التكرير في الصلاة خبراً وطلباً، فكذلك حصل التكرير في السلام فعلاً ومصدراً، فتأمله فإنه بديع جداً، والله أعلم، وقد ذكرنا بعض ما في هذه الآية من الأسرار والحكم العجيبة في كتاب تعظيم شأن الصلاة والسلام على خير الأنام، وأتينا فيه من الفوائد بما يساوي أدناها رحلة مما لا يوجد في غيره، ولله الحمد، فلنقتصر على هذه النكتة الواحدة.

وأما السؤال: ما الحكمة في تقديم السلام على النبي ﷺ في الصلاة قبل الصلاة عليه، وهلا وقعت البداءة بما بدأ الله به في الآية؟

---

(١) ١٨٨ بدائع جـ٢.

فهذا سؤال أيضاً له شأن لا ينبغي الإضراب عنه صفحاً وتمشية، والنبي ﷺ كان شديد التحري لتقديم ما قدمه الله والبداءة بما بدأ به.

فلهذا بدأ بالصفا في السعي وقال: نبدأ بما بدأ الله به[١].

وبدأ بالوجه ثم اليدين ثم الرأس في الوضوء، ولم يخل بذلك مرة واحدة، بل كان هذا وضوءه إلى أن فارق الدنيا، لم يقدم منه مؤخرًا، ولم يؤخر منه مقدماً قط، ولا يقدر أحد أن ينقل عنه خلاف ذلك؛ لا بإسناد صحيح ولا حسن ولا ضعيف، ومع هذا فوقع في الصلاة والسلام عليه تقديم السلام وتأخير الصلاة.

وذلك لسر من أسرار الصلاة، نشير إليه بحسب الحال إشارة، وهو أن الصلاة قد اشتملت على عبودية جميع الجوارح والأعضاء مع عبودية القلب، فلكل عضو منها نصيب من العبودية، فجميع أعضاء المصلي وجوارحه متحركة في الصلاة عبودية لله وذلاً له وخضوعاً، فلما أكمل المصلي العبودية وانتهت حركاته ختمت بالجلوس بين يدي الرب ـ تعالى ـ جلوس تذلل وانكسار وخضوع لعظمته ﷻ كما يجلس العبد الذليل بين يدي سيده، وكان جلوس الصلاة أخشع ما يكون من الجلوس وأعظمه خضوعاً وتذللاً، فإذن للعبد في هذه الحال بالثناء على الله ـ تبارك وتعالى ـ بأبلغ أنواع الثناء، وهو التحيات لله والصلوات والطيبات[٢].

وعادتهم إذا دخلوا على ملوكهم أن يحيوهم بما يليق بهم، وتلك التحية تعظيم لهم وثناء عليهم، والله أحق بالتعظيم والثناء من كل أحد من خلقه، فجمع العبد في قوله:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وابن حبان (٩/ ٢٥٠ -٢٥١ رقم ٣٩٤٣) والنسائي في الكبرى (٢/ ٤٠٩ رقم ٣٩٥٥) وأبو داود (رقم ١٩٠٥) وابن ماجه (رقم ٣٠٧٤) والترمذي (رقم ٨٦٢) وانظر: فتح الباري (٣/ ٥٠٣) (٦/ ٣٠٦) وشرح النووي (٨/ ١٧٦-١٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٣٥) ومسلم (رقم ٤٠٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٣١١-٣١٦) وشرح النووي (٤/ ١١٦).

التحيات والصلوات والطيبات أنواع الثناء على الله، وأخبر أن ذلك له وصفاً وملكاً، وكذلك الصلوات كلها لله فهو الذي يصلي له وحده لا لغيره، وكذلك الطيبات كلها من الكلمات والأفعال كلها له: فكلماته طيبات، وأفعاله كذلك، وهو طيب لا يصعد إليه إلا طيب، والكلم الطيب إليه يصعد، فكان الطيبات كلها له ومنه وإليه، له ملكاً ووصفاً، ومنه مجيئها وابتداؤها، وإليه مصعدها ومنتهاها، والصلاة مشتملة على: عمل صالح، وكلم طيب، والكلم الطيب إليه يصعد، والعمل الصالح يرفعه، فناسب ذكر هذا عند انتهاء الصلاة وقت رفعها إلى الله ـ تعالى ـ فلما أتى بهذا الثناء على الرب ـ تعالى ـ التفت إلى شأن الرسول الذي حصل هذا الخير على يديه، فسلم عليه أتم سلام معروف باللام التي للاستغراق مقروناً بالرحمة والبركة، هذا هو أصح شيء في السلام عليه، فلا تبخل عليه بالألف واللام في هذا المقام.

ثم انتقل إلى السلام على نفسه وعلى سائر عباد الله الصالحين، وبدأ بنفسه لأنها أهم، والإنسان يبدأ بنفسه، ثم بمن يعول، ثم ختم هذا المقام بعقد الإسلام، وهو التشهد بشهادة الحق التي هي أول الأمر وآخره، وعندها كمل الثناء والتشهد.

ثم انتقل إلى نوع آخر وهو الدعاء والطلب، فالتشهد يجمع نوعي الدعاء: دعاء الثناء والخير، ودعاء الطلب والمسألة، والأول أشرف النوعين، لأنه حق الرب ووصفه، والثاني: حفظ العبد ومصلحته. وفي الأثر: «**من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (صـ ١٠٩) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤ رقم ٢٩٢٧٣) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٤٠ رقم ٥٨٤) والديلمي في الفردوس (٣/ ١٦٨ رقم ٤٤٤٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٤١٣ رقم ٥٧٣) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ٦٤) وقال ابن حجر في الفتح (١١/ ١٣٤): أخرجه الطبراني بسند لين. وذكر حديث أبي سعيد بلفظ: من شغله القرآن وذكري عن مسألتي ـ الحديث أخرجه الترمذي وحسنه، وانظر: الفتح أيضاً (١١/ ١٤٧) (١٣/ ٤٨٩) وقال ابن عبد البر في التمهيد (٦/ ٤٦): ليس يجيء هذا الحديث فيما علمت مرفوعاً إلا بهذا الإسناد، وصفوان ابن أبي الصهباء وبكير بن عتيق رجلان صالحان.

لكن لما كانت الصلاة أتم العبادات عبودية وأكملها شرع فيها النوعين، وقدم الأول منهما لفضله، ثم انتقل إلى النوع الثاني وهو دعاء الطلب والمسألة، فبدأ بأهمه وأجله وأنفعه له، وهو طلب الصلاة من الله على رسوله ﷺ وهو من أجل أدعية العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته، كما ذكرناه في كتاب تعظيم شأن الصلاة على النبي ﷺ وفيه أيضاً أن الداعي جعله مقدمة بين يدي حاجته وطلبه لنفسه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا المعنى في قوله ثم لتخير من الدعاء أعجبه إليه. وكذلك في حديث فضالة بن عبيد إذا دعا أحدكم فليبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع.

فتأمل كيف جاء التشهد من أوله إلى آخره مطابقاً لهذا منتظماً له أحسن انتظام، فحديث فضالة هذا هو الذي كشف لنا المعنى وأوضحه وبينه، فصلوات الله وسلامه على من أكمل لنا دينه، وأتم برسالته علينا نعمته، وجعله رحمة للعالمين وحسرة على الكافرين.

وأما السؤال: ما الحكمة في كون السلام وقع بصيغة الخطاب والصلاة بصيغة الغيبة؟ فجوابه: يظهر مما تقدم. فإن الصلاة عليه طلب وسؤال من الله أن يصلي عليه، فلا يمكن فيها إلا لفظ الغيبة، إذ لا يقال: اللهم صل عليك، وأما السلام عليه فأتى بلفظ الحاضر المخاطب تنزيلاً له منزلة المواجه لحكمة بديعة جداً، وهي أنه ﷺ لما كان أحب إلى المؤمن من نفسه التي بين جنبيه، وأولى به منها، وأقرب، وكانت حقيقته الذهنية ومثاله العلمي موجوداً في قلبه، بحيث لا يغيب عنه إلا شخصه، كما قال القائل:

مثالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيب[1]

---

(١) هذا البيت من بحر الطويل، وينسب إلى دلف بن جحدر الشبلي، اشتهر بالصلاح وله شعر جيد، سلك به مسالك المتصوفة، ولد بسامراء وتوفي ببغداد سنة ٣٣٤هـ، له ديوان شعر جمعه الدكتور كامل مصطفى الشيبي، والبيت يبدأ بـ: خيالك في عيني. والبيت ذكره ابن أبي حجلة في ديوان الصبابة (صـ٤٦) والأبشيهي في ا لمستطرف (صـ....) وداود الأنطاكي في تزيين الأسواق في أخبار العشاق (١/ ٥٥) والمناوي في فيض القدير (٢/ ١٠٩).

ومن كان بهذا الحال فهو الحاضر حقاً، وغيره وإن كان حاضر للعيان فهو غائب عن الجنان، فكان خطابه خطاب المواجهة والحضور بالسلام عليه أولى من سلام الغيبة تنزيلاً له منزلة المواجه المعاين لقربه من القلب وحلوله في جميع أجزائه بحيث لا يبقى في القلب جزء إلا ومحبته وذكره فيه كما قيل:

لو شق عن قلبي يرى وسطه ذكرك[1]

والتوحيد في سطر لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ولا تستنكر استيلاء المحبوب على قلب المحب وغلبته عليه حتى كأنه يراه، ولهذا تجدهم في خطابهم لمحبوبهم إنما يعتمدون خطاب الحضور والمشاهدة مع غاية البعد العياني لكمال القرب الروحي، فلم يمنعهم بعد الأشباح عن محادثة الأرواح ومخاطبتها، ومن كثفت طباعه فهو عن هذا كله بمعزل، وأنه ليبلغ الحب ببعض أهله أن يرى محبوبه في القرب إليه بمنزلة روحه التي لا شيء أدنى إليه منها، كما قيل:

يا مقيماً مدا الزمان بقلبي وبعيدًا عن ناظري وعياني
أنت روحي إن كنت لست أراها فهي أدنى إليّ من كل داني...

[2]وأما السؤال: ما الحكمة في ورود الثناء على الله في التشهد بلفظ الغيبة مع كونه ـ سبحانه ـ هو المخاطب الذي يناجيه العبد، والسلام على النبي ﷺ بلفظ الخطاب مع كونه غائبًا؟

فجوابه: أن الثناء على الله عامة ما يجيء مضافاً إلى أسمائه الحسنى الظاهرة دون الضمير، إلا أن يتقدم ذكر الاسم الظاهر، فيجيء بعد المضمر، وهذا نحو قول

(١) هذا صدر بيت من بحر السريع، وهو: لو شق عن قلبي يرى وسطه: سطران قد خطا بلا كاتب.
وينسب إلى الصاحب بن عباد إسماعيل بن عباد بن العباس الطالقاني، كان وزيرًا وغلب عليه الأدب، وكان من نوادر الدهر علماً وفضلاً، له تصانيف جليلة وشعر فيه رقة، وعذوبة، مات سنة ٣٨٥هـ وذكره الحافظ اليغموري في نور القبس (صـ ٣٠٥) كما ذكره المصنف هذا.
(٢) ١٩٣ بدائع جـ٢.

المصلي: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ [الفاتحة: ٢ـ٥]. وقوله في الركوع: «**سبحان ربي العظيم**»، وفي السجود: «**سبحان ربي الأعلىٰ**»[١] وفي هذا من السر أن تعليق الثناء بأسمائه الحسنىٰ هو لما تضمنت معانيها من صفات الكمال ونعوت الجلال، فأتىٰ بالاسم الظاهر الدال علىٰ المعنىٰ، الذي يثني به ولأجله عليه ـ تعالىٰ ـ، ولفظ الضمير لا إشعار له بذلك، ولهذا إذا كان ولابد من الثناء عليه بخطاب المواجهة أتىٰ بالاسم الظاهر مقروناً بميم الجمع الدالة علىٰ جميع الأسماء والصفات، نحو قوله في رفع رأسه من الركوع: «**اللهم ربنا لك الحمد**»[٢].

وربما اقتصر علىٰ ذكر الرب ـ تعالىٰ ـ لدلالة لفظه علىٰ هذا المعنىٰ فتأمله فإنه لطيف المنزع جداً، وتأمل كيف صدر الدعاء المتضمن للثناء والطلب بلفظة: اللهم. كما في سيد الاستغفار: «**اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك**»[٣]. الحديث. وجاء الدعاء المجرد مصدراً بلفظ الرب نحو قول المؤمنين: ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقول آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقول موسىٰ: ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾ [القصص: ١٦]، وقول نوح: ﴿ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [هود: ٤٧]. وكان النبي ﷺ يقول بين السجدتين: «**رب اغفر لي، رب اغفر لي**»[٤] وسر ذلك أن الله تعالىٰ يسأل بربوبيته المتضمنة قدرته

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٢) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٧٩، ٢٨٩) وشرح النووي (٤/ ١٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧٩٦) ومسلم (رقم ٤٠٩) وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٨٢-٢٨٤) وشرح النووي (٤/ ١٢١، ١٢٨).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٠٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٩٩-١٠١).

(٤) أخرجه البيهقي في السنن الصغير (رقم ٤٣١) وفي السنن الكبرىٰ (٢/ ١٢١ رقم ٢٥٨٢) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٢٢٤ رقم ٦٥٦) وأبو داود (رقم ٨٧٤) وابن ماجه (رقم ٨٩٧) وأحمد (٥/ ٣٩٨) والطيالسي (رقم ٤١٦).

وإحسانه وتربيته عبده وإصلاح أمره ويثني عليه بإلهيته المتضمنة إثبات ما يجب له من الصفات العلى والأسماء الحسنى. وتدبر طريقة القرآن تجدها كما ذكرت لك. فأما الدعاء فقد ذكرنا منه أمثله، وهو في القرآن حيث وقع لا يكاد يجيء إلا مصدر باسم الرب.

وأما الثناء فحيث وقع فمصدر بالأسماء الحسنى وأعظم ما يصدر به اسم الله ـ جل جلاله ـ نحو: «الحمد لله» حيث جاء ونحو، «فسبحان الله» وجاء: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ [الصافات: ١٨٠] ونحوه: ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحشر: ١] حيث وقعت. ونحو: ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. و﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ [الفرقان: ١] ونظائره(١).

(٢)وأما السؤال الذي تضمن سؤالين: أحدهما: ما السر في كونه السلام في آخر الصلاة. والثاني: لِمَ كان معرفًا؟

والجواب: أما اختتام الصلاة به، فإنه قد جعل الله لكل عبادة تحليلاً منها.

فالتحليل: من الحج بالرمي وما بعده، وكذلك التحلل من الصوم بالفطر بعد الغروب، فجعل السلام تحليلاً من الصلاة، كما قال النبي ﷺ: «تحريمها التكبير، وتحليلها التسليم»(٣). تحريمها هنا هو بابها الذي يدخل منه إليها. وتحليلها بابها الذي يخرج به منها.

فجعل التكبير باب الدخول، والتسليم باب الخروج، لحكمة بديعة بالغة يفهمها

---

(١) تكملة البحث في سورة المائدة لعلاقته به في طلب المسيح المائدة من ربه (ج).

(٢) ١٩٥ بدائع جـ٢.

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ٣٤١ رقم ٧١٨) والحاكم (١/ ٢٢٣ رقم ٤٥٧) وأبو داود (رقم ٦١) وابن ماجه (رقم ٢٧٦) والترمذي (رقم ٢٣٨) وحسَّنه وصحَّحه الألباني وانظر: فتح الباري (١٢/ ٣٢٩) وشرح النووي (٤/ ٩٦).

من عقل عن الله، وألزم نفسه بتأمل محاسن هذا الدين العظيم، وسافر فكره في استخراج حكمه وأسراره وبدائعه، وتغرب عن عالم العادة والإلف، فلم يقنع بمجرد الأشباح حتى يعلم ما يقوم بها من الأرواح، فإن الله لم يشرع شيئاً سدى، ولا خلوا من حكمة بالغة، بل في طوايا ما شرعه وأمر به من الحكم والأسرار التي تبهر العقول ما يستدل به الناظر فيه على ما وراءه، فيسجد القلب خضوعاً وإذعاناً.

فنقول وبالله التوفيق: لما كان المصلي قد تخلى عن الشواغل، وقطع جميع العلائق، وتطهر، وأخذ زينته، وتهيأ للدخول على الله ومناجاته شرع له أن يدخل عليه دخول العبيد على الملوك، فيدخل بالتعظيم والإجلال، فشرع له أبلغ لفظ يدل على هذا المعنى، وهو قول: الله أكبر. فإن في اللفظ من التعظيم والتخصيص والإطلاق في جانب المحذوف المجرور بمن لا يوجد في غيره، ولهذا كان الصواب أن غير هذا اللفظ لا يقوم مقامه، ولا يؤدي معناه، ولا تنعقد الصلاة إلا به، كما هو مذهب أهل المدينة وأهل الحديث.

فجعل هذا اللفظ، واستشعار معناه، والمقصود به: باب الصلاة الذي يدخل العبد على ربه منه، فإنه إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال استحيى منه أن يشغل قلبه في الصلاة بغيره، فلا يكون موفياً لمعنى الله أكبر، ولا مؤدياً لحق هذا اللفظ، ولا أتى البيت من بابه، بل الباب عنه مسدود.

وهذا بإجماع السلف أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها وحضره بقلبه، وما أحسن ما قال أبو الفرج ابن الجوزي في بعض وعظه: حضور القلب أول منزل من منازل الصلاة، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى، فإذا رحلت عنها انخت بباب المناجاة، فكان أول قرى الضيف اليقظة، وكشف الحجاب لعين القلب، فكيف يطمع في دخول مكة من لا خرج إلى البادية، وقد تبعث قلبك في كل واد، فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك، فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه فتدخل في الصلاة بغير قلب.

والمقصود: أنه قبيح بالعبد أن يقول بلسانه: الله أكبر، وقد امتلأ قلبه بغير الله، فهو

قبلة قلبه في الصلاة، ولعله لا يحضر بين يدي ربه في شيء منها. فلو قضى حق: الله أكبر، وأتى البيت من بابه، لدخل، وانصرف بأنواع التحف والخيرات، فهذا الباب الذي يدخل منه المصلي وهو التحريم. وأما الباب الذي يخرج منه فهو باب السلام المتضمن أحد الأسماء الحسنى، فيكون مفتتحاً لصلاته باسمه ـ تبارك وتعالى ـ ومختتماً لها باسمه، فيكون ذاكرًا لاسم ربه أول الصلاة وآخرها، فأولها باسمه وآخرها باسمه وخرج منها باسمه، مع ما في اسم السلام من الخاصية والحكمة المناسبة لانصراف المصلي من بين يدي الله، فإن المصلي ما دام في صلاته بين يدي ربه فهو في حماه الذي لا يستطيع أحد أن يخفره، بل هو في حمى من جميع الآفات والشرور، فإذا انصرف من بين يديه ـ تبارك وتعالى ـ ابتدرته الآفات والبلايا والمحن، وتعرضت له من كل جانب، وجاءه الشيطان بمصائده وجنده، فهو متعرض لأنواع البلايا والمحن، فإذا انصرف من بين يدي الله مصحوباً بالسلام لم يزل عليه حافظ من الله إلى وقت الصلاة الأخرى. وكان من تمام النعمة عليه أن كون انصرافه من بين يدي ربه بسلام يستصحبه ويدوم له ويبقى معه، فتدبر هذا السر الذي لو لم يكن في هذا التعليق غيره لكان كافياً فكيف وفيه من الأسرار والفوائد ما لا يوجد عند أبناء الزمان والحمد في ذلك لله وحده. فكما أن المنعم به هو الله وحده، فالمحمود عليه هو الله وحده. وقد عرف بهذا جواب السؤال الثاني، وهو مجيء السلام هنا معرفًا. ليكون دالاً على اسمه السلام. وليكن هذا آخر الكلام في مسألة: سلام عليكم. فلولا قصد الاختصار لجاءت مجلداً ضخماً، هذا ولم نتعرض فيها إلى المسائل المسطورة في الكتب من فروع السلام ومسائله، فإنها مملوءة منها، فمن أرادها فليأخذها من هنا وهناك، والحمد لله رب العالمين.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

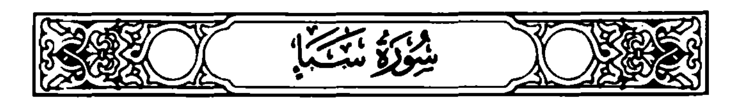
[1]هذه الأفعال أذى لله ورسوله قطعاً، بل أذى الله ورسوله يحصل بدونها. وقال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٢]، فيجب أن يكون هذا الملعون في الدنيا والآخرة عادم النصير بالكلية، فلو كان ماله ودمه معصومين لوجب على المسلمين نصرته، وكانوا كلهم أنصاره، وهذه مخالفة لقوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾ ...

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الأحزاب

والحمد لله رب العالمين



(١) ٨٢٨ أحكام أهل الذمة جـ٢.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾.

...[1]مما تقدم بالرتبة ذكر السمع والعلم حيث وقع؛ فإنه خبر يتضمن التخويف والتهديد فبدأ بالسمع لتعلقه بما قرب كالأصوات وهمس الحركات، فإن من سمع حسك وخَفِيَّ صوتك أقرب إليك في العادة ممن يقال لك: إنه يعلم، وإن كان علمه ـ تعالىٰ ـ متعلقاً بما ظهر وبطن وواقعاً علىٰ ما قرب وشطن، ولكن ذكر السميع أوقع في باب التخويف من ذكر العليم، فهو أولىٰ بالتقديم.

وأما تقديم الغفور علىٰ الرحيم فهو أولىٰ بالطبع؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة تطلب قبل الغنيمة. وفي الحديث أن النبي ﷺ، قال لعمرو بن العاص: «أبعثك وجهاً يسلمك الله فيه ويغنمك، وأرغب لك رغبة من المال»[2].

فهذا من الترتيب البديع بدأ بالسلامة قبل الغنيمة، وبالغنيمة قبل الكسب.

وأما قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢] في سبأ، فالرحمة هناك متقدمة علىٰ المغفرة، فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصهم.

والعموم بالطبع قبل الخصوص كقوله: ﴿ فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨].

---

(١) ٦٣ البدائع جـ١.

(٢) أخرجه ابن حبان (٨/ ٧ رقم ٣٢١١) وفي الموارد (رقم ٢٢٧٧) وأبو يعلىٰ (١٣/ ٣٢٠-٣٢١ رقم ٧٣٣٦) وابن أبي شيبة (٤/ ٤٦٧ رقم ٢٢١٨٨) وأحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩١٢ رقم ١٧٤٥).

وكقوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨].

[١] وأما تقديم الرحيم على الغفور في موضع واحد وهو أول سبأ ففيه معنى غير ما ذكره، يظهر لمن تأمل سياق أوصافه العلى؛ وأسمائه الحسنى في أول السورة إلى قوله وهو الرحيم الغفور.

فإنه ابتدأ ـ سبحانه ـ السورة بحمده الذي هو أعم المعارف وأوسع العلوم، وهو متضمن لجميع صفات كماله ونعوت جلاله مستلزم لها، كما هو متضمن لحكمته في جميع أفعاله وأوامره، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل ما خلقه وشرعه.

ثم عقب هذا الحمد بملكه الواسع المديد، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ١].

ثم عقبه بأن هذا الحمد ثابت له في الآخرة غير منقطع أبداً، وقرن بين الملك والحمد على عادته ـ تعالى ـ في كلامه، فإن اقتران أحدهما بالآخر له كمال زائد على الكمال بكل واحد منهما، فله كمال من ملكه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر؛ فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصاً، والحمد بلا ملك يستلزم عجزاً، والحمد مع الملك غاية الكمال.

ونظير هذه العزة والرحمة، والعفو والقدرة، والغنى والكرم، فوسط الملك بين الجملتين فجعله محفوفاً بحمد قبله وحمد بعده.

ثم عقب هذا الحمد والملك باسمي الحكيم الخبير الدالين على كمال الإرادة، وأنها لا تتعلق بمراد إلا لحكمة بالغة، وعلى كمال العلم، وأنه كما يتعلق بظواهر المعلومات فهو متعلق ببواطنها التي لا تدرك إلا بخبرة، فنسبة الحكمة إلى الإرادة كنسبة الخبرة إلى العلم، فالمراد ظاهر والحكمة باطنة، والعلم ظاهر والخبرة باطنة،

---

(١) ٧٩ البدائع جـ١.

فكمال الإرادة أن تكون واقعة على وجه الحكمة، وكمال العلم أن يكون كاشفاً عن الخبرة، فالخبرة باطن العلم وكماله، والحكمة باطن الإرادة وكمالها، فتضمنت الآية إثبات حمده وملكه وحكمته وعلمه على أكمل الوجوه.

ثم ذكر تفاصيل علمه بما ظهر وما بطن في العالم العلوي والسفلي، فقال: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ [سبأ: ٢].

ثم ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه، وهما الرحمة والمغفرة فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم، ويهب لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [سبأ: ٢].

فتضمنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمته ومغفرته، وهو ـ سبحانه ـ يقرن بين سعة العلم والرحمة، كما يقرن بين العلم والحلم.

فمن الأول قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧].

ومن الثاني: ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٢]، فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم، وحملة العرش أربعة اثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك، واثنان يقولان: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك(١).

فاقتران العفو بالقدرة كاقتران الحلم والرحمة بالعلم، لأن العفو إنما يحسن عند القدرة، وكذلك الحلم والرحمة إنما يحسنان مع العلم. وقدم الرحيم في هذا الموضع لتقدم صفة العلم، فحسن ذكر الرحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾. ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة، لتضمنها دفع الشر،

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٩/ ٧) من قول شهر بن حوشب وأبو الشيخ في العظمة (٣/ ٩٥٤ رقم ٤٨١) وابن أبي شيبة في العرش (رقم ٢٤) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٥) (٦/ ٧٤) كلهم أخرجوه بلفظ: «حملة العرش ثمانية: فأربعة منهم يقولون...».

وتضمن ما قبلها جلب الخير.

ولما كان دفع الشر مقدماً علي جلب الخير قدم اسم الغفور على الرحيم حيث وقع.

ولما كان في هذا الموضع تعارض يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدم على الغفور.

***

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾.

[(1)] أما تقديم السماء على الأرض ففيه معنى آخر غير ما ذكره، وهو أن غالباً تذكر السموات والأرض في سياق آيات الرب الدالة على وحدانيته وربوبيته.

ومعلوم أن الآيات في السموات أعظم منها في الأرض لسعتها وعظمها، وما فيها من كواكبها وشمسها وقمرها وبروجها، وعلوها واستغنائها عن عمد تقلها أو علاقة ترفعها، إلى غير ذلك من عجائبها التي الأرض وما فيها كقطرة في سعتها. ولهذا أمر ـ سبحانه ـ بأن يرجع الناظر البصر فيها كرة بعد كرة، ويتأمل استواءها واتساقها وبراءتها من الخلل والفطور، فالآية فيها أعظم من الأرض، وفي كل شيء له آية ـ سبحانه ـ وبحمده.

وأما تقديم الأرض عليها في قوله: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [يونس: ٦١] وتأخيرها عنها في سبأ، فتأمل كيف وقع هذا الترتيب في سبأ في ضمن قول الكفار: ﴿ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]. كيف قدم السموات هنا

(١) ٧٤ البدائع جـ١.

لأن الساعة إنما تأتي من قبلها وهي غيب فيها، ومن جهتها تبتدئ وتنشأ، ولهذا قدم صعق أهل السموات على أهل الأرض عندها، فقال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

أما تقديم الأرض على السماء في سورة يونس فإنه لما كان السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، وإعلامهم أنه ـ سبحانه ـ عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء. فتبارك من أودع كلامه من الحكم والأسرار والعلوم ما يشهد أنه كلام الله، وأن مخلوقاً لا يمكن أن يصدر منه مثل هذا الكلام أبداً[1].

[2]قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ بخلاف قوله في سبأ: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. فإن قبلها ذكر ـ سبحانه ـ سعة ملكه ومحله، وهو السموات كلها والأرض، ولما لم يكن في سورة يونس ما يقتضي أفردها إرادة للجنس.

***

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.

[3]قد شهد الله ـ سبحانه ـ لمن يرى أن ما جاء به الرسول من عند الله هو الحق، لا آراء الرجال بالعلم. فقال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦]. وقال تعالى: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ

---

(١) هذا البحث من المؤلف مبني على إيضاح المؤلف والسهيلي لما ذكره سيبويه (١/ ٦١) فإن شئت فارجع إليه فهو بحث مطول ومشوق. (ج).

(٢) ١١٦ البدائع جـ١.

(٣) ٦ الصواعق جـ١.

إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ﴾ [الرعد: ١٩]. فمن تعارض عنده ما جاء به الرسول وآراء الرجال فقدمها عليه أو توقف فيه أو قدحت في كمال معرفته، فهو أعمى عن الحق.

(١) إن الله ـ تعالى ـ شهد لهم بأنهم أوتوا العلم بقوله: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ [محمد: ١٦]. وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

واللام في «العلم» ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً.

***

﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

(٢) وصف الله ـ سبحانه ـ الشاكرين بأنهم قليل من عباده، فقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبا: ١٣].

وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه سمع رجلاً يقول: اللهم اجعلني من الأقلين فقال: ما هذا؟ فقال يا أمير المؤمنين: إن الله قال: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾. وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤] فقال عمر: صدقت(٣).

وقد أثني الله ﷻ على أول رسول بعثه إلى أهل الأرض بالشكر، فقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ

---

(١) ١٣١ الإعلام جـ٤.

(٢) ١٣٤ عدة الصابرين.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٦٥ رقم ٢٩٥١٤) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٨٢) إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمي رحمه الله.

حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ [الإسراء: ٣].

وفي تخصيص نوح هاهنا بالذكر وخطاب العباد بأنهم ذريته إشارة إلي الاقتداء به، فإنه أبوهم الثاني، فإن الله ـ تعالىٰ ـ لم يجعل للخلق بعد الغرق نسلاً إلا من ذريته، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧] فأمر الذرية أن يتشبهوا بأبيهم في الشكر فـ ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾.

وقد أخبر ـ سبحانه ـ إنما يعبده من شكره، فمن لم يشكره لم يكن من أهل عبادته، فقال: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وأمر عبده موسىٰ أن يتلقىٰ ما آتاه من النبوة والرسالة والتكليم بالشكر، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]. وأول وصية وصىٰ الله بها الإنسان بعد ما عقل عنه بالشكر به وللوالدين، فقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

وأخبر أن رضاه في شكره، فقال تعالىٰ: ﴿ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

وأثنىٰ ـ سبحانه ـ علىٰ خليله إبراهيم بشكر نعمه، فقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١]. فأخبر عنه ـ سبحانه ـ بأنه أمة أي قدوة يؤتم به في الخير، وأنه ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾، والقانت هو المطيع المقيم علىٰ طاعته، الحنيف هو المقبل علىٰ الله المعرض عما سواه، ثم ختم له بهذه الصفات بأنه ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ﴾، فجعل الشكر غاية خليله...

(١)وقال عبدالله بن أحمد حدثنا أبو موسىٰ الأنصاري حدثنا أبو الوليد عن سعيد بن عبدالعزيز قال: كان من دعاء داود: سبحان مستخرج الشكر بالعطاء، ومستخرج

---

(١) ١٣٢ عدة الصابرين.

الدعاء بالبلاء[(١)].

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثني الأعمش عن المنهال عن عبدالله بن الحارث قال: أوحى الله إلى داود: أحبني، وأحب عبادتي، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب هذا حبك وحب عبادتك، فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: تذكرني عندهم؛ فإنهم لا يذكرون مني إلا الحسن[(٢)]. فجل جلال ربنا وتبارك اسمه وتعالى جده وتقدست أسماؤه وجل ثناؤه ولا إله غيره.

وقال أحمد: حدثنا عبدالرزاق بن عمران قال: سمعت وهباً يقول: وجدت في كتاب آل داود: بعزتي إنه من اعتصم بي فإن كادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن فإني أجعل له من بين ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي فإني أقطع يديه من أسباب السماء،وأخسف به من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكله إلى نفسه، كفى بي لعبدي مآلاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيته قبل أن يسألني، وأجبته قبل أن دعوني، وإني أعلم بحاجته التي ترفق به من نفسه[(٣)].

وقال أحمد: حدثنا يسار، حدثنا حفص، حدثنا ثابت قال: كان داود عليه السلام قد جزأ ساعات الليل والنهار على أهله، فلم يكن ساعة من ليل أو نهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلي فيها، قال فعمهم ـ تبارك وتعالى ـ في هذه الآية: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣][(٤)].

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٠٦ رقم ٤٤٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٥) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٩٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٦٨ رقم ٣٤٢٥٤) وانظر: الدر المنثور (٧/ ١٧٣) وابن أبي الدنيا في الأولياء (رقم ٢٩).

(٣) أخرجه بنحوه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٢٩١٠ رقم ١٦٥٢٠) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٧١-٣٧٢) والدر المنثور (٥/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٣/ ١٥٥ رقم ٣١٨٧) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٢٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٧/ ٩٣) وانظر: فيض القدير (٤/ ٥٤٤).

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

[1]انقسام القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن والجعل والكلمات والبعث والإرسال والتحريم والإنشاء إلىٰ كوني متعلق بخلقه، وإلىٰ ديني متعلق بأمره، وما يحقق ذلك من إزالة اللبس والإشكال.

...فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من الديني فهو متعلق بإلاهيته وشرعه.

وهو كما أخبر عن نفسه ـ سبحانه ـ له الخلق والأمر، فالخلق قضاؤه وقدره وفعله، والأمر شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية علىٰ خلقه قدراً وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري.

وأما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق.

والأمران غير متلازمين، فقد يقضي ويقدر ما لا يأمر به ولا شرعه.

وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره.

ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم.

وينتفي الأمران عما لم يقع من المعاصي والفسق والكفر.

وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي في ما أمر به وشرعه ولم يفعله المأمور.

وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي.

إذا عرف ذلك فالقضاء في كتاب الله نوعان: كوني قدري كقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤]، وقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]. وشرعي ديني كقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: أمر وشرع ولو كان قضاء كونياً لما عبد غير الله.

---

(١) ٢٨٠ شفاء.

والحكم أيضاً نوعان فالكوني كقوله: ﴿ قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. أي: افعل ما تنصر به عبادك، وتخذل به أعداءك، والديني كقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ١].

وقد يرد بالمعنيين معاً كقوله: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٦]. فهذا يتناول حكمه الكوني وحكمه الشرعي. والإرادة أيضاً نوعان:

فالكونية كقوله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج: ١٦]. وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً ﴾ [الإسراء: ١٦]. وقوله: ﴿ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]. وقوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [القصص: ٥]. والدينية كقوله: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٧] فلو كانت هذه الإرادة كونية لما حصل العسر لأحد منا، ولوقعت التوبة من جميع المكلفين.

وبهذا التفصيل يزول الاشتباه في مسألة الأمر والإرادة، هل هما متلازمان أم لا.

فقالت القدرية الأمر يستلزم الإرادة، واحتجوا بحجج لا تندفع.

وقالت المثبتة الأمر لا يستلزم الإرادة، واحتجوا بحجج لا تندفع.

والصواب: أن الأمر يستلزم الإرادة الدينية، ولا يستلزم الإرادة الكونية، فإنه لا يأمر إلا بما يريده شرعاً وديناً، وقد يأمر مما لا يريده كونًا وقدرًا كإيمان من أمره ولم يوفقه للإيمان، مراد ديناً لا كوناً.

وكذلك أمر خليله بذبح ابنه ولم يرده كونًا وقدرًا، وأمر رسوله بخمسين صلاة ولم يرد ذلك كوناً وقدراً.

وبين هذين الأمرين وأمر من لم يؤمن بالإيمان فرق، فإنه ـ سبحانه ـ لم يحب من إبراهيم ذبح ولده، وإنما أحب منه عزمه على الامتثال وأن يوطن نفسه عليه. وكذلك أمره محمد ﷺ، ليلة الإسراء بخمسين صلاة.

وأما أمر من علم أنه لا يؤمن بالإيمان فإنه ـ سبحانه ـ يحب من عباده أن يؤمنوا به وبرسله، ولكن اقتضت حكمته أن أعان بعضهم على فعل ما أمره ووفقه له، وخذل بعضهم فلم يعنه ولم يوفقه، فلم تحصل مصلحة الأمر منهم وحصلت من الأمر بالذبح.

وأما الكتابة:

فالكونية كقوله: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الحج: ٤].

والشرعية الأمرية كقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣، ٢٤]. وقوله: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥]. فالأولى كتابة بمعنى القدر، والثانية: كتابة بمعنى الأمر.

والأمر الكوني كقوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وقوله: ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠]. وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وقوله: ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١]. وقوله: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا ﴾ [الإسراء: ١٦]. فهذا أمر تقدير كوني لا أمر ديني شرعي؛ فإن الله لا يأمر بالفحشاء، والمعنى قضينا ذلك وقدرناه.

وقالت طائفة بل هو أمر ديني، والمعنى أمرناهم بالطاعة فخالفونا وفسقوا.

والقول الأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الإضمار على خلاف الأصل، فلا يصار إليه إلا إذا لم يمكن تصحيح الكلام بدونه.

الثاني: أن ذلك يستلزم إضمارين. أحدهما أمرناهم بطاعتنا. والثاني: فخالفونا أو عصونا ونحو ذلك.

الثالث: أن ما بعد الفاء في مثل هذا التركيب هو المأمور به نفسه كقولك أمرته ففعل، وأمرته فقام، وأمرته فركب، لا يفهم المخاطب غير هذا.

الرابع: أنه ـ سبحانه ـ جعل سبب هلاك القرية أمره المذكور.

ومن المعلوم أن أمره بالطاعة والتوحيد لا يصلح أن يكون سبب الهلاك، بل هو سبب للنجاة والفوز.

فإن قيل أمره بالطاعة مع الفسق هو سبب الهلاك: قيل: هذا يبطل بالوجه.

الخامس: وهو أن هذا الأمر لا يختص بالمترفين بل هو ـ سبحانه ـ يأمر بطاعته واتباع رسله المترفين وغيرهم، فلا يصح تخصيص الأمر بالطاعة بالمترفين يوضحه.

الوجه السادس: أن الأمر لو كان بالطاعة لكان هو نفس إرسال رسله إليهم، ومعلوم أنه لا يحسن أن يقال أرسلنا رسلنا إلىٰ مترفيها ففسقوا فيها؛ فإن الإرسال لو كان إلىٰ المترفين لقال من عداهم نحن لم يرسل إلينا.

السابع: أن إرادة الله ـ سبحانه ـ لإهلاك القرية إنما يكون بعد إرسال الرسل إليهم وتكذيبهم، وإلا فقيل ذلك هو لا يريد إهلاكهم لأنهم معذورون بغفلتهم وعدم بلوغ الرسالة إليهم. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

فإذا أرسل الرسل فكذبوهم إراد إهلاكها فأمر رؤساءها ومترفيها أمراً كونياً قدرياً شرعياً دينياً بالفسق في القرية، فاجتمع أهلها علىٰ تكذيبهم وفسق رؤسائهم، فحينئذ جاءها أمر الله وحق عليها قوله بالإهلاك.

والمقصود ذكر الأمر الكوني والديني.

ومن الديني قوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]. وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨] وهو كثير.

وأما الإذن الكوني فكقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: بمشيئته وقدره.

وأما الديني فكقوله: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥] أي: بأمره ورضاه وقوله: ﴿ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]. وقوله: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١].

وأما الجعل الكوني فكقوله: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ [يس: ٨، ٩].

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٠٠]. وقوله: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ [النحل: ٧٢] وهو كثير.

وأما الجعل الديني فكقوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ [المائدة: ١٠٣] أي: ما شرع ذلك ولا أمر به، وإلا فهو مخلوق له واقع بقدره ومشيئته. وأما قوله: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ [المائدة: ٩٧]. فهذا يتناول الجعلين، فإنها جعلها كذلك بقدره وشرعه، وليس هذا استعمالاً للمشترك في معنييه، بل إطلاق اللفظ وإرادة القدر المشترك بين معنييه فتأمله.

وأما الكلمات الكونية فكقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ٣٣]. وقوله: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف: ١٣٧]. وقوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق»[1] فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكون، ولو كانت الكلمات الدينية هي التي يأمر بها وينهى لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار.

وأما الديني فكقوله: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٦]. والمراد به القرآن، وقوله ﷺ في النساء: «واستحللتم فروجهن بكلمة

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٥١ رقم ٢٣٦٠) وأحمد (٣/ ٤١٩).

الله»[١] أي: بإباحته ودينه وقوله: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء: ٣] وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ [التحريم: ١٢]. فكتبه كلماته التي يأمر بها وينهي ويحل ويحرم، وكلماته التي يخلق بها ويكون، فأخبر أنها ليست جهمية تنكر كلمات دينه وكلمات تكوينه، وتجعلها خلقاً من جملة مخلوقاته.

وأما البعث الكوني فكقوله: ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ [الإسراء: ٥]. وقوله: ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٣١].

وأما البعث الديني فكقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة: ٢]. وقوله: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأما الإرسال الكوني فكقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. وقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ [الفرقان: ٤٨].

وأما الديني فكقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [التوبة: ٣٣]. وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [المزمل: ١٥].

وأما التحريم الكوني فكقوله: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص: ١٢]. وقوله: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ [المائدة: ٢٦]. قوله: ﴿ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. وأما التحريم الديني فكقوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]. و﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ [المائدة: ٩٦]. ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وأما الإيتاء الكوني فكقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. وقوله:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٢١٨) وانظر: شرح النووي (٨/ ١٨٣).

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقوله: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٥٤]. وأما الإيتاء الديني فكقوله: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر: ٧]. وقوله: ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف: ١٧١]. وأما قوله: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩]. فهذا يتناول النوعين، فإنه يؤتيها من يشاء أمراً وديناً، وتوفيقاً وإلهاماً.

وأنبياؤه ورسله وأتباعهم حظهم من هذه الأمور الديني منها، وأعداؤه واقفون مع القدر الكوني، فحيث ما مال القدر مالوا معه، فدينهم دين القدر، ودين الرسل وأتباعهم دين الأمر. فهم يدينون بأمره، ويؤمنون بقدره، وخصماء الله يعصون أمره، ويحتجون بقدره لا يقولون نحن واقفون مع مراد الله. نعم مع مراده الكوني أو الديني[1] ولا ينفعكم وقوفكم مع المراد الكوني ولا يكون ذلك عذراً لكم عنده، إذ لو عذر بذلك لم يذم أحداً من خلقه ولم يعاقبه، ولم يكن في خلقه عاص ولا كافر، ومن زعم ذلك فقد كفر بالله وكتبه كلها وجميع رسله، وبالله التوفيق.

[2]وسئل ﷺ عن سبأ: هل هو أرض أم امرأة، فقال: **«ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب؛ فتيامن منهم ستة، وتشاءم منهم أربعة؛ فأما الذين تشاءموا فلخْم وجذام وغسان وعاملة، وأما الذين تيامنوا فالأزد والأشعريون وحمير وكندة ومذحج وأنمار»** فقال رجل: يا رسول الله وما أنمار؟ فقال: **«الذين منهم خثعم وبجيلة»**[3].

***

(١) كذا وقع في نسخة الشيخ علي الصالحي رحمه الله. والصواب: «... ويقولون ... نعم مع مراده الكوني لا الديني...» انظر: طبعة «شفاء العليل» المحققة (٢/ ٢٩٦).

(٢) ٢٧٣ الإعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٢٢) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٣٢١ رقم ١٦٩٩) والطبراني في الكبير (١٨/ ٣٢٤ رقم ٨٣٥) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٥٩ رقم ٤٤٨) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٣٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

[1] وهاهنا نكتة بديعة يجب التفطن لها، وينبغي إخلاء القلب لتأملها، وهي أن هذا المغرور لما أذل سلطان الله الذي أعزه به وشرفه ورفع به قدره وسلمه في يد أبغض أعدائه إليه، وجعله أسيراً له تحت قهره وتصرفه وسلطانه، سلط الله عليه من كان حقه هو أن يتسلط عليه، فجعله تحت قهره وتصرفه وسلطانه، يسخره حيث شاء ويسخر منه، ويسخر منه جنده وحزبه، فكما أذل سلطان الله وسلمه إلىٰ عدوه أذله الله وسلط عليه عدوه الذي أمره أن يتسلط هو عليه ويذله ويقهره، فصار بمنزلة من سلم نفسه إلىٰ أعدىٰ عدو له يسومه سوء العذاب، وقد كان بصدد أن يستأسره ويقهره ويشفي غيظه منه، فلما ترك مقاومته ومحاربته واستسلم له سلط عليه عقوبة له. قال الله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَٰنِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَالَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٠]. فإن قيل: فقد أثبت له علىٰ أوليائه هاهنا سلطاناً فكيف نفاه بقوله تعالىٰ حاكياً عنه مقرراً له: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢٠، ٢١].

قيل السلطان الذي أثبته له عليهم غير الذي نفاه من وجهين:

---

(١) ٢٢ الجواب.

أحدهما: أن السلطان الثابت هو سلطان التمكن منهم، وتلاعبه بهم، وسوقه إياهم كيف أراد بتمكينهم إياه من ذلك بطاعته وموالاته، والسلطان الذي نفاه سلطان الحجة، فلم يكن لإبليس عليهم من حجة يتسلط بها غير أن دعاهم فأجابوه بلا حجة ولا برهان.

الثاني: إن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداء البتة، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته؛ فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم.

والمقصود: أن من قصد أعظم أوليائه وأحبابه ونصحائه فأخذه وأخذ أولاده وحاشيته وسلمهم إلى عدوه كان من عقوبته أن يسلط عليه ذلك العدو نفسه.

***

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

..[(١)]حججه سبحانه العقلية التي في كتابه جمعت بين كونها عقلية سمعية ظاهرة واضحة قليلة المقدمات، مثل قوله تعالى فيما حاج به عباده من إقامة التوحيد وبطلان الشرك وقطع أسبابه وحسم مواده كلها: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فتأمل كيف أخذت هذه الآية على المشركين مجامع الطرق التي دخلوا منها إلى

(١) ٩٤ الصواعق جـ١.

الشرك، وسد بها عليهم أبلغ سد وأحكمه، فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو كان لا يرجو منفعة لم يتعلق قلبه به.

وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابده، أو شريكاً لمالكها، أو ظهيراً أو وزيراً، أو معاوناً له، أو وجيها ذا حرمة وقدر يشفع عنده.

فنفى ـ سبحانه ـ عن ألهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض. فقد يقول المشرك: هي شريكة المالك الحق، فنفى شركها له.

فيقول المشرك: قد يكون ظهيراً أو زيراً أو معاوناً، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾. ولم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، فإن لم يأذن للشافع لم يتقدم بالشفاعة بين يديه، كما يكون في حق المخلوقين، فإن المشفوع عنده يحتاج إلى الشافع ومعاونته له، فيقبل شفاعته وإن لم يأذن له فيها. وأما من كل ما سواه فقير إليه بذاته، فهو الغني بذاته عن كل ما سواه، فكيف يشفع عنده أحد بغير إذنه؟

(١)وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التي تعلق بها المشركون جميعاً، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه: أن من تخذ من دون الله وليًّا، أو شفيعاً. فهو: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]. فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢، ٢٣].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع. والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع:

---

(١) ٣٤٣ المدارج جـ١.

إما مالك لما يريده عابده منه. فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده.

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً، متنقلاً من الأعلى إلى ما دونه، فنفى الملك، والشركة، والمظاهرة، والشفاعة، التي يظنها المشرك. وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً، وبرهاناً ونجاة، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونه في نوع وفي قوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً. وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن.

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم، أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك. ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تنقض عُرى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك، وما عابه القرآن وذمه: وقع فيه وأقره، ودعا إليه وصوَّبه وحسَّنه. وهو لا يعرف: أنه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية، أو نظيره. أو شر منه، أو دونه. فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه، ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنة، والسنة بدعة، ويكفر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد. ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ، ومفارقة الأهواء والبدع. ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً، والله المستعان.

[1]قال البخاري حدثنا الحميدي وعلي بن المديني قالا حدثنا سفيان حدثنا عمرو ابن دينار قال: سمعت عكرمة يقول: سمعت أبا هريرة يحدث أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله،

(١) ٢٧٨ الصواعق جـ٢.

كأنه سلسلة على صفوان فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا الحق وهو العلي الكبير»[١]. الحديث رواه النسائي في التفسير وابن ماجه وأبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

وروى أبو داود من حديث علي بن الحسين بن أشكاب حدثنا أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجرد السلسلة على الصفا، فيصعقون ولا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبرائيل، فإذا جاءهم جبرائيل فزع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبرائيل، ماذا قال ربكم؟ قال: الحق، فينادون: الحق الحق»**[٢]. وهذا الإسناد كلهم أئمة ثقات.

وقد فسر الصحابة هذه الآية بما يوافق هذا الحديث الصحيح.

فقال أبوبكر بن مردويه في تفسيره: حدثنا أحمد بن كامل بن خلف حدثنا محمد بن سعد حدثنا أبي حدثنا عمي حدثنا أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبا: ٢٣]. قال: لما أوحى الجبار ـ جل جلاله ـ إلى محمد ﷺ، دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم فسألوا عما قال الله تعالى قالوا: الحق. علموا أن الله ـ تعالى ـ لا يقول إلا حقاً، وأنه منجز ما وعد. قال ابن عباس: وصوت الوحي كصوت الحديد على الصفا، فلما سمعوه خروا سجداً، فلما رفعوا رؤوسهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير[٣]، وهذا إسناد معروف يروي به ابن جرير وابن أبي حاتم وعبد بن حميد وغيرهم التفسير وغيره عن ابن عباس، وهو إسناد متداول بين أهل العلم وهم ثقات...

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٠١) وانظر: فتح الباري (٨/ ٥٣٨).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٣٨) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٤٥٦-٤٥٨).

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٩٧) إلى ابن أبي حاتم وابن مردويه.

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾.

[1]إن قيل: هل يظهر فرق بين قوله ـ تعالى ـ في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [يونس: ٣١]. وبين قوله في سورة سبأ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ [سبأ: ٢٤]. قيل: هذا من أدق هذه المواضع وأغمضها وألطفها فرقاً، فتدبر السياق تجده نقيضاً لما وقع، فإن الآيات التي في يونس سيقت مساق الاحتجاج عليهم بما أقروا به، ولم يمكنهم إنكاره من كون الرب ـ تعالى ـ هو رازقهم ومالك أسماعهم وأبصارهم ومدبر أمورهم وغيرها ومخرج الحي من الميت والميت من الحي، فلما كانوا مقربن بهذا كله حسن الاحتجاج به عليهم: إن فاعل هذا هو الله الذي لا إله غيره، فكيف يعبدون معه غيره، ويجعلون له شركاء لا يملكون شيئاً من هذه، ولا يستطيعون فعل شيء منه؟ ولهذا قال بعد أن ذكر ذلك من شأنه تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١]. أي: لابد أنهم يقرون بذلك ولا يجحدونه، فلابد أن يكون المذكور مما يقرون به. والمخاطبون المحتج عليهم بهذه الآية إنما كانوا مقرين بنزول الرزق من قبل هذه السماء التي يشاهدونها بالحس، ولم يكونوا مقرين ولا عالمين بنزول الرزق من سماء إلى سماء حتى تنتهي إليهم، ولم يصل علمهم إلى هذا فأفردت لفظ السماء هنا، فإنهم لا يمكنهم إنكار مجيء الرزق منها لاسيما، والرزق ههنا إن كان هو المطر فمجيئه من السماء التي هي السحاب، فإنه يسمي سماء لعلوه، وقد أخبر ـ سبحانه ـ أنه بسط السحاب في السماء بقوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [الروم: ٤٨].

(١) ١١٧ البدائع جـ١.

والسحاب إنما هو مبسوط في جهة العلو لا في نفس الفلك، وهذا معلوم بالحس، فلا يلتفت إلى غيره[١].

***

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾.

[٢]هذا إخبار من الله وتحذير بأن المتبوعين والتابعين اشتركوا في العذاب، ولم يغن عنهم تقليدهم شيئاً. وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وصح عن النبي ﷺ، أنه قال: **«من دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل أوزار من اتبعه، ولا ينقص من أوزارهم شيئاً»**[٣]. وهذا يدل على أن كفر من اتبعهم إنما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم.

نعم لابد في هذا المقام من تفصيل به يزول الإشكال، وهو الفرق بين مقلد تمكن من العلم ومعرفة الحق فأعرض عنه. ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه. والقسمان واقعان في الوجود، فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله، وأما العاجز عن السؤال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان إيضاً:

(١) تكملة البحث تقدم في سورة يونس (ج).
(٢) ٤١٢ الهجرتين.
(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٧٤) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٠٢) وشرح النووي (١٦/ ٢٢٦-٢٢٧).

أحدهما: مريد للهدىٰ مؤثر له محب له، غير قادر عليه ولا علىٰ طلبه لعدم من يرشده، فهذا حكمه أرباب الفترات، ومن لم تبلغه الدعوة.

الثاني: معرض لا إرادة له، ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه. فالأول يقول: يا رب لو أعلم لك ديناً خيراً مما أنا عليه لدنت به وتركت ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوىٰ ما أنا عليه ولا أقدر علىٰ غيره، فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي. والثاني: راض بما هو عليه لا يؤثر غيره عليه، ولا تطلب نفسه سواه، ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته، وكلاهما عاجز، وهذا لا يجب أن يلحق بالأول لما بينهما من الفرق. فالأول كمن طلب الدين في الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزًا وجهلًا. والثاني: كمن لم يطلبه، بل مات علىٰ شركه ـ وإن كان لو طلبه لعجز عنه، ففرق بين عجز الطالب وعجز المعرض. فتأمل هذا الموضع، والله يقضي بين عباده يوم القيامة بحكمه وعدله، ولا يعذب إلا من قامت عليه حجته بالرسل، فهذا مقطوع به في جملة الخلق. وأما كون زيد بعينه وعمرو قامت عليه الحجة أم لا، فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله وبين عباده فيه، بل الواجب علىٰ العبد أن يعتقد أن كل من دان بدين غير دين الإسلام فهو كافر، وأن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه بالرسول. هذا في الجملة، والتعيين موكول إلىٰ علم الله وحكمه. هذا في أحكام الثواب والعقاب، وأما في أحكام الدنيا لهم حكم أوليائهم. وبهذا التفصيل يزول الإشكال في المسألة. وهو مبني علىٰ أربعة أصول:

أحدها: أن الله ﷻ لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال تعالى: ﴿رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وقال تعالىٰ: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الملك: ٨-٩].

وقال تعالىٰ: ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١١] وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة، وهو المذنب الذي يعترف بذنبه.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الزخرف:٧٦]، والظالم من عرف ما جاء به الرسول أو تمكن من معرفته بوجه، وأما من لم يعرف ما جاء به الرسول وعجز عن ذلك فكيف يقال إنه ظالم؟[١]

[٢]وأما تقديم المال على الولد فلم يطرد في القرآن، بل قد جاء مقدماً كذلك في قوله: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقوله: ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال: ٢٨]. وقوله: ﴿ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون: ٩]. وجاء ذكر البنين مقدماً كما في قوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ [التوبة: ٢٤]. وقوله: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٤] فأما تقديم الأموال في تلك المواضع الثلاثة، فلأنها ينتظمها معنى واحد، وهو التحذير من الاشتغال بها والحرص على تحصيلها حتى يفوته حظه من الله والدار الآخرة، فهي في موضع عن الالتهاء بها.

وأخبر في موضع أنها فتنة، وأخبر في موضع آخر أن الذي يقرب عباده إليه إيمانهم

---

(١) تقدم البحث كاملًا في سورة الأعراف. (ج).

(٢) ٧٤ البدائع جـ١.

وعملهم الصالح، لا أموالهم ولا أولادهم، ففي ضمن هذا: النهي عن الاشتغال بها عما يقرب إليه. ومعلوم أن اشتغال الناس بأموالهم والتلاهي بها أعظم من اشتغالهم بأولادهم. وهذا هو الواقع حتى إن الرجل ليستغرقه اشتغاله بماله عن مصلحة ولده وعن معاشرته وقربه.

***

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

[1]ذكر البيهقي حديث الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في هذه الآية: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١]. إلا أنه قال: أتي بفرس فحمل عليه، قال: كل خطوة منتهى أقصى بصره، فسار وسار معه جبريل، فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟! قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، يضاعف لهم الحسنة بسبعمائة: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩]. ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر، كلما رضخت عادت كما كانت، لا يفتر عنهم شيء من ذلك، قال: يا جبريل من هؤلاء؟! قال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة.

قال: ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع، يسرحون كما تسرح الأنعام على الضريع والزقوم ورضف جهنم وحجارتها، قال: ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم وما ظلمهم الله، وما الله بظلام للعبيد[2]...

***

(١) ٧٣ الروح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٦-٧) وفي تهذيب الآثار (١/ ٤٣٣-٤٣٤ رقم ٧٢٧).

﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾.

(١) ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق حالتان:

إحداهما: أن يكون مناظراً مع نفسه. الثانية: أن يكون مناظراً مع غيره، فأمرهم بخصلة واحدة، وهي أن يقوموا الله اثنين اثنين، فيتناظران ويتساءلان بينهما واحداً وأحداً، يقوم كل واحد مع نفسه، فيتفكر في أمر هذه الداعي وما يدعو إليه ويستدعي أدلة الصدق والكذب، ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال. فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف البين والنصح التام.

***

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

كمال هذه السعادة بأمرين آخرين: أحدهما دعوة الخلق إليه. والثاني صبره واجتهاده على تلك الدعوة. فانحصر الكمال الإنساني في هذه المراتب الأربعة:

إحداها: العلم بما جاء به الرسول ﷺ، والثانية العمل به. والثالثة نشره في الناس ودعوتهم إليه. والرابعة صبره واجتهاده في أدائه وتنفيذه. ومن طلعت همته إلى معرفة ما كان عليه الصحابة ﷺ وأراد اتباعهم، فهذه طريقتهم حقاً:

فإن شئت وصل القوم فاسلك سبيلهم فقد وضحت للسالكين عياناً

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبأ: ٥٠]. فهذا نص صريح ففي أن هدي الرسول ﷺ، إنما يحصل بالوحي، فيا عجباً، كيف يحصل الهدى لغيره من الآراء والعقول المختلفة والأقوال المضطربة؟ ولكن: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن

---

(١) ١٠٠ الصواعق جـ١.

تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧] فأي ضلال أعظم من ضلال من زعم أن الهداية لا تحصل بالوحي. ثم يحيل فيها على عقل فلان ورأي فلان، وقول زيد وعمرو؟ ولقد عظمت نعمة الله على عبد عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين.

***

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

[(١)] جعل الله ﷻ مفارقة المشتهيات من أعظم العقوبات. فقال تعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥٤] فالفرح والسرور: بالظفر بالمحبوب. والهم والغم والحزن والأسف: بفوات المحبوب. فأطيب العيش: عيش المحب الواصل إلى محبوبه. وأمرُّ العيش: عيش من حيل بينه وبين محبوبه.

[(٢)] قوله ﷻ: ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾ [مريم: ٦٩]. فالشيعة الفرقة التي شايع بعضها بعضًا، أي: تابعه، ومنه الأشياع أي الأتباع. فالفرق بين الشيعة والأشياع: أن الأشياع هم التبع، الشيعة القوم الذين شايعوا أي: تبع بعضهم بعضاً، وغالب ما يستعمل في الذم، ولعله لم يرد في القرآن إلاكذلك كهذه الآية وكقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقوله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾. وذلك والله أعلم لما في لفظ الشيعة من الشياع والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع. ولهذا لا يطلق الشيع إلا على

(١) ٣٠ التبوكية، طبعة دار المدني، بتقديم الدكتور محمد جميل غازي رحمه الله.
(٢) ١٤٠ بدائع الفوائد جـ١ طبعة دار الخير بتحقيق معروف زريق ومحمد وهبي سليمان وعلي عبد الحميد بلطه جي.

فرق الضلال لتفرقهم واختلافهم. والمعنى لننزعن من كل فرقة أشدهم عتواً على الله وأعظمهم فساداً فنلقيهم في النار.

وفيه إشارة إلى العذاب يتوجه إلى السادات أولاً، ثم تكون الأتباع تبعاً لهم فيه، كما كانوا تبعاً لهم في الدنيا

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة سبأ

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ فَاطِرٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُولِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ﴾.

(١) أما الجمال الظاهر فزينة خصَّ الله بها بعض الصور عن بعض، وهي من زيادة الخلق التي قال الله تعالىٰ فيها: ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر: ١]. قالوا: هو الصوت الحسن والصورة الحسنة. والقلوب كالمطبوعة علىٰ محبته، كماهي مفطورة علىٰ استحسانه. وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ، أنه قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» قالوا: يا رسول الله: الرجل يحب أن يكون نعله حسنة وثوبه حسنًا، فذلك من الكبر؟ قال: «لا؛ إن الله جميل يحبُّ الجمال، والكبر بطر الحق وغمط الناس»(٢) فبطر الحق جحده ودفعه بعد معرفته، وغمط الناس النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم. ولا بأس بهذا إذا كان لله.

وعلامته أن يكون لنفسه أشد ازدراء واستصغاراً منه لهم. فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذي لا يدخل صاحبه الجنة.

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ عبده، فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً علىٰ عبده يوجب شكراً...

***

﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾.

---

(١) ٢٣٧ روضة المحبين.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٩١) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٥٩-٢٦٠) وشرح النووي (٢/ ٨٩-٩١).

[1]العبد لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع إلا بإذن الله، فالأمر كله لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، هو مقلب القلوب، ومصرفها كيف يشاء، المتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع والخفض والرفع، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين.

وهذا الوجه أعظم لعموم الناس من الوجه الأول، ولهذا خوطبوا في القرآن أكثر من الأول، لكن من تدبر طريقة القرآن له أن الله ـ سبحانه ـ يدعو عباده بهذا إلى الوجه الأول، فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به، والدعاء له، ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضاً محبته وعبادته لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، فإذا عبده وأحبه وتوكل عليه من هذا الوجه دخل في الوجه الأول.

وهكذا من نزل به بلاء عظيم وفاقة شديدة، أو خوف مقلق فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذيذ مناجاته له باب الإيمان به، والإنابة إليه، وما هو أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولاً، لكنه لم يكن يعرف ذلك أولاً حتى يطلبه ويشتاق إليه، فعرفه إياه بما أقامه له من الأسباب التي أوصلته إليه. والقرآن مملوء من ذكر حاجة العبيد إلى الله دون ما سواه من ذكر نعمائه عليهم، وذكر ما وعدهم به في الآخرة من صنوف النعيم واللذات..

***

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾.

..[2]بالجملة: من نظر في الموجودات، ولم يقنع بمجرد النظر إليها وحدها: وجدها دالة على أن وراء هذه الحياة حياة أخرى أكمل منها. وأن هذه الحياة بالنسبة إليها كالمنام بالنسبة إلى اليقظة، وكالظل بالنسبة إلى الشخص.

---

(١) ٦٠ طريق الهجرتين.

(٢) ٢٧٩ مدارج جـ٣.

وسمعها كلها تنادي بما نادىٰ به ربها وخالقها وفاطرها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

وتنادي بلسان الحال؛ بما نادىٰ به ربها بصريح المقال: ﴿ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ مِمَّا يَأۡكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلۡأَنۡعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]. ثم ندبهم إلىٰ المسابقة إلىٰ الدار الآخرة الباقية التي لا زوال لها، فقال: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

***

﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦ ﴾.

[(١)]...منها حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت. ولكان

(١) ١٩٦ مدارج جـ٢.

الحاصل بعضها، لا كلها فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها: من الموالاة فيه سبحانه والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، وبذل النفس له في محاربة عدوه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوىٰ، وإيثار محاب الرب علىٰ محاب النفس.

ومنها: عبودية التوبة، والرجوع إليه واستغفاره. فإنه سبحانه يحب التوابين، ويحب توبتهم، فلو عطلت الأسباب التي يتاب منها لتعطلت عبودية التوبة والاستغفار منها.

ومنها: عبودية مخالفة عدوه، ومراغمته في الله، وإغاظته فيه؛ وهي من أحب أنواع العبودية إليه، فإنه سبحانه يحب من وليه أن يغيظ عدوه ويراغمه ويسوءه. وهذه عبودية لا يتفطن لها إلا الأكياس.

ومنها: أن يتعبد له الاستعاذة من عدوه، وسؤاله أن يجيره منه، ويعصمه من كيده وأذاه.

ومنها: أن عبيده يشتد خوفهم وحذرهم إذا رأوا ما حلَّ بعدوه بمخالفته، وسقوطه من المرتبة الملكية إلىٰ المرتبة الشيطانية. فلا يخلدون إلىٰ غرور الأمل بعد ذلك.

ومنها: أنهم ينالون ثواب مخالفته ومعاداته، الذي حصوله مشروط بالمعاداة والمخالفة. فأكثر عبادات القلوب والجوارح مرتبة علىٰ مخالفته.

ومنها: أن نفس اتخاذه عدواً من أكبر أنواع العبودية وأجلها. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] فاتخاذه عدواً أنفع شيء للعبد، وهو محبوب للرب.

ومنها: أن الطبيعة البشرية مشتملة علىٰ الخير والشر، والطيب والخبيث. وذلك كان فيها كمون النار في الزناد. فخلق الشيطان مستخرجاً لما في طبائع أهل الشر من القوة إلىٰ الفعل. وأرسلت الرسل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلىٰ الفعل. فاستخرج أحكم الحاكمين ما في قوىٰ هؤلاء من الخير الكامن فيها، ليترتب عليه

آثاره، وما في قوىٰ أولئك من الشر، ليترتب عليه آثاره. وتظهر حكمته في الفريقين. وينفذ حكمه فيهما. ويظهر ما كان معلوماً له مطابقاً لعلمه السابق. وهذا هو السؤال الذي سألته ملائكته حين قالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠]. فظنت الملائكة أن وجود من يسبح بحمده ويطيعه ويعبده أولىٰ من وجود من يعصيه ويخالفه. فأجابهم سبحانه بأنه يعلم من الحكم والمصالح والغايات المحمودة في خلق هذا النوع ما لا تعلمه الملائكة.

ومنها: أن ظهور كثير من آياته وعجائب صنعه: حصل بسبب وقوع الكفر والشر من النفوس الكافرة الظالمة: كآية الطوفان، وآية الريح، وآية هلاك ثمود وقوم لوط، وآية انقلاب النار علىٰ إبراهيم برداً وسلاماً، والآيات التي أجراها الله ـ تعالىٰ ـ علىٰ يد موسىٰ، وغير ذلك من آياته التي يقول ـ سبحانه ـ عقيب ذكر كل آية منها في سورة الشعراء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٧٤ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشعراء: ١٧٤-١٧٥] فلولا كفر الكافرين، وعناد الجاحدين، لما ظهرت هذه الآيات الباهرة، التي يتحدث بها الناس جيلاً بعد جيل إلىٰ الأبد.

ومنها: أن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضاً، ويكسر بعضها بعضاً: هو من شأن كمال الربوبية، والقدرة النافذة، والحكمة التامة، والملك الكامل ـ وإن كان شأن الربوبية كاملاً في نفسه، ولو لم تخلق هذه الأسباب ـ لكن خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته. فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشهادة: تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته. فتعمير مراتب الغيب والشهادة بأحكام الصفات من آثار الكمال الإلهي المطلق بجميع وجوهه وأقسامه وغاياته. وبالجملة: فالعبودية والآيات والعجائب التي ترتبت علىٰ خلق ما لا يحبه ولا يرضاه وتقديره ومشيئته: أحب إليه ﷻ من فواتها، وتعطيلها بتعطيل أسبابها...

***

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾.

[١]المعصية تورث الذل ولابد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠] أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجدها إلا في طاعته.

وكان من دعاء بعض السلف: اللهم أعزني بطاعتك ولا تذلني بمعصيتك. قال الحسن البصري: إنهم إن طقطقت بهم البغال، وهملجت بهم البراذين، فإن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم، أبى الله إلا أن يذل من عصاه[٢]. وقال عبدالله بن مبارك:

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها[٣]

***

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

[٤]بين ـ سبحانه ـ في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتي له، فغناه وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه. وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث ولا إمكان، بل هو ذاتي

---

(١) ١٧٦ الجواب الكافي.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢/ ٢٤٩).

(٣) هذه الأبيات من بحر المتقارب. وفيها: ويتبعها الذل إدمانها ـ وهل بدل الدين إلا الملوك. وهذه الأبيات ذكرها البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٦٤ رقم ٧٣٠٠) وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٧٩) وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق (٣٢/ ٤٦٨).

(٤) ٨ طريق الهجرتين.

للفقير: فحاجة العبد إلىٰ ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة. كما أن غنىٰ الرب ـ سبحانه ـ لذاته لا لأمر أوجب غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنىٰ أبداً وصف له ذاتي[1]

فالخلق فقير محتاج إلىٰ ربه بالذات لا بعلة، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة علىٰ الفقر والحاجة لا علل لذلك، إذ ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلىٰ الغني بذاته، فما يذكر من إمكان وحدوث واحتياج فهي أدلة علىٰ الفقر لا أسباب له.

ولهذا كان الصواب في مسألة علة احتياج العالم إلىٰ الرب ـ سبحانه ـ غير القولين اللذين يذكرهما الفلاسفة والمتكلمون. فإن الفلاسفة قالوا: علة الحاجة الإمكان. والمتكلمون قالوا: علة الحاجة الحدوث، والصواب أن الإمكان والحدوث متلازمان، وكلاهما دليل الحاجة والافتقار.

وفقر العالم إلىٰ الله سبحانه أمر ذاتي لا يعلل، فهو فقير بذاته إلىٰ ربه الغني بذاته، ثم يستدل بإمكانه وحدوثه وغير ذلك من الأدلة علىٰ هذا الفقر.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد، فالفقر المطلق منكل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنىٰ المطلق من كل وجه ثابت لذاته ـ تعالىٰ ـ وحقيقته من حيث هي، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيراً، ويستحيل أن يكون الرب ـ سبحانه ـ إلا غنياً، كما أنه يستحيل أن يكون العبد إلا عبداً والرب رباً، إذا عرف هذا، فالفقر فقران: فقر اضطراري، وهو فقر عام لا خروج لبر ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحاً ولا ذماً ولا ثواباً ولا عقاباً، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقاً مصنوعاً.

---

(١) انظر: نصيحة أهل الحديث للخطيب البغدادي (صـ ٤٩).

والفقر الثاني: فقر اختياري، هو نتيجة علمين شريفين: أحدهما معرفة العبد بربه، والثاني: معرفته بنفسه. فمتىٰ حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقراً هو عين غناه، وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين. فمن عرف ربه بالغنىٰ المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق. ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام. ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة. ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله ـ سبحانه ـ أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئاً، ولا يقدر علىٰ شيء، ولا يملك شيئاً، ولا يقدر علىٰ عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلىٰ ما به كماله أمراً مشهوداً محسوساً لكل أحد.

ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها. وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلىٰ رتبة الربوبية والغنىٰ، بل لم يزل عبداً فقيراً بذاته إلىٰ بارئه وفاطره. فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهراً وباطناً، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلمه وأقدره وصرفه وحركه، ومكنه من استخدام بني جنسه، وسخر له الخيل والإبل، وسلطه علىٰ دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء،وقهر الوحش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحيل علىٰ مصالحه، والتحرز والتحفظ لما يؤذيه، ظن المسكين أن له نصيباً من الملك، وادعىٰ لنفسه ملكاً مع الله ـ سبحانه ـ ورأىٰ نفسه بغير تلك العين الأولىٰ، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتىٰ كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصاً آخر غيره.

كما روىٰ الإمام أحمد في مسنده من حديث بشر بن جحاش القرشي: أن رسول الله ﷺ، بصق يوماً في كفه فوضع عليها إصبعه، ثم قال: «**قال الله تعالىٰ: يا ابن آدم أنَّىٰ تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتىٰ إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين**

وللأرض منك وئيد فجمعت ومنعت، حتىٰ إذا بلغت التراقي، قلت: أتصدق وأنّىٰ أوان الصدقة؟!»[١].

[٢]فتأمل قوله تعالىٰ في الآية: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾. باسم الله دون اسم الربوبية ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلىٰ ربوبيته وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلىٰ ألوهيته وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين.

وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه، ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام.

[٣]فقر العبد إلىٰ أن يعبد الله ـ سبحانه ـ وحده لا يشرك به شيئاً؛ ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلىٰ الغذاء والشراب والنفس، فيقاس بها، لكن بينهما فروق كثيرة، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذي لا إله إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كدحاً فملاقيه، ولابد له من لقائه، ولا صلاح له إلا توحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلىٰ نوع، ومن شخص إلىٰ شخص، ويتنعم بهذا في حال، وبهذا في حال، وكثيراً ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته.

وأما إلهه الحق فلا بد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٢٧٠٧) وأحمد (٤/ ٢١٠) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢٥٦-٢٥٧ رقم ٣٤٧٣) وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول (رقم ٢٤٥) والحاكم (٢/ ٥٤٥ رقم ٣٨٥٥) والطبراني في الكبير (٢/ ٣٢ رقم ١١٩٣) وفي مسند الشاميين (١/ ٢٦٩ رقم ٤٦٩) وابن سعد في الطبقات (٧/ ٤٢٧) وابن قانع في معجم الصحابة (١/ ٧٦) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) ١١ طريق الهجرتين.

(٣) ٣٠ إغاثة جـ١.

عليه أهل الإيمان ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان.

لا كما يقوله من قل نصيبه من التحقيق والعرفان، وبخس حظه من الإحسان: إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقة، لمجرد الابتلاء والامتحان، أو لأجل مجرد التعويض بالثواب المنفصل كالمعاوضة بالأثمان، أو لمجرد رياضة النفس وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيم من الحيوان، كما هي مقالات من بخس حظه من معرفة الرحمن، وقل نصيبه من ذوق حقائق الإيمان، وفرح بما عنده من زبد الأفكار وزبالة الأذهان. بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره قرة عين الإنسان، وأفضل لذة للروح والقلب والجنان، وأطيب نعيم ناله من كان أهلاً لهذا الشان، والله المستعان وعليه التكلان.

***

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

[1]وأما إماتة قلوبهم، ففي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠]. وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. فوصف الكافر بأنه ميت، وأنه بمنزلة أصحاب القبور، وذلك أن القلب الحي هو الذي يعرف الحق ويقبله ويحبه ويؤثره على غيره، فإذا مات القلب لم يبق فيه إحساس ولا تمييز بين الحق والباطل، ولا إرادة للحق وكراهة للباطل، بمنزلة الجسد الميت الذي لا يحس بلذة الطعام والشراب وألم فقدهما.

وكذلك وصف ـ سبحانه ـ كتابه ووحيه بأنه روح لحصول حياة القلب به، فيكون

---

(١) ١٠٤ شفاء العليل.

القلب حياً ويزداد حياة بروح الوحي، فيحصل له حياة على حياة، ونور على نور، نور الوحي على نور الفطرة. قال: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ [غافر: ١٥].وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢]. فجعله روحاً لما يحصل به من الحياة، ونوراً لما يحصل له من الهدى والإضاءة، وذلك نور وحياة زائدة على نور الفطرة وحياتها؛ فهو نور على نور، وحياة على حياة.

***

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

(1)قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]. فكلما كان العبد بالله أعلم كان له أخوف. قال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علماً. ونقصان الخوف من الله إنما هو لنقصان معرفة العبد به، فأعرف الناس أخشاهم الله، ومن عرف الله اشتد حياؤه منه وخوفه منه وحبه له، وكلما ازداد معرفة ازداد حياء وخوفاً وحباً، فالخوف من أجل منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة، فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف. وهو ينشأ من ثلاثة أمور:

أحدها: معرفته بالجناية وقبحها.

والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها.

والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة، ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب. فبهذه الأمور الثلاثة يتم له الخوف، وبحسب قوتها وضعفها تكون قوة الخوف

(١) ٢٨٣ طريق الهجرتين.

وضعفه. فإن الحامل على الذنب إما أن يكون عدم علمه بقبحه. وإما عدم علمه بسوء عاقبته، وإما أن يجتمع له الأمران. لكن يحمله عليه اتكاله على التوبة، وهو الغالب من ذنوب أهل الإيمان.

فإذا علم قبح الذنب وعلم سوء مغبته وخاف أن لا يفتح له باب التوبة، بل يمنعها ويحال بينه وبينها اشتد خوفه. هذا قبل الذنب، فإذا عمله كان خوفه أشد.

وبالجملة فمن استقر في قلبه ذكر الدار الآخرة وجزائها، وذكر المعصية والتوعد عليها، وعدم الوثوق بإتيانه بالتوبة النصوح هاج في قلبه من الخوف ما لا يملكه ولا يفارقه حتى ينجو.

وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، ولعلمه بأن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ، فإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه[1]. كما ثبت عن النبي ﷺ. وكانت أكثر يمينه: «**لا ومقلب القلوب، لا ومقلب القلوب**»[2].

[3]إنه ـ سبحانه ـ أخبر أنهم أهل خشيته، بل خصهم من بين الناس بذلك، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٨].

وهذا حصر لخشيته في أولي العلم. وقال تعالى: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة: ٨]. وقد أخبر أن أهل خشيته هم العلماء فدل على أن هذا الجزاء

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٢) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٩٨ رقم ٢١٩) وفي الآحاد والمثاني (٢/ ٤٧٥ رقم ١٢٧٨) والطبراني في مسند الشاميين (١/ ٣٣٠ رقم ٥٨٢) وفي الدعاء (رقم ١٢٦٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١١): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٦٢٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥١٦-٥٢٧).

(٣) ٥١ مفتاح جـ١.

المذكور للعلماء بمجموع النصين. وقال ابن مسعود ﷺ: كفى بخشية الله علماً، وكفى بالاغترار بالله جهلاً[١].

[٢]قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾. وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقال رجل للشعبي: أيها العالم، فقال: لسنا بعلماء؛ إنما العالم من يخشى الله[٣]. وقال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علماً وبالاغترار بالله جهلاً.

[٤]ومن علامات المعرفة: الهيبة، فكلما ازدادت معرفة العبد بربه ازدادت هيبته له وخشيته إياه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ أي: العلماء به. وقال النبي ﷺ: «أنا أعرفكم بالله، وأشدكم له خشية»[٥].

ومن عرف الله صفًا له العيش، وطابت له الحياة، وهابه كل شيء، وذهب عنه خوف المخلوقين، وأنس بالله، واستوحش من الناس، وأورثته المعرفة الحياء من الله، والتعظيم له، والإجلال والمراقبة والمحبة والتوكل عليه، والإنابة إليه، والرضا به، والتسليم لأمره.

[٦]ومقام الخشية جامع لمقام المعرفة بالله، والمعرفة بحق عبوديته، فمتى عرف

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص١٥٨) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٦) والبيهقي في الشعب (١/ ٤٧١-٤٧٢ رقم ٧٤٦) وابن أبي شيبة (٧/ ١٠٤ رقم ٣٤٥٣٢) والطبراني في الكبير (٩/ ١٨٩ رقم ٨٩٢٧).

(٢) ١٧٢ شفاء.

(٣) أخرجه الدارمي (رقم ٢٥٨) وابن أبي شيبة (٧/ ٢٣٩) رقم ٣٥٦٦٨) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣١١).

(٤) ٤٣٢ روضة المحبين.

(٥) أخرجه البخاري بنحوه (رقم ٢٠) ولفظه: «إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا» وأخرجه بلفظ المصنف الديلمي في مسند الفردوس (١/ ٥٩ رقم ١٦٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣١٣) وعمدة القاري (٧/ ١٨٠).

(٦) ١٣٦ مدارج جـ١.

الله وعرف حقه اشتدت خشيته له. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. فالعلماء به وبأمره هم أهل خشيته. قال النبي ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية**». ومقام الهيبة جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم.

ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان. ولذلك كان أرفعها وأعلاها. وهو فوق الرضا، وهو يتضمن الصبر من غير عكس. ويتضمن التوكل والإنابة والحب والإخبات والخشوع والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه. لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له. ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر. والصبر داخل في الشكر. فرجع الإيمان كله شكراً. والشاكرون هم أقل العباد، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

[١]خوف الله وخشية عقابه، وهذا إنما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده، والإيمان به وبكتابه وبرسوله. وهذا السبب يقوى بالعلم واليقين، ويضعف بضعفهما. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾.

[٢]وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يقتضي الحصر من الطرفين أن لا يخشاه إلا العلماء، ولا يكون عالماً إلا من يخشاه، فلا يخشاه إلا عالم، وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية، وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.

ولكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية، حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها، وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك، فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم

---

(١) ٢٧١ طريق الهجرتين.

(٢) ١٧٢ شفاء العليل.

اليقيني. فإن قيل فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس فإنها كانت عن علم لا عن جهل.

ويقول: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] وقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]. وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]. وقال موسى فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]. وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام: ٢٠]. يعني: القرآن أو محمدًا ﷺ. وقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]. وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. والجحود إنكار الحق بعد معرفته وهذا كثير في القرآن، قيل: حجج الله لا تتناقض، بل كلها حق، يصدق بعضها بعضاً، وإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء وقد أقر به وبرسالته، وبأنه حرم ذلك، وتوعد عليه بالعقاب، ومع ذلك يحكم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء، فكيف بمن أشرك به وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين؟

وقد سمى ـ تعالى ـ أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة وعلموا أنه صادق. وقال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

فالجاهلون هنا: الكفار الذين علموا أنه رسول الله، فهذا العلم لا ينافي الحكم على صاحبه بالجهل، بل يثبت له العلم وينفى عنه في موضع واحد، كما قال تعالى عن

السحرة من اليهود: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢]. فأثبت لهم العلم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجب لترك الضار.

[(١)]عن ابن عباس في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾. قال: الذين يقولون: إن الله على كل شيء قدير، وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقها، ولو كانوا يقرون بها، فمنكرو القدر وخلق أفعال العباد لا يقرون بها على وجهها، ومنكرو أفعال الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها؛ بل يصرخون أنه لا يقدر على فعل يقوم به.

ومن لا يقر بأن الله سبحانه كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وأنه ـ سبحانه ـ مقلب القلوب حقيقة، وأنه إن شاء يقيم القلب أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير.

ومن لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض. وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول: «من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[(٢)]. وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى، كلمه منها. وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها، وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده، وأنه يتجلى لهم يضحك. وأنه يريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها، وينزوي بعضها إلى بعض.

---

(١) ٢٩ شفاء العليل.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١١٤٥) ومسلم (رقم ٧٥٨) وانظر: عمدة القاري (٧/ ١٩٦-١٩٨).

إلىٰ غير ذلك من شؤونه وأفعاله التي من لم يقر بها لم يقر بأنه علىٰ كل شيء قدير. فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمان القرآن، وقد كان ابن عباس شديداً علىٰ القدرية. وكذلك الصحابة، كما سنذكر ذلك ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

***

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾.

[(1)] المتابعة هي التلاوة التي أثنىٰ الله علىٰ أهلها في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ﴾ [فاطر: ٢٩]. وفي قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ١٢١]. والمعنىٰ: يتبعون كتاب الله حق اتباعه.

وقال تعالىٰ: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥].وقال: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَأَنْ أَتْلُوَاْ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النمل: ٩١-٩٢].

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنىٰ، فتلاوة اللفظ جزء مسمىٰ التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: اتل أثر فلان، وتلوت أثره وقفوته، وقصصته: بمعنىٰ تبعت خلفه، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴾ [الشمس: ١-٢]. أي: تبعها في الطلوع بعد غيبتها، ويقال: جاء القوم يتلو بعضهم بعضًا، أي يتبع، وسمي تالي الكلام تالياً لأنه يتبع بعض الحروف بعضًا، لا يخرجها جملة واحدة، بل يتبع بعضها بعضاً مرتبة، كلما انقضىٰ حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرىٰ، وهذه التلاوة وسيلة وطريقة.

والمقصود التلاوة الحقيقية وهي تلاوة المعنىٰ واتباعه تصديقاً بخبره وائتماراً

---

(١) ٤٢ مفتاح جـ١.

بأمره، وانتهاء بنهيه، وائتماماً به، حيث ما قادك انقدت معه. فتلاوة القرآن تتناول تلاوة لفظه ومعناه، وتلاوة المعنىٰ أشرف من مجرد تلاوة اللفظ، وأهلها هم أهل القرآن الذين لهم الثناء في الدنيا والآخرة، فإنهم أهل تلاوة ومتابعة حقاً.

***

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾.

[١]قال: وحدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، عن الصلت بن دينار، حدثنا عقبة بن صهبان الهنائي قال: سألت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن قول الله ﷻ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢]. فقالت: «يا بني، هؤلاء في الجنة، أما السابق بالخيرات فمن مضىٰ علىٰ عهد رسول الله ﷺ، شهد له رسول الله ﷺ، بالجنة والرزق، وأما المقتصد فمن اتبع أثره من أصحابه حتىٰ لحق به، وأما الظالم لنفسه فمثلي ومثلكم»، فجعلت نفسها معنا[٢].

[٣]والمقصود الكلام علىٰ مراحل العالمين وكيفية قطعهم إياها، فلنرجع إليه.

فنقول: أما الأشقياء فقطعوا تلك المراحل سائرين إلىٰ دار الشقاء متزودين غضب الرب سبحانه، ومعاداة كتبه ورسله وما بعثوا به، ومعاداة أوليائه والصد عن سبيله، ومحاربة من يدعو إلىٰ دينه، ومقاتلة الذين يأمرون بالقسط من الناس، وإقامة دعوة غير دعوة الله التي بعث بها رسله لتكون الدعوة له وحده.

فقطع هؤلاء الأشقياء مراحل أعمارهم في ضد ما يحبه الله ويرضاه.

---

(١) ٨٦ إغاثة جـ١.

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (رقم ١٤٨٩) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٥٧).

(٣) ٢٠٣ طريق الهجرتين.

وأما السائرون إليه فظالمهم قطع مراحل عمره في غفلاته وإيثار شهواته ولذاته على مراضي الرب سبحانه وأوامره، مع إيمانه بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، لكن نفسه مغلوبة معه مأسورة مع حظه وهواه، يعلم سوء حاله ويعترف بتفريطه ويعزم على الرجوع إلى الله. فهذا حال المسلم.

وأما من زين له سوء عمله فرآه حسناً وهو غير معترف ولا مقر ولا عازم على الرجوع إلى الله والإنابة إليه أصلاً، فهذا لا يكاد إسلامه أن يكون صحيحاً أبداً، ولا يكون هذا إلا منسلخ القلب من الإيمان، ونعوذ بالله من الخذلان.

وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه، فهممهم مصروفه إلى القيام بالأعمال الصالحة.

واجتناب الأعمال القبيحة، فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله، فإذا أدى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس فيركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب، فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهير والسعي إلى الصف الأول من المسجد فأدى فريضته كما أمر، مكملاً لها بشرائطها وأركانها وسننها وحقائقها الباطنة من: الخشوع، والمراقبة، والحضور بين يدي الرب. فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثاراً تبدوا على صفحاته ولسانه وجوارحه...

..[1]ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان:

فقسم قطعوها مسافرين فيها إلى دار الشقاء، فكلما قطعوا منها مرحلة قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته، فقطعوا تلك المراحل بمساخط الرب ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه، والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته وإقامة دعوة غيرها، فهؤلاء جعلت أيامهم يسافرون فيها إلى الدار التي خلقوا لها واستعملوا

(١) ١٨٦ طريق الهجرتين.

بها، فهم مصحوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم إلى منازلهم سوقاً، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣]. أي تزعجهم إلى المعاصي والكفر إزعاجاً وتسوقهم سوقاً.

القسم الثاني: قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام. وهم ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات بإذن الله. وهؤلاء كلهم مستعدون للسير موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره. وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه: مقصر في الزاد غير أخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرط في زاده الذي ينبغي له أن يتزوده، ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه، ويجد غب إذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار.

والمقتصد: اقتصر من الزاد على ما يبلغه، ولم يشد مع ذلك أحمال التجارة الرابحة، ولم يتزود ما يضره، فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات: همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات، لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسراناً أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به، فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم، فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل، وله خبرة بطريق ذلك البلد، وخبرة بالتجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعله، فهكذا حال السابق بالخيرات بإذن الله: يرى خسرانا بينا أن يمر عليه وقت في غير متجر. فنذكر بعون الله وفضله نبذة من متاجر الأقسام الثلاثة ليعلم العبد من أي التجار هو:

فأما الظالم لنفسه فإنه إذا استقبل مرحلة يومه وليلته استقبلها وقد سبقت حظوظه وشهواته إلى قلبه فحركت جوارحه طالبة لها، فإذا زاحمها حقوق ربه فتارة وتارة. فمرة

يأخذ بالرخصة ومرة بالعزيمة، ومرة يقدم على الذنب وترك الحق تهاوناً ووعداً بالتوبة. فهذا حال الظالم لنفسه مع حفظ التوحيد والإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، والتصديق بالثواب والعقاب. فمرحلة هذه مقطوعة الربح والخسران، وهو للأغلب منهما. فإذا ورد القيامة ميز ربحه من خسرانه، وحصل ربحه وحده وخسرانه وحده، وكان الحكم للراجح منهما، وحكم الله من وراء ذلك لا يعدم منه فضله وعدله. وأما المقتصدون فأدوا وظيفة تلك المرحلة ولم يزيدوا عليها ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا بخسوا الحق الذي عليهم.

فإذا استقبل أحدهم مرحلة يومه استقبلها بالطهور التام والصلاة التامة في وقتها بأركانها وواجباتها وشرائطها، ثم ينصرف منها إلى مباحاته ومعيشته وتصرفاته التي أذن الله فيها مشتغلاً بها، قائماً بأعيانها، مؤدياً واجب الرب فيها، غير متفرغ لنوافل العبادات وأوراد الأذكار والتوجه، فإذا حضرت الفريضة الأخرى بادر إليها كذلك، فإذا أكملها انصرف إلى حاله الأول. فهو كذلك سائر يومه.

فإذا جاء الليل فكذلك إلى حين النوم، يأخذ مضجعه حتى ينشق الفجر، فيقوم إلى غذائه ووظيفته. فإذا جاء الصوم الواجب قام بحقه، وكذلك الزكاة الواجبة، والحج الواجب. وكذلك المعاملة مع الخلق يقوم فيها بالقسط، لا يظلمهم ولا يترك حقه لهم.

وأما السابقون بالخيرات فهم نوعان: أبرار، ومقربون، وهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أهل اليمين، وهم المقتصدون والأبرار والمقربون. وأما الظالم لنفسه فليس من أصحاب اليمين عند الإطلاق، وإن كان مآله إلى أصحاب اليمين، كما أنه لا يسمى مؤمناً عند الإطلاق وإن كان مصيره ومآله مصير المؤمنين بعد أخذ الحق منه.

وقد اختلف في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ﴾ [فاطر: ٣٣]. هل ذلك راجع إلى الأصناف الثلاثة: الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، أو يختص بالقسمين الأخيرين وهما المقتصد والسابق دون الظالم، على قولين.

***

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

[1]...الحزن: هو بلية من البلايا التي نسأل الله دفعها وكشفها، ولهذا يقول أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]. فحمده على أن أذهب عنهم تلك البلية ونجاهم منها. وفي الصحيح عن النبي ﷺ، أنه كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضلع الدين، وغلبة الرجال**»[2]. فاستعاذ ﷺ، من ثمانية أشياء كل شيئين منها قرينان:

فالهم والحزن قرينان، وهما الألم الوارد على القلب، فإن كان على ما مضى فهو الحزن، إن كان على ما يستقبل فهو الهم. فالألم الوارد إن كان مصدره فوت الماضي أثر الحزن، وإن كان مصدره خوف الآتي أثر الهم.

والعجز والكسل قرينان، فإن تخلف مصلحة العبد وبعدها عنه إن كان من عدم القدرة فهو عجز، وإن كان من عدم الإرادة فهو كسل.

والجبن والبخل قرينان، فإن الإحسان يفرح القلب، ويشرح الصدر، ويجلب النعم، ويدفع النقم، وتركه يوجب الضيم والضيق ويمنع وصول النعم إليه، فالجبن ترك الإحسان بالبدن، والبخل ترك الإحسان بالمال.

وغلبة الدين وقهر الرجال قرينان، فإن القهر والغلبة الحاصلة للعبد إما منه وإما من غيره، وإن شئت قلت: إما بحق وإما بباطل من غيره.

والمقصود أن النبي ﷺ، جعل الحزن مما يستعاذ منه. وذلك لأن الحزن يضعف القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حزن المؤمن، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠]

---

(١) ٢٧٨ طريق الهجرتين.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٣٦٩) وانظر: عمدة القاري (١٤/ ١٧٦).

فالحزن مرض من أمراض القلب يمنعه من نهوضه وسيره وتشميره، والثواب عليه ثواب المصائب التي يبتلى العبد بها بغير اختياره، كالمرض والألم ونحوهما..

[١]...طريقة القرآن يقرن بين أسماء الرجاء، وأسماء المخافة كقوله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]. وقال أهل الجنة: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤]. لما صاروا إلى كرامته بمغفرته ذنوبهم وشكره إحسانهم قالوا: ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾. وفي هذا معنى التعليل أي بمغفرته وشكره وصلنا إلى دار كرامته، فإنه غفر لنا السيئات وشكر لنا الحسنات.

وقال تعالى: ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٤٧]. فهذا جزاء لشكرهم، أي إن شكرتم ربكم شكركم وهو عليم بشكركم لا يخفى عليه من شكره ممن كفره. والقرآن مملوء من هذا، والمقصود التنبيه عليه.

***

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

[٢] قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ [فاطر: ٣٧]. فمن لم يورثه التعمير وطول البقاء إصلاح معائبه، وتدارك فارطه، واغتنام بقية أنفاسه، فيعمل على حياة قلبه وحصول النعيم المقيم، وإلا فلا خير له في حياته، فإن العبد على جناح سفر؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار؛ فإذا طال عمره وحسن عمله، كان طول سفر زيادة له في حصول النعيم واللذة؛ فإنه كلما طال السفر إليها كانت الصبابة أجل وأفضل، وإذا طال عمره وساء عمله، كان طول سفره زيادة في ألمه وعذابه ونزولاً له إلى أسفل؛

---

(١) ٩٥ جلاء الأفهام.

(٢) ١٨٩ فوائد.

فالمسافر إما صاعد وإما نازل، وفي الحديث المرفوع: «**خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وقبح عمله**»[١].

فالطالب الصادق في طلبه كلما خرب شيء من ذاته، جعله عمارة لقلبه وروحه. وكلما نقص شيء من دنياه، جعله زيادة في آخرته. وكلما منع شيئاً من لذات دنياه، جعله زيادة في لذات آخرته. وكلما ناله هم أو حزن أو غم، جعله في أفراح آخرته، فنقصان بدنه ودنياه ولذته وجاهه ورئاسته، إن زاد في حصول ذلك وتوفيره عليه في معاده؛ كان رحمة به وخيراً له؛ وإلا كان حرماناً وعقوبة على ذنوب ظاهرة أو باطنة، أو ترك واجب ظاهر أو باطن، فإن حرمان خير الدنيا والآخرة مرتب على هذه الأربعة، وبالله التوفيق.

***

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ ﴾.

[٢]تأمل ختم هذه الآية باسمين من أسمائه، وهما: الحليم والغفور، كيف تجد تحت ذلك؟ أنه لولا حلمه عن الجناة ومغفرته للعصاة لما استقرت السموات والأرض. وأخبر ـ سبحانه ـ عن كفر بعض عباده أنه ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم: ٩٠].

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٣٠) والدارمي (رقم ٢٧٤٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٩٠ رقم ٣٤٤٢٤) والبيهقي في الزهد (٢/ ٢٣٧ رقم ٦٢٧) والطبراني في الأوسط (٥/ ٣٢٧ رقم ٥٤٤٩) وأحمد (٥/ ٤٠، ٤٣، ٤٧)، والبزار (٩/ ٩٢ رقم ٣٦٢٣) والطيالسي (رقم ٨٦٤) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٤/ ١٢٦-١٢٧ رقم ٥٠٩١): رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. والطبراني بإسناد صحيح والحاكم والبيهقي في الزهد وغيره، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٠٣): رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده جيد. وانظر: فتح الباري (١٠/ ١٣٠) (١١/ ٤٩٠) وشرح النووي (١٦/ ١٥٤).

(٢) ١١٧ الجواب الكافي.

وقد أخرج الله سبحانه الأبوين من الجنة بذنب واحد ارتكباه وخالفا فيه نهيه.

ولعن إبليس وطرده وأخرجه من ملكوت السموات بذنب واحد ارتكبه وخالف فيه أمره، ونحن معاشر الحمقاء كما قيل:

نصل الذنوب إلى الذنوب ونرتجي درج الجنان لـدى النعـيم الخالـد[1]

[2]وإذا أردت معرفة صبر الرب ـ تعالى ـ وحلمه والفرق بينهما، فتأمل قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر: ٤١]. وقوله: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩١]. وقوله: ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾ [إبراهيم: ٤٦] على قراءة من فتح اللام.

فأخبر ـ سبحانه ـ أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السموات والأرض، فبالحلم أمسكهما. وأمسكهما أن تزولا هو الصبر فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه.

وفي الآية إشعار بأن السموات والأرض تهم وتستأذن بالزوال لعظم ما يأتي به العباد فيمسكهما بحلمه ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره ـ تعالى ـ فالذي عنه الإمساك هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة وبين ما صدر عنه حبسها فتأمله.

---

(١) هذا البيت من بحر الكامل، وفيه: تصل... وترتجي، بالتاء المثناة من فوق. وفيه أيضاً عجزه: درك الجنان بها وفوز العابد، وينسب إلى محمود بن حسن الوراق الشاعر العباسي البغدادي، كان شعره في المواعظ والحكم واشتهر بالوراق والنخاس. مات سنة ٢٢٠هـ وذكر البيت المبرد في الكامل في اللغة والأدب (١/ ٦٥٤) وابن عساكر في تاريخ دمشق (١٣/ ٤٦٠) وجعله من مقول أبي نواس في مرض موته.

(٢) ٣٠٥ عدة الصابرين.

وفي مسند الإمام أحمد مرفوعاً: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم»[(١)]. وهذا مقتضى الطبيعة، لأن كرة الماء تعلو كرة التراب بالطبع، ولكن الله يمسكه بقدرته وحلمه وصبره، وكذلك خرور الجبال وتفطير السموات. الرب ـ تعالىٰ ـ يحبسها عن ذلك بصبره وحلمه، فإن ما يأتي به الكفار والمشركون والفجار في مقابلة العظمة والجلال والإكرام يقتضي ذلك.

فجعل ـ سبحانه ـ في مقابلة هذه الأسباب أسباباً يحبها ويرضاها ويفرح بها أكمل فرح وأتمه، تقابل تلك الأسباب التي هي سبب زوال العالم وخرابه فدفعت تلك الأسباب وقاومتها. وكان هذا من آثار مدافعة رحمته لغضبه وغلبتها له وسبقها إياه، فغلب أثر الرحمة أثر الغضب كما غلبت الرحمة الغضب.

ولهذا استعاذ النبي ﷺ، بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، ثم جمع الأمرين في الذات إذ هما قائمان بها، فقال: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»[(٢)].

فإن ما يستعاذ به هو صادر عن مشيئته وخلقه بإذنه وقضائه، فهو الذي أذن في وقوع الأسباب التي يستعاذ منها خلقاً وكوناً، فمنه السبب والمسبب، وهو الذي حرك الأنفس والأبدان وأعطاها قوىٰ التأثير، وهو الذي أوجدها وأعدها وأمدها وسلطها علىٰ ما شاء، وهو الذي يمسكها إذا شاء، ويحول بينها وبين قواها وتأثيرها.

فتأمل ما تحت قوله: «أعوذ بك منك» من محض التوحيد وقطع الالتفات إلىٰ غيره، وتكميل التوكل عليه ـ تعالىٰ ـ والاستعانة به وحده، وإفراده بالخوف والرجاء، ودفع الضر وجلب الخير، وهو الذي يمس بالضر بمشيئته، وهو الذي يدفعه بمشيئته،

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٤٣) والديلمي في الفردوس (٣/ ٣٨٢ رقم ٥١٦٥) وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٥٢ رقم ٣٧): والعوام ضعيف والشيخ مجهول، وانظر: فتح القدير (٥/ ٣٨٤) وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٤١).

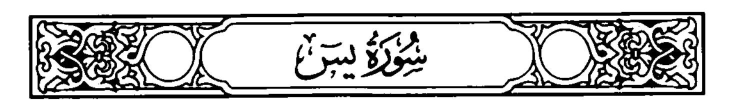
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٦) وانظر: شرح النووي (٤/ ٢٠٤).

وهو المستعاذ بمشيئته، وهو المعيذ من فعله بفعله، وهو الذي ـ سبحانه ـ خلق ما يصبر عليه وما يرضىٰ به، فإذا أغضبه معاصي الخلق وكفرهم وشركهم وظلمهم أرضاه تسبيح ملائكته وعباده المؤمنين له، وحمدهم إياه، وطاعتهم له، فيعيذ رضاه من غضبه.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة فاطر

والحمد لله رب العالمين





بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يسٓ ۝ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝ ﴾.

[1]الصحيح أن «يس» بمنزلة حم، وألم، لست اسما من أسماء النبي ﷺ.

وأقسم ـ سبحانه ـ بكتابه على صدق رسوله. وصحة نبوته ورسالته، فتأمل قدر المقسم به والمقسم عليه. وقوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يس: ٤]، وجوز فيه ثلاثة: أن يكون خبر بعد خبر، فأخبر عنه بأنه رسوله، وأنه على صراط مستقيم، وأن يكون متعلقاً بالخبر نفسه تعلق المعمول بعامله، أي أرسلتك على صراط. وهذا يحتاج إلي بيان تقدير المجعولين على صراط مستقيم، وكونه من المرسلين مستلزم لذلك فاستغنى عن ذكره.

***

﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝ ﴾.

[2]قال الفراء: حبسناهم عن الإنفاق في سبيل الله. قال أبو عبيدة: منعناهم عن الإيمان بموانع.

ولما كان الغل مانعاً للمغلول من التصرف والتقلُّب، كان الغل الذي على القلب مانعاً من الإيمان. فإن قيل: فالغل المانع من الإيمان هو الذي في القلب، فكيف ذكر الغل الذي في العنق[3].

---

(١) ٢٧١ التبيان.

(٢) ١٤٠ شفاء.

(٣) انظر: لسان العرب (١١/ ٥٠٤).

قيل: ولما كان عادة الغل أن يوضع في العنق ناسب ذكر محله، والمراد به القلب، كقوله تعالىٰ: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣].ومن هذا قولهم: إثمي في عنقك وهذا في عنقك، ومن هذا قوله: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء: ٢٩]. شبه الإمساك عن الإنفاق باليد إذا غلت إلىٰ العنق.

ومن هذا قال الفراء: إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً؛ حبسناهم عن الإنفاق.

قال أبو إسحاق: وإنما يقال للشيء اللازم: هذا في عنق فلان، أي لزومه كلزوم القلادة من بين ما يلبس في العنق. قال أبو علي: هذا مثل قولهم: طوقتك كذا، وقلدتك كذا، ومنه قلده السلطان كذا أي صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة ومكان الطوق. قلت: ومن هذا قولهم: قلدت فلاناً حكم كذا وكذا، كأنك جعلته طوقاً في عنقه، وقد سمىٰ الله التكاليف الشاقة أغلالاً في قوله: ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، فشبهها بالأغلال لشدتها وصعوبتها، قال الحسن: هي الشدائد التي كانت في العبادة: كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم(١).

قال ابن قتيبة: هي تحريم الله ـ سبحانه ـ عليهم كثيراً مما أطلقه لأمة محمد ﷺ، وجعلها أغلالاً، لأن التحريم يمنع كما يقبض الغل اليد.

وقوله: ﴿ فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾. قالت طائفة: الضمير يعود إلىٰ الأيدي، وإن لم تذكر لدلالة السياق عليها، قالوا. لأن الغل يكون في العنق، فتجمع إليه اليد، ولذلك سمىٰ جامعة. وعلىٰ هذا فالمعنىٰ: فأيديهم أو فأيمانهم مضمومة إلىٰ أذقانهم، هذا قول الفراء والزجاج. وقالت طائفة: الضمير يرجع إلىٰ الأغلال، وهذا هو الظاهر. وقوله: ﴿ فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾ أي واصلة وملزوزة إليها، فهو غل عريض قد أحاط بالعنق حتىٰ وصل الذقن.

---

(١) أخرجه بنحوه أبو الشيخ عن سعيد بن جبير، كما أشار إلىٰ ذلك السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٨٣).

وقوله: ﴿ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ قال الفراء والزجاج: المقمح هو الغاض بصره بعد رفع رأسه، ومعنى الأقماح في اللغة: رفع الرأس وغض البصر، يقال: أقمح البعير رأسه وقمح، وقال الأصمعي: بعير قامح، إذا رفع رأسه على الحوض ولم يشرب.

قال الأزهري: لما غلت أيديهم إلى أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورءوسهم صعداً كالإبل الرافعة رءوسها[(١)]. انتهى.

فإن قيل: فما وجه التشبيه بين هذا وبين حبس القلب عن الهدى والإيمان.

قيل: أحسن وجه وأبينه، فإن الغل إذا كان في العنق واليد مجموعة إليها منع اليد عن التصرف والبطش، فإذا كان عريضاً قد ملأ العنق، ووصل إلى الذقن منع الرأس من تصويبه، وجعل صاحبه شاخص الرأس منتصبه لا يستطيع له حركه[(٢)].

ثم أكد هذا المعنى والحبس بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾ قال ابن عباس: منعهم من الهدى لما سبق في علمه.

والسد الذي جعل من بين أيديهم ومن خلفهم: هو الذي سد عليهم طريق الهدى، فأخبر ـ سبحانه ـ عن الموانع التي منعهم بها من الإيمان عقوبة لهم، ومثلها بأحسن تمثيل وأبلغه، وذلك حال قوم قد وضعت الأغلال العريضة الواصلة إلى الأذقان في أعناقهم، وضمت أيديهم إليها، وجعلوا بين السدين لا يستطيعون النفوذ من بينهما، وأغشيت أبصارهم فهم لا يرون شيئاً.

وإذا تأملت حال الكافر الذي عرف الحق وتبين له ثم جحده وكفر به وعاداه أعظم معاداة، وجدت هذا المثل مطابقاً له أتم مطابقة، وأنه قد حيل بينه وبين الإيمان كما حيل بين هذا وبين التصرف، والله المستعان.

[(٣)]فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا، وخرجوا وحملوا

---

(١) انظر: لسان العرب (٢/ ٥٦٦-٥٦٧).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ١٠٦-١٠٧).

(٣) ١٣٦ الزاد جـ٢.

وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلىٰ الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدار دار منعة، وأن القوم أهل حلقة وشوكة وبأس: خافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم، ولحوقه بهم، فيشتد عليهم أمره.

فاجتمعوا في دار الندوة، لم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجىٰ منهم، ليتشاوروا في أمره، وحضرهم وليهم وشيخهم: إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد، مشتمل الصماء في كسائه، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ، فأشار كل أحد منهم برأي، والشيخ يرده ولا يرضاه.

إلىٰ أن قال أبو جهل: قد فرق لي فيه رأي، ما أراكم قد وقعتم عليه. قالوا: ما هو؟ قال: أرىٰ أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جلداً نسيباً وسيطاً، ثم نعطيه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك: كيف تصنع؟ ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته. فقال الشيخ: لله در الفتىٰ، هذا والله الرأي، قال: فتفرقوا علىٰ ذلك، واجتمعوا عليه، فجاءه جبريل بالوحي من عند ربه ـ تبارك وتعالىٰ ـ فأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة(١).

وجاء رسول الله ﷺ إلىٰ أبي بكر نصف النهار، في ساعة لم يكن يأتيه فيها متقنعاً، فقال له: «أخرج عني من عندك؟» فقال: إنما هم أهلك يا رسول الله، فقال: «إن الله قد أذن لي في الخروج». فقال أبوبكر: الصحبة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقال أبوبكر: فخذ بأبي وأمي إحدىٰ راحلتي هاتين. فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن»، وأمر علياً أن يبيت في مضجعه تلك الليلة»(٢).

واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صِيَرِ الباب، ويرصدونه، ويريدون

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري في تفسيره (٩/ ٢٢٩) وعبد الرزاق (٥/ ٣٨٤-٣٨٩ رقم ٩٧٤٣) وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢١٣٨) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣٥).

بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها. فخرج رسول الله ﷺ عليهم، فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يذره على رءوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس:٩].

ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر: فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً. وجاء رجل، ورأى القوم ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: خبتم وخسرتم، قد والله مر بكم وذرَّ على رءوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه وقاموا ينفصون التراب عن رءوسهم، وهم: أبو جهل، والحكم بن العاص وعقبة بن أبي مُعيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونبيه، ومنبه ابنا الحجاج. فلما أصبحوا قام علي عن الفراش، فسألوه عن رسول الله ﷺ؟ فقال: لا علم لي به. ثم مضى رسول الله ﷺ وأبوبكر إلى غار ثور، فدخلاه، وضرب العنكبوت بيتاً على بابه[(١)]...

***

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

[(٢)]قال ابن عباس: ما أثروا من خير أو شر، فسمى ذلك آثاراً لحصوله بتأثيرهم.

ومن العجب أن المتكلمين يمتنعون من إطلاق التأثير والمؤثر من أطلق عليه في القرآن والسنة، كما قال النبي ﷺ لبني سلمة: «دياركم تكتب آثاركم»[(٣)]. أي الزموا دياركم، ويخصونه بمن لم يقع إطلاقه عليه في كتاب ولا سنة، وإن استعمل في حقه الإيثار والاستئثار، كما قال أخوة يوسف: تالله لقد آثرك الله علينا.

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٢٢٨).

(٢) ١٣٤ شفاء.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٦٦٥) وانظر: شرح النووي (٥/ ١٦٩).

[(١)]قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾[يس: ١٢]. فجمع بين الكتابين: الكتاب السابق لأعمالهم قبل وجودهم، والكتاب المقارن لأعمالهم، فأخبر أنه يحييهم بعد ما أماتهم للبعث، ويجازيهم بأعمالهم، ونبه بكتابته لها علىٰ ذلك، قال: ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ ﴾ من خير أو شر فعلوه في حياتهم: ﴿ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ ما سنوا من سنة خير أو شر فاقتدي بهم فيها بعد موتهم. وقال ابن عباس في رواية عطاء: آثارهم ما أثروا من خير أو شر، كقوله: ﴿ يُنَبَّؤُاْ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾[القيامة: ١٣].

(فإن قلت): قد استفيد هذا من قوله قدموا فما أفاد قوله: آثارهم علىٰ قوله.

(قلت): أفاد فائدة جليلة، وهو أنه ـ سبحانه ـ يكتب ما عملوه وما تولد من أعمالهم، فيكون المتولد عنها كأنهم عملوه في الخير والشر، وهو أثر أعمالهم، فآثارهم هي آثار أعمالهم المتولدة عنها، وهذا القول أعم من قول مقاتل، وكأن مقاتلاً أراد التمثيل والبيان علىٰ عادة السلف في تفسير اللفظة العامة بنوع أو فرد من أفراد مدلولها تقريباً وتمثيلاً لا حصراً وإحاطة.

وقال أنس وابن عباس في رواية عكرمة: نزلت هذه الآية في بني سلمة: أرادوا أن ينتقلوا إلىٰ قرب المسجد، وكانت منازلهم بعيدة، فلما نزلت قالوا: بل نمكث مكاننا. واحتج أرباب هذه القول بما في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد الخدري قال: كانت بنو سلمة في ناحية المدينة فأرادوا النقلة إلىٰ قرب المسجد، فنزلت هـذه الآية: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم»[(٢)].

وقد روىٰ مسلم في صحيحه نحوه من حديث جابر وأنس.

---

(١) ٣٩ شفاء.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٥، ٦٥٦) ومسلم (رقم ٦٦٥) وانظر: فتح الباري (٢/ ١٤٠).

وفي هذا القول نظر، فإن سورة يس مكية وقصة بني سلمة بالمدينة، إلا أن يقال هذه الآية وحدها مدنية. وأحسن من هذا أن تكون ذكرت عند هذه القصة ودلت عليها، وذكروا بها عندها، إما من النبي ﷺ، وإما من جبريل، فأطلق على ذلك النزول، ولعل هذا مراد من قال في نظائر ذلك نزلت مرتين.

والمقصود: أن خطاهم إلى المساجد من آثارهم التي يكتبها الله لهم، قال عمر بن الخطاب: لو كان الله ـ سبحانه ـ تاركاً لابن آدم شيئاً لترك ما عفت عليه الرياح من أثر[1]. وقال مسروق: ما خطا رجل خطوة إلا كتبت له حسنة أو سيئة[2].

والمقصود: أن قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وهو أم الكتاب، وهو الذكر، الذي كتب فيه كل شيء، يتضمن كتابة أعمال العباد قبل أن يعملوها، والإحصاء في الكتاب يتضمن علمه بها وحفظه لها والإحاطة بعددها وإثباتها فيه.

***

﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝﴾.

[3]...هذا ما حكاه الله سبحانه من محاجة صاحب يس لقومه، بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢٠ـ ٢١].

فنبه على وجوب الاتباع، وهو كون المتبوع رسولاً لمن ينبغي أن لا يخالف ولا يعصى، وأنه على هداية، ونبه على انتفاء المانع، وهو عدم سؤال الأجر، فلا يريد منكم دنيا ولا رئاسة، فموجب الاتباع كونه مهتدياً والمانع منه منتف، وهو طلب العلو

---

(١) ذكره عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (٣/ ١٤٠) وجعله من قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله.
(٢) ذكره عبد الرزاق في تفسيره (٣/ ١٤٠) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٧) إلى عبد بن حميد.
(٣) ١١١ مختصر الصواعق جـ١.

والفساد وطلب الأجر، ثم قال: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[يس: ٢٢]. أخرج الحجة عليهم في معرض المخاطبة لنفسه تأليفاً لهم، ونبه على أن عبادة العبد لمن فطره أمر واجب في العقول، فإن خلقه لعبده أصل إنعامه عليه، وأنعامه كلها تابعة لإيجاده وخلقه.

وقد جبل الله العقول والفطر والشرائع على شكر المنعم ومحبة المحسن، ولا يلتفت إلى ما يقوله نفاة التحسين والتقبيح في ذلك، فإنه من أفسد الأقوال وأبطلها في العقول والفطر والشرائع.

ثم أقبل عليهم مخوفاً تخويف الناصح، فقال: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

ثم أخبر عن الآلهة التي تعبد من دون الله أنها باطلة، فقال: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣].فإن العابد يريد من معبوده أن ينفعه وقت حاجته إليه، وأنه إذا أرادني الرحمن الذي فطرني بضر لم يكن لهذه الآلهة من القدرة ما ينقذوني بها من ذلك الضر ولا من الجاه والمكانة عنده ما يشفع لي إليه، ولا يخلص من ذلك الضر، فبأي وجهة تستحق العبادة ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾[يس: ٢٤] إن عبدت من دون الله من هذا شأنه.

***

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

[1]هذا قوله تعالى حاكياً عن صاحب ياسين أنه قال لقومه محتجاً عليهم بما تقر به فطرهم وعقولهم: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[يس: ٢٢] فتأمل هذا الخطاب كيف تجد تحته أشرف معنى وأجله، وهو أن كونه ـ سبحانه ـ فاطراً لعباده

(١) ٨ مفتاح جـ٢.

يقتضي عبادتهم له، وأن من كان مفطوراً مخلوقاً فحقيق به أن يعبد فاطره وخالقه، ولا سيما إذا كان مرده إليه، فمبدأه منه، ومصيره إليه، وهذا يوجب عليه التفرغ لعبادته، ثم احتج عليهم بما تقر به عقولهم وفطرهم من قبح عبادة غيره، وإنها أقبح شيء في العقل وأنكره، فقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ۝ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٣ ـ ٢٤]. أفلا تراه كيف لم يحتج عليهم بمجرد الأمر، بل احتج عليهم بالعقل الصحيح ومقتضى الفطرة.

***

﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ۝ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ۝﴾.

[1]والمعبود ينبغي أن يكون رباً خالقاً، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق صبحه، ووضح لك شرحه، وانجلى بحمد الله الإشكال، وزال عن المعنى غطاء الإجمال، وبأن أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد، كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد، ولا تستطل هذا الفصل؛ فإن يحقق لك فصولاً لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات، ويحصل لك قواعد وأصولاً لا تجدها في عامة المصنفات.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون «ما» موصولة قيل: نعم قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه، وآن إبرازه، ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير: أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان ـ سبحانه ـ هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق أن

(١) ١٥٠ بدائع جـ١.

يكون خالقهم بجملتها، أعني مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله كما أن مادتها كذلك؛ لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم، الذي حصلت به الصورة، لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعل «ما» مصدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٢]. والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن. وقد أخبر أنها مخلوقة، وهي إنما صارت سفناً بأعمال العباد.

وأبعد من قال: إن المثل ههنا هو سفن البر، وهي الإبل لوجهين: أحدهما أنها لا تسمى مثلاً للسفن لا لغة ولا حقيقة، فإن المثلين ما سد أحدهما مسد الآخر. وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك لا بين جمل وفلك. والثاني: أن قوله: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ [يس: ٤٣]، عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين. أحدهما ركوبهم إياها.

والثاني: أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق، ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١] والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه ـ سبحانه ـ هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم. ونظيره: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ﴾ والبيوت التي من جلود الأنعام هي الخيام وإنما صارت بيوتاً بعملهم.

فإن قلت: المراد من هذا كله المادة لا الصورة. (قلت): المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم.

***

﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(١)قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو عن عكـرمة في قولـه تعـالى: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]، قال: في افتضاض الأبكار(٢)، وقال عبدالله بن أحمد حدثنا أبو الربيع الزهراني ومحمد بن حميد قالا: حدثنا يعقوب بن عبدالله حدثنا حفص بن حميد عن بشر بن عطية عن تفيق بن سلمة عن عبدالله بن مسعود في قوله: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾ قال: شغلهم افتضاض العذارى(٣).

وقال الحاكم: أنبأنا الأصم أنبأنا العباس بن الوليد أخبرني شعيب عن الأوزاعي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥] قال: شغلهم افتضاض الأبكار، قال مقاتل: شغلوا بافتضاض العذارى عن أهل النار، فلا يذكرونهم، ولا يهتمون لهم.

وقال أبو الأحوص: شغلوا بافتضاض الأبكار عن السرر في الحجال.

وقال سليمان التيمي: عن أبي مجلز قلت لابن عباس عن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾ ما شغلهم؟ قال: افتضاض الأبكار(٤).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا فضيل بن عبدالواحد حدثنا يزيد بن زريع عن سليمان التيمي عن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ﴾ قال: في افتضاض العذارى(٥).

---

(١) ١٧١ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨) وهناد في الزهد (١/ ٨٧ رقم ٨٩) والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق (٢/ ٣٩٢-٣٩٤).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٢٧٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٦٤) إلى عبد بن حميد وابن أبي الدنيا وعبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود ﷺ.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٨).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٢٧٧)، وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٦٤) إلى ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في صفة الجنة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه.

[(١)]...وفي سنن ابن ماجه من حديث جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «وبينما أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رءوسهم؛ فإذا الرب ـ تعالىٰ ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، قال وذلك قوله تعالىٰ: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلىٰ شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه، حتىٰ يحتجب عنهم، ويبقىٰ نوره وبركته عليهم في ديارهم»[(٢)].

وفي الصحيحين من حديث أبي صالح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلىٰ الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها؛ كما يربي أحدكم فلوَّه، حتىٰ تكون مثل الجبل»[(٣)] ـ الفلو ـ المهر بلغ السنة.

وفي صحيح ابن حبان عن أبي عثمان عن سلمان الفارسي ﷺ عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: «إن ربكم حيي كريم يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً»[(٤)]. وروىٰ ابن وهب قال: أخبرني سعيد بن أبي أيوب عن زهرة بن معبد عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخبره أنه سمع عقبة بن عامر ﷺ يقول: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن وضوءه، ثم رفع نظره إلىٰ السماء، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله

---

(١) ٥٦ اجتماع الجيوش الإسلامية.

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٨٤) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٩٨) وأبو نعيم في صفة الجنة (رقم ٩١) وفي الحلية (٦/ ٢٠٨-٢٠٩) والضياء في صفة الجنة (رقم ١٤٤) والدارقطني في رؤية الله (رقم ٦١). وضعف الحديث الهيثمي في المجمع (٧/ ٩٨) والألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢٣٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٧٤٣٠) ومسلم (رقم ١٠١٤) وانظر: عمدة القاري (٨/ ٢٦٩-٢٧١).

(٤) أخرجه ابن حبان (٣/ ١٦٠ رقم ٨٧٦) وأبو داود (رقم ١٤٨٨) والترمذي (رقم ٣٥٥٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٢/ ٢١١ رقم ٢٩٦٥) وعبد الرزاق (٢/ ٢٥١ رقم ٣٢٥٠) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٦ رقم ٦١٤٨) وفي الدعاء (رقم ٢٠٣) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٦٥ رقم ١١١١) وحسنه الترمذي وجوَّد إسناده الحافظ ابن حجر في الفتح (١١/ ١٤٣).

وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فتحت له ثمانية أبواب الجنة، يدخل من أيها شاء»[(١)].

***

﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ۝٥٨﴾.

[(٢)]قال القاضي أبو يعلى: فأما قوله في حديث جابر «**بينا أهل الجنة في نعيم إذ سطع لهم نور من فوق رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: السلام عليك يا أهل الجنة، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ قال: فينظر إليهم وينظرون إليه فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون إليه**» قال: فلا يمتنع حمله على ظاهره، وأنه نور ذاته، لأنه إذا جاز أن تظهر لهم ذاته فيرونها جاز أن يظهر لهم نورها فيرونه، لأن النور من صفات ذاته، وهو قوله: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]. وذكر في موضع آخر قولين في ذلك، ورجح هذا القول، قال: وهو أشبه بكلام أحمد.

[(٣)]وفي سنن ابن ماجه وحرب الكرماني من حديث الفضل بن عيسى الرقاشي عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب قد أشرف عليهم من فوقهم، فيقول: السلام عليكم يا أهل الجنة، وذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ فيرفعون رؤوسهم فينظرون إليه وينظر إليهم ولا يلتفتون إلى شيء من النعيم حتى يحتجب عنهم فيبقى نوره وبركته عليهم وعلى ديارهم ومنازلهم**» لفظ حديث حرب: فما ظن المحبين بلذة النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم؟ وقد

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٩).
(٢) ٢٠٢ مختصر الصواعق جـ٢.
(٣) ٤٤٩ روضة المحبين.

كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك لذة النظر إلىٰ وجهك والشوق إلىٰ لقائك»[١]. ذكره الإمام أحمد والنسائي وابن حبان في صحيحه.

[٢]وذكر عثمان الدارمي، عن محمد بن كعب القرظي، أنه حدث عمر بن عبدالعزيز قال: إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار، أقبل في ظلل من الغمام والملائكة، فيسلم علىٰ أهل الجنة في أول درجة، فيردون ﷺ. قال القرظي: وهذا في القرآن: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ فيقول: سلوني، يفعل بهم ذلك في درجهم حتىٰ يستوي علىٰ عرشه، ثم تأتيهم التحف من الله تحمله الملائكة إليهم[٣]. وقال عبدالواحد بن زيد، عن الحسن: لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم في الآخرة لذابت أنفسهم في الدنيا[٤]، وقال هشام بن حسان عنه أنه ـ تبارك وتعالىٰ ـ يتجلىٰ لأهل الجنة، فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة[٥]...

[٦]ثبت بالعقل إمكان رؤيته ـ تعالىٰ ـ وبالشرع وقوعها في الآخرة، فاتفق الشرع والعقل علىٰ إمكان الرؤية ووقوعها، فإن الرؤية أمر وجودي لا يتعلق إلا بموجود، وما كان أكمل وجوداً أحق أن يرىٰ، فالباري ـ سبحانه ـ أحق أن يرىٰ من كل ما سواه، لأن وجوده أكمل من كل موجود سواه.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٥/ ٣٠٤-٣٠٥ رقم ١٩٧١) وفي موارد الظمآن (رقم ٥٠٩) والنسائي في الكبرىٰ (١/ ٣٨٧ رقم ١٢٢٨) وفي الصغرىٰ (رقم ١٣٠٥) وعبد الرزاق (١٠/ ٤٤٢ رقم ١٩٦٤٧) والدارقطني في رؤية الله (رقم ١٧٣) والطبراني في الدعاء (رقم ٦٢٤) وتمام في فوائده (رقم ١٣٨٧).

(٢) ٤٦٥ روضة المحبين.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٢١) وقال ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٧٧): وهذا خبر غريب، أورده ابن جرير من طرق والله أعلم.

(٤) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٨٦٩) ومحمد بن إسحاق في التصديق بالنظر: (رقم ١) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٩).

(٥) أخرجه محمد بن إسحاق في التصديق بالنظر (رقم ٢).

(٦) ٢٨٠ مختصر الصواعق.

يوضحه: إن تعذر الرؤية: إما لخفاء المرئي، وإما لآفة وضعف في الرائي، والرب ـ سبحانه ـ أظهر من كل موجود، وإنما تعذرت رؤيته في الدنيا لضعف القوة الباصرة عن النظر إليه. فإذا كان الرائي في دار البقاء كانت قوة البصر في غاية القوة، لأنها دائمة فقويت على رؤيته ـ تعالىٰ ـ. وإذا جاز أن يرىٰ، فالرؤية المعقولة له عند جميع بني آدم: عربهم وعجمهم وتركهم وسائر طوائفهم: أن يكون المرئي مقابلاً للرائي مواجهاً له بائنا عنه، لا تعقل الأمم رؤية غير ذلك، وإذا كانت الرؤية مستلزمة لمواجهة الرائي ومباينة المرئي لزم ضرورة أن يكون مرئيًّا له من فوقه أو من تحته أو عن يمينه أو عن شماله أو خلفه أو أمامه، وقد دل النقل الصريح علىٰ أنهم إنما يرونه ـ سبحانه ـ من فوقهم، لا من تحتهم. كما قال رسول الله ﷺ: «بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار ـ جل جلاله ـ قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة سلام عليك ـ ثم قرأ ـ ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ ثم يتوارىٰ عنهم وتبقىٰ رحمته وبركته عليهم في ديارهم». فلا يجتمع الإقرار بالرؤية وإنكار الفوقية والمباينة. ولهذا فإن الجهمية المغول تنكر علوه علىٰ خلقه ورؤية المؤمنين له في الآخرة ومخانيثهم يقرون بالرؤية وينكرون العلو. وقد ضحك جمهور العقلاء من القائلين بأن الرؤية تحصل من غير مواجهة المرئي ومباينته. وهذا رد لما هو مركوز في الفطر والعقول...

***

﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾.

[(1)] لما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهو يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ

(١) ١٩١ الجواب الكافي.

أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١] فالشيطان يدعو المشركين إلى عبادته، ويوهمهم أنه ملك. كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم، وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان، فيسجد لها الكفار، فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها. وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان. فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها. وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عبد الله ولا رسوله ﷺ فيدل هذا كله على قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

فما عبد أحد من بني ادم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمعبود في حصول أغراضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. أي من إغوائهم وإضلالهم. ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

فهذه إشارة لطيفة إلى السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل على الله ـ سبحانه ـ أن يشرع لعباده إلهاً غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله، وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والعظمة والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضى به؟ ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

***

﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩) لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠)﴾.

[1]أخبر ـ سبحانه ـ: أن الناس قسمان: حي قابل للانتفاع، يقبل الإنذار، وينتفع به، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به، لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة الخير البتة. فيحق عليه القول بالعذاب، وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه. لا بمجرد كونه غير قابل للهدىٰ والإيمان، بل لأنه غير قابل ولا فاعل. وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول. إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال: لوجاءني رسول منك لامتثلت أمرك. فأرسل إليه رسوله. فأمره ونهاه. فعصىٰ الرسول بكونه غير قابل للهدىٰ، فعوقب بكونه غير فاعل. فحق عليه القول: أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول، كما قال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣] وحق عليه العذاب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر: ٦].

فالكلمة التي حقت كلمتان: كلمة الإضلال، وكلمة العذاب. كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] كلمته ـ سبحانه ـ إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم. فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته، وحاصل هذا كله: أن الله ـ سبحانه ـ أمر العباد أن يكونوا مع مراده الديني منهم ـ لا مع مراد أنفسهم، فأهل طاعته آثروا الله ومراده علىٰ مرادهم، فاستحقوا كرامته. وأهل معصيته آثروا مرادهم علىٰ مراده. وعلم ـ سبحانه ـ منهم: أنهم لا يؤثرون مراده البتة. وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم، فأمرهم ونهاهم. فظهر بأمره ونهيه من القدر الذي قدر عليهم من إيثارهم هوىٰ أنفسهم، ومرادهم علىٰ مرضاة ربهم ومراده، فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله، فعاقبهم بظلمهم اهـ.

---

(١) ٢١٨ مدارج جـ١.

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

[١]...لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع: مفرداً، ومثنى، ومجموعاً. فالمفرد كقوله: ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ [تبارك: ١]، والمثنى كقوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [ص: ٧٥]. والمجموع: ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس: ٧١]. فحيث ذكر اليد مثناة أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد، وعدى الفعل بالباء إليهما، فقال: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ وحيث ذكرها مجموعة أضاف العمل إليها ولم يعد الفعل بالباء. فهذا ثلاثة فروق، فلا يحتمل: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ من المجاز ما يحتمله ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ فإن كل أحد يفهم من قوله: ﴿ عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وأما قوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى، فكيف وقد دخلت عليها الباء؟ فكيف إذا ثنيت؟ وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه كقوله: ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ ﴾ [الحج: ١٠] ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾.

وأما إذا أضيف إليه الفعل ثم عدي بالباء إلى يده مفردة أو مثناة فهو مما باشرته يده. ولهذا قال عبدالله بن عمرو: «إن الله لم يخلق بيده إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده»[٢].

فلو كانت اليد هي القدرة لم يكن لها اختصاص بذلك، ولا كانت لآدم فضيلة بذلك على كل شيء مما خلق بالقدرة. وقد أخبر النبي ﷺ أن أهل الموقف يأتونه يوم القيامة فيقولون: «يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده»[٣].

(١) ٣٨ مختصر الصواعق جـ١.
(٢) أخرجه الدارقطني في الصفات (رقم ٢٨).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٠) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٣).

وكذلك قال آدم لموسي في محاجته له: «اصطفاك الله بكلامه. وخط لك الألواح بيده»[(١)]. وفي لفظ آخر: «كتب لك التوراة بيده»[(٢)]. وهو من أصح الأحاديث.

وكذلك الحديث المشهور: «إن الملائكة قالوا: يا رب خلقت بني آدم يأكلون ويشربون وينكحون ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة. فقال الله ـ تعالىٰ ـ: ألا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له: كن فكان؟»[(٣)] وهذا التخصص إنما فهم من قوله: ﴿ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ فلو كان مثله قوله: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس: ٧١]. لكان هو والأنعام في ذلك سواء. فلما فهم المسلمون أن قوله: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص: ٧٥]. يوجب له تخصيصاً وتفضيلاً بكونه مخلوقاً باليدين علىٰ من أمر أن يسجد له، وفهم ذلك أهل الموقف حين جعلوه من خصائصه كانت التسوية بينه وبين قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [يس: ٧١]، خطأ محضاً. وكذلك قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «يقبض الله سمواته بيده، والأرض باليد الأخرىٰ»[(٤)]. وقوله ﷺ: «يمين الله ملأىٰ لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار. أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، وبيده الأخرىٰ القسط، يخفض ويرفع...»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٦١٤) ومسلم (رقم ٢٦٥٢) وانظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٨) وشرح النووي (١٦/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٥٢).

(٣) أخرجه الصنعاني في تفسيره (٢/ ٣٨٢) وعزاه السيوطي في الدر (٥/ ٣١٥) إلى الطبراني وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٨٢): رواه الطبراني في الكبير الأوسط وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك، وفي مسند الأوسط طلحة بن زيد وهو كذاب أيضاً، وقال الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ٢٧٧): ورواه ابن الجوزي في العلل المتناهية كذلك، وقال: هذا حديث لا يصح.

(٤) أخرجه بلفظ قريب البخاري (رقم ٦٥١٩) ومسلم (رقم ٢٧٨٧) وانظر: الفتح (١١/ ٣٧٢) (١٣/ ٣٦٧، ٣٩٦).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٧٤١١) ومسلم (رقم ٩٩٣) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٣٩٥-٣٩٦) وشرح النووي (٧/ ٨٠).

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

(١)قال ـ سبحانه ـ في تثبيت أمر البعث: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ إلى آخر السورة فلو رام أفصح البشر وأعلمهم وأقدرهم على البيان أن يأتي بأحسن من هذه الحجة أو مثلها في ألفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز والاختصار ووصف حينئذ الدلالة وصحة البرهان لألفى نفسه ظاهر العجز عن ذلك.

فإنه ـ سبحانه ـ افتتح هذه الحجة بسؤال أورده الملحد اقتضى جواباً، وكان في قوله سبحانه: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ ما وفى بالجواب، وأقام الحجة، وأزال الشبهة لولا ما أراد الله ـ تعالى ـ من تأكيد حجته وزيادة تقريرها، وذلك أنه ـ تعالى ـ أخبر أن هذا السائل الملحد لو تبين خلقه نفسه وبدء كونه لكانت فكرته فيه كافية.

ثم أوضح ـ سبحانه ـ ما تضمنه قوله: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾. وصرح به جواباً له عن مسألته بقوله: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس: ٧٩]، فاحتج بالإبداء على الإعادة. وبالنشأة الأولى على النشاة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم علماً ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية عجز عن الأولى، بل كان أعجز وأعجز.

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على مخلوقه وعلمه بتفاصيل خلقه اتبع ذلك

---

(١) ١٠٠ مختصر الصواعق جـ١.

بقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ فهو عليم بالخلق الأول وتفاصيله ومواده وصورته وكذلك هو عليم بالخلق الثاني. فإذا كان تام العلم كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهو رميم؟ أكد الأمر بحجة تتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميماً عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة في الأبدان تكون مادتها طبيعية حارة، فقال: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٨٠] فأخبر ـ سبحانه ـ بإخراج هذه العنصر الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة. فالذي يخرج الشيء من ضده هو الذي يفعل ما أنكره الملحد من إحياء العظام وهي رميم.

ثم أكد الدلالة بالتنبيه على أن من قدر على الشيء الأعظم الأكبر فهو على ما دونه أقدر وأقدر، فقال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١].

فأخبر سبحانه أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما وعظم شأنهما وكبر أجسامهما وسعتهما وعجيب خلقهما أقدر على أن يخلق عظاماً صارت رميماً، فيردها إلى حالتها الأولى، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم بين ذلك بياناً آخر يتضمن مع إقامة الحجة دفع شبه كل ملحد وجاحد، وهو أنه ـ سبحانه ـ ليس في فعله بمنزلة غيره يفعل بالآلات والكلفة والتعب والمشقة ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل لابد معه من آلة ومشارك ومعين، بل يكفي في خلق ما يرد خلقه كن فيكون.

فأخبر أن نفوذ إرادته ومشيئته وسرعة تكوينه وانقياد الكون له. ثم ختم هذه الحجة

بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فسبحان المتكلم بهذا الكلام الذي جمع مع وجازته وفصاحته وصحة برهانه كل ما تدعو إليه الحاجة من تقرير الدليل وجواب الشبهة بألفاظ لا أعذب منها للسمع ولا أحلى من معانيها للقلب ولا أنفع من ثمراتها للعبد.

[١]وقد جمع ـ سبحانه ـ بين النشأتين في قوله: ﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧] وفي قوله: ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٧ ـ ٣٨] إلى قوله: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٤٠].

وفي قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

فتضمنت هذه الآيات عشر أدلة: أحدها قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [يس: ٧٧]. فذكره مبدأ خلقه ليدله به على النشأة الثانية.

ثم أخبر أن هذا الجاحد لو ذكر خلقه لما ضرب المثل، بل لما نسي خلقه ضرب المثل؛ فتحت قوله: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾. ألطف جواب وأبين دليل، وهذا كما تقول لمن جحدك أن تكون قد أعطيته شيئاً: فلان جحدني الإحسان إليه، ونسي الثياب التي عليه، والمال الذي معه، والدار التي هو فيها، حيث لا يمكنه جحد أن يكون ذلك منك.

ثم أجيب عن سؤاله بما يتضمن أبلغ الدليل على ثبوت ما جحده، فقال: ﴿ قُلْ

---

(١) ١٤٠ أعلام جـ١.

يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ ﴾ مَرَّةٍ فهذا جواب واستدلال قاطع، ثم أكد هذا المعنى بالإخبار بعموم علمه لجميع الخلق، فإن تعذر الإعادة عليه إنما يكون لقصور علمه أو قصور في قدرته، ولا قصور في علم من هو بكل خلق عليم، ولا قدرة فوق قدرة من خلق السماوات والأرض، وإذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وبيده ملكوت كل شيء، فكيف تعجز قدرته وعلمه عن أحيائكم بعد مماتكم، ولم تعجز عن النشأة الأولى ولا عن خلق السموات والأرض؟

ثم أرشد عباده إلى دليل واضح جلي متضمن للجواب عن شبه المنكرين بألطف الوجوه وأبينها وأقربها إلى العقل، فقال: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا ﴾ فإذن هذا دليل على تمام قدرته وإخراج الأموات من قبورهم، كما أخرج النار من الشجرة الخضراء.

وفي ذلك جواب عن شبهة من قال من منكري المعاد: الموت بارد يابس والحياة طبعها الرطوبة والحرارة، فإذا حل الموت بالجسم لم يمكن أن تحل فيه الحياة بعد ذلك لتضاد ما بينهما، وهذه شبهة تليق بعقول المكذبين الذين لا سمع لهم ولا عقل؛ فإن الحياة لا تجامع الموت في المحل الواحد ليلزم ما قالوا، بل إذ أوجد الله فيه الحياة وطبعها ارتفع الموت وطبعه، وهذا الشجر الأخضر طبعه الرطوبة والبرودة تخرج منه النار الحارة اليابسة.

ثم ذكر ما هو أوضح للعقول من كل دليل، وهو خلق السموات والأرض مع عظمهما وسعتهما، وأنه لا نسبة للخلق الضعيف إليهما، ومن لم تعجز قدرته وعلمه عن هذا الخلق العظيم الذي هو أكبر من خلق الناس كيف تعجز عن إحيائهم بعد موتهم؟

ثم قرر هذا المعنى بذكر وصفين من أوصافه مستلزمين لما أخبر به فقال: ﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ فكونه خلاقاً عليماً يقتضي أن يخلق ما يشاء، ولا يعجزه ما أراده من الخلق.

ثم قرر هذا المعنى بأن عموم إرادته وكمالها لا يقصر عنه ولا عن شيء أبداً، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، فلا يمكنه الاستعصاء عليه، ولا يتعذر عليه، بل يأتي طائعاً منقاداً لمشيئته وإرادته.

ثم زاده تأكيداً وإيضاحاً بقوله: ﴿ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [يس: ٨٣] فنزه نفسه عما نطق به أعداؤه المنكرون للمعاد معظماً لها بأن ملك كل شيء بيده يتصرف فيه تصرف المالك الحق في مملوكه الذي لا يمكنه الامتناع عن أي تصرف شاءه فيه.

ثم ختم السورة بقوله: ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ كما أنهم ابتدأوا منه هو فكذلك مرجعهم إليه، فمنه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر، وأن إلى ربك المنتهى.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة يس

والحمد لله رب العالمين



سُورَةُ الصَّافَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۝ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۝ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ۝ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝ ﴾.

(١) قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴾ [الصافات: ١]. أقسم ـ سبحانه ـ بملائكته الصافات للعبودية بين يديه، كما قال النبي ﷺ لأصحابه: «**ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ تتمون الصفوف الأول، وتراصون في الصف**»(٢). وكما قالوا عن أنفسهم: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ [الصافات: ١٦٥]. والملائكة الصافات أجنحتها في الهواء. والزاجرات الملائكة التي تزجر السحاب وغيره بأمر الله. فالتاليات التي تتلوا لكلام الله.

وقيل: الصافات الطير: كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ [الملك: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [النور: ٤١].

والزاجرات الآيات والكلمات الزاجرات عن معاصي الله.

والتاليات: الجامعات لكتاب الله ـ تعالى ـ. وقيل: الصافات القتال في سبيله، فالزاجرات الخيل للحمل على أعدائه. فالتاليات الذاكرين له عند ملاقاة عدوهم.

وقيل: الجامعات الصافات أبدانها في الصلاة، الزاجرات أنفسها عن معاصي الله. فالتاليات آياته، واللفظ يحتمل ذلك كله، وإن كان أحق من دخل فيه وأولى الملائكة، فإن الأقسام كالدليل والآية على صحة ما أقسم عليه من التوحيد، وما ذكر من غير

---

(١) ٢٧١ التبيان.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٣٠) وانظر: عمدة القاري (٥/ ١٢٥).

الملائكة فهو من آثار الملائكة، وبواسطتها كان.

وأقسم ـ سبحانه ـ بذلك على توحيد ربوبيته وإلهيته، وقرر توحيد ربوبيته، فقال: ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴾ [الصافات: ٤ ـ ٥]. من أعظم الأدلة على أنه إله واحد. ولو كان معه إله آخر لكان الإله مشاركاً في ربوبيته، كما شاركه في إلهيته. ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

وهذه قاعدة القرآن يقرر توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، فيقرر كونه معبوداً وحده بكونه خالقاً رازقاً وحده. وخص المشارق ههنا بالذكر: إما لدلالتها على المغارب، إذ الأمر أن المتضايفان كل منهما يستلزم الآخر. وإما لكون المشارق مطلع الكواكب ومظاهر الأنوار. وإما توطئة لما ذكر بعدها من تزيين السماء بزينة الكواكب، وجعلها حفظاً من كل شيطان. فذكر المشارق أنسب بهذا المعنى وأليق. والله ـ تعالى ـ أعلم.

[١] قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات: ٦، ٧]. فجمَّل ظاهرها بالكواكب وباطنها بالحراسة من الشياطين.

***

﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝ ﴾.

[٢]أما الوصب فهو: ألم الحب ومرضه، فإن أصل الوصب: المرض، وقد وصب الرجل يوصب فهو وصب، وأوصبه الله فهو موصب، والموصَّب بالتشديد الكثير الأوجاع. وفي الحديث الصحيح: «لا يصيب المؤمن من هم ولا وصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه»[٣] ووصب الشيء يصب وُصُوبًا إذا دام، تقول:

(١) ٣٠١ مدارج جـ٣.
(٢) ٤٢ روضة المحبين.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤١، ٥٦٤٢) ومسلم (رقم ٢٥٧٣) وانظر: فتح الباري (١٠/١٠٦).

وصب الرجل على الأمر إذا داوم عليه، قال الله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ [الصافات: ٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ﴾ [النحل: ٥٢]. أي الطاعة دائمة.

***

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ۝ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ۝ ﴾.

...[1]قال ابن زيد: ينادي مناد يوم القيامة، حتى يجتمع الخلائق: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾ [الصافات: ٢٥]. يقول: من عبد من دون الله، لا ينصر اليوم من عبده، والعابد لا ينصر إلهه. ﴿ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴾ [الصافات: ٢٦][2]. فهذا حال عباد الشيطان يوم لقاء الرحمن، فواسوء حالهم حين امتيازهم عن المؤمنين، إذا سمعوا النداء: ﴿ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ۝ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس: ٥٩ ـ ٦٢].

***

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ ﴾.

[3]أخبر ﷻ أن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدثون، ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت في الدنيا، فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة إلى أن قال قائل منهم: إني كان لي قرين في الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة، ويقول ما حكاه الله عنه، يقول: أئنك

---

(١) ٢٤٣ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ١٩٣) وابن أبي حاتم في تفسيره (٨/ ٢٦٧٤ رقم ١٥٠٤٢).

(٣) ١٨٥ حادي الأرواح.

لمن المصدقين بأنا نبعث، ونجازىٰ بأعمالنا، ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلىٰ وكنا تراباً وعظاماً، ثم يقول المؤمن لإخوانه في الجنة: هل أنتم مطلعون في النار لننظر منزلة قريني هذا، وما صار إليه؟! هذا أظهر الأقوال.

وفيها قولان آخران: (أحدهما): أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً: هل أنتم مطلعون؟ رواه عطاء عن ابن عباس.

والثاني: أنه من قول الله ﷻ لأهل الجنة، يقول لهم: هل أنتم مطلعون؟ والصحيح القول الأول، وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه، والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه، قال كعب: «بين الجنة والنار كوىٰ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلىٰ عدوه كان له في الدنيا اطلع من بعض تلك الكوىٰ».

وقوله: فاطلع أي: أشرف، وقال مقاتل لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون؟ قالوا له: أنت أعرف به منا فاطلع أنت، فأشرف، فرأىٰ قرينه في سواء الجحيم، ولولا أن الله عرفه أياه لما عرفه، لقد تغير وجهه ولونه، وغيره العذاب أشد تغيير، فعندما قال: تالله إن كدت لتردين، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين.أي إن كدت لتهلكني، ولولا أن أنعم الله عليَّ بنعمته لكنت من المحضرين معك في العذاب.

***

﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾.

...[1] قال تعالىٰ في شجرة الزقوم: ﴿إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الصافات: ٦٣]. قال قتادة: لما ذكر الله تعالىٰ هذه الشجرة افتتن بها الظلمة، فقالوا: يكون في النار شجرة والنار تأكل الشجر؟ فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾ [الصافات: ٦٤][2] أخبرهم أن غذاءها من النار، أي غذيت بالنار.

---

(١) ١٦٣ إغاثة جـ٢.

(٢) أخرجه الطبري (١٥/ ١١٤-١١٥) وانظر: فتح الباري (٨/ ٣٩٩).

قال ابن قتيبة: قد تكون شجرة الزقوم نبتاً من النار، ومن جوهر لا تأكله النار، وكذلك سلاسل النار وأغلالها وأنكالها، وعقاربها، وحيَّاتها[(١)]، ولو كانت على ما يعلم لم تبق على النار، وإنما دلنا الله ـ تعالى ـ على الغائب عنده بالحاضر عندنا، فالأسماء متفقة الدلالة، والمعاني مختلفة، وما في الجنة من ثمرها وفرشها وشجرها وجميع آلاتها على مثل ذلك، والمقصود: أن هذه الشجرة فتنة لهم في الدنيا، بتكذيبهم بها، وفتنة لهم في الآخرة بأكلهم منها.

وكذلك إخباره ـ سبحانه ـ بأن عدة الملائكة الموكَّلين بالنار تسعة عشر، كان فتنة للكفار، حيث قال عدو الله أبو جهل: أيخوفكم محمد بتسعة عشر، وأنتم الدُّهم، أفيعجز كل مائة منكم أن يبطشوا بواحد منهم، ثم تخرجون من النار؟ فقال أبو الأسد: يا معشر قريش، إذا كان يوم القيامة فأنا أمشي بين أيديكم على الصراط، فأدفع عشرة بمنكبي الأيمن، وتسعة بمنكبي الأيسر في النار، ونمضي فندخل الجنة». فكان ذكر هذا العدد فتنة لهم في الدنيا، وفتنة لهم يوم القيامة[(٢)].

والكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا، كما أن المؤمن مفتون به، ولهذا سأل المؤمنون أن لا يجعلهم فتنة للذين كفروا، كما قال الحنفاء: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ [الممتحنة: ٤ ـ ٥]، وقال أصحاب موسى عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٥].

قال مجاهد: المعنى: لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا[(٣)]. وقال الزجاج: معناه: لا تظهرهم علينا، فيظنوا أنهم

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٥٠٥) وعمدة القاري (٢٣/ ١٥٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٩/ ١٥٩-١٦٠) والدر المنثور (٨/ ٣٣٣) والتخويف من النار (صـ١٦٠) وغريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ٦٤) والبخاري تعليقاً في كتاب التفسير، باب تفسير سورة الممتحنة. وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٣٣).

على حق، فيفتنوا بذلك. وقال الفراء: لا تظهر علينا الكفار، فيروا أنهم على حق وأنا على باطل. وقال مقاتل: لا تقتِّر علينا الرزق وتبسطه عليهم، فيكون ذلك فتنة لهم[1].

وقد أخبر الله سبحانه أنه قد فتن كلا من الفريقين بالفرق الآخر، فقال الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣] فقال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

والمقصود: أن الله سبحانه فتن أصحاب الشهوات بالصور الجميلة، وفتن أولئك بهم. فكل من النوعين فتنة للآخر، فمن صبر منهم على تلك الفتنة نجا مما هو أعظم منها، ومن أصابته تلك الفتنة سقط فيما هو شر منها، فإن تدارك ذلك بالتوبة النصوح وإلا فسبيل من هلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تركت بعدي فتنة أضر من النساء على الرجال»[2] أو كما قال.

فالعبد في هذه الدار مفتون بشهواته ونفسه الأمارة، وشيطانه المغوي المزين، وقرنائه وما يراه، ويشاهده، مما يعجز صبره عنه، ويتفق مع ذلك ضعف الإيمان واليقين، وضعف القلب ومرارة الصبر، وذوق حلاوة العاجل، وميل النفس إلى زهرة الحياة الدنيا، وكون العوض مؤجلاً في دار أخرى غير هذه الدار التي خلق فيها، وفيها نشأ، فهو مكلف بأن يترك شهوته الحاضرة المشاهدة لغيب طلب منه الإيمان به:

فوالله، لولا الله يسعد عبده ... بتوفيقه، والله بالعبد أرحم
لما ثبت الإيمان يوماً بقلبه ... على هذه العلات، والأمر أعظم
ولا طاوعته النفس في ترك شهوة ... مخافة نار، جمرها يتضرم
ولا خاف يوماً من مقام إلهه ... عليه بحكم القسط، إذ ليس يظلم

---

(١) انظر في ذلك: تفسير الطبري (١١/ ١٥٢) (٢٨/ ٦٤) وتفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٩٧٦) وتفسير ابن كثير (٤/ ٣٤٩) وفتح الباري (٨/ ٦٣٣) وغريب الحديث للحربي (٣/ ٩٣٨-٩٣٩) ولسان العرب (١٣/ ٣١٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٩٦) ومسلم (رقم ٢٧٤٠) وانظر: فتح الباري (٩/ ١٣٨) (١١/ ٢٥٨).

والفتنة نوعان: فتنة الشبهات، وهي أعظم الفتنتين، وفتنة الشهوات. وقد يجتمعان للعبد، وقد ينفرد بإحداهما. ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة، وقلة العلم، ولاسيما إذا اقترن بذلك فساد القصد، وحصول الهوىٰ، فهنالك الفتنة العظمىٰ، والمصيبة الكبرىٰ، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد، الحاكم عليه الهوىٰ لا الهدىٰ، مع ضعف بصيرته، وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالىٰ فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوىٰ يضل عن سبيل الله، فقال: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الفتنة مآلها إلىٰ الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين، وفتنة أهل البدع، علىٰ حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل، والهدىٰ بالضلال.

ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول، وتحكيمه في دق الدين وجله، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلقىٰ عنه حقائق الإيمان وشرائع الإسلام. وما يثبته لله من الصفات والأفعال، والأسماء، ما ينفيه عنه، كما يتلقىٰ عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة، وصوم رمضان، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين، بل هو رسول في كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل، لا يتلقىٰ إلا عنه، ولا يؤخذ إلا منه، فالهدىٰ كله دائر علىٰ أقواله وأفعاله، وكل ما خرج عنها فهو ضلال، فإذا عقد قلبه علىٰ ذلك وأعرض عما سواه، ووزنه بما جاء به الرسول، فإن وافقه قبله، لا لكون ذلك القائل قاله، بل لموافقته للرسالة، وإن خالفه رده، ولو قاله من قاله، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات، وإن فاته ذلك أصابه من فتنتها بحسب ما فاته منه.

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد، وتارة من نقل كاذب، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل، فلم يظفر به، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع، فهي من عمى في البصيرة، وفساد في الإرادة.

وأما النوع الثاني من الفتنة: ففتنة الشهوات. وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٩]. أي: تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها. والخلاق هو النصيب المقدر، ثم قال: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩] فهذا الخوض بالباطل، وهو الشبهات.

فأشار سبحانه في هذه الآية إلى ما يحصل به فساد القلوب والأديان، من الاستمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل، لأن فساد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح. فالأول: هو البدع وما ولاها، والثاني: فسق الأعمال. فالأول فساد من جهة الشبهات والثاني: من جهة الشهوات. ولهذا كان السلف يقولون: «احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه، وصاحب دنيا أعمته دنياه»[1].[2] وكانوا يقولون: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون»[3]. وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل. فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة.

ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل ـ سبحانه ـ إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

---

(١) أخرجه بنحوه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٧٩) منسوباً إلى مالك بن دينار رحمه الله. واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٩٢).

(٢) تقدم في سورة التوبة تفسير هذه الآية بأوسع مما هنا (ح).

(٣) أخرجه الآجري في مسألة الطائفين (رقم ٤) من قول سفيان الثوري وأخرجه الإمام أحمد في العلل ومعرفة الرجال (٣/ ١١٨ رقم ٤٥٠١) والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى (رقم ٥٤٤).

صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضاً في قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات، وجمع بينهما في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس: «أولي القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله»[١]. وقال الكلبي: «أولي القوة في العبادة، والبصر فيها». وقال مجاهد: «الأيدي: القوة في طاعة الله، والأبصار: البصر في الحق»[٢].

وقال سعيد بن جبير: «الأيدي: القوة في العمل، والأبصار: بصرهم بما هم فيه من دينهم»[٣].

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات»[٤]. فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

***

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٧٠).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٧٠) وابن أبي الدنيا في العقل وفضله (رقم ٧).

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (رقم ١٥١٦) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ١٩٧-١٩٨) إلى عبد ابن حميد.

(٤) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ٣٤٦-٣٤٧ رقم ٩٥٤) والقضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٥٢ رقم ١٠٨٠).

[(١)] في الصلاة على غير النبي صلى الله عليه وسلم تسليمًا.

أما سائر الأنبياء والمرسلين فيصلى عليهم ويسلم. وقال تعالى في نوح: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الصافات:٧٨-٨٠]. وقال عن إبراهيم خليله: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الصافات: ١٠٨-١٠٩]. وقال في موسى وهارون: ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الصافات: ١١٩-١٢٠]. وقال: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٠]. فالذي تركه ـ سبحانه ـ على رسوله في الآخرين هو السلام عليهم المذكور.

وقد قال جماعة من المفسرين، منهم مجاهد وغيره: وتركنا عليهم في الآخرين: الثناء الحسن ولسان الصدق للأنبياء كلهم. وهذا قول قتادة أيضاً، ولا ينبغي أن يحكى. هذان قولان للمفسرين كما يفعله من له عناية بحكاية الأقوال.

بل هما قول واحد. فمن قال: إن المتروك هو السلام عليهم في الأخرى نفسه. فلا ريب أن قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴾ جملة في موضع نصب بتركنا، والمعنى أن العالمين يسلمون على نوح ومن بعده من الأنبياء، ومن فسره بلسان الصدق والثناء الحسن نظر إلى لازم السلام وموجبه، وهو الثناء عليهم، وما جعل لهم من لسان صدق الذي لأجله إذا ذكروا سلم عليهم...

***

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

[(٢)] ... الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى، ولهذا قال إبراهيم إمام الحنفاء لخصمائه من المشركين: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ

---

(١) ٢٧١ جلاء الأفهام.

(٢) ٦٢ إغاثة جـ١.

ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦ ـ ٨٧].

وإن كان المعنىٰ: ما ظنكم به أن يعاملكم ويجازيكم به، وقد عبدتم معه غيره، وجعلتم له نداً؟ فأنت تجد تحت هذا التهديد: ما ظننتم بربكم من السوء حتىٰ عبدتم معه غيره؟

فإن المشرك إما أن يظن أن الله ـ سبحانه ـ يحتاج إلىٰ من يدبر أمر العالم معه: من وزير، أو ظهير، أو عون، وهذا أعظم التنقيص لمن هو غني عن كل ما سواه بذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته. وإما أن يظن أن الله سبحانه إنما تتم قدرته بقدرة الشريك، وإما أن يظن بأنه لا يعلم حتىٰ يعلمه الواسطة، أو لا يرحم حتىٰ يجعله الواسطة يرحم. أو لا يكفي عبده وحده، أو لا يفعل ما يريد العبد حتىٰ يشفع عنده الواسطة، كما يشفع المخلوق عند المخلوق، فيحتاج إلىٰ أن يقبل شفاعته لحاجته إلىٰ الشافع وانتفاعه به، وتكثره به من القلة، وتعززه به من الذلة. أو لا يجب دعاء عباده حتىٰ يسألوا الواسطة: أن ترفع تلك الحاجات إليه، كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا أصل شرك الخلق. أو يظن أنه لا يسمع دعاءهم لبعده عنهم، حتىٰ يرفع الوسائط إليه ذلك. أو يظن أن للمخلوق عليه حقا، فهو يقسم عليه بحق ذلك المخلوق عليه، ويتوسل إليه بذلك المخلوق، كما يتوسل الناس إلىٰ الأكابر والملوك بمن يعز عليهم ولا يمكنهم مخالفته، وكل هذا تنقص للربوبية، وهضم لحقها، ولو لم يكن فيه إلا نقص محبة ـ الله تعالىٰ ـ وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، من قلب المشرك، بسبب قسمته ذلك بينه ـ سبحانه ـ وبين من أشرك به، فينقص ويضعف أو يضمحل ذلك التعظيم والمحبة والخوف والرجاء، بسبب صرف أكثره أو بعضه إلىٰ من عبده من دونه ـ لكفىٰ في شناعته.

فالشرك ملزوم لتنقص الرب سبحانه، والتنقص لازم له ضرورة، شاء المشرك أم أبىٰ، ولهذا اقتضىٰ حمده ـ سبحانه ـ وكمال ربوبيته أن لا يغفره، وأن يخلد صاحبه في العذاب الأليم، ويجعله أشقىٰ البرية، فلا تجد مشركاً قط إلا وهو متنقص لله سبحانه،

وإن زعم أنه يعظمه بذلك.

كما أنك لا تجد مبتدعاً إلا وهو متنقص للرسول ـ صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ـ وإن زعم أنه معظم له بتلك البدعة، فإنه يزعم أنها خير من السنة وأولى بالصواب، أو يزعم أنها هي السنة، إن كان جاهلاً مقلداً، وإن كان مستبصراً في بدعته فهو مشاق لله ورسوله.

***

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

[(١)]الدليل على خلق أعمال العباد قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١] فأخبر أنه هو الذي جعل السرابيل وهي: الدروع[(٢)]، والثياب المصنوعة، ومادتها لا تسمى سرابيل إلا بعد أن تحيلها صنعة الآدميين وعملهم، فإذا كانت مجعولة لله فهي مخلوقة له بجملتها: صورتها، ومادتها، وهيآتها.

ونظير هذا قوله: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ﴾ [النحل: ٨٠]، فأخبر ـ سبحانه ـ أن البيوت المصنوعة المستقرة والمنتقلة مجعولة له، وهي إنما صارت بيوتاً بالصنعة الآدمية، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١-٤٢]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خالق الفلك المصنوع للعباد. وأبعد من قال: إن المراد بمثله هو الإبل، فإنه إخراج المماثل حقيقة، واعتبار لما هو بعيد عن المماثلة.

ونظير ذلك قوله ـ تعالى ـ حكاية عن خليله أنه قال لقومه: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ

---

(١) ٥٤ شفاء.

(٢) انظر: لسان العرب (١١/ ٣٣٥).

﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥ ـ ٩٦]. فإن كانت ما مصدرية كما قدره بعضهم؛ فالاستدلال ظاهر وليس بقوي، إذ لا تناسب بين إنكاره عليهم عبادة ما ينحتونه بأيديهم وبين إخبارهم بأن الله خالق أعمالهم من: عبادة تلك الآلهة، ونحتها، وغير ذلك. فالأولى أن تكون ما موصولة أي: والله خلقكم، وخلق آلهتكم التي عملتموها بأيديكم، فهي مخلوقة له، لا آلهة شركاء معه، فأخبر أنه خلق معمولهم، وقد حله عملهم وصنعهم. ولا يقال: المراد مادته، فإن مادته غير معمولة لهم، وإنما يصير معمولاً بعد عملهم.

(١)قال أبو القاسم السهيلي: اعلم أن [ما] إذا كانت موصولة بالفعل الذي لفظه: عمل، أو صنع، أو فعل، وذلك الفعل مضاف إلى فاعل غير الباري ـ سبحانه ـ فلا يصح وقوعها إلا على مصدر لإجماع العقلاء من الأنام في الجاهلية والإسلام على أن أفعال الآدميين لا تتعلق بالجواهر والأجسام، لا تقول: عملت جملاً، ولا صنعت جبلاً ولا حديداً ولا حجراً ولا تراباً، فإذا قلت: أعجبني ما عملت وما فعل زيد، فإنما يعني الحدث، فعلى هذا لا يصح في تأويل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ إلا قول أهل السنة: إن المعنى والله خلقكم وأعمالكم. ولا يصح قول المعتزلة من جهة المنقول ولا من جهة المعقول، لأنهم زعموا أن [ما] واقعة على الحجارة التي كانوا ينحتونها أصناماً، وقالوا: تقدير الكلام: خلقكم والأصنام التي تعملون، إنكاراً منهم أن تكون أعمالنا مخلوقة لله سبحانه، واحتجوا بأن نظم الكلام يقتضي ما قالوا، لأنه تقدم قوله: ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥] فما واقعة على الحجارة المنحوتة، ولا يصح غير هذا من جهة النحو ولا من جهة المعنى: أما النحو، فقد تقدم أن [ما] لا تكون مع الفعل الخاص مصدراً، وأما المعنى: فإنهم لم يكونوا يعبدون النحت، وإنما كانوا يعبدون المنحوتات، فلما ثبت هذا وجب أن تكون الآية التي هي رد عليهم

---

(١) ١٤٦ بدائع جـ١.

وتقييد لهم واقعة على الحجارة المنحوتة والأصنام المعبودة، ويكون التقدير: تعبدون حجارة منحوتة، والله خلقكم وتلك الحجارة التي تعملون. هذا كله معنى قول المعتزلة، وشرح ما شبهوا به، والنظم على تأويل أهل الحق أبدع، والحجة أقطع، والذي ذهبوا إليه فاسد محال، لأنهم أجمعوا معنا على أن أفعال العباد لا تقع على الجواهر والأجسام. فإن قيل: فقد تقول: عملت الصحيفة، وصنعت الجفنة، وكذلك الأجسام معمولة على هذا.

قلنا: لا يتعلق الفعل فيما ذكرتم إلا بالصورة التي هي التأليف والتركيب، وهي نفس العمل. وأما الجوهر المؤلف المركب فليس بمعمول لنا، فقد رجع العمل والفعل إلى الأحداث دون الجواهر، هذا إجماع منا ومنهم، فلا يصلح حملهم على غير ذلك، وأما ما زعموا من حسن النظم وأعجاز الكلام فهو ظاهر، وتأويلنا معدوم في تأويلهم، لأن الآية وردت في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق وإقامة الحجة على من يعبد ما لا يخلق وهم يخلقون، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ أي: من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون، وتدعون عبادة من خلقكم وأعمالكم التي تعملون، ولو لم يضف خلق الأعمال إليه في الآية، وقد نسبها إليهم بالمجاز، لما قامت له حجة من نفس الكلام؛ لأنه كان يجعلهم خالقين لأعمالهم، وهو خالق لأجناس أخر، فيشركهم معه في الخلق تعالى الله عن قول الزائغين، ولا لعا لعثرات المبطلين فما أدحض حجتهم! وما أوهى قواعد مذهبهم! وما أبين الحق لمن اتبعه، جعلنا الله من أتباعه وحزبه. وهذا الذي ذكرناه قاله أبو عبيد في قول حذيفة أن يخلق صانع الحرم وصنعته، واستشهد بالآية، وخالفه القتيبي في إصلاح الغلط، فغلط أشد الغلط، ووافق المعتزلة في تأويلها، وإن لم يقل بقيلها، هذا آخر كلام أبي القاسم. ولقد بالغ في رد ما لا تحتمل الآية سواه، أو ما هو أولى بحملها وأليق بها، ونحن وكل محق مساعدوه على أن الله خالق العباد وأعمالهم، وأن كل حركة في الكون، فالله خالقها، وعلى صحة هذا المذهب أكثر من ألف دليل من: القرآن، والسنة، والمعقول، والفطر، ولكن لا

ينبغي أن تحمل الآية على غير معناها اللائق بها، حرصاً على جعلها عليهم حجة، ففي سائر الأدلة غنية عن ذلك، على أنها حجة عليهم من وجه آخر مع كون [ما] بمعنى الذي، سنبينه إن شاء الله ـ تعالى ـ. والكلام ـ إن شاء الله ـ في الآية في مقامين: أحدهما في سلب دلالتها على مذهب القدرية. والثاني في إثبات دلالتها على مذهب أهل الحق خلاف قولهم. فههنا مقامان: مقام إثبات، ومقام سلب.

فأما مقام السلب، فزعمت القدرية: أن الآية حجة لهم في كونهم خالقين أعمالهم، قالوا: لأن الله ـ سبحانه ـ أضاف الأعمال إليهم. وهذا يدل على أنهم هم المحدثون لها، وليس المراد ههنا نفس الأعمال، بل الأصنام المعمولة، فأخبر ـ سبحانه ـ أنه خالقهم، وخالق تلك الأصنام التي عملوها، والمراد مادتها، وهي التي وقع الخلق عليها. وأما صورتها وهي التي صارت بها أصنامًا، فإنها بأعمالهم، وقد أضافها إليهم فتكون بإحداثهم وخلقهم، فهذا وجه احتجاجهم بالآية.

وقابلهم بعض المثبتين للقدر، وأن الله هو خالق أفعال العباد، فقالوا: الآية صريحة في كون أعمالهم مخلوقة لله، فإن [ما] ههنا مصدرية، والمعنى: والله خلقهم، وخلق أعمالهم، وقرروه بما ذكره السهيلي وغيره.

ولما أورد عليهم القدرية: كيف تكون [ما] مصدرية هنا، وأي وجه يبقى للاحتجاج عليهم إذا كان المعنى: والله خلقكم وخلق عبادتكم وهل هذا إلا تلقين لهم الاحتجاج بأن يقولوا: فإذا كان الله قد خلق عبادتنا للأصنام فهي مرادة له.

فكيف ينهانا عنها؟! وإذا كان مخلوقة مرادة، فكيف يمكننا تركها؟! فهل يسوغ أن يحتج على إنكار عبادتهم.

أجابهم: المثبتون: بأن قالوا: لو تدبرتم سياق الآية ومقصودها لعرفتم صحة الاحتجاج؛ فإن الله ـ سبحانه ـ أنكر عليهم عبادة من لا يخلق شيئاً أصلاً وترك عبادة من هو خالق لذواتهم وأعمالهم، فإذا كان الله خالقكم وخالق أعمالكم، فكيف تدعون عبادته وتعبدون من لا يخلق شيئًا لاذواتكم ولا أعمالكم، وهذا من أحسن

الاحتجاج. وقد تكرر في القرآن الإنكار عليهم أن يعبدوا ما لا يخلق شيئاً، وسوى بينه وبين الخالق، لقوله: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]. وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠] وقوله: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان: ١٠]. إلى أمثال ذلك، فصح الاحتجاج، وقامت الحجة بخلق الأعمال مع خلق الذوات، فهذا منتهى إقدام الطائفتين في الآية كما ترى، والصواب أنها موصولة، وأنها لا تدل على صحة مذهب القدرية، بل هي حجة عليهم مع كونها موصولة.

وهذا يبين بمقدمة نذكرها قبل الخوض في التقرير، وهي: أن طريقة الحجاج والخطاب أن يجرد القصد والعناية بحال ما يحتج له وعليه، فإذا كان المستدل محتجاً على بطلان ما قد ادعى في شيء وهو يخالف ذلك، فإنه يجرد العناية إلى بيان بطلان تلك الدعوى، وأن ما ادعى له ذلك الوصف هو متصف بضده، لا متصف به، فأما أن يمسك عنه ويذكر وصف غيره فلا.

وإذا تقرر هذا، فالله ـ سبحانه ـ أنكر عليهم عبادتهم الأصنام، وبين أنها لا تستحق العبادة، ولم يكن سياق الكلام في معرض الإنكار عليهم ترك عبادته، وأن ما هو في معرض الإنكار عبادة من لا يستحق العبادة، فلو أنه قال: لا تعبدون الله وقد خلقكم وما تعملون لتعينت المصدرية قطعاً، ولم يحسن أن يكون بمعنى الذي إذ يكون المعنى: كيف لا تعبدونه وهو الذي أوجدكم، وأوجد أعمالكم، فهو المنعم عليكم بنوعي الإيجاد والخلق، فهذا وزان ما قرروه من كونها مصدرية.

فأما سياق الآية فإنه في معرض إنكاره عليهم عبادة من لا يستحق العبادة، فلا بد أن يبين فيه معنى ينافي كونه معبوداً، فبين هذا المعنى بكونه مخلوقاً له، ومن كان مخلوقاً من بعض مخلوقاته، فإنه لا ينبغي أن يعبد ولا تليق به العبادة. وتأمل مطابقة هذا المعنى لقوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل: ٢٠]. كيف أنكر عليهم عبادة آلهة مخلوقة له ـ سبحانه ـ وهي غير خالقة. فهذا

يبين المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. ونظيره قوله في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. أي هم عباد مخلوقون كما أنتم كذلك، فكيف تعبدون المخلوق. وتأمل طريقة القرآن لو أراد المعنى الذي ذكروه من حسن صفاته وانفراده بالخلق، كقول صاحب يس: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [يس: ٢٢]. فهنا لما كان المقصود إخبارهم بحسن عبادته واستحقاقه لها، ذكر الموجب لذلك، وهي: كونه خالقاً لعابده فاطراً له، وهذا إنعام منه عليه، فكيف يترك عبادته؟! ولو كان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]. كان يقتضي أن يقال: ألا يعبدون الله وهو خالقهم، وخالق أعمالهم؛ فتأمله فإنه واضح. وقول أبي القاسم في تقرير حجة المعتزلة من الآية: أنه لا يصح أن تكون مصدرية وهو باطل من جهة النحو ليس كذلك، أما قوله: إن [ما] لاتكون مع الفعل الخاص مصدراً، فقد تقدم بطلانه، إذ مصدريتها تقع مع الفعل الخاص المبهم، لقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٧] وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ٧٩] وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]. إلى أضعاف ذلك، فإن هذه كلها أفعال خاصة، وهي أخص من مطلق العمل، فإذا جاءت مصدرية مع هذه الأفعال فمجيئها مصدرية مع العمل أولى. قولهم: إنهم لم يكونوا يعبدون النحت، وإنما عبدوا المنحوت حجة فاسدة، فإن الكلام في [ما] المصاحبة للفعل دون المصاحبة لفعل النحت، فإنها لا تحتمل غير الموصولة، ولا يلزم من كونه الثانية مصدرية كون الأولى كذلك، فهذا تقرير فاسد. وأما تقريره كونها مصدرية أيضاً بما ذكره فلا حجة له فيه. أما قوله: أفعال العباد لا تقع علي الجواهر والأجسام، فيقال: ما معنى عدم وقوعها على الجواهر والأجسام؟ أتعني به أن أفعالهم لا تتعلق بإيجادهم، أم تعني به أنها لا تتعلق بتغييرها وتصويرها، أم تعني به أعم من ذلك، وهو المشترك

بين القسمين؟ فإن عنيت الأول فمسلم، لكن لا يفيدك شيئاً، فإن كونها موصولة لا تستلزم ذلك، فإن كون الأصنام معمولة لهم لا يقتضي أن تكون مادتها معمولة لهم، بل هو على حد قولهم: عملت بيتاً، وعملت باباً، وعملت حائطاً، وعملت ثوباً، وهذا إطلاق حقيقي ثابت: عقلاً، ولغة، وشرعًا، وعرفاً، لا يتطرق إليه رد، فهذا ككون الأصنام معمولة سواء. وإن عنيت: أن أفعالهم لا تتعلق بتصويرها فباطل قطعاً، وإن عنيت: القدر المشترك فباطل أيضاً، فإنه مشتمل على نفي حق وباطل، فنفي الباطل صحيح، ونفي الحق باطل. ثم يقال: إيقاع العمل منهم على الجواهر والأجسام يجوز أن يطلق فيه العمل الخاص وشاهده في الآية: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ فـ[ما] ههنا موصولة، فقد أوقع فعلهم وهو النحت على الجسم، وحينئذ فأي فرق بين إيقاع أفعالهم الخاصة على الجوهر والجسم، وبين أيقاع أفعالهم العامة عليه، لا بمعنى أن ذاته مفعولة له، بل بمعنى أن فعلهم هو الذي صار به صنماً، واستحق أن يطلق عليه اسمه، كما أنه بعملهم صار منحوتاً، واستحق هذا الاسم، وهذا بين. وأما قوله بجواب النقض: بعملت الصحيفة وصنعت الجفنة، أن الفعل متعلق بالصورة التي هي التأليف والتركيب، وهي نفس العمل، فكذلك هو أيضاً متعلق بالتصوير الذي صار الحجر به صنماً منحوتاً سواء. وأما قوله: الآية في بيان استحقاق الخالق للعبادة لانفراده بالخلق فقد تقدم جوابه، وأن الآية وردت لبيان عدم استحقاق مبعوديهم للعبادة، لأنها مخلوقة لله، وذكرنا شواهده من القرآن.

فإن قيل: كان يكفي في هذا أن يقال: أتعبدون ما تنحتون. والله خالقه؟! فلما عدل إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ علم أنه أراد الاحتجاج عليهم في ترك عبادته سبحانه وهو خالقهم وخالق أفعالهم.

قيل: في ذكر خلقه ـ سبحانه ـ لآلهتهم ولعابديها من بيان تقبيح حالهم وفساد رأيهم وعقولهم في عبادتها دونه ـ تعالى ـ ما ليس في الاقتصار على ذكر خلق الآلهة فقط؛ فإنه إذا كان الله ـ تعالى ـ هو الذي خلقكم وخلق معبوديكم، فهي مخلوقة

أمثالكم، فكيف يعبد العاقل من هو مثله، ويتألهه، ويفرده بغاية التعظيم والإجلال والمحبة؟ وهل هذا إلا أقبح الظلم في حق أنفسكم وفي حق ربكم! وقد أشار ـ تعالى ـ إلى هذا المعنى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]. ومن حق المعبود أن لا يكون مثل العابد، فإنه إذا كان مثله كان عبداً مخلوقاً، والمعبود ينبغي أن يكون رباً خالقاً، فهذا من أحسن الاحتجاج وأبينه، فقد أسفر لك من المعنى المقصود بالسياق: صيحة، ووضح لك شرحه، وانجلى بحمد الله الإشكال، وزال عن المعنى غطاء الإجمال، وبان أن ابن قتيبة في تفسير الآية وفق للسداد، كما وفق لموافقة أهل السنة في خلق أعمال العباد، ولا تستطل هذه الفصل، فإنه يحقق لك فصولاً لا تكاد تسمعها في خلال المذاكرات، ويحصل لك قواعد وأصولاً لا تجدها في عامة المصنفات.

فإن قيل: فأين ما وعدتم به من الاستدلال بالآية على خلق الله لأعمال العباد على تقدير كون [ما] موصولة.

قيل: نعم، قد سبق الوعد بذلك، وقد حان إنجازه، وآن إبرازه، ووجه الاستدلال بها على هذا التقدير: أن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه خالقهم وخالق الأصنام التي عملوها، وهي إنما صارت أصناماً بأعمالهم، فلا يقع عليها ذلك الاسم إلا بعد عملهم، فإذا كان ـ سبحانه ـ هو الخالق اقتضى صحة هذا الإطلاق: أن يكون خالقهم بجملتها، أعني: مادتها وصورتها، فإذا كانت صورتها مخلوقة لله، كما أن مادتها كذلك، لزم أن يكون خالقاً لنفس عملهم الذي حصلت به الصورة، لأنه متولد عن نفس حركاتهم. فإذا كان الله خالقها كانت أعمالهم التي تولد عنها ما هو مخلوق لله مخلوقة له، وهذا أحسن استدلالاً وألطف من جعل [ما] مصدرية. ونظيره من الاستدلال سواء قوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٢] والأصح أن المثل المخلوق هنا هو السفن، وقد أخبر أنها مخلوقة، وهي إنما صارت سفناً بأعمال العبد. وأبعد من قال: إن المثل ههنا هو سفن البر،

وهي الإبل لوجهين. أحدهما أنها لا تسمى مثلاً للسفن: لا لغة ولا حقيقة؛ فإن المثلين ما سد أحدهما مسد الآخر؛ وحقيقة المماثلة أن يكون بين فلك وفلك، لا بين جمل وفلك. الثاني: أن قوله: ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ ﴾ [يس: ٤٣] عقب ذلك دليل على أن المراد الفلك التي إذا ركبوها قدرنا على إغراقهم فذكرهم بنعمه عليهم من وجهين. أحدهما: ركوبهم إياها. والثاني: أن يسلمهم عند ركوبها من الغرق. ونظير هذا الاستدلال أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل: ٨١]، والسرابيل التي يلبسونها وهي مصنوعة لهم، وقد أخبر بأنه ـ سبحانه ـ هو جاعلها، وإنما صارت سرابيل بعملهم. ونظيره: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا ﴾ [النحل: ٨٠]. والبيوت التي من جلود الأنعام هي: الخيام، وإنما صارت بيوتاً بعملهم. فإن قلت: المراد من هذا كله المادة لا الصورة.

قلت: المادة لا تستحق هذه الأسماء التي أطلق الخلق عليها، وإنما تستحق هذه الأسماء بعد عملها، وقيام صورها بها، وقد أخبر أنها مخلوقة له في هذه الحال، والله أعلم.

***

﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

[(١)] في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ﷺ وهذا الاسم من النمط المتقدم، فإن إبراهيم بالسريانية معناه: «أب رحيم» والله ﷻ جعل إبراهيم: الأب الثالث للعالم.

فإن أبانا الأول: آدم، والأب الثاني: نوح. وأهل الأرض كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧].

وبهذا يتبين كذب المعبرين من العجم الذين يزعمون أنهم لا يعرفون نوحاً ولا ولده، ولا ينسبون إليه وينسبون ملوكهم من آدم إليهم، ولا يذكرون نوحاً في آبائهم.

---

(١) ١٥٤ جلاء الأفهام.

وقد أكذبهم الله ﷻ في ذلك.

فالأب الثالث: أب الآباء وعمود العالم، وإمام الحنفاء الذي اتخذه الله خليلاً، وجعل النبوة والكتاب في ذريته، ذاك خليل الرحمن وشيخ الأنبياء، كما سماه النبي ﷺ بذلك. فإنه لما دخل الكعبة وجد المشركين قد صوروا فيها صورته وصورة إسماعيل ابنه، وهما يستقسمان بالأزلام. فقال: «**قاتلهم الله، لقد علموا أن شيخنا لم يكن يستقسم بالأزلام**»[١].

ولم يأمر الله رسوله ﷺ أن يتبع ملة أحد من الأنبياء غيره، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٣٣]. وأمر أمته بذلك، فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا﴾ [الحج: ٧٨]. «وملة» منصوب على إضمار فعل أي: اتبعوا، والزموا ملة إبراهيم.

ودل على المحذوف ما تقدم من قوله: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]. وهذا هو الذي يقال له: الإغراء.

وقيل: منصوب انتصاب المصادر، والعامل فيه مضمون ما تقدم قبله؛ وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا أصبحوا وإذا أمسوا أن يقولون: «**أصبحنا على: فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**»[٢]. وتأمل هذه الألفاظ كيف جعل الفطرة للإسلام، فإنه فطرة الله التي فطر الناس عليها، وكلمة الإخلاص هي: شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٠٣ رقم ٣٦٩٠٥) والأزرقي في أخبار مكة (صـ ١٦٥-١٦٦) وانظر: فتح الباري (٨/ ١٧).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٦٩) والنسائي في الكبرى (٦/ ٣ رقم ٩٨٢٩) والدارمي (رقم ٢٦٨٨) وأحمد (٣/ ٤٠٦-٤٠٧) والبزار (٥/ ٢٩١ رقم ١٩١١) والطبراني في الدعاء (رقم ٢٩٣) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١١٦): رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح.

والملة لإبراهيم فإنه صاحب الملة. وهي التوحيد وعبادة الله ـ تعالى ـ وحده لا شريك له، ومحبته فوق كل محبة. والدين للنبي ﷺ، وهو دينه الكامل وشرعه التام الجامع لذلك كله، وسماه الله سبحانه: «إماما، وأمة، وقانتاً، وحنيفاً».

قال تعالى: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]. فأخبر ـ سبحانه ـ أنه جعله إماماً للناس، وأن الظالم من ذريته لا ينال رتبة الإمامة. والظالم هو المشرك. وأخبر ـ سبحانه ـ أن عهده بالإمامة لا ينال من أشرك به.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢]. فالأمة هو القدوة المعلم للخير. والقانت المطيع لله الملازم لطاعته. والحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه. ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ، وإنما فسره بلازم المعنى. فإن الحنف هو الإقبال، ومن أقبل على شيء مال عن غيره، والحنف في الرجلين هو إقبال إحداهما على الأخرى، ويلزمه ميلها عن جهتها.

قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠]. فحنيفاً هو حال مفردة لمضمون قوله: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ﴾.

ولهذا فسرت: «مخلصاً» فتكون الآية: قد تضمنت الصدق والإخلاص، فإن إقامة الوجه للدين، هو إفراد طلبه بحيث لا يبقى في القلب إرادة لغيره، والحنيف المفرد لمعبوده لا يريد غيره، فالصدق أن لا ينقسم طلبك، والإخلاص أن لا ينقسم مطلوبك، الأول توحيد الطلب، والثاني توحيد المطلوب.

والمقصود: أن إبراهيم عليه السلام هو أبونا الثالث، وهو إمام الحنفاء، ويسميه أهل الكتاب: عمود العالم، وجميع أهل الملل متفقة على تعظيمه وتوليه ومحبته. وكان خير

بنيه سيد ولد آدم محمد ﷺ يجله ويعظمه ويبجله ويحترمه.

ففي الصحيحين من حديث المختار بن فلفل، عن أنس بن مالك ـ رضي الله تعالىٰ عنه ـ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «ذاك إبراهيم»[(١)] وسماه شيخه، كما تقدم.

وثبت في صحيح البخاري من حديث سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله تعالىٰ عنهما ـ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنكم محشورون: حفاة، عراة، غرلاً. ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾** [الأنبياء: ١٠٤] **وأول من يُكسى يوم القيامة إبراهيم**»[(٢)]. وكان رسول الله ﷺ أشبه الخلق به، كما في الصحيحين عنه قال: «**رأيت إبراهيم، فإذا أقرب الناس شبهاً به بصاحبكم**»[(٣)]. يعني نفسه ﷺ. وفي لفظ آخر: «**فانظروا إلىٰ صاحبكم**»[(٤)]. وكان ﷺ يعوذ أولاد ابنته حسناً وحسيناً بتعويذ إبراهيم لإسماعيل وإسحاق. ففي صحيح البخاري عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين ويقول: «**إن أباكما كان يعوذ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التامة، ومن كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٦٩) والنسائي في الكبرىٰ (٦/ ٥٢٠ رقم ١١٦٩٢) وأبو داود (رقم ٤٦٧٢) والترمذي (رقم ٣٣٥٢) وأحمد (٣/ ١٧٨، ١٨٤) وأبو يعلىٰ (٧/ ٣٩ رقم ٣٩٤٨) وتمام في فوائده (رقم ١١٩) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وانظر: فتح الباري (٦/ ٤١٢) (١١/ ١٦١) وشرح النووي (١٥/ ١٢١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٩) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٧٩، ٣٨٤-٣٨٧) وشرح النووي (٨/ ٧٤) (١٧/ ١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري بلفظ قريب (رقم ٣٣٩٤، ٣٤٣٧) ومسلم (رقم ١٦٨) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٢٩) وعمدة القاري (١٥/ ٢٩١-٢٩٢).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٥٥) ومسلم (رقم ١٦٦) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٩٠) وشرح النووي (٢/ ٢٣٠).

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٧١) وانظر: عمدة القاري (١٥/ ٢٦٤-٢٦٥).

وكان ﷺ أول من قرى الضيف، وأول من اختتن، وأول من رأى الشيب. فقال: «ماهذا يارب؟» قال: «وقار». قال: «رب زدني وقاراً»[١].

وتأمل ثناء الله سبحانه عليه في إكرام ضيفه الملائكة، حيث يقول سبحانه: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٤ـ٢٧] ففي هذا ثناء على إبراهيم من وجوه متعددة:

أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون، وهذا على أحد القولين: أنه إكرام إبراهيم. والثاني: أنهم المكرمون عند الله. ولا تنافي بين القولين، فالآية تدل على المعنيين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ ﴾ فلم يذكر استئذانهم. ففي هذا دليل على أنه ﷺ كان قد عرف: بإكرام الضيفان، واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيفة، مطروقاً لمن ورده، لا يحتاج إلى الاستئذان، بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث: قوله: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ بالرفع، وهم سلموا عليه بالنصب، والسلام بالرفع أكمل، فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، المنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم تحية أحسن من تحيتهم، فإن قولهم: ﴿ سَلَٰمًا ﴾ يدل على: سلمنا سلاماً. وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ أي: سلام عليكم.

الرابع: أنه حذف المبتدأ من قوله: ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون. فحذف المبتدأ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥/ ٣١٧ رقم ٢٦٤٦٧) وعبد الرزاق (١١/ ١٧٥ رقم ٢٠٢٤٥) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٢٢ رقم ١٦٤٢) والبيهقي في الشعب (٥/ ٢١١ رقم ٦٣٩٢) والبخاري في الأدب المفرد (رقم ١٢٥٠) والطبراني في الأوائل (رقم ٤٥).

هنا من ألطف الكلام.

الخامس: أنه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله، فقال: ﴿ مُّنكَرُونَ ﴾ ولم يقل: إني أنكركم، وهو أحسن في هذا المقام، وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس: أنه راغ إلى أهله ليخبرهم بنزلهم، والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام، بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام، ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

السابع: أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة، فدل على أن ذلك كان معداً عندهم، مهيئاً للضيفان، ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم، فيشتريه أو يستقرضه.

الثامن: قوله: ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم، بل هو الذي ذهب، وجاء به نفسه، ولم يبعثه مع خادمه، وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع: أنه جاء بعجل كامل، ولم يأت ببعضه منه، وهذا من تمام كرمه ﷺ.

العاشر: أنه سمين لا هزيل، ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية، فآثر به ضيفانه.

الحادي عشر: أنه قرب إليهم بنفسه، ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر: أنه قربه إليهم، ولم يقربهم إليه، وهذا أبلغ في الكرامة أن تجلس الضيف، ثم يقرب الطعام إليه، ويحمله إلى حضرته، ولا تضع الطعام في ناحية، ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه.

الثالث عشر: أنه قال: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وهذا عرض وتلطف في القول، وهو أحسن من قوله: كلوا أو مدوا أيديكم ونحوها. وهذا مما يعلم الناس بعقولهم: حسنه ولطفه، ولهذا يقولون: بسم الله، أو ألا تتصدق، أو ألا تجبر، ونحو ذلك.

الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم الأكل، لأنه رآهم لا يأكلون، ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا، وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل، قال لهم: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾؟! ولهذا أوجس منهم خيفة، أي: أحسها، وأضمرها في نفسه، ولم يبدها لهم، وهو الوجه.

الخامس عشر: فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم، ولم يظهر لهم، فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا: لا تخف وبشروه بالغلام.

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة، التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات، التي هي تخلف وتكلف، وإنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين.

وقد شهد الله سبحانه بأنه وفَّى ما أمر به، فقال تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴾ [النجم: ٣٦ ـ ٣٧]. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وفَّى جميع شرائع الإسلام، ووفَّى ما أمر به من تبليغ الرسالة، وقال تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ [البقرة: ١٤٢]. فلما أتم ما أمر به من الكلمات جعله الله إماماً للخلائق يأتمون به.

وكان ﷺ كما قيل: قلبه للرحمن، وولده للقربان، وبدنه للنيران، وماله للضيفان.

ولما اتخذه ربه خليلاً والخلة هي كمال المحبة، وهي مرتبة لا تقبل المشاركة والمزاحمة، وكان قد سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره ـ امتحنه بذبحه ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر به، وعزم على فعله وظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد: إيثاراً لمحبة خليله على محبته فسح الله ذلك عنه وفداه بالذبح العظيم، لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة

من العزم وتوطين النفس على ما أمر به فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح نفسه مشقة، فنسخ في حقه، فصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا: سنة في أتباعه إلى يوم القيامة.

وهو الذي فتح للأمة باب مناظرة المشركين وأهل الباطل، وكسر حججهم، وقد ذكر الله سبحانه مناظرته في القرآن مع إمام المعطلين، ومناظرته مع قومه المشركين وكسر حجج الطائفتين بأحسن مناظرة، وأقربها إلى الفهم وحصول العلم. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قال زيد بن أسلم وغيره: بالحجة والعلم؛ ولما غلب أعداء الله معه بالحجة، وظهرت حجته عليهم، وكسر أصنامهم فكسر حججهم ومعبودهم، هموا بعقوبته وإلقائه في النار، وهذا شأن المبطلين إذا غلبوا، وقامت عليهم الحجة هموا بالعقوبة، كما قال فرعون لموسى، وقد أقام عليه الحجة: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]. فأضرموا له النار، وألقوه في المنجنيق، فكانت تلك السفرة من أعظم سفرة سافرها وأربكها عليه، فإنه ما سافر سفرة أبرك، ولا أعظم، ولا أرفع لشأنه، وأقر لعينه منها، وفي تلك السفرة عرض له جبرائيل بين السماء والأرض، فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. قالها نبيكم، وقالها إبراهيم حين ألقي في النار(١)، فجعل الله سبحانه عليه النار بردًا وسلامًا.

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمر بقتل الوزغ،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٦٣) وانظر: عمدة القاري (١٨/ ١٥٣) وفتح الباري (٨/ ٢٢٩) وشرح النووي (١٥/ ٣٢).

وقال: «كانت تنفخ على إبراهيم»[١].

وهو الذي بنى بيت الله، وأذن في الناس بحجه، فكل من حجه واعتمره حصل لإبراهيم من مزيد ثواب الله إكرامه بعدد الحجاج والمعتمرين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] فأمر نبيه ﷺ وأمته أن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى تحقيقاً للاقتداء به وإحياء آثاره صلى الله على نبينا وعليه وسلم.

ومناقب هذه الإمام الأعظم والنبي الأكرم أجل من أن يحيط بها كتاب، وإن مدّ الله في العمر أفردنا كتاباً في ذلك يكون قطرة في بحر فضائله أو أقل، جعلنا الله ممن ائتم به، ولا جعلنا ممن عدل عن ملته بمنه وكرمه.

وقد روى لنا عنه النبي ﷺ حديثاً، وقع لنا، متصل الرواية إليه، رويناه في كتاب الترمذي وغيره من حديث القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليله أسري بي، فقال: يا محمد اقرئ أمتك السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[٢]. قال الترمذي: هذا حديث حسن.

***

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

[٣]إذا تأملت حكمته سبحانه فيما ابتلى به عباده وصفوته بما ساقهم به إلى أجل الغايات وأكمل النهايات، التي لم يكونوا يعبرون إليها إلا على جسر من الابتلاء

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٥٩) وأخرج مسلم عن أم شريك أن النبي ﷺ أمرها بقتل الأوزاغ (رقم ٢٢٣٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٥٤-٣٥٩) وشرح النووي (١٤/ ٢٣٦).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٤٦٢) والطبراني في الصغير (رقم ٥٣٩) وفي الأوسط (٤/ ٢٧٠- ٢٧١ رقم ٤١٧٠) وفي الكبير (١٠/ ١٧٣ رقم ١٠٣٦٣) وقال الترمذي: حديث حسن غريب.

(٣) ٢٩٩ مفتاح جـ١.

والامتحان، وكان ذلك الجسر لكماله: كالجسر الذي لا سبيل إلى عبورهم إلى الجنة إلا عليه، وكان ذلك الابتلاء والامتحان عين المنح في حقهم والكرامة، فصورته صورة ابتلاء وامتحان، وباطنه فيه الرحمة والنعمة.

فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاء والامتحان.

فتأمل حال أبينا آدم وما آلت محنته من: الاصطفاء، والاجتباء والتوبة، والهداية، ورفعة المنزلة، لولا تلك المحنة التي جرت عليه؛ وهي إخراجه من الجنة، وتوابع ذلك، لما وصل إلى ما وصل إليه. فكم بين حالته الأولى وحالته الثانية في نهايته.

وتأمل حال أبينا الثاني نوح ﷺ وما آلت إليه محنته وصبره على قومه تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه، وأغرق أهل الأرض بدعوته، وجعل العالم بعده من ذريته. وجعله خامس خمسة، وهم: أولو العزم الذين هم أفضل الرسل، وأمر رسوله ونبيه محمداً ﷺ أن يصبر كصبره، وأثنى عليه بالشكر، فقال: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ﴾ [الإسراء: ٣] فوصفه بكمال الصبر والشكر.

ثم تأمل حال أبينا الثالث إبراهيم ﷺ إمام الحنفاء، وشيخ الأنبياء، وعمود العالم، وخليل رب العالمين من بني آدم، وتأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله.

وتأمل كيف آل به بذله لله نفسه ونصره دينه إلى أن اتخذه الله خليلاً لنفسه، وأمر رسوله وخليله محمداً ﷺ أن يتبع ملته.

وأنبهك على خصلة واحدة مما أكرمه الله به في محنته بذبح ولده، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ جازاه على تسليمه ولده لأمر الله، بأن: بارك في نسله، وكثره، حتى ملأ السهل والجبل، فإن الله ـ تبارك وتعالى ـ لا يتكرم عليه أحد، وهو أكرم الأكرمين، فمن ترك لوجهه أمراً، أو فعله لوجهه، بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الأمر أضعافاً مضاعفة، وجازاه بأضعاف ما فعله لأجله أضعافاً مضاعفة، فلما أمر إبراهيم بذبح ولده فبادر لأمر الله، ووافق عليه الولد أباه، رضاء منهما وتسليماً، وعلم الله منهما الصدق والوفاء، فداه بذبح عظيم، وأعطاهما ما أعطاهما من فضله. وكان من بعض

عطاياه أن بارك في ذريتهما حتى ملؤا الأرض؛ فإن المقصود بالولد إنما هو التناسل وتكثير الذرية، ولهذا قال إبراهيم: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٠] وقال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ﴾ [إبراهيم: ٤٠]. فغاية ما كان يحذر ويخشى من ذبح ولده انقطاع نسله، فلما بذل ولده لله وبذل الولد نفسه ضاعف الله له النسل، وبارك فيه، وكثّره حتى ملؤا الدنيا، وجعل النبوة والكتاب في ذريته خاصة، وأخرج منهم محمداً ﷺ.

وقد ذكر أن داود عليه السلام أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل، فأمر بإحضارهم وبعث لذلك نقباء وعرفاء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فمكثوا مدة لا يقدرون على ذلك، فأوحى الله إلى داود: أن قد علمت إني وعدت أباك إبراهيم لما أمرته بذبح ولده، فبادر إلى طاعة أمري، أن أبارك له في ذريته، حتى يصيروا في عدد النجوم، وأجعلهم بحيث لا يُحصى عددهم، وقد أردت أن تحصي عدداً قدرت أنه لا يحصى، وذكر باقي الحديث، فجعل من نسله هاتين الأمتين العظيمتين اللتين لا يحصي عددهم إلا الله خالقهم ورازقهم، وهم بنو إسرائيل وبنو إسماعيل، هذا سوى ما أكرمه الله به، من: رفع الذكر والثناء الجميل على ألسنة جميع الأمم، وفي السموات بين الملائكة، فهذا من بعض ثمرة معاملته، فتباً لمن عرفه ثم عامل غيره! ما أخسر صفقته وما أعظم حسرته!.

***

﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾.

[١](مرتبة الخلة) التي انفرد بها الخليلان: إبراهيم ومحمد - صلى الله عليهما وسلم - كما صح عنه أنه قال: «إن الله اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً»[٢]. وقال: «لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل

(١) ٣٠ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٥٣٢) وانظر: فتح الباري (٧/ ٢٣).

الرحمن»[1]. والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال: «الخلة» لإبراهيم. و«المحبة» لمحمد، فإبراهيم خليله ومحمد حبيبه.

و«الخلة» هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه، حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلا[2]

وهذا هو السر الذي لأجله ـ والله أعلم ـ أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده، وفلذة كبده، لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه.

و«الخلة» منصب لا يقبل الشركة والقسمة. فغار الخليل على خليله: أن يكون في قلبه موضع لغيره. فأمره بذبح الولد. ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وطن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزمًا جازمًا: حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه، وفداه بالذبح العظيم. وقيل له: ﴿ يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]. أي عملت عمل المصدق. ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٥]. نجزي من بادر إلى طاعتنا، فنقر عينه، كما أقررنا عينك بامتثال أوامرنا، وإبقاء الولد وسلامته: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الصافات: ١٠٦]، وهو اختبار المحبوب لمحبه، وامتحانه إياه، فيؤثر مرضاته، فيتم عليه نعمه، فهو بلاء محنة ومنحة عليه معاً[3].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٨٣) وانظر: شرح النووي (١/ ١٩٥) وعمدة القاري (٤/ ٢٤٤).

(٢) هذا البيت من بحر الخفيف، وينسب إلى بشار بن برد أشعر المولدين على الإطلاق، وكان ضريراً واتهم بالزندقة ومات ضرباً بالسياط سنة ١٦٧هـ ودفن بالبصرة. وينسب أيضاً إلى أبي بكر الشبلي، له شعر جيد وسلك به مسالك المتصوفة، ولد بسمراء ومات ببغداد سنة ٣٣٤هـ. وذكر البيت أبو منصور الثعلبي في المنتحل (صـ٤٦١) والقرطبي في تفسيره (٥/ ٤٠٠) ونسبه إلى بشار، وذكره أيضاً ابن كثير في البداية والنهاية (١/ ١٦٩).

(٣) تقدم في سورة هود ذكر من هو الذبيح والخلاف فيه. (ج).

[(١)] منصب الخلة: منصب لا يقبل المزاحمة بغير المحبوب، وأخذ الولد شعبة من شعاب القلب. غار الحبيب على خليله أن يسكن غيره في شعبة من شعاب قلبه، فأمره بذبحه، فلما أسلم للامتثال، خرجت تلك المزاحمة، وخلصت المحبة لأهلها، فجاءته البشرى، وفديناه بذبح عظيم: ليس المراد أن يعذب، ولكن يُبْتَلَى ليهذب، ليس العجب من أمر الخليل بذبح الولد، إنما العجب من مباشرة الذبح بيده، ولولا الاستغراق في حب الآمر لما هان مثل هذا المأمور، فلذلك جعلت آثارها: مثابة للقلوب، تحن إليها أعظم من حنين الطيور إلى أوكارها.

***

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

[(٢)] الأعمال تشفع لصاحبها عند الله، وتذكر به إذا وقع في الشدائد. قال تعالى عن ذي النون: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]. وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له، وقال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [يونس: ٩٠] قال له جبريل: ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس: ٩١].

وفي المسند عنه ﷺ أنه قال: «**إن ما تذكرون من جلال الله ـ من التسبيح، والتكبير، والتحميد ـ يتعاطفن حول العرش، لهم دوي كدوي النحل، يذكِّرن بصاحبهن. أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكر به؟**»[(٣)] ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح

---

(١) ٢٢٣ بدائع جـ٣.

(٢) ٣٢٩ مدارج جـ١.

(٣) أخرجه ابن ماجه (رقم ٣٨٠٩) والبزار (٨/ ١٩٩ رقم ٣٢٣٦) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١/ ١٠١-١٠٢) وابن قدامة المقدسي في إثبات صفة العلو (صـ٨٣) وقال الكناني في مصباح الزجاجة (٤/ ١٣٢): هذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

ولم يعذب، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد ما لا يغفر لصاحب الإشراك. لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له. ويسامحه ما لا يسامح به المشرك. وكلما كان توحيد العبد أعظم. كانت مغفرة الله له أتم. فمن لقيه لا يشرك به شيئاً البتة غفر له ذنوبه كلها، كائنة ما كانت. ولم يعذب بها.

ولسنا نقول: إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد، بل كثير منهم يدخل بذنوبه، ويعذب على مقدار جرمه، ثم يخرج منها، ولا تنافي بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه. ونزيد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه.

أعلم أن أشعة «لا إله إلا الله» تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه. فلها نور. وتفاوت أهلها في ذلك النور: قوة، وضعفاً، لا يحصيه إلا الله تعالى. فمن الناس: من نور هذه الكلمة في قلبه: كالشمس. ومنهم: من نورها في قلبه: كالكوكب الدري. ومنهم: من نورها في قلبه: كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً ومعرفة وحالاً...

***

﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦﴾.

[1] يقطين: وهو الدباء والقرع. وإن كان اليقطين أعم. فإنه في اللغة: كل شجر لا تقوم على ساق. كالبطيخ والقثاء والخيار. قال الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٦].

فإن قيل: ما لا يقوم على ساق يسمى نَجْماً، لا شجراً. والشجر ما له ساق. قاله أهل

(١) ٤١٣ زاد المعاد جـ٣.

اللغة. فكيف قال: ﴿ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾؟

فالجواب: أن الشجر إذا أطلق كان ما له ساق يقوم عليه. وإذا قيد بشيء تقيد به. والفرق بين المطلق والمقيد في الأسماء: باب مهم عظيم النفع في الفهم ومراتب اللغة. و«اليقطين» المذكور في القرآن: هو نبات الدباء. وثمره يسمى الدباء والقرع، وشجره اليقطين...

***

﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

[1][أو] وضعت للدلالة على أحد الشيئين المذكورين معها، ولذلك وقعت في الخبر المشكوك فيه، من حيث كان الشك تردداً بين أمرين من غير ترجيح لأحدهما على الآخر، لا أنها وضعت للشك فقد تكون في الخبر الذي لا شك فيه، إذا أبهمت على المخاطب، ولم تقصد أن تبين له: كقوله سبحانه: ﴿ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧]. أي أنهم من الكثرة بحيث يقال فيهم: هم مائة ألف أو يزيدون. فـ [أو] على بابها دالة على أحد الشيئين: إما مائة ألف بمجردها، وإما مائة ألف مع زيادة، والمخبر في كل هذا لا يشك.

وقوله: ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]. ذهب في هذه الزجاج كالتي في قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٩]. إلى أنها [أو] التي للإباحة أي أبيح للمخاطبين أن يشبهوا بهذا أو هذا؛ وهذا فاسد، فإن [أو] لم توضع للإباحة في شيء من الكلام، ولكنها على بابها.

أما قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، فإنه تعالى ذكر مثلين مضروبين للمنافقين في حالتين مختلفتين، فهم لا يخلون من أحد الحالتين فـ [أو] على بابها من الدلالة على

(١) ١٩٨ بدائع جـ١.

أحد المعنيين، وهذا كما تقول: زيد لا يخلو أن يكون في المسجد أو الدار. ذكرت [أو] لأنك أردت أحد الشيئين. وتأمل الآية بما قبلها، وافهم المراد منها، تجد الأمر كما ذكرت لك، وليس المعنى: أبحت لكم أن تشبهوهم بهذا وهذا.

وأما قوله: ﴿ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، فإنه ذكر قلوباً ولم يذكر قلباً واحداً، فهي على الجملة قاسية أو على التعيين لا تخلو من أحد أمرين: إما أن تكون كالحجارة وإما أن تكون أشد قسوة، ومنها ما هو كالحجارة، ومنها ما هو أشد قسوة، منها. ومن هذا قول الشاعر:

فقلت لهم شيـــئان لابد منهـــا صدور رماح أشرعت أو سلاسل[1]

أي: لا بد منهما في الجملة ثم فصل الاثنين: بالرماح والسلاسل، فبعضهم له الرماح قتلاً، وبعضهم له السلاسل أسراً، فهذا على التفصيل والتعيين، والأول على الجملة، فالأمران واقعان جملة، وتفصيلهما بما بعد [أو]. وقد يجوز في قوله تعالى: ﴿ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾. مثل أن يكون: ﴿ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾. وأما [أو] التي للتخيير فالأمر فيها ظاهر. وأما [أو] التي زعموا أنها للإباحة نحو: جالس الحسن أو ابن سيرين، فلم توجد الإباحة من لفظ. [أو]. ولا من معناها، ولا تكون [أو] قط للإباحة، وإنما أخذت من لفظ الأمر الذي هو للإباحة.

ويدل على هذا أن القائلين بأنها للإباحة يلزمهم أن يقولوا: إنها للوجوب إذا دخلت بين شيئين لابد من أحدهما نحو قولك للمكفر أطعم عشرة مساكين أو اكسهم بالوجوب هنا لم يوجد من [أو] وإنما أخذ من الأمر، فكذا: جالس الحسن أو ابن سيرين.

[2]لفظة «أو» في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح (١٠/ ٢٥٤) وجاء صدره عنده هكذا: فقالوا: لنا اثنتان لابد منهما.
(٢) ٣٢٠ مدارج جـ١.

قَسْوَةً ﴾[البقرة: ٧٤]. وقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾[الصافات: ١٤٧]. هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة. فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهي كالحجارة في القسوة لا دونها. وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها. فذكر «أو» ههنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة. والله أعلم.

[١]قوله: «آيس العقول بقوله: [أو] دنا» يعني: أن العقول لا تقدر أن تثبت على معرفة اتصال هو أدنى من قاب قوسين. وهذا بناء على ما فهمه من الآية، وإلا فالعقول غير آيسة من دنو رسوله الملكي من رسوله البشري، حتى صار في القرب منه قاب قوسين أو أدنى من قوسين. فإنه دنو عبد من عبد، ومخلوق من مخلوق. يبقى أن يقال: فما فائدة ذكر «أو»؟ فيقال: هي لتقرير المذكور قبلها، وأن القرب إن لم ينقص عن قدر قوسين لم يزد عليهما. وهذا كقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧]. والمعنى: أنهم إن لم يزيدوا على المائة الألف لم ينقصوا عنها. فهو تقرير لنصية عدد الألف. فتأمله.

[٢]وفي الترمذي أنه سئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ كم كانت الزيادة؟ قال: «عشرة آلاف»[٣].

***

﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾.

[٤]ولهذا يسمي سبحانه الحجة: سلطانًا قال ابن عباس: كل سلطان في القرآن فهو

---

(١) ٣٢٢ مدارج جـ٣.

(٢) ٤١٠ أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٢٢٩) وفيه: عشرون ألفاً. وقال: هذا حديث غريب. وانظر: عمدة القاري (١٦/ ٣) وتحفة الأحوذي (٩/ ٦٩-٧٠) وفيض القدير (٣/ ١٦٤).

(٤) ٢٧ الفروسية.

الحجة، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٦ ـ ١٥٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ [النجم: ٢٣]. وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥]. وهذا لأن الحجة تسلط صاحبها علىٰ خصمه فصاحب الحجة له سلطان وقدرة علىٰ خصمه، وإن كان عاجزاً عنه بيده. وهذا هو أحد أقسام النصرة التي نصر الله بها رسله والمؤمنين في الدنيا، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

***

﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾.

[1] ومنه الجنة بالكسر: الجن كما قال تعالىٰ: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [هود: ١١٩]، وذهبت طائفة من المفسرين إلىٰ أن الملائكة يسمون: جنة، واحتجوا بقوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ [الصافات:١٥٨]. قالوا: وهذا النسب قولهم: الملائكة بنات الله. ورجحوا هذا القول بوجهين: أحدهما: أن النسب الذي جعلوه إنما زعموا أنه بين الملائكة وبينه، لا بين الجن وبينه.

الثاني: قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٨]. أي: قد علمت الملائكة: أن الذين قالوا هذا القول محضرون للعذاب. والصحيح خلاف ما ذهب إليه هؤلاء، وأن الجنة هم الجن أنفسهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾. وعلىٰ هذا ففي الآية قولان: أحدهما: قول مجاهد قال: قالت كفار قريش: الملائكة بنات الله، فقال لهم أبوبكر: فمن أمهاتهم؟ قالوا: سروات الجن[2]. وقال الكلبي:

(١) ٧١ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الجنة وثوابهم وعقابهم (صـ٦٣٠). وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٤٦).

قالوا: تزوج من الجن، فخرج من بينهما الملائكة[١]. وقال قتادة: قالوا: صاهر الجن[٢]. والقول الثاني: هو قول الحسن قال: أشركوا الشياطين في عبادة الله، فهو النسب الذي جعلوه.

والصحيح قول مجاهد وغيره، وما احتج به أصحاب القول الأول ليس بمستلزم لصحة قولهم، فإنهم لما قالوا: الملائكة بنات الله، وهم من الجن عقدوا بينه وبين الجن نسباً بهذا الإيلاد، وجعلوا هذا النسب متولداً بينه وبين الجن.

وأما قوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾. فالضمير يرجع إلى الجنة أي: قد علمت الجنة أنهم محضرون الحساب، قاله مجاهد: أي: لو كان بينه وبينهم نسب لم يحضروا للحساب، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ [المائدة: ١٨]، فجعل ـ سبحانه ـ عقوبتهم بذنوبهم وإحضارهم للعذاب مبطلاً لدعواهم الكاذبة، وهذا التقدير في الآية أبلغ في إبطال قولهم من التقدير الأول فتأمله.

***

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾.

[٣]نزه سبحانه عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده، وهم الرسل ومن اتبعهم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢]. فنزه نفسه عما يصفه به الواصفون، وسلَّم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من كل نقص وعيب، وحمد نفسه إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحق لأجلها الحمد،

---

(١) انظر: عمدة القاري (١٥/ ١٨٥).
(٢) أخرجه الطبري (١٧/ ١٦) والبيهقي في الشعب (١/ ١٦٦ رقم ١٤١) وانظر: الدر المنثور (٥/ ٦٢٤).
(٣) ٩١ جلاء الأفهام.

وينزه عن كل نقص ينافي كماله وحمده.

[(١)] والله سبحانه يقرن بين تسبيحه لنفسه وسلامه عليهم وبين حمده لنفسه وسلامه عليهم. أما الأول فقال تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، وقد ذكر تنزيهه لنفسه عما لا يليق بجلاله ثم سلامه على رسله.

وفي اقتران السلام عليهم بتسبيحه لنفسه سر عظيم من أسرار القرآن، يتضمن الرد علي كل مبطل ومبتدع، فإنه نزه نفسه تنزيهاً مطلقاً كما نزه نفسه عما يقول خلقه فيه، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقول المكذبون لهم المخالفون لهم، وإذا سلموا من كل ما رماهم به أعداؤهم لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد.

وأعظم ما جاءوا به التوحيد، ومعرفة الله، ووصفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم. وإذا سلم ذلك من الكذب والمحال والفساد فهو الحق المحض، وماخالفه هو الباطل والكذب المحال، وهذا المعنى بعينه في قوله: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩]. فإنه يتضمن حمده بما له من نعوت الكمال وأوصاف الجلال والأفعال الحميدة والأسماء الحسنى، وسلامة رسله من كل عيب ونقص وكذب، وذلك يتضمن سلامة ما جاءوا به من كل باطل.

فتأمل هذا السر في اقتران السلام على رسله بحمده وتسبيحه، فهذا يشهد لكون السلام هنا من الله تعالى، كما هو في آخر الصافات.

وأما عطف الخبر على الطلب فما أكثره فمنه قوله تعالى: ﴿ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. وقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].وقوله: ﴿ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٩].ونظائره كثيرة جداً.

---

(١) ١٧١ بدائع جـ٢.

وفصل الخطاب: في ذلك أن يقال: الآية تتضمن الأمرين جميعاً، وتنتظمهما انتظاماً واحداً، فإن الرسول هو المبلغ عن الله كلامه، وليس فيه إلا البلاغ، والكلام: كلام الرب ـ تبارك وتعالى ـ فهو الذي حمد نفسه، وسلم على عباده، وأمر رسوله بتبليغ ذلك، فإذا قال الرسول: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ ، كان قد حمد الله، وسلم على عباده بما حمد به نفسه، وسلم به هو على عباده، فهو سلام من الله ابتداء، ومن المبلغ بلاغاً، ومن العباد اقتداء وطاعة، فنحن نقول كما أمرنا ربنا تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل: ٥٩].

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فهو توحيد منه لنفسه، وأمر للمخاطب بتوحيده، فإذا قال العبد: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ كان قد وحد الله بما وحد به نفسه، وأتى بلفظة ﴿ قُلْ ﴾ تحقيقاً لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق: ١]، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس: ١]، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله: ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾. فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال بخلاف قوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، فإنه خبر عن توحيده، وهو ـ سبحانه ـ يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد، فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان.

[(١)]ثم تأمل حال الكليم موسى عليه السلام وما آلت إليه محنته وفتونه من أول ولادته إلى منتهى أمره، حتى كلمه الله تكليماً وقربه منه، وكتب له التوراة بيده، ورفعه إلى أعلى السموات، واحتمل له ما لا يحتمل لغيره، فإنه رمى الألواح على الأرض حتى تكسرت، وأخذ بلحية نبي الله هارون وجره إليه، ولطم وجه ملك الموت ففقأ عينه، وخاصم ربه ليلة الإسراء في شأن رسول الله ﷺ، وربه يحبه على ذلك كله، ولا سقط شيء منه من عينه، ولا سقطت منزلته عنده، بل هو الوجيه عند الله القريب، ولولا

(١) ٣٠٠ مفتاح جـ١.

ماتقدم من السوابق وتحمل الشدائد المحن العظام في الله ومقاسات الأمر الشديد بين فرعون وقومه ثم بني إسرائيل وما آذوه به وما صبر عليهم لله لم يكن ذلك.

ثم تأمل حال المسيح ﷺ، وصبره على قومه، واحتماله في الله ما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وانتقم من أعدائه، وقطعهم في الأرض ومزقهم كل ممزق، وسلب ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر.

فإذا جئت إلى النبي ﷺ وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلون الأحوال عليه، ومن: سلم، وخوف، وغنى، وفقر، وأمن، وإقامة في وطنه، وظعن عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى، من: القول، والفعل، والسحر، والكذب، والافتراء عليه، والبهتان، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله، يدعو إلى الله، فلم يؤذ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وقرن اسمه باسمه، وجعله سيد الناس كلهم، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة، وأعظمهم عنده جاها، وأسمعهم عنده شفاعة، وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً، وساقه بها إلى أعلى المقامات، وهذا حال ورثته، من بعده، الأمثل فالأمثل، كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعته له.

ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له، جعل خلاقه ونصيبه فيها، فهو يأكل منها رغداً، ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب، يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش، ويخافون وهو آمن، ويحزنون وهو في أهله مسرور، له شأن ولهم شأن، وهو في واد وهم في واد، همه ما يقيم به جاهه، ويسلم به ماله، وتسمع به كلمته، لزم من ذلك ما لزم، ورضي من رضي، وسخط من سخط، وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه، وأن تكون الدعوة له وحده، فيكون هو وحده المعبود لا غيره، ورسوله المطاع لا سواه.

فللَّه سبحانه من الحكم في ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ماتتقاصر عقول

العالمين عن معرفته، وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة، والنهايات الفاضلة، إلا على جسر المحنة والابتلاء.

كذا المعالي إذا ما رمت تدركها فاعبر إليها على جسر من التعب[١]

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الصافات

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

(١) لم أجده بهذا اللفظ، ووجدت قريباً منه لأبي تمام، وفيه:

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها ❁ تُنال إلا على جسر من التعب

وهو من بحر البسيط، وأبو تمام هو حبيب بن أوس الحارث الطائي أحد أمراء البيان ولد بسوريا ورحل إلى مصر، وكان فصيحاً وفي شعره قوة وجزالة، مات سنة ٢٣١هـ. انظر: أخبار أبي تمام للصولي (صـ٥٢) ودلائل الإعجاز (صـ١٢٠).



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ ﴾.

(١) قوله تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص: ١] فإن في المقسم به من تعظيم القرآن ووصفه بأنه ذي الذكر، المتضمن لتذكير العباد ما يحتاجون إليه، وللشرف والقدر، ما يدل على المقسم عليه، وكونه حقًّا من عند الله غير مفترى، كما يقوله الكافرون. وهذا معنى قول كثير من المفسرين ـ متقدميهم ومتأخريهم ـ: إن الجواب محذوف، وتقديره: إن القرآن لحق، وهذا مطرد في كل ما شأنه ذلك. وأما قول بعضهم: إن الجواب قوله تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ [ص: ٣] فاعترض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ [ص: ٢] فبعيد؛ لأن «كم» لا يتلقى بها القسم، فلا تقول: والله كم أنفقت مالاً. وبالله كم أعتقت عبداً. وهؤلاء لما لم يخف عليهم ذلك احتاجوا أن يقدروا ما يتلقى بها الجواب، أي لكم أهلكنا. وأبعد من هذا قول من قال: الجواب وقوله: ﴿ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ ﴾ [ص: ١٤]. وأبعد منه قول من قال: الجواب وقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ [ص: ٥٤]، وأبعد منه قول من قال: الجواب قوله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٦٤]. وأقرب ما قيل في الجواب لفظاً، وإن كان بعيداً معنى عن قتادة وغيره: إنه في قوله: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ كما قال: ﴿ قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ [ق: ١، ٢].

***

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٢٥ ﴾.

---

(١) ٨ التبيان.

(1)قال تعالىٰ في حق نبيه داود: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥] فالزلفىٰ منزلة القرب، وحسن المآب: حسن الثواب والجزاء. وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦] فـ «الحسنىٰ» الجزاء. و«الزيادة» منزلة القرب. ولهذا فسرت بالنظر إلىٰ وجه الله ﷻ. وهذان هما اللذان وعدهما فرعون للسحرة إن غلبوا موسى، فقالوا له: ﴿ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٣، ١١٤] وقال تعالىٰ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [التوبة: ٧٢].

(2)وحدثني داود بن عمر الضبي حدثنا عبدالله بن المبارك عن مالك بن أنس عن محمد بن المنكدر قال: إذا كان يوم القيامة نادىٰ مناد: أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم رياض المسك. ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تمجيدي وتحميدي»(3). وقال ابن أبي الدنيا حدثني محمد بن الحسن حدثني عبدالله بن أبي بكر حدثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار في قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٥]. قال: إذا كان يوم القيامة أمر بمنبر رفيع فوضع في الجنة، ثم نودي: يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم، الذي كنت تمجدني به في دار الدني.ا قال: فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنان، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾(4).

---

(١) ٧٦ مدارج جـ٢.

(٢) ١٨٢ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه ابن الجعد (رقم ١٦٨٢) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٣) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ١٥١) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٤٨٦) إلىٰ ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والأصبهاني في الترغيب.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٤٠ رقم ١٨٣٤٨) وانظر: ابن كثير (٤/ ٣٣).

وذكر حماد بن سلمة عن ثابت البناني وحجاج الأسود عن شهر بن حوشب قال: «إن الله ـ جل ثناؤه ـ يقول للملائكة: إن عبادي كانوا يحبون الصوت الحسن في الدنيا فيدعونه من أجلي فأسمعوا عبادي، فيأخذوا بأصوات من تهليل وتسبيح وتكبير لم يسمعوا مثله قط». وقال عبدالله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد لأبيه: «حدثني علي بن مسلم الطوسي حدثني سيار حدثنا جعفر حدثنا مالك بن دينار في قوله ﷻ: ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ قال: يقيم الله ـ سبحانه ـ داود عند ساق العرش، فيقول: يا داود مجدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم. فيقول: إلهي كيف أمجدك وقد سلبتنيه في دار الدنيا؟ قال: فيقول الله ﷻ: فإني أرده عليك، قال: فيرده عليه فيزداد صوته قال: فيستفرغ صوت داود نعيم أهل الجنة»(1)...

(2) تأمل سر اقتران هذين الاسمين في قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج: ١٣، ١٤] تجد فيه من الرد والإنكار على من قال: لا يعود الود والمحبة منه لعبده أبداً، ماهو من كنوز القرآن ولطائف فهمه، وفي ذلك ما يهيج القلب السليم ويأخذ بمجامعه ويجعله عاكفاً على ربه ـ الذي لا إله إلا هو، ولا رب له سواه ـ عكوف المحب الصادق على محبوبه الذي لا غنى له عنه، ولا بد له منه، ولا تندفع ضرورته بغيره أبداً. واحتجوا أيضاً بأن العبد قد يكون بعد التوبة خيراً من قبل الخطيئة؛ لأن الذنب يحدث له من الخوف والخشية، والانكسار والتذلل لله، والتضرع بين يديه، والبكاء على خطيئته والندم عليها، والأسف والإشفاق ما هو من أفضل أحوال العبد وأنفعها له في دنياه وآخرته. ولم تكن هذه الأمور لتحصل بدون أسبابها، إذ حصول الملزوم بدون لازمه محال. والله يحب من عبده كسرته وتضرعه

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٢٤٠ رقم ١٨٣٤٨) وعزاه السيوطي في الدر المنثور (٧/ ١٦٧-١٦٨) إلى أحمد في الزهد والحكيم الترمذي وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) ٢٣٣ طريق الهجرتين.

وذله بين يديه، واستعطافه وسؤاله أن يعفو عنه ويغفر له ويتجاوز عن جرمه وخطيئته، فإذا قضى عليه بالذنب فترتبت عليه هذه الآثار المحبوبة له كان ذلك القضاء خيراً له، وليس ذلك إلا المؤمن.

ولهذا قال بعض السلف: لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه. وقيل: إن في بعض الآثار يقول الله ـ تعالى ـ لداود عليه السلام: يا داود كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك. واليوم تدخل عليَّ دخول العبيد على الملوك.

قالوا وقد قال غير واحد من السلف: كان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة، قالوا: لهذا قال سبحانه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥] فزاده على المغفرة أمرين: الزلفى وهي درجة القرب منه، وقد قال فيها سلف الأمة وأئمتها ما لا تحتمله عقول الجهمية وأفراخهم، ومن أراد معرفتها فعليه بتفاسير السلف. والثاني: حسن المآب، وهو حسن المنقلب وطيب المأوى عند الله. قالوا: ومن تأمل زيادة القرب التي أعطيها داود بعد المغفرة علم صحة ما قلنا، وأن العبد بعد التوبة يعود خيراً مما كان...

***

﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

[(١)]قد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، ثم ذكر مآل الضالين عن سبيله ومصيرهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. وأخبر ـ سبحانه ـ

(١) ٤٢٨ روضة المحبين.

أن باتباع الهوىٰ يطبع علىٰ قلب العبد، فقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٦]. وقد أخبر النبي ﷺ أن العاجز هو الذي اتبع هواه وتمنىٰ علىٰ الله. وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد، عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تحت [ظل] السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوىٰ متبع...»(١).

***

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

(٢)قد أنكر ـ تعالىٰ ـ علىٰ من نسب إلىٰ حكمته التسوية بين المختلفين، كالتسوية بين الأبرار والفجار، فقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالىٰ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] فدل علىٰ أن هذا حكم سيء قبيح ينزه الله عنه، ولم ينكره ـ سبحانه ـ من جهة أنه أخبر بأنه لا يكون، وإنما أنكره من جهة قبحه في نفسه، وأنه حكم سيء يتعالىٰ ويتنزه عنه لمنافاته لحكمته وغناه وكماله، ووقوع أفعاله كلها علىٰ السداد والعواقب والحكمة. فلا يليق به أن يجعل البر كالفاجر، ولا المحسن كالمسيء، ولا المؤمن كالمفسد في الأرض. فدل علىٰ أن هذا قبيح في نفسه، ـ تعالىٰ الله عن فعله ـ.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٨ رقم ٣) والطبراني في الكبير (٨/ ١٠٣ رقم ٧٥٠٢) والديلمي في مسند الفردوس (٤/ ١٠٦ رقم ٦٣٣٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١١٨) وابن عدي في الكامل (٢/ ٣٠١) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٨): رواه الطبراني في الكبير، وفيه الحسن بن دينار وهو متروك الحديث.

(٢) ١١ مفتاح جـ٢.

ومن هذا أيضاً إنكاره ـ سبحانه ـ على من جوز أن يترك عباده سدى، فلا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم، وأن هذا الحسبان باطل، والله متعال عنه لمنافاته لحكمته وكماله، كما قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي ﷺ: أي مهملاً لا يؤمر ولا ينهى[١]. وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والقولان واحد؛ لأن الثواب والعقاب غاية الأمر والنهي. فهو ـ سبحانه ـ خلقهم للأمر والنهي في الدنيا والثواب والعقاب في الآخرة. فأنكر ـ سبحانه ـ على من زعم أنه يترك سدى إنكار من جعل في العقل استقباح ذلك واستهجانه، وأنه لا يليق أن ينسب ذلك إلى أحكم الحاكمين.

ومثله قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. فنزه نفسه سبحانه وباعدها عن هذا الحسبان، وأنه يتعالى عنه، ولا يليق به لقبحه ولمناقاته لحكمته وملكه وإلهيته. أفلا ترى كيف ظهر في العقل الشهادة بدينه وشرعه، وبثوابه وعقابه، وهذا يدل على إثبات المعاد بالعقل، كما يدل على إثباته بالسمع. وكذلك دينه وأمره وما بعث به رسله هو ثابت في العقول جملة، ثم علم بالوحي. فقد تطابقت شهادة العقل والوحي على توحيده وشرعه والتصديق بوعده ووعيده، وأنه ـ سبحانه ـ دعا عباده على ألسنة رسله إلى ما وضع في العقول حسنه والتصديق به جملة، فجاء الوحي مفصلاً مبيناً، ومقرراً ومذكراً لما هو مركوز في الفطر والعقول.

ولهذا سأل هرقل أبا سفيان في جملة ما سأله من أدلة النبوة وشواهدها عما يأمر به النبي ﷺ قال: بم يأمركم؟ قال: يأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف[٢]، فجعل ما يأمر

---

(١) ذكره في أحكام القرآن له (١/ ٣٦) (٢/ ١٢٣) وذكره عنه البيهقي في الكبرى (١٠/ ١١٣) وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٢٠٠-٢٠١) وتفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٧) وانظر: عمدة القاري (١/ ٧٧-٧٨).

به من أدلة نبوته فإن أكذب الخلق وأفجرهم من ادعى النبوة وهو كاذب فيها على الله، وهذا محال أن يأمر إلا بما يليق بكذبه وفجوره وافترائه، فدعوته تليق به. وأما الصادق البار الذي هو أصدق الخلق وأبرهم فدعوته لا تكون إلا أكمل دعوة وأشرفها، وأجلها وأعظمها؛ فإن العقول والفطر تشهد بحسنها وصدق القائم بها. فلو كانت الأفعال كلها سواء في نفس الأمر لم يكن هناك فرقان بين ما يجوز أن يدعو إليه الرسول وما لا يجوز أن يدعو إليه، إذ العرف وضده إنما يعلم بنفس الدعوة والأمر والنهي. وكذلك مسألة النجاشي لجعفر وأصحابه عما يدعو إليه الرسول. فدل على أنه من المستقر في العقول والفطر انقسام الأفعال إلى قبيح وحسن في نفسه، وأن الرسل تدعو إلى حسنها وتنهى عن قبيحها، وأن ذلك من آيات صدقهم وبراهين رسالتهم، وهو أولى وأعظم عند أولي الألباب والحجى من مجرد خوارق العادات، وإن كان انتفاع ضعفاء العقول بالخوارق في الإيمان أعظم من انتفاعهم بنفس الدعوة وما جاء به من الإيمان، فطرق الهداية متنوعة رحمة من الله بعباده ولطفاً بهم لتفاوت عقولهم وأذهانهم وبصائرهم.

فمنهم من يهتدي بنفس ما جاء به وما دعا إليه من غير أن يطلب منه برهاناً خارجاً عن ذلك، كحال الكمل من الصحابة كالصديق ﷺ. ومنهم من يهتدي بمعرفته بحاله ﷺ وما فطر عليه من كمال الأخلاق والأوصاف والأفعال، وأن عادة الله أن لا يخزي من قامت به تلك الأوصاف والأفعال لعلمه بالله ومعرفته به، وأنه لا يخزي من كان بهذه المثابة، كما قالت أم المؤمنين خديجة ـ رضي الله عنها ـ له ﷺ: أبشر فوالله لن يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[1]. فاستدلت بمعرفتها بالله وحكمته ورحمته على أن من كان كذلك فإن الله لا يخزيه ولا يفضحه، بل هو جدير بكرامة الله واصطفائه ومحبته وتوبته.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣) ومسلم (رقم ١٦٠) وانظر: شرح النووي (٢/ ٢٠٠).

وهذه المقامات في الإيمان عجز عنها أكثر الخلق، فاحتاجوا إلى الآيات والخوارق والآيات المشهودة بالحس، فآمن كثير منهم عليها. وأضعف الناس إيمانًا من كان إيمانه صادرًا من المظهر ورؤية غلبته ﷺ للناس. فاستدلوا بذلك المظهر والغلبة والنصرة على صحة الرسالة. فأين بصائر هؤلاء من بصائر من آمن به وأهل الأرض قد نصبوا له العداوة، وقد ناله من قومه ضروب الأذى، وأصحابه في غاية قلة العدد والمخافة من الناس؟ ومع هذا فقلبه ممتلئ بالإيمان، واثق بأنه سيظهر على الأمم، وأن دينه سيعلو كل دين.

وأضعف من هؤلاء إيماناً من إيمانه إيمان العادة والمربى والمنشأ؛ فإنه نشأ بين أبوين مسلمين، وأقارب وجيران وأصحاب كذلك، فنشأ كواحد منهم ليس عنده من الرسول والكتاب إلا اسمهما، ولا من الدين إلا ما رأى عليه أقاربه وأصحابه. فهذا دين العوائد، وهو أضعف شيء، وصاحبه بحسب من يقترن به، فلو قيض له من يخرجه عنه لم يكن عليه كلفة في الانتقال عنه.

والمقصود أن خواص الأمة ولبابها لما شهدت عقولهم حسن هذا الدين وجلالته وكماله، وشهدت قبح ما خلقه ونقصه ورداءته، خالط الإيمان به ومحبته بشاشة قلوبهم، فلو خير بين أن يلقى في النار وبين أن يختار ديناً غيره لاختار أن يقذف في النار وتقطع أعضاؤه ولا يختار ديناً غيره. وهذا الضرب من الناس هم الذين استقرت أقدامهم في الإيمان، وهم أبعد الناس عن الارتداد عنه، وأحقهم بالثبات عليه إلى يوم لقاء الله. ولهذا قال هرقل لأبي سفيان: أيرتد أحد منهم عن دينه سخطة له؟ قال: لا. قال: فكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد. والمقصود أن الداخلين في الإسلام المستدلين على أن من عند الله لحسنه وكماله، وأنه دين الله الذي لا يجوز أن يكون من عنده غيره، هم خواص الخلق. والنفاة سدوا على أنفسهم هذا الطريق فلا يمكنهم سلوكه.

***

﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۝٣٣ ﴾.

[1]قال الله تعالى حاكياً عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]. ووجه استشهاده بالآية: أن سليمان عليه السلام كان يحب الخيل، فشغله استحسانها، والنظر إليها ـ لما عرضت عليه ـ عن صلاة النهار، حتى توارت الشمس بالحجاب. فلحقته الغيرة لله من الخيل، إذ استغرقه استحسانها، والنظر إليها عن خدمة مولاه وحقه. فقال: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ فطفق يضرب أعناقها وعراقيبها بالسيف غيرة لله[2].

***

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ۝٤٤ ﴾.

...[3]وصف الله بالصبر خاصة أوليائه وأحبابه، فقال عن حبيبه أيوب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤] ثم أثنى عليه. فقال: ﴿ نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤]. وأمر أحب الخلق إليه بالصبر لحكمه، وأخبر أن صبره به. وأثنى على الصابرين أحسن الثناء، وضمن لهم أعظم الجزاء، وجعل أجر غيرهم محسوباً، وأجرهم بغير حساب. وقرن الصبر بمقامات الإسلام، والإيمان، والإحسان ـ كما تقدم ـ فجعله قرين اليقين، والتوكل، والإيمان، والأعمال، والتقوى.

وأخبر أن آياته إنما ينتفع بها أول الصبر. وأخبر أن الصبر خير لأهله. وأن الملائكة تسلم عليهم في الجنة بصبرهم، كماتقدم ذلك...

...[4]قوله تعالى لنبيه أيـوب عليه السلام: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ ﴾

---

(١) ٤٧ مدارج جـ٣.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ١٥٦) وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٣٥) وفتح الباري (٦/ ٤٥٩).

(٣) ١٦٢ مدارج جـ٢.

(٤) ٢٢١ أعلام جـ٣.

[ص: ٤٤] فقال شيخنا: الجواب: إن هذا ليس مما نحن فيه؛ فإن للفقهاء في موجب هذه اليمين في شرعنا قولين، يعني إذا حلف ليضربن عبده أو امرأته مائة ضربة، أحدهما: قول من يقول موجبها الضرب مجموعاً أو مفرقاً، ثم منهم من يشترط مع الجمع الوصول إلى المضروب، فعلى هذا تكون هذه الفتيا موجب هذا اللفظ عند الإطلاق. والقول الثاني: أن موجبه الضرب المعروف، وإذا كان هذا موجبه في شرعنا لم يصح الاحتجاج علينا بما يخالف شرعنا من شرائع من قبلنا؛ لأنا إن قلنا: «ليس شرعاً لنا مطلقاً» فظاهر، وإن قلنا: «هو شرع لنا» فهو مشروط بعدم مخالفته لشرعنا، وقد انتفى الشرط.

وأيضاً، فمن تأمل الآية علم أن هذه الفتيا خاصة الحكم؛ فإنها لو كانت عامة الحكم في حق كل أحد لم يخف على نبي كريم موجب يمينه، ولم يكن في اقتصاصها علينا كبير عبرة؛ فإنما يقص ما خرج عن نظائره لنعتبر به، ونستدل به على حكمة الله فيما قصه علينا. أما ما كان هو مقتضى العادة والقياس فلا يقص. ويدل على الاختصاص قوله تعالى: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ﴾ [ص: ٤٤]، وهذه الجملة خرجت مخرج التعليل كما في نظائرها. فعلم أن الله ﷻ إنما أفتاه بهذا جزاء له على صبره، وتخفيفاً عن امرأته، ورحمة بها، لا أن هذا موجب هذه اليمين. وأيضاً فإن الله ﷻ إنما أفتاه بهذه الفتيا لئلا يحنث، كما أخبر ـ تعالى ـ.

وهذا يدل على أن كفارة الإيمان لم تكن مشروعة بتلك الشريعة، بل ليس في اليمين إلا البر والحنث، كماهو ثابت في نذر التبرر في شريعتنا؛ وكما كان في أول الإسلام. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «لم يكن أبوبكر يحنث في يمين، حتى أنزل الله كفارة اليمين»[1]، فدل على أنها لم تكن مشروعة في أول الإسلام. وإذا كان كذلك صار كأنه قد نذر ضربها، وهو نذر لا يجب الوفاء به؛ لما فيه من الضرر عليها، ولا يغني عنه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٦١٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٦٠٠) (١١/ ٥١٨).

كفارة يمين؛ لأن تكفير النذر فرع عن تكفير اليمين، فإذا لم تكن كفارة النذر إذ ذاك مشروعة فكفارة اليمين أولى. وقد علم أن الواجب بالنذر يحتذى به حذو الواجب بالشرع، وإذا كان الضرب الواجب بالشرع يجب تفريقه إذا كان المضروب صحيحاً، ويجوز جمعه إذا كان المضروب مريضاً مأيوساً منه عند الكل، أو مريضاً على الإطلاق عند بعضهم، كما ثبت بذلك السنة عن رسول الله ﷺ، جاز أن يقام الواجب بالنذر مقام ذلك عند العذر. وقد كانت امرأة أيوب ﵇ ضعيفة عن احتمال مائة ضربة التي حلف أن يضربها إياها، وكانت كريمة على ربها، فخفف عنها برحمته الواجب باليمين بأن أفتاه بجمع الضربات بالضغث، كما خفف عن المريض.

ألا ترى أن السنة قد جاءت فيمن نذر الصدقة بجميع ماله أن يجزيه الثلث، فأقام الثلث في النذر مقام الجميع رحمة بالناذر وتخفيفاً عنه. كما أقيم مقامه في الوصية رحمة بالوارث ونظراً له. وجاءت السنة فيمن نذرت الحج ماشية أن تركب وتهدي، إقامة لترك بعض الواجب بالنذر مقام ترك الواجب بالشرع في المناسك عند العجز عنه، كطواف الوداع عن الحائض.

وأفتى ابن عباس وغيره من نذر ذبح ابنه بشاة إقامة لذبح الشاة مقام ذبح الابن كما شرع ذلك للخليل. وأفتى أيضاً من نذر أن يطوف على أربع بأن يطوف أسبوعين، إقامه لأحد الأسبوعين مقام طواف اليدين، وأفتى أيضاً هو وغيره من الصحابة ﵃ المريض الميئوس منه والشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصوم بأن يفطرا ويطعما كل يوم مسكيناً، إقامة للإطعام مقام الصيام.

وأفتى أيضاً هو وغيره من الصحابة الحامل والمرضع إذا خافتا على ولديهما أن تفطرا وتطعما كل يوم مسكيناً، إقامة للإطعام مقام الصيام، وهذا كثير جداً. وغير مستنكر في واجبات الشريعة أن يخفف الله ـ تعالى ـ الشيء منها عند المشقة بفعل ما يشبهه من بعض الوجوه، كما في الأبدال وغيرها.

لكن مثل قصة أيوب لا يحتاج إليها في شرعنا؛ لأن الرجل لو حلف ليضربن أمته

أو امرأته مائة ضربة أمكنه أن يكفر عن يمينه من غير احتياج إلىٰ حيلة وتخفيف الضرب بجمعه. ولو نذر ذلك فهو نذر معصية، فلا شيء عليه عند طائفة، وعند طائفة عليه كفارة يمين. وأيضاً فإن المطلق من كلام الآدميين محمول علىٰ ما فسر به المطلق من كلام الشارع خصوصاً في الأيمان؛ فإن الرجوع فيها إلىٰ عرف الخطاب شرعاً أو عادة أولىٰ من الرجوع إلىٰ موجب اللفظ في أصل اللغة، والله ﷻ قد قال: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢] وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤].

وفهم الصحابة والتابعون ومن بعدهم من ذلك أنه ضربات متعددة متفرقة لا مجموعة، إلا أن يكون المضروب معذوراً عذراً لا يرجىٰ زواله، فإنه يضرب ضرباً مجموعاً، وإن كان يرجىٰ زواله فهل يؤخر إلىٰ الزوال، أو يقام عليه مجموعاً؟ فيه خلاف بين الفقهاء. فكيف يقال: إن الحالف ليضربن موجب يمينه هو الضرب المجموع مع صحة المضروب وقوته؟ فهذه الآية هي أقوىٰ ما يعتمد عليه أرباب الحيل، وعليها بنوا حيلهم، وقد ظهر بحمد الله أنه لا متمسك لهم فيها البتة.

***

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

...[1]كمال الإنسان مداره علىٰ أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه، وما تفاوتت منازل الخلق عند الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة إلا بقدر تفاوت منازلهم في هذين الأمرين، وهما اللذان أثنىٰ الله بهما سبحانه علىٰ أنبيائه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي القوة في تنفيذ الحق، والأبصار البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه. وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام، فهؤلاء أشرف الأقسام

(١) ١٢٣ الجواب الكافي.

من الخلق وأكرمهم على الله تعالى. القسم الثاني: عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق، وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذى للعيون، وحمى الأرواح، وسقم القلوب، يضيقون الديار، ويغلون الأسعار، ولا يستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.

القسم الثالث: من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف. والمؤمن القوي خير وأحب إلا الله منه. القسم الرابع: من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين، لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن وبين أولياء الشيطان، بل يحسب كل سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة. يحسب الورم شحماً والدواء النافع سماً.

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ولا هو موضع لها سوى القسم الأول، قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين. وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين، وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعي الخاسرين والرابحين على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى: ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾ [سورة العصر] فلم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصي بعضهم بعضاً ويرشده إليه ويحثه عليه.

[(١)] فالمناظرة في العلم نوعان: أحدهما: للتمرن والتدرب على إقامة الحجج ودفع الشبهات. والثاني: لنصرة الحق وكبت الباطل، والأول يشبه السباق والنضال. والثاني: يشبه الجهاد وقتال الكفار. وقال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال مالك: قال زيد بن أسلم: بالعلم،

---

(١) ٢٧ الفروسية.

بعلم الحجة يرفع درجة صاحبه؛ فإن العلم بالحجج، والقوة على الجهاد مما رفع الله درجات الأنبياء وأتباعهم، كما قال تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١] وقال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]. فالأيدي القوى التي يقدرون بها على إظهار أمر الله، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه. والأبصار البصائر في دينه.

[١]أصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل. فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة. ففتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤]. فدل على أن بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضاً في قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣] فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات. وجمع بينهما في قوله: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله. والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس: «أولى القوة في طاعة الله، والمعرفة بالله». وقال الكلبي: «أولى القوة في العبادة، والبصر فيها». وقال مجاهد: «الأيدي: القوة في طاعة الله، والأبصار: البصر في الحق». وقال سعيد بن جبير: القوة في العمل، والأبصار: بصرهم بما هم فيه من دينهم».

وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عن حلول الشهوات». فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة، وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة، والله المستعان.

---

(١) ١٦٧ إغاثة جـ٢.

[(١)]وبصائر الناس في هذا النور الباهر تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: أحدها: من عدم بصيرة الإيمان جملة، فهو لا يرىٰ من هذا الصنف إلا الظلمات والرعد البرق، فهو يجعل إصبعيه في أذنه من الصواعق، ويده علىٰ عينه من البرق خشية أن يخطف بصره، ولا يجاوز نظره ما وراء ذلك من الرحمة وأسباب الحياة الأبدية. فهذا القسم هو الذي لم يرفع بهذا الدين رأساً، ولم يقبل هدي الله الذي هدىٰ به عباده ولو جاءته كل آية؛ لأنه ممن سبقت له الشقاوة، وحقت عليه الكلمة. ففائدة إنذار هذا إقامة الحجة عليه ليعذب بذنبه لا بمجرد علم الله فيه.

القسم الثاني: أصحاب البصيرة الضعيفة الخفاشية الذين نسبة أبصارهم إلىٰ هذا النور كنسبه أبصار الخفاش إلىٰ جرم الشمس، فهم تبع لآبائهم وأسلافهم، دينهم دين العادة والمنشأ، وهم الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب: «أو منقاداً للحق لا بصيرة له في إصابة»، فهؤلاء إذا كانوا منقادين لأهل البصائر لا يتخالجهم شك ولا ريب فهم علىٰ سبيل نجاة.

القسم الثالث: وهو خلاصة الوجود، ولباب بني آدم، وهم أولو البصائر النافذة، الذين شهدت بصائرهم هذا النور المبين، فكانوا منه علىٰ بصيرة ويقينٰ ومشاهدة لحسنه وكماله، بحيث لو عرض علىٰ عقولهم ضده لرأوه كالليل البهيم الأسود، وهذا هو المحك والفرقان بينهم وبين الذين قبلهم. فإن أولئك بحسب داعيهم ومن يقرن بهم، كما قال فيهم علي بن أبي طالب: أتباع كل ناعق، يميلون مع كل صائح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يجلئوا إلىٰ ركن وثيق»[(٢)].

هذا علامة من عدم البصيرة، فإنك تراه يستحسن الشيء وضده، ويمدح الشيء

---

(١) ٢٠٣ مفتاح جـ١.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١/ ٧٩-٨٠) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٥٠/ ٢٥٢-٢٥٣) وانظر: تذكرة الحفاظ (١/ ١١) وتهذيب الكمال (٢٤/ ٢٢١) وصفة الصفوة (١/ ٣٣٠).

ويذمه بعينه إذا جاء في قالب لا يعرفه. فيعظم طاعة الرسول ويرى عظيماً مخالفته، ثم هو من أشد الناس مخالفة له ونفياً لما أثبته، ومعاداة للقائمين بسنته. وهذا من عدم البصيرة. فهذا القسم الثالث إنما عملهم على البصائر، وبها تفاوت مراتبهم في درجات الفضل، كما قال بعض السلف وقد ذكر السابقين، فقال: إنما كانوا يعملون على البصائر، وما أوتي أحد أفضل من بصيرة في دين الله ولو قصر في العمل. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥] قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله والأبصار في المعرفة في أمر الله. وقال قتادة ومجاهد: أعطوا قوة في العبادة وبصراً في الدين. وأعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصراً في العمل. وتحت كل من هذه الأقسام أنواع لا يحصي مقادير تفاوتها إلا الله. إذا عرف هذا فالقسم الأول لا ينتفع بهذا الباب، ولا يزداد به إلا ضلالة. والقسم الثاني: ينتفع منه بقدر فهمه واستعداده. والقسم الثالث: وإليهم هذا الحديث يساق، وهم أولو الألباب الذين يخصهم الله في كتابه بخطاب التنبيه والإرشاد، وهم المرادون على الحقيقة بالتذكرة، قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

***

﴿ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

[(١)] وقد أخبر ﷻ أنه أخلصهم: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٦-٤٧]. ويكفي في فضلهم وشرفهم: أن الله ﷻ اختصهم بوحيه، وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده، وخصهم بأنواع كراماته: فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمة تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً على سائرهم درجات. ولم يجعل لعباده وصولاً إليه إلا من طريقهم، ولا دخولا إلى جنته

---

(١) ٢٩٧ طريق الهجرتين. طبعة مكتبة نزار مصطفى الباز بتحقيق حازم القاضي.

إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً منهم بكرامة إلا على أيديهم؛ فهم أقرب الخلق إليه وسيلة، وأرفعهم عنده درجة، وأحبهم إليه وأكرمهم عليه.

وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم، وبهم عرف الله، وبهم عبد وأطيع، وبهم حصلت محابة تعالى في الأرض، وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ [الشورى: ١٣]. وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق، وعليهم تدور الشفاعة، حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم ﷺ.

(١)قال الله ﷻ: ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾ [ص: ٤٧] «الصفا» اسم للبراءة من الكدر. وهو في هذا الباب سقوط التلوين أما الاستشهاد بالآية: فوجهه أن «المصطفى» مفتعل من الصفوة، وهي خلاصة الشيء، وتصفيته مما يشوبه. ومنه: اصطفى الشيء لنفسه. أي خلصه من شوب شركة غيره له فيه. ومنه «الصَّفيُّ» وهو السهم الذي كان يصطفيه ﷺ لنفسه من الغنيمة...

(٢)ومن أعظم نعم الله على العبد أن يرفع له بين العالمين ذكره ويعلي قدره، ولهذا خص أنبياءه ورسله من ذلك بما ليس لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦] أي خصصناهم بخصيصة، وهو الذكر الجميل الذي يذكرون به في هذه الدار، وهو لسان الصدق الذي سأله إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حيث قال: ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال ﷻ عنه وعن بنيه: ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٠] وقال لنبيه ﷺ:

---

(١) ١٤١ مدارج جـ٣.

(٢) ١٠٥ الجواب الكافي.

﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤] فاتباع الرسل لهم نصيب من ذلك بحسب ميراثهم من طاعتهم ومتابعتهم. وكل من خالفهم فاته من ذلك بحسب مخالفتهم ومعصيتهم.

***

﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ۝﴾.

[(١)] روىٰ الوليد بن مسلم عن خليد عن الحسن: ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠] قال أبواب ترىٰ. وذكر أيضاً عن خليد عن قتادة قال: أبواب يرىٰ ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، تتكلم وتكلم، وتفهم ما يقال لها: انفتحي، انغلقي[(٢)]. وقال أبو الشيخ أنبانا محمد بن عبدالله بن محمد القيسي أنبأنا محمد بن إسحاق أنبأنا أحمد بن أبي الحواري أنبأنا عبدالله بن غياث عن الفزاري قال: «**لكل مؤمن في الجنة أربعة أبواب: فباب يدخل عليه منه زواره من الملائكة، وباب يدخل عليه منه أزواجه من الحور العين، وباب مقفل فيما بينه وبين أهل النار يفتحه إذا شاء ينظر إليهم لتعظم النعمة عليه، وباب فيما بينه وبين دار السلام يدخل منه علىٰ ربه إذا شاء**»[(٣)].

وقد روىٰ سهيل بن أبي صالح عن زياد النميري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة ولا فخر**»[(٤)]. وفي حديث الشفاعة الطويل من رواية ابن عيينة عن علي بن زيد عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها**»[(٥)] وهذا صريح في أنها حلقة حسية تحرك وتقعقع.

---

(١) ٥٥ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ١٠٢) وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٠).

(٣) انظر: التخويف من النار (صـ١٥٧).

(٤) أخرجه الدارمي (رقم ٤٧) وأبو يعلىٰ (٧/ ٢٨١ رقم ٤٣٠٥).

(٥) أخرجه أبو يعلىٰ (٧/ ٦٨ رقم ٣٩٨٩) والترمذي (رقم ٣١٤٨) والدارمي (رقم ٥٠) والديلمي في الفردوس (١/ ٤٧ رقم ١١٨) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٦) وفيض القدير (١/ ٣٧) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وروىٰ سهيل عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**آخذ بحلقة باب الجنة فيؤذن لي**»[(١)] ويذكر عن علي ﷺ: «من قال لا إله إلا الله الملك الحق المبين في كل يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر ومن وحشة القبر واستجلب به الغنىٰ واستقرع به باب الجنة»[(٢)].

[(٣)] قوله سبحانه: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ [ص: ٥٠، ٥١]. كيف تجد تحته معنىٰ بديعاً، وهو أنهم إذا دخلوا الجنة لم تغلق أبوابها عليهم، بل تبقىٰ مفتحة كما هي. وأما النار فإذا دخلها أهلها أغلقت عليهم أبوابها، كما قال تعالىٰ: ﴿ مُّؤۡصَدَةُۢ ۝ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ﴾ [الهمزة: ٨، ٩] قد جعلت العمد ممسكة للأبواب من خلفها كالحجر العظيم الذي يجعل خلف الباب.

قال مقاتل: يعني أبوابها عليهم مطبقة، فلا يفتح لها باب، ولا يخرج منها من غم، ولا يدخل فيها روح آخر الأبد. وأيضاً فإن في تفتيح الأبواب لهم إشارة إلي تصرفهم، وذهابهم وإيابهم، وتبوئهم في الجنة حيث شاؤوا، ودخول الملائكة عليهم كل وقت بالتحف والألطاف من ربهم، ودخول ما يسرهم عليهم كل وقت. وأيضاً إشارة إلىٰ أنها دار أمن لا يحتاجون فيها إلىٰ غلق الأبواب كما كانوا يحتاجون إلىٰ ذلك في الدنيا.

[(٤)]فهم يتناولونها قياماً وقعوداً ومضطجعين، فيكون كقوله: ﴿ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ٢٣] ومعنىٰ تذليل القطف تسهيل تناوله، وأهل المدينة يقولون: ذلل النخل أي سوِّ عروقها وأخرجها من السعف حتىٰ يسهل تناولها. وفي نصب دانية وجهان:

---

(١) ذكره الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (٢/ ١٧١).

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٨٠) والقزويني في أخبار قزوين (٤/ ٦٥) وذكره الذهبي في ميزان الاعتدال في ترجمة الفضل بن غانم (٥/ ٤٣٣) وضعفه. وذكره ابن حجر في لسان الميزان (٦/ ٢٨٣) وقال: قال الدارقطني: كل من حدث به عن مالك ضعيف.

(٣) ٤٥ حادي الأرواح.

(٤) ١٢٥ حادي الأرواح.

أحدهما: أنه على الحال عطفاً على قوله متكئين. والثاني: أنه صفة الجنة، وقال تعالىٰ: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾ [الرحمن: ٥٢] وفي الجنتين الأخريين: ﴿ فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن: ٦٨]، وخص النخل والرمان من بين الفاكهة بالذكر لفضلهما وشرفهما، كما نص على حدائق النخل والأعناب في سورة النبأ، إذ هما من أفضل أنواع الفاكهة وأطيبها وأحلاها، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [محمد: ١٥] وقال الطبراني: حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا علي بن المديني حدثنا ريحان ابن سعيد عن عبادة بن منصور عن أيوب عن أبي قلابة عن إسماعيل عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى**»[(١)] وقال عبدالله ابن الإمام أحمد حدثني عقبة بن مكرم العمي حدثنا ربعي بن إبراهيم بن علية حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**أهبط الله آدم من الجنة ؛، وعلمه صنعة كل شيء، وزوده من ثمار الجنة، فثماركم هذه من ثمار الجنة، غير أنها تغير، وتلك لا تغير**»[(٢)].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**عرضت عليَّ الجنة حتى تناولت منها قطفاً أخذته**» وفي لفظ: «**فتناولت منها قطفاً فقصرت عنه يدي**»[(٣)] وقال أبو خيثمة حدثنا عبدالله بن جعفر حدثنا عبيد الله حدثنا ابن عقيل عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه، ثم تأخر فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢/ ١٠٢ رقم ١٤٤٩) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٤١٤): رواه الطبراني والبزار إلا أنه قال:: عيد في مكانها مثلاها. ورجال الطبراني وأحد إسنادي البزار ثقات.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ١٧٢) والحاكم (٢/ ٥٩٢ رقم ٣٩٩٦) والبزار (٨/ ٤٥ رقم ٣٠٢٩) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٧/ ٤٣٨) وقال الهيثمي في المجمع (٨/ ١٩٧): رواه البزار والطبراني ورجاله ثقات.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٩٠٤) وانظر: فتح الباري (٣/ ٨٣) وشرح النووي (٦/ ٢٠٧).

صلاتك شيئاً ما كنت تصنعه؟ قال: «إنه عرضت عليَّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه»(١).

وقال ابن المبارك: أنبأنا سفيان عن حماد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «ثمر الجنة أمثال القلال والدلاء، أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد ليس فيه عجم»(٢). وقال سعيد بن منصور حدثنا شريك عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: «إن أهل الجنة يأكلون من ثمار الجنة قياماً وقعوداً ومضطجعين على أي حال شاءوا»(٣).

(٤)وفي الصحيحين من حديث أبي حازم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب: باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»(٥). وفي الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبدالرحمن عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة: يا عبدالله هذا خير. فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٥٢) وعبد بن حميد (رقم ١٠٣٦) وانظر: فتح الباري (٢/ ٥٤٠) وشرح الزرقاني (١/ ٥٣٢) وتفسير ابن كثير (٢/ ٥١٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٧/ ١٥٧) والحاكم (٢/ ٥١٧ رقم ٣٧٧٦) وعبدالرزاق (١١/ ٤١٥ رقم ٢٠٨٦٩) وهناد في الزهد (١/ ٩٥ رقم ١٠٧) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٩١ رقم ١٩٠٨٤) والذهبي في سير أعلام النبلاء (٨/ ٣١١) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٩٠): رواه البيهقي وغيره موقوفاً بإسناد حسن، وانظر: فتح الباري (٨/ ٦٨٥) وعمدة القاري (١٩/ ٢١٧).

(٤) ٤٧ حادي الأرواح.

(٥) أخرجه البخاري (رقم ٣٢٥٧) ومسلم (رقم ١١٥٢) وانظر: فتح الباري (٤/ ١١١-١١٢).

الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان». فقال أبوبكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما علىٰ من دعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يدعىٰ أحد من تلك الأبواب كلها؟ فقال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم**»[1]...

[2]وقال: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ۝ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴾ [ص: ٥٠، ٥١]. وقال تعالىٰ: ﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥]، وهذا يدل علىٰ أمنهم من انقطاعها ومضرتها. وقال تعالىٰ: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ ﴾ [الزخرف: ٧٢ ـ ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣] أي: لا تكون في وقت دون وقت، ولا تمنع ممن أرادها، وقال: ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ﴾ [الحاقة: ٢١، ٢٢]، والقطوف جمع قطف وهو ما يقطف، والقطف بالفتح الفعل، أي: ثمارها دانية قريبة ممن يتناولها، فيأخذها كيف يشاء. قال البراء بن عازب: يتناول الثمرة وهو نائم.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴾ [الإنسان: ١٤] قال ابن عباس: إذا هم أن يتناول من ثمارها تدلت له حتىٰ يتناول ما يريد. وقال غيره: قريب إليهم مذللة كيف شاؤوا.

***

﴿ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ۝ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ۝ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝ ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٧) ومسلم (رقم ١٠٢٧) وانظر: فتح الباري (٤/ ١١٢) وشرح النووي (٧/ ١١٥-١١٦).

(٢) ١٢٤ حادي الأرواح.

أي: سننتموه لنا وشرعتموه ﴿ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴾ [ص:٦١] فقولهم: لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار، أي داخلوها كما دخلناها، ومقاسون عذابها كما نقاسيه، فأجابهم الأتباع وقالوا: ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾.[1]

وفي الضمير قولان: أحدهما: أنه ضمير الكفر والتكذيب ورد قول الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ واستبدال غيره به. والمعنى أنتم زينتم لنا الكفر، ودعوتمونا إليه، وحسنتموه لنا.

وقيل على هذا القول: إنه قول الأمم المتأخرين للمتقدمين. والمعنى على هذا: أنتم شرعتم لنا تكذيب الرسل، ورد ما جاءوا به، والشرك بالله ﷻ، أي بدأتم به وتقدمتمونا إليه، فدخلتم النار قبلنا فبئس القرار، أي بئس المستقر والمنزل.

والقول الثاني: إن الضمير في قوله: ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ ضمير العذاب وصلي النار، والقولان متلازمان، وهما حق.

وأما القائلون: ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي ٱلنَّارِ ﴾ فيجوز أن يكون الأتباع دعوا على سادتهم وكبرائهم وأئمتهم به، لأنهم الذين حملوهم عليه ودعوهم إليه، ويجوز أن يكون جميع أهل النار سألوا ربهم أن يزيد من سن لهم الشرك وتكذيب الرسل ـ صلى الله عليهم وسلم ـ ضعفاً وهم الشياطين.

***

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

---

(١) ٢٩ اجتماع الجيوش.

[(١)]أما استدلالهم بإضافتها إليه سبحانه بقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢] فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها. فعلمه، وكلامه، وإرادته، وقدرته، وحياته، صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده ـ سبحانه ـ.

والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت، والناقة، والعبد، والرسول، والروح. فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصاً وتشريفاً يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكاً له. وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته، حيث تقتضي خلقه وإيجاده. فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد، والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

وإضافة الروح إليه من هذه الإضافة الخاصة لا من العامة، ولا من باب إضافة الصفات. فتأمل هذا الموضوع فإنه يخلصك من ضلالات كثيرة وقع فيها من شاء الله من الناس.

[(٢)]فإن قيل: فما تقولون في قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ فأضاف النفخ إلى نفسه، وهذا يقتضي المباشرة منه تعالى، كما في قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]؟ ولهذا فرق بينهما في الذكر في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء»[(٣)]. فذكروا لآدم أربع خصائص اختص بها عن غيره، ولو

---

(١) ١٩٠ الروح.

(٢) ٣٧٢ الروح، طبعة دار ابن كثير بتحقيق يوسف علي بديوي.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٤٠) ومسلم (رقم ١٩٤) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٣).

كانت الروح التي فيه إنما هي من نفخة الملك لم يكن له خصيصة بذلك، وكان بمنزلة المسيح بل وسائر أولاده؛ فإن الروح حصلت فيهم من نفخة الملك، وقد قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ [الحجر: ٢٩] فهو الذي سواه بيده، وهو الذي نفخ فيه من روحه؟

قيل: هذا الموضع هو الذي أوجب لهذا الطائفة أن قالت بقدم الروح، وتوقف فيها آخرون ولم يفهموا مراد القرآن.

فأما الروح المضافة إلى الرب: فهي روح مخلوقة أضافها إلي نفسه إضافة تخصيص وتشريف كما بينا.

وأما النفخ فقد قال تعالى في مريم: ﴿ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢] وقد أخبر في موضع آخر أنه أرسل إليها الملك فنفخ في فرجها، وكان النفخ مضافاً إلى الله أمراً وإذناً وإلى الرسول مباشرة.

يبقى ههنا أمران: أحدهما أن يقال: فإذا كان النفخ حصل في مريم من جهة الملك، وهو الذي ينفخ الأرواح في سائر البشر، فما وجه تسمية المسيح روح الله؟ وإذا كان سائر الناس تحدث أرواحهم من هذه الروح فما خاصية المسيح؟

الثاني: أن يقال: فهل تعلق الروح بآدم كانت بواسطة نفخ هذه الروح هو الذي نفخها فيه بإذن الله، كما نفخها في مريم أم الرب ـ تعالى ـ هو الذي نفخها بنفسه، كما خلقه بيده؟ قيل: لعمر الله، إنهما سؤالان مهمان! فأما الأول بالجواب عنه أن الروح الذي نفخ في مريم هو الروح المضاف إلى الذي اختصه لنفسه وأضافه إليه، وهو روح خاص من بين سائر الأرواح، وليس بالملك الموكل بالنفخ في بطون الحوامل من المؤمنين والكفار؛فإن الله ـ سبحانه ـ وكل بالرحم ملكاً ينفخ الروح في الجنين، فيكتب رزق المولود، وأجله وعمله، وشقاوته وسعادته. وأما هذا الروح المرسل إلى مريم فهو روح الله الذي اصطفاه من الأرواح لنفسه، فكان لمريم بمنزلة الأب لسائر النوع؛ فإن نفخته لما دخلت في فرجها كان ذلك بمنزلة لقاح الذكر للأنثى من غير أن

يكون هناك وطء. وأما ما اختص به آدم فإنه لم يخلق كخلقة المسيح من أم، ولا كخلقه سائر النوع من أب وأم، ولا كان الروح الذي نفخ الله فيه منه هو الملك الذي ينفخ الروح في سائر أولاده، ولو كان كذلك لم يكن لآدم به اختصاص، وإنما ذكر في الحديث ما اختص به على غيره وهو أربعة أشياء: خلق الله له بيده، ونفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء. فنفخه فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء. فنفخه فيه من روحه يستلزم نافخاً ونفخاً ومنفوخاً منه، فالمنفوخ منه هو الروح المضافة إلى الله، فمنها سرت النفخة في طينة آدم، والله ـ تعالىٰ ـ هو الذي نفخ في طينته من تلك الروح. هذا هو الذي دل عليه النص، وأما كون النفخة بمباشرة منه ـ سبحانه ـ كما خلقه بيده، أو أنها حصلت بأمره كما حصلت في مريم ـ عليها السلام ـ فهذا يحتاج إلى دليل. والفرق بين خلق الله بيده ونفخه فيه من روحه: أن اليد غير مخلوقة، والروح مخلوقة، والخلق فعل من أفعال الرب، وأما النفخ فهل هو من أفعاله القائمة به أو هو مفعول من مفعولاته القائمة بغيره المنفصلة عنه؟ وعلى كل تقدير فالروح التي نفخ منها في آدم روح مخلوقة غير قديمة، وهي مادة روح آدم، فروحه أولى أن تكون حادثة مخلوقة وهو المراد.

***

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾.

[1]وقد قيل: إن طرد إبليس ولعنه إنما كان بسبب التأويل، فإنه عارض النص بالقياس وقدمه عليه، وتأول لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود، فإنه قال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وهذا دليل قد حذفت إحدى مقدمتيه، وهي: إن الفاضل لا يخضع للمفضول، وطوى ذكر هذه المقدمة كأنها صورة معلومة، وقرر المقدمة الأولى بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ فكانت نتيجة المقدمتين

(١) ٦٣ مختصر الصواعق جـ١.

امتناعه من السجود. وظن أن هذه الشبهة العقلية تنفعه بتأويله، فجرىٰ عليه ما جرىٰ، وصار إماماً لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله إلىٰ يوم القيامة. فلا إله إلا الله والله أكبر. كم لهذا الإمام اللعين من أتباع من العالمين؟ وأنت إذا تأملت عامة شبه المتأولين رأيتها من جنس شبهته.

والقائل إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل من هنا اشتق هذه القاعدة، وجعلها أصلاً لرد نصوص الوحي التي يزعم أن العقل يخالفها. وعرضت هذه الشبهة لعدو الله من جهة كبره الذي منعه من الانقياد المحض لنصوص الوحي. وهكذا إلحاد كل مجادل في نصوص الوحي إنما يحمله علىٰ ذلك كبر في صدره ما هو ببالغه. قال الله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦] وكذلك خروج آدم من الجنة إنما كان بالتأويل، وإلا فهو ﷺ لم يقصد بالأكل مصية الرب. ثم اختلف الناس في وجه تأويله. فقالت طائفة: تأول بحمله النهي المطلق علىٰ الشجرة المعينة. وغره عدو الله بأن جنس تلك الشجرة هي شجرة الخلد، وأطمعه في أنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة. وفي هذا نظر ظاهر. فإن الله ـ تعالىٰ ـ أخبر أن إبليس قال له: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠] فذكر لهما عدو الله الشجرة التي نهيا عنها، إما بعينها أو بجنسها، وصرح لهما بأنها هي المنهي عنها. ولو كان عند آدم أن المنهي عنه تلك الشجرة المعينة دون سائر النوع لم يكن عاصياً بأكله من غيرها، ولا أخرجه الله من الجنة ونزع عنه لباسه.

وقالت فرقة أخرىٰ: تأول آدم أن النهي نهي تنزيه لا نهي تحريم فأقدم، وأيضاً فحيث نهىٰ الله ـ تعالىٰ ـ عن فعل الشيء بقربانه لم يكن أصلاً للتحريم كقوله: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ ﴾ [الإسراء: ٣٤] وأيضاً لو كان للتنزيه لما أخرجه الله من الجنة، وأخبر أنه عصىٰ ربه.

وقالت طائفة: بل كان تأويله أن النهي إنما كان عن قربانهما وأكلهما معاً، لا عن أكل كل منهما على انفراده، لأن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ نهي لهما عن الجمع، ولا يلزم من حصول النهي حال الاجتماع حصوله حال الانفراد. وهذا التأويل ذكره ابن الخطيب في تفسيره، وهو كما ترى في البطلان والفساد. ونحن نقطع أن هذا التأويل لم يخطر بقلب آدم وحواء البتة، وهما كانا أعلم بالله من ذلك وأصح أفهماً، أفترى فهم أحد من قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾، ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ ونظائره، أي إنما نهيتكم عن اجتماعكم على ذلك دون انفراد كل واحد منكم به، فيا للعجب من أوراق وقلوب تسود على هذه الهذيانات.

[1]إن معارضة الوحي بالعقل ميراث عن الشيخ أبي مرة فهو أول من عارض السمع بالعقل وقدمه عليه؛ فإن الله سبحانه لما أمره بالسجود لآدم عارض أمره بقياس عقلي مركب من مقدمتين حمليتين، إحداهما قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فهذه هي الصغرى، والكبرى محذوفة تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول. وذكر سند المقدمة الأولى. وهو أيضاً قياس حملي حذف إحدى مقدمتيه، فقال: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] المقدمة الثانية كلها معلومة، أي ومن خلق من نار خير ممن خلق من طين. فهما قياسان متداخلان، وهذه يسميها المنطقيون الأقيسة المتداخلة. فالقياس الأول هكذا: أنا خير منه، وخير المخلوقين لا يسجد لمن هو دونه. وهذا من الشكل الأول. والقياس الثاني هكذا: خلقتني من نار وخلقته من طين. والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين. فنتيجة هذا القياس العقلي: أنا خير منه، ونتيجة الأول: فلا ينبغي أن أسجد له. وأنت إذا تأملت مادة هذه القياس وصورته رأيته أقوى من كثير من قياساتهم التي عارضوا بها الوحي، والكل باطل.

(١) ٢٠١ مختصر اصواعق جـ١.

وقد اعتذر أتباع الشيخ أبي مرة[1] أعذارًا (منها) أنه لما تعارض عنده العقل والنقل قدم العقل، (ومنها) أن الخطاب بصيغة الضمير في قوله «اسجدوا» ولا عموم له؛ فإن الضمائر ليست من صيغ العموم، (ومنها) أنه وإن كان اللفظ عاماً فإنه خصه بالقياس المذكور، (ومنها) أنه لم يعتقد أن الأمر للوجوب، بل حمله على الاستحباب لأنه المتيقن، أو على الرجحان دفعاً للاشتراك والمجاز، (ومنها) أنه حمله على التراخي ولم يحمله على الفور، (ومنها) أنه صان جناب الرب أن يسجد لغيره، ورأى أنه لا يليق به السجود لسواه. وبالله تأمل هذه التأويلات، وقابل بينها وبين كثير من التأويلات التي يذكرها كثير من الناس. وفي بني آدم من يصوب رأي إبليس وقياسه. ولهم في ذلك تصانيف، وكان بشار بن برد الشاعر الأعمى على هذا المذهب، ولهذا يقول في قصيدته:

الأرض مظلمة سوداء معتمة   والنار معبودة مذ كانت النار[2]

ولما علم الشيخ أنه قد أصيب من معارضة الوحي بالعقل، وعلم أنه لا شيء أبلغ في مناقضة الوحي والشرع وإبطاله من معارضته بالمعقول أوحى إلى تلامذته وإخوانه من الشبهات الخيالية ما يعارضون بها الوحي، وأوهم أصحابه أنها قواطع عقلية، وقال: إن قدمتم النقل عليها فسدت عقولكم: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ

---

(١) أبو مرة هذه كنية إبليس الشيطان اللعين، نص على ذلك ابن حجر في فتح الباري (٦/ ٣٣٩) وابن الأثير في النهاية (٤/ ٣) والفيروزآبادي في القاموس (ص ٦١٠) وابن منظور في اللسان (٢/ ٥٥٢) (٥/ ١٧١) والرازي في مختار الصحاح (ص ٢٥٩).

(٢) هذا البيت من بحر البسيط وينسب إلى بشار بن برد. وذكر البيت ابن حجر العسقلاني في لسان الميزان (٢/ ١٥) في ترجمة بشار، وقال: وكان يتعصب للعجم على العرب ويصوِّب رأي إبليس في ترك السجود لآدم عليه السلام وينشد. وذكر البيت. وانظر: شذرات الذهب (١/ ٢٦٤).

غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٢ ـ ١١٧]. الوجه الثاني والثلاثون: في بيان فساد معقول الشيخ الذي عارض به الوحي. وذلك من وجوه: (أحدها) أنه قياس في مقابلة النص، والقياس إذا صادم النص وقابله كان قياساً باطلاً، ويسمى قياساً إبليسياً، فإنه يتضمن معارضة الحق بالباطل. ولهذا كانت عقوبته أن أفسد عليه عقله ودنياه وآخرته. وقد بينا فيما تقدم أنه ما عارض أحد الوحي بعقله إلا أفسد الله عليه عقله حتى يقول ما يضحك العقلاء.

الثاني: أن قوله: ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ﴾ كذب، ومستنده في ذلك باطل؛ فإنه لا يلزم من تفضيل مادة على مادة تفضيل المخلوق منها على المخلوق من الأخرى؛ فإن الله ـ سبحانه ـ يخلق من المادة المفضولة ما هو أفضل من المخلوق من غيرها، وهذا من كمال قدرته؛ فإن محمداً ﷺ وإبراهيم وموسى وعيسى ونوحاً ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ أفضل من الملائكة.

ومذهب أهل السنة أن صالحي البشر أفضل من الملائكة، وإن كانت مادتهم نوراً ومادة البشر تراباً؛ فالتفضيل ليس بالمواد والأصول. ولهذا كان العبيد والموالي الذين آمنوا بالله ورسوله خيراً وأفضل عند الله ممن ليس مثلهم من قريش وبني هاشم. وهذه المعارضة الإبليسية صارت ميراثاً في أتباعه في التقديم بالأصول والأنساب على الإيمان والتقوى، وهي التي أبطلها الله تعالى بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ

وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال النبي ﷺ: «**إن الله وضع عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس مؤمن تقي وفاجر شقي**»[١]. وقال ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى. الناس من آدم، وآدم من تراب**»[٢]. فانظر إلى سريان هذه النكتة الإبليسية في نفوس أكثر الناس، من تفضيلهم بمجرد الأنساب والأصول.

الثالث: أن ظنه أن النار خير من التراب باطل، مستنده ما فيها من الإضاءة والخفة وما في التراب من الثقل والظلمة، ونسي الشيخ ما في النار من الطيش والخفة، وطلب العلو والإفساد بالطبع، حتى لو وقع منها شواظ بقدر الحبة في مدينة عظيمة لأفسدها كلها ومن فيها، بل التراب خير من النار وأفضل من وجوه متعددة:

منها: أن طبعه السكون والرزانة، والنار بخلافه.

ومنها: أنه مادة الحيوان والنبات والأقوات، والنار بخلافه.

ومنها: أنه لا يمكن لأحد أن يعيش بدونه ودون ما خلق منه البتة، ويمكنه أن يعيش برهة بلا نار. قالت عائشة: «كان يمر بنا الشهر والشهران ما يوقد في بيوتنا نار ولا نرى ناراً». قال لها عروة: فما عيشكم؟ قالت: «الأسودان التمر والماء»[٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٥١١٦) والترمذي (رقم ٣٩٥٦) وأحمد (٢/ ٣٦١) والبيهقي في الكبرى (١٠/ ٢٣٢ رقم ٢٠٨٥١) وصحَّحه الترمذي. وحسَّنه المنذري في الترغيب (٣/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤١١) وابن المبارك في مسنده (رقم ٢٣٩) والبيهقي في الشعب (٤/ ٢٨٩ رقم ٥١٤٧) وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (رقم ٢٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٦٦): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح. وانظر: فتح الباري (٦/ ٥٢٧).

(٣) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٦٩٩ رقم ١٠١٤) وإسحاق بن راهويه في مسنده (٢/ ٣٥٥ رقم ٨٩١) وأحمد (٦/ ٧١) والطيالسي (رقم ١٤٧٢) والبيهقي في الشعب (٧/ ٣١٤ رقم ١٠٤٢٤) والخطيب في تاريخ بغداد (٧/ ٣٢٧).

ومنها: أن الأرض تؤدي إليك بما فيها من البركة أضعاف أضعاف ما تودعه من الحب والنوىٰ، وتربيه لك وتغذيه وتنميه، والنار تفسده عليك وتمحق بركته.

ومنها: أن الأرض مهبط وحي الله، ومسكن رسله وأنبيائه وأوليائه، وكفاتهم أحياء وأمواتاً. والنار مسكن أعدائه ومأواهم.

ومنها: أن في الأرض بيته الذي جعله إماماً للناس وقياماً لهم، وجعل حجه محطاً لأوزاهم ومكفراً لسيئاتهم، وجالباً لهم مصالح معاشهم ومعادهم.

ومنها: أن النار طبعها العلو والفساد، والله لا يحب المستكبرين، ولا يحب المفسدين. والأرض طبعها الخشوع والإخبات، والله يحب المخبتين الخاشعين. وقد ظهر بخلق إبراهيم ومحمد وموسىٰ وعيسىٰ والرسل من المادة الأرضية، وخلق إبليس وجنوده من المادة النارية، نعم وخلق من المادة الأرضية الكفار والمشركين، ومن المادة النارية صالحو الجن، ولكن ليس في هؤلاء مثل إبليس، وليس في أولئك مثل الرسل. فمعلم الخير من المادة الأرضية، ومعلم الشر من المادة النارية.

ومنها: أن النار لاتقوم بنفسها بل لابد لها من محل تقوم به لا تستغني عنه، وهي محتاجة إلىٰ المادة الترابية في قوامها وتأثيرها، والأرض قائمة بنفسها لا تحتاج إلىٰ محل تقوم به، ولا تفتقر في قوامها ونفعها إلىٰ النار.

ومنها: أن التراب يفسد صورة النار ويبطلها ويقهرها وإن علت عليه.

ومنها: أن الرحمة تنزل علىٰ الأرض فتقبلها وتحيا بها، وتخرج زينتها وأقواتها وتشكر ربها، وتنزل علىٰ النار فتأباها وتطفؤها وتمحوها وتذهب بها، فبينها وبين الرحمة معاداة، وبين الأرض وبين الرحمة موالاة.

ومنها: أن النار تطفأ عند التكبير، وتضمحل عند ذكر كبرياء الرب، ولهذا يهرب المخلوق منها عند الأذان حتىٰ لا يسمعه، والأرض تبتهج بذلك وتفرح به. وتشهد به لصاحبه يوم القيامة. ويكفي في فضل المخلوق من الأرض أن الله تعالىٰ خلقه بيده

ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء. فهل حصل للمخلوق من النار واحدة من هذه؟ فقد تبين لك حال هذه المعارضة العقلية للسمع وفسادها من هذه الوجوه وأكثر منها، وهي من شيخ القوم ورئيسهم ومعلمهم الأول، فما الظن بمعارضة التلامذة؟

ونحن نقول قولا نقدم بين يديه مشيئة الله وحوله والاعتراف بمنته علينا وفضله لدينا، وأنه محض منته وجوده وفضله، فهو المحمود أولاً وآخراً على توفيقنا له وتعليمنا إياه. إن كل شبهة من شبه أرباب المعقولات عارضوا بها الوحي فعندنا ما يبطلها بأكثر من الوجوه التي أبطلنا بها معارضة شيخ القوم، وإن مد الله في الأجل أفردنا في ذلك كتاباً كبيراً.

ولو نعلم أن في الأرض من يقول ذلك ويقوم به تبلغ إليه أكباد الإبل اقتدينا في السير إليه بموسى عليه السلام في سفره إلى الخضر، وبجابر بن عبدالله في سفره إلى عبدالله بن أنيس لسماع حديث واحد[1]، ولكن زهد الناس في عالم قومه. وقد قام قبلنا بهذا الأمر من برز على أهل الأرض في عصره وفي أعصار قبله، فأدرك من قبله وحيداً وسبق من بعده سبقاً بعيداً.

الوجه الثالث والثلاثون: أنه ـ سبحانه ـ وصف نفسه بأن ليس كمثله شيء، وأنه لا

---

(١) فعن عبد الله بن محمد بن عقيل أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من النبي ﷺ فاشتريت بعيراً ثم شددت عليه رحلاً فسرت عليه شهراً، حتى قدمت عليه الشام، فإذا عبد الله ابن أنيس، فقلت للبواب: قل له جابر على الباب. فقال: ابن عبدالله؟ قلت: نعم. فخرج يطأ ثوبه فاعتنقني وأعتنقته. فقلت: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في القصاص، فخشيت أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه. ثم ذكر باقي القصة.

وبوَّب البخاري في كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم.ورحل جابر بن عبدالله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث واحد. صحيح البخاري (صـ٤٠) وقبل حديث (رقم ٧٨).

وهذه القصة أخرجها الضياء في المختارة (٩/ ٢٥-٢٦ رقم ١٠) والحاكم (٢/ ٤٧٥ رقم ٣٦٣٨) وأحمد (٣/ ٤٩٥).

سمي له ولا كفؤ له. وهذا يستلزم وصفه بصفات الكمال التي فات بها شبه المخلوقين واستحق بقيامها أن يكون ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ وهكذا كونه ليس له سمي، أي مثيل يساميه في صفاته وأفعاله، ولا من يكافيه فيها.

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة ص

والحمد لله رب العالمين





بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾.

[1]قال الله تعالى، حاكياً عن أسلاف هؤلاء المشركين: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٣]. ثم شهد عليهم بالكفر والكذب. وأخبر أنه لا يهديهم، فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ [الزمر: ٣].

فهذه حال من اتخذ من دون الله ولياً، يزعم أنه يقربه إلى الله. وما أعز من يخلص من هذا؟ بل ما أعز من لا يعادي من أنكره.

والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم: أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك. وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء. فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه. فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له: صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعاً من دون الله ربه ومولاه.

و«الشفاعة» التي أثبتها الله ورسوله: هي الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وحده. والتي نفاها الله: هي الشفاعة الشركية، التي في قلوب المشركين، المتخذين من دون الله شفعاء، فيعاملون بنقيض قصدهم من شفعائهم، ويفوز بها الموحدون.

---

(١) ٣٤ مدارج جـ١.

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

[1]إن كل حجاب من هذه الحجب له ظلمة تخصه، فذكر سبحانه أطوار خلقه ونقله فيها من حال إلىٰ حال، وذكر ظلمات الحجب التي علىٰ الجنين، فقال أكثر المفسرين: هي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. فإن كل واحد منها حجاب علىٰ الجنين، وقال آخرون: هي ظلمة أصلاب الآباء، وظلمة بطون الأمهات، وظلمة المشيمة، وأضعف من هذا القول قول من قال: ظلمة الليل، وظلمة البطن، وظلمة الرحم؛ فإن الليل والنهار بالنسبة إلىٰ الجنين سواء.

وقال بقراط: المرأة إذا حبلت لم تألم من اجتماع الدم الذي ينزل ويجتمع حول رحمها، ولا تحس بضعف كما تحس إذا انحدر الطمث، لأنها لا يثور دمها في كل شهر، لكنه ينزل إلىٰ الرحم كل يوم قليلاً قليلاً نزولاً ساكناً من غير وجع، فإذا أتىٰ إلىٰ الرحم اغتذىٰ منه الجنين ونما، ثم قال: وعلىٰ غير بعيد من ذلك، إذا خلق للجنين لحم وجسد تكون الحجب، وإذا كبر كبرت الحجب أيضاً وصار لها تجويف خارج عن الجنين، فإذا نزل الدم من الأم جذبه الجنين واغتذىٰ به فيزيد في لحمه، والردىٰ من الدم الذي لا يصلح للغذاء ينزل إلىٰ مجاري الحجب، لذلك تسمىٰ الحجب، التي إذا صار لها تجويف تقبل الدم: المشيمة.

وقال إذا تم الجنين وكملت صورته واجتذب الدم لغذائه بالمقدار اتسعت الحجب، وظهرت المشيمة التي تكون من الآلات التي ذكرنا، فإن اتسع داخلها اتسع خارجها، لأنه أولىٰ بذلك، لأن له موضعاً يمتد إليه.

قلت: ومن ههنا لم تحض الحامل، بل ما تراه من الدم يكون دم فساد ليس دم

---

(١) ١٤٨ تحفة المودود.

الحيض المعتاد. هذه إحدىٰ الروايتين عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وهو المشهور من مذهب أحمد الذي لا يعرفه أصحابه سواه، وهو مذهب أبي حنيفة. وذهب الشافعي في رواية عن عائشة، والإمام أحمد في رواية عنه، اختارها شيخنا إلىٰ أن ماتراه من الدم في وقت عادتها يكون حيضاً.

وحجة هذا القول ظاهرة، وهي عموم الأدلة الدالة علىٰ ترك المرأة الصوم والصلاة إذا رأت الدم المعتاد في وقت الحيض، لم يستثن الله ورسوله حالة دون حالة، وأما كون الدم ينصرف إلىٰ غذاء الولد، فمن المعلوم أن ذلك لا يمنع أن يبقىٰ منه بقية تخرج في وقت الحيض تفضل عن غذاء الولد، فلا تنافي بين غذاء الولد وبين حيض الأم.

وأصحاب القول الآخر يحتجون بقوله ﷺ: «لا توطأ حامل حتىٰ تضع، ولا حائل حتىٰ تستبرأ بحيضة»[1] فجعل الحيضة دليلاً علىٰ عدم الحمل، فلو حاضت الحامل لم تكن الحيضة علماً علىٰ براءة حملها. والآخرون يجيبون عن هذا: بأن الحيضة علم ظاهر، فإذا ظهر بها الحمل تبينا أنه لم يكن دليلاً، ولهذا يحكم بانقضاء العدة بالحيض ظاهراً...

***

﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢١٥٧) والبيهقي في الكبرىٰ (٥/ ٣٢٩ رقم ١٠٥٧٢) والحاكم (٢/ ٢١٢ رقم ٢٧٩٠) والدارمي (رقم ٢٢٩٥) وأحمد (٣/ ٦٢). ذكر الحديث الحافظ ابن حجر في الفتح (٤/ ٤٢٤) وقال: قاله في سبايا أوطاس، أخرجه أبو داود وغيره وليس علىٰ شرط الصحيح. وصححه الحاكم وحسنه ابن عبد البر في التمهيد (٣/ ١٤٣) وقال المباركفوري في تحفة الأحوذي (٤/ ٢٣٦): وأخرجه الحاكم وصححه. قال الحافظ في التلخيص: إسناده حسن.

[(١)] وقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

ويتنصل ـ سبحانه ـ إلى عباده من مواضع الظنة والتهمة التي نسبها إليه من لم يعرفه حق معرفته، ولا قدره حق قدره: من تكليف عباده ما لا يقدرون عليه، ولا طاقة لهم بفعله البتة، وتعذيبهم إن شكروه وآمنوا به، وخلق السموات والأرض وما بينهما لا لحكمة ولا لغاية، وأنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم، ولا ليتكثر بهم من قلة، ولا ليتعزز بهم، كما قال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧]. فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منهم إليهم، ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ﴾ [الإسراء: ٧]، ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: ٤٤].

ولما أمرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم، ويدخلون به عليه، ويرفع به درجاتهم قال تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦]. وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧].

وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟

---

(١) ١٣٤ طريق الهجرتين.

ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. يقول ـ سبحانه ـ: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق المحامد كلها، فإنفاقكم لا يسد منه حاجة، ولا يوجب له حمدا، بل هو الغني بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته. وإنفاقكم إنما نفعه لكم وعائد عليكم[1]...

***

﴿ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

[2]أخبر أنها غرف فوق غرف، وأنها مبنية بناء حقيقة؛ لئلا تتوهم النفوس أن ذلك تمثيل وأنه ليس هناك بناء، بل تتصور النفوس غرفاً مبنية كالعلالي بعضها فوق بعض، حتى كأنها ينظر إليها عياناً. ومبنية صفة للغرف الأولى والثانية، أي لهم منازل مرتفعة، وفوقها منازل أرفع منها. وقال تعالى: ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾ [الفرقان: ٧٥]. والغرفة جنس كالجنة، وتأمل كيف جعل جزاءهم على هذه الأقوال المتضمنة للخضوع والذل والاستكانة لله الغرفة والتحية والسلام في مقابلة صبرهم على سوء خطاب الجاهلين لهم، فبدلوا بذلك سلام الله وملائكته عليهم.

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ﴾ [الصف: ١٢].

وقال ـ تعالى ـ عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١]. وروى الترمذي في جامعه من حديث عبدالرحمن بن إسحاق عن

---

(١) بقية البحث مفيد جدًا، تركناه اختصارًا، فاظفر به، وفقك الله لرضاه. (ج).

(٢) ١٠٢ حادي الأرواح.

النعمان بن سعد عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن في الجنة لغرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها»**، فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لمن هي؟ قال: **«لمن طيب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»**[(١)]. قال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبدالرحمن بن إسحاق.

وقال الطبراني: حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام قال: حدثني أبو سلام حدثني أبو معانق الأشعري حدثني أبو مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدها الله لمن أطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلى بالليل والناس نيام»**[(٢)].

***

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

[(٣)]هذا مثل ضربه الله لمن عبده وحده فسلم له، ولمن عبد من دونه آلهة فهم شركاء فيه متشاكسون عسرون، فهل يستوي في العقول هذا وهذا؟ وقد أكثر تعالى من

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٢٧) وابن خزيمة (٣/ ٣٠٦ رقم ٢١٣٦) وأبو يعلى (١/ ٣٤٤ رقم٤٣٨) وابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل (رقم ٣٩١) وقال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٣٧١): ورواه الطبراني من حديث عبدالله بن عمرو وأبي مالك الأشعري، كل منهما عن النبي ﷺ بنحوه، وكل من الإسنادين جيد حسن.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ٣٠١ رقم ٣٤٦٧) وفي مسند الشاميين (٢/ ٢٣٣ رقم ١٢٤٧) وأبو يعلى (١/ ٣٣٧ رقم ٤٢٨) والبيهقي في الشعب (٣/ ١٢٨ رقم ٣٠٩٠) وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٣٠٣) والحاكم (١/ ١٥٣ رقم ٢٧٠) وصححه. وابن حبان في صحيحه (٢/ ٢٦٢ رقم ٥٠٩) وفي موارد الظمآن (رقم ٦٤١) وقال المنذري في الترغيب (٢/ ٣٤ رقم ١٣٩٣): رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن. والحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

(٣) ٩ مفتاح جـ٢.

هذه الأمثال ونوعها مستدلاً بها على حسن شكره وعبادته، وقبح عبادة غيره، ولم يحتج عليهم بنفس الأمر، بل بما ركبه في عقولهم من الإقرار بذلك. وهذا كثير في القرآن، فمن تتبعه وجده.

(١) قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.احتج ـ سبحانه ـ على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملكه أرباب متعاسرون سيئوا الملكة، وحال عبد يملكه سيد واحد قد سلم كله له. فهل يصح في العقول استواء حال العبدين؟ فكذلك حال المشرك والموحد الذي قد سلمت عبوديته لإلهه الحق؟ لا يستويان.

(٢)قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. هذا مثل ضربه الله ـ سبحانه ـ للمشرك والموحد، فالمشرك بمنزلة عبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون متشاكسون، والرجل المتشاكس: الضيق الخلق. فالمشرك، لما كان يعبد آلهة شتى شبه بعبد يملكه جماعة متنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، والموحد لما كان يعبد الله وحده فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتوليه لمصالحه، فهو يستوي هذان العبدان؟

وهذا من أبلغ الأمثال؛ فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه وقيامه بمصالحه ما لا يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين. الحمد لله،

---

(١) ٢٤٠ مدارج جـ١.

(٢) ١٧ أعلام جـ١.

بل أكثرهم لا يعلمون.

[1]أما السؤال الأول، وهو: ما حقيقة هذه اللفظة؟ فحقيقتها البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب. وعلى هذا المعنى تدور تصاريفها، فمن ذلك قولك: «سلمك الله، وسلم فلان من الشر»، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط: «رب سلم، اللهم سلم». ومنه سلم الشيء لفلان، أي خلص له وحده، فخلص من ضرر الشركة فيه. قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾، أي خالصًا له وحده لا يملكه غيره، ومنه السلم ضد الحرب، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ﴾ [الأنفال: ٦١]، لأن كلا من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا يبنى منه على المفاعلة، فيقال: المسالمة مثل المشاركة.

ومنه القلب السليم، وهو النقي من الغل والدغل. وحقيقته الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات. بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته. فهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته. ومنه أخذ الإسلام فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد لله، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له كالعبد الذي سلم لمولاه ليس فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب ـ سبحانه ـ هذين المثلين للمسلم المخلص الخالص لربه والمشرك به.

ومنه السلم للسلف، وحقيقته العوض المسلم فيه؛ لأن من هو في ذمته قد ضمن سلامته لربه، ثم سمى العقد سلماً وحقيقته ما ذكرناه.

(فإن قيل): فهذا ينتقض بقولهم للديغ: سليماً.

(قيل): ليس هذا بنقض له، بل طرد لما قلناه؛ فإنهم سموه سليماً باعتبار ما يهمه ويطلبه، ويرجو أن يؤول إليه حاله من السلامة، فليس عنده أهم من السلامة، ولا هو

---

(١) ١٣٣ بدائع جـ٢.

أشد طلباً منه لغيرها، فسمي سليماً لذلك. وهذا من جنس تسميتهم المهلكة مفازة؛ لأنه لا شيء أهم عند سالكها من فوزه منها أي نجاته، فسميت مفازة لأنه يطلب الفوز منها. وهذا أحسن من قولهم: إنما سميت مفازة وسمي اللديغ سليماً تفاؤلاً[1]، وإن كان التفاؤل جزء هذا المعنى الذي ذكرناه وداخلاً فيه، فهو أعم وأحسن.

فإن قيل: فكيف يمكنهم رد السلم إلى هذا الأصل.

قيل: ذلك ظاهر؛ لأن الصاعد إلى مكان مرتفع لما كان متعرضاً للهوي والسقوط، طالباً السلامة، راجياً لها، سميت الآلة التي يتوصل بها إلى غرضه سلماً لتضمنها سلامته، إذ لو صعد بتكلف من غير سلم لكان عطبه متوقعاً. فصح أن السلم من هذا المعنى.

ومنه تسمية الجنة بدار السلام. وفي إضافتها إلى السلام ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها إضافة إلى مالكها السلام ـ سبحانه ـ.

الثاني: إنها إضافة إلى تحية أهلها؛ فإن تحيهم فيها سلام.

والثالث: أنها إضافة إلى معنى السلامة، أي دار السلامة من كل آفة ونقص وشر. والثلاثة متلازمة، وإن كان الثالث أظهرها؛ فإنه لو كانت الإضافة إلى مالكها لأضيفت إلى اسم من أسمائه غير السلام، وكان يقال: دار الرحمن، أو دار الله، أو دار الملك ونحو ذلك. فإذا عهدت إضافتها إليه ثم جاء دار السلام حملت على المعهود.

وأيضاً فإن المعهود في القرآن إضافتها إلى صفتها أو إلى أهلها. أما الأول فنحو دار القرار، دار الخلد، جنة المأوى، جنات النعيم، جنات الفردوس. وأما الثاني: نحو دار المتقين، ولم تعهد إضافتها إلى اسم من أسماء الله في القرآن، فالأولى حمل الإضافة على المعهود في القرآن. وكذلك إضافتها إلى التحية ضعيف من وجهين:

---

(١) انظر: لسان العرب (١٢/ ٢٩٢) ومختار الصحاح (صـ١٣١) ومعجم البلدان (٣/ ٢٤٤) وغريب الحديث لابن سلام (٢/ ٤٣) وغريب الحديث للخطابي (١/ ٥٧٣) والنهاية لابن الأثير (٣/ ١١٠) والقاموس المحيط (صـ١٤٤٩).

أحدهما: أن التحية بالسلام مشتركة بين دار الدنيا والآخرة، وما يضاف إلىٰ الجنة لا يكون إلا مختصاً بها، كالخلد والقرار والبقاء.

الثاني: أن من أوصافها غير التحية ما هو أكمل منها، مثل كونها دائمة وباقية، ودار الخلد. والتحية فيها عارضة عند التلاقي والتزاور، بخلاف السلامة من كل عيب ونقص وشر، فإنها من أكمل أوصافها المقصودة علىٰ الدوام، التي لا يتم النعيم فيها إلا به، فإضافتها إليه أولىٰ وهذا ظاهر.

وإذا عرف هذا فإطلاق السلام علىٰ الله تعالىٰ اسماً من أسمائه هو أولىٰ من هذا كله، وأحق بهذا الاسم من كل مسمىٰ به لسلامته سبحانه من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو السلام الحق بكل اعتبار، والمخلوق سلام بالإضافة. فهو سبحانه سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم. وسلام في صفاته من كل عيب ونقص. وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص. وشر وظلم. وفعل واقع علىٰ غير وجه الحكمة. بل هو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار. فعلم أن استحقاقه تعالىٰ لهذا الاسم أكمل من استحقاق كل ما يطلق عليه. وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه ونزهه به رسوله. فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك. ولذلك إذا نظرت إلىٰ أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالها. فحياته سلام من الموت ومن السنة والنوم، وكذلك قيوميته، وقدرته سلام من التعب واللغوب. وعلمه سلام من عزوب شيء عنه، أو عروض نسيان، أو حاجة إلىٰ تذكر وتفكر. وإرادته سلام من خروجها عن الحكمة والمصلحة.

وكلماته سلام من الكذب والظلم. بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه سلام من الحاجة إلىٰ غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه. وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك، أو معاون مظاهر. أو شافع عنده بدون إذنه. وإلاهيته سلام مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو. وحلمه وعفوه وصفحه

ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة، كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه. وكذلك عذابه وانتقامه وشدة بطشه وسرعة عقابه سلام من أن يكون ظلماً أو تشفياً أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله ووضعه الأشياء مواضعها، وهو مما يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحقه على إحسانه وثوابه ونعمه. بل لو وضع الثواب موضع العقوبة لكان مناقضاً لحكمته ولعزته، فوضعه العقوبة موضعها هو من حمده وحكمته وعزته.

فهو سلام مما يتوهم أعداؤه والجاهلون به من خلاف حكمته. وقضاؤه وقدره سلام من العبث والجور والظلم، ومن توهم وقوعه على خلاف الحكمة البالغة. وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وخلاف مصلحة العباد ورحمتهم والإحسان إليهم وخلاف حكمته، بل شرعه كله حكمه ورحمة ومصلحة وعدل.

وكذلك عطاؤه سلام من كونه معاوضة أو لحاجة إلى المعطي. ومنعه سلام من البخل وخوف الإملاق، بل عطاؤه إحسان محض لا لمعاوضه ولا لحاجة، ومنعه عدل محض وحكمة لا يشوبه بخل ولا عجز. واستواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه، فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة شيء به ﷻ، بل كان ـ سبحانه ـ ولا عرش، ولم يكن به حاجة إليه وهو الغني الحميد.

بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما. ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا سلام مما يضاد علوه وسلام مما يضاد غناه. وكماله سلام من كل ما يتوهم معطل أو مشبه. وسلام من أن يصير تحت شيء أو محصوراً في شيء ـ تعالى ـ الله ربنا عن كل ما يضاد كماله.

وغناه وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل. وموالاته

لأوليائه سلام من أن تكون عن ذل كما يوالي المخلوق المخلوق، بل هي موالاة رحمة وخير وإحسان وبر، كما قال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ١١١]. فلم ينف أن يكون له ولي مطلقاً، بل نفى أن يكون له ولي من الذل. وكذلك محبته لمحبيه وأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق من كونها محبة حاجة إليه أو تملق له أو انتفاع بقربه، وسلام مما يتقوله المعطلون فيها. وكذلك ما أضافه إلىٰ نفسه من اليد والوجه، فإنه سلام عما يتخيله مشبه أو يتقوله معطل.

فتأمل كيف تضمن اسمه السلام كل ما نزه عنه ـ تبارك وتعالىٰ ـ. وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني، والله المستعان المسئول أن يوفق للتعليق علىٰ الأسماء الحسنىٰ علىٰ هذا النمط إنه قريب مجيب[1].

***

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝﴾.

[2]لما نزل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣٠ ـ ٣١] سئل ﷺ: يا رسول الله أيكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب؟ فقال: «**نعم ليكررن عليكم حتىٰ تؤدوا إلىٰ كل ذي حق حقه**» فقال الزبير: والله إن الأمر لشديد[3].

(١) بقية الأجوبة نحيلك عليها في الجزء الثاني، بدئت بصحيفة (رقم ١٣٧) وانتهت بصحيفة (رقم ١٩٧)، وقد أخذنا ما كان مناسبًا لمواضعه من التفسير. وهي صالحة لأن تكون رسالة مستقلة، حيث طرق المؤلف فيها بحوثًا نادرة جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء. (ج).

(٢) ٢٧٠ أعلام جـ٤.

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في المختارة (٣/ ٤٩-٥٠ رقم ٨٥٢) (٩/ ٣٤٨ رقم ٣١٥) والترمذي (رقم ٣٢٣٦) والحاكم (٢/ ٤٧٢ رقم ٣٦٢٦) (٤/ ٦١٦ رقم ٨٧٠٨) وأبو يعلىٰ (٢/ ٣١ رقم ٦٦٨) وأحمد (١/ ١٦٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. وقال الحاكم في الموضع الثاني: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وحسنه محقق المختارة.

وسئل ﷺ: كيف يحشر الكافر على وجهه؟ فقال: «أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجليه قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟»[١].

وسئل ﷺ: هل تذكرون أهاليكم يوم القيامة؟ فقال: «أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً: حيث يوضع الميزان حتى يعلم أيثقل ميزانه أم يخف، وحيث تتطاير الكتب حتى يعلم كتابه من يمينه أو من شماله أو من وراء ظهره، وحيث يوضع الصراط على جسر جهنم، على حافتيه كلاليب وحسك، يحبس الله به من يشاء من خلقه حتى يعلم أينجو أم لا ينجو»[٢].

وسئل ﷺ: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يعمل بأعمالهم، فقال: «المرء مع من أحب»[٣].

***

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

[٤]إن الله سبحانه أخبر أنه يجزي المحسنين أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون. وأخبر سبحانه أنه يجزي على الإحسان بالعلم، وهذا يدل على أنه من أحسن الجزاء.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧٦٠) ومسلم (رقم ٢٨٠٦) وانظر: فتح الباري (١١/ ٣٨٢).

(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٧٥٥) والبيهقي في الاعتقاد (صـ٢١٠) والحاكم (٤/ ٦٢٢ رقم ٨٧٢٢) وقال: هذا حديث صحيح إسناده على شرط الشيخين لولا إرسال فيه بين الحسن وعائشة على أنه قد صحت الروايات أن الحسن كان يدخل وهو صبي منزل عائشة رضي الله عنها وأم سلمة. وانظر: تحفة الأحوذي (٧/ ١٠١) وفيض القدير (٢/ ١٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٦١٦٨) ومسلم (رقم ٢٦٤٠) وانظر: فتح الباري (١٠/ ٥٥٥-٥٦٠) وشرح النووي (١٦/ ١٨٦).

(٤) ١٦٧ مفتاح جـ١.

أما المقام الأول ففي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣، ٣٥]. وهذا يتناول الجزائين الدنيوي والأخروي. وأما المقام الثاني: ففي قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف: ٢٢]. قال الحسن: من أحسن عبادة الله في شبيبته لقاه الله الحكمة عند كبر سنه، وذلك قوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ومن هذا قال بعض العلماء: تقول الحكمة: من التمسني فلم يجدني فليعمل بأحسن ما يعلم، وليترك أقبح ما يعلم، فإذا فعل ذلك فأنا معه وإن لم يعرفني اهـ.

***

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾.

[1]هل تتلاقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات أم لا؟ فشواهد هذه المسألة وأدلتها أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى والحس والواقع من أعدل الشهود بها، فتلتقي أرواح الأحياء والأموات كما تلتقي أرواح الأحياء، وقد قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

قال أبو عبد الله بن منده ثنا أحمد بن محمد بن إبراهيم ثنا عبدالله بن حسين الحراني ثنا جدي أحمد بن شعيب ثنا موسى بن أعين عن مطرف عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في هذه الآية قال: بلغني أن أرواح الأحياء والأموات

---

(١) ٢٣ الروح.

تلتقي في المنام، فيتساءلون بينهم، فيمسك الله أرواح الموتى، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجسادها[١].

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: ثنا عبدالله بن سليمان ثنا الحسين ثنا عامر ثنا أسباط عن السدي في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾. قال: يتوفاها في منامها فيلتقي روح الحي وروح الميت، فيتذاكران ويتعارفان. قال: فترجع روح الحي إلى جسده في الدنيا إلى بقية أجلها، وتريد روح الميت أن ترجع إلى جسده فتحبس. وهذا أحد القولين في الآية، وهو أن الممسكة من توفيت وفاة الموت أولاً، والمرسلة من توفيت وفاة النوم. والمعنى على هذا القول أن يتوفى نفس الميت فيمسكها ولا يرسلها إلى جسدها قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسدها إلى بقية أجلها، فيتوفاها الوفاة الأخرى[٢].

والقول الثاني: في الآية: أن الممسكة والمرسلة في الآية كلاهما توفي وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده فلا يردها إلي جسدها، ومن لم تستكمل أجلها ردها إلى جسدها لتستكمله. واختار شيخ الإسلام هذا القول، وقال: عليه يدل القرآن والسنة. قال: فإنه ـ سبحانه ـ ذكر إمساك التي قضي عليها الموت من هذه الأنفس التي توفاها وفاة النوم. وأما التي توفاها حين موتها فتلك لم يصفها بإمساك ولا بإرسال، بل هي قسم ثالث.

والذي يترجح هو القول الأول، لأنه ـ سبحانه ـ أخبر وفاتين: وفاة كبرى وهي وفاة الموت، ووفاة صغرى وهي وفاة النوم. وقسم الأرواح قسمين: قسماً قضى عليها بالموت فأمسكها عنده، وهي التي توفاها وفاة الموت. وقسماً لها بقية أجل

---

(١) أخرجه الضياء في المختارة (١٠/ ١٢٣ رقم ١٢٣) والطبراني في الأوسط (١/ ٤٥ رقم ١٢٢) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٠٠): رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح.

(٢) انظر: التمهيد (٥/ ٢٤١-٢٤٣) والمحلى (١/ ٢٣) وتفسير الطبري (٢٤/ ٨-٩) وتفسير ابن كثير (٢/ ١٣٩) وتنوير الحوالك (١/ ٣٨) وشرح الزرقاني (١/ ٥٦).

فردها إلىٰ جسدها إلىٰ استكمال أجلها. وجعل ـ سبحانه ـ الإمساك والإرسال حكمين للوفاتين المذكورتين أولاً. فهذه ممسكة وهذه مرسلة، وأخبر أن التي لم تمت هي التي توفاها في منامها. فلو كان قد قسم وفاة النوم إلىٰ قسمين وفاة موت ووفاة نوم لم يقل: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾؛ فإنها من حين قبضت ماتت، وهو ـ سبحانه ـ قد أخبر أنها لم تمت، فكيف يقول بعد ذلك: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾.

ولمن نصر هذا القول أن يقول: قوله تعالىٰ: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ بعد أن توفاها وفاة النوم، فهو ـ سبحانه ـ توفاها أولاً وفاة نوم، ثم قضىٰ عليها الموت بعد ذلك. والتحقيق أن الآية تتناول النوعين؛ فإنه ـ سبحانه ـ ذكر وفاتين: وفاة نوم. وفاة موت، وذكر إمساك المتوفاة وإرسال الأخرىٰ. ومعلوم أنه ـ سبحانه ـ يمسك كل نفسس ميت سواء مات في النوم أو في اليقظة، ويرسل نفس من لم يمت فقوله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ يتناول من مات في اليقظة ومن مات في المنام.

وقد دل علىٰ التقاء أرواح الأحياء والأموات: أن الحي يرىٰ الميت في منامه فيستخبره، ويخبره الميت بما لا يعلم الحي، فيصادف خبره كما أخبر في الماضي والمستقبل، وربما أخبره بمال دفنه الميت في مكان لم يعلم به سواه، وربما أخبره بدين عليه، وذكر له شواهده وأدلته.

وأبلغ من هذا أنه يخبر بما عمله من عمل لم يطَّلع عليه أحد من العالمين. وأبلغ من هذا أن يخبره أنك تأتينا إلىٰ وقت كذا وكذا، فيكون كما أخبر، وربما أخبره عن أمور يقطع الحي أنه لم يكن يعرفها غيره، وقد ذكرنا قصة الصعب بن جثامة وقوله لعوف بن مالك ما قال له، وذكرنا قصة ثابت بن قيس بن شماس، وأخباره لمن رآه بدرعه وما عليه من الدين.

وقصة صدقة بن سليمان الجعفري وإخبار ابنه له بما عمل من بعده، وقصة شبيب ابن شيبة وقول أمه له بعد الموت: جزاك الله خيراً، حيث لقنها لا إله إلا الله، وقصة

الفضل بن الموفق مع ابنه وإخباره إياه بعلمه بزيارته.

وقال سعيد بن المسيب: التقى عبدالله بن سلام مع سلمان الفارسي، فقال أحدهما للآخر: إن مت قبلي فالقني فأخبرني ما لقيت من ربك، وإن أنا مت قبلك لقيتك فأخبرتك. فقال الآخر: وهل تلتقي الأموات والأحياء، قال: نعم أرواحهم في الجنة تذهب حيث شاءت. قال: فمات فلان فلقيه في المنام فقال: توكل وأبشر، فلم أر مثل التوكل قط(١). وقال العباس بن عبدالمطلب: كنت أشتهي أن أرى عمر في المنام، فما رأيته إلا عند قرب الحول، فرأيته يمسح العرق عن جبينه، وهو يقول: هذا أوان فراغي إن كاد عرشي ليهد، لولا أن لقيت رؤوفاً رحيماً(٢)...

(٣)أما المسألة الرابعة وهي أن الروح هل تموت أم الموت للبدن وحده: فقد اختلف الناس في هذا، فقالت طائفة: تموت الروح وتذوق الموت، لأنها نفس وكل نفس ذائقة الموت. قالوا: وقد دلت الأدلة على أنه لا يبقى إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. وقال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص: ٨٨]. قالوا: وإذا كانت الملائكة تموت فالنفوس البشرية أولى بالموت. قالوا: وقد قال تعالى عن أهل النار أنهم قالوا: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر: ١١]. فالموتة الأولى هذه المشهودة وهي للبدن، والأخرى للروح.

وقال آخرون: لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان. قالوا:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ١٢٠ رقم ٣٤٦٥٧) والبيهقي في الشعب (٢/ ١٢١ رقم ١٣٥٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ٤٢٨) وانظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٥٥٦-٥٥٧) وتاريخ دمشق (٢١/ ٤٦٠).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى (٣/ ٣٧٥) وابن شبة في أخبار المدينة (٢/ ٩٤ رقم ١٦٣١) وأحمد بن حنبل في فضائل الصحابة (٢/ ٩٢١ رقم ١٧٦٢) وانظر: صفة الصفوة (١/ ٢٩٢-٢٩٣).

(٣) ٤٠ الروح.

وقد دلت على هذا الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله في أجسادها، ولو ماتت الأرواح لانقطع عنها النعيم والعذاب، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠] هذا مع القطع بأن أرواحهم قد فارقت أجسادهم، وقد ذاقت الموت.

والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر فهي ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتضمحل وتصير عدما محضاً فهي لا تموت بهذا الاعتبار، بل هي باقية بعد خلقها في نعيم أو في عذاب، كما سيأتي إن شاء الله ـ تعالى ـ بعد هذا، وكما صرح به النص أنها كذلك حتى يردها الله في جسدها، وقد نظم أحمد بن الحسين الكندي هذا الاختلاف في قوله:

تنازع الـناس حتى لا اتـفاق لهم ... إلا على شَجَبٍ والخُلْف في الشَّجَبِ
فقيل تخلص نفس المـرء سالمة ... وقيل تشرك جسم المرء في العطب[1][2]

[3]إن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأي شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاقى؟ وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذي كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها؟ فهذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها، ولا يظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل، ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها، وليست بداخل العالم ولا خارجه. ولا لها شكل وقدر ولا شخص.

---

(١) البيتان من بحر البسيط، وهما للمتنبي، أحمد بن الحسين الجعفي أبي الطيب، وفيه: تخالف الناس بدل: تنازع الناس. وهو الكندي نسبة إلى محلة بالكوفة تسمى كندة، له الأمثال السائرة والحكم البالغة المعاني المبتكرة. قيل: إنه تنبأ وتبعه كثيرون، وقبل أن يستفحل أمره خرج إليه لؤلؤ أمير حمص ونائب الإخشيد فأسره وسجنه حتى تاب ورجع عن دعواه مات ٣٥٤هـ.

(٢) يأتي إيراد على ما سبق في آخر السورة عند قوله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ إن شاء الله (ح).

(٣) ٤٥ الروح.

فهذا السؤال على أصولهم مما لا جواب لهم عنه. وكذلك من يقول: هي عرض من أعراض البدن، فتميزها عن غيرها مشروط باضمحلال البدن كما تبطل سائر صفات الحي. ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة، التي تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن. وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا الكبير في معرفة الروح والنفس، وبينا بطلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة، وأن من قال غيره لم يعرف نفسه.

وقد وصفها الله ﷻ بالدخول والخروج. والقبض، والتوفي، والرجوع، وصعودها إلى السماء، وفتح أبوابها لها وغلقها عنها، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧، ٣٠]. وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ ـ ٨] فأخبر أنه سوى النفس كما أخبر أنه سوى البدن في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧]. فهو ـ سبحانه ـ سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه، بل سوى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له.

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها؛ فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن، كما يتأثر البدن وينتقل عنها، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسبا وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن. ولهذا يقال لها عند المفارقة: «اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب» «واخرجي

أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث».

وقال الله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]. فوصفها بالتوفي والإمساك والإرسال، كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية. وقد أخبر النبي ﷺ أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت، وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفخة مسك وجدت علىٰ وجه الأرض، أو كأنتن ريح جيفة وجدت علىٰ وجه الأرض ـ والأعراض لا ريح لها، ولا تمسك، ولا تؤخذ من يد إلىٰ يد ـ.

وأخبر أنها تصعد إلىٰ السماء ويصلي عليها كل ملك لله بين السماء والأرض، وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلىٰ سماء حتىٰ ينتهي بها إلىٰ السماء التي يها الله ﷻ، فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه في ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين، ثم ترد إلىٰ الأرض، وأن روح الكافر تطرح طرحاً، وأنها تدخل مع البدن في قبره للسؤال.

وقد أخبر النبي ﷺ بأن نسمة المؤمن ـ وهي روحه ـ طائر يعلق في شجر الجنة حتىٰ يردها الله إلىٰ جسدها، وأخبر أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها. وأخبر أن الروح تنعم وتعذب في البرزخ إلىٰ يوم القيامة.

وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض علىٰ النار غدواً وعشياً قبل يوم القيامة. وقد أخبر ـ سبحانه ـ عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذه الحياة بأن أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش، وتسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوىٰ إلىٰ تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألو قالوا: نريد أن ترد أرواحنا في

أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى[1]. وصح عنه ﷺ أن أرواح الشهداء في طير خضر تعلق من ثمر الجنة[2]. وتعلق بضم اللام أي تأكل العلقة.

وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ: «**لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب**»، فقال الله ﷻ: أنا أبلغهم عنكم. فأنزل الله ـ تعالى ـ على رسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩][3] الآيات. رواه الإمام أحمد. وهذا صريح في أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها. وسيأتي مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله ـ تعالى ـ.

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان، فإن الأبدان تشتبه كثيراً، وأما الأرواح فقل ما تشتبه.

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة، وهم متميزون في علمنا أظهر تميز، وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم، وإن ذكر لنا من صفات

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٨٧) وانظر: فتح الباري (٦/ ٣٢).

(٢) أخرجه سعيد بن منصور (رقم ٢٥٦٠، ٢٥٦١) وعبدالرزاق (٥/ ٢٦٤ رقم ٩٥٥٧) وأحمد (٦/ ٣٨٦) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٢٠٧ رقم ٢١٢٤) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. تعلق بفتح المثناة فوق وعين مهملة وضم اللام أي ترعى من أعالي شجر الجنة، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (رقم ١٣٦٨).

(٣) أخرجه الضياء في المختارة (١٠/ ٣٤٨-٣٤٩ رقم ٣٧٦) وأحمد (١/ ٢٦٥) وابن أبي شيبة (٤/ ٢٠٤ رقم ١٩٣٣٢) وأبو يعلى (٤/ ٢١٩ رقم ٢٣٣١) وعبد بن حميد (رقم ٦٧٩) والديلمي في الفردوس (٣/ ٤٢٨ رقم ٥٣١٢) وابن أبي عاصم في الجهاد (صـ٢١٦) وابن المبارك في الجهاد (صـ٦٠) وهناد في الزهد (١/ ١٢٠ رقم ١٥٥) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٤٨).

أبدانهم ما يختص به أحدهم من الآخر، بل التميز الذي عندنا بما علمنا وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها. وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميز، وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين في الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين. فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما في غاية الظهور.

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً: قل أن ترى بدناً قبيحاً وشكلاً شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه، وقل أن ترى آفة في بدن إلا وفي روح صاحبه آفة تناسبها، ولهذا تأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطئ ذلك. ويحكى عن الشافعي ـ رحمه الله ـ في ذلك عجائب.

وقل أن ترى شكلاً حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له. هذا ما لم يعارض ذلك ما يوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد. وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم، وكذلك الجن، فتميز الأرواح البشرية أولى.

وأما المسألة السادسة وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا؟ فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس، حيث صرح بإعادة الروح إليه، فقال البراء بن عازب: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله، كأنه على رؤوسنا الطير وهو يلحد له، فقال: «**أعوذ بالله من عذاب القبر**»، ثلاث مرات ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس، فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت، حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الحنوط،**

ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها يعني على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله ـ تعالى ـ فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله. فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام. فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله. فيقولان له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت. فينادي مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً من الجنة. قال: فيأتيه من ريحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول له من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال: فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الريح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح»، ثم قرأ رسول الله: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ

ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] «فيقول الله ﷻ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً» ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار. فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسؤوك هذا يومك الذي كنت توعد. فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر. فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة»[(١)]، رواه الإمام أحمد، وأبو داود. وروى النسائي وابن ماجه أوله، ورواه أبو عوانة الإسفرائيني في صحيحه. وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف.

وقال أبو محمد ابن حزم في كتاب الملل والنحل له: وأما من ظن أن الميت يحيا في قبره قبل يوم القيامة فخطأ، إن الآيات التي ذكرناه تمنع من ذلك، يعني قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر: ١١] وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨) وأبو داود (رقم ٤٧٥٣) والنسائي في المجتبى (رقم ٢٠٠١) وفي الكبرى (١/ ٦٤٦ رقم ٢١٢٨) والحاكم (١/ ٢٠٨ رقم ٤١٤) والطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٤٩١ رقم ٧١٨) وعبد الرزاق (٣/ ٥٨٠ رقم ٦٧٣٧) والروياني في مسنده (رقم ٣٩٢) والطيالسي (رقم ٧٥٣) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٥٥-٣٥٦ رقم ٣٩٥) وفي إثبات عذاب القبر (رقم ٢٠، ٤٤) وابن منده في الإيمان (٢/ ٩٦٣-٩٦٣ رقم ١٠٦٤) وهناد في الزهد (١/ ٢٠٥ رقم ٣٣٩) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٦): رواه أبو داود ورواه أحمد بإسناد رواته محتج بهم في الصحيح. وقال أيضًا (٤/ ١٩٧): هذا الحديث حديث حسن رواته محتج بهم في الصحيح كما تقدم.

قال: ولو كان الميت يحيا في قبره لكان تعالىٰ قد أماتنا ثلاثًا وأحيانا ثلاثاً، وهذا باطل وخلاف القرآن، إلا من أحياه الله تعالىٰ آية لنبي من الأنبياء، كالذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، فقال لهم الله: موتوا ثم أحياهم، والذي مر علىٰ قرية وهي خاوية علىٰ عروشها، ومن خصه نص.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢]. فصح بنص القرآن أن أرواح سائر من ذكرنا لا ترجع إلىٰ جسده إلا إلىٰ الأجل المسمىٰ وهو يوم القيامة. وكذلك أخبر رسول الله ﷺ أنه رأىٰ الأرواح ليلة أسرىٰ به عند سماء الدنيا من عن يمين آدم أرواح أهل السعادة، وعن شماله أرواح أهل الشقاوة.

وأخبر يوم بدر إذا خاطب الموتىٰ أنهم قد سمعوا قوله قبل أن تكون لهم قبور، ولم ينكر علىٰ الصحابة قولهم قد جيفوا، وأعلم أنهم سامعون قوله مع ذلك، فصح أن الخطاب والسماع لأرواحهم فقط بلا شك، وأما الجسد فلا حس له، وقد قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢] فنفىٰ السمع عمن في القبور وهي الإجساد بلا شك. ولا يشك مسلم أن الذي نفىٰ الله ﷻ عنه السمع هو غير الذي أثبت له رسول الله ﷺ السمع.

قال: ولم يأت قط عن رسول الله ﷺ في خبر صحيح أن أرواح الموتىٰ ترد إلىٰ أجسادهم عند المسألة، ولو صح ذلك عنه لقلنا به. قال: وإنما تفرد بهذه الزيادة من رد الأرواح في القبور إلىٰ الأجساد المنهال بن عمرو وحده، وليس بالقوىٰ، تركه شعبة وغيره، وقال فيه المغيرة بن مقسم الضبي وهو أحد الأئمة: ما جازت للمنهال بن عمرو قط شهادة في الإسلام علىٰ ما قد نقل وسائر الأخبار الثابتة علىٰ خلاف ذلك[1].

---

(١) قال المنذري في الترغيب (٤/ ١٩٧-١٩٨): وقال ابن معين: المنهال ثقة. وقال أحمد العجلي: كوفي ثقة. وقال أحمد بن حنبل: تركه شعبة علىٰ محمد. قال عبد الرحمن ابن أبي حاتم: لأنه سمع من داره =

قال: وهذا الذي قلنا هو الذي صح أيضاً عن الصحابة. ثم ذكر من طريق ابن عيينة عن منصور ابن صفية عن أمه صفية بنت شيبة قالت: دخل ابن عمر المسجد فأبصر ابن الزبير مطروحاً قبل أن يقبر، فقيل له: هذه أسماء بنت أبي بكر الصديق، فمال ابن عمر إليها فعزاها، وقال: إن هذه الجثث ليست بشيء، وإن الأرواح عند الله. فقالت أمه: وما يمنعني وقد أهدي رأس يحيىٰ بن زكريا إلىٰ بغي من بغايا بني إسرائيل[(١)].

قلت: ما ذكره أبو محمد فيه حق وباطل، أما قوله: من ظن أن الميت يحيا في قبره فخطأ فهذا فيه إجمال، إن أراد به الحياة المعهودة في الدنيا التي تقوم فيها الروح بالبدن وتدبره وتصرفه ويحتاج معها إلىٰ الطعام والشراب واللباس فهذا خطأ، كما قال، والحس والعقل يكذبه كما يكذبه النص.

وإن أراد به حياة أخرىٰ غير هذه الحياة، بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة في الدنيا، ليسأل ويمتحن في قبره، فهذا حق ونفيه خطأ، وقد دل عليه النص الصحيح الصريح، وهو قوله ﷺ: فتعاد روحه في جسده، وسنذكر الجواب عن تضعيفه للحديث ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ[(٢)].

وأما استدلاله بقوله تعالىٰ: ﴿ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر: ١١] فلا ينفي ثبوت هذه الإعادة العارضة للروح في الجسد، كما أن قتيل بني إسرائيل الذي أحياه الله بعد قتله ثم أماته لم تكن الحياة العارضة له للمسألة معتداً بها؛ فإنه حيىٰ

=

صوت قراءة بالتطريب. وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: أبو بشر أحب إليَّ من المنهال، وزاذان ثقة مشهور ألانه بعضهم. وروىٰ له مسلم حديثين في صحيحه، ورواه البيهقي من طريق المنهال بنحو رواية أحمد ثم قال: وهذا حديث صحيح الإسناد.

(١) أخرجه الفاكهي في أخبار مكة (٢/ ٣٧٥-٣٧٦ رقم ١٦٧٧) وابن عساكر في تاريخ دمشق (٦٩/ ٢٦) وانظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٩٤) وتهذيب الأسماء (٢/ ٥٩٨) والمحلىٰ (١/ ٢٢).

(٢) انظر: فتح الباري (٣/ ٢٤٠) وعمدة القاري (٨/ ٢٠٦).

لحظة بحيث قال فلان قتلني ثم خر ميتاً، على أن قوله: ثم تعاد روحه في جسده لا يدل على حياة مستقرة، وإنما يدل على إعادة لها إلى البدن وتعلق به والروح لم تزل متعلقة ببدنها وإن بلي وتمزق.

وسر ذلك أن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

(أحدها) تعلقها به في بطن الأم جنيناً.

(الثاني) تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض.

(الثالث) تعلقها به في حال النوم فلها به تعلق من وجه ومفارقة من وجه.

(الرابع) تعلقها به في البرزخ فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنَّها لم تفارقه فراقاً كلياً، بحيث لا يبقى لها التفات إليه البتة. وقد ذكرنا في أول الجواب من الأحاديث والآثار ما يدل على ردها إليه، وقت سلام المسلم، وهذا الرد إعادة خاصة لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

(الخامس) تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن ولا نسبة لما قبلها من أنواع التعلق إليه إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتاً ولا نوماً ولافساداً.

وأما قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢] فإمساكه ـ سبحانه ـ التي قضى عليها الموت لا ينافي ردها إلى جسدها الميت في وقت ما ردا عارضاً لا يوجب له الحياة المعهودة في الدنيا.

وإذا كان النائم روحه في جسده وهو حي وحياته غير حياة المستيقظ فإن النوم شقيق الموت، فهكذا الميت إذا أعيدت روحه إلى جسده كانت له حال متوسطة بين الحي وبين الميت، الذي لم ترد روحه إلى بدنه، كحال النائم المتوسطة بين الحي والميت. فتأمل هذا يزيح عنك إشكالات كثيرة.

وأما إخبار النبي ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة أسري به فقد زعم بعض أهل الحديث أن

الذي رآه أشباحهم وأرواحهم، قال: فإنهم أحياء عند ربهم، وقد رأىٰ إبراهيم مسنداً ظهره إلىٰ البيت المعمور، ورأىٰ موسىٰ قائماً في قبره يصلي، وقد نعت الأنبياء لما رآهم نعت الأشباح، فرأىٰ موسىٰ آدماً ضرباً طوالاً كأنه من رجال شنوءة، ورأىٰ عيسىٰ يقطر رأسه كأنما أخرج من ديماس، ورأىٰ إبراهيم فشبهه بنفسه.

ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: هذه الرؤية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم والأجساد في الأرض قطعاً إنما تبعث يوم بعث الأجساد، ولم تبعث قبل ذلك، إذ لو بعثت قبل ذلك لكانت قد انشقت عنها الأرض قبل يوم القيامة، وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور، وهذه موتة ثالثة، وهذا باطل قطعاً. وقد صح عن النبي ﷺ: أن الله حرم الجنة علىٰ الأنبياء حتىٰ يدخلها هو[(١)]، وهو أول من يستفتح باب الجنة، وهو أول من تنشق عنه الأرض علىٰ الإطلاق، لم تنشق عن أحد قبله[(٢)].

ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري مطراً. وقد سأله الصحابة: كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ فقال: إن الله حرم علىٰ الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء[(٣)]. ولو لم يكن جسده في ضريحه لما أجاب بهذا الجواب. وقد صح عنه أن الله وكل بقبره ملائكة يبلغونه عن أمته السلام. وصح عنه أنه خرج بين أبي بكر وعمر

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٣٠٥-٣٠٦ رقم ٦٩٦) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٣٧٦) وأبو القاسم الجرجاني في تاريخه (رقم ٣٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٤١٢) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٤-٤٤٥).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٨) والبزار (٨/ ٤١١ رقم ٣٤٨٥) وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٣/ ٢١٧ رقم ١٥٧٧) والنسائي في المجتبىٰ (رقم ١٣٧٤) وفي الكبرىٰ (١/ ٥١٩ رقم ١٦٦٦) وابو داود (رقم ١٠٤٧، ١٥٣١) وابن ماجه ٠رقم ١٠٨٥، ١٦٣٦) والبيهقي في الكبرىٰ (٣/ ٢٤٨ رقم ٥٧٨٩) والدارمي (رقم ١٥٧٢) وابن أبي شيبة (٢/ ٢٥٣ رقم ٨٦٩٧) والطبراني في الأوسط (٥/ ٩٧ رقم ٤٧٨٠) وفي الكبير (١/ ٢١٦ رقم ٥٨٩) وجوَّد إسناد ابن ماجه الحافظ المنذري في ترغيبه (٢/ ٣٢٨ رقم ٢٥٨٢) ونقل تصحيح الحاكم في الترغيب أيضاً (٢/ ٣٢٩ رقم ٢٥٨٤) وصححه النووي في رياض الصالحين (صـ ٣١٦) وصححه ابن خزيمة كما في فتح الباري (٦/ ٤٨٨).

وقال: هكذا نبعث[١]. هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلىٰ في أعلي عليين مع أرواح الأنبياء.

وقد صح عنه أنه رأىٰ موسىٰ قائماً يصلي في قبره ليلة الإسراء[٢]، ورآة في السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر، وإشراف عليه، وتعلق به بحيث يصلي في قبره، ويرد سلام من سلم عليه، وهي في الرفيق الأعلىٰ.

ولا تنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غير شأن الأبدان، وأنت تجد الروحين المتماثلتين المتناسبتين في غاية التجاور والقرب، وإن كان بينهما بعد المشرقين. وتجد الروحين المتنافرتين المتباغضتين بينهما غاية البعد وإن كان جسداهما متجاورين متلاصقين.

وليس نزول الروح وصعودها وقربها وبعدها من جنس ما للبدن، فإنها تصعد إلىٰ ما فوق السموات ثم تهبط إلىٰ الأرض ما بين قبضها ووضع الميت في قبره، وهو زمن يسير لا يصعد البدن وينزل في مثله، وكذلك صعودها وعودها إلىٰ البدن في النوم واليقظة.

وقد مثلها بعضهم بالشمس وشعاعها فإنها في السماء وشعاعها في الأرض. قال شيخنا: وليس هذا مثلاً مطابقاً، فإن نفس الشمس لا تنزل من السماء، والشعاع الذي علىٰ الأرض ليس هو الشمس ولا صفتها، بل هو عرض حصل بسبب الشمس والجرم المقابل لها، والروح نفسها تصعد وتنزل.

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٦٦٩) وابن ماجه (رقم ٩٩) والحاكم (٤/ ٣١٢ رقم ٧٧٤٦) والطبراني في الأوسط (٨/ ١٥٦-١٥٧ رقم ٨٢٥٨) والحكيم الترمذي في نوادر الأصول (٣/ ١٤١) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (رقم ٢٥١١) وابن أبي عاصم في السنة (٢/ ٦١٦ رقم ١٤١٨) وقال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٢/ ١٥٤ رقم ٦٧٧) قال الدارقطني في غرائب مالك: لا يصح، والحارث هذا ضعيف. وكذا قال الذهبي في ميزان الاعتدال (٨/ ٧٣ رقم ٢٥٥) وقال الرازي في علل الحديث (٢/ ٣٨١ رقم ٢٦٥٣): قال أبي: هذا حديث منكر.

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٣٧٥) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٤، ٤٨٧) وشرح النووي (١٥/ ١٣٣).

وأما قوله الصحابة للنبي ﷺ في قتلى بدر: كيف تخاطب أقواماً قد جيفوا[١]. مع إخباره بسماعهم كلامه، فلا ينفي ذلك رد أرواحهم إلى أجسادهم ذلك لوقت رداً يسمعون به خطابه، والأجساد قد جيفت، فالخطاب للأرواح المتعلقة بتلك الأجساد التي قد فسدت.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] فسياق الآية يدل على أن المراد منها أن الكافر الميت القلب لا تقدر على إسماعه إسماعًا ينتفع به، كما أن من في القبور لا تقدر على إسماعهم إسماعاً ينتفعون به، ولم يرد سبحانه أن أصحاب القبور لا يسمعون شيئاً البتة، كيف وقد أخبر النبي ﷺ أنهم يسمعون خفق نعال المشيعين. وأخبر أن قتلى بدر سمعوا كلامه وخطابه، وشرع السلام عليهم بصيغة الخطاب للحاضر الذي يسمع، وأخبر أن من سلم على أخيه المؤمن رد عليه السلام.

هذه الآية نظير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] وقد يقال نفي إسماع الصم مع نفي إسماع الموتى يدل على أن المراد عدم أهلية كل منهما للسماع، وأن قلوب هؤلاء لما كانت ميتة صماء كان إسماعها ممتنعاً بمنزلة خطاب الميت والأصم وهذا حق. ولكن لا ينفي إسماع الأرواح بعد الموت إسماع توبيخ وتقريع بواسطة تعلقها بالأبدان في وقت ما، فهذا غير الإسماع المنفي والله أعلم. وحقيقة المعنى أنك لا تستطيع أن تسمع من لم يشأ الله أن يسمعه إن أنت إلا نذير، أي إنما جعل الله لك الاستطاعة على الإنذار، الذي كلفك إياه لا على إسماع من لم يشأ الله إسماعه.

وأما قوله: إن الحديث لا يصح لتفرد المنهال بن عمرو وحده به، وليس بالقوي فهذا من مجازفته ـ رحمه الله ـ فالحديث صحيح لا شك فيه، وقد رواه عن البراء بن عارب جماعة غير زاذان، منهم عدي بن ثابت، ومحمد بن عقبة، ومجاهد.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٨٧٤) وانظر: فتح الباري (٧/ ٣٠٢-٣٠٤) وشرح النووي (١٧/ ٢٠٧).

قال الحافظ أبو عبدالله بن منده في (كتاب الروح والنفس): أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف، ثنا محمد بن إسحاق الصفار، أنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رءوسنا الطير، فأرم قليلاً - والارمام السكوت - فلما رفع رأسه، قال: «إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة، ودبر من الدنيا، وحضره ملك الموت، نزلت عليه ملائكة، معهم كفن من الجنة، وحنوط من الجنة، فجلسوا منه مد البصر، وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه، ثم قال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه، فتنسل[1] نفسه كما تقطر القطرة من السقاء، فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماء، فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين، ويقول الرب ﷻ: ردوا عبدي إلى مضجعه، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، فيرد إلى مضجعه، فيأتيه منكر ونكير، يثيران الأرض بأنيابهما ويفحصان الأرض بأشعارهما، فيجلسانه، ثم يقال له: يا هذا من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: صدقت. ثم يقال له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان: صدقت، ثم يقال له: من نبيك؟ فيقول: محمد رسول الله، فيقولان: صدقت، ثم يفسح له في قبره مد بصره، ويأتيه رجل حسن الوجه، طيب الريح، حسن الثياب، فيقول: جزاك الله خيراً، فوالله ما علمت إن كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله، فيقول: وأنت فجزاك الله خيرًا فمن أنت؟ فقال: أنا عملك الصالح، ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة. وإن الكافر إذا

---

(١) الظاهر، فتسيل. (ج).

كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار قال: فيجلسون منه مد بصره، وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلىٰ غضب الله وسخطه، فتفرق روحه في جسده كراهية أن تخرج لما ترىٰ وتعاين، فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول، فإذا أخرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين، ثم يصعد به إلىٰ السماء فتغلق دونه، فيقول الرب ﷻ: ردوا عبدي إلىٰ مضجعه، فإني وعدتهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرىٰ، فترد روحه إلىٰ مضجعه، فيأتيه منكر ونكير يثيران الأرض بأنيابها ويفحصان الأرض بأشعارهما، أصواتها كالرعد القاصف، وأبصارها كالبرق الخاطف، فيجلسانه ثم يقولان: يا هذا من ربك؟ فيقول: لا أدري، فينادي من جانب القبر لا دريت، فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل، ويضيق عليه قبره حتىٰ تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: جزاك الله شراً، فوالله ما علمت إن كنت لبطيئاً عن طاعة الله سريعاً في معصية الله، فيقول:ومن أنت؟ فيقول: أنا عملك الخبيث، ثم يفتح له باب إلىٰ النار فينظر إلىٰ مقعده فيها حتىٰ تقوم الساعة»[(١)] رواه الإمام أحمد، ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبي النضر. ففيه أن الأرواح تعاد إلىٰ القبر، وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه.

ثم ساقه ابن منده من طريق محمد بن سلمة عن خصيف الجزري عن مجاهد عن البراء بن عازب قال: كنا في جنازة رجل من الأنصار، ومعنا رسول الله ﷺ فانتهينا إلىٰ القبر ولم يلحد ووضعت الجنازة وجلس رسول الله .. الحديث.

***

(١) أخرجه الطبري في تهذيب الآثار (٢/ ٥٠٠ رقم ٧٢٣) والحاكم (١/ ٩٣-٩٤ رقم ١٠٧) وأبو داود (رقم ٤٧٥٣) وابن أبي شيبة (٣/ ٥٤ رقم ١٢٠٥٩) وأحمد (٤/ ٢٨٧) والبيهقي في الشعب (١/ ٣٥٥-٣٥٦ رقم ٣٩٥) وابن المبارك في الزهد (رقم ١٢١٩) وابن عدي في الكامل (٧/ ١٧٣).

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

(1)أخبر أن الشفاعة لمن له ملك السموات والأرض، وهو الله وحده. فهو الذي يشفع بنفسه إلىٰ نفسه، ليرحم عبده. فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه. فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له، والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه له وأمره، بعد شفاعته ـ سبحانه ـ إلىٰ نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده. وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها الله ـ سبحانه ـ في كتابه، بقوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ١٢٣] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٥١] وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ [السجدة: ٤].

فأخبر ـ سبحانه ـ أنه ليس للعباد شفيع من دونه، بل إذا أراد الله سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه. كما قال تعالىٰ: ﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ﴾ [يونس: ٣] وقال: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فالشفاعة بإذنه ليست شفاعة من دونه، ولا الشافع شفيع من دونه، بل شفيع بإذنه.

والفرق بين الشفيعين، كالفرق بين الشريك والعبد المأمور. فالشفاعة التي أبطلها الله: شفاعة الشريك فإنه لا شريك له، والتي أثبتها: شفاعة العبد المأمور الذي لا يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكه حتىٰ يأذن له. ويقول: أشفع في فلان. ولهذا كان أسعد

---

(١) ٢٢٠ إغاثة جـ١.

الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد، الذين جردوا التوحيد وخلصوه من تعلقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى الله ـ سبحانه ـ قال تعالى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩].

فأخبر أنه لا يحصل يومئذ شفاعة تنفع إلا بعد رضاء قول المشفوع له، وإذنه للشافع فيه، فأما المشرك فإنه لا يرتضيه، ولا يرضى قوله. فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه، فإنه ـ سبحانه ـ علقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع. فما لم يوجد مجموع الأمرين ولم توجد الشفاعة.

وسر ذلك: أن الأمر كله لله وحده، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده: هم الرسل والملائكة المقربون. وهم عبيد محض، لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئاً إلا بعد إذنه لهم، وأمرهم. ولاسيما يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً. فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدة بأمره وإذنه. فإذا أشرك بهم المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه، ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله، فهو من أجهل الناس بحق الرب ـ سبحانه ـ وما يجب له ويمتنع عليه. فإن هذا محال ممتنع، شبيه قياس الرب ـ تعالى ـ على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم من يشفع له عندهم في الحوائج. وبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي. والفرق بينهما هو الفرق بين المخلوق والخالق. والرب والمربوب، والسيد والعبد. والمالك والمملوك. والغني والفقير. والذي لا حاجة به إلى أحد قط، والمحتاج من كل وجه إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين: هم شركاؤهم؛ فإن قيام مصالحهم بهم. وهم أعوانهم وأنصارهم، الذين قيام أمر الملوك والكبراء بهم. ولولاهم لما انبسطت أيديهم

وألسنتهم في الناس، فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلىٰ قبول شفاعتهم، وإن لم يأذنوا فيها ولم يرضوا عن الشافع؛ لأنهم يخافون أن يردُّوا شفاعتهم، فتنتقض طاعتهم لهم، ويذهبون إلىٰ غيرهم. فلا يجدون بدا من قبول شفاعتهم علىٰ الكُره والرضىٰ.

فأما الغني الذي غناه من لوازم ذاته، وكل ما سواه فقير إليه بذاته، وكل من في السموات والأرض عبيد له، مقهورون بقهره، مصرفون بمشيئته، لو أهلكهم جميعاً لم ينقص من عزه وسلطانه وملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة.

قال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]. وقال ـ سبحانه ـ في سيدة أي القرآن، آية الكرسي: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه، فإنه ليس بشريك، بل مملوك محض. بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله سبحانه في القرآن هي هذه الشفاعة الشركية التي يعرفها الناس، ويفعلها بعضهم مع بعض. ولهذا يطلق نفيها تارة، بناء علىٰ أنها هي المعروفة المشاهدة عند الناس، ويقيدها تارة بأنها لا تنفع إلا بعد إذنه، وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع، والذي وفقه لفعل ما يستحق به الشفاعة وقوله.

فمتخذ الشفيع مشرك، لا تنفعه شفاعته، ولا يشفع فيه، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحبوبه، ومرجوه، ومخوفه الذي يتقرب إليه وحده، ويطلب رضاه،

ويتباعد من سخطه هو الذي يأذن الله ـ سبحانه ـ للشفيع أن يشفع فيه.

قال تعالىٰ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤]. وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فبين ـ سبحانه ـ أن المتخذين شفعاء مشركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم هم. وإنما تحصل بإذنه للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

وسر الفرق بين الشفاعتين: أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده، لا يفتقر فيها إلىٰ المشفوع عنده، لا خلقاً، ولا أمراً، ولا إذناً، بل هو سبب محرك له من خارج. كسائر الأسباب التي تحرك الأسباب. وهذا السبب المحرك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يشفع عنده في أمر يحبه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يخالفه، كمن يشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله، وشفاعته أقوىٰ من المعارض، فيقبل شفاعة الشافع. وقد يتعارض عنده الأمران، فيبقىٰ متردداً بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلىٰ أن يترجح عنده أحد الأمرين بمرجح. فشفاعة الإنسان عند المخلوق مثله: هي سعي في سبب منفصل عن المشفوع إليه يحركه به، ولو علىٰ كره منه، فمنزلة الشفاعة عنده منزلة من يأمر غيره، أو يكرهه علىٰ الفعل، إما بقوة وسلطان، وإما بما يرغبه. فلا بد أن يحصل للمشفوع إليه من الشافع إما رغبة ينتفع بها، وإما رهبة منه تندفع عنه بشفاعته. وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب ـ سبحانه ـ فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبها منه، ويرضىٰ عن الشافع، لم يمكن أن توجد.

والشافع لا يشفع عنده لحاجة الرب إليه، ولا لرهبته منه، ولا لرغبته فيما لديه،

وإنما يشفع عنده مجرد امتثال لأمره وطاعة له. فهو مأمور بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر. فإن أحداً من الأنبياء والملائكة، وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعة ولا غيرها إلا بمشيئة الله ـ تعالىٰ ـ، وخلقه.

فالرب ﷻ هو الذي يحرك الشفيع حتىٰ يشفع، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتىٰ يقبل. والشافع عند المخلوق مستغن عنه في أكثر أموره. وهو في الحقيقة شريكه. ولو كان مملوكه وعبده. فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله منه من النفع بالنصر، أو غيره، فكل منهما محتاج إلىٰ الآخر.

ومن وفقه الله ـ تعالىٰ ـ لفهم هذا الموضع ومعرفته، تبين له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبته الله ـ تعالىٰ ـ من الشفاعة وبين ما نفاه وأبطله، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

***

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

...[1]حُرِمُوا والله الوصول بعدولهم عن منهج الوحي، وتضييعهم الأصول، وتمسكوا بأعجاز لا صدور لها. فخانتهم أحرص ما كانوا عليها. وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها. حتىٰ إذا بعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وتميز لكل قوم حاصلهم الذي حصلوه. وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه، وقدموا علىٰ ما قدموه ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧] وسقط في أيديهم عند الحصاد لما عاينوا غلة ما بذروه.

فيا شدة الحسرة عندما يعاين المبطل سعيه وكده هباءً منثوراً؛ ويا عظم المصيبة عندما يتبين بوارق أمانيه خُلَّبًا وآماله كاذبة غروراً. فما ظن من انطوت سريرته علي

(١) ٥ مدارج جـ١.

البدعة والهوى، والتعصب للآراء، بربه يوم تبلى السرائر؟ وما عذر من نبذ الوحيين وراء ظهره في يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر؟

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال؟

هيهات والله. لقد ظن أكذب الظن، ومنته نفسه أبين المحال. وإنما ضمنت النجاة لمن حكم هدى الله على غيره، وتزود التقوى وائتم بالدليل. وسلك الصراط المستقيم. واستمسك من الوحي بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم.

***

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

[1] قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣] فالعبد لا خروج له عن نعمته وفضله ومنته وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولهذا ذم الله ـ سبحانه ـ من آتاه شيئاً من نعمه، فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]. وفي الآية الأخرى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الزمر: ٤٩]. وقال البغوي: على علم من الله أني له أهل. وقال مقاتل: على خير علمه الله عندي. ومضمون هذا القول أن الله آتانيه على علمه بأني أهله. وقال آخرون: بل العلم له نفسه، ومعناه أوتيته على علم مني بوجوه المكاسب، قاله قتادة

(١) ٣٧ شفاء.

وغيره. وقيل: المعنى قد علمت أني لما أوتيت هذه في الدنيا فلي عند الله منزلة وشرف. وهذا معنى قول مجاهد: أوتيته على شرف. قال تعالى: ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ [الزمر: ٤٩] أي: النعم التي أوتيها فتنة نختبره فيها، ومحنة نمتحنه بها، لا يدل على اصطفائه واجتبائه وأنه محبوب لنا مقرب عندنا. ولهذا قال في قصة قارون: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾ [القصص: ٧٨] فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضاء الله ـ سبحانه ـ عمن آتاه ذلك وشرف قدره وعلو منزلته عنده لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة، لا محبة ورضا واصطفاء لهم على غيرهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ أي: النعمة فتنة لا كرامة: ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٧].

ثم أكد هذا المعنى بقوله: ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ [الزمر: ٥٠ ـ ٥١] أي قد قال هذه المقالة الذين من قبلهم لما آتيناهم نعمنا. قال ابن عباس: كانوا قد بطروا نعمة الله، إذ آتاهم الدنيا وفرحوا بها وطغوا، وقالوا: هذه كرامة من الله لنا. وقوله: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ المعنى: أنهم ظنوا أن ما آتيناهم لكرامتهم علينا ولم يكن كذلك؛ لأنهم وقعوا في العذاب، ولم يغن عنهم ما كسبوا شيئاً، وتبين أن تلك النعم لم تكن لكرامتهم علينا وهوان من منعناه إياها.

وقال أبو إسحاق: معنى الآية أن قولهم: إنما آتانا الله ذلك لكرامتنا عليه وإنا أهله أحبط أعمالهم، فكنى عن إحباط العمل بقوله: ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾. ثم أبطل ـ سبحانه ـ هذا الظن الكاذب منهم بقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ [الزمر: ٥٢]. والمقصود أن قوله: ﴿ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ إن أريد به علمه نفسه، كان المعنى أوتيته على ما عندي من العلم والخبرة والمعرفة، التي

توصلت بها إلىٰ ذلك وحصلته بها. وإن أريد به علم الله كان المعنىٰ أوتيته علىٰ ما علم الله عندي من الخير والاستحقاق وأني أهله، وذلك من كرامتي عليه. وقد يترجح هذا القول بقوله: ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ ولم يقل: حصلته واكتسبته بعلمي ومعرفتي، فدل علىٰ اعترافه بأن غيره آتاه إياه. ويدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة واختبار، والمعنىٰ أنه لم يؤت هذه لكرامته علينا، بل أوتيه امتحاناً منا وابتلاء واختباراً، هل يشكر فيه أم يكفر.

وأيضاً فهذا يوافق قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥ ـ ١٦] فهو قد اعترف بأن ربه هو الذي آتاه ذلك، ولكن ظن أنه لكرامته عليه. فالآية علىٰ التقدير الأول تتضمن ذم من أضاف النعم إلىٰ نفسه وعلمه وقوته، ولم يضفها إلىٰ فضل الله وإحسانه، وذلك محض الكفر بها؛ فإن رأس الشكر الاعتراف بالنعمة، وأنها من المنعم وحده، فإذا أضيفت إلىٰ غيره كان جحداً لها، فإذا قال: أوتيته علىٰ ما عندي من العلم والخبرة التي حصلت بها ذلك، فقد أضافها إلىٰ نفسه، وأعجب بها، كما أضافها إلىٰ قدرته الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فهؤلاء اغتروا بقوتهم، وهذا اغتر بعلمه، فما أغنىٰ عن هؤلاء قوتهم ولا عن هذا علمه.

وعلىٰ التقدير الثاني يتضمن ذم من اعتقد أن إنعام الله عليه لكونه أهلاً ومستحقًّا لها، فقد جعل سبب النعمة ما قام به من الصفات التي يستحق بها علىٰ الله أن ينعم عليه، وأن تلك النعمة جزاء له علىٰ إحسانه وخيره، فقد جعل سببها ما اتصف به هو لا ما قام بربه من الجود والإحسان والفضل والمنة، ولم يعلم أن ذلك ابتلاء واختبار له أيشكر أم يكفر؟ ليس ذلك جزاء علىٰ ما هو منه. ولو كان ذلك جزاء علىٰ عمله أو خير قام به فالله سبحانه هو المنعم عليه بذلك السبب، فهو المنعم بالمسبب والجزاء، والكل محض منته وفضله وجوده، وليس للعبد من نفسه مثقال ذرة من الخير.

وعلى التقديرين فهو لم يضف النعمة إلى الرب من كل وجه، وإن أضافها إليه من وجه دون وجه. وهو سبحانه وحده هو المنعم من جميع الوجوه على الحقيقة بالنعم وأسبابها، فأسبابها من نعمه على العبد وإن حصلت بكسبه، فكسبه من نعمه، فكل نعمة فمن الله وحده، حتى الشكر فإنه نعمة، وهي منه ـ سبحانه ـ فلا يطيق أحد أن يشكره إلا بنعمته، وشكره نعمة منه عليه، كما قال داود: يا رب كيف أشكرك وشكري لك نعمة من نعمك عليَّ تستوجب شكراً آخر؟ فقال: الآن شكرتني يا داود[١]. ذكره الإمام أحمد. وذكر أيضاً عن الحسن قال: قال داود: إلهي لو أن لكل شعرة من شعري لسانين يذكرانك الليل والنهار والدهر كله لما أدوا ما لك عليَّ من حق نعمة واحدة[٢].

(والمقصود): أن حال الشاكر ضد حال القائل: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾، ونظير ذلك قوله: ﴿ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠]. قال ابن عباس: يريد من عندي. وقال مقاتل: يعني أنا أحق بهذا. وقال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به. وقال الزجاج: هذا واجب بعملي استحققته، فوصف الإنسان بأقبح صفتين: إن مسه الشر صار إلى حال القانط ووجم وجوم الآيس. فإذا مسه الخير نسي أن الله هو المنعم عليه المتفضل بما أعطاه، فبطر وظن أنه هو المستحق لذلك، ثم أضاف إلى ذلك تكذيبه بالبعث، فقال: ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [فصلت: ٥٠]. ثم أضاف إلى ذلك ظنه الكاذب أنه إن بعث كان له عند الله الحسنى، فلم يدع هذا للجهل والغرور موضعاً.

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٦٨٠).

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب (٤/ ١٣٨ رقم ٤٥٧٩) وأحمد في الزهد (صـ ٦٩) وابن أبي الدنيا في الشكر (رقم ٢٥) وأبو الشيخ في طبقات المحدثين (٣/ ٤١٢) وابن أبي شيبة (٦/ ٣٤٢ رقم ٣١٨٩٠).

الوجه الثاني: أن الذنوب والمعاصي أمر مشترك بين الأمم لم تزل في العالم من طبقات بني آدم عالمهم وجاهلهم وزاهدهم في الدنيا وراغبهم وأميرهم ومأمورهم، وليس ذلك أمراً اختصت به هذه الأمة حتى يقدح به فيها وفي نبيها.

الوجه الثالث: أن الذنوب والمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل، بل يجتمع في العبد الإسلام والإيمان والذنوب والمعاصي، فيكون فيه هذا وهذا. فالمعاصي لا تنافي الإيمان بالرسل وإن قدحت في كماله وتمامه.

الوجه الرابع: أن الذنوب تغفر بالتوبة النصوح، فلو بلغت ذنوب العبد عنان السماء وعدد الرمل والحصا، ثم تاب منها تاب الله عليه. قال تعالىٰ: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]. فهذا في حق التائب، فإن التوبة تجب ما قبلها[(١)]، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له[(٢)]، والتوحيد يكفر الذنوب، كما في الحديث الصحيح الإلهي: «ابن آدم لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لقيتك بقرابها مغفرة»[(٣)]. فالمسلمون ذنوبهم ذنوب موحد إن قوي التوحيدعلىٰ محو آثارها بالكلية، وإلا فما معهم من التوحيد يخرجهم من النار إذا عذبوا بذنوبهم.

وأما المشركون والكفار فإن شركهم وكفرهم يحبط حسناتهم، فلا يلقون ربهم بحسنة يرجون بها النجاة، ولا يغفر لهم شيء من ذنوبهم. قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦]. وقال ـ تعالىٰ ـ في حق

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٠) (٤/ ٣٩٣) وفتح الباري (٦/ ٥١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٢٥٠) والبيهقي في الكبرىٰ (١٠/ ١٥٤ رقم ٢٠٣٤٨) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٥٠ رقم ١٠٢٨١) والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٩٧ رقم ١٠٨) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٤٨ رقم ٤٧٥٨): ورواة الطبراني رواة الصحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٠): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٨٧) وانظر: فتح الباري (١٣/ ٥١٣) وشرح النووي (١٧/ ١٢).

الكفار والمشركين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وقال رسول الله ﷺ: «أبى الله أن يقبل من مشرك عملاً»[١].

فالذنوب تزول آثارها بالتوبة النصوح، والتوحيد الخالص، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة لها، وشفاعة الشافعين في الموحدين، وآخر ذلك إذا عذب بما يبقى عليه منها أخرجه توحيده من النار. وأما الشرك بالله والكفر بالرسول فإنه يحبط جميع الحسنات بحيث لا تبقى معه حسنة.

***

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾

[٢]يذكر عن بعض العباد: أنه كان يسأل ربه في طوافه بالبيت أن يعصمه، ثم غلبته عيناه، فنام: فسمع قائلاً يقول: أنت تسألني العصمة، وكل عبادي يسألونني العصمة. فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتي وعفوي؟ وعلى من أتوب؟ وأين كرمي وعفوي ومغفرتي وفضلي؟ ونحو هذا من الكلام.

يا ابن آدم، إذا آمنت بي، ولم تشرك بي شيئاً، أقمت حملة عرشي ومن حوله يسبحون بحمدي، ويستغفرون لك وأنت على فراشك. وفي الحديث العظيم الإلهي حديث أبي ذر: «يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنها، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فمن علم أني ذو قدرة على المغفرة، غفرت له ولا أبالي» ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣][٣].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٤٥).

(٢) ٣٠١ مدارج جـ١.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢٥٧٧) وانظر: شرح النووي (١٦/ ١٣٢).

يا عبدي! لا تعجز فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة[1]. ومنك الاستغفار وعليَّ المغفرة. ومنك التوبة وعليَّ تبديل سيئاتك حسنات».

...[2]الطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة. لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزاً، وتفريطاً وذنباً وخطيئة: نوع آخر وفتح آخر. والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، وهم في واد وهو في واد. وهي تسمى طريق الطير. يسبق النائم فيها على فراشه السعاة، فيصبح وقد قطع الطريق، وسبق الركب. بينا هو يحدثك، إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة. فالله المستعان. وهو خير الغافرين.

وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له، وفرحه بتوبة عبده. فإنه ـ سبحانه ـ يحب التوابين، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله.

فكلما طالع العبد منن ربه ـ سبحانه ـ عليه قَبْلَ الذنب، وفي حاله مواقعته وبعده، وبره به وحلمه عنه، وإحسانه إليه: هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه؛ فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها. وأي إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصي، وهو يمده بنعمه، ويعامله بألطافه، ويسبل عليه ستره، ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم، ويردهم

---

(١) فعن أنس ﷺ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه قال: «أربع خصال: واحدة منهن لي وواحدة لك. وواحدة فيما بيني وبينك. وواحدة فيما بينك وبين عبادي. فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئًا. وأما التي لك عليَّ فما عملت من خير جزيتك به. وأما التي بيني وبينك، فمنك الدعاء وعليَّ الإجابة. وأما التي بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضي لنفسك» أخرجه أبو يعلى (٥/ ١٤٣ رقم ٢٧٥٧) والبزار (٦/ ٤٩٠ رقم ٢٥٢٣) والبيهقي في الشعب (٧/ ٥١٨ رقم ١١١٨٦) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٥٣ رقم ٦١٣٧) وفي الدعاء (رقم ١٦) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ٥١): ورواه البزار وفي إسناده صالح المري وهو ضعيف، وتدليس الحسن أيضاً.

(٢) ٤٣١ مدارج جـ١.

عنه، ويحول بينهم وبينه؟ وهو في ذلك كله بعينه، يراه ويطلع عليه. فالسماء تستأذن ربها أن تحصبه. والأرض تستأذنه أن تخسف به. والبحر يستأذنه أن يغرقه. كما في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه: أن يغرق ابن آدم. والملائكة تستأذنه: أن تعاجله وتهلكه. والرب ـ تعالىٰ ـ يقول: دعوا عبدي. فأنا أعلم به، إذ أنشأته من الأرض. إن كان عبدكم فشأنكم به، وإن كان عبدي فمني وإليَّ. عبدي. وعزتي وجلالي إن أتاني ليلاً قبلته، وإن أتاني نهاراً قبلته، وإن تقرب مني شبراً تقربت ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن مشي إليَّ هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إليَّ تبت عليه، ومن أعظم مني جوداً وكرماً وأنا الجواد الكريم؟ عبيدي يبيتون يبارزوني بالعظائم، وأنا أكلؤهم في مضاجعهم، وأحرسهم علىٰ فرشهم. من أقبل إليَّ تلقيته من بعيد. ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد. ومن تصرف بحولي وقوتي آلنت له الحديد، ومن أراد مرادي أردت ما يريد. أهل ذكري أهل مجالستي. وأهل شكري وأهل زيادتي. وأهل طاعتي أهل كرامتي. وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي. إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم. وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم. أبتليهم بالمصائب. لأطهرهم من المعايب»[١].

ولنقتصر علىٰ هذا القدر من ذكر «التوبة» وأحكامها وثمراتها. فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلىٰ معرفتها، ومعرفة أحكامها، وتفاصيلها ومسائلها. والله الموفق لمراعاة ذلك، والقيام به عملاً وحالاً. كما وفق له علماً ومعرفة. فما خاب من توكل عليه، ولاذ به ولجأ إليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قد علمت أن من نزل في منزل «التوبة» وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام. فإن «التوبة» الكاملة متضمنة لها، وهي مندرجة فيها. ولكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل. تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها.

---

(١) لم أجده بهذا السياق، بينما هو ملفق من عدة أحاديث.

فإذا استقرت قدمه في منزل «التوبة» نزل بعده منزل «الإنابة»، وقد أمر الله - تعالى - بها في كتابه. وأثنى على خليله بها، فقال: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ [الزمر: ٥٤]. وقال: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]. وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة. فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾ إلى قوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨] وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣] وقال تعالى: ﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [الروم: ٣١].

«فمنيبين» منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله: «فأقم وجهك»؛ لأن هذا الخطاب له ولأمته. أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه. نظيره قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ ﴾ [الطلاق: ١] ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله: ﴿ فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] أي فطرهم منيبين إليه، فلو خلوا وفطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه، ولكنها تحول وتتغير عما فطرت عليه. كما قال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة» وفي رواية: «على الملة حتى يعرب عنه لسانه»(١) وقال عن نبيه داود: ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص: ٢٤] وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة. فقال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ [ق: ٣١ - ٣٤]، وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة. فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ﴾ [الزمر: ١٧].

---

(١) أخرجه ابن حبان (١/ ٣٤١ رقم ١٣٢) وأحمد (٣/ ٣٥٣) وأبو يعلى (٢/ ٢٤٠ رقم ٩٤٢) والطبراني في الكبير (١/ ٢٨٣ رقم ٨٢٨) وعبدالرزاق (١١/ ١٢٢ رقم ٢٠٠٩٠) وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢١٨): رواه أحمد وفيه أبو جعفر الرازي وهو ثقة وفيه خلاف وبقية رجاله ثقات.

و«الإنابة» إنابتان: إنابة لربوبيته، وهي إنابة المخلوقات كلها، يشترك فيها المؤمن والكافر. والبر والفاجر. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر، كما هو الواقع. وهذا «الإنابة» لا تستلزم الإسلام، بل تجامع الشرك والكفر. كما قال ـ تعالىٰ ـ في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [الروم: ٣٣ ـ ٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

و«الإنابة» الثانية إنابة أوليائه. وهي إنابة لإلهيته، إنابة عبودية ومحبة. وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه. فلا يستحق اسم «المنيب» إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع: وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور علىٰ ذلك.

وفي اللفظة معنىٰ الإسراع والرجوع والتقدم. و«المنيب» إلىٰ الله: المسرع إلىٰ مرضاته، الراجع إليه كل وقت، المتقدم إلىٰ محابه. قال صاحب المنازل: «الإنابة في اللغة: الرجوع. وهي ههنا الرجوع إلىٰ الحق. وهي ثلاثة أشياء: الرجوع إلىٰ الحق إصلاحاً، كما رجع إليه اعتذاراً. والرجوع إليه وفاء، كما رجع إليه عهداً. والرجوع إليه حالاً، كما رجعت إليه إجابة».

لما كانت التائب قد رجع إلىٰ الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته، كان من تتمة ذلك: رجوعه إليه بالاجتهاد، والنصح في طاعته. كما قال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] وقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠] فلا تنفع توبة وبطالة. فلابد من توبة وعمل صالح: ترك لما يكره، وفعل لما يحب، تخل عن معصيته، وتحل بطاعته.

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك. فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً. فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه

ثانياً. والدين كله: عهد ووفاء. فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته. فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى. وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل. وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء. فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم، وعلى هؤلاء بالتعلم. ومدح الموفين بعهده، وأخبر بما لهم عنده من الأجر، فقال: ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠]. وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١]. وقال: ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة، وعهودهم مع الخلق. وأخبر النبي ﷺ: أن من علامات النفاق: «الغدر بعد العهد». فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به، كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده. فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به. وقوله: «والرجوع إليه حالاً. كما رجعت إليه إجابة». أي هو ـ سبحانه ـ قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا، فلا بد من الإجابة حالاً تصدق به المقال. فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها. وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله، فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه إجابة بالحال.

[(1)] قاعدة: كثيراً ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها كقوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤]. وقوله حكاية عن شعيب أنه قال: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨]. وقوله: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٨] وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد: ٢٧]. وقوله عن نبيه داود: ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [صٓ: ٢٤]. والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف دواعي

(١) ١٧٣ طريق الهجرتين.

القلب وجواذبه إليه. وهي تتضمن المحبة والخشية؛ فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له خاشع ذليل.

والناس في إنابتهم على درجات متفاوتة، فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي. وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر، ومنهم المنيب إليه بالدخول في أنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده وقد حبب إليه فعل الطاعات وأنواع القربات. وهذه الإنابة مصدرها الرجاء، ومطالعة الوعد والثواب، ومحبة الكرامة من الله.

وهؤلاء أبسط نفوساً من أهل القسم الأول وأشرح صدوراً، وجانب الرجاء ومطالعة الرحمة والمنة أغلب عليهم، وإلا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعاً، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأنابوا بالعبادات، ورجاء الأولين اندرج تحت خوفهم فكانت إنابتهم بترك المخالفات.

ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاء، والافتقار إليه، والرغبة، وسؤال الحاجات كلها منه. ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة، والغنى والكرم، والقدرة فأنزلوا به حوائجهم، وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأمر والنهي، ولكن إنابتهم الخاصة إنما هي من هذه الجهة، وأما الأعمال فلم يرزقوا فيها الإنابة الخاصة، ومنهم المنيب إليه عند الشدائد والضراء فقط إنابة اضطرار لا إنابة اختيار، كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

***

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

(١)سئل ﷺ عن قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [الزمر: ٦٧] أين الناس يومئذ؟ قال: «علىٰ جسر جهنم»(٢).

(٣)قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]. فما قدر من هذا شأنه وعظمته حق قدره من أشرك معه في عبادته من ليس له شيء من ذلك البتة، بل هو أعجز شيء وأضعفه. فما قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه الضعيف الذليل، وكذلك ما قدره حق قدره من قال إنه لم يرسل إلىٰ خلقه رسولاً ولا أنزل كتاباً. بل نسبه إلىٰ ما لا يليق به ولا يحسن منه من إهمال خلقه وتضييعهم وتركهم سدىٰ، وخلقهم باطلاً عبثاً. وكذا ما قدره حتىٰ قدره من نفىٰ حقائق أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ، فنفىٰ سمعه وبصره، وإرادته واختياره، وعلوه فوق خلقه، وكلامه وتكليمه لمن شاء من خلقه بما يريد، ونفىٰ عموم قدرته وتعلقها بأفعال عباده من طاعتهم ومعاصيهم، فأخرجها عن قدرته ومشيئته، وجعلهم يخلقون لأنفسهم ما يشاءون بدون مشيئة الرب، فيكون في ملكه ما لا يشاء، ويشاء ما لا يكون. فتعالىٰ الله عن قول أشباه المجوس علواً كبيراً.

وكذلك ما قدره حق قدره من قال: إنه يعاقب عبده علىٰ ما لا يفعله ولا له عليه قدره ولا تأثير له فيه البتة، بل هو نفس فعل الرب ـ جل جلاله ـ فيعاقب عبده علىٰ فعله، فهو ـ سبحانه ـ الذي جبر العبد عليه، وجبره علىٰ الفعل أعظم من إكراه

---

(١) ٢٧٦ أعلام جـ٤.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٣/٢٥٣) والحاكم (٢/٤٧٣ رقم ٣٦٣٠) والنسائي في الكبرىٰ (٦/٤٤٧ رقم ١١٤٥٣) والترمذي (رقم ٣٢٤١) وأحمد (٦/١١٦) والطبراني في مسند الشاميين (٤/٥٨ رقم ٢٧٢٤) وابن أبي عاصم في الأوائل (رقم ١٨٠) وابن المبارك في الزهد (رقم ٢٩٨) وصحَّحه الحاكم والترمذي.

(٣) ١٨٧ الجواب الكافي.

المخلوق للمخلوق. وإذا كان من المستقر في الفطر والعقول: أن السيد لو أكره عبده على فعل أو ألجأه إليه ثم عاقبه عليه لكان قبيحاً، فأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين كيف يجبر العبد على فعل لا يكون للعبد فيه صنع ولا تأثير ولا هو واقع بإرادته ولا فعله البتة، ثم يعاقبه عليه؟ ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

وقول هؤلاء شر قول، وهم أشباه المجوس، والطائفتان ما قدروا الله حق قدره. وكذلك ما قدره حق قدره من لم يصنه عن نتن ولا حش ولا مكان يرغب عن ذكره، بل جعله في كل مكان وصانه عن عرشه أن يكون مستوياً عليه: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ [فاطر: ١٠] وتعرج الملائكة والروح إليه وتنزل من عنده، ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه، فصانه عن استوائه على سرير الملك، ثم جعله في كل مكان يأنف الإنسان بل غيره من الحيوان أن يكون فيه.

وما قدر الله حق قدره من نفى حقيقة محبته ورحمته ورأفته ورضاه وغضبه ومقته، ولا من نفى حقيقة حكمته التي هي الغايات المحمودة المقصودة بفعله، ولا من نفى حقيقة فعله، ولم يجعل له فعلاً اختيارياً يقوم به، بل أفعاله مفعولات منفصلة عنه، فنفى حقيقة مجيئه وإتيانه، واستوائه على عرشه، وتكليمه موسى من جانب الطور، ومجيئه يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده بنفسه، إلى غير ذلك من أفعاله وأوصاف كماله التي تفوها وزعموا أنهم بنفيها قد قدروه حق قدره.

وكذلك لم يقدره حق قدره من جعل له صاحبة وولداً، وجعله ـ سبحانه ـ يحل في جميع مخلوقاته، أو جعله عين هذا الوجود. وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه رفع أعداء رسول الله ﷺ وأهل بيته وأعلى ذكرهم، وجعل الله فيهم الملك والخلافة والعز، ووضع أولياء رسول الله ﷺ وأهل بيته، وأهانهم وأذلهم وضرب عليهم الذل أينما ثقفوا. وهذا يتضمن غاية القدح في جناب الرب، ـ تعالى عن قول الرافضة علواً كبيراً.

وهذا القول مشتق من قول اليهود والنصارىٰ في رب العالمين: إنه أرسل ملكاً ظالماً فادعىٰ النبوة لنفسه، وكذب علىٰ الله، وأخذ زماناً طويلاً يكذب علىٰ الله كل وقت، ويقول: قال الله كذا، وأمر بكذا، ونهىٰ عن كذا. وينسخ شرائع أنبيائه ورسله، ويستبيح دماء أتباعهم وأموالهم وحريمهم، ويقول: الله أباح لي ذلك، والرب ـ تعالىٰ ـ يظهره ويؤيده، ويعليه ويقويه، ويجيب دعواته، ويمكنه ممن يخالفه، ويقيم الأدلة علىٰ صدقه، ولا يعاديه أحد إلا ظفر به، فيصدقه بقوله وفعله وتقريره، وتحدث أدلة تصديقه شيئاً بعد شيء إلىٰ يوم القيامة. ومعلوم أن هذا يتضمن أعظم القدح والطعن في الرب ﷻ وعلمه وحكمته ورحمته وربوبيته، ـ تعالىٰ الله عن قول الجاحدين علواً كبيراً ـ. فوازن بين قول هؤلاء وقول إخوانهم من الرافضة تجد القولين كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أمٍّ تقاسما   بأسحم داجٍ عوضُ لا نتفرق[1]

وكذلك لم يقدره حق قدره من قال: إنه يجوز أن يعذِّب أولياءه ومن لم يعصه طرفة عين ويدخلهم دار الشقاء، وإن يثيب أعداءه ومن لم يطعه طرفة عين ويدخلهم دار النعيم، وإن كلا الأمرين بالنسبة إليه جائز، وإنما الخبر المحض جاء عنه بخلاف ذلك، فمعناه للخبر لا لمخالفة حكمته وعدله. وقد أنكر ـ سبحانه ـ في كتابه علىٰ من جوز عليه ذلك غاية الإنكار، وجعل الحكم به من أسوأ الأحكام. وكذلك لم يقدره حق قدره من زعم أنه لا يحيي الموتىٰ، ولا يبعث من في القبور، ولا يجمع الخلق ليوم يجازي المحسن فيه بإحسانه والمسيء بإساءته، ويأخذ للمظلوم فيه حقه من

(١) هذا بيت من بحر الطويل، قائله الأعشى، ذكره ابن قتيبة في أدب الكاتب (صـ ٤٧١) وابن السكيت في إصلاح المنطق (ص ٤٨٧) وابن فارس في الصاحبي في فقه اللغة (ص ٢٢١) وابن رشيق القيرواني في العمدة في محاسن الشعر وآدابه (١/ ٦٣) والزمخشري في المفصل في صنعة الإعراب (ص ١٩٤) وفي ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١/ ١٦٤) وذكره أيضاً الطبري في تفسيره (٨/ ١٤١) وابن منظور في اللسان (٧/ ١٩٢) (١٢/ ٢٨٢).

ظالمه، ويكرم المتحملين المشاق في هذه الدار من أجله وفي مرضاته بأفضل كرامته، ويبين لخلقه الذي يختلفون فيه، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وكذلك لم يقدره حق قدره من هان عليه أمره فعصاه، ونهيه فارتكبه، وحقه فضيعه، وذكره فأهمله، وغفل قلبه عنه، وكان هواه آثر عنده من طلب رضاه، وطاعة المخلوق أهم عنده من طاعة الله. فلله الفضلة من قلبه وعلمه وقوله وعمله وماله، وسواه المقدم في ذلك لأنه المهم عنده. يستخف بنظر الله إليه، وإطلاعه عليه، وهو في قبضته وناصيته بيده. ويعظم نظر المخلوق إليه واطلاعه عليه بكل قلبه وجوارحه.

ويستخفي من الناس ولا يستخفي من الله. ويخشى الناس ولا يخشى الله. ويعامل الخلق بأفضل ما عنده وما يقدر عليه، وإن عامل الله عامله بأهون ما عنده وأحقره، وإن قام في خدمة من يحبه من البشر قام بالجد والاجتهاد وبذل النصيحة، وقد أفرغ له قلبه وجوارحه، وقدمه على كثير من مصالحه، حتى إذا قام في حق ربه ـ إن ساعد القدر ـ قام قياماً لا يرضاه مخلوق من مخلوق مثله، وبذل له من ماله ما يستحيي أن يواجه به مخلوقاً مثله، فهل قدر الله قدره من هذا وصفه؟ وهل قدره حق قدره من شارك بينه وبين عدوه في محض حقه من الإجلال والتعظيم، والطاعة والذل، والخضوع والخوف والرجاء؟ فلو جعل له من أقرب الخلق إليه شريكاً في ذلك لكان ذلك جراءة وتوثباً على محض حقه، واستهانه به وتشريكاً بينه وبين غيره فيما لا ينبغي ولا يصلح إلا له ـ سبحانه ـ، فكيف وإنما أشرك معه أبغض الخلق إليه، وأهونهم عليه، وأمقتهم عنده، وهو عدوه على الحقيقة؟ فإنه ما عبد من دون الله إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

ولما عبد المشركون الملائكة بزعمهم وقعت عبادتهم للشيطان، وهم يظنون أنهم يعبدون الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ

إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١] فالشيطان يدعو المشركين إلىٰ عبادته، ويوهمهم أنه ملك. كذلك عباد الشمس والقمر والكواكب يزعمون أنهم يعبدون روحانيات هذه الكواكب، وهي التي تخاطبهم وتقضي لهم الحوائج، ولهذا إذا طلعت الشمس قارنها الشيطان فيسجد لها الكفار فيقع سجودهم له، وكذلك عند غروبها.

وكذلك من عبد المسيح وأمه لم يعبدهما وإنما عبد الشيطان، فإنه يزعم أنه يعبد من أمره بعبادته وعبادة أمه ورضيها لهم وأمرهم بها. وهذا هو الشيطان الرجيم لعنة الله عليه. فلا عبد الله ولا رسوله ﷺ، فيدل هذا كله علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١] فما عبد أحد من بني آدم غير الله كائناً من كان إلا وقعت عبادته للشيطان، فيستمتع العابد بالمبعود في حصول أغراضه، ويستمتع المعبود بالعابد في تعظيمه له وإشراكه به مع الله الذي هو غاية رضاء الشيطان، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الْإِنسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] أي من إغوائهم وإضلالهم. ﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فهذه إشارة لطيفه إلىٰ السر الذي لأجله كان الشرك أكبر الكبائر عند الله، وأنه لا يغفره بغير التوبة منه، وأنه يوجب الخلود في النار، وأنه ليس تحريمه وقبحه بمجرد النهي عنه، بل يستحيل علىٰ الله ـ سبحانه ـ أن يشرع لعباده إلهاً غيره، كما يستحيل عليه ما يناقض أوصاف كماله ونعوت جلاله. وكيف يظن بالمنفرد بالربوبية والإلهية والإجلال أن يأذن في مشاركته في ذلك أو يرضىٰ به؟ ـ تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ـ.

فلما كان الشرك أكبر شيء منافاة للأمر الذي خلق الله له الخلق (أمر لأجله بالأمر

الذي) كان من أكبر الكبائر عند الله، وكذلك الكبر وتوابعه كما تقدم. فإن الله ـ سبحانه ـ خلق الخلق وأنزل الكتاب لتكون الطاعة له وحده، والشرك والكبر ينافيان ذلك. ولذلك حرم الله الجنة على أهل الشرك والكبر، ولا يدخلها من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر(١).

***

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

(٢)إن قيل: فعند النفخ في الصور هل تبقى الأرواح كما هي أو تموت ثم تحيا؟ قيل: قد قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]. فقد استثنى الله ـ سبحانه ـ بعض من في السموات ومن في الأرض من هذا الصعق.

فقيل: هم الشهداء. هذا قول أبي هريرة وابن عباس وسعيد بن جبير. وقيل: هم جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. وهذا قول مقاتل وغيره: وقيل: هم الذين في الجنة من الحور العين وغيرهم، ومن في النار من أهل العذاب وخزنتها.

قال أبو إسحاق بن شاقلا من أصحابنا: وقد نص الإمام أحمد على أن الحور العين والولدان لا يمتن عند النفخ في الصور. وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الدخان: ٥٦]. وهذا نص على أنهم لا يموتون غير تلك الموتة الأولى، فلو ماتوا مرة ثانية لكانت موتتان. وأما قول أهل النار: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ [غافر: ١١]. فتفسير هذه الآية التي في البقرة،

---

(١) تقدم قريبًا قول الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ ضمن ما نقل عن كتاب الروح فليرجع إليه من أراده. (ج).

(٢) ٤١ الروح.

وهي قوله تعالىٰ: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] فكانوا أمواتاً وهم نطف في أصلاب آبائهم وفي أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور:

وليس في ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة، وإلا كانت ثلاث موتات. وصعق الأرواح عند النفخ في الصور لا يلزم منه موتها، ففي الحديث الصحيح: «**أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسىٰ آخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور**»(١).

فهذا صعق في موقف القيامة إذا جاء الله تعالىٰ لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذٍ تصعق الخلائق كلهم، قال تعالىٰ: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴾ [الطور: ٤٥]. ولو كان هذا الصعق موتاً لكانت موتة أخرىٰ. وقد تنبه لهذا جماعة من الفضلاء، فقال أبو عبدالله القرطبي: ظاهر هذا الحديث أن هذه صعقة غشي تكون يوم القيامة، لا صعقة الموت الحادثة عن نفخ الصور.

قال: وقد قال شيخنا أحمد بن عمرو: ظاهر حديث النبي ﷺ يدل علىٰ أن هذه الصعقة إنما هي بعد النفخة الثانية نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق. ولما كان هذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسىٰ ممن لم يمت من الأنبياء. وهذا باطل. (وقال) القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع بعد النشور، حين تنشق السموات والأرض. قال: فتستقل الأحاديث والآثار. ورد عليه أبو العباس القرطبي فقال: يرد هذه قوله في الحديث الصحيح أنه حين يخرج من قبره يلقىٰ موسىٰ آخذًا بقائمة العرش، قال: وهذا إنما هو عند نفخة الفزع.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٣٩٨، ٢٤١١) ومسلم (رقم ٢٣٧٣) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٤-٤٤٥).

قال أبو عبدالله: قال شيخنا أحمد بن عمرو: الذي يزيح هذا الإشكال إن شاء الله تعالى أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم وموتهم أحياء عند ربهم يرزقون فرحين مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا. وإذا كان هذا في الشهداء كان الأنبياء بذلك أحق وأولى مع أنه قد صح عن النبي ﷺ أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه ﷺ اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس، وفي السماء وخصوصاً بموسى. وقد أخبر بأنه ما من مسلم يسلم عليه إلا رد الله عليه روحه، حتى يرد عليه السلام. إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأن موت الأنبياء إنما هو راجع إلى أن غيبوا عنا بحيث لا ندركهم، وإن كانوا موجودين أحياء، وذلك كالحال في الملائكة فإنهم أحياء موجودون ولا نراهم. وإذا تقرر أنهم أحياء فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق صعق كل من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله. فأما صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث فمن مات حيي ومن غشي عليه أفاق؛ ولذلك قال ﷺ في الحديث المتفق على صحته: «**فأكون أول من يفيق**» فنبينا أول من يخرج من قبره قبل جميع الناس إلا موسى. فإنه حصل فيه تردد: هل بعث قبله من غشيته أو بقي على الحالة التي كان عليها قبل نفخة الصعق مفيقاً، لأنه حوسب بصعقة يوم الطور. وهذه فضيلة عظيمة لموسى، ولا يلزم من فضيلة واحدة أفضليته على نبينا مطلقاً؛ لأن الشيء الجزئي لا يوجب أمراً كلياً، انتهى.

قال أبو عبدالله القرطبي: إن حمل الحديث على صعقة الخلق يوم القيامة فلا إشكال، وإن حمل على صعقة الموت عند النفخ في الصور فيكون ذكر يوم القيامة يراد به أوائله، فالمعنى إذا نفخ في الصور نفخة البعث كنت أول من يرفع رأسه، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور. قلت: وحمل الحديث على هذا لا يصح، لأنه ﷺ تردد هل أفاق موسى قبله أم لم يصعق،

بل جوزي بصعقة الطور، فالمعنى: لا أدري أصعق أم لم يصعق. وقد قال في الحديث: «**فأكون أول من يفيق**» وهذا يدل على أنه ﷺ يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى: هل صعق وأفاق قبله من صعقته أم لم يصعق. ولو كان المراد به الصعقة الأولى وهي صعقة الموت لكان ﷺ قد جزم بموته وتردد هل مات موسى أم لم يمت، وهذا باطل لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع لا صعقة موت. وحينئذ فلا تدل الآية على أن الأرواح كلها تموت عند النفخة الأولى نعم تدل على أن موت الخلائق عند النفخة الأولى وكل من لم يذق الموت قبلها فإنه يذوقه حينئذ. وأما من ذاق الموت أو من لم يكتب عليه الموت فلا تدل الآية على أنه يموت موتة ثانية، والله أعلم.

فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: «**إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش**»[١] قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي حديث في حديث، فركب بين اللفظين فجاء هذا.

والحديثان هكذا (أحدهما) أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق. (والثاني) هكذا: أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، ففي الترمذي وغيره من حديث أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر**»[٢]، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح. فدخل على الراوي هذا الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج الحافظ يقول ذلك.

فإن قيل: فما تصنعون بقوله: «**فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله ﷻ**»،

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٤١٢) ومسلم (رقم ٢٣٧٤) وانظر: فتح الباري (٦/ ٤٤٤-٤٤٥) (١١/ ٤٣٣-٤٣٥).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٤٨، ٣٦١٤) وانظر: عمدة القاري (١٢/ ٢٥٠) (١٥/ ٢٩٣) وتحفة الأحوذي (٨/ ٤٦٤) (١٠/ ٥٩-٦٠).

والذين استثناهم الله إنما هم مستثنون من صعقة النفخة لا من صعقة يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]. ولم يقع الاستثناء من صعقة الخلائق يوم القيامة.

قيل: هذا والله أعلم غير محفوظ، وهو وهم من بعض الرواة، والمحفوظ ما تواطأت الروايات الصحيحة من قوله: «فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور» فظن بعض الرواة أن هذه الصعقة هي صعقة النفخة، وأن موسى داخل فيمن استثني منها. وهذا لا يلتئم على مساق الحديث قطعاً، فإن الإفاقة حينئذ هي إفاقة البعث، فكيف يقول: لا أدري أبعث قبلي أم جوزى بصعقة الطور؟ فتأمله.

وهذا بخلاف الصعقة التي يصعقها الخلائق يوم القيامة إذا جاء الله ـ سبحانه ـ لفصل القضاء بين العباد وتجلى لهم، فإنهم يصعقون جميعاً، وأما موسى ﷺ فإن كان لم يصعق معهم فيكون قد حوسب بصعقته يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكا، فجعلت صعقة هذا التجلي عوضاً من صعقة الخلائق لتجلي الرب يوم القيامة، فتأمل هذا المعنى العظيم، ولو لم يكن في الجواب إلا كشف هذا الحديث وشأنه لكان حقيقاً أن يعض عليه بالنواجذ. ولله الحمد والمنة وبه التوفيق.

(١)وذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو ابن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه سأل جبريل عن هذه الآية: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٦٨]. قال: «هم الشهداء يبعثهم الله متقلدين أسيافهم حول عرشه، فأتاهم ملائكة من المحشر بنجائب من ياقوت أزمتها الدر الأبيض برحال الذهب، أعناقهم السندس والإستبرق، ونمارقها ألين من الحرير، مد خطاها مد أبصار الرجال، يسيرون في الجنة على خيول يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا

---

(١) ١٨٧ حادي الأرواح.

نظر كيف يقضي الله بين خلقه، يضحك الله إليهم، وإذا ضحك الله إلى عبد في موطن فلا حساب عليه»[١].

***

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

[٢]في ذكر عدد أبواب الجنة: قال الله تعالىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

وقال في صفه النار: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧١] بغير واو. فقالت طائفة: هذه واو الثمانية دخلت في أبواب الجنة لكونها ثمانية، وأبواب النار سبعة فلم تدخلها الواو. وهذا قول ضعيف لا دليل عليه، ولا تعرفه العرب ولا أئمة العربية، وإنما هو من استنباط بعض المتأخرين[٣]. وقال طائفة أخرىٰ: الواو زائدة، والجواب

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (١١/ ٣٧١): وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية: من الذين لم يشأ الله أن يصعقوا؟ قال: هم شهداء الله عز وجل. صححه الحاكم ورواته ثقات ورجحه الطبري.

(٢) ٤٣ حادي الأرواح.

(٣) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦٧): ومن زعم أن الواو في قوله تبارك وتعالىٰ: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ واو الثمانية. واستدل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعد النجعة، وأغرق في النزع. وقال ابن عبد البر في الاستذكار (٥/ ١٤٨- ١٤٩): وقد قيل في قول الله عز وجل: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ =

الفعل الذي بعدها كما هو في الآية الثانية وهذا أيضاً ضعيف؛ فإن زيادة الواو غير معروف في كلامهم، ولا يليق بأفصح الكلام أن يكون فيه حرف زائد لغير معنى ولا فائدة.

وقالت طائفة ثالثة: الجواب محذوف، وقوله: ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ عطف على قوله: ﴿ جَآءُوهَا ﴾ وهذا اختيار أبي عبيدة والمبرد والزجاج وغيرهم. قال المبرد: وحذف الجواب أبلغ عند أهل العلم. قال أبو الفتح ابن جني: وأصحابنا يدفعون زيادة الواو ولا يجيزونه، ويرون أن الجواب محذوف للعلم به. بقي أن يقال: فما السر في حذف الجواب في آية أهل الجنة، وذكره في آية أهل النار؟ فيقال: هذا أبلغ في الموضعين؛ فإن الملائكة تسوق أهل النار إليها وأبوابها مغلقة حتى إذا وصلوا إليه فتحت في وجوههم فيفجأهم العذاب بغتة، فحين انتهوا إليها فتحت أبوابها بلا مهلة؛ فإن هذا شأن الجزاء المرتب. على الشرط أن يكون عقيبه، فإنها دار الإهانة والخزي، فلم يستأذن لهم في دخولها ويطلب إلى خزنتها أن يمكنوهم من الدخول.

وأما الجنة فإنها دار الله، ودار كرامته، ومحل خواصه وأوليائه، فإذا انتهوا إليها صادفوا أبوابها مغلقة، فيرغبون إلى صاحبها ومالكها أن يفتحها لهم، ويستشفعون إليه

= زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧١] بلا واو. وقال في الجنة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ [الزمر: ٧٣] بالواو. إن هذه الواو تدعى واو الثمانية، وذكروا من الشواهد على ما ذهبوا إليه من ذلك ما لا تقوم به حجة. ذكروا قول الله عز وجل: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ١١٢] فأدخل الواو في الصفة الثامنة دون غيرها. ومنه قوله عز وجل: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف: ٢٢] فدخلت الواو في الصفة الثامنة. وهذا قد أنكره قوم من أهل العلم باللسان، ولم يروا فيما نزع أولئك إليه من البيان، والله أعلم.

وانظر: التمهيد (٧/ ١٨٧-١٨٨) والقاموس المحيط (ص ١٧٤٦) والرد على الجهمية والزنادقة (ص١٠٨-١٠٩) للإمام أحمد بن حنبل بتحقيقي وهو من منشورات دار الثبات بالرياض وسوف يصدر بزيادات وتوثيقات في دار القبس بالرياض إن شاء الله تعالى.

بأولي العزم من رسله، وكلهم يتأخر عن ذلك حتى تقع الدلالة على خاتمهم وسيدهم وأفضلهم، فيقول: «أنا لها» فيأتي إلى تحت العرش، ويخر ساجداً لربه، فيدعه ما شاء أن يدعه، ثم يأذن له في رفع رأسه وأن يسأل حاجته، فيشفع إليه ـ سبحانه ـ في فتح أبوابها فيشفعه ويفتحها تعظيماً لخطرها، وإظهاراً لمنزلة رسوله وكرامته عليه.

وإن مثل هذه الدار التي هي دار ملك الملوك ورب العالمين إنما يدخل إليها بعد تلك الأهوال العظيمة التي أولها من حين عقل العبد في هذه الدار إلى أن انتهى إليها، وما ركبه من الأطباق طبقاً بعد طبق، وقاساه من الشدائد شدة بعد شدة حتى أذن الله تعالى لخاتم أنبيائه ورسله وأحب خلقه إليه أن يشفع إليه في فتحها لهم. وهذا أبلغ وأعظم في تمام النعمة وحصول الفرح والسرور مما يقدر بخلاف ذلك؛لئلا يتوهم الجاهل أنها بمنزلة الخان الذي يدخله من شاء، فجنة الله عالية غالية، بين الناس وبينها من العقبات والمفاوز والأخطار مالا تنال إلا به.

فما لمن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني ولهذا الدار؟ فَلْيَعُدْ عنها إلى ما هو أولى به، وقد خلق له وهيئ له. وتأمل ما في سوق الفريقين إلى الدارين زمراً من فرحة هؤلاء بإخوانهم وسيرهم معهم كل زمرة على حدة، كل مشتركين في عمل متصاحبين فيه على زمرتهم وجماعتهم، مستبشرين أقوياء القلوب، كما كانوا في الدنيا وقت اجتماعهم على الخير، كذلك يؤنس بعضهم بعضاً، ويفرح بعضهم ببعض.

وكذلك أصحاب الدار الأخرى يساقون إليها زمراً يلعن بعضهم بعضاً، ويتأذى بعضهم ببعض. وذلك أبلغ في الخزي والفضيحة والهتيكة من أن يساقوا واحداً واحداً، فلا تهمل تدبر قوله تعالى: ﴿ زُمَرًا ﴾ وقال خزنة أهل الجنة لأهلها ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ فبدؤهم بالسلام المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون، ثم قالوا لهم: ﴿ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾، أي سلامتكم ودخولها بطيبكم، فإن الله حرمها إلا على الطيبين، فبشروهم بالسلامة

والطيب والدخول والخلود. وأما أهل النار فإنهم لما انتهوا إليها على تلك الحال من الهم والغم والحزن، وفتحت لهم أبوابها وقفوا عليها وزيدوا على ما هم عليه توبيخ خزنتها وتبكيتهم لهم بقولهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ [الزمر: ٧١] فاعترفوا وقالوا: ﴿ بَلَىٰ ﴾ فبشروهم بدخولها والخلود فيها وأنها بئس المثوى لهم.

وتأمل قول خزنة الجنة لأهلها: ادخلوها، وقول خزنة النار لأهلها: ادخلوا أبواب جهنم، تجد تحته سراً لطيفاً ومعنى بديعاً، لا يخفى على المتأمل، وهو أنها لما كانت دار العقوبة، وأبوابها أفظع شيء وأشده حراً، وأعظمه غماً، يستقبل فيها الداخل من العذاب ما هو أشد منها، ويدنو من الغم والخزي والحزن والكرب بدخول الأبواب، فقيل: ادخلوا أبوابها، صغاراً لهم وإذلالاً وخزياً، ثم قيل لهم: لا يقتصر بكم على مجرد دخول الأبواب الفظيعة، ولكن وراءها الخلود في النار. وأما الجنة فهي دار الكرامة والمنزل الذي أعده الله لأوليائه، فبشروا من أول وهلة بالدخول إلى المقاعد والمنازل والخلود فيها وتأمل.

[(١)] لما كانت الجنات درجات بعضها فوق بعض كانت أبوابها كذلك، وباب الجنة العالية فوق باب الجنة التي تحتها. وكلما علت الجنة اتسعت. فعاليها أوسع مما دونه، وسعة الباب بحسب وسع الجنة. ولعل هذا وجه الاختلاف الذي جاء في مسافة ما بين مصراعي الباب؛ فإن أبوابها بعضها أعلى من بعض، ولهذه الأمة باب مختص بهم يدخلون منه دون سائر الأمم، كما في المسند من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل فأخذ بيدي فأراني باب الجنة الذي تدخل منه أمتي**»[(٢)] الحديث

---

(١) ٥٠ حادي الأرواح.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (رقم ٢٥٨، ٥٩٣) وأبو داود (رقم ٤٦٥٢) والحاكم (٣/ ٧٧ رقم ٤٤٤٤) والطبراني في الأوسط (٣/ ٩٣ رقم ٢٥٩٤) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وسيأتي بتمامه إن شاء الله ـ تعالىٰ ـ.

وقال خلف بن هشام البزار ثنا أبو شهاب عن عمرو بن قيس الملائي عن أبي إسحاق عن عاصم بن حمزة عن علي بن أبي طالب قال: «إن أبواب الجنة هكذا بعضها فوق بعض، ثم قرأ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾ إذا هم عندها بشجرة في أصلها عينان تجريان، فيشربون من إحداهما فلا تترك في بطونهم قذىٰ ولا أذىٰ إلا رمته، ويغتسلون من الأخرىٰ فتجري عليهم نضرة النعيم، فلا تشعث رءوسهم، ولا تغير أبشارهم بعد هذا أبداً، ثم قرأ: ﴿ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ فيدخل الرجل وهو يعرف منزله، ويتلقاهم الولدان فيستبشرون برؤيتهم كما يستبشر الأهل بالحميم يقدم من الغيبة. فينطلقون إلىٰ أزواجهم فيخبرونهم بمعاينتهم فتقول: أنت رأيته؟ فيقوم إلىٰ الباب فيدخل إلىٰ بيته فيتكئ علىٰ سريره فينظر إلىٰ أساس بيته، فإذا هو قد أسس علىٰ اللؤلؤ، ثم ينظر في أخضر وأحمر وأصفر، ثم يرفع رأسه إلىٰ سماء بيته، فلولا أنه خلق له لالتمع بصره، فيقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»[1]. والله أعلم.

[2]قال تعالىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [الزمر: ٧٣]. والخزنة جمع خازن، مثل حفظة وحافظ، وهو المؤتمن علىٰ الشيء الذي قد استحفظه.

وروىٰ مسلم في صحيحه من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «آتىٰ باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»[3].

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٣٥-٣٦) والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة (٢/ ١٦٢ رقم ٥٤٢) وابن الجعد في مسنده (رقم ٢٥٦٩).
(٢) ٨١ حادي الأرواح.
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٩٧) وانظر: فتح الباري (١١/ ٤٣٦).

وقد تقدم حديث أبي هريرة المتفق عليه: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعاه خزنة الجنة كل خزنة باب أي فهلم» قال أبوبكر: يا رسول الله ذاك الذي لا توىٰ عليه، فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكون منهم» وفي لفظ: هل يدعىٰ أحد من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[١] لما سمت همة الصديق إلىٰ تكميل مراتب الإيمان.

[٢]قد تقدم قوله تعالىٰ: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ وقوال تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم: ٨٥] قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن عباد بن موسىٰ العكلي حدثنا يحيىٰ بن سليم الطائفي حدثنا إسماعيل بن عبدالله المكي حدثنا أبو عبدالله أنه سمع الضحاك بن مزاحم يحدث عن الحارث عن علي أنه سأل رسول الله ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ عن هذه الآية: ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴾ قال قلت: يا رسول الله ما الوفد إلا ركب؟ قال النبي ـ صلىٰ الله عليه وسلم ـ: «والذي نفسي بيده إنهم إذا خرجوا من قبورهم استقبلوا بنوق بيض لها أجنحة عليها رجال الذهب، شرك نعالهم نور يتلألأ، كل خطوة منها مثل مد البصر، وينتهون إلىٰ باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداهما جرت في وجوهم نضرة النعيم، وإذا توضئوا من الأخرىٰ لم تشعث أشعارهم أبداً، فيضربون الحلقة بالصفيحة فلو سمعت طنين الحلقة»[٣].

[٤]وقال عبد الله بن محمد البغوي: حدثنا علي، أنبأنا زهير، عن أبي إسحاق، عن

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٨٩٧) ومسلم (رقم ١٠٢٧) وانظر: فتح الباري (٤/ ١١٢).

(٢) ١٠٦ حادي الأرواح.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة (رقم ٧) وقال المنذري في الترغيب (٤/ ٢٧١-٢٧٢): رواه ابن أبي الدنيا في كتاب صفة الجنة عن الحارث وهو الأعور عن علي مرفوعاً، ورواه ابن أبي الدنيا أيضاً والبيهقي وغيرهما عن عاصم بن ضمرة عن علي موقوفاً عليه بنحوه، وهو أصح وأشهر.

(٤) ٢٦٥ روضة المحبين.

عاصم، عن علي ﷺ قال: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان، فعمدوا إلى إحداهما فكأنما أمروا به فشربوا منها فأذهب الله ما في بطونهم من قذى أو أذى أو بأس، ثم عمدوا إلى الأخرى، فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم، ولم تتغير أشعارهم بعدها أبداً، ولم تشعث رؤوسهم كأنما ادهنوا بالدهان، ثم انتهوا إلى الجنة فقالوا: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣]، ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم، كما يُطيف أهل الدنيا بالحميم يقدم عليهم من غيبته، فيقولون له: أبشر بما أعد الله ـ تعالى ـ لك من الكرامة، ثم ينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين، فيقول: جاء فلان باسمه الذي كان يدعى يه في الدنيا قال: أنت رأيته؟ قال: أنا رأيته وهو بأثرى فيستخف إحداهن الفرح حتى تقوم على أسكُفَّة بابها، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى [أساس] بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أخضر وأحمر وأصفر من [كل] لون، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه، فإذا مثل البرق، ولولا أن الله ﷻ قدره لألم أن يذهب بصره، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ثم اتكأوا، فقالوا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف: ٣٤]. ثم ينادي منادٍ يحيون فلا يموتون أبداً، ويقيمون فلا يظعنون أبداً، ويصحون فلا يمرضون أبداً[(١)].

وفي سنن ابن ماجه عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «ألا هل مشمر للجنة، فإن الجنة لا خطر لها، هي ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، ومقام في أبدٍ في دار سليمة، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية

---

(١) ٣٠٢ أخرجه الضياء في المختارة (٢/ ١٦٢ رقم ٥٤٢) وابن أبي شيبة (٧/ ٣٤-٣٥ رقم ٣٤٠٠٤) وابن الجعد في مسنده (رقم ٢٥٦٩).

بهية» قالوا: نعم يا رسول الله نحن المشمرون. لها قال: «قولوا إن شاء الله» فقال القوم: إن شاء الله [تعالى][(١)].

هذا ما يسر الله جمعه من تفسير سورة الزمر

والحمد لله رب العالمين

❁❁❁

---

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ٤٣٣٢) والضياء في المختارة (٤/ ١٣٢ رقم ١٣٤٣) وابن حبان (١٦/ ٣٨٩ رقم ٧٣٨١) والطبراني في الكبير (١/ ١٦٢ رقم ٣٨٨) وفي مسند الشاميين (٢/ ٣٢٢ رقم ١٤٢١) والبزار (٧/ ٤٣ رقم ٢٥٩١).

الفهرس

الصفحة الموضوع

سورة النور

٦ بحث في أنه سبحانه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه.
٧ بحث في أنه ليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من الزنا واللواط.
٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾.
٧ فصل في بيان أن الله قد حرم نكاح الزانية.
١٢ بحث في أن توبة القاذف إكذابه نفسه.
١٤ حكم رسول الله ﷺ في اللعان.
١٨ فصل فيما استفيد من حكم رسول الله ﷺ عدة أحكام.
٢٣ بحث في أنه قد جعل للقاذف إسقاط الحد باللعان في الزوجة دون الأجنبية.
٢٣ بحث في جعل الله سبحانه أيمان اللعان من جانب الزوج أولًا.
٢٤ بحث في أن نكول المرأة دون يمين الزوج ليس موجبًا للحد.
٢٦ بحث في قصة الإفك.
٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾.
٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾.
٣٠ فوائد غض البصر.
٣٣ زكاة القلب موقوفة على طهارته وذلك موقوف على اجتناب المحرمات: الزنا وغيره.
٣٤ فصل في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه.
٣٥ بحث هل يجوز تكرار النظر إلى امرأة لمن علق قلبه بها من أجل أن يسلوا عنها؟
٣٧ فصل في أن النظر أقرب الوسائل إلى المحرم لذا اقتضت الشريعة تحريمه.

الصفحة الموضــــوع
٣٩ فصل في أن غض البصر فيه عدة فوائد.
٤٠ فصل في أن تحريم النظر إلىٰ الحرة العجوز وإباحته إلىٰ الأمة الجميلة أن ذلك كذب علىٰ الشارع.
٤٠ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.
٤٢ بحث في التوبة وبيان ما تتضمنه وشروطها وحقيقتها.
٤٤ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾.
٤٠ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
٤٥ بحث في أن الله ﷻ سمىٰ نفسه نورًا وجعل كتابه نورًا ونبيه نورًا وحجابه نورًا.
٤٧ بحث هل رأىٰ رسول الله ﷺ ربه ليلة أسري به أم لا؟
٤٩ بحث في معنىٰ ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.
٥٠ بحث في أن الناس قسمان: أهل الهدىٰ والبصائر، وأهل الجهل والظلم.
٥٠ بحث في أن أهل الجهل والظلم قسمان أيضًا.
٥٣ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.
٥٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ ...﴾.
٥٥ فصل في الفرق بين الرجاء والتمني.
٥٥ فصل في أصحاب مثل الظلمات المتراكمة.
٥٩ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض﴾.
٦١ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾.
٦٢ بحث في أن التحقق بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علمًا وعملًا يتضمن الشفاء والفوز.

الصفحة الموضوع

٦٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾.

٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ الآية.

٦٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ ﴾ الآية.

٦٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ ﴾.

٦٧ بحث في الأدب مع رسول الله ﷺ.

٦٨ بحث في الأدب مع الخلق.

٦٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ ﴾.

سُورَةُ الفُرْقَانِ

٧١ بحث في البركة وبيا أنها نوعان وأقوال أهل العلم فيها.

٧٤ بحث في قوله: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ ﴾.

٧٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾.

٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

٨١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ ...﴾.

٨٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾.

٨٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً ﴾.

٨٥ بحث في أن الله يقطع يوم القيامة الأسباب والعلاقات التي كانت بين الخلق في الدنيا.

٨٦ بحث في قوله: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ﴾.

الصفحة الموضــــوع

٨٧ بحث في أن الضابط النافع في أمر الخلطة هو أن يخالطهم في الخير ويصبر على أذاهم.
٨٨ بحث في بيان كيف يُتَّخذ القرآن مهجورًا.
٨٩ بحث في كيفية التأمل في القرآن.
٨٩ بحث في أن أنفع شيء للعبد أن يتدبر القرآن ويعمل به.
٩١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا﴾.
٩١ بيان أن تيسر القرآن للذكر ينافي حمله على التأويل المخالف لحقيقته وظاهره.
٩٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ﴾.
٩٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾.
٩٥ فصل في هديه ﷺ في الجهاد والغزوات.
٩٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾.
١٠٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾.
١٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾.
١٠١ بحث في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾.
١٠١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.
١٠٢ بحث في حفظ الخطوات.
١٠٢ فصل في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه.
١٠٥ فصل في السر في نصب سلام الملائكة لإبراهيم ورفع سلام إبراهيم للملائكة.
١٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾.
١٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ﴾.
١٠٩ فصل في الفرق بين الاقتصاد والشح.

الصفحة الموضوع
١١٠ فصل في الفرق بين الاقتصاد والتقصير.
١١١ بحث في أصول المعاصي كلها كبارها وصغارها.
١١٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾.
١١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾.
١١٨ بحث في تبديل السيئات حسنات.
١٢٢ فصل في التوبة: مبدؤها ومنتهاها.
١٢٤ من علامات وموجبات التوبة الصحيحة.
١٢٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾.
١٢٦ بحث حول حضور أعياد المشركين.
١٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾.
١٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾.
١٢٩ فصل في الفرق بين حب الرياسة وحب الإمارة للدعوة إلى الله.
١٣٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾.

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

١٣٢ بحث في إنجاء أهل التوحيد وعقوبات أهل الشرك.
١٣٢ بحث في أن أصل الأعمال الدينية محبة الله ورسوله.
١٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾.
١٣٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴾.

الصفحة المـــوضـــوع

١٣٥ بحث في ثناء الله سبحانه على خليله إبراهيم بسلامة القلب.
١٣٦ بحث في سلامة القلب.
١٣٧ بحث في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.
١٣٨ فصل في القلب الميت.
١٣٩ فصل في القلب المريض.
١٤٠ بحث في بيان الشرك وأنه نوعان: أكبر وأصغر.
١٤١ بحث في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.
١٤١ فصل في بيان أن ثمرة الفكرة تحصل بثلاثة أشياء.
١٤٢ بحث في قصر الأمل.
١٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.
١٤٥ بحث في أحوال الناس والعالم عندما يعرضون عن تحكيم الكتاب والسنة.

سُورَةُ النَّمْلِ

١٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾.
١٤٧ بحث في أن صدور الخلق والأمر منه سبحانه عن حكمته وعلمه.
١٤٨ بحث في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾.
١٤٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾.
١٥٠ فصل في أن النمل أهدى الحيوانات وهدايتها من أعجب الأشياء.
١٥٤ فصل في أن الهدهد من أهدى الحيوانات بمواضع الماء تحت الأرض.
١٥٦ بحث في حال الهدهد مع نبي سليمان عليه السلام.
١٥٦ بحث في بيان أن من لوازم ربوبية الله تعالى إخراج الخبء من السماوات والأرض.
١٥٨ فصل في بيان أن سبب الخذلان عدم صلاحية المحل وعدم قبوله للنعمة.

الصفحة الموضوع
١٥٩ فصل في بيان أن من علامات السعادة والفلاح أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه.
١٦٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾.
١٦١ بحث في بيان الحكمة من اقتران تسبيح الله لنفسه وحمده لنفسه بسلامة عليهم.
١٦٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾.
١٦٤ بحث في أن الله تعالى يجمع بين التوكل وبين كل من العبادة والإيمان والإسلام والتوقي والهداية.
١٦٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾.

سُورَةُ القَصَصِ

١٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض﴾.
١٦٨ بحث في الجراد وأنه جند من جنود الله.
١٦٨ الحكمة في أنه سبحانه يسلط الضعيف على القوي لينتقم منه.
١٧٠ الحكمة في أنه سبحانه جعل الملوك والأمراء والولاة من جنس أعمال الرعية.
١٧١ الحكمة في المسخ
١٧٣ الحكمة في إرسال الرسل واحدًا بعد واحد ﷺ.
١٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾.
١٧٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا... ﴾.
١٧٥ العبر والحكم من قصة موسى عليه السلام مع فرعون.
١٧٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾.
١٧٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾.
١٧٩ بحث في بيان أن قبح الفعل ثابت للفعل في نفسه وأن الله لا يعذب عليه إلا بعد قيام الحجة بالرسالة.

الصفحة الموضوع

١٧٩ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

١٨٠ بحث في أن متبع الهوىٰ لابد أن يجد في نفسه ذلًّا.

١٨٢ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

١٨٥ بحث في أن الهداية بيد الله وليست بيد أحد.

١٨٦ بحث في بيان أن خلو القلب من هموم الدنيا ومتعلقاتها وتعلقه بالآخرة أول مراحل سعادته.

١٨٧ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ بتوسع.

١٩٥ بحث في خلق الرب تبارك وتعالىٰ بعض الجنان وغرسها بيده تفضيلًا لها علىٰ سائر الجنان.

١٩٦ بحث في حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار.

١٩٦ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ... ﴾.

١٩٨ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾.

١٩٩ بحث في ذم متمني الدنيا والغنىٰ والسعة فيها ومدح من أنكر عليهم وخالفهم.

٢٠٠ بحث في بيان أنواع النفوس.

٢٠٠ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾.

سُورَةُ العَنكَبُوتِ

٢٠٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾.

٢٠٦ بحث في بيان أن الألم لا محيص منه البتة.

٢٠٧ بحث في بيان أن الشوق يحمل المشتاق علىٰ الجد في السير إلىٰ محبوبه.

٢٠٨ بحث في بيان كمال العبودية والمحبة والطاعة تظهر عند ظهور الدواعي المخالفة للعبودية.

الصفحة الموضوع
٢٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍ﴾.
٢١٠ بحث في بيان أن أفضل العطاء وأجله هو الإيمان وجزاؤه الجنة ولا يتم ذلك إلا بالاختبار.
٢١١ بحث في إنكار الرب سبحانه على من لم يلتزم الإيمان ومتابعة الرسول خوف الفتنة والمحنة.
٢١٣ بحث في قوله: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.
٢١٤ صور من بعض ابتلاءات الرسل والأمم السابقين.
٢١٦ بحث في قوله: ﴿ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَ ﴾.
٢١٦ بحث في قوله تعالى: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثانًا مودة بينكم في الحياة الددنيا﴾.
٢١٧ بحث في بيان أن مودة أهل المعاصي والفسوق تنقلب عليهم يوم القيامة إلى عداوة وبغضاء.
٢١٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَ ﴾.
٢٢٠ بحث في حكمته تعالى في عقوبات الأمم الخالية وتنويعها عليهم بحسب تنوع جرائمهم.
٢٢٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ ﴾.
٢٢٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ﴾.
٢٢٤ الحكمة من ضرب الأمثال.
٢٢٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾.
٢٢٥ بحث في فضل الذكر ومنزلته.
٢٢٦ فصل في تفصيل منزلة الذكر ومكانته وفضله.

الصفحة الموضـــوع

٢٢٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.
٢٢٧ بحث في مدح أهل العلم والثناء عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم.
٢٢٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾.
٢٢٩ بحث في تقسيم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة أو شريعة وحقيقة وبيان بطلانه.
٢٣١ بحث في جواز العمل في السلطنة الشرعية بالسياسة.
٢٣٢ بحث في أنواع السياسة.
٢٣٤ بحث في بيان وجوب الإيمان بعموم الرسالة في شمولها على مصالح العباد الدينية والدنيوية.
٢٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾.
٢٣٧ بحث في بيان أن التوحيد هو مفزع أعدائه وأوليائه يلجأون إليه.
٢٣٨ بحث في بيان أن الهداية معلقة بالجهاد لا تنفك عنه.

سُورَةُ الرُّومِ

٢٤٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ ﴾.
٢٤٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾.
٢٤٣ بحث في سماع غناء أهل الجنة وأنهم في روضة يحبرون.
٢٤٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾.
٢٤٦ فصل في المحبة النافعة.
٢٤٦ بحث في قوله: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ ﴾.

الصفحة الموضوع
٢٤٩ بحث في ذكر الفطرة الأولى ومعناها واختلاف الناس في المراد بها.
٢٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ بتوسع.
٢٥٤ بحث في بيان منزلة التوبة وإنها كالمقدمة لمنزلة الإنابة.
٢٥٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.
٢٥٧ بحث في بيان أن الله أتقن كل شيء وأحسن خلقه ثم بما كسبت أيدي الناس أفسد الصالح.
٢٥٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾.
٢٦٠ فصل في بيان آثار الذنوب والمعاصي في الأرض.
٢٦٣ بحث في بيان أن الله استشهد بأهل العلم والإيمان يوم القيامة على بطلان قول الكفار.
٢٦٣ بحث في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ ﴾.
٢٦٤ بحث في قوله: ﴿ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾.

سُورَةُ لُقْمَانَ

٢٦٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.
٢٦٦ بحث في بيان أن لهو الحديث هو الغناء.
٢٧٢ بحث في بيان مكايد عدو الله ومصايده التي كاد بها قلوب الجاهلين والمبطلين.
٢٧٣ فصل في بيان تحريم رسول الله ﷺ الصريح لآلات اللهو والمعازف.
٢٧٤ بحث في بيان أن منزلة السماع من منازل إياك نعبد وإياك نستعين، بتوسع.
٢٨٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾.
٢٨١ بحث في قوله تعالى: ﴿ هَـٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾.

الصفحة الموضــوع
٢٨٢ بحث في الحكمة من خلق الأرض على هيئتها الحالية.
٢٨٢ بحث في أن الشأن هو الانشغال بطاعة الله لا بسماع الصوت الأحمق الفاجر.
٢٨٣ بحث في أن إنعام الرب على عبده فهو محض تفضله وإحسانه وامتنانه.
٢٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾.
٢٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.
٢٨٦ بحث في بيان أن الجهاد في سبيل الله المتولد عن أذى الناس حين دعوتهم فضله عظيم.
٢٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.
٢٨٧ بحث في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
٢٨٩ بحث في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾.

سُورَةُ السَّجْدَةِ

٢٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.
٢٩٢ بحث في الاستواء على العرش.
٢٩٣ بحث في إبطال قول الملاحدة وأهل البدع في الروح.
٢٩٤ بحث في أن الجنة فوق ما يخطر بالبال أو يدور في الخيال.
٢٩٥ بحث في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ...﴾.
٢٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾.
٢٩٨ بحث في بيان أن اليقين من منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
٢٩٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

الصفحة الموضوع

سُورَةُ الأَحْزَابِ

٣٠١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾.
٣٠٢ بحث في أن تسمية المولود حق للأب لا للأم.
٣٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾.
٣٠٤ بحث في أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين.
٣٠٥ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾.
٣٠٩ بيان بعض فضائل أم المؤمنين خديجة وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنهما.
٣١٠ بحث في بيان إزاغة القلوب والأبصار.
٣١١ بحث في الرجاء وبيان أنه حاد يحدو إلى الله والدار الآخرة.
٣١٤ كيفية معاملة الرسول ﷺ أهل المدينة عندما قدم إليها.
٣١٥ بحث في نقض العهد من قبل بني النضير وكيف فعل معهم النبي ﷺ.
٣١٦ بحث في بيان شدة عداوة بني قريظة لرسول الله ﷺ.
٢١٩ بحث في بيان حصار رسول الله ﷺ لبني قريظة.
٣٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴿ إِلَّا غُرُورًا ﴾.
٣٢٢ فصل في غزوة الخندق.
٣٢٧ فصل في قتل أبي رافع الذي كان يؤلب الأحزاب على رسول الله ﷺ.
٣٢٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ ﴾.
٣٢٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الآية.
٣٣٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾.
٣٣١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

الصفحة المــــوضـــوع
٣٣١ فصل في بيان أن حد الرقيق على النصف من حد الحر.
٣٣٣ بحث في بيان هل المؤاخذة على الذنب بالنسبة للجاهل والعالم سواء أم لا؟
٣٣٨ بحث في بيان بعض أمراض القلوب.
٣٤٠ بحث في أن الله أنزل على رسوله ﷺ الحكمة وهي السنة كما أنزل عليه القرآن.
٣٤١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ﴾.
٣٤٣ فصل في تحريم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص.
٣٤٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾.
٣٤٦ فصل في هديه ﷺ في علاج العشق.
٣٤٨ بحث في اسم النبي ﷺ وصفته.
٣٤٩ فصل في معنى اسم النبي ﷺ واشتقاقه.
٣٥٣ بحث في بيان أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته ﷺ.
٣٥٤ فصل في هديه ﷺ في الذكر.
٣٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾.
٣٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾.
٣٦٠ بيان معنى الصلاة على النبي ﷺ.
٣٦٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾.
٣٧٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ بتوسع.
٣٧٣ بحث في بيان معنى السلام المطلوب عند التحية.
٣٧٨ فصل في بيان الحكمة في تأكيد الأمر بالسلام على النبي ﷺ بالمصدر دون الصلاة عليه.
٣٧٨ الحكمة في تقديم السلام على النبي ﷺ في الصلاة قبل الصلاة عليه.

الصفحة الموضوع
٣٨١ الحكمة في كون السلام وقع بصيغة الخطاب والصلاة بصيغة الغيبة.
٣٨٢ الحكمة في أن الثناء على الله في التشهد بلفظ الغيبة والسلام على النبي ﷺ بلفظ الخطاب.
٣٨٤ السر في كون السلام في آخر الصلاة.
٣٨٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾.

سُورَةُ سَبَإٍ

٣٨٨ بحث في بيان الحكمة من تقديم الغفور على الرحيم ولماذا قدم هنا الرحيم على الغفور.
٣٨٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
٣٩٠ بحث في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ الآية.
٣٩١ بحث في تقديم السماء على الأرض في الذكر وتقديم الأرض عليها في سورة يونس.
٣٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾.
٣٩٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾.
٣٩٦ بحث في انقسام القضاء والحكم والإرادة والكتابة والأمر والإذن إلى كوني قدري وشرعي ديني.
٤٠٢ بحث في أن الأنبياء والرسل واتباعهم حظهم من هذه الأمور: الشرعي الديني، أما أعداء فهم واقفون مع الكوني القدري.
٤٠٣ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

الصفحة الـمـــوضـــوع
٤٠٤ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.
٤٠٥ بحث في أن الله سبحانه قطع كل الأسباب التي تعلق بها المشركون.
٤٠٧ بحث في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾.
٤٠٨ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.
٤٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ الآيات.
٤٠٩ بحث في كفر الأتباع والتفريق بين المقلد العاجز والمقلد المعرض.
٤١١ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ﴾.
٤١٢ بحث في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾.
٤١٣ بحث في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.
٤١٣ بحث في أن كمال السعادة في الدعوة لدين الله والصبر على ذلك.
٤١٤ بحث في قوله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾.

سُورَةُ فَاطِرٍ

٤١٦ بحث في أن الجمال الظاهر زينة وهي الزيادة التي في قوله: ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.
٤١٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾.
٤١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.
٤١٨ بحث في حصول عبوديات عظيمة وجليلة بسبب وجود إبليس ولولا وجوده لتعطلت.
٤١٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾.

الصفحة الموضوع

٤٢١ بحث في أن المعصية تورث الذل. والطاعة منشأ العزة.
٤٢١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ بتفصيل.
٤٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾.
٤٢٧ بحث في أن الخشية من الله لا تكون إلا بالعلم واليقين.
٤٢٥ فصل في إماتة قلوب الكافرين.
٤٣٢ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ ﴾ وأن التلاوة هي المتابعة.
٤٣٣ بحث في قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ الآية.
٤٣٤ النسا قسمان في سيرهم إلى الدار الآخرة: أشقياء وسعداء.
٤٣٦ بحث في قوله تعالى: ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾.
٤٣٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾.
٤٣٨ بحث في أن طريقة القرآن أنه يقرن بين أسماء الرجاء وأسماء المخافة.
٤٣٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾.
٤٣٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾.

سُورَةُ يسٓ

٤٤٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴾.
٤٤٣ فصل في الكلام على الأغلال وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾.
٤٤٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ﴾.
٤٤٦ فصل في اجتماع المشركين وعلى رأسهم إمامهم إبليس يتذاكرون أمر رسول الله ﷺ وأصحابه.
٤٤٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ ﴾.

الصفحة الموضوع

٤٤٩ بحث في محاجة صاحب يس لقومه وقوله: ﴿ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

٤٥٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾.

٤٥١ بحث في قوله تعالى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾.

٤٥١ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾.

٤٥٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴾.

٤٥٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾.

٤٥٦ فصل في إمكانية رؤية الله تعالى في الآخرة.

٤٥٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَـٰنَ ﴾.

٤٥٩ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَـٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾.

٤٦٠ بحث في تفسير لفظ اليد كما جاء في القرآن: مفردًا ومثنى ومجموعًا.

٤٦٢ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ﴾ الآيات.

٤٦٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ﴾.

٤٦٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

٤٦٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱلصَّـٰٓفَّـٰتِ صَفًّا ﴾.

٤٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝٤ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

٤٦٨ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾.

٤٦٨ فصل في أن الوصب هو ألم الحب ومرضه وقوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾.

٤٦٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴾.

الصفحة الموضوع

٤٦٩ بحث في زيارة أهل الجنة بعضهم بعضًا وقوله: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾.
٤٧٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي شجرة الزقوم.
٤٧١ بحث في أن الكافر مفتون بالمؤمن في الدنيا كما أن المؤمن مفتون بالكافر.
٤٧٣ فصل في أن الفتنة نوعان: فتنة الشبهات وفتنة الشهوات.
٤٧٤ بحث فيما يدفع به فتنة الشبهات وفتنة الشهوات.
٤٧٦ بحث في الصلاة على غير النبي ﷺ تسليمًا.
٤٧٦ بحث في أن الشرك والتعطيل مبنيان على سوء الظن بالله تعالى.
٤٧٧ بحث في أن الشرك ملزوم لتنقص الرب ﷻ.
٤٧٨ فصل في خلق أعمال العباد.
٤٨١ بحث في الرد على القدرية وإبطال مذهبهم وإثبات مذهب أهل الحق بتفصيل.
٤٨٦ فصل في ذكر إبراهيم خليل الرحمن ﷺ ومناقبه وفضائله بتوسع.
٤٩٤ فصل في الحكمة في ابتلاء الله لبعض عباده وصفوته وأنه يرفع منازلهم بذلك.
٤٩٦ بحث في مرتبة الخلة التي انفرد بها الخليلان: إبراهيم ومحمد ﷺ.
٤٩٨ بحث في أن الأعمال تشفع لصاحبها عند الله.
٤٩٩ بحث في شجرة اليقطين التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴾.
٥٠٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾.
٥٠٢ بحث في أن الله سبحانه يسمى الحجة سلطانًا.
٥٠٣ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾.
٥٠٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾.

الصفحة الموضوع
٥٠٦ فصل في حال كليم الرحمن موسى ﷺ وما آلت إليه محنته.
٥٠٧ فصل في حال النبي الخاتم ﷺ وسيرته مع قومه وصبره في الله وتحمله الأذى.

سُورَةُ صٓ

٥٠٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾.
٥١٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾.
٥١١ سر اقتران اسما: (الغفور) و(الودود).
٥١٢ بحث في أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله.
٥١٣ فصل في إنكاره سبحانه على من نسب إلى حكمته التسوية بين المختلفين.
٥١٤ بحث في بيان أن ما يأمر به النبي ﷺ دليل على نبوته.
٥١٧ بحث حول قوله تعالى: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾.
٥١٧ بحث في أنالله وصف خاصة أوليائه وأحبابه بالصبر.
٥١٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ ﴾.
٥٢٠ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾.
٥٢٠ بحث في أن كمال الإنسان مداره على أصلين: معرفة الحق من الباطل، وإيثاره عليه.
٥٢١ المناظرة في العلم نوعان: للتمرن والتدريب، ولنصرة الحق وكبت الباطل.
٥٢٢ أصل كل فتنة من تقديم الرأي على الشرع والهوى على العقل.
٥٢٣ فصل في أن بصائر الناس في النور تنقسم إلى ثلاثة أقسام.
٥٢٤ بحث حول قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾.
٥٢٥ من أعظم النعم أن يرفع الله قدر العبد ويعلي منزلته.
٥٢٦ بحث حول قوله تعالى: ﴿ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾.

الصفحة الموضوع
٥٣٠ بحث في تناول أهل الجنة الفاكهة قيامًا وقعودًا ومضطجعين.
٥٣٠ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ الآيات.
٥٣١ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾.
٥٣٢ فصل في أن ما يضاعف إلىٰ الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها، وأعيان منفصلة عنه.
٥٣٤ بحث في بيان أن إبليس كان سبب طرده ولعنه هو التأويل ومعارضة النص.
٥٣٦ بحث في أن معارضة الوحي ميراث عن الشيخ أبي مرة، يعني الشيطان.
٥٣٨ بحث في الرد علىٰ قياس إبليس الفاسد أن النار خير من التراب.

سُورَةُ الزُّمَرِ

٥٤٣ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾.
٥٤٤ بحث حول قوله تعالىٰ: ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾.
٥٤٥ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾.
٥٤٧ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ ﴾.
٥٤٨ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ الآية.
٥٥٠ بحث في حقيقة كلمة «سلم».
٥٥١ فصل في إطلاق اسم السلام علىٰ الله عز وجل وبيان أنه أولىٰ الأسماء به.
٥٥٤ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾.
٥٥٥ بحث في قوله تعالىٰ: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾.

الصفحة الـمــــوضـــــوع

٥٥٦ هل تتلاقى أرواح الأموات والأحياء أم لا؟
٥٥٨ بحث في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾ الآية.
٥٥٩ فصل: هل الروح تموت أم الموت للبدن فقط؟
٥٦٠ بحث بأي شيء تتميز الأرواح بعد مفارقتها للأبدان.
٥٦٣ بحث في وصف الله سبحانه للأرواح بالدخول والخروج والقبض والتوفي والرجوع والصعود.
٥٦٤ فصل في هل الروح تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا؟ بتوسع.
٥٦٨ بحث في تعلق الأرواح بالأبدان تعلقًا مختلف الأحكام.
٥٧٥ بحث في قوله تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ الآية.
٥٧٧ بحث عن الشفاعة.
٥٧٩ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾.
٥٨٠ بحث في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ﴾ الآية.
٥٨٤ بحث في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ ﴾.
٥٨٦ بحث في أن الطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة.
٥٨٩ في في الإنابة وقوله تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾.
٥٩١ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.
٥٩٧ بحث في قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.
٦٠٢ بحث في ذكر عدد أبواب الجنة.
٦٠٢ بحث في قوله تعالى عن النار: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾.

الصفحة الموضوع

٦٠٥ فصل في أن أبواب الجنة بعضها فوق بعض.
٦٠٦ بحث في ذكر بوابي الجنة وخنزتها واسم مقدمهم ورئيسهم.
٦٠٨ بحث في كيفية دخولهم الجنة وما يستقبلونه عند خدولها.

بهذا تم المجلد الخامس من كتاب الضوء المنير على التفسير

ويليه إن شاء الله المجلد السادس ويبدأ بسورة غافر

والحمد لله رب العالمين

